



أَمَارُ الْإِمَامِ أَبْنَ قَيْمِ الْجَوْزَيَّةِ وَمَا حَقَّهَا مِنْ أَعْمَالٍ  
(٣٢)



مَطَبُورَاتُ الْمَجْمَعِ

# شِفَاءُ الْعَلِيلِ فِي مَسَائِلِ الْقِضَاءِ وَالْقَدْرِ وَالْحِكْمَةِ وَالْتَّعْلِيلِ

سَلَفِ  
الْإِمَامِ أَبْيَ عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبْيَ بَكْرِ بْنِ أَيُوبِ أَبْنِ قَيْمِ الْجَوْزَيَّةِ

(٧٥١ - ٦٩١)

تَحْقِيقُ  
زَاهِرِ بْنِ سَالِمِ بِلْفَقِيَّهِ

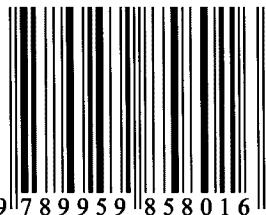
وَقَقَ المُتَهَجِّجِ الْمُغَدِّبِ الشَّيْخِ الْعَادِدِ  
بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْجَوْزَيِّ  
(رَجُلُ اللَّهِ الْمَرْءُ)

المُجَلدُ الْأَوَّلُ

دَارُ ابْنِ حَذْمٍ

كَارِي عَطَاءاتُ الْعَالَمِينَ

ISBN: 978-9959-858-01-6



حقوق الطبع والنشر محفوظة  
لدار عطاءات العلم للنشر

الطبعة الثانية

٢٠١٩ - ١٤٤١

الطبعة الأولى لدار ابن حزم

أحد مشاريع



هاتف: +٩٦٦١١٤٩١٦٥٣٣

فاكس: +٩٦٦١١٤٩١٦٣٧٨

info@ataat.com.sa

دار ابن حزم

بيروت - لبنان - ص.ب : 14/6366

هاتف وفاكس: (009611) 300227 - 701974

البريد الإلكتروني: ibnhazim@cyberia.net.lb

الموقع الإلكتروني: www.daribnhazm.com

رَاجِعَ هَذَا الْجُزْءُ

سَيِّدُكُمْ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التَّمِير

أَصْحَّ حِلَابَعَ عَنْهُمْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة التحقيق

الحمد لله حمدًا يليق بجلال وجهه وعظم سلطانه، وصلةً وسلامًا دائمين على سيد الخلاقين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

أما بعد، فهذه معلمـة كبرى في سادس أركان الإيمان، ومصنف حافل في أصل عظيم من أصول العقيدة: القضاء والقدر، جمع فيه مؤلفه شمس الدين ابن قيم الجوزية رحمـه الله ما تناولـ من مباحث الباب، فلم يعـنـ طالـبهـ، وحررـ ما أشـكـلـ مـنـ مـسـائـلـهـ، وجـلـىـ ماـ خـفـيـ مـنـ غـوـامـضـهـ، وأـجـابـ عـماـ أـوـرـدـ فـيـ مـنـ شـبـهـاتـ، واستـفـرـغـ فـيـ جـهـدـهـ بـمـاـ عـهـدـ عـنـهـ مـنـ التـحـقـيقـ وـطـولـ النـفـسـ فـيـ تـحـرـيرـ دـقـائقـ الـمـبـاحـثـ وـعـوـيـصـ الـمـسـائـلـ.

ليجيـءـ هـذـاـ السـفـرـ فـيـ ثـلـاثـيـنـ بـابـاـ، مشـتـملـةـ عـلـىـ فـصـولـ عـدـيدـةـ وـأـوـجـهـ وـمـقـدـمـاتـ، جـامـعـةـ بـيـنـ الـمـنـقـولـ وـالـمـعـقـولـ، وـالـبـحـثـ وـالـتـحـرـيرـ، وـالـمـنـاقـشـةـ وـالـتـرـجـيعـ، وـالـمـنـاظـرـةـ وـالـتـقـرـيرـ، مـشـحـوـنـاـ بـالـفـوـائـدـ الـعـزـيزـةـ، وـالـاسـتـطـرـادـاتـ وـالـنـفـيـسـةـ، عـلـىـ مـاـ جـرـتـ بـهـ عـادـتـهـ رـحـمـةـ اللهـ عـلـيـهـ فـيـ عـامـةـ توـالـيفـهـ.

حتـىـ أـضـحـىـ الـكـتـابـ مـنـ أـوـسـعـ الـمـصـنـفـاتـ فـيـ مـوـضـوـعـهـ. إـنـ لـمـ يـكـنـ أـوـسـعـهـاـ وـأـغـزـرـهـاـ مـادـةـ، وـأـجـمـعـهـاـ مـورـدـاـ، وـأـكـثـرـهـاـ نـفـعـاـ، ليـصـبـحـ مـرـجـعاـ أـصـيـلـاـ لـاـ غـنـىـ عـنـهـ لـلـبـاحـثـينـ، وـيـكـونـ شـفـاءـ لـلـعـلـيلـ، وـرـوـاءـ لـلـغـلـيلـ، وـبـلـاغـاـ لـأـهـلـ الـسـنـةـ وـالـدـلـلـ، وـفـيـ كـلـ خـيـرـ.

إنـ الـكـلامـ فـيـ مـسـائـلـ الـقـضـاءـ وـالـقـدـرـ مـاـ نـشـأـ مـبـكـراـ فـيـ التـارـيـخـ الـإـسـلـامـيـ أوـ اـخـرـ عـصـرـ الصـحـابـةـ رـضـوانـ اللهـ عـلـيـهـمـ، وـلـمـ يـزـلـ شـرـخـ الـخـلـافـ يـتـسـعـ فـيـ الـأـمـةـ شـيـئـاـ فـشـيـئـاـ، حتـىـ تـعـدـتـ فـيـ الـآـرـاءـ، وـاضـطـرـبـتـ الـأـفـهـامـ، وـزـلـتـ

الأقدام، ونبتت تلك الطوائف والفرق على اختلاف آرائها وتبان مشاربها، يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً.

وقد وضع عدد من الأئمة المتقدمين في هذه المسألة الكبيرة مصنفات مفردة، كالأمام عبد الله بن وهب، والإمام البخاري، والإمام الفريابي وغيرهم.

وفي هذا العصر تزداد أهمية التحرير والبيان في أبواب القضاء والقدر ومدافعة ما يشار من شباهات؛ إذ باتت مسائل الإرادة والاختيار والحكمة والتعليق ووقوع الشر في الكون بوابة للإلحاد، وذريعة للطعن في مقامات الربوبية، والتشكك في وجود الخالق العظيم سبحانه، ولم يزل الملاحدة والمرجفون يندنون حولها، ويقدرون بشبهاتهم بين ظهراي شباب المسلمين في وسائل التواصل الاجتماعي والفضاء الإلكتروني؛ ليُردوهم في دركات الشك ومهاوي الحيرة، والله المستعان<sup>(١)</sup>.

وهذه مباحث بين يدي الكتاب مشتملة على:

- توثيق نسبة الكتاب
- عنوان الكتاب
- تاريخ تأليف الكتاب
- موضوع الكتاب ومباحثه
- منهج المؤلف في الكتاب
- أهمية الكتاب

---

(١) ينظر: «مشكلة الشر» لسامي العامري (١٧-٢٠).

موارد الكتاب -

وصف مخطوطات الكتاب -

طبعات الكتاب -

منهج التحقيق -



## توثيق نسبة الكتاب

تظافرت عدة أمور في إثبات نسبة الكتاب إلى مؤلفه شمس الدين ابن قيم الجوزية، نوجزها في الآتي:

### \* الإحالة فيه إلى كتبه:

جرت عادة المؤلفين - ومنهم ابن القيم - بإحالة القارئ إلى مؤلفاتهم الأخرى طلباً للاختصار وعدم تكرار بعض المسائل والمناقشات؛ إذ كان المؤلف قد أشبعها بحثاً في الكتاب المحال إليه، أو كان العزم قد وقع على إفراد المسألة بمصنف مستقل، وقد أحال ابن القيم في هذا الكتاب إلى مؤلفين له صراحة هما: «مفتاح دار السعادة» و«أحكام أهل الملل»، واحتتملاً: «الصواعق المرسلة».

فمن الأول قوله في (٤١/١٥): «وقد بينا بطلانه من أكثر من خمسين وجهاً في كتاب «المفتاح». وهذه الأوجه وزيادة في كتابه «مفتاح دار السعادة» (٢/١٠١٧-١١٣٥).

ومنه أيضاً ما جاء في (٢/٤٤١): «وليس المقصود ذكر هذه المسائل وما يصير به الطفل مسلماً؛ فإننا قد استوفيناها في كتابنا في «أحكام أهل الملل»، وهو في المطبوع من «أحكام أهل الذمة» (٢/٨٩٣) وما بعدها.

ومن الضرب الثاني الإشارة إلى عزم المؤلف على إفراد كتاب يكشف فيه جنائية المتأولين على الدنيا والدين في (١/٢٧٣)، فهل يقصد بهذه الإحالة عزمه على إفراد هذا الباب بكتاب مستقل، أم هو وصف لما ضمّنه كتابه «الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة» (٢/٣٨٤-٤١٧)

من فصول في جنایة التأویل على أديان الرسل، وأن خراب العالم وفساد الدنيا والدين بسبب فتح باب التأویل؟

\* الإحالة في كتبه إليه:

أحال ابن القيم إلى «شفاء العليل» في كتابين له:

الأول: «إغاثة الهاهن» (٩٤ / ١)، وذلك بعد إشارته إلى طرف من مباحث الإرادة الدينية والكونية ولوازم كل منهما، حيث قال: «وقد أسبينا الكلام في ذلك في كتابنا الكبير في القدر»، ولا ريب أن هذا الوصف مطابق لما في الكتاب من إشارة لذريول هذه المسألة في الباب التاسع والعشرين (٣٧٧ / ٢) عدا ما نشره في أبواب أخرى.

والثاني: «الفوائد» (٣٦)، إذ قال بعد ذكره لشيء من مسائل تقدير الله تعالى المعاصي على بعض العباد وعدله فيهم: «وقد استوفينا الكلام في هذا في كتابنا الكبير في القضاء والقدر».

\* الإشارة إلى شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية:

أشار إليه في أكثر من خمسة عشر موضعًا، منها ما وقع في (٣٩٠ / ٢): «قال شيخنا أبو العباس ابن تيمية: أَحْمَدَ لَمْ يَذْكُرِ الْعَهْدَ الْأَوَّلَ، وَإِنَّمَا قَالَ: الْفَطْرَةَ الْأُولَى الَّتِي فُطِرَ النَّاسُ عَلَيْهَا».

وقوله في مسألة فناء النار (٣٢٧ / ٢): «وَكُنْتَ سَأَلْتُ عَنْهَا شِيخُ الْإِسْلَامِ - قدس الله روحه - فَقَالَ لِي: هَذِهِ مَسْأَلَةٌ عَظِيمَةٌ كَبِيرَةٌ، وَلَمْ يُحِبِّ فِيهَا بَشِّيْءٌ».

وقوله (٢٧٠ / ١): «قال شيخنا: ولما كان العبد في كل حال مفتقرًا إلى هذه الهدایة في جميع ما يأتيه ويندره من أمور قد أثارها على غير الهدایة، فهو

محاج إلى التوبية منها، انتهى كلامه» والنقل من «بيان الدليل على بطلان التحليل» لشيخ الإسلام (ص ١٥).

#### \* اشتراك بعض مباحثه مع كتبه الأخرى:

وهو كثير جداً في كتب ابن القيم، ومن أمثلته هنا: الاشتراك في مباحث حديث «كل مولود يولد على الفطرة» كما تراه في كتابنا هذا (٤١٣/٢)، و«أحكام أهل الذمة» (٨٩٣/٢) وما بعدها.

ومنه إيراده حكاية عن شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابنا هذا (١١/١)، وهي في «طريق الهجرتين» (١٨٥، ٦٥٨) و«مدارج السالكين» (٣٧٨/٣). ومثله ما وقع في قصة استيقاح النمل للكذب بما تراه في (٢٣٢/١) من الكتاب، والقصة بتمامها في «مفتاح دار السعادة» (٦٩٠/٢).

#### \* النقل عنه:

وهو عزيز بحسب ما وسعه بحثي، فمنه ما جاء عند ابن حجر (٨٥٢هـ) في «فتح الباري» (٣٤٩-٣٥٠) عند شرح حديث «كل مولود يولد على الفطرة»: «وقال ابن القيم: ليس المراد بقوله: «يولد على الفطرة» أنه خرج من بطنه أمه يعلم الدين؛ لأن الله يقول: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَ كُمْئُنَّ بُطْنَهُ مِنْ أَمْهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [الحل: ٧٨]، ولكن المراد أن فطرته مقتضية لمعرفة دين الإسلام ومحبته» الخ ما نقله بتصرف واختصار من «شفاء العليل» (٤٠٧/٢) فيما يظهر.

وأصرح منه ما أورده إبراهيم بن حسن الكوراني الشافعي (١١٠١هـ) في «شرح منظومة شيخه القشاشي» فيما نقله عنه السفاريني (١١٨٨هـ) في «الوامع

الأنوار» (١/٣١٥-٣١٩): «قال الكوراني: وهذا الكتاب الذي ذكر فيه [يعني الجويني] آخر قوله هو كتابه المترجم «بالنظامية» فيما وقفت على كلامه مقتولاً عنه بلفظه في كتاب «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» للعلامة شمس الدين بن القيم في الباب السابع عشر منه، ولفظه...».

ثم قال الكوراني: «ثم وقفنا على كتاب «شفاء العليل» لابن القيم المنقول فيه كلام إمام الحرمين في «النظامية» فأعجبه ذلك، وأمر بإلحاقه بأخر «اختصار الانتصار»».

وكلام الجويني المشار إليه في (٤٠١/١) من كتابنا هذا.

ثم كثر النقل عن الكتاب في القرن الرابع عشر الهجري كما هو مشاهد في مؤلفات محمود شكري الألوسي (١٣٤٢هـ)، وسليمان بن سحمان (١٣٤٩هـ)، ومحمد أنور الكشميري (١٣٥٢هـ)، ومحمد رشيد رضا (١٣٥٤هـ) وغيرهم.

#### \* عَدَّهُ ضِمنَ مَؤْلِفَاتِهِ عِنْدَ الْمُتَرَجِّمِينَ لَهُ:

نسبه إلى ابن حجر في «الدرر الكامنة» (٤٠٢/٣) باسم «القضاء والقدر»، ومثله الشوكاني في «البدر الطالع» (١٤٤/٢)، وصرّح باسمه الصربيح صاحب «كشف الظنون» (١٠٥١/٢).

#### \* التصريح بنسبة في الأصول الخطية:

جاءت هذه النسبة صريحة على غلاف النسخة العتيقة المحفوظة بجامع أبي العباس المرسي.

## عنوان الكتاب

درج ابن قيم الجوزية على تسمية كثير من مؤلفاته في مقدماتها بعنوانات مسجوعة مركبة، تنبئ عن موضوع الكتاب، وتفصح عن مضمونه، بما يقطع اجهادات النساخ وظنون الناشرين، وذلك في غالب مصنفاته.

كذلك صنع في هذا الكتاب، حيث قال في (١٤ / ١) من تقدمته: «وسميتُه: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل».

وكذا جاء العنوان واضحاً على غلاف مخطوطتي جامع المرسي وتركيا.

وذكره كذلك صاحب «كشف الظنون» (٢ / ١٠٥)، والكوراني كما تقدمت الإشارة إليه.

بينما أورده ابن حجر الشوكاني في ترجمة المؤلف بعنوان موضوعه «القضاء والقدر»<sup>(١)</sup>.



---

(١) ينظر: «ابن قيم الجوزية: حياته آثاره موارده» (٢٦٦).

## تاريخ تأليف الكتاب

لم يشر المؤلف إلى زمان تأليفه، ولم تسعفنا به الأصول الخطية، لكن ثمة علامات يُستأنس بها في ذلك.

ولعل أول إشارة يمكن أن تفيد في تاريخ تأليفه ما سطّره المؤلف في «تهدیب السنن» (٢٠٥/٣) - انتهى من تأليفه سنة ٧٣٢هـ - من عزمه على وضع مصنف في مسائل القدر، حيث قال: «وقد نظرت في أدلة إثبات القدر والرد على القدرية المجنوسية فإذا هي تقارب خمسين دليلاً، وإن قدر الله تعالى أفردت لها مصنفاً مستقلاً»، فيمكن أن يكون الكتاب الذي بين أيدينا هو المصنف المفرد المشار إليه.

فيفيد هذا النص أن تأليفه لهذا الكتاب بعد سنة ٧٣٢هـ وفيه - إن صح - دلالة على سبق اهتمامه بمسائل القضاء والقدر، وبكور نية التأليف فيها.

ومما يُستأنس به أيضاً أن «شفاء العليل» مسبوق بـ«مفتاح دار السعادة» و«أحكام أهل الملل»؛ إذ أحال المؤلف عليهما هنا كما سلف.

و«شفاء العليل» فيما يظهر ملحوق بـ«الصواعق المرسلة» و«إغاثة الهافن» - وأقدم نسخة كُتِبَت سنة ٧٣٨هـ) و«إغاثة الهافن» مؤلف بعد «الصواعق»<sup>(١)</sup> - و«الفوائد»، كما تقدم بيانه.

فعلى هذه التقديرات يكون تأليف «شفاء العليل» بين الأعوام (٧٣٣-٧٣٨هـ) ظناً، والعلم عند الله.

---

(١) انظر: مقدمة تحقيق «إغاثة الهافن» (١/٨، ١١).

## موضوع الكتاب ومباحثه

قصد المؤلف بكتابه – كما هو ظاهر من عنوانه – جَمْع ما تفرق من مسائل القضاء والقدر، وما اتصل بها من مباحث حكمة الباري وتعليق أفعاله سبحانه، وبيان المذهب الحق في كل ذلك.

فاستهلّ كتابه بخطبة أبان فيها عن موضع الإيمان بالقضاء والقدر من الدين، وخطورة الانحراف عنه، مع إلماحة إلى نشأة الكلام في القدر، ومذاهب الناس فيه، واتساع الخُلُف بينهم، بين غالٍ في النفي وزائِنٍ في الإثبات، خلا من اقتبس من مشكاة الوحين وسلك طريق الأصحاب، ومن صلح من أسلافهم.

ليعرض بعدها إلى بواعت التأليف في الباب، والضرورة التي أججاته إلى الخوض في هذا الميدان، في ثلاثةين باباً سرد عنواناتها تامة في هذه الخطبة.

وهذه الأبواب مختلفة في الطول والقصر، فبعضها لا يتجاوز الصفحتين كما تراه في الباب الخامس، وبعضها تربو على المائة كما في الباب الخامس عشر.

وقد خصص المؤلف الأبواب: الأولى، والثانية، والرابعة، والخامس، والسادسة؛ في ذكر أنواع التقدير الإلهي، مُفْرِداً كل نوع بباب مستقل، مستقصياً ما جاء في هذا التقدير من أحاديث مرفوعة وأثار موقوفة، تارة يسوقها بآسنادها من مصادرها، وأخرى دون إسناد، مع حرصه الشديد على تتبع الألفاظ وتحريرها وإزالة التعارض بينها، وتوضيح وجه الدلالة منها، وربما تكلّم في طرقها تصحيحاً وتضعيفاً.

وَقَامَ بَيْنَ ذَلِكَ يَافِرَادُ الْبَابِ الثَّالِثِ فِي ذَكْرِ مَرْوِيَاتِ الْمُحَاجَّةِ الْمُشْهُورَةِ فِي الْقَدْرِ بَيْنَ آدَمَ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَبِيَانِ اخْتِلَافِ النَّاسِ فِي فَهْمِ الْحَدِيثِ وَأُوْجَهِ تَفْسِيرِهِ، وَاسْتَطْرَادِي الدِّفَاعِ عَنْ صَاحِبِ «مَنَازِلِ السَّائِرِينَ» فِي كَلَامِ لِهِ مُوْهِمٍ لَبَاطِلٍ.

وَفِي الْبَابِ السَّابِعِ ناقَشَ الْمُصْنَفُ أَنَّ سَبَقَ الْمَقَادِيرِ بِالشَّقاوَةِ وَالسَّعَادَةِ لَا يَقْتَضِي تَرْكُ الْأَعْمَالِ، بَلْ يَقْتَضِي الاجْتِهَادَ وَالْحَرْصَ.

وَدارَ الْكَلَامُ فِي الْبَابِ الثَّامِنِ حَوْلَ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمُ» [الْأَنْبِيَاءُ: ٩٨]، وَفِي التَّاسِعِ حَوْلَ قَوْلِهِ سَبَحَانَهُ: «إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدْرٍ» [الْقَمَرُ: ٤٩]، وَمَا يَتَعْلَقُ بِهِمَا مِنْ فَوَائِدٍ وَاسْتِبْلَاطَاتٍ.

ثُمَّ أَعْدَادَ الْحَدِيثَ مَرَةً أُخْرَى فِي الْأَبْوَابِ: الْعَاشرُ، وَالْحَادِي عَشَرُ، وَالثَّانِي عَشَرُ، وَالثَّالِثُ عَشَرُ، فِي مَرَاتِبِ الْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ، وَاسْتِقْصَاءِ مَا جَاءَ فِيهَا مِنْ حَجْجَ نَقْلِيةٍ – لَمْ يَسْبُقْ لَهُ إِيْرَادَهَا فِيمَا تَقْدِمُ مِنْ أَبْوَابٍ – وَبِرَاهِينِ عَقْلِيةٍ، وَأُرْخَى لِلْقَلْمَنْ العَنَانَ فِي الْبَحْثِ وَالْمَنَاقِشَةِ.

فَفِي الْعَاشرِ بَسْطَ النَّقَاشَ فِي الْمَرْتَبَةِ الْأُولَى: عِلْمُ الرَّبِّ سَبَحَانَهُ بِالْأَشْيَاءِ قَبْلَ كُونَهَا، وَالْمَرْوِيَاتِ فِي ذَلِكَ، وَلَمْ يَخْلُ مِنْ اسْتَطْرَادِ فِي ردِّ بَعْضِ شَبَهِ الْقَدْرِيَّةِ، وَالْحَدِيثِ عَنْ حِكْمَةِ اللَّهِ سَبَحَانَهُ وَمَظَاهِرِ لَطْفِهِ وَفَوَائِدِ وَثَمَراتِ ابْتِلَائِهِ أَحْبَاءَهُ.

وَفِي الْبَابِ الَّذِي يَلِيهِ سَاقَ بَعْضَ مَا فَاتَهُ مِنْ نَصْوُصِ الْقُرْآنِ وَالسَّنَةِ الصَّحِيحَةِ الصَّرِيقَةِ فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ وَهِيَ مَرْتَبَةُ الْكِتَابَةِ.

وأما الباب الثاني عشر في المرتبة الثالثة من مراتب القضاء والقدر - وهي مرتبة المشيئة والإرادة - فقد حشد فيه رحمة الله عليه ما أمكنه من الآيات والأحاديث الدالة على هذه المرتبة بأصنافها وألفاظها، ثم عقد فصلاً بحث فيه علاقة المشيئة والإرادة بمحبة الله وأوامره.

وختم تلك المراتب في الباب الثالث عشر بذكر مرتبة خلق الله سبحانه الأعمال وتكوينه وإيجاده لها، وأطال النفس في تفتييد بعض أصول الأشاعرة وغيرهم في مسائل الجبر وتأثير القدرة وفروعها، والخلق والاختراع وذيلها، وبيان هدي القرآن والستة فيها، وإيضاح سبيل المؤمنين، وقدره المقام للغوص في أسرار سورة الفاتحة المتعلقة بهذه المسائل العقدية.

ثم استكمل في الباب الرابع عشر مباحث الهدى والضلال ومراتبهما، وهذا الباب وصفه المصطف بقوله: «هو قلب أبواب القدر ومسائله»، وعرض فيه مراتب الهدى والضلال في القرآن، كل مرتبة منها في فصل مستقل أشبع فيه الحديث حولها، واستطرد طويلاً في مرتبة التقدير والهداية بذكر نماذج من هداية الله تعالى لبعض المخلوقات كالنحلة والنملة والهدى وغيرها، ثم استطرد مرة أخرى في المرتبة الثالثة من الهداية: هداية التوفيق والإلهام في توضيح جنائية التأويل الفاسد على نصوص الوحيين لدى القدرة والجربية.

وجمع المؤلف في الباب الخامس عشر الآيات الوارددة في الطبع والختم والقفل ونحوها على وجه التفصيل، ثم ذكر أوجه ضلال القدرة والجربية في تحريف هذه الآيات، وأطال النفس في الرد عليها آية آية، وهذا من أطول أبواب الكتاب.

وفي الباب السادس عشر استقصى ما جاء في السنة النبوية من تفرد الرب تعالى بخلق أعمال العباد، فجمع أحاديث الباب وتكلم عليها وعلى معانيها، ثم عرض للكلام على التوبية والاستغفار، وفقر العباد إلى الجبار.

ومع أن المؤلف ناقش طرفاً من مذهب الأشاعرة في الكسب والجبر ضمن مباحث الباب الثالث عشر عَرَضاً؛ إلا أنه أعاد وأفرد هذه المباحث ومتعلقاتها في البابين: السابع عشر والثامن عشر بمزيد عناء وتفصيل، ذكر خلاله ما وقع بين الأشاعرة من خلاف واضطراب في مسائل القدر، ونقل فيه عن كبار محققيهم، ثم ناقش مفردات الباب كلمة كملة: فَعَلْ وَأَفْعَلْ، والفعل والانفعال، وبين ضلال الطائفتين: القدرية والجبرية، وختم الباب باستطراد في مسألة طلاق السكران والغضبان.

ثم ساق المصنف في البابين: التاسع عشر والعشرين مناظرة مفترضة في مهمات مسائل القدر بين جبرٍ وسُنْنَي في الباب الأول منها، وفي الثاني بين قدرٍ وسُنْنَي ناقش فيها أنواع التعطيل وآثاره، ومباحث التسلسل وأنواعه ولوازمه، وأعاد البحث مع القدرية والجبرية في مسائل المشيئة والإرادة والأسباب والحكمة والتعليق.

وفي الباب الحادي والعشرين عرض للعلاقة بين القدر ووقوع الشر في الكون، وأجاب بما أشكل ودقّ من أسئلة الباب، بعد أن أصل القواعد، وشيد أركان مذهب أهل السنة والجماعة في الحكمة والتعليق.

ولم يكتف ابن قيم الجوزية رحمه الله بما سلف في هذا المبحث –أعني الحكمة والتعليق– بل عقد بابين كاملين بعد ذلك من أجلهما، استوعب في أحدهما نصوص الوحيين في اثنين وعشرين نوعاً، كل نوع في فصل مستقل،

وخصص الآخر لاستيفاء شبه النافين، وذكر الأجوية عنها في عدة فصول وعشرات الأوجه، وحسبك أنه أجاب عن الحكمة في خلق الكفر والفسق ونحوها من الشرور في أربعين وجهاً، ضمن أحدهما ما في الصلاة من حكم العبودية ومنازلها، وأورد في آخر شيئاً من أسرار الكون وغايات خلقه في المجرات والأفلاك، وعقد فصلاً مطولاً في المسألة الشهيرة: فناء الجنة والنار.

وهذا الباب الثالث والعشرون يعد أطول أبواب الكتاب، وقد استغرق نحواً من مائة وثمانين صفحة من المطبوع.

وفي الباب الرابع والعشرين - وهو من أوجز الأبواب - بحث معنى قول السلف: «من أصول الإيمان: الإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومره»، وجُلّ مسائله مما تقدمت مناقشته في الباب السابق.

و قريب منه في الإيجاز الباب الذي يليه: في امتناع إطلاق القول نفياً وإثباتاً: «إنَّ رَبَّنَا مُرِيدٌ لِلشَّرِّ وَفَاعِلٌ لِهِ»، حيث أعاد المؤلف كثيراً مما تقدم بسطه في الكتاب، كالكلام على المحبة والإرادة وأنواعهما.

وكذلك أوجز الحديث في البابين السادس والعشرين والسابع والعشرين، فشرح في الأول منها قوله عليه السلام: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك»، وفي الثاني قوله عليه السلام: «ماضٍ في حكمك، عدلٌ في قضاوك»، وذكر ما تضمنه كل منها من قواعد وفوائد ولطائف.

أما البابان: الثامن والعشرون والتاسع والعشرون فقد عرض فيهما المصنف أحكام الرضا بالقضاء، واختلاف الناس في ذلك، وتحقيق القول فيه، وانقسام القضاء والحكم ونحوهما إلى كوفي وديني، دون إسهاب.

ثم كانت خاتمة أبواب الكتاب الثلاثين بالحديث عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها، والخلاف في المراد بها، وشرح حديث: «كل مولود يولد على الفطرة» وتتبع ألفاظه بتوسيع.



## منهج المؤلف في الكتاب

ثمة معالم رئيسة تشتراك فيها سائر مصنفات ابن قيم الجوزية رحمه الله، وسمات متشابهة تتقطمها في عقد تأليفي واحد، لا تكاد تخطتها عين المطالع، وهذا الكتاب له منها نصيب وافر، يتجلّى في عامة أبوابه وطريقة سياقه، بناءً ومحتوئ وأسلوبها في العرض والصياغة، سنشير إلى بعضها في عجالته.

فمن تلك السمات التكوينية: تقسيمه الكتاب إلى أبواب، لكل باب مقصد مستقل وعنوان يضم مسائل من جنس واحد في عموم مباحثه، وربما دعته الحاجة إلى إبراز بعض المباحث داخل الباب بكلمة «فصل»، إما لأهمية المبحث، أو طوله، أو انفصاله عما قبله من حيث الفكرة، وليس هذا التقسيم بمطرد.

وغالبًا ما يسوق الأجوية على الشبهات والاعتراضات على هيئة أوجه متسلسلة الأرقام.

ومن أظهر سمات المصنف: انتلاقه في تقرير المسائل ومواطنه الاستدلال من نصوص القرآن والسنة الصحيحة، فلا يكاد يخلو مبحث إلا وفيه احتجاج بأية أو حديث، وكثيراً ما يحشد الآيات المتماثلة في موضع واحد، ويتبع ألفاظ الرواية حرفاً حرفاً، وقد يسوق الطرق ويرفع الأسانيد، مع الكلام عليها؛ إذ شرط على نفسه أن لا يستدل إلا بما ثبت.

ويتصل بالأمر حرصه على تعضيد نصوص الوهابيين بفهم السلف الصالح عليهم رحمة الله لهذه النصوص، وتعد كتبه مظنة لأقوال الصحابة في المسائل التي بسط القول في بحثها.

ومن سمات منهجه في هذا الكتاب ونظائره: استناده في حكاية أقوال الفرق وأرباب الطوائف على أصولهم المعتمدة مباشرة، قطعاً للدعوى التحريف والتصرّف في نصوص المخالفين، وكذلك الشأن في الإفادة من كتب الكلام دون واسطة في مواضع الحجاج واللجاج، وسيأتي تفصيل بعضه عند الحديث عن موارد الكتاب.

ومما يحسن ذكره هنا مقدرة المؤلف على توظيف الخلاف داخل المذهب الواحد، وإظهار اضطراب أصحابه، وعجز أتباعه؛ لبيان عواره وانحرافه، ويضرب حجّتهم بحجّهم، ويبطل كلام المتكلمين بكلام المتكلمين.

ومن تلك المعالم البارزة: مراعاته لجنس الدليل في مقام الاحتجاج، ففي تأصيل القواعد يصدر عن الوحين، وفي مواطن الجدال يقارع الحجة العقلية بمثلها، ويدفع الشبهة اللغظية بالتأثير من كلام الفصحاء وقريض الشعراء، وهكذا دواليك.

أما الإفادة من كتب شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية والاقتباس منها والاتّكاء عليها في المهمات والمعضلات العلمية فكثير، كما هو معهود عنه في سائر كتبه.

وربما استعان المؤلف في تقرير بعض المباحث والغوص في أعماقها والكشف عن مكنوناتها بأسلوب المناظرة، وهي طريق سلكها المصنف في بعض كتبه، فمنه ما في «أعلام الموقعين» (٤٧٠ / ٣) حيث عقد مجلس مناظرة بين مقلّد وصاحب حجّة، وفي «روضة المحبين» (١٦٧) أفرد باباً في مناظرة بين القلب والعين ولو لم كل منهما صاحبه والحكم بينهما، أما في

كتابنا هذا فقد أفرد بابين للمناظرة، أحدهما بين جُبْري وسُنْيَي، والآخر بين قَدَّري وسُنْيَي.

ثم إن المصنف على ما جرت به عادته قد يستطرد في فروع بعض المباحث وذيلها لأغراض مختلفة، كزيادة في التقرير، أو توسيع في التمثيل، ونحو ذلك.

وأقرب من هذه السمة في صناعة التأليف لدى ابن قيم الجوزية رحمة الله عليه حرصه الشديد على الإحاطة بفرع المسائل، وعنائه البالغة باستيعاب النصوص والأقوال، وإطالة النفس في استقاد الأوجه، وتشقيق المجملات، وتفتيق الأجوية، وتفتيت الشبهات، ولذا وقع التكرار في معالجة بعض مسائل الكتاب.

وهذه السمة الموسوعية قد ألمح إليها ابن حجر في «الدرر الكامنة» (٤٠٢/٣) بقوله: «وكل تصانيفه مرغوب فيها بين الطوائف، وهو طويل النفس فيها، يتعانى الإيضاح جهده فيسبّب جداً».

ولأن مقام الربوبية عظيم، والمتجرّئون في الكلام عليه كثير، والمتّقّمون في مسائله قد يغفلون عنّمن يتحدثون، فربما استطالوا في التعبير، فاقترضوا عليه الواجبات واللوازم والممتنعات، وأساوا الأدب مع الجبار القدير جل جلاله= من هنا ظهرت عنایة المصنف رحمه الله في عدة مواضع بالذكر بعظمته صاحب المقام، واستحضار قدسيته وجلاله، والالتفات إلى تعظيمه في النفوس، تبارك اسمه، وتقدّست أسماؤه.



## أهمية الكتاب

يستمد هذا الكتاب أهميته من جملة أمور، منها:

ما يتعلّق بخطورة موضوعه: القضاء والقدر، وموضعيه من أركان الدين، واتصال مباحثه بالحديث عن أفعال الرب جل شأنه، فضلاً عما أدخله عليه المتكلمون والمشاؤون من دقائق علم المنطق والكلام، ومحارات العقول، مع شدة الحاجة إلى بيان الحق فيها، وتزييف الباطل، وهو ما عبر عنه المؤلف في خطبة الكتاب: «ولما كانت معرفة الصواب في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل واقعةً في مرتبة الحاجة، بل في مرتبة الضرورة؛ اجتهدتُ في جمع هذا الكتاب وتهذيبه، وتحريره وتقريره، فجاء فرداً في معناه، بدليعاً في مغزاها».

فإذا أضيف إلى ذلك قلة مصنفات أهل السنة والجماعة المفردة الجائحة على هذا الطراز، الجامع بين الرواية والدرایة، الحاوي للمنقول والمعقول= علت رتبة «الشفاء»، وتجلّت منزلته بين أضرابه، كـ«القدر» لابن وهب (١٩٧هـ)، وأبي داود (٢٧٥هـ)، والفریابی (٣١٠هـ)، والبیهقی (٤٥٨هـ)، وغيره؛ إذ عامتها من كتب الرواية<sup>(١)</sup>.

وهو مع هذه الخصيصة من أبسط ما دون في بابه، وأغزره مادة، وأعزه فائدة، وأكثره تنوعاً في أساليب العرض والمعالجة والرد على الشبهات، بما لا يكاد يوجد إلا فيه. وقد قصد المؤلف الاستيعاب ما وسعه ذلك، كما

---

(١) ينظر في تواليف الباب المفردة: «معجم الموضوعات المطروقة في التأليف الإسلامي» للحجي (١٥٦٨-١٥٦٦).

سلف بيانه عند الحديث عن منهج الكتاب.

أشار إلى ذلك حاجي خليفة في «كشف الظنون» (١٠٥١/٢) بقوله:  
«بسط الكلام فيه كل البسط، وأطال كما هو دأبه».

وقال محمد رشيد رضا «تفسير المنار» (٨/٥٤) في أثناء مناقشته لمذاهب الناس في القدر: «وأكبر أنصار مذهب السلف في القرون الوسطى وأقواهم حجة شيخ الإسلام أحمد تقي الدين ابن تيمية وشمس الدين محمد ابن قيم الجوزية، ومن أوسع كتب الأخير في هذا الموضوع الذي يخوض في أعضل مسائله كتاب «مفتاح دار السعادة» وكتاب «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل»».

وهذا الأمر أكّده المصنف عند إحالته لكتاب في «الفوائد» (٣٦) بوصفه: «وقد استوفينا الكلام في هذا في كتابنا الكبير في القضاء والقدر».

وحقّ لصاحب هذه الموسوعة العقدية أن يفخر بها في دبياجة الكتاب: «في أيّها المتأمل له، الواقع عليه، لك غُنمه وعلى مؤلّفه غُرمه، ولك فائدته وعلىه عائذته، فلا تتعجل بإنكار ما لم يتقدم لك أسباب معرفته، ولا يحملنك شنآن مؤلفه وأصحابه على أن تُحرِّم ما فيه من الفوائد التي لعلك لا تظفر بها في كتاب، ولعل أكثر من تعظمها ماتوا بحسرتها، ولم يصلوا إلى معرفتها، والله يقسم فضله بين خلقه بعلمه وحكمته، وهو العليم الحكيم، والفضل بيد الله يؤتّيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم».



## موارد الكتاب

من العسير في كتاب لمصنف في القرن الثامن تعين جميع موارده، وما سيذكر هنا لا يمثل جميع موارد المؤلف في كتابه.

والسمة الظاهرة في سائر مصنفات ابن قيم الجوزية وفي كتابنا هي كثرة الموارد وتنوعها في أصناف العلوم، وعلوّها وأصالتها في أبوابها.

ثم إن رحمة الله عليه تارة ينقل مباشرة من المصدر، وأخرى ينقل بواسطة، يظهر هذا عند مقارنة الاقتباسات بمصادرها الأصلية والوسطة. وربما يسمى الكتاب عند النقل، أو يكتفي باسم مؤلفه، أو يقتبس دون عزو، وقد يكتفي حيناً بالعزو في موضع واحد عند تعدده.

وفيمَا يأتي عرض مجلمل لأبرز تلك الموارد بحسب مجئها في كل فن، وتمامه في فهرست المصنفات والأعلام بملحق الكتاب:

تقدمت الإشارة إلى اهتمام المؤلف بحشد الآيات القرآنية في مواطن الاستدلال وتأصيل القواعد، وكثيراً ما يتبع تلك الآيات باقتباسات من تفسير الصحابة فمن بعدهم ومن بيان أهل اللسان؛ تعضيّداً لاستدلاله، ومورده الرئيس في علم التفسير هو كتاب «التفسير البسيط» لأبي الحسن الواحدي، ومع أن المصنف لم يصرّح باسم مؤلفه إلا مرتين فقط إلا أن مقابلة النقول المقتبسة وحكایة الأقوال، بل ومتابعته للواحدي في سياق الشواهد بحروفها تؤكّد الأمر دون شك.

ولعل النقل من تفاسير مقاتل ومجاهد و«معاني القرآن» للفراء وابن

تُقْيِّيَةً في «تفسير الغريب القرآن» و«تهذيب اللغة» للأزهري ومن أبي علي الفارسي؛ كلها بواسطة الواحدي.

ويعد كتاباً «معاني القرآن» للزجاج و«تفسير الطبرى» من مصادره الرئيسية التي أكثر عنها مصرّحاً باسمِي مؤلفيها.

ومن موارد التفسير التي ذكر أصحابها عند الاقتباس: «التحصيل لفوائد كتاب التفصيل» للمهدوى، و«الكشف والبيان» للشعلبي، و«معالم التنزيل» للبغوى، و«الكشاف» للزمخشري، و«زاد المسير» لابن الجوزي.

كما أن المصنف اقتبس كثيراً في بيان المعانى وشرح الألفاظ من «الصحاح» للجوهرى، تارة يسمى الكتاب وأخرى ينسبه إلى قائله.

وفي باب الرواية وسوق المرويات بأسانيدها وألفاظها عند الحاجة اعتمد المؤلف على أمات كتب السنة المشهورة «مسند أحمد» و«إسحاق» والسنن الأربعـــ وخاصة «الكبرى» للنسائيـــ وغيرها من دواوين الإسلام.

غير أنه في الأبواب الخمسة الأولى استند كثيراً على كتابي «القدر» لابن وهب و«القدر» لأبي داود السجستانيـــ وهذا الأخير لم يصل إليناـــ، و«القدر» و«الأسماء والصفات» كلاهما للبيهقيـــ، وساق بعض المرويات بأسانيدها من كتاب لمحمد بن نصر المروزىـــ، يظهر أنه كتاب خاص في القدر لم يصل إليناـــ، ونقل عدداً من الآثار من «تفسير ابن أبي حاتم» مصراًـــه باسمهـــ.

وفي شروح السنة ومعانى الحديث استند على كتابي «الاستذكار» و«التمهيد» لابن عبد البرـــ، مصدراًـــ للنقل بقوله: «قال أبو عمر».

على أنه ربما حكى أقوال أبي عمر وتحrirاته بواسطة «درء التعارض»، كما صنع ذلك في عدة مواضع أثناء بحثه لحديث «كل مولود يولد على الفطرة» في الباب الثالثين (٤٠٤ / ٢) وما بعدها، وقد نبهت عليها في محالها. وحين استطرد في بيان مظاهر هداية الحيوانات (١ / ٢٢٢) اقتبس الكثير من «الحيوان» للجاحظ مصرحاً باسمه في موضوعين، ويظهر أن أكثر مباحث الباب مقتبس منه.

ومثل ذلك وقع عند ذكر ما في الكون وأجرامه من أسرار وغایيات دالة على وجود الصانع، فقد أفاد فيما يظهر من «الدلائل والاعتبار» المنسوب للجاحظ، بيد أنه لم يسمّه.

أما موارده التي صرّح بها في علم الكلام - ومذهب الأشاعرة خصوصاً - ففي مقدمتها مؤلفات الرazi «المباحث المشرقية» و «الأربعين»، إضافة إلى «مقالات الإسلاميين» للأشعري، وتجريدها لابن فورك، و «النظمية» للجويني، و «شرح الإرشاد» للأنصاري وغيرها.

وهنالك عدة مواضع في تعريف «الكسب» وأقوال الناس فيه لم يفصّح فيها عن مورده، ويفغلب على الظن أنها من «نهاية الإقدام» للشهرستاني، و «المطالب العالية» للرازي.

وليس بغرير على ابن قيم الجوزية أن يكون معتمده في مواطن عديدة على مصنفات شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله عليهما إفادة واقتباساً، وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه<sup>(١)</sup>.

---

(١) «الدرر الكامنة» (٣ / ٤٠١).

وأكثر كتب شيخه التي ظهر لي اعتماده عليها هنا «درء تعارض العقل والنقل»، كما تراه في شرح حديث «فحج آدم موسى»، وحديث «كل مولود يولد على الفطرة» وغيرها، ونقل مباحث من رسالة «الرد على من قال بفناء الجنة والنار»، وفي بعض هذه الموضع جاء التصريح بنسبتها إلى شيخه بقوله: «قال شيخنا» ونحو ذلك.

وتبقى موضع استفادة أخرى مبسوطة في ثانيا الكتاب لم يعزها المؤلف يظهر أنها مستفادة من كتب شيخ الإسلام، كـ«منهاج السنة» في (٢/٧٠)، وفي (٢/٣٣) من «فصل في قوله تعالى: {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ}» ضمن «مجموع الفتاوى» (١٤/٢٤٦ - ٢٨١)، وغيرها مما أمكن الوقوف عليه والتنبيه في حواشي الكتاب، والله أعلم.



## وصف مخطوطات الكتاب

للكتاب خمس نسخ خطية في مكتبات العالم بحسب ما بلغه علمنا، يسرّ الله تعالى الحصول على صور ثلاثة منها، وهي الثلاث الأولى الآتى وصفها، وبقيت نسختان لم تتمكن من الحصول عليهما؛ لفقدان أصولهما من المكتبات التي تحفظ بهما، وسنصفهما إجمالاً بالاعتماد على من وقف عليهمـا.

### النسخة الأولى: نسخة جامع أبي العباس المرسي «م»

وهي محفوظة في مكتبة الجامع بالإسكندرية (المسمّاة بالمكتبة المركزية للمخطوطات الإسلامية بوزارة الأوقاف المصرية) برقم (عام: ٣٦١٤ - خاص: ٣١٧)، عدد أوراقها (٢٦١)<sup>(١)</sup>، ومسطّرتها (٢٣) سطراً.

والنسخة مخرومة الآخر، سقط منها نحو (٨٠) ورقة من المطبوع، تمثل جل الباب الثلاثين مع الخاتمة، كما فقدت من مصوّرتها الملوّنة التي بين يدي الأوراق (٧٩، ١١٧) بتقييم المفهرس، وبها عدة بياضات يسيرة في أماكن متفرقة.

يطالعنا على الغلاف اسم الكتاب وأسم مؤلفه بالمداد الأحمر، وتحته وقية غير مقرودة بالمداد الأسود، دون ذلك بأسفل الصفحة ختم وزارة الأوقاف المصرية.

---

(١) وقع في بطاقة فهرسة الكتاب: (٢٥٠) ورقة، وهو خطأ، منشئه حدوث خلل في العدد ابتداء من الورقة (٩٨) حتى آخر الكتاب.

استخدم الناشر المداد الأسود في متن الكتاب، والأحمر في عنوانين الأبواب والفصول ونحوها، خطها معتمد واضح في عامتها، يغلب عليها الإهمال، التزم ناسخها تدوين التعقية، وتظهر فيها علامات المقابلة والتصحيح، ومع ذلك لم تسلم من الوهم والسقط.

وقد عاثت الرطوبة والأرضة فيها فساداً، فأحدثت خروماً كثيرة متفرقة متفاوتة المقدار، وربما ذهبت بثلث الورقة، كما تراه في الألواح (٦٧، ٦٨، ٩٥-٩٩).<sup>(١)</sup>

ولا نعلم عن تاريخ نسخها ولا اسم ناسخها شيئاً؛ لخرم آخرها كما تقدم، وإن كان مظهرها وخطها يشير إلى أنها نسخة قديمة قريبة العهد من مؤلف الكتاب.

كما توجد عبارات متفرقة بخط الناشر يظهر من خلالها أنها منقوله من أصل المصنف، أو من نسخة منقوله منه، كقوله في طرة (٢٢١/ب): «في الأصل المصنف بياض بعد: لا ثاب ولا تعاقب»، وفي (٢٤١/أ): «في الأصل بياض».

وفي الحواشى تعليقات نادرة بخطوط مختلفة بعضها استدراكات وتعقيبات ولطائف أثبتتُ النافع منها، وبعضها شتائم وردود من بعض مطالعي الكتاب من الأشاعرة، ومناقشات للمصنف في مسائل الكسب أغفلتها كاملة،

---

(١) يشار إلى أن مجاورة هذه المكتبة للبحر جعل مخطوطاتها عرضة للتلف بسبب الرطوبة العالية بحسب ما جاء في «فهرس مخطوطات أبي العباس المرسي» (١٦/١)، ولم أثر على مخطوطة كتابنا في المجلدين المطبوعين من الفهارس، والله أعلم.

وتقع في الأوراق (٥/ب، ١٠٨-١٠٥، ٢٤٨، ٢٤٧)، وفي الورقة (٢٤٧) اعتراض ومنازعة في مسألة الإرادة بأبيات في عقيدة الأشاعرة.

وعلى وجه الإجمال تعتبر هذه النسخة أجود نسخ الكتاب التي وقفت عليها، لولا وجود النقص في آخرها، ويغلب على الظن أنها أقدمها، والعلم عند الله.

### النسخة الثانية: نسخة دار الكتب «د»

وهي مسجلة في دار الكتب المصرية برقم عام (٤٥٢٢٣٤) وخاص (٣٢٣ علم كلام)، وتقع في (٢٢٦) ورقة، في كل صفحة (٢٣-٢٥) سطراً.

محرومة الأول بنحو (٤) صفحات من المطبوع، ذهب الخرم بجزء من مقدمة الكتاب، وثمة خروم أخرى في صفحات متفرقة ذهبت بأجزاء من الكتاب كما في يمين الصفحة الأولى، وأخر ورقتين، وقد خرم حزد المتن في الورقة الأخيرة.

تبدئ النسخة بقول المصنف: «والإيمان به قطب رحا التوحيد...»، وفي أعلى هذه الصفحة ختمان مطموسان، وفي الطرة اليمنى قيد وقفية ذاهب بعضه، ونص ما بقي منه: «وقف هذا الكتاب فغير عفو الله ومغفرته أحمد الفوي على طلبة العلم الشريف، يتتفعون بذلك الانتفاع الشرعي، على الوجه الشرعي، وجعل مقره ﴿فَمَنْ يَذَّلِّلُهُ وَبَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِنْتَهَىُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٨١]، حرر في أواسط.....<sup>(١)</sup> ست وأربعين ألفاً، وتحته ختم مطموس، بجانبه اسم لعله لصاحب الوقف

(١) كلمة غير واضحة.

المذكور على هيئة تشبه الطغراء، وبحاشية الصفحة السفلى بيانات فهرست الكتاب، كما يوجد ختم غير واضح أيضاً في آخر ورقة منها.

النسخة مكتوبة بخط نسخي معتاد بمداد أسود، نشط الناسخ في إعجم أولها ثم بدأ يهمل كثيراً حتى بات عزيزاً في نصفها الأخير، ويظهر أنه استعمل الحمرة في تدوين العناوين، لذا لم تظهر أجزاء كثيرة منها في مصورة النسخة التي بين يدي، وهي خلو من ترقيم الأوراق، وفي طرر النسخة علامات المقابلة والتصحيح والتعليق، وتوجد ردود على المؤلف بقلمين مختلفين في الورقة (٢٠/أ) وفي (١٣٨/أ).

وهي نسخة صحيحة في مجلملها، ولا تخلو مما وقع في نسخة جامع المرسي السابقة من أوهام وسقط، وأما البياضات فتتفق فيها مع نسخة الجامع، وتزيد عليها في موضع واحد.

لم نعرف الناسخ ولا تاريخ النسخ للخرم الذهاب بحَرْد المتن، وهي جزئاً منسوبة قبل سنة الوقفية المذكورة آنفاً (٤٠٦ هـ)، والله أعلم.

وعند النظر في الفروق الواقعية بين هذه النسخة ونسخة جامع المرسي والمقارنة بينها يظهر جلياً الاختلاف بين النسختين؛ مما ينفي احتمال أن تكون إحداهما منسوبة من الأخرى، أو أن يكون أصلهما واحداً، والله أعلم.

### النسخة الثالثة: نسخة الجامعة «ج»

محفوظة بالمكتبة المركزية للمخطوطات بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض برقم (٢٠٨٢)، وتقع في (١٧٠) ورقة.

وهي نسخة بها نقص كبير، مخرومة الأول والوسط والآخر، سقط من أولها خطبة الكتاب وعامة الباب الأول، ثم سقط منها جل الباب الثاني إلى

قبيل الباب الثاني عشر، وعاد السقط في آخرها من نهاية الباب الحادي والعشرين حتى نهاية الكتاب، فما بقي من أبوابها الكاملة (١٠)، تمثل ثلث الكتاب فقط، وبها آثار بلل يسير.

بها عدة بياضات في مواضع متفرقة، كما في ورقة (١٦٨)، وعلق في إحداها (٧٠/ب) : «هنا بياض في المتن قول عنه».

مكتوبة بخط نسخ معتمد، من خطوط القرن الثاني عشر تقديرًا، مقابلة مصححة، استعمل الناسخ الحمرة في عناوين الأبواب والفصول والأوجه ونحوها.

بقي أن يقال: إن هذه النسخة تتفق مع نسختي «م» و «د» في بعض المواضع وربما وافقت إحداهما فقط، والأهم أنها انفردت بالصواب في عدة مواطن مشكلة.

#### النسخة الرابعة: نسخة تركية (ت)<sup>(١)</sup>

---

(١) نسخة يوسف آغا هذه بذلت جهودًا مضنية في طلب تصويرها، أوّلاً من المكتبة نفسها في تركيا، فذهب إليهم في مقر المكتبة غير واحد منهم الصديق أبو الفضل القوني فأفادت القيمة على المكتبة بأنها غير موجودة، وسرق أصلها مع مخطوطات أخرى، وذهب إليهم مرة أخرى غير واحد ممن سعى معنا في محاولة جلبها والنتيجة واحدة! ثم حاولنا تصويرها ممن صورها من مصدرها قبل أن تسرق (قبل سنة ١٤٢٠هـ) ومنهم محقق الكتاب في رسالتين علميتين - طبع مؤخرًا عن دار الصميغي - فوعدهم أحدهما خيرًا، ولم نحصل على شيء حتى كتابة هذه الأسطر، وقد اجتهد معنا في التواصل معهما الشيخ عبد الرحمن بن صالح السديس جزاء الله خيرًا. ثم طلبناها من محقق ط. العبيكان الأخ الشيخ عمر الحفيان (إذ كان صورها قبل أن تسرق) سعى في ذلك الصديقُ الشيخ عبد العزيز بن فيصل الراجحي، فوعده خيرًا، لكن لم تتمكنه

من مقتنيات مكتبة جامع يوسف آغا بقونية برقم (٥٤٤٠)، في (٣٢١) ورقة، في كل صفحة (٢٣) سطراً، بخط نسخ واضح جميل، وهي النسخة الوحيدة الكاملة من الكتاب فيما نعلم.

كتبت فواصل المقدمة بالمداد الأحمر وكذا عناوين الأبواب ونحوها، ويظهر أنها نسخة منقولة من أصل المؤلف ومقابلة عليها، ولم تخل حواشيه من تصحيحات وتعليقات.

قلت: ويغلب على الظن أن هذه النسخة منقولة من نسخة جامع المرسي أو يشتركان في أصل واحد؛ لما بينهما من الاتفاق في غالب المواضع عند اختلاف نسخ الكتاب الأخرى، والله أعلم.

#### النسخة الخامسة: نسخة بغداد (١)

كان مستقر هذه النسخة في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد برقم (٧١٥٥)،

الظروف من تصويرها!

وقد أعلنا ماراً في وسائل مختلفة عن حاجتنا لهذه النسخة بمَنْ أو شَمَنْ، فلم نفلح في الحصول على صورة منها. وما زلنا على أمل العثور على مصوريتها. وقد كتبنا هذا التفصيل ليراه مَنْ عساه يهتم لأمر هذه النسخة فيسعى كما سعينا، فيثال أجر الدالة عليها، ويل رحم العلم بيلالها. (علي العمران).

(١) انظر: «فهرس المخطوطات العربية في مكتبة الأوقاف العامة في بغداد» (٤٤١/٢)، ويظهر أن من فهرس المخطوط صحف عنوانه إلى «شفاء الغليل...»، واستدرك صانع الفهرس الصواب بين قوسين.  
وقد حاولنا الحصول على صورة من هذه النسخة من بغداد بواسطة الأستاذ محمد كمال عبيد جزاه الله خيراً، فأفاد القائمون على المكتبة بأنها فقدت مع مجموعة من الأصول، والله المستعان.

في (٢١٠) ورقة، في كل صفحة (١٩) سطراً، وهي مخرومة الأول والوسط  
والأخر، وهي من أوقاف المدرسة المرجانية ببغداد.

كاتب هذه النسخة هو العلامة خير الدين نعман بن محمود الأكوسى  
(١٣١٧هـ)، كما نص على ذلك في الصفحة الأولى، ولم يذكر في هذه  
النسخة الأصل الذي نقلت عنه ولا تاريخ نسخها.



## طبعات الكتاب

أولى طبعات «شفاء العليل» كانت قبل أزيد من قرن، وهي تلك التي اعتنى بها السيد محمد بدر الدين أبو فراس النعسانى الحلبي<sup>(١)</sup> سنة (١٣٢٣ هـ) بالمطبعة الحسينية على نفقة محمد أمين الخانجي وشريكه، في مجلد واحد.

وأشار المصحح في آخر الكتاب (٣٠٧) إلى الأصول الخطية التي اعتمد عليها في عمله، بقوله: «تم والله الحمد طبع كتاب «شفاء العليل» ... وذلك بعد عناء تصحيح النصف الأول منه على نسخة وصلتنا من صاحب الفضيلة علامة العراق على الإطلاق آلوسي زاده السيد محمود شكري أفندي حفظه الله، مع مقابلة ذلك على النسخة المحفوظة بدار الكتب الخديوية بمصر، ومن ثم إلى آخر الكتاب على نسخة دار الكتب الخديوية فقط».

وهذان الأصلان تقدم وصفهما قريباً، وبيان ما فيهما من خروم في أول الكتاب وأخره، ومن هنا وقع النقص في هذه الطبعة.

كما وقع أيضاً خلط في تعداد أبواب الكتاب ابتداء من الباب الثاني والعشرين (١٩٠)، إذ سقطت جملة بنهاية الباب الحادي والعشرين تسببت في اعتقاد سقوط الباب الثاني والعشرين، وهي قول المصنف: «وهذا الباب يتصل بالباب الثاني والعشرين في إثبات حكمة ربّ تعالى في خلقه وأمره.. ما دلّ عليه القرآن والسنة»، وموضعه في هذه الطبعة: «فصل الأصل

---

(١) صاحب كتاب «التعليم والإرشاد» (ت ١٣٦٢ هـ) ترجمته في «الأعلام» للزركلي (١٠٢ / ٧).

الخامس)!

ومع أن المعتنى بالكتاب رحمة الله عليه قد بذل جهداً كبيراً في إخراجه أول مرة بما أتيح لديه من أصول ومصادر في ذلك الزمان غير أنه وقعت بالنص عشرات الأخطاء والتصحيفات والزيادات بقصد إتمام السياق في كثير من الصفحات.

ولما كانت هذه الطبعة هي أصل أكثر الطبعات التي جاءت بعدها تابعتها أيضاً في أكثر ما وقع فيها من هنات، وربما زاد كل ناشر عليها مثلها. ومن أهم تلك الطبعات: طبعة دار التراث بعنابة الحسانى حسن عبد الله، والذي حاول تصويب المتن ما أمكنه، ونبه في آخر الكتاب (٦٠٥) إلى وجود الخلل المشار إليه في الأبواب.

توالت بعد ذلك عدة طبعات تجارية، يجمعها الاعتماد على الطبعة الأولى، وعدم الرجوع إلى شيء من نسخة الخطية.  
ثم صدرت طبعتان علميتان جيدتان إجمالاً:

إحداهما: سنة (١٤٢٠هـ) بتحقيق عمر بن سليمان الحفيان، عن مكتبة العبيكان، في مجلدين، اعتمد على النسخة التركية ونسخة جامع المرسي ونشرة النساني.

وتمتاز هذه الطبعة بأنها الطبعة الكاملة للكتاب، وقد بذل محققتها جهداً مشكوراً في تصحيح النص، وتخريج الأحاديث المروفة. غير أنها خلت من عزو الآثار وتوثيق الأقوال والنصوص إلا اليسير، ولم تسلم من خطأ وتحريف وتصرف في المتن بما يخالف الأصول الخطية، كما أنها لم تذيل

بفهارس لفظية ولا علمية.

والأخرى: سنة (١٤٢٧هـ) بتحقيق أحمد بن صالح الصمعانى وعلي بن محمد العجلان، عن دار الصميمى، في ثلاثة مجلدات، وأصلها رسالتان علميتان للمحققين، نوقشت الأولى سنة (١٤١٤هـ) والثانية سنة (١٤٢٠هـ)، طبعتا بكمال ما فيهما من الحواشى الأكاديمية.

وتمتاز هذه الطبعة باعتمادها على ثلاثة نسخ خطية: النسخة التركية ونسخة دار الكتب المصرية - وكلتا النسختين تشتمل على خاتمة - والنسخة العراقية، إضافة إلى اشتمالها على دراسة علمية للكتاب، وفهارس متنوعة.

ويؤخذ عليها كثرة الإحصامات في المتن بزيادة ألفاظ بين [ ] من مصادر أخرى لغير ضرورة، ووقوع جملة من التصحيفات والتحريفات والأخطاء. ومن الغريب وقوع نقص في آخر هذه الطبعة بمقدار (٦) صفحات من طبعتنا هذه، وهي من الوجه (١٧) في الباب الثلاثين إلى آخر الكتاب مع خاتمة المؤلف، وهو الموضع عينه الذي تنتهي فيه طبعة النعسانى.

\*\*\*

ولـ «شفاء العليل» مختصر في مجلد واحد بمقدار الثالث، اختصره خالد عبد الرحمن العك، وصدر عن دار المعرفة، سنة ١٩٩٦ م.

ورسالة مقتطعة من الكتاب بعنوان: «مقادير الخلاقق»، استلها سيد بن إبراهيم، وصدرت عن دار الحديث بالقاهرة، سنة ١٤١٤هـ.



## منهج التحقيق

اعتمدت في تحقيق الكتاب على ما تتوفر لدى من الأصول الخطية التي تقدم وصفها: نسخة جامع المرسي «م»، نسخة دار الكتب «م»، نسخة جامعة الإمام «ج»، وهذه الأخيرة قابلت عليها الكثير من الموضع، والمشكلة منها على وجه الخصوص، واستعنت على إتمام بعض الخروم في أول الكتاب وأخره وكذا بعض الموضع المشكلة بقراءة محققى طبعي الصميمى والعبيكان لاعتمادهم على النسخة التركية «ت» الكاملة من الكتاب، وربما أشرت لقراءة الحساني في موضع يسيرة برمز «ط»، خاصة إذا تابعه عليها من جاء بعده من الناشرين.

وأثبتت أهم الفروق بين هذه النسخ، وخاصة ما كان منها مؤثراً في المعنى، وأغفلت التنبيه على أوهام النسخ وتحريفاتهم البينة إلا اليسيير عند الحاجة، ونبهت على السقط الطويل كجملة ونحوها.

ثم قمت بخدمة النص بما يتطلبه ذلك من توزيع النص على فقرات، وضبط للمشكل من المصطلحات والأعلام ونحوها، وعزوه للآيات، التي حافظت في رسماها على قراءة أبي عمرو البصري؛ قراءة أهل الشام في زمن المؤلف<sup>(١)</sup>، وتخريج موجز للأحاديث والآثار، وتوثيق ما استطعت من الأقوال والأشعار ونحوها من مصادرها الأصلية، وربما مسّت الحاجة إلى

---

(١) قال ابن الجزري (٨٣٣هـ) في «غاية النهاية» (٢٩٢/١): «القراءة التي عليها الناس اليوم بالشام والهجاز واليمن ومصر هي قراءة أبي عمرو... ولقد كانت الشام تقرأ بحرف ابن عامر إلى حدود الخمس مئة فتركتوا ذلك».

التعريف بعلم أو بيان معنى أو إيضاح مبهم ونحوه.

متوّحياً في جميع ذلك ما يحقق المقصود بأقصر عباره، وأوجز إشارة، دون إثقال للحواشي بتبع الطرق والروايات وصنوف العلل وتعدد المصادر وتعريف بالأعلام والكتب.

هذا، ولما كان الغرض من التحقيق هو تقديم النص التراخي للقارئ أقرب ما يكون إلى ما تركه مؤلفه؛ فإني آثرت الحفاظ على ما اتفقت عليه الأصول الخطية وإثباته في المتن، حتى لو كان وهمًا أو خطأً أو تحريفًا، بشرط وجود قرينة ترجح أن هذا الخلل من قلم المؤلف لا من وهم الناسخ أو تحريفه، والتزمت التنبيه عليها في الحواشي وبيان وجه الصواب منها ما وسعني ذلك، وتلك القراءن تختلف باختلاف المقام والتقدير، ومنها على سبيل المثال:

أن يكون الوهم في نسبة القول إلى غير قائله، كما وقع في (٣٣٦/١): «قال ليـد...»، ثم أنسد المصنف بيـتا مشهوراً لامرئ القيـس، فلا يتصـور في مثله أن يتـواتـأ النـسـاخـ علىـ الوـهـمـ عـيـنهـ، أو يـخلـطـونـ بـيـنـ رـسـمـ «الـلـيدـ» وـ«ـأـمـرـئـ الـقـيـسـ»، ليسـ هـذـاـ فـحـسـبـ، بلـ عـنـدـ الـكـشـفـ عـنـ مـوـرـدـ الـمـؤـلـفـ هـاهـنـاـ تـبـيـنـ أـنـ هـذـهـ مـتـابـعـ لـلـوـاحـدـيـ فـيـ هـذـهـ النـسـبةـ.

وـقـرـيـبـ مـنـهـ صـنـيـعـهـ فـيـ (٣٣٣/١) حـيـثـ قـالـ مـتـابـعـ لـلـوـاحـدـيـ أـيـضـاـ: «ـقـالـ أـبـوـ عـيـدـةـ:ـ يـقـالـ:ـ رـكـسـتـ الشـيـءـ...ـ»،ـ وـهـوـ تـحـرـيفـ مـحـضـ،ـ صـوـابـهـ:ـ أـبـوـ عـيـدـ،ـ وـهـوـ فـيـ «ـغـرـبـ الـحـدـيـثـ»ـ لـهـ.

وـمـنـ أـظـهـرـ الـقـرـاءـنـ فـيـمـاـ نـحـنـ بـصـدـدـهـ أـنـ يـكـونـ خـطـأـ أوـ تـحـرـيفـ فـيـ رـجـالـ الـأـسـانـيدـ بـيـابـدـالـ أـوـ زـيـادـةـ أـوـ سـقـطـ؛ـ إـنـ الـبـصـيرـ بـكـتـبـ الـرـوـاـيـةـ يـدـرـكـ مـاـ فـيـ

الباب من أنواع الاحتمالات التي يصعب معها الجزم بتخطئة الناقلين عنها، ويزيده تأكيداً هنا وقوع عين الوهم في مصنفات المؤلف الأخرى.

ويكفي ما جاء في (١/٣٣) حين نقل ابن القيم رواية بإسنادها من «مسند إسحاق»: «أخبرنا بقية... عن راشد بن سعد، عن عبد الرحمن بن أبي قتادة»، وهو في أكثر المصادر: «عبد الرحمن بن قتادة»، غير أن بقية كان يضطرب في اسمه على الوجهين، يضاف إلى ذلك أن المؤلف متتابع فيه لمصدره، كما سيأتي بيانه في موضعه.

ومما تكرر في الكتاب وغيره من كتب التراث أن يختصر المؤلف لفظ الحديث فيسقط بعض ألفاظه قصداً في عدة مواضع، أو يسوقه بالمعنى، أو ينقل اللفظ بواسطة، فهذه قرينة أخرى شاهدة على ما نحن فيه، وهي غنية عن التمثيل لظهورها.

ومنه أيضاً أن يكون المثبت من التراكيب اللغوية غير الفصيحة التي يكثر استعمالها في عصر المؤلف وما بعده، كما يقع كثيراً في الأعداد وتمييزها، والفاء في جواب الشرط وغير ذلك.

وعلى كل حال، فالمقصود هنا التنبيه بأمثلة تدل على المراد، سيأتي التنبيه على بعضها في محالها، وقد كنت في غنى عن الإشارة إليها هنا لولا ما وقع في طبعات الكتاب القديمة والحديثة من عشرات الإصلاحات والتصرفات والزيادات في نص المؤلف داخل المتن، مخالفة للأصول الخطية، دون التفات للقرائن، أو انتفاع بالموارد.

وبعد؛ فقد بذلت جهدي في إخراج نص الكتاب وخدمته بما يليق به حتى يكون أقرب ما يمكن لما تركه عليه مؤلفه، بحسب ما بلغته طاقتى

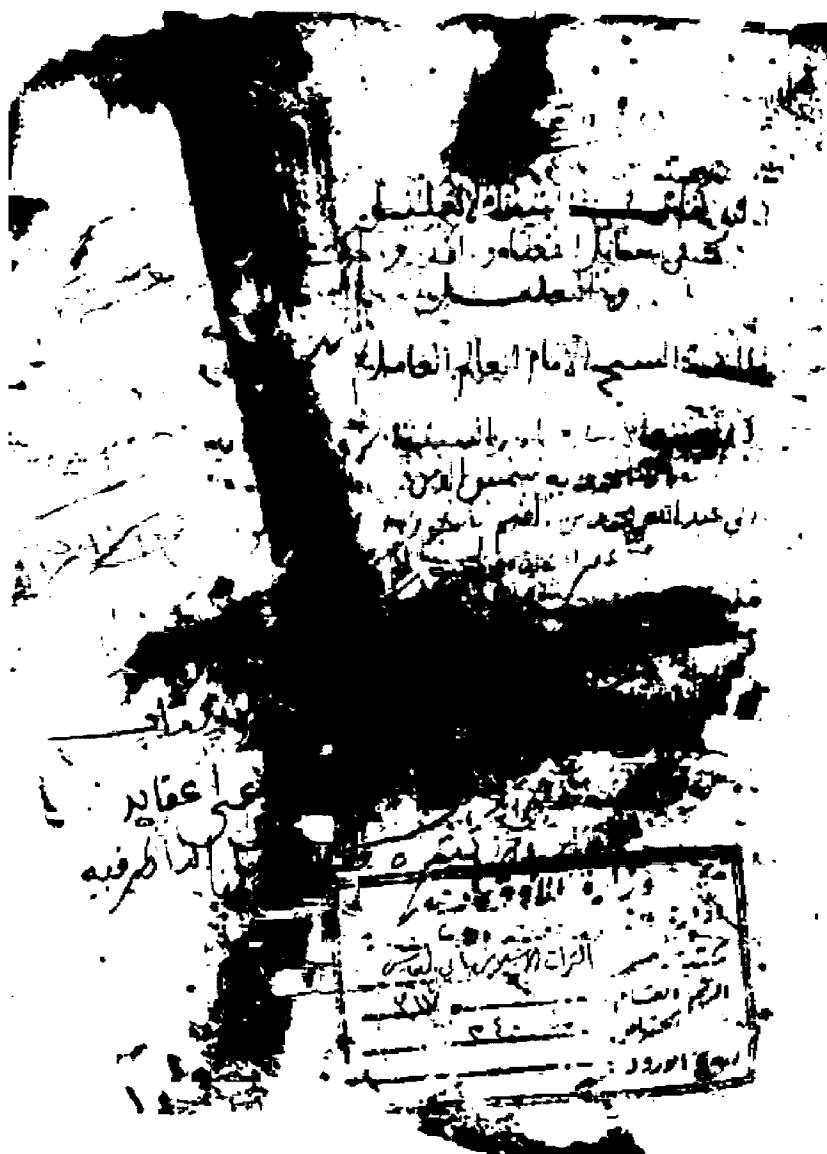
المحدودة وعلمي القاصر، والمأمول في قارئه أن يكون باذلاً للعلم ناصحاً،  
فلعلك تصلنا بما وجدت من خطأ أو ترشد إلى صواب؛ فإن العلم رحم بين  
أهلـه.

غفر الله لابن قيم الجوزية ولمحققه ولقارئه، وشملنا بواسع رحمته، إنه  
جواد كريم.  
والحمد لله أولاً وآخرـاً.



## **نماذج من النسخ الخطية**





صفحة العنوان من نسخة جامع أبي العباس المرسي (م)

وَاللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِهِ مَكْرُوهٍ وَاللَّهُ  
عَلَيْهِ دُلُّ الْفَضَالِ وَالْإِخْرَاجِ وَالْمُنْتَهَى إِلَيْهِمْ مِنَ الْأَيَادِي  
كَثِيرٌ وَذُنُوكُ الْجَلَالِ وَالْأَكْرَامِ وَالْمَلَكِ الْمُقْدَسِ وَسَاسَ السَّلَامِ  
يُنْهَا مُقَادِرُ الْخَلْقِ بِمَا يَحْكُمُ الْمُحْسِنُونَ إِلَيْهِ  
كَثِيرٌ مِنَ الدُّنْعَامِ فَقَدْ رَأَرُوا أَقْفَمَ رَاحَاتِهِمْ وَلَنْ يَأْرِعُونَ  
وَأَنْتُمْ مَوْقُوسُونَ مَعَابِقِهِمْ وَأَصْوَاتِهِمْ وَغَرَشَتِهِمُ الْأَرْضُ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَى أَبِيهِمْ قَابِدُهُمُ الْعَقَصِيَّةُ وَفَقَرَّ الْمَرْسَيَّةُ  
وَقَالَ اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا هُوَ كَانِيْنَ فِي هَذَا الْعَامِ عَلَيْهِ حَافَّ  
السَّنَنِ وَالْأَعْوَامِ بِمَا حَلَّوْ السَّيَّارَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَا سَهَّلَهَا  
فِي سَيِّدِهِ أَيَّامِهِمْ اسْسَمُكَ عَلَيْهِ سَمَّ الْجَهَنَّمَ مُنْفَعٌ رَاسِدٌ  
ظَلَقَهُ سَالِسَعَادَةُ وَالسَّعَادَةُ وَالْعَطَاوَالْمَنْعُ وَالْأَهْمَاءُ وَالْأَمَانَةُ  
وَالْجُنُوبُ وَالرُّوعُ وَالْإِنْتَادُ وَالْإِفَاقُ وَالْعَقْضُ وَالْأَبْرَامُ مُنْسَلَّةٌ  
مِنَ السَّوَابِرِ وَالْأَرْضِ تَلَوِّهُمْ وَهُنَّ مُكْشَانٌ هُنَّ شَهَدُهُمْ سَعَ  
عَنْ سَعَيْهِمْ وَلَا نَغْلُطُهُمْ أَنْ يَلْهُو وَلَا يَنْبَرُ مِنْ بَلَقِ الْأَنْجَانِ فَلَا  
الدَّوَامُ وَلَا سَمْعُ صَحْبِ الْجَهَنَّمِ بِالْجُنُوبِ الْمُعَذَّبِينَ فَلَا  
وَسَرُّ دِسْنَهُ الْمُلْكَهُ الْمُسُورُ أَكْثَرُ الْمُعْجَمِ الْمُصَفَّفُ الْمُبَرَّ  
الْمَذْلُولُ الْمُهَمَّدُ الْمُبَشِّدُ زَرَهُ الظَّلَامُ وَالْأَسْبَاطُ وَرَقَّةُ الْأَعْلَمَهُ وَلَا  
يَنْكُرُ زَرَهُ وَلَا يَنْهَا هُنَّ لَا يَنْفُودُهُنَّ الْمُشَشِّهُنَّ لَذَكَرُهُ وَلَا زَرَهُ  
عَرَبَ حَمَدَهُ وَلَلَّهُمَّ إِنَّكَ لَمَنْ تَرَكَتُمْ لَمْ تَلْهُوْهُمْ لَمْ تَلْهُوْهُمْ  
وَلَمْ تَلْهُوْهُمْ لَمْ تَلْهُوْهُمْ الْمَلَكُوْهُمْ وَلَمْ تَلْهُوْهُمْ وَلَمْ تَلْهُوْهُمْ  
كَلْمَلْهُوْهُمْ فَلَمْ يَرُوْهُمْ لَهُمْ كَلْمَلْهُوْهُمْ لَهُمْ غَرَّهُمْ وَلَمْ يَلْهُوْهُمْ  
الْمُرْكَبُ وَالْمُرْجَمُ وَلَمْ يَخْرُجُوا مِنْهُمْ لَهُمْ كَلْمَلْهُوْهُمْ وَلَمْ يَلْهُوْهُمْ  
الْمَبْرُرُ وَالْمَبْرُرُ وَلَمْ يَخْرُجُوا مِنْهُمْ لَهُمْ كَلْمَلْهُوْهُمْ وَلَمْ يَلْهُوْهُمْ

الله والمعودة وآباء الصلاة والذكور وأشر المسنون، ومن الصحيح من حدثه  
 أن هزيره من السنن على أنه ملبيع سلامة فالكليرير دبرل على النظره حاتمه  
 بغيره انه وصراحته وتحبستانه كما ينتهي المهمه حماه حل كشوف هفاف  
 حيثنا من يكتب الاسم بعد عيدها من المهره ونظره أنه الى عطر الناس على  
 لا يدخل على اسنه وفي لخط اخر يضاف مولوز الا ان يكون هرمه المدحه وعده مختلف  
 الناس من معن هذه النظره والوارد عليهما اتفاقياً يواعظي ويعبر النظره  
 ما اهتزه رأسان من اهدادها الارهار يغزوه السعال وعوالمه الذي  
 اهتزه عليهم في اصله ايا بهم حرج سج طهر ادم فاصح من درجه الى يوم القيمة  
 اسار الذر واسهد حمل اسنه السب سريركم والوابي قلس اهدا الا ذهوبه  
 لان له حانفاً وبدير او اخر سماه بغير اسمه فالحال وليس بالله لهم حلم  
 لعلون الله فكل مولوز يدخل على ذلك الا ارار الاول والولنس النظره .  
 هذا الاسلام لو جهه اهدادها من معن هذه النظره اسد الحلةه وسفوله  
 تعالى باطن السعراء والارض اي يعبد حباوا راكب العطوه عن الاسلام  
 وض اسكون بذلك من التي وعى لا ذوال الحلمه ودرجه بخطوه المعدول  
 ووصاحب ايجيم زوجه لان بذلك شاه اسد اهده وله توكاس انتقامه فاما  
 الاسلام توفى اذا ولد من امويين كانوا من اهل اسره فما انتقامه  
 الله مسلمه واصلاق الدين من الارض ولو هش شأن لا يصح اسره فاما  
 ولا يحكم بالاستاذه الاسلام ايه لانه مسلم فالوقف ابداً ابرئته وذكره  
 اس بطنه في الابيانه فالولنس كل من سب له اغيره ص باسم الاسلام كالمنصور  
 الكفار على المعرفه فاصلهم ولهم موساسيلين ثم وقد ارم ما اندل هذا  
 الناولري ورواه المسمون في تعالى العطوه الارض التي نظر الناس عليها  
 المهره العطوه المحس بالاعراض والوارد احمد بالده المعوده  
 ذكرها فائز الروايه الحاسنه العطوه هنا اسد احلمه بخطوه

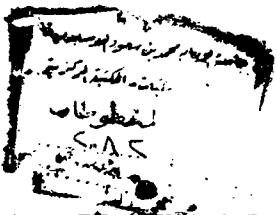
وألمان خطب رحمة الموحد و خامه و مبدى  
 فهو أحد رهان الممان و فاعده أساس الممان  
 التي ترجم المها و دورة جمع نصاراته على ما في العز  
 والحكمة تطهر الحمد والتوحد صنف له رهان الحكمة  
 فهلا إلا الله و حمد لا إله إلا الله لا إله إلا الله ولا إله إلا هو على كل شاء  
 قدر فالقدر والحكمة تطهر حمد و شرعاً الممان لا إله إلا الله  
 سلوك العبر العالىين **فصل** و مسل

2 هد الباب بـ كل واد واحذوا في كل طريق و توشوا كل مدة  
 كل صعب و دلول و مصدر الوصول إلى معنى  
 و يعلم فيه الأم و دعماً و حداً و ساروا و يحيوا و فداء  
 و خاتمة فيه المذهب يعني بيتها وأهلاً و مهلاً صفة  
 على نوع اصناف الأولياء لا وهو يجده في نفسه  
 و يطلب الوصول إلى حقيقة القرآن فنراه أاما  
 مع نفسه أو مناظر الدرجات و كل واد أحذار المذهب  
 كل بعد الصوابية سوء و كل رصي الأداء و كلهم الأداء  
 بالوحى غير طريق العواب و مسدود وباب المذهب و جميعه  
 تشر عدا غير طلاقه و اربوئ من احرى و خاتمة أبواب  
 صارياً خشن إلا و المطاليب من حمى العائدة العزم المدخل  
 لغير زرع و قدم ايام راحتنة الطعن على الوحي الماء  
 والمصر المفزع حرثان ياتم حلوات البحب كل سرور  
 فهو طول عمره طهانه سادى إلى العواب من مكانه ملوك  
 بل أهدى بلا حجت إلى يوم الدعيد درج ما عندنا  
 ويسع ناواع الماطر وأصناف الماء منع الكفر الماء

بجهة بعد العنود وأصبغ فيه توفيق سلطنه  
 ١٩٥٣ طرس العزيز أبو ميمون



لابن الصامت يا جي انك لن تخد طعم الريان فتحتم ان ما اصابكم يكن لمحظكم  
 اخطاك لم يكن ليصبك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا او اما  
 خلق الله ف قال الله اكتب فالمر و ماذا الكتب قال الله تغادر بطرشة  
 تفوم الساعة يا ايي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من مات  
 على غير هذه افليس ميت وكناه الله للقدر كان في الساعة التي خلق فيها  
 لامار واه الامام احمد في حديثه من حدث عبادة اذن العلوي قال حدثني ايي  
 قال دخلت على عبادة وهو يرعن اخرين فيه الموت فقلت يا ابا ابي مني  
 واحده دلي ف قال اجلسوني في الجلوس و قال ايي انك لن تخد طعم الريان  
 ولن تبلغ حقحقيقة العلم باسم شادر و شهادة و عجايب العذر خبر و شهادة  
 قلت يا ابا ابي و كيف لاني اعلم ما خير القبور و شهادة قال لعلم انما اخطاك لم يكن  
 ليصبك و ما اصابكم يكن لمحظكم يا ايي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 و سمعت يقول اذا اول ما خلق الله العلم ثم قال الله خرى في تلك الساعة يا ابا ابي  
 الى يوم القيمة يا ايي فانت و لست اعلى واشك دخلت النار وهذا الذي كتبه  
 القبور نار و ابا ابي و سمعت خبر في عمر ابن محمد بن سليمان ابن مهران  
 حدث قال فالعيادة ابن الصامت ادعوه لها ايي  
 يحيى لعلك خبر  
 ياسمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 يقول اذا اول ما خلق الله ف قال الله اكتب من خلقم العلم فقال الله اكتب بار ماذا  
 الكتب قال اللقدر قال رسول الله ف قيل يفتح النبي صلى الله عليه وسلم يوم ما فتقال يا  
 وعن عبد الله بن عباس قال الله تغلق النبي صلى الله عليه وسلم يوم ما فتقال يا  
 علام اي اعلم لك اعلم احفظ الله يحفظ احفظ الله علام يا جاحد اذا سلمت  
 فاستل الله و اذا استعنت فاستعن بالله و اعلم الله لواحد عواليات  
 ينفعوك لم ينفعوك الا يشي قد كتب الله لك و اذا اجهضت على زيف و كسر  
 تضر و لا يضر و قد كتب الله عليك رفت الالام وجفت المحن



الحادي وفاته ان كان لغرض فان كان ذلك الغرض حاصلًا قبل  
لزمه حدوثه قبل حدوثه والا فنقول المحدث فاحذر ثم  
ان كان لغرض شناسيل والثبت المطلوب قال اهل الحكم هن اجمع  
بعينها هذكرون في ضمن الحجج الثابتة التي يقدّمها وعامة الشيع  
بلائق الى طلاق جميع ما احاجى به هناك فهو اجلب به مما يعينه  
فغاية دليل تسلسل في الارث ما في المؤاثر وشلسيل فما الحادث  
المستقبله وبدلا جائز بلا وجوب باتفاق المسلمين سوهم قوله العجم  
والخلاف زانة الارمن تكونه في الحادث ما يزيد لقنه وفرياما  
نما في الغير والحكم ما طلوبته لنفسها الانتفق في اخر لاقى دلائلها  
وان هناك الدليل لو صحت مقدماته وهيها فما يزيد على ان  
ما عالج تعاليمه يحيى تعليمه او لا يزيد من ذلك ان لا يحيى تعليمه  
فتتحقق الوجوب بمعنى وفق اثر سعي فضل اناس بن سعيد الاول  
فما يزيد دليله الثاني ويغايه تها نقل على علمه تقييل بعض الحادث  
لاعلى علمه جميعبها وبجملة فما نقله هناك مغير لمعنى الاطمار  
في الاخوية وسر كل سلسلة ان دوام فاعلة الدليل بمحاجة شطره ذلك  
الشيء من اصولها وقول تقويمها على دوام فاعليةه في المستقبل  
والسلف على دوامها في لفظ ذلك من اهل الكلام فحصل  
فما يتحقق الوجه  
في خلق الكفر والفسق والمعصيات واصحاحه . علم انه لا يغير  
ونيفي واظلم ويفسد الى نيا الدين واى حكمه في خلق ما  
دارت التي وجوهها على عدمها سواء وكل ذلك يكتفى من الاشخاص  
الذين سهلوا المطلة واكيدهم امثاله قبل العاديه المحق ففي توكيد



مطبوعات المجمع

أَمْارَ الْإِمَامَيْنِ قِيمَةُ بَحْرَيْنَ وَمَا لَحِقَهُ مِنْ أَعْمَالٍ



# شَفَاءُ الْحَلَيْلِ

الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية

( Vol - 791 )

# تَحْقِيقُ زَاهِرْ بْنِ سَالِمَ الْفَقِيهِ

وقال شيخ العادة  
بـِكَمْ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ تَبَرُّزِي  
(رحمه الله تعالى)

المُجلد الأوّل

طرايي ندزه

الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ



وصلى الله على سيدنا محمد وآلـه وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً.  
الحمد لله ذي الإفضال والإنعم، والمِنْ الْجِسَامِ، والأيادي العظام، ذي  
الجلال والإكرام، الملك القدس السلام، الذي قدر مقادير الخلائق قبل أن  
يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف عام.

فقدر أرزاقهم وأجالهم، وكتب آثارهم وأعمالهم، وقسم بينهم معايشهم  
وأموالهم - وعرشه على الماء - قبل خلق الليالي والأيام.

فأبرم القضية، وقدر البرية، وقال للقلم: اكتب، فجرى بما هو كائن في  
هذا العالم على تعاقب السنين والأعوام.

ثم خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على  
عرشه المجيد بذاته، منفردًا بتدبير خلقه بالسعادة والشقاوة، والعطاء والمنع،  
والإحياء والإماتة، والخُفْض والرُّفع، والإيجاد والإففاء، والنقض والإبرام.

﴿يَسْأَلُهُ مَنِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، فلا يشغله  
سمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل، ولا يتبرأ بالحاج الملحين على<sup>(١)</sup>  
الدّوام. يسمع ضجيج الأصوات، باختلاف اللغات، على تفتن<sup>(٢)</sup>  
ال حاجات<sup>(٢)</sup>، ويرى دبيب النملة السوداء، تحت الصخرة الصماء، في

(١) «على» استدركت من «ت»، وكذلك الموضع الخمسة الآيات، موضعها مخروم في  
«م».

(٢) «تفتن الحاجات» من «ت».

الليلة<sup>(١)</sup> المدلهمة الشديدة الظلام.

لا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا<sup>(٢)</sup> تحرك ذرة إلا بإذنه، ولا يقع حادث إلا بمشيته، ولا يخلو مقدور عن حكمته، فله الحكمة الباهرة، والأيات الظاهرة، والحجّة البالغة، والتعمّة السابغة على جميع الأنام.

وسع كل شيء رحمة وعلمًا، وأوسع كل مخلوق فضلاً وجوداً وحلماً، وفَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ<sup>(٣)</sup> عَزَّةً وْحُكْمًا، فَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِجَلَالٍ<sup>(٤)</sup> وجهه، وعجزت العقول عن معرفة كُنْتِهِ، وقامت البراهين على استحالة<sup>(٥)</sup> مثله وشبيهه. فهو الأول الذي ليس<sup>(٦)</sup> قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، ذو الأسماء الحسنة، والصفات العلوى، وهو مُسْتَوٍ على عرشه، مُسْتَوٍ على خلقه، يسمع ويرى. كلّ موسى تكليماً، وتجلّى للجبل فجعله دكّا هشيمًا، فهو الحيث القيوم الذي لا ينام، ولا ينبعي له أن ينام.

يخفض القسط ويرفعه، يُرْفَعُ إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبُّحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

---

(١) «الليلة» من «ت».

(٢) «م»: «فولا»، والتصويب من «ت».

(٣) «م»: «وفهم كل مني»! والتصويب من «ت».

(٤) «الجلال» من «ت».

(٥) «البراهين على استحالة» خرم أكثرها في «م»، وأكملتها من «ت».

(٦) «الذي ليس» من «ت».

فهو أقرب شهيد، وأدنى حفيظ، وأعظم رقيب، وأرأف رحيم، حال دون النقوس، وأخذ بالنواصي، وكتب الآثار، ونسخ الآجال، فازمة الأمور بيديه، ومرجعها كلها إليه، فالقلوب له مفضية، والسرّ عنده علانة، والمستور لديه مكشوف، وكلُّ أحدٍ إليه فقير ملهوف على الدوام.

فسبحان من نفذ حكمه في بريته، وعدل بينهم في أقضيته، وعمّهم برحمته، وصرّفهم تحت مشيئته وحكمته، وأكرمهم بتوحيده ومعرفته، وجعل أهل ذكره أهل مجالسته، وأهل شكره أهل زيادته، وأهل طاعته أهل كرامته، وأهل معصيته لا يُقتنطهم من رحمته، إن تابوا فهو حبيبهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّوَّلِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وإن أصرّوا فهو طيبُهم، يتلיהם بأنواع المصائب؛ ليطهرهم من الذّنس والآثام.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، ولا كُفُؤ له، ولا سميّ له، ولا صاحبة له، ولا ولد له، بل هو الأحد الصمد الذي تفرد بإلهيّته، وتوحد بربوبيّته، وتعالى عن مشابهة خليقه، وأنّى يشبه العبد المخلوق الملك القدوس السلام.

وأشهد أنَّ محمداً عبداً ورسوله، وأمينه على وحيه، وخيرته من خلقه، وسفيره بينه وبين عباده، أرسله رحمةً للعالمين، وقدوةً للعاملين، ومَحَاجَةً للسالكين، وحُجَّةً على العباد أجمعين.

أرسله على حين فترة من الرسل، ودروس من الكتب، وطموس من السُّبُل، حين انقطع خبر الوحي من السماء، وتاه الأدلة في دياجى الظّلماء، وغشيت الأرض ظلماتُ الكفر والشرك والعناد، واستولى عليها أئمّةُ الكفر وعساكرُ الفساد، واستند كل قوم إلى ظلمات آرائهم، وحكموا على الله وبين

عباده بمقالاتهم الباطلة وأهوائهم.

فُسْبِلُ الهدى عافيةٌ آثارها، مُنْحَطٌ منارها، والضلال قد تَصَرَّمَتْ نَارُها، وتطاير في الآفاق شراؤها، وظهر في أقطار الأرض شعارها، وقد استحقَ الناس أن يحلَّ بساحتهم العذاب، وقد نظر الجبارُ إليهم فمقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب.

فأطلع الله شمس الرسالة في حَنَادِيس تلك الظُّلْمَم، وأنعم بها على أهل الأرض، وكانت تلك النعمة عليهم أَجَلَ النعم. فبعث رسوله ﷺ للإيمان مناديًا، وإلى الجنة داعيًا، وبكل عُرْفٍ أمِرًا، وعن كل نُكْرٍ ناهيًّا، فاستنقذ به الخليقةَ من تلك الظلمات، ونورَ بصائرهم بالآيات البينات، وجلا عن قلوبهم صدأً تلك الشكوك والشبهات، وفتح به أعينًا عُميًّا، وأذانًا صُمًّا، وقلوبًا غُلْفًا، فبلغ رسالات ربه، وأدى أمانته، ونصح أمته، ولم يدع بابًا من الهدى إلا فتحه، ولا مُشكلاً من الدين إلا أوضنه، ولا خيراً إلا دلَّ الأمة عليه، ولا شرًا إلا حذَرَهم منه؛ لئلا يصلوا إليه.

فأغنى الله به عن تكُلُّفِ المتنطعين، وأراء المُتَهَوِّكِين، ومعقولاتِ المتكلسين، وخیالاتِ المتصوّفين، وجدلِ المتكلمين، وأقیسةِ المتكلفين.

فاكتفى بما جاء به العارفون، واستوحش من كثیر منه الجاهلون، وعَدَلوا عنه إلى ما يناسب أعينهم الرُّمْد، وبصائرهم العُمُّي، وظنوا أنهم بذلك يهتدون، «بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَا كَيْنَ أَكَثَرُهُمْ لَا يَعْمَلُونَ» <sup>١</sup> [فَدَّقَّالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ] [الزمر: ٤٩ - ٥٠]، «أَوَلَيَرَى كَيْفَ هُمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْكِتَابَ يُتَّلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذَكْرَ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» [العنکبوت: ٥١].

أما بعد:

فإن القدر بحر محيط لا ساحل له، ولا خروج عنه لأحد من العالمين، والشرع فيه سفينة النجاة، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها فهو من المُغَرَّقِينَ، وهو قُدرَةُ الله الذي هو على كل شيء قادر، وكل مخلوق فمه ابتدأ وإليه يصير.

والإيمان<sup>(١)</sup> به قُطب رحا التوحيد ونظامه، ومبدأ الإيمان وتمامه، فهو أحد أركان الإيمان، وقاعدة أساس الإحسان، والحكمة آخيتَه<sup>(٢)</sup> التي يرجع إليها، ويدور في جميع تصارييفه عليها، فالقدر مظهر الملك، والحكمة مظهر الحمد، والتوحيد متضمن لنهاية الحكمة وكمال التقدير.

فلا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قادر، وبالقدر والحكمة ظهر خلقه وشرعه المبين، ﴿الْأَلَهُ الْخَلُقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

## فصل

وقد سلك الناس في هذا الباب في كل واد، وأخذوا في كل طريق، وتولّجوا كل مَضِيق، وركبوا كل صعب وذلول، وقصدوا الوصول إلى معرفته من كل سبيل، وتكلمت فيه الأئمة<sup>(٣)</sup> قديماً وحديثاً، وساروا فيه بطريقاً

(١) بداية «د».

(٢) الآخيتَة - بالتشديد والتحفيف : حبل ونحوه يثبت طرفاً في حائط أو أرض كالحلقة، تشد إليه الدابة. «الصحاح» (أخا) (٦/٢٢٥٦).

(٣) «د» : «الأمم».

وَقَاصِدًا وَحْشِيًّا، وَخَاضَتْ فِيهِ الْفَرَقُ عَلَىٰ تَبَيَّنِهَا وَالْخِتَالِفَهَا، وَصَنَفَتْ فِيهِ الطَّوَافَ عَلَىٰ تَنْوِعِ أَصْنَافِهَا، فَلَا أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ يَحْدُثُ نَفْسَهُ بِهَذَا الشَّانِ، وَيَطْلُبُ الْوَصْولَ فِيهِ إِلَىٰ حَقِيقَةِ الْعِرْفَانِ، فَتَرَاهُ إِمَّا نَاظَرًا مَعَ نَفْسِهِ، أَوْ مَنَاظِرًا لِبَنِي جَنْسِهِ.

وَكُلُّ قَدْ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ مِذْهَبًا لَا يَعْتَقِدُ الصَّوَابَ فِي سُواهُ، وَلَا يَرْتَضِي إِلَّا إِيَّاهُ، وَكُلُّهُمْ - إِلَّا مَنْ اهْتَدَى بِالْوَحْيِ - عَنْ طَرِيقِ الصَّوَابِ مَسْدُودٌ، وَبَابُ الْهَدَىٰ فِي وَجْهِهِ مَسْدُودٌ، قَدْ قَمَّشَ عِلْمًا غَيْرَ طَائِلٍ، وَارْتَوَى مِنْ مَاءَ آجَنْ، قَدْ طَافَ عَلَىٰ أَبْوَابِ الْمَذَاهِبِ، فَفَازَ بِأَحْسَنِ الْآرَاءِ وَالْمَطَالِبِ، فَرَحَ بِمَا عَنْهُ مِنْ الْعِلْمِ الَّذِي لَا يَسْمَنُ وَلَا يَغْنِي مِنْ جُوعٍ، وَقَدْمَ آرَاءِ مَنْ أَحْسَنَ بِهِ الظَّنَّ عَلَىٰ الْوَحْيِ الْمَنْزَلِ وَالنَّصْرِ الْمَرْفُوعِ.

حِيرَانٌ يَأْتِمُ بِكُلِّ حِيرَانٍ، يَحْسُبُ كُلَّ سَرَابٍ شَرَابًا، فَهُوَ طُولُ عُمْرِهِ ظَمَآنٌ، يُنَادِي إِلَى الصَّوَابِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ، وَيُدْعَى إِلَى الْهَدَىٰ فَلَا يَسْتَجِيبُ إِلَى يَوْمِ الْوَعِيدِ، قَدْ فَرَحَ بِمَا عَنْهُ مِنْ الْخِيَالِ، وَتَشَبَّعَ بِأَنْوَاعِ الْبَاطِلِ وَأَصْنَافِ الْمُحَالِ، مَنْعَهُ الْكُفْرُ الَّذِي فِي صَدْرِهِ - وَلَيْسَ هُوَ بِالْعَالِغِ - عَنِ الْانْقِيَادِ لِلْهَدَايَا الْمَهْتَدِينَ، وَلِسَانُ حَالِهِ أَوْ قَالِهِ يَقُولُ: «أَهُؤُلَاءِ مَنْ أَللَّهُ عَلَيْهِمْ قُرْبَةٌ؟ بَلَّ أَلْيَسَ اللَّهُ بِأَعْلَمُ بِالشَّكَرِيَّةِ؟» [الأنعام: ٥٣].

## فصل

وَلَمَّا كَانَ الْكَلَامُ فِي هَذَا الْبَابِ نَفِيًّا وَإِثْبَاتًا مَدَارِهِ عَلَىٰ الْخَبْرِ عَنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصَفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَخَلْقِهِ وَأَمْرِهِ؛ كَانَ أَسْعَدُ النَّاسِ بِالصَّوَابِ فِيهِ مَنْ تَلَقَّى ذَلِكَ مِنْ مَشْكَاةِ الْوَحْيِ الْمَبِينِ، وَرَغْبَ بِعُقْلِهِ وَفَطْرَتِهِ وَإِيمَانِهِ عَنْ آرَاءِ

المُتَهَوِّكِينَ<sup>(١)</sup>، وتشكيكات المتكلمين، وتكلفات المُتنطعين، واستمطر دَيْمَ الهدایة من كلمات أعلم الخلق برب العالمين، فإن كلماته الجوامع النوافع في هذا الباب وفي غيره كفت وشفت، وجمعت وفرقت، وأوضحت وبيَّنت، وحلَّت محل التفسير والبيان لما تضمنه القرآن.

ثم تلاه أصحابه من بعده على نهجه المستقيم، وطريقه القويم، فجاءت كلماتهم كافية شافية، مختصرة نافعة، لقرب العهد و المباشرة التلقى من تلك المشكاة، التي هي مظهر كل نور، ومنبع كل خير، وأساس كل هدى.

ثم سلك على آثارهم التابعون لهم بإحسان، فاقتدوا طريقهم، وركبوا منهاجهم، واهتدوا بهداهم، ودعوا إلى ما دعوا إليه، ومضوا على ما كانوا عليه.

ثم نبغ في عهدهم وأواخر عهد الصحابة مجوسُ هذه الأمة الذين يقولون: لا قدر، وأنَّ الأمرُ أَنْفُ، فمَنْ شاء هدى نفسه، وَمَنْ شاء أضلها، وَمَنْ شاء بخسها حظَّها<sup>(٢)</sup> وأهملها، وَمَنْ شاء وفقها للخير وكمَّلها، كل ذلك مردود إلى مشيئة العبيد، ومتقطَّع من مشيئة العزيز الحميد، فأثبتوا في ملکه ما لا يشاء، وفي مشيئته ما لا يكون.

ثم جاء خَلْفُ هذا السلف، فقرروا ما أَسَّسَه أولئك من نفي القدر وسموه عدلاً، وزادوا عليه نفي صفاته سبحانه وحقائق أسمائه وسموه توحيداً.

---

(١) الحيري المترددون، «القاموس» (هوك) (٩٥٨).

(٢) «م»: «حقها»، والمثبت من «د» له نظائر من كلام المؤلف، وليس في «م»: «وأهملها».

فالعدل عندهم إخراج أفعال الملائكة والإنس والجن وحركاتهم وأقوالهم وإراداتهم عن قدرته ومشيئته وخلقه، والتوحيد عند متأخرتهم تعطيله عن صفات كماله، ونعوت جلاله، وأنه لا سمع له، ولا بصر، ولا قدرة، ولا حياة، ولا إرادة تقوم به، ولا كلام، ما تكلم ولا يتكلم، ولا أمر ولا يأمر، ولا قال ولا يقول، إن ذلك إلا أصوات وحرروف مخلوقة في الهواء، أو في محل مخلوق، ولا استوى على عرشه فوق سماواته، ولا تُرفع إليه الأيدي، ولا تَرْجِعُ الملائكة والروح إليه، ولا ينزل الأمر والوحى من عنده، وليس فوق العرش إلهٌ يعبد، ولا ربٌ يُصلّى له ويُسجد، ما فوقه إلا العدم المحسن والنفي الصرف، فهذا توحيدهم، وذاك عدتهم.

## فصل

ثم نبغت طائفة أخرى من القدرة، فنفت فعل العبد وقدرته و اختياره، وزعمت أن حركته الاختيارية – ولا اختيار – كحركة الأشجار عند هبوب الرياح، وكحركات الأمواج، وأنه على الطاعة والمعصية مجبور، وأنه غير مُيسَرٍ لما خُلِقَ له، بل هو عليه مقصور ومجبور.

ثم تلاهم أتباعهم على آثارهم مُقتدين، ولم يهاجهم مُقتفين، فقررروا هذا المذهب، واتمموا إليه وحققوه، وزادوا عليه أن تكاليف الرب تعالى لعباده كلها تكليفٌ ما لا يُطاق، وأنها في الحقيقة تتکلیف المُقْعَدْ أن يرقى إلى السبع الطَّبَاقِ، فالتكليف بالإيمان وشرائعه تكليف بما ليس من فعل العبد، ولا هو له بمقدور، وإنما هو تكليف بفعل مَنْ هو منفرد بالخلق، وهو على كل شيء قادر، فكَلَّفَ عباده بأفعاله، وليسوا عليها قادرين، ثم عاقبهم عليها، وليسوا في الحقيقة لها فاعلين.

ثم تلامهم على آثارهم محققوهم من العباد، فقالوا: ليس في الكون  
معصية لله؛ إذ الفاعل مطيع للإرادة موافق للمراد، كما قيل:

أصبحت مُنْفَعِلاً لما يختاره مثني ففعالي كله طاعات<sup>(١)</sup>

ولاموا بعض هؤلاء على فعله، فقال: إن كنت عصيتك أمره فقد أطعت  
إرادته، ومطيع الإرادة غير ملوم، وهو في الحقيقة غير مذموم.

وقرر محققوهم من المتكلمين هذا المذهب؛ بأن الإرادة والمشيئة  
والمحبة في حق الله سبحانه شيء واحد، فمحبته هي نفس مشيئته، وكل ما  
في الكون فقد أراده وشاءه، وكل ما شاءه فقد أحبه.

وأخبرني شيخ الإسلام – قدس الله روحه – أنه لام بعض هذه الطائفة  
على محبة ما يبغضه الله ورسوله، فقال له الملوم: المحبة نار تحرق من  
القلب ما سوى مراد المحبوب، وجميع ما في الكون مراده، فأي شيء أبغض  
منه؟!

قال الشيخ: فقلت له: إذا كان قد سخط على أقوام ولعنهم وذمهم  
وغضب عليهم فواليتهم أنت وأحبيتهم، وأحبيت أفعالهم ورضيتها، تكون  
مواليًا له أو معاديًا؟

---

(١) نسبة شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (٨/٢٥٧) إلى نجم الدين محمد بن سوار بن إسرائيل، الفقير الشاعر الصوفي (٦٧٧هـ)، وانظر: «تاريخ الإسلام» (١٥/٣٤٧).

وأورد البيت دون نسبة في: «منهج السنة» (٣/٢٥) و«الفرقان» (٢٣٧)، وسينشده المؤلف في (١/٤٨) من هذا الكتاب، وفي: «طريق الهجرتين» (١/٥٥، ٣٥٢، ٦٥٩)، و«مدارج السالكين» (١/٥٥٩، ٥٠٤، ٦٣٥).

قال: فُهِتَ الْجَبْرِي، وَلَمْ يَنْطِقْ بِكُلِّهَا<sup>(١)</sup>.

وزعمت هذه الفرقة أنهم بذلك للسنة ناصرون، وللقدر مثبتون،  
ولأقوال أهل البدع مبطلون.

هذا، وقد طووا بساط التكليف، وطفّفوا في الميزان غاية التطفيف،  
وحملوا ذنوبهم على الأقدار، وبرّؤوا نفوسهم في الحقيقة من فعل الذنوب  
والأذار، وقالوا: إنها في الحقيقة فعل الخلاق العليم.

ولإذا سمع المتنزّه لربه هذا قال: سبحانك هذا بهتان عظيم! فالشرّ ليس  
إليك، والخير كله في يديك.

ولقد ظنّت هذه الطائفة بالله أسوأ الظن، ونسبته إلى أقبح الظلم، وقالوا:  
إن أوامر ربّ ونواهيه كتكليف العبد أن يرقى فوق السماوات، أو كتكليف  
الميت إحياء الأموات، والله يعذب عباده أشد العذاب على فعل ما لا  
يقدرون على تركه، وعلى ترك ما لا يقدرون على فعله، بل يعاقبهم على  
نفس فعله الذي هو لهم غير مقدور، وليس أحدٌ منهم ميسّر له، بل هو عليه  
مقهور، وترى العارف منهم ينشد مُترّماً، ومن ربّه مُتشكّياً ومُمظلّماً:

اللقاء في اليم مكتوفاً وقال له: إياك إياك أن تبتل بالماء<sup>(٢)</sup>

(١) حكى المؤلف هذه المحاوره عن شيخ الإسلام ابن تيمية في «طريق الهجرتين» (٤٢٤/١)، و«مدارج السالكين» (٤/٢٧٩٣)، وانظر: «الاستقامة» (٦٥٨، ١٨٥).

.(٧٨/٢).

(٢) البيت للحلاج في «ديوانه» ضمن الأعمال الكاملة (٢٨٨)، ونسبة إليه في «وفيات الأعيان» (٣/١٤٣)، وشكك الرافعي في تلك النسبة في «تاريخ آداب العرب» (٣/١٣٣).

وليس عند القوم في نفس الأمر سبب ولا غاية ولا حكمة، ولا قوة في الأجسام ولا طبيعة ولا غريزة، فليس في الماء قوة التبريد، ولا في النار قوة التسخين، ولا في الأغذية قوة الغذاء، ولا في الأدوية قوة الدواء، ولا في العين قوة الإبصار، ولا في الأذن قوة السمع، ولا في الأنف قوة الشم، ولا في الحيوان قوة فاعلة، ولا قوة جاذبة، ولا ممسكة ولا دافعة.

والرب تعالى لم يفعل شيئاً بشيء، ولا شيئاً لشيء، فليس في أفعاله باء تسبّب<sup>(١)</sup>، ولا لام تعليل، وما ورد من ذلك فمحمل على باء المصاحبة، ولا م العاقبة.

وزادوا على ذلك أن الأفعال لا تنقسم في نفسها<sup>(٢)</sup> إلى حَسَن وقبيح، ولا فرق في نفس الأمر بين الصدق والكذب، والبر والفسرور، والعدل والظلم، والسجود للرحمٰن والسجود للشيطان، والإحسان إلى الخلق والإساءة إليهم، ومسبة الحال تعلٰى والثناه عليه، وإنما نعلم الحسن من ذلك من القبيح بمجرد الأمر والنهي، ولذلك يجوز النهي عن كل ما أمر به، والأمر بكل ما نهى عنه، ولو فعل ذلك لكان هذا قبيحاً وهذا حسناً.

وزاد بعض محققِيهم على هذا: أن الأجسام كلها متماثلة، فلا فرق في الحقيقة بين جسم النار وجسم الماء، ولا بين جسم الذهب وجسم الخشب، ولا بين المُسْك والرَّجَع، وإنما تفترق بصفاتها وأعراضها، مع تماثلها في الحَدَّ والحقيقة.

---

(١) «د»: «تسبّب» مقيدة، والمثبت من «م»، وانظر: «طريق الهجرتين» (١/٢٣٥).

(٢) «م»: «أنفسها»، والمثبت من «د» وسيأتي نظيره.

وزادوا على ذلك بأن قالوا: الأعراض كلها لا تبقى زمانين، ولا تستقرّ وقتين. فإذا جمعت بين قولهم بعدم بقاء الأعراض، وقولهم بتماثل الأجسام، وتساوي الأفعال، وأن العبد لا فعل له بالّة، وأنه لا سبب في الوجود ولا قوة ولا غريرة ولا طبيعة، وقولهم: إنَّ الرَّبَّ تَعَالَى لِيُسْ لَهُ فَعْلٌ يَقُولُ بِهِ، وفَعْلُهُ عَيْنٌ مَفْعُولٌ. وقولهم: إنه ليس بمبادرٍ لخلقِهِ، ولا داخِلٌ لِعَالَمٍ ولا خارجهِ، ولا متصلاً به ولا منفصلًا عنه. وقولهم: إنه لا يتكلّم ولا يُكَلِّمُ، ولا قال ولا يقول، ولا سمع أحدٌ خطابَه ولا يسمعه، ولا يراه المؤمنون يوم القيمة جهراً بأبصارِهم من فوقهم = أنتَجْتَ لَكَ هَذَا الأصْوَلَ عَقْلًا يعارض السمع، ويناقض الوحي، وقد أوصاكَ الأشياخُ عند التعارض بتقديم هذا المعقول، على ما جاء به الرَّسُولُ ﷺ.

فَلَوْ أَنِّي بُلِّيْتُ بِهَا شَمِّيٌّ  
خَوْلُثُهُ بْنُو عَبْدِ الْمَدَانِ  
لَهَانُ عَلَيَّ مَا أَلْقَى وَلَكُنْ  
تَعَالَوْا فَانظُرُوا بِمَنْ ابْتَلَانِي<sup>(١)</sup>

## فصل

ولما كانت معرفة الصواب في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل واقعةً في مرتبة الحاجة، بل في مرتبة الضرورة؛ اجتهدت في جمع هذا الكتاب وتهذيبه، وتحريره وتقريره، فجاء فرداً في معناه، بدليعاً في مغزاها، وسميتُه:

---

(١) أنسدها دون نسبة في «الكامل» (٢/٩٨٠)، وفي «ديوان المعاني» (١/٣٧٥).

وأشار محقق «الكامل» إلى مجيئها في بعض الأصول منسوبة لدعبل، ورجح الأشتر عدم صحة هذه النسبة في «ديوان دعبل» (٤٢٩)، ونسبهما في «أخبار أبي تمام» (٣٩) إلى زياد بن عبيد الله الحارثي، وفي «بهجة المجالس» (١/٣٨٤) إلى أبي راسب.

(شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل)

وجعلته أبواباً:

الباب الأول: في تقدير المقادير قبل خلق السماوات والأرض.

الباب الثاني: في تقدير الرب تعالى شقاوة العباد وسعادتهم وأرزاقهم  
وآجالهم قبل خلقهم، وهو تقدير ثانٍ بعد الأول.

الباب الثالث: في ذكر احتجاج آدم وموسى في ذلك، وحكم النبي ﷺ  
لآدم.

الباب الرابع: في ذكر التقدير الثالث والجنيين في بطن أمه.

الباب الخامس: في التقدير الرابع ليلة القدر.

الباب السادس: في ذكر التقدير الخامس اليومي.

الباب السابع: في أنَّ سُبْقَ المقادير بالشقاوة والسعادة لا يقتضي ترك  
الأعمال، بل يوجب الاجتهد والحرص؛ لأنَّ تقدير بالأسباب.

الباب الثامن: في قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَا الْحُسْنَى»  
[الأنبياء: ١٠١].

الباب التاسع: في قوله تعالى: «إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدْرٍ» [القمر: ٤٩].

الباب العاشر: في مراتب القضاء والقدر التي من استكمل معرفتها  
والإيمان بها فقد آمن بالقدر، وذكر المرتبة الأولى.

الباب الحادي عشر: في ذكر المرتبة الثانية من مراتب القضاء والقدر،  
وهي مرتبة الكتابة.

الباب الثاني عشر: في ذكر المرتبة الثالثة، وهي مرتبة المشيئة.

الباب الثالث عشر: في ذكر المرتبة الرابعة، وهي مرتبة خلق الأعمال.

الباب الرابع عشر: في الهدى والضلال ومراتبهما.

الباب الخامس عشر: في الطَّبع والخَتم والقَفل والغَلَّ والسَّدْ والغشاوة ونحوها، وأنه مفعول للربّ.

الباب السادس عشر: في تفرد الربّ بالخلق للذوات والصفات والأفعال.

الباب السابع عشر: في الكسب والجبر، ومعناهما لغةً واصطلاحاً، وإطلاقهما نفياً وإثباتاً.

الباب الثامن عشر: في فَعَلْ وَأَفْعَلْ في القضاء والقدر، وذكر الفعل والانفعال.

الباب التاسع عشر: في ذكر مناظرة جرت بين جبريّ وستنيّ.

الباب العشرون: في ذكر مناظرة بين قدربيّ وستنيّ.

الباب الحادي والعشرون<sup>(١)</sup>: في تنزيه القضاء الإلهي عن الشر، ودخوله في المُقْضِي.

الباب الثاني والعشرون: في طرق إثبات حكمة الربّ تعالى في خلقه وأمره، وإثبات الغaiات المطلوبة، والعواقب الحميدة، التي فعل وأمر لأجلها، وهو من أجل أبواب الكتاب.

---

(١) «م»: «والعشرين»، وتكررت في الأبواب الآتية.

**الباب الثالث والعشرون:** في استيفاء شبه نفأة الحكمة، وذكر الأجرة المفصلة عنها.

**الباب الرابع والعشرون:** في معنى قول السلف في الإيمان بالقدر خيره وشرّه، وحلوه ومرّه.

**الباب الخامس والعشرون:** في بيان بطلان قول من قال: إنَّ الرَّبَّ تَعَالَى مُرِيدٌ لِلشَّرِّ وَفَاعِلٌ لِهِ، وَامْتَنَاعٌ إِطْلَاقَ ذَلِكَ نَفِيًّا وَإِثْبَاتًا.

**الباب السادس والعشرون:** فيما دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ ﷺ: «أَعُوذُ بِرَضَاكَ مِنْ سُخْطَكَ، وَأَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ عَقْوِيْتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ»؛ مِنْ تَحْقيقِ الْقَدْرِ وَإِثْبَاتِهِ، وَأَسْرَارِ هَذَا الدُّعَاءِ.

**الباب السابع والعشرون:** في دخول الإيمان بالقضاء والقدر والعدل والتوحيد تحت قوله: «ماضٍ فِي حُكْمِكَ، عَدْلٌ فِي قَضَاؤُكَ»، وما تضمنه الحديث من قواعد الدين.

**الباب الثامن والعشرون:** في أحكام الرضا بالقضاء، واختلاف الناس في ذلك، وتحقيق القول فيه.

**الباب التاسع والعشرون:** في انقسام القضاء والإرادة والكتابة والحكم والأمر والإذن والجَعْل والكلمات والبعث والإرسال والتحريم والعطاء والمنع = إلى كوني يتعلّق بخلقه، وديني يتعلّق بأمره، وما في تحقيق ذلك من إزالة اللبس والإشكال.

**الباب الموفي ثلاثة:** في الفطرة الأولى التي فطر الله عباده عليها، وبيان أنها لا تنافي القضاء والقدر<sup>(۱)</sup>، بل توافقه وتجامعه.

---

(۱) (د): «والعدل».

وهذا حين الشروع في المقصود، فما كان فيه من صواب فمن الله وحده،  
هو المانّ به. وما كان فيه من خطأ فمّنّي ومن الشيطان، والله بريء منه  
رسوله.

فيما أيّها المتأمل له، الواقف عليه، لك غُنمه، وعلى مؤلّفه غُرمه، ولكل  
فائدة، وعليه عائدته. فلا تعجل بإنكار ما لم يتقدم لك أسباب معرفته، ولا  
يحملنّك شأنّ مؤلّفه وأصحابه على أن تُحرّم ما فيه من الفوائد، التي لعلك  
لا تظفر بها في كتاب، ولعل أكثر من تعظّمه ماتوا بحسرتها، ولم يصلوا إلى  
معرفتها، والله يقسم فضله بين خلقه بعلمه وحكمته، وهو العليم الحكيم،  
والفضل بيد الله يؤتى به من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.



# البَابُ الْأَوَّلُ

## في تقدير المقادير قبل خلق السماوات والأرض

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلاائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء» رواه مسلم في «ال الصحيح»<sup>(١)</sup>.

وفي دليل على أن خلق العرش سابق على خلق القلم، وهذا أصح القولين؛ لما روى أبو داود في «سننه»<sup>(٢)</sup> عن أبي حفص الشامي قال: قال عبادة بن الصامت: يا بني، إنك لن تجد طעם الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصييك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. قال: رب، وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة». يا بني، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات على غير هذا فليس مني».

وكتابة القلم للقدر كان في الساعة التي خُلِقَ فيها؛ لما رواه الإمام أحمد

(١) برقم (٢٦٥٣).

(٢) برقم (٤٧٠٠) وفي إسناده ضعف، أبو حفص وأبو حفصة الشامي - واسمها: جبيش الحبشي - تابعي مقل، أورده ابن حبان في «الثقات» (٤/١٩٠)، واختلف عليه في إسناده، وقد تابعه عطاء بإسناد ضعيف عند الترمذى (٣٣١٩، ٢١٥٥) وقال في الموضع الثاني منهما: «حسن صحيح غريب»، وللحديث متابعات وشواهد يصح بها، سيدرك المؤلف بعضها.

في «مسنده»<sup>(١)</sup> من حديث عبادة بن الوليد، قال: حدثني أبي، قال: دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت، فقلت: يا أباها، أوصني واجتهد لي. فقال: أجلسوني. فلما أجلسوه قال: يا بني، إنك لن تجد طعم الإيمان، ولن تبلغ حق حقيقة العلم بالله تبارك وتعالى؛ حتى تؤمن بالقدر خيره وشره. قلت: يا أباها، وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك. يا بني، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله تعالى القلم، ثم قال: اكتب. فجرب في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيمة». يا بني، إن مِتَّ ولست على ذلك دخلت النار.

وهذا الذي كتبه القلم هو القدر؛ لما رواه ابن وهب<sup>(٢)</sup>: أخبرني عمر بن محمد، أن سليمان بن مهران حدثه قال: قال عبادة بن الصامت: ادعوا لي ابني – وهو يموت – لعلني أخبره بما سمعت من رسول الله ﷺ، سمعت رسول الله ﷺ<sup>(٣)</sup> يقول: «إن أول شيء خلقه الله من خلقه القلم، فقال له: اكتب. فقال: يا رب، ماذا أكتب؟ قال: القدر»، قال رسول الله ﷺ: «فمن لم يؤمِن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار».

وعن عبد الله بن عباس قال: كنت خلف النبي ﷺ يوماً، فقال لي: «يا

(١) برقم (٢٢٧٠٥)، والفریابی فی «القدر» (٧٢)، بایسناد لین، فیه آیوب بن زیاد روی عنہ جماعتہ و لم یوئیه سوئی ابن حبان فی «الثقات» (٦/٥٨)، ویقویه ما قبله و ما بعده من متابعات و شواهد.

(٢) «القدر» (٢٦)، ویسناده منقطع؛ الأعمش لم یدرك عبادة، ویحسن بغيره.

(٣) «سمعت رسول الله ﷺ ساقطة من «د».

غلام، إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألتَ فاسأّل الله، وإذا استعنَتْ فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام، وجفت الصحف» رواه الترمذى وقال: «حديث حسن صحيح»<sup>(١)</sup>.

وعن أبي هريرة قال: قلت: يا رسول الله، إني رجل شاب، وأنا أخاف على نفسي العنت، ولا أجد ما أتزوج به النساء. فسكت عنى، ثم قلت مثل ذلك، فسكت عنى، ثم قلت مثل ذلك<sup>(٢)</sup> فقال النبي ﷺ: «يا أبو هريرة، جف القلم بما أنت لاق، فاختص على ذلك أو ذر» رواه البخاري في «صححه»<sup>(٣)</sup>، فقال: ثنا<sup>(٤)</sup> أصبغ: ثنا ابن وهب، عن يونس، عن الزهرى، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة.

ورواه ابن وهب في «كتاب القدر»<sup>(٥)</sup> وقال فيه: فأذن لي أن اختصي. فقال: قال<sup>(٦)</sup>: فسكت عنى حتى قلت ذلك ثلاث مرات، فقال: «جف القلم

(١) برقم (٢٥١٦)، وأحمد (٢٦٦٩) من طرق عن قيس بن الحجاج، عن حنش، عن ابن عباس، قال ابن منده في «التوحيد» (٢/١٠٧): «هذا إسناد مشهور، رواه ثقات، وقيس بن الحجاج مصرى روى عنه جماعة، ولهذا الحديث طرق عن ابن عباس، وهذا أصحها»، وانظر: «جامع العلوم والحكم» (١/٤٦٠).

(٢) من قوله: «فسكت عنى». الثانية- إلى هنا ساقط من «م»، انتقال نظر.

(٣) برقم (٥٠٧٦) معلقاً، ووصله الفريابي في «القدر» (٤٣٧).

(٤) كذا في «د» «م»: «ثنا» خطأ، صوابه: «قال»؛ فإنه معلق في «الصحيح».

(٥) برقم (١٦)، ومن طريقه أبو عوانة (٤٠٠٧) بأسنان صحيح.

(٦) كذا في «د» «م»: «فقال: قال»، صوابه بالفعل الثاني فقط، كما في مصدر الرواية.

بما أنت لاق».

وقال أبو داود الطيالسي<sup>(١)</sup>: ثنا عبد المؤمن - هو ابن عبد الله<sup>(٢)</sup> - قال: كنا عند الحسن فأتاه بُرِينْد بن أبي مريم السلوبي يتوكأ على عصا، فقال: يا أبا سعيد، أخبرني عن قول الله عز وجل: «مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ» [الحديد: ٢٢]. فقال الحسن: نعم والله، إن الله ليقضي القضية في السماء، ثم يضرب لها أجلاً أنه كائن في يوم كذا وكذا، في ساعة كذا وكذا في الخاصة وال العامة<sup>(٣)</sup>، حتى إن الرجل ليأخذ العصا ما يأخذها إلا بقضاء وقدر. قال: يا أبا سعيد، والله لقد أخذتها وإنني عنها لغنى، ثم لا صبر لي عنها. قال الحسن: أفلأ ترى.

وأختلف في الضمير في قوله: «مِنْ قُتِلَ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ»، فقيل: هو عائد على النفس؛ لقربها منه.

وقيل: هو عائد على الأرض.

وقيل: عائد على المصيبة.

والتحقيق أن يقال: هو عائد على البرية التي تعم هذا كله، ودلّ عليه السياق، وقوله: «نبرأها»، فتنتظم التقادير الثلاثة انتظاماً واحداً، والله أعلم.

(١) لم أقف عليه من هذا الوجه، وأخرجه ابن بطة في «الإبانة الكبرى» (١٩٤ / ٢) من طريق أبي داود السجستاني، عن محمد بن عيسى، عن عبد المؤمن بن حمزة، وعزاه في «الدر المثور» (١٤ / ٢٨٥) إلى ابن المنذر بقريب منه.

(٢) كذا في «د» «م»: «ابن عبد الله» تحريف، صوابه: «ابن عبيد الله» وهو السدوسي، من رجال «التهذيب» (١٨ / ٤٤٤).

(٣) «م»: «أو العامة»، والمثبت موافق لمصدري التخريج الآتئين.

وقال ابن وهب<sup>(١)</sup>: أخبرني عمر بن محمد، أن سليمان بن مهران حدثه قال: قال عبد الله بن مسعود: إن أول شيء خلقه الله عز وجل من خلقه القلم، فقال له: اكتب. فكتب كل شيء يكون في الدنيا إلى يوم القيمة، فيجمع بين الكتاب الأول وبين أعمال العباد، فلا يخالف ألفاً ولا واؤا ولا ميمماً.

وعن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور شيء اهتدى، ومن أخطأه ضلّ».

قال عبد الله بن عمرو<sup>(٢)</sup>: فلذلك أقول: جفَّ القلم بما هو كائن. رواه الإمام أحمد<sup>(٣)</sup>.

وقال أبو داود<sup>(٤)</sup>: حدثنا عباس بن الوليد بن مزيد، قال: أخبرني أبي، قال: سمعت الأوزاعي، قال: حدثني ربيعة بن يزيد ويحيى بن أبي عمرو

(١) «القدر» (٢٩)، وفيه انقطاع، سليمان - هو الأعمش - لم يدرك ابن مسعود.

(٢) «د»: «عمر»، وطمسمت في «م».

(٣) برقم (٦٦٤٤) بصحوة، وهو جزء من حديث طويل يشتمل على ثلاثة أخبار سيأتي قريباً، وأخرجه بتمامه الفريابي في «القدر» (٧٠)، والحاكم (٨٣).

وأخرج القدر الذي أورده المؤلف ابن أبي عاصم في «الستة» (٢٤١)، والترمذى (٢٦٤٢) وحسنه، والفریابی في «القدر» (٦٧)، وصححه ابن حبان (٦١٦٩).

(٤) هو السجستانی في كتابه «القدر».

والحديث أخرجه من طريق العباس بن الوليد بأطول منه الحاکم في «المستدرک» (٨٣).

**السيّاني**، قال: حدثني عبد الله بن فيروز الديلمي، قال: دخلت على عبد الله ابن عمرو بن العاص - وهو في حائط له بالطائف يقال له: الوَهْط - فقلت: خصال بلغتني عنك تحدث بها عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من شرب الخمر لم تقبل توبته أربعين صباحاً، وأن الشقي من شقي في بطن أمه»، قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور يومئذ اهتدى، ومن أخطأه ضلّ»، فلذلك أقول: جفَ القلم على علم الله.

ورواه الإمام أحمد في «مسنده»<sup>(١)</sup> أطول من هذا، عن عبد الله بن فิروز الديلمي، قال: دخلت على عبد الله بن عمرو، وهو في حائط له بالطائف يقال له: الْوَهْطُ، وهو مُخَاصِّرٌ<sup>(٢)</sup> فتى من قريش يُزَانَ<sup>(٣)</sup> بشرب الخمر، فقلت: بلغني عنك حديث أنه: «من شرب شَرْبَةً خمر لم يقبل الله له توبية أربعين صباحاً، وأن الشَّقِيقَ مَن شَقِيقَ في بطنه أمه، وأنه من أتى بيت المقدس لا يَهْزُأُ إلا الصلاة فيه خرج من خطبته مثل يوم ولدته أمه»، فلما سمع الفتى ذكر الخمر اجذب يده من يده، ثم انطلق، فقال عبد الله بن عمرو: إني لا أُحِلُّ لأحد أن يقول عليَّ ما لم أقل، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شرب من الخمر شَرْبَةً لم تُقبل له»<sup>(٤)</sup> صلاة أربعين صباحاً، فإن تاب تاب الله عليه، فلا

(١) برقم (٦٦٤٤)، وتقديم الكلام عليه.

(٢) «د»، «م»: «محاضر» تصحيف، والمثبت من مصادر التخريج، وخاصر الرجل صاحبه إذا أمسك بيده، انظر: *غريب الحديث* لأبي عبد (خصر) (١) (٣٠٨).

(٣) يقال: زَهْ بِكَذَا وَأَزْنَهُ إِذَا اتَّهَمَهُ بِهِ وَظَنَّهُ فِيهِ، «النهاية في الغريب» (زنـ.) (٣١٦) (٢/).

(٤) «م»: «الله» تحریف.

أدرى في الثالثة أو في الرابعة قال: «فإن عاد كان حَقّاً على الله أن يسقيه من رَذْغَةِ الْخَيْلِ<sup>(١)</sup> يوم القيمة».

قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى، ومن أخطأه ضلّ»، فلذلك أقول: جفّ القلم على علم الله.

وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن سليمان بن داود سأله عز وجل ثلاثة فأعطاه اثنين، ونحن نرجو أن تكون لنا<sup>(٢)</sup> الثالثة: سأله حُكْمًا يصادف حُكْمه؛ فأعطاه الله إيه، وسأله ملائكة لا ينبغي لأحد من بعده؛ فأعطاه إيه، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد خرج من خطبته مثل يوم ولدته أمه، فنحن نرجو أن يكون الله عز وجل، يعني: قد أعطانا<sup>(٣)</sup> إيه، ورواه الحاكم في «صححه»<sup>(٤)</sup>، وقال: «هو على شرط الشيفيين، ولا علة له».



(١) هي عصارة أهل النار كما في «مسلم» (٢٠٠٢)، وأصل الرَّذْغَة: الطين والوحول الكبير، انظر: «النهاية في الغريب» (ردع) (٢١٥ / ٢).

(٢) في «المسند» ومصادر التخريج: «له»، وجاءت عند ابن كثير موافقة لما هنا في «التفسير» (٧ / ٧٢)، و«البداية والنهاية» (٢ / ٣٤١).

(٣) في «د» و«المسند» ومصادر التخريج: «أعطيه»، والمثبت من «م» وهو المتسق مع ما تقدم في الحاشية السابقة.

(٤) (١ / ٨٤)، ولفظه: «هذا حديث صحيح قد تداوله الأئمة، وقد احتاجا بجميع رواته، ثم لم يخرجوا، ولا أعلم له علة».

## البَابُ الْثَانِي

في تقدير الرب تبارك وتعالى شقاوة العباد وسعادتهم وأرزاقهم وأجالهم وأعمالهم قبل خلقهم، وهو تقدير ثانٍ بعد التقدير الأول

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنّا في جنازة في يقمع الغرقد، فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله، ومعه مخصوصة<sup>(١)</sup>، فنكّس فجعل ينكّس بمخصوصته، ثم قال: «ما منكم من أحد، ما من نفس متفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار، إلا قد كتبت شقية أو سعيدة». قال: فقال رجل: يا رسول الله، أفلأ نمكث على كتابنا، وندع العمل؟ فقال: «من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة»، ثم قرأ: ﴿فَمَمَّا مَنْ أَعْطَلَ وَأَنْقَنَ وَصَدَقَ بِالْحَسْنَى فَسَيُسْرُهُ لِلْيُسْرَى وَمَمَّا مَنْ بَيْلَ وَأَسْتَغْنَى وَكَذَبَ بِالْحَسْنَى فَسَيُسْرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٥ - ١٠].

وفي لفظ: «اعملوا فكل ميسّر، أما أهل السعادة فيُسّرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة ففيُسّرون لعمل أهل الشقاوة»، ثم قرأ: ﴿فَمَمَّا مَنْ أَعْطَلَ وَأَنْقَنَ وَصَدَقَ بِالْحَسْنَى فَسَيُسْرُهُ لِلْيُسْرَى وَمَمَّا مَنْ بَيْلَ وَأَسْتَغْنَى وَكَذَبَ بِالْحَسْنَى فَسَيُسْرُهُ لِلْعُسْرَى﴾<sup>(٢)</sup>.

وعن عمران بن حصين قال: قيل: يا رسول الله، أعلم أهل الجنة من

(١) المخصوصة: ما يختصره الإنسان بيده فيمسكه أو يتکع عليه من عصا أو عكارة ونحوها، «النهاية في الغريب» (خصر) (٢٣٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٦٢)، ومسلم (٢٦٤٧) واللفظ له.

أهل النار؟ فقال: «نعم»، قيل: ففيم يعمل العاملون؟ قال: «كل ميسّر لـما خلّق له» متفق عليه<sup>(١)</sup>.

وفي بعض طرق البخاري: «كل يعمل لما خلّق له، أو لما يُسّر له»<sup>(٢)</sup>.

وعن أبي الأسود الدؤلي قال: قال لي عمران بن حصين: أرأيت ما ي العمل الناس اليوم ويكتدون فيه، أشيء قُضي عليهم، ومضى عليهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟ فقلت: بل شيء قُضي عليهم، ومضى عليهم. قال: فقال: أفل يكون ظلماً؟ قال: ففزعنا من ذلك فرعاً شديداً، وقلت: كل شيء خلق الله، ومُلْكُ يده، فلا يُسأل عما يفعل وهم يسألون. قال: فقال لي: يرحمك الله، إني لم أرد بما سألك إلا لأحرز عقلك، إن رجلين من مُزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله، أرأيت ما ي العمل الناس اليوم، ويكتدون فيه، أشيء قُضي عليهم، ومضى عليهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟ فقال: «بل شيء قُضي عليهم، ومضى فيهم، وتصدّيق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿وَقَسَّ رِمَاسَوْهَا ۚ فَأَلَّهُمَّ هَامَ فُجُورَهَا وَتَقْوَهَا﴾ [الشمس: ٧-٨]». رواه مسلم في «صحيحه»<sup>(٣)</sup>.

وعن شفوي الأصبهي، عن عبد الله بن عمرو قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان، فقال: «أتدرؤن ما هذان الكتابان؟» قال: قلنا: لا، إلا أن

(١) أخرجه البخاري (٧٥٥١)، ومسلم (٢٦٤٦) واللفظ له.

(٢) برقـم (٦٥٩٦).

(٣) برقـم (٢٦٥٠).

تخبرنا يا رسول الله. قال للذى في يده اليمنى: «هذا كتابٌ من رب العالمين تبارك وتعالى بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم<sup>(١)</sup>، لا يُزداد فيهم، ولا يُنقص أبداً»، ثم قال للذى في يساره: «هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم، لا يُزداد فيهم، ولا يُنقص منهم أبداً»، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فلائي شيء نعمل إن كان هذا أمر قد فرغ منه؟ قال رسول الله ﷺ: «سددوا وقاربوا؛ فإنَّ صاحب الجنة يُختم له بعمل الجنة وإنَّ عمل أيَّ عمل، وإنَّ صاحب النار يُختم له بعمل النار وإنَّ عمل أيَّ عمل»، ثم قال بيده فقبضها، ثم قال: «فرغ ربكم عز وجل من العباد»، ثم قال باليمنى فنبأ بها، فقال: «فريق في الجنة»، ونبأ باليسرى، فقال: «فريق في السعير». رواه الترمذى عن قتيبة، عن ليث، عن أبي قِبْلٍ، عن شُفَّيٍّ. وعن قتيبة، عن بكر بن نصر<sup>(٢)</sup>، عن أبي قِبْلٍ به، وقال: «حديث حسن صحيح غريب»، ورواه النسائي، والإمام أحمد، وهذا السياق له<sup>(٣)</sup>.

(١) أي أحصوا وجمعوا، من أجملت الحساب إذا جمعت آحاده وكملت أفراده، «النهاية في الغريب» (جمل) (٢٩٨/١).

(٢) كما في «د» «م»: «ابن نصر»، صوابه: «ابن مُضر»، من رجال الشیخین كما في «تهذیب الكمال» (٤/٢٢٧)، وكذلك وقعت محرفة في الأصول الخطية لـ«مدارج السالکین» (٢/١٤٧) كما أشار إليه المحقق، وكان هذا التحریف کان واقعاً بنفس الأصل الذي ینقل منه المؤلف.

(٣) الترمذى (٢١٤١)، وأحمد (٦٥٦٣)، والنسائى في «الكبير» (١١٤٠٩)، من طرق عن أبي قِبْلٍ حُبَيْبٍ بن هانئٍ به، وأبو قِبْلٍ وثقة جماعة وتكلم فيه آخرون، وحسن إسناده ابن حجر في «الفتح» (١/٢٩١).

وفي «صحيح الحاكم»<sup>(١)</sup> وغيره من حديث أبي جعفر الرازى، حدثنا الربع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب في قوله تعالى: «وَإِذَا خَذَرْتَكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِ ذُرِّيَّتِهِمْ»<sup>(٢)</sup> قال: «جَمِيعُهُمْ لَهُ يوْمٌ مِّذْ جَمِيعًا، مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَّا يَوْمُ الْقِيَامَةِ، فَجَعَلُوهُمْ أَرْوَاحًا، ثُمَّ صَوْرَهُمْ وَاسْتَنْطَقُوهُمْ، فَتَكَلَّمُوا، وَأَخْذُ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ وَالْمِيَاضِ، وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَسْتَبَرَ تَكَوْكِيلُ الْأَبْيَانِ شَهَدَنَا أَنَّ يَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا نَعْمَلُ هَذَا عَلَيْهِمْ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَتَيْنَاهُمْ بِمَا كُنَّا نَعْمَلُ»<sup>(٣)</sup> [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣]، قال: فإِنِّي أُشَهِّدُ عَلَيْكُمُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ، وَأُشَهِّدُ عَلَيْكُمْ أَبَاكُمْ آدَمَ، أَنْ تَقُولُوا يَوْمُ الْقِيَامَةِ: لَمْ نَعْلَمْ، أَوْ تَقُولُوا: إِنَّا كَنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ، فَلَا تَشْرِكُوا بِي شَيْئًا، فَإِنِّي أَرْسَلْتُ إِلَيْكُمْ رَسْلِي، يَذْكُرُونَكُمْ عَهْدِي وَمِيَاضِي، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكُمْ كِتَبِي. قَالُوكُمْ: نَشَهِدُ أَنَّكُمْ رَبُّنَا وَإِلَهُنَا، لَا رَبَّ لَنَا غَيْرُكُمْ، وَرُفِعَ لَهُمْ أَبُوهُمْ آدَمْ فِي هُمْ الْغَنِيُّ وَالْفَقِيرُ، وَحَسَنَ الصُّورَةُ وَغَيْرُ ذَلِكَ، قَالَ: رَبَّ، لَوْ سَوِّيْتَ بَيْنَ عَبْدَكَ؟ قَالَ: إِنِّي أَحُبُّ أَنْ أُشَكِّرَ وَرَأَيْ فِيهِمُ الْأَتْيَاءَ مِثْلَ السُّرُجِ» وَذَكَرَ تَامَّ الْحَدِيثِ.

(١) برقم (٣٢٥٥)، وأخرجه الفريابي في «القدر» (٥١)، وعبد الله في زوائد «المسندة» (٢١٢٣٢)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/١٦١٥).

(٢) «م»: «ذُرِّيَّتِهِمْ» قرأها عاصم وغيره، والمثبت من «د»، قراءة نافع وابن عامر وأبي عمرو - قراءة الشاميين في عصر المؤلف -، وستتكرر هذه القراءة في سائر الكتاب، انظر: «الحججة للقراء السبعية» (٤/١٠٤).

(٣) من أول الآية إلى هنا محله في «د»: «إِلَى قَوْلِهِ».

وفي «صحيحة» و«جامع الترمذى»<sup>(١)</sup> من حديث هشام بن زيد<sup>(٢)</sup>، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيمة أمثال الذر، ثم جعل بين عيني كُلّ إنسان منهم وَبِيَصًا<sup>(٣)</sup> من نور، ثم عرضهم على آدم، فقال: من هؤلاء يارب؟ قال: هؤلاء ذريتك. فرأى فيهم رجالاً عجبه وَبِيَصًا ما بين عينيه، فقال: يا رب من هذا؟ قال: ابنك داود، يكون في آخر الأمم. قال: كم جعلت له من العمر؟ قال: ستين سنة. قال: يا رب، زده من عمري أربعين سنة. قال الله: إذن يُكتب ويُختتم فلا يُدَلَّ. فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت، قال: أَوَ لَمْ يبق من عمري أربعون سنة؟ قال له: أولم تجعل لها لابنك داود؟! قال: فجحد فجحدت ذريته، ونسبي فنسبي ذريته، وَخَطِئَ فَخَطِئَتْ ذَرِيْتَهُ»، قال: «هذا على شرط مسلم».

وفي «الموطأ»<sup>(٤)</sup>: مالك، عن زيد بن أبي أنيسة، أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أخبره، عن مسلم بن يسار الجهنمي، أن

(١) المستدرك (٣٢٥٧)، «جامع الترمذى» (٣٠٧٦) وقال: «حسن صحيح».

(٢) كذا في «م»: «زيد»، وفي «د»: «يزيد» سبق قلم من المؤلف؛ فإنه وقع كذلك في جميع الأصول الخطية لكتاب «الروح» (٤٥٥/٢)، صوابه: «سعد» كما في مصادر التخريج.

(٣) الوبيض: البريق، «النهاية في الغريب» (وبص) (١٤٦/٥).

(٤) (٢/٨٩٨)، ومن طريقه أبو داود (٤٧٠٣)، والنسائي في «الكبرى» (١١١٢٦)، والترمذى (٣٠٧٥) وقال: «هذا حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر، وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وبين عمر رجالاً، وسيتكلّم المؤلف على الحديث وبيان علته».

عمر بن الخطاب رضي الله عنه سُئل عن هذه الآية: ﴿وَإِذَا خَذَرْتُكَ مِنْ بَيْنَ أَدَمَ وَمِنْ ظُهُورِهِ دُرِّيَّتُهُمْ﴾<sup>(١)</sup>، فقال عمر: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئل عنها، فقال: «إن الله خلق آدم، ثم مسح ظهره بيديه، فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون». فقال رجل: يا رسول الله، فكيف العمل؟ فقال: «إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله النار»، قال الحاكم: «هذا الحديث على شرط مسلم»<sup>(٢)</sup>.

وليس كما قاله، بل هو حديث منقطع، قال أبو عمر: «هو حديث منقطع؛ فإن مسلم بن يسار هذا لم يلق عمر بن الخطاب، بينهما نعيم بن ربيعة، هذا إن صحيحة؛ لأن<sup>(٣)</sup> الذي رواه عن زيد بن أبي أثيصة – فذكر فيه نعيم بن ربيعة<sup>(٤)</sup> – ليس هو بأحافظ من مالك، ولا من يُحتاج به إذا خالفه مالك، ومع ذلك فإن نعيم بن ربيعة ومسلم بن يسار جميعاً مجاهolan غير معروفيين بحمل العلم ونقل الحديث، وليس هو مسلم بن يسار البصري العابد، وإنما هو رجل مدني<sup>(٥)</sup> مجهول».

(١) «م»: «ذریتهم»، وقد تقدم بيانه قريباً.

(٢) «المستدرك» (١/٨٠).

(٣) «د»: «أن»، والمثبت من «م» موافق للأصل المنقول منه.

(٤) «م»: «بن أبي ربيعة».

(٥) «م»: «بدوي» تحريف.

ثم ذكر من «تاریخ ابن أبي خیثمة»<sup>(۱)</sup> قال: قرأت على يحيى بن معین  
حدیث مالک هذا، فكتب بيده على مسلم بن یسار: لا یعرف.

قال أبو عمر: «هذا الحدیث وإن كان علیل الإسناد فإن معناه عن النبي ﷺ قد روی من وجوه كثیرة، من حدیث عمر بن الخطاب وغيره، ومنن روی عن النبي ﷺ معناه في القدر: علي بن أبي طالب، وأبي بن كعب، وابن عباس، وابن عمر، وأبو هریرة، وأبو سعید الخدیري، وأبو سریحة الغفاری، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وذو اللحیة الكلابی، وعمران بن حصین، وعائشة، وأنس بن مالک، وسراقۃ بن جُعْشُم، وأبو موسی الأشعري، وعبادة بن الصامت»<sup>(۲)</sup>.

قلت: وحذیفة بن الیمان، وزيد بن ثابت، وجابر بن عبد الله، وحذیفة بن أَسِيد<sup>(۳)</sup>، وأبو ذر، ومعاذ بن جبل، وهشام بن حکیم، وأبو عبد الله رجل من الصحابة، روی عنه أبو نَضْرَة، وعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسی، وأبو الدرداء، وعمرو بن العاص، وعائشة أم المؤمنین، وعبد الله بن الزیر، وأبو أمامة الباهلی، وأبو الطفیل، وعبد الرحمن بن عوف، وبعض أحادیثهم موقوفة، وستمر بك جميعها متفرقة في أبواب الكتاب إن شاء الله عز وجل.

---

(۱) (۲۲۷/۳).

(۲) «الاستذکار» (۸/۲۶۰)، وینحوه في «التمهید» (۶/۳)، وانظر: «المراسیل» (۲۱۰) لابن أبي حاتم، «علل الدارقطنی» (۲۲۱/۲-۲۲۳)، «تفسیر ابن کثیر» (۳/۵۰۳).

(۳) في حاشیة «م»: «حذیفة بن أَسِيد هو أبو سریحة الغفاری»، وهو كما قال؛ فلا وجه لاستدراکه على أبي عمر، انظر: «الاستیعاب» (۴/۱۶۶۷).

وقال إسحاق بن راهويه: أخبرنا بقية بن الوليد، قال: أخبرني الزبيدي  
 محمد<sup>(١)</sup> بن الوليد، عن راشد بن سعد، عن عبد الرحمن بن أبي قتادة<sup>(٢)</sup>،  
 عن أبيه، عن هشام بن حكيم بن حزام أن رجلاً قال: يا رسول الله، أتبتدا  
 الأعمال أم قد قضي القضاء؟ فقال: «إن الله لما أخرج ذرية آدم من ظهره،  
 أشهدهم على أنفسهم، ثم أفاض بهم في كفيه، فقال: هؤلاء للجنة وهم لاء  
 للنار، فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة، وأهل النار ميسرون لعمل أهل  
 النار»<sup>(٣)</sup>.

قال إسحاق: وأخبرنا عبد الصمد، حدثنا حماد، حدثنا الجُريري، عن  
 أبي نصرة أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ يقال له: أبو عبد الله، دخل عليه  
 أصحابه يعودونه وهو يبكي، فقالوا له: ما يبكيك؟ قال: سمعت رسول الله  
 ﷺ يقول: «إن الله قبض قبضة بيمنيه، وأخرى بيده الأخرى، قال: هذه لهذه،

(١) «م»: «الزبيدي بن محمد» يإقحام «ابن».

(٢) هكذا في الأصول الخطية، وكذلك هو في «مستند ابن راهويه» كما في الكتب الصادرة  
 عنه، وليس تحريراً أو خطأ، فقد كان بقية يضطرب في اسمه، نص عليه البخاري في  
 «التاريخ الكبير» (٣٤١ / ٥)، وابن حبان في «الثقة» (٧ / ٧٥)، والوجه فيه:  
 «عبد الرحمن بن قتادة» النصري.

(٣) هو في «مستند إسحاق». كما في «المطالب العالية» (٤٧٠ / ١٢) – ومن طريقه البيهقي  
 في «القضاء والقدر» (٢٢٦)، وأخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٥ / ٣٤٢)  
 (٨ / ١٩٢)، والفرغاني في «القدر» (٢٢، ٢٣، ٢٤) من طرق عن راشد بن سعد،  
 واختلفوا عنه إسناداً ومتناً، وبالاضطراب أعله ابن السكن كما في «تعجيز المفعة»  
 (١ / ٨٩١)، وابن عبد البر في «الاستيعاب» (٢ / ٨٥١)، ولأصل الحديث عدة شواهد  
 ستّة.

وهذه لهذه، ولا أبالي»، فلا أدرى في أي القبضتين أنا<sup>(١)</sup>.

أخبرنا عمرو بن محمد، حدثنا إسماعيل بن رافع، عن المقبرى، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى خلق آدم من تراب، ثم جعله طيناً، ثم تركه، حتى إذا كان صلصالاً كالفخار كان إيليس يمر به فيقول: خلقت لأمر عظيم! ثم نفع الله فيه من روحه، قال: يا رب، ما ذريتني؟ قال: اختر يا آدم. قال: اختار يمين ربى - وكلنا يدي ربى يمين - . فبسط الله كفه، فإذا كلّ من هو كائن من ذريته في كف الرحمن»<sup>(٢)</sup>.

أخبرنا النضر، أخبرنا أبو معشر، عن سعيد المقبرى ونافع مولى الزبير، عن أبي هريرة قال: «لما أراد الله أن يخلق آدم - فذكر خلق آدم - فقال له: يا آدم، أي يدي أحب إليك أن أريك ذريتك فيها؟ قال: يمين ربى - وكلنا يدي ربى يمين - ، فبسط يمينه، وإذا فيها ذريته كلهم ما هو خالق إلى يوم القيمة، الصحيح على هيته، والمبتلى على هيته، والأحياء على هيئاتهم، فقال: ألا أغفیتهم كلهم؟ فقال: إنني أحبيت أنأشكر» وذكر الحديث<sup>(٣)</sup>.

(١) أخرجه أحمد (١٧٥٩٣) بأسناد صحيح. قال الهيثمي في «المجمع» (١٨٥/٧): «رجالة رجال الصحيح»، وفي الباب عن معاذ وأنس وغيرهما.

(٢) أخرجه من هذا الوجه مرسوطاً أبو يعلى (٦٥٨٠)، وإسماعيل بن رافع ضعيف صاحب مناكر، كما في «المجرودين» (١٢٤/١)، واختلف فيه أصحاب المقبرى واضطربوا في لفظه، قال الترمذى (٣٣٦٨) بعد أن أخرجه من طريق آخر: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وقد روی من غير وجه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ»، وانظر: «السنن الكبرى» للنسائي (٩/٩٠-٩٣).

(٣) جزء من حديث طويل أخرجه ابن بشران في «الأمالي» (١/٢٨٧)، وعزاه في «الدر المثير» (١/٢٥١) إلى سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم.

وقال محمد بن نصر المروزي: حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا سعيد بن أبي مريم، أخبرنا الليث بن سعد، حدثني ابن عجلان، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبيه، عن عبد الله بن سلام قال: «خلق الله آدم، ثم قال بيده فقبضها، فقال: اختر يا آدم. فقال: اخترت يمين ربي – وكلتا يديك يمين – فبسطها فإذا فيها ذريته، فقال: من هؤلاء يا رب؟ قال: من قضيت أن أخلق من ذريتك من أهل الجنة إلى أن تقوم الساعة»<sup>(١)</sup>.

قال: وحدثنا إسحاق بن راهويه<sup>(٢)</sup>، حدثنا جعفر بن عون، أخبرنا هشام ابن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبي هريرة<sup>(٣)</sup>، عن النبي ﷺ قال: «لما خلق الله آدم مسع ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيمة» وذكر الحديث<sup>(٤)</sup>.

وقال إسحاق: حدثنا الملائي، حدثنا المسعودي، عن علي بن بَذِيمَة، عن سعيد، عن ابن عباس في قوله تعالى: «وَإِذْ أَخْذَ رَبَّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ طُهُورِهِرَبِّرِّيَّتِهِمْ» [الأعراف: ١٧٢] قال: «إن الله أخذ على آدم ميثاقه أنه ربّه، وكتب أجله ورزقه ومصيباته، ثم أخرج من ظهره ولده كهيئة الذر، فأخذ عليهم

(١) أخرجه مطولاً الفريابي في «القدر» (١)، ومحتصراً دون ذكر موضع الشاهد. النسائي في «الكبرى» (٩٩٧٦)، وهو بإسناده ومتنه في «الروح» (٤٦٠ / ٢).

(٢) «بن راهويه» من «اد».

(٣) كذا في الأصول: «زيد بن أسلم، عن أبي هريرة»، وكذلك وقع في «الروح» (٤٦٠ / ٢)، وتقدم الإسناد قريباً بإدخال أبي صالح بينهما؛ فإن زيداً لم يسمع من أبي هريرة، ذكره ابن معين في «التاريخ» برواية الدوري (٣ / ٢٤٤).

(٤) تقدم تخریجه في (٣٠).

الميثاق أنه ربهم، وكتب أجلهم ورزقهم ومصيانتهم»<sup>(١)</sup>.

قال: وثنا وكيع، ثنا الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، عن ابن عباس

قال: «مسح الله ظهر آدم، فأخرج كل طيب في يمينه، وفي يده الأخرى كل خبيث»<sup>(٢)</sup>.

وقال محمد بن نصر: حدثنا الحسن بن محمد الزعفراني، وحدثنا<sup>(٣)</sup> حجاج، عن ابن جريج، عن الزبير بن موسى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: «إِنَّ اللَّهَ ضَرَبَ مِنْكُهُ الْأَيْمَنَ، فَخَرَجَتْ كُلُّ نَفْسٍ مُخْلُوقةً لِلْجَنَّةِ بِيَضَاءِ نَقْيَةٍ، فَقَالَ: هُؤُلَاءِ أَهْلُ الْجَنَّةِ. ثُمَّ ضَرَبَ مِنْكُهُ الْأَيْسَرَ، فَخَرَجَتْ كُلُّ نَفْسٍ مُخْلُوقةً لِلنَّارِ سُودَاءً، فَقَالَ: هُؤُلَاءِ أَهْلُ النَّارِ. ثُمَّ أَخْذَ عَهْدَهُ عَلَى إِيمَانِهِ وَالْمَعْرِفَةِ لَهُ وَالتَّصْدِيقِ لَهُ وَبِأَمْرِهِ مِنْ بَنِي آدَمَ كُلَّهُمْ، وَأَشَهَدُهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ، فَآمَنُوا وَصَدَقُوا وَعَرَفُوا وَأَقْرَوَا»<sup>(٤)</sup>.

حدثنا إسحاق، حدثنا روح بن عبادة، ثنا محمد بن عبد الملك، عن أبيه، عن الزبير بن موسى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس بهذا الحديث،

---

(١) أخرجه الدارمي في «الرد على الجهمية» (٢٥٦)، والفریابی في «القدر» (٥٧)، والطبری (١٠ / ٥٥٠).

(٢) أخرجه الطبری (١٠ / ٥٤٩).

(٣) كذا في «د» «م»: «وَحَدَّثَنَا» خطأ، صوابه: «حدَّثَنَا»؛ فإنَّ ابنَ نَصْرٍ لم يدرك حجاجاً، وجاءَ عَلَى الوجهِ عِنْدَ ابْنِ بَطْرَةِ فِي «الإِبَانَةِ الْكَبِيرَ» (١٣٤٠)، وانظر: «الروح» (٤٦١ / ٢).

(٤) أخرجه الفريابي في «القدر» (٥٨)، والطبرى (١٠ / ٥٥٦).

وزاد: قال ابن جريج: وبلغني أنه أخر جهم على كفه أمثال الخردل<sup>(١)</sup>.  
 قال إسحاق: وأخبرنا جرير، عن منصور، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمر في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَخْذَرَكُمْ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾، قال: «أخذهم كما يؤخذ بالمشط»<sup>(٢)</sup>.

وفي «تفسير أسباط»: عن السدي، عن أصحابه أبي مالك<sup>(٣)</sup> وأبي صالح<sup>(٤)</sup>، عن ابن عباس، وعن مُرّة الْهَمْدَانِي، عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ في قوله: ﴿وَإِذَا أَخْذَرَكُمْ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ الآية، قال: «لما أخرج الله آدم من الجنة - قبل أن يهبطه من السماء - مسح صفحة ظهر آدم اليمنى، فأخرج منه ذرية بيضاء مثل اللؤلؤ، وكهيئة الذر، فقال لهم: ادخلوا الجنة برحمتي. ومسح صفحة ظهره اليسرى، فأخرج منه ذرية سوداء كهيئة الذر، فقال: ادخلوا النار ولا أبالي. فذلك حين يقول: ﴿أَصْحَابُ الْيَتَيْنِ﴾ و﴿أَصْحَابُ الشِّمَائِلِ﴾. ثم أخذ منهم الميثاق، فقال: ألسْت بربكم؟ قالوا: بل! فأعطاه طائفة طائعين، وطائفة كارهين على وجه التّقْيَة، فقال هو والملائكة: ﴿شَهَدْنَا أَنَّ يَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا تَعَذَّرْنَا هَذَا عَنِّنَا فَلَمْ يَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَهُ أَبْنَاءُنَا مِنْ قَبْلِ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٣ - ١٧٤]، فلذلك ليس أحد من

(١) آخرجه الطبرى (٥٥٦/١٠)، وابن منه فى «الرد على الجهمية» (٣٥).

(٢) آخرجه الطبرى (٥٥٣/١٠)، وابن أبي حاتم فى «التفسير» (١٦١٣/٥).

(٣) فى «م»: «أن مالك» تحريف، وهو أبو مالك غزوان الغفارى الكوفى، انظر: «تهذيب الكمال» (٢٣/١٠٠).

(٤) فى «د»: «وابن صالح»، وفي «م»: «وابن أبي صالح» كلاما خطأ، وهو أبو صالح باذام مولى أم هانى، انظر: «تهذيب الكمال» (٤/٦).

ولد آدم إلا وهو يعرف أن ربه الله، ولا مشرك إلا وهو يقول: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا  
عَبَادَةَ نَاعَلَىٰ أُمَّةً وَإِذَا عَلَىٰ إِثْرِهِمْ مُفْتَدِونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، فذلك قوله عز  
وجل: ﴿وَإِذَا أَخْذَرْتُكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ طُهُورِهِ دُرِّيَّتِهِمْ﴾، وذلك حين يقول:  
﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]، وذلك  
حين يقول: ﴿قُلْ فِيلَهُ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]  
قال: يعني يوم أخذ الميثاق<sup>(١)</sup>.

وقال إسحاق: حدثنا وكيع، حدثنا فطر، عن ابن سابط، قال: قال أبو بكر  
رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ: «خلق الله الخلق قبضتين، فقال لمن في يمينه: ادخلوا الجنة بسلام.  
وقال لمن في يده الأخرى: ادخلوا النار ولا أبالي»<sup>(٢)</sup>.

وأخبرنا جرير، عن الأعمش، عن أبي ظبيان، عن رجل من الأنصار من  
 أصحاب محمد ﷺ قال: «لما خلق الله الخلق قبضتين<sup>(٣)</sup> بيده، فقال لمن في  
يمينه: أنتم أصحاب اليمين. وقال لمن في اليد الأخرى: أنتم أصحاب  
الشمال. فذهبت إلى يوم القيمة»<sup>(٤)</sup>.

(١) أخرج له بهذا السياق ابن عبد البر في «التمهيد» (١٨ / ٨٥)، ومفرقا الطبرى  
(١٠ / ٥٦٠ - ٥٦٢)، وأورده المصنف في «أحكام أهل الذمة» (٩٩٦ / ٢)، وفي  
«الروح» (٤٦٢ / ٢) مصدراً إياه بقوله: «وذكر محمد بن نصر من تفسير السدي»،  
وطعن شيخ الإسلام في هذا الأثر لجملة: «وطائفه كارهين على وجه التقيّة» درء  
التعارض» (٨ / ٤٢٣)، وسيأتي في الباب الثلاثين الكلام عليه (٤٢٧ / ٢).

(٢) أخرج له معمر في «الجامع» (٢٠٠٩٤)، والدارمي في «التفص على المربي»  
(١ / ٢٦٨)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (١٣٣٥).

(٣) كذا في الأصول الخطية، والأليق بالسياق بعده: «قبض قبضتين».

(٤) لم أقف عليه.

وقال عبد الله بن وهب في «كتاب القدر»<sup>(١)</sup>: أخبرني جرير بن حازم، عن أيوب السختياني، عن أبي قلابة قال: «إن الله عز وجل لما خلق آدم أخرج ذريته، ثم نثرهم في كفه، ثم أفضحهم، فألقى التي في يمينه عن يمينه، والتي في يده الأخرى عن شماليه، ثم قال: هؤلاء لهذه ولا أبالي، وهؤلاء لهذه ولا أبالي. وكتب أهل النار وما هم عاملون، وأهل الجنة وما هم عاملون، وطوى الكتاب، ورفع القلم».

وقال أبو داود: ثنا مسند، ثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي صالح فذكره<sup>(٢)</sup>.

قال ابن وهب: وأخبرني عمرو بن الحارث، وحيوة بن شريح، عن ابن أبيأسيد - هكذا قال - عن أبي فراس حدثه، أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: «إن الله عز وجل لما خلق آدم نفضه نفخ المزود<sup>(٣)</sup>، فأخرج من ظهره ذريته أمثال النَّغْفَ<sup>(٤)</sup>، فقبضهم قبضتين، ثم ألقاهما، ثم قبضهما، فقال: ﴿وَقِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]<sup>(٥)</sup>.

قال ابن وهب: وأخبرني يونس بن يزيد، عن الأوزاعي، عن عبد الله بن

(١) برق (١٢)، ومن طريقه ابن بطة في «الإبانة الكبرى» (١٣٤٤).

(٢) هو في «مسند مسدد» كما في «المطالب العالية» (١٢ / ٤٨١)، ومن طريق أبي داود أخرجه ابن بطة في «الإبانة الكبرى» (١٣٤٣).

(٣) المزود: وعاء يجعل فيه الزاد، انظر: «الصحاح» (زود) (٤٨١ / ٢).

(٤) النَّغْفَ: دود يكُون في أنوف البهائم، انظر: «الصحاح» (نَفَ) (٤ / ٤) (١٤٣٥).

(٥) «القدر» (١٥)، ومن طريقه الحربي في «غريب الحديث» (٣ / ٩٨٩)، والطبرى (٤٧١ / ٢٠).

عمرٌ بن العاص قال: «من كان يزعم أن مع الله قاضياً أو رازقاً، أو يملك لنفسه ضرراً أو نفعاً، أو موتاً أو حياة أو نشوراً؛ لقي الله فأدحض حجته، وأحرق<sup>(١)</sup> لسانه، وجعل صلاته وصيامه هباءً<sup>(٢)</sup>، وقطع به الأسباب، وأكبه الله على وجهه في النار».

وقال: «إن الله خلق الخلق، فأخذ منهم الميشاق، وكان عرشه على الماء»<sup>(٣)</sup>.

وذكر أبو داود: ثنا يحيى بن حبيب، ثنا معتمر، ثنا أبي، عن أبي العالية في قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ تَبَيَّضُ رُجُونَ وَسَوْدَ وُجُوهٌ فَإِنَّمَا الظَّالِمُونَ سَوْدَتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرُهُمْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَإِنَّمَا الظَّالِمُونَ أَبَيْضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَلِيلُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦ - ١٠٧]، قال: صاروا فريقين، وقال من سواد وجوههم وعيارهم<sup>(٤)</sup>: ﴿أَكَفَرُهُمْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾، قال: هو الإيمان الذي كان حيث كانوا أمة واحدة مسلمين<sup>(٥)</sup>.

قال أبو داود: وحدثنا موسى بن إسماعيل، ثنا حماد، ثنا أبو نعامة السعدي قال: كنا عند أبي عثمان النهدي، فحمدنا الله عز وجل، فذكرناه

(١) في بعض المصادر: «وآخر»، وفي أخرى: «وآخر».

(٢) بعده في «م»: «مثوراً»، وليس في مصدر الرواية الآتي.

(٣) «القدر» (٢٤)، ومن طريقه ابن بطة في «الإبانة الكبرى» (١٦٤٢)، ورواه بنحوه

(٤) من كلام عبد الله بن عمر.

(٥) هكذا في الأصول وتفسير الطبرى: «وعيارهم».

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٣/ ٧٣٠)، والطبرى (٣/ ٦٦٥) (٥/ ٦٦٥) من وجه آخر عن أبي العالية، عن أبي بن كعب قوله.

ودعوناه، فقلت: لأننا بأول هذا الأمر أشد فرحاً مني بآخره. فقال أبو عثمان: ثبّتك الله، كنا عند سلمان، فحمدنا الله عز وجل وذكرناه ودعوناه، فقلت: لأننا بأول هذا الأمر أشد فرحاً مني بآخره. فقال سلمان: ثبّتك الله، إن الله تبارك وتعالى لما خلق آدم مسح ظهره، فأخرج من ظهره ما هو ذارئ<sup>(١)</sup> إلى يوم القيمة، فخلق الذكر والأنثى، والشقاوة والسعادة، والأرزاق والأجال والألوان، ومن عَلَم السعادة فَعَلَ الخير ومجالسُ الخير<sup>(٢)</sup>، ومنْ عَلَم الشقاوة فَعَلَ الشر ومجالسُ الشر<sup>(٣)</sup>.

وقال أبو داود: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، أخبرنا عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: «مسح ربك تعالى ظهر آدم، فأخرج منه ما هو ذارئ<sup>(٤)</sup> إلى يوم القيمة، أخذ<sup>(٥)</sup> عهودهم ومواثيقهم».

قال سعيد: فيرون أن القلم جَفَّ يومئذ<sup>(٦)</sup>.

(١) في «م»: «كائن»، والمثبت من «د»، موافقة لما في «الإبانة» و«الشريعة»، وذارئ: خالق.

(٢) يعني من علامة السعادة فعل الخير، وضبط «علم» من «د» «م».

(٣) أخرجه من طريق أبي داود به ابن بطة في «الإبانة الكبرى» (١٣٤٢)، وهو في «القدر» للغريابي (٥١)، ومن طريقه الآجري في «الشريعة» (٤٣٠).

(٤) «م»: «كائن».

(٥) كذا في الأصول على الاستئناف: «أخذ».

(٦) أخرجه من طريق عطاء بنحوه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/٢٩)، والطبرى (٥٤٨/١٠).

وقال الضحاك: خرجوا كأمثال الذر، ثم أعادهم<sup>(١)</sup>.

فهذه الآثار<sup>(٢)</sup> وغيرها تدل على أن الله سبحانه قدّر أعمال بني آدم وأرزاقهم وأجالهم وسعادتهم وشقاوتهم عقيب خلق أبيهم، وأراهم لأبيهم آدم صورهم وأشكالهم وحالهم، وهذا - والله أعلم - أمثالهم وصورهم.

وأما تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ الآية به فيه ما فيه، وحديث عمر - لو صح - لم يكن تفسيراً للأية، وبيان أن ذلك هو المراد بها، فلا يدل الحديث عليه، ولكن الآية دلت على أن هذا الأخذ من بني آدم لا من آدم، وأنه من ظهورهم لا من ظهره، وأنهم ذرياتهم أمة بعد أمة، وأنه إشهاد تقوم به عليهم الحجة له سبحانه، فلا يقول الكافر يوم القيمة: كنت غافلاً عن هذا، ولا يقول الولد المشرك<sup>(٣)</sup>: أشرك أبي وتبعه؛ فإن ما فطرهم الله عليه من الإقرار بربوبيته، وأنه ربهم وخالقهم وفاطرهم؛ حجة عليهم.

ثم دلّ حديث عمر وغيره على أمر آخر لم تدل عليه الآية، وهو القدر السابق والميثاق الأول، وهو سبحانه لا يحتاج عليهم بذلك، وإنما يحتاج عليهم برسله، وهو الذي دلت عليه الآية.

فتضمنت الآية والأحاديث إثبات القدر والشرع، وإقامة الحجة، والإيمان بالقدر، فأخبر النبي ﷺ لما سُئل عنها بما يحتاج العبد إلى معرفته والإقرار به معها، وبإله التوفيق.

---

(١) أخرجه بنحوه ابن أبي حاتم (١٦١٥/٥).

(٢) «الآثار» ساقطة من «د».

(٣) «المشرك» ساقطة من «د».

## البَابُ الْثَالِثُ

في ذكر احتجاج آدم وموسى في ذلك، وحكم النبي ﷺ لآدم  
صلوات الله وسلامه عليهم

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم، أنت أبونا خيّتنا وأخرجتنا من الجنة. فقال له آدم: أنت موسى اصطفاك الله بكلامه، وخط لك التوراة بيده، أتلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟».

فقال النبي ﷺ: «فحج آدم موسى، فحج آدم موسى». وفي رواية: «كتب لك التوراة بيده».

وفي لفظ آخر: «تحاج آدم وموسى، فحج آدم موسى، فقال له موسى: أنت آدم الذي أغويت الناس، وأخرجتهم من الجنة. فقال آدم: أنت موسى الذي أعطاه الله علم كل شيء، واصطفاه على الناس برسالته؟ قال: نعم. قال: أتلومني على أمر قدر على قبل أن أخلق».

وفي لفظ آخر: «احتج آدم وموسى عند ربهمما، فحج آدم موسى، فقال موسى: أنت آدم الذي خلقت الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك في جنته، ثم أهبطت الناس بخطبتك إلى الأرض. قال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه، وأعطيك الألوحة فيها تبيان كل شيء، وقربك نحياناً، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟

قال موسى: بأربعين عاماً. قال آدم: هل وجدت فيها: «وعصي آدم ربه فغوى»؟ قال: نعم. قال: أقتلوني على أن عملت عملاً كتبه الله عليّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟!» قال رسول الله ﷺ: «فحج آدم موسى».

وفي لفظ آخر: «احتاج آدم وموسى، فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجتنا خطبتك من الجنة» وذكر الحديث، متافق على صحته<sup>(١)</sup>.

وهذا التقدير بعد التقدير الأول السابق لخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

وقد ردّ هذا الحديث من لم يفهمه من المعتزلة كأبي علي الجبائي<sup>(٢)</sup>، ومن وافقه على ذلك، وقال: لو صاح لبطلت نبوات الأنبياء؛ فإن القدر إذا كان حجة للعاصي بطل الأمر والنهي، فإن العاصي بترك الأمر، أو فعل النهي، إذا صحت له الحجة بالقدر السابق ارتفع اللوم عنه.

وهذا من ضلال فريق الاعتزال، وجهمهم بالله ورسوله وستته؛ فإن هذا الحديث صحيح متافق على صحته، لم تزل الأمة تتلقاه بالقبول من عهد نبيها، قرناً بعد قرن، وتقابله بالتصديق والتسليم، ورواه أهل الحديث في كتبهم، وشهدوا به على رسول الله ﷺ أنه قاله، وحكموا بصحته، مما لأجله الناس بالسنة، ومن عُرف بعادتها وعداؤها حملتها، والشهادة عليهم بأنهم مجسّمة

(١) أخرجه البخاري (٣٤٠٩، ٣٤١٤، ٤٧٣٦، ٥٧١٥)، ومسلم (٢٦٥٢) والألفاظ المذكورة له.

(٢) انظر: «المئية والأمل» (٦٩)، «مجموع الفتاوى» (٨/٣٠٤).

مشبّهة حشوية نوابت = وهذا الشأن!

ولم يزل أهل الكلام الباطل المذموم موكلين برد أحاديث رسول الله ﷺ التي تخالف قواعدهم الباطلة، وع قائدهم الفاسدة، كما ردوا أحاديث الرؤية، وأحاديث علو الله على خلقه، وأحاديث صفاته القائمة به، وأحاديث الشفاعة، وأحاديث نزوله إلى سمائه، ونزوله إلى الأرض لفصل بين عباده، وأحاديث تكلّمه بالوحى كلاماً يسمعه من شاء من خلقه حقيقة، إلى أمثل ذلك.

وكما ردَّت الخوارج والمعترضة أحاديث خروج أهل الكبائر من النار بالشفاعة وغيرها، وكما ردَّت الرافضة أحاديث فضائل الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة، وكما ردَّت المعطلة أحاديث الصفات والأفعال الاختيارية، وكما ردَّت القدرية المجنوسية أحاديث القضاء والقدر السابق.

وكل من أصلَّ لم يؤصله الله ورسوله قاده قسراً إلى ردِّ السنة أو تحريفها عن مواضعها، فلذلك لم يؤصل حزب الله ورسوله أصلًا غير ما جاء به الرسول ﷺ، فهو أصلهم الذي عليه يعولون، وأخيتهم التي إليها يرجعون.

ثم اختلف الناس في فهم هذا الحديث، ووجه الحجة التي توجّهت لأدّم على موسى<sup>(١)</sup>.

---

(١) انظر: «أعلام الحديث» (٣/١٥٥٥)، «درء التعارض» (٨/٤١٨)، «منهاج السنة» (٣/٧٩).

فقالت فرقة: إنما حَجَّهُ لِأَنَّ (١) آدَمُ أَبُوهُ، فَحَجَّهُ كَمَا يَحِّجُ الرَّجُلُ ابْنَهُ.  
وَهَذَا كَلَامٌ لَا تَحْصِيلٌ فِيهِ الْبَيْتَةُ؛ فَإِنْ حَجَّةَ اللَّهِ يَجِبُ الْمُصِيرُ إِلَيْهَا مَعَ  
الْأَبِ كَانَ أَوْ مَعَ الْابْنِ أَوْ الْعَبْدِ أَوِ السَّيِّدِ، وَلَوْ حَجَّ الرَّجُلُ أَبِاهُ بِحَقِّ وَجْبِ  
الْمُصِيرِ إِلَى الْحَجَّةِ.

وَقَالَتْ فَرْقَةٌ: إِنَّمَا حَجَّهُ لِأَنَّ (٢) الذَّنْبُ كَانَ فِي شَرِيعَةِ اللَّهِ، وَاللَّوْمُ فِي شَرِيعَةِ  
وَهَذَا مِنْ جَنْسِ مَا قَبْلَهُ؛ إِذَا لَا تَأْثِيرٌ لِهَذَا فِي الْحَجَّةِ بِوَجْهٍ، وَهَذِهِ الْأُمَّةُ  
تَلَوْمُ الْأَمَّمَ الْمُخَالِفَةَ لِرَسُلِهَا الْمُتَقْدِمَةِ عَلَيْهَا، وَإِنْ كَانَ لَمْ تَجْمِعُهُمْ شَرِيعَةٌ  
وَاحِدَةٌ، وَيَقْبَلُ اللَّهُ شَهادَتَهُمْ عَلَيْهِمْ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ غَيْرِ أَهْلِ شَرِيعَتِهِمْ.

وَقَالَتْ فَرْقَةٌ أُخْرَى: إِنَّمَا حَجَّهُ لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ تَابَ مِنَ الذَّنْبِ، وَالتَّائِبُ مِنَ  
الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ، وَلَا يَجُوزُ لَوْمُهِ.

وَهَذَا إِنْ كَانَ أَقْرَبُ مَا قَبْلَهُ، فَلَا يَصْحُ ثَلَاثَةُ أَوْجَهٍ:  
أَحَدُهَا: أَنَّ آدَمَ لَمْ يَذْكُرْ ذَلِكَ بِوَجْهٍ، وَلَا جَعَلَهُ حَجَّةً عَلَى مُوسَىٰ، وَلَمْ  
يَقُلْ: أَتَلَوْمِنِي عَلَى ذَنْبٍ قَدْ تَبَتَّ مِنْهُ.

الثَّانِي: أَنَّ مُوسَىٰ أَعْرَفُ بِاللَّهِ سَبَّحَانَهُ وَبِأَمْرِهِ وَدِينِهِ مِنْ أَنْ يَلُومَ عَلَى ذَنْبٍ  
قَدْ أَخْبَرَهُ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ أَنَّهُ قَدْ تَابَ عَلَى فَاعِلِهِ، وَاجْتِبَاهُ بَعْدِهِ وَهَدَاهُ؛ فَإِنْ هَذَا لَا  
يَجُوزُ لِأَحَادِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَفْعُلَهُ، فَضْلًا عَنْ كَلِيمِ الرَّحْمَنِ.

الثَّالِثُ: أَنَّ هَذَا يَسْتَلِزُمُ إِلَغَاءَ مَا عَلَّقَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجْهُ الْحَجَّةِ، وَاعْتِبَارُ مَا

---

(١) «د»: «حَجَّتْهُ أَنَّ».

(٢) «د»: «أَنَّ».

ألغاه، فلا يُلتفت إليه.

وقالت فرقة أخرى: إنما حَجَّهُ لأنَّه لَا مَهْ في غير دار التكليف، ولو لَمْ يَكُنْ في دار التكليف لكانَت الحجَّة لِموسىٍ عَلَيْهِ.

وهذا أيضًا فاسدٌ من وجهين:

أحدهما: أنَّ آدَمَ لَمْ يَقُلْ لِهِ: لُمْتُنِي في غير دار التكليف، وإنَّما قالَ: أَتَلَوْمَنِي عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِّرَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أَخْلُقَهُ، فَلِمَ يَتَعَرَّضُ لِلدَّارِ، وَإِنَّما احْتَاجَ بِالْقَدْرِ السَّابِقِ.

الثاني: أَنَّ اللَّهَ سَبَحَانَهُ يَلْوُمُ الْمُلْوُمِينَ مِنْ عَبَادِهِ في غير دار التكليف، فَيَلْوُمُهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَيَلْوُمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وقالت فرقة أخرى: إنما حَجَّهُ لأنَّ آدَمَ شَهَدَ الْحُكْمَ وَجَرِيَانَهُ عَلَى الْخَلِيقَةِ، وَتَفَرَّدَ الرَّبُّ سَبَحَانَهُ بِالرَّبُوبِيَّةِ، وَأَنَّهُ لَا تَتَحَرَّكُ ذَرَّةً إِلَّا بِمَشِيشَتِهِ وَعِلْمِهِ، وَأَنَّهُ لَا رَادٌّ لِقَضَائِهِ وَقَدْرِهِ، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

قالوا: وَمَشَاهِدُ الْعَبْدِ الْحُكْمَ لَا يَدْعُ لَهُ اسْتِقْبَاحَ سَيِّئَةً؛ لَأَنَّهُ يَشَهِدُ نَفْسَهُ عَدَمًا مَحْضًا، وَالْأَحْكَامُ جَارِيَّةٌ عَلَيْهِ، مُصْرِفَةٌ لَهُ، وَهُوَ مَقْهُورٌ مُرْبُوبٌ مُذَبَّرٌ، لَا جِيلَةٌ لَهُ، وَلَا قُوَّةٌ لَهُ.

قالوا: وَمَنْ شَهَدَ هَذَا الْمَشَهَدَ سَقَطَ عَنْهُ الْلَّوْمِ.

وهذا المسلك أَبْطَلَ مسلكَ سُلِّيكَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ، وَهُوَ شُرُّ مِنْ مسلكِ الْقَدْرِيَّةِ فِي رَدِّهِ، وَهُمْ إِنَّمَا رَدُّوهُ إِيْطَالًا لِهَذَا القَوْلِ، وَرَدًّا عَلَى قَاتِلِيهِ، وَأَصَابُوا<sup>(۱)</sup> فِي

---

(۱) «م»: «وَأَجَادُوا».

ردهم عليهم وإبطال قولهم، وأخطئوا في رد حديث رسول الله ﷺ؛ فإن هذا المسلك لو صح لبطلت الديانات جملة، وكان القدر حجّة لكل مشرك وكافر وظالم، ولم يبق للحدود معنى، ولا يُلام جانٍ على جنائته، ولا ظالم على ظلمه، ولا يُنكر منكرًا أبدًا.

ولهذا قال شيخ المحدثين ابن سينا في «إشاراته»: «العارف لا يُذكر منكرًا؛ لاستبصره بسر الله في القدر»<sup>(١)</sup>.

وهذا كلام منسخ من الملل، ومتابعة الرسل.

وأعرف خلق الله به رسُلُه وأنبِياؤه، وهم أعظم الناس إنكاراً للمنكر، وإنما أُرسِلوا بإنكار<sup>(٢)</sup> المنكر، فالعارف أعظم الناس إنكاراً للمنكر؛ ل بصيرته بالأمر والقدر، فإن الأمر يوجب عليه الإنكار، والقدر يعينه عليه، ويُنفِّذُ له، فيقوم في مقام: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» [الفاتحة: ٥]، وفي مقام: «فَاعْبُدُهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ» [هود: ١٢٣]، فيعبده بأمره وقدره، ويتوكّل عليه في تنفيذ أمره بقدره. فهذا حقيقة المعرفة، وصاحب هذا المقام هو العارف بالله، وعلى هذا أجمعـت الرسل من أولهم إلى خاتـمـهم.

وأما مَن يقول:

أصـبـحـتـ مـُـنـْـعـِـلاـ لـمـاـ يـخـتـارـهـ      مـنـّـيـ فـعـلـيـ كـلـهـ طـاعـاتـ<sup>(٣)</sup>

(١) بمعناه في «الإشارات» (٤/١٠٤)، وحكاها المصطف بمثيل ما في المتن دون نسبة في «مدارج السالكين» (٤/٣٠١٥)، و«طريق الهجرتين» (١/١٨٤) (٢/٧٣٥).

(٢) «م»: «الإنكار».

(٣) تقدمت نسبة في (١١).

ويقول: أنا وإنْ عصيْتُ أَمْرَهُ فَقَدْ أطعْتُ إِرَادَتَهُ وَمُشَيْتَهُ.  
ويقول: العارف لا يُنْكِرُ مُنْكَرًا؛ لَا سْبُّ صَارَهُ بِسْرًّا لِلَّهِ فِي الْقَدْرِ.  
فخارج عما عليه الرسل قاطبة، وليس هو من أتباعهم.

ولأنما حكى الله سبحانه الاحتجاج بالقدر عن المشركين أعداء الرسل،  
فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكَنَا وَلَا  
حَرَمَنَا إِنْ شَاءَ كَذَلِكَ كَذَبٌ﴾ (١) الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بِأَسْنَافِهِنَّ هَلْ  
عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [١٤٩] .  
فِيَّهُ الْحَجَةُ الْبَلْفَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَكُمُ الْجَمِيعُينَ﴾ [الأنعام: ١٤٨ - ١٤٩]. وقال  
تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدَنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا  
أَبْأَوْنَا وَلَا حَرَمَنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَ الرُّسُلِ إِلَّا  
الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥] ، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَهُ اللَّهُ قَالَ  
الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطِعُمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمْهُ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾  
[يس: ٤٧] ، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَرْسَلَنَا مَا عَبَدَنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ  
هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠] .

فهذه أربع مواضع (١) حتى فيها الاحتجاج بالقدر عن أعدائه، وشيخهم  
وإمامهم في ذلك عدو الله (٢) الأحرق إبليس، حيث احتجَ عليه بقضائه فقال:

(١) «د» «م»: « فعل »، وصححها في هامش «م».

(٢) كذا في «د» «م»: «أربع مواضع»، ومثله في «عدة الصابرين» (١٣٤)، والوجه: «أربعة  
مواضع».

(٣) «م»: «عدوه».

**﴿رَبِّ إِنَّمَا أَعْوَيْتَنِي لَأُرِيَنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا عُوِيَّنَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾** [الحجر: ٣٩]

فإن قيل: قد عُلِّم بالنصوص والمعقول صحة قولهم: **﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكَنَا وَلَا أَبَا آقُونَا﴾**، و**﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدَنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا أَبَا آقُونَا﴾**، و**﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدَنَاهُ﴾**، فإنه ما شاء الله كان، وما لم يشاً لم يكن، وقد قال تعالى: **﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلَوْهُ﴾** [الأنعام: ١١٢]، وقال: **﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَنَّا كُلَّ نَقَيسٍ هُدَاهَا﴾** [السجدة: ١٣]، فكيف أكذبهم ونفي عنهم العلم، وأثبت لهم الخُرُص فيما هم فيه صادقون؟ وأهل السنة جمِيعًا يقولون: لو شاء الله ما أشرك به مشرك، ولا كفر به كافر، ولا عصاه أحدٌ من خلقه، فكيف يُنكر عليهم ما هم فيه صادقون؟

قيل: بل أنكر سبحانه عليهم ما هم فيه أكذب الكاذبين، وأفجر الفاجرين، ولم ينكر عليهم صدقًا ولا حقًا، بل أنكر عليهم أبطل الباطل؛ فإنهم لم يذكروا ما ذكروه إثباتًا لقدره وربويته ووحدانيته، وافتقارًا إليه، وتوكلاً عليه، واستعانة به، ولو قالوه كذلك لكانوا مصيبيين، وإنما قالوه معارضين به لشرعه، ودافعين به لأمره، فعارضوا شرعه وأمره، ودفعوه بقضائه وقدره، وواقفهم على ذلك كل من عارض الأمر ودفعه بالقدر.

وأيضاً فإنهم احتجوا بمشيئته العامة وقدره على محبتة لما شاءه، ورضاه به، وإذا فيه، فجمعوا بين أنواع من الضلال: معارضة الأمر بالقدر، ودفعه به، والإخبار عن الله أنه يحب ذلك منهم ويرضاه حيث شاءه وقضاه، وأن لهم الحجة على الرسل بالقضاء والقدر.

وقد ورثهم في هذا الضلال وتبعهم عليه طوائف من الناس ممن يدعى

التحقيق والمعرفة، أو يُدَعَى فيه ذلك، وقالوا: العارف إذا شاهد الحُكْم سقط عنه اللوم.

وقد وقع في كلام شيخ الإسلام أبي إسماعيل عبد الله بن محمد الأننصاري ما يوهم ذلك – وقد أعاذه الله منه – فإنه قال في باب التوبة من «منازل السائرين»<sup>(١)</sup>: «ولطائفُ أسرار التوبة ثلاثةٌ أشياء:

أولها: أن تنظر بين الجنابة والقضية، فتعرف مُراد الله فيها إذ خلاك وإتيانها، فإن الله تعالى إنما يُخلي العبد والذنب لأجل معنين<sup>(٢)</sup>:

أحدهما: أن يعرف عزّته في قصائه، وبره في ستره، وحلمه في إمهال رايكه، وكرمه في قبول العذر منه، وفضله في مغفرته.

والثاني: ليقيم على العبد حجة عدله، فيعاقبه على ذنبه بمحنته.

واللطفة الثالثة: أن يعلم أن طلب<sup>(٣)</sup> البصير الصادق سيئته لم يُبِقْ له حسنة بحال؛ لأنَّه يسير بين مشاهدة المنة، وتطلب عيب النفس والعمل.

واللطفة الثالثة: أن مشاهدة العبد الحُكْم لم تدع له استحسانَ حسنة، ولا استقباحَ سيئة؛ لصعوده من جميع المعانٰ إلى معنى الحُكْم».

فهذا الكلام الأخير ظاهره يبطل استحسان الحسن واستقباح القبيح،

(١) «منازل السائرين» (١٤)، وانظر: «مدارج السالكين» (١/٥٨٧-٦٣٢).

(٢) في «م» و«المنازل» وبعض نسخ «المدارج» (١/٥٨٧): «الأحد معنien»، والمثبت من «د» ونسخ «المدارج» الأخرى، وهو الأشبه بالسياق.

(٣) في «مدارج السالكين» (١/٥٨٧): «نظر»، والمثبت من الأصول الخطية، و«المنازل».

والشرائع كلها مبناتها على استحسان هذا، واستقباح هذا، بل مشاهدة الحكم تزيد البصير استحساناً للحسن، واستقباحاً للقبيح، وكلما ازدادت معرفته بالله وأسمائه وصفاته وأمره قوي استحسانه واستقباحه؛ فإنه يوافق في ذلك ربه ورسله، ومقتضي الأسماء الحسنة والصفات العلية.

وقد كان حال شيخ الإسلام في ذلك موافقاً للأمر، وغضبه الله ولحدوده ومحارمه ومقاماته في ذلك شهيرة عند الخاصة وال العامة، وكلامه المتقدم بين في رسوخ قدمه في استقباح ما فيّه الله، واستحسان ما حسنه، وهو كالمحكم فيه؛ وهذا متشابه، فيرد إلى محكم كلامه<sup>(١)</sup>.

والذي يليق به ما ذكره شيخنا أبو العباس أحمد بن إبراهيم الواسطي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ في شرحه، فذكر قاعدة في الفناء والاصطalam، فقال: «الفناء: عبارة عن اصطalam العبد لغيبة وجود الحق، وقوة العلم به في العبد، فيزيد بذلك يقينه به، ومعرفته به، وبصفاته سبحانه، فيذهل بذلك كما يذهل الإنسان في أمر عظيم دهمه، فإنه ربما غاب عن شعوره بما دهمه من الأمور المهمة.

مثاله: رجل وقف بين يدي سلطان عظيم قاهر من ملوك الأرض، فأذهله عظمة ما يلاحظه من هيبته وسلطانه عن كثير مما يشعر به. وهذا تقريب، والأمر فوق ذلك.

فكيف بمن أشهده الله عز وجل فرداً ينفيه، حيث كان ولا شيء معه، فرأى الأشياء مواتاً لا قوام لها إلا بقدرته، فشهادتها خيالاً كالهباء بالنسبة إلى وجود الحق تعالى.

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/٦٣٢-٦٤٢)، «مجموع الفتاوى» (٨/٢٣٠، ٣٣٩) (١٤/٣٥٤)، «جامع الرسائل» (٢/١١٠).

وذلك في البصائر القلبية بالكشف الصحيح بعد التصفية، والتدريب في القيام بأعباء الشريعة، وحمل أثقالها، والتخليق بأخلاقها، يصفّي الله عز وجل عبده من درنه، ويكشف لقلبه، فيرى حقائق الأشياء.

فمتي تجلت على العبد أنوار المشاهدة الحقيقية الروحية الدالة على عظمة الفَرْدانية؛ تلاشى الوجود الذي للعبد وأضَمَّ حَلَّ، كما يتلاشى الليل إذا أسفر عليه الصباح، ويكون العبد في ذلك آكلاً شارباً، فلا يظهر عليه شيءٌ مغایر لما اعتاده، لكن يزداد إيمانه ويقينه، حتى ربما غطى إيمانه عن قلبه كل شيءٍ في أوقات سكره، ويبقى وجوده كالخيال، قائماً بالعبودية في حضرة ذي الجلال.

وتعود عليه البصائر الصحيحة في معرفة الأشياء عند صحوه، ثم يزول عنه عدم التمييز، ويقوى على حاله فيتصرف فيه، وذلك هو البقاء، بحيث يتصرف في الأشياء، ولا تحجب<sup>(١)</sup> عنه ما وجله من الإيمان والإيقان في حال البقاء، بل يعود عليه شعوره الأول بوجود آخر يتولاه الله عز وجل، يُشَهِّدُ فيه<sup>(٢)</sup> قيامه عليه بتدييره، ويصل إلى مقام المراد بعد عبوره على<sup>(٣)</sup> مقام المريد، فيصير به يسمع<sup>(٤)</sup>، وبه ينطق، كما جاء في الحديث الصحيح<sup>(٥)</sup>.

---

(١) إعجم تاء المضارعة من «د».

(٢) «م»: «شَهَدَ فِيهِ»، والمثبت من «د».

(٣) «م»: «عُثُورَه»، وأهملها في «د»، والمثبت أليق بالسياق؛ فمقام المريد قنطرة لمقام المراد، ووقع في «م»: «إِلَى» بدل «على».

(٤) «د»: «فَيَصِرُّ بِهِ وَيَسْمَعُ»، ولعلها: «فَيَصِرُّ بِهِ وَيَسْمَعُ»، والمثبت من «م».

(٥) يشير إلى الحديث القدسي الذي أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة،

ووجه آخر: وهو أن الفاني في حال فنائه قبل أن يبلغ إلى مقام البقاء والصحو والتمييز يستتر من قلبه محل الزهد والصبر والورع، لا بمعنى أن تلك المقامات<sup>(١)</sup> ذهبت وارتفع عنها العبد، لكن بمعنى أن الشهود<sup>(٢)</sup> ستر محلها من القلب، وانطوت واندرجت في ضمن ما وجده اندراج الحال النازل في الحال العالي، فصارت فيما<sup>(٣)</sup> وجده الواحد من وجود الحق ضمناً وتبعاً، وصار القلب مشتغلًا بالحال الأعلى عن الحال الأدنى، بحيث لو فتش قلبُ العبد لُوحِدَ فيه الزهدُ والورعُ، وحقائقُ الخوف والرجاء مستوراً بأمثال الجبال من الأحوال الوجودية التي يضيق القلب عن الاتساع لمجموعها، ثم في حال البقاء والصحو والتمييز تعود عليه تلك المقامات بالله، لا بوجود نفسه.

إذا علمت ذلك انحل إشكال قوله: «إِنَّ مَشَاهِدَ الْعَبْدِ الْحُكْمُ»<sup>(٤)</sup> لم تدع له استحسان حسنة، ولا استقباح سيئة؛ لصعوده إلى معنى الحكم، أي أن صفة حكم الله حشأت<sup>(٥)</sup> بصيرته وملايتها، فشهد قيام الله تعالى على الأشياء

وفيه: «وما يزال عبدي يتقرّب إلى بالتواقي حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها».

(١) «د»: «العيادات» دون إعجمام، والمثبت من «م»، وسيأتي ما يؤكده.

(٢) «م»: «المشهود»، وما أثبت من «د» هو الأشبه بعبارات القوم.

(٣) «م»: «كما» تحرير.

(٤) «الحكم» ساقطة من «م».

(٥) «د»: «خَسَأَتْ» مجودة، ورسمها كذلك في «م» مهمّلة بزيادة سن رابعة، وعلق في الحاشية: «حسان»! وجميع ما تقدم يأباه السياق، وكأنها كانت مشكلة في نسخة المصنف فاجتهد في رسمنها النساخ، وفي طبعة «التعساني» (١٧): «حشت» وتابعه

وتصرفه فيها وحكمه عليها، فرأى الأشياء كلها منه<sup>(١)</sup>، صادرة عن نفاذ حكمه وتقديره وإرادته القدريّة، فغاب بما لاحظ من الجمع عن التمييز والفرق، ويُسمى هذا جمّاً؛ لأن العبد اجتمع نظره إلى مولاه في كل حكم وقع في الكون، وفي ملاحظة هذا الحكم الذي صدرت عنه المترفات<sup>(٢)</sup> اجتماع قلبه، ولضعف قلبه حين حضر<sup>(٣)</sup> هذا الاجتماع<sup>(٤)</sup> لم يتسع<sup>(٥)</sup> للتمييز الشرعي بين<sup>(٦)</sup> الحسن والقبيح، بمعنى أنه انطوى حكم معرفته بالحسن والقبيح في طي هذه المعرفة الساترة له عن التمييز، لا بمعنى أنه ارتفع عن قلبه حكم التحسين والتقييم، بل اندرج في مشهده وانطوى بحيث لو فتش لوحِد حكم التحسين والتقييم مستوراً في طي مشهده ذلك، وبالله التوفيق».

وتلخيص ما ذكره شيخنا رحمه الله أن للفعل وجهين: وجه هو قائم بالرب تعالى، وهو قضاوه، وقدره له، وعلمه به، ومشيئته النافذة فيه الموجدة له، ووجه هو قائم بالعبد، وهو كسبه له، و فعله و اختياره.

عليها من جاء بعده، والمثبت هو الصحيح إن شاء الله؛ لاستقامة معناه وقربه من رسم النسخ، يقال: «حشأته: إذا أدخلته جوفه، وإذا أصبت حشأه» (تاج العروس) (حشا) (١٩٢/١).

(١) «م»: «مسنث» مهملة، والمثبت من «د».

(٢) «م»: «الترفات» تحريف، وانظر: «مدارج السالكين» (٣٩٣٠/٥).

(٣) «م»: «حبر» تحريف، والمثبت أشبه بالسياق.

(٤) من قوله: «الذي صدرت» إلى هنا ساقط من «د».

(٥) «م»: «يقع»، وفي حاشيتها: «ظ: يتسع»، وهو المثبت من «د».

(٦) «د» «م»: «من»، تحريف ظاهر.

والعبد له ملاحظتان: ملاحظة للوجه الأول، وملاحظة للوجه الثاني، والكمال أن لا يغيب بإحدى الملاحظتين عن الأخرى، بل يشهد قضاء الرب تعالى وقدره ومشيته، ويشهد مع ذلك فعله وجنابته وطاعته ومعصيته. فيشهد الربوبية والعبودية، فيجتمع في قلبه معنى قوله: ﴿إِنَّ شَاءَ مِنْ كُوَنَ أَيْسَرَقِيم﴾ [التكوير: ٢٨]، مع قوله: ﴿وَمَا شَاءَ وَتَرَكَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ أَخْذَ إِلَى رِبِّهِ سَيِّلًا وَمَا يَشَاءُ وَنَّ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٢٩ - ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ تَذَكِّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكْرُهُ وَمَا يَدْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٤ - ٥٦].

فمن الناس من يتسع قلبه لهذين الشهودين، ومنهم من يضيق قلبه عن اجتماعهما بقوة الوارد عليه، وضعف المحل، فيغيب بشهود العبودية والكسب وجهة الطاعة والمعصية عن شهود الحكم القائم بالرب تعالى من غير إنكار له، فلا يظهر عليه إلا أثر الفعل وحكمه الشرعي، وهذا لا يضره إذا كان الإيمان بالحكم قائماً في قلبه.

ومنهم من يغيب بشهود الحكم وسبقه وأولية الرب تعالى وسبقه للأشياء عن جهة عبوديته وكسبه وطاعته ومعصيته، فيغيب بشهود الحكم عن شهود المحكوم به، فضلاً عن صفتة، فإذا لم يشهد له فعلاً، فكيف يشهد كونه حسناً أو قبيحاً؟

وهذا أيضاً لا يضره إذا كان علمه بحسن الفعل وقبحه قائماً في قلبه، وإنما توارى عنه لاستيلاء شهود الحكم على قلبه، وبالله التوفيق.

(١) «د» «م»: «إن هذه».

فأين هذا من احتجاج أعداء الله بمشيئته وقدره على إبطال أمره ونفيه؟  
وعباد هؤلاء الكفرا يشهدون أفعالهم كلها طاعات؛ لموافقتها المشيئة السابقة، ولو أغضبهم غيرُهم وقصرَ في حقوقهم لم يشهدوا فعله طاعة، مع أنه وافق فيه المشيئة، فما احتاج بالقدر على إبطال الأمر والنفي إلا من هو من أجهل الناس وأظلمهم وأتباعهم لهواه.

وتتأمل قوله سبحانه بعد حكايته عن أعدائه احتجاجهم بمشيئته وقدره<sup>(١)</sup> على إبطال ما أمرهم به رسوله، وأنه لو لا محبته ورضاه به لما شاءه منهم: ﴿قُلْ فِيلَهُ الْحِجَةُ الْبَلِعَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَّلَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ٤٩]، فأخبر سبحانه أن الحجة له عليهم برسله وكتبه، وبيان ما ينفعهم ويضرهم، ويمكّنهم من الإيمان بمعرفة أدلةه وبراهينه، وإعطائهم الأسماع والأبصار والعقول، فثبتت حجته البالغة عليهم بذلك، وأضمحلت حجتهم الباطلة عليه بمشيئته وقضائه.

ثم قرر تمام الحجة بقوله: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَّلَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فإن هذا يتضمن أنه المنفرد بالربوبية والملك والتصريف في خلقه، وأنه لا رب غيره، ولا إله سواه، فكيف يعبدون معه إلهاً غيره؟!

فإثبات القدر والمشيئة من تمام حجته البالغة عليهم، وأن الأمر كله لله، وأن كل شيء ما خلا الله باطل، فالقضاء والقدر والمشيئة النافذة من أعظم أدلة التوحيد، فجعلها الظالمون الجاحدون حجة لهم على الشرك، فكانت حجة الله هي البالغة، وحجتهم هي الداحضة، وبالله التوفيق.

---

(١) «م»: «وقدرتهم».

إذا عُرف هذا، فموسى صلوات الله عليه وسلم أعرف بالله وأسمائه وصفاته من أن يلوم على ذنب قد تاب منه فاعله، واجتباه ربّه بعده ودها واصطفاه، وأدم صلوات الله عليه وسلم أعرف برّه من أن يحتاج بقضائه وقدره<sup>(١)</sup> على معصيته، بل إنما لام موسى آدم على المصيبة التي نالت الذرية بخروجهم من الجنة، ونزلوهم إلى دار الابلاء والمحنة، بسبب خطيئة أيهم، فذكر الخطيئة تنبئها على سبب المصيبة والمحنة التي نالت الذرية، ولهذا قال له: «أخرجتنا ونفسك من الجنة»، وفي لفظ: «خيتنا»، فاحتاج آدم بالقدر على المصيبة، وقال: إن هذه المصيبة التي نالت الذرية بسبب خططيتي كانت مكتوبة مقدرة قبل خلقي. والقدر يُحتاج به في المصائب دون المعايب، أي: أتلومني على مصيبة قدرت عليّ وعليكم قبل خلقي بكلّذا وكذا سنة؟

هذا جواب شيخنا رحمه الله<sup>(٢)</sup>.

وقد يتوجه جواب آخر: وهو أن الاحتجاج بالقدر على الذنب ينفع في موضع، ويضر في موضع، فينفع إذا احتجَ به بعد وقوعه والتوبة منه وتترك معاودته، كما فعل آدم عليه السلام، فيكون في ذكر القدر إذ ذاك من التوحيد ومعرفة أسماء ربّ وصفاته وذكرها ما يتسع به الذاكر والسامع؛ لأنّه لا يدفع بالقدر أمراً ونهياً؛ ولا يُبطل به شريعة، بل يُخبر بالحق المحسّن على وجه التوحيد، والبراءة من الحول والقوة.

(١) «د»: «وقدره».

(٢) انظر: «درء التعارض» (٤١٨/٤٢٠)، «مجموع الفتاوى» (٨/٣٠٣-٣٠٧) وغيرهما.

يوضحه أن آدم عليه السلام قال لموسى: «أَتْلَوْمِنِي عَلَىٰ أَنْ عَمِلْتُ عَمَلاً كَانَ مَكْتُوبًا عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلُقُ؟»، فإذا أذنب الرجل ذنبًا ثم تاب منه توبة نصوحًا، وزال أثره ومحبته حتى كان لم يكن، فأئبته مؤنة عليه ولا مامه = حسنه منه أن يحتاج بالقدر بعد ذلك، ويقول: هذا أمر كان قد قدر على قبل أن أخلق، فإنه لم يدفع بالقدر حقاً، ولا ذكره حجة له على الباطل، فلا محذور في الاحتجاج به.

وأما الموضع الذي يضر الاحتجاج به ففي الحال أو المستقبل؛ بأن يرتكب فعلًا محرماً، أو يترك واجبًا فيلومه عليه لائم، فيحتاج بالقدر على إقامته عليه وإصراره، فيُبطل بالاحتجاج به حقاً، ويرتكب باطلًا، كما احتاج به المصرون على شركهم وعبادتهم غير الله فقالوا: ﴿لَوْشَاءَ اللَّهُ مَا أَشَرَّكَنَا وَلَاَءَاءَ بَأْفَاقًا﴾ [الأనعام: ۱۴۸]، و﴿لَوْشَاءَ الرَّحْكَنْ مَا عَبَدَنَهُمْ﴾ [الزخرف: ۲۰]، فاحتجو به مصوبيين لما هم عليه، وأنهم لم يندموا على فعله، ولم يعزموا على تركه، ولم يقرروا بفساده، فهذا ضد احتجاج من تبين له خطأ نفسه، وندم وعزم كل العزم على أن لا يعود، فإذا لامه لائم بعد ذلك قال: كان ما كان بقدر الله.

ونكتة المسألة: أن اللوم إذا ارتفع صَحَّ الاحتجاج بالقدر، وإذا كان اللوم واقعا فالاحتجاج بالقدر باطل.

فإن قيل: فقد احتاج على بالقدر في ترك قيام الليل، وأقرَّه النبي ﷺ، كما في «ال الصحيح»<sup>(۱)</sup> عن علي: أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة ليلاً، فقال لهم:

(۱) أخرجه البخاري (۷۳۴۷)، ومسلم (۷۷۵).

«ألا تصلون؟» قال علي: فقلت: يا رسول الله، إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثها بعثها. فانصرف رسول الله ﷺ حين قلت له ذلك ولم يرجع إليّ شيئاً، ثم سمعته وهو مدبر يضرب فخذه، وهو يقول: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَّلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

قيل: علي لم يحتج بالقدر على ترك واجب ولا فعل محرم، وإنما قال: إن نفسه ونفس فاطمة بيد الله، فإذا شاء أن يوقظهما ويعث أنفسهما بعثها.

وهذا موافق لقول النبي ﷺ ليلة باتوا<sup>(١)</sup> في الوادي: «إن الله قبض أرواحنا حيث شاء، وردها حيث شاء»<sup>(٢)</sup>.

وهذا احتجاج صحيح، صاحبه معذور فيه؛ فإن النائم غير مفترط، واحتجاج غير المفترط بالقدر صحيح.

وقد أرشد النبي ﷺ<sup>(٣)</sup> إلى الاحتجاج بالقدر في الموضع الذي ينفع العبد الاحتجاج به، فروى مسلم في «صحيحه»<sup>(٤)</sup> عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذلك، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن

(١) «م»: «ناموا».

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٥) بلفظ: «إن الله قبض أرواحكم حين شاء، وردها عليكم حين شاء»، ومسلم (٦٨١) من طرق عن أبي قحافة.

(٣) «م»: «أرشد الله النبي ﷺ بزيادة لفظ الجلالة، والمعنى لا يساعدك».

(٤) برقم (٢٦٦٤).

لو تفتح عمل الشيطان».

فتضمن هذا الحديث الشريف أصولاً عظيمة من أصول الإيمان:

أحدها: أن الله سبحانه موصوف بالمحبة، وأنه يحب حقيقة.

الثاني: أنه يحب مقتضى أسمائه وصفاته وما يوافقها، فهو القويُّ ويحب المؤمن القويُّ، وهو وترُّ يحب الوتر، وجميل يحب الجمال، وعليم يحب العلماء، ونظيف يحب النظافة، ومؤمن يحب المؤمنين، ومحسن يحب المحسنين، وصابر يحب الصابرين، وشاكِر يحب الشاكرين.

ومنها: أن محبته للمؤمنين تتفاصل، فيحب بعضهم أكثر من بعض.

ومنها: أن سعادة الإنسان في حرصه على ما ينفعه في معاشه ومعاده، والحرص هو بذل الجهد واستفراغ الوسع، فإذا صادف ما يتفع به الحريص كان حرصه محموداً، وكماله كله في مجموع هذين الأمرين: أن يكون حريصاً، وأن يكون حرصه على ما يتفع به، فإن حرص على ما لا ينفعه، أو فعل ما ينفعه بغير حرص؛ فاته من الكمال بحسب ما فاته من ذلك، فالخير كله في الحرص على ما ينفع.

ولما كان حرص الإنسان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيئته وتوفيقه، أمره أن يستعين بالله؛ ليجتمع له مقام: ﴿إِنَّا لَكَ تَعَبُدُونَا إِنَّا لَكُمْ شَهِيدُونَ﴾، فإنَّ حرصه على ما ينفعه عبادة الله، ولا تتم إلا بمعونته، فآمره بأن يعبده وأن يستعين به.

ثم قال: «ولا تعجز» فإن العجز ينافي حرصه على ما ينفعه، وينافي استعانته بالله، فالحريص على ما ينفعه، المستعين بالله: ضدُ العاجز.

فهذا إرشاد له قبل وقوع المقدور<sup>(١)</sup> إلى ما هو من أعظم أسباب حصوله، وهو الحرص عليه مع الاستعانة بمن أزمَّة الأمور بيديه، ومصدرها منه، ومردُّها إليه.

فإن فاته ما لم يُقدر له، فله حالتان: حالة عجز، وهي مفتاح عمل الشيطان، فيلقيه العجز إلى «لو»، ولا فائدة في «لو» ههنا، بل هي مفتاح اللوم والجزع والسخط والأسف والحزن، وذلك كله من عمل الشيطان، فنهاه عليه عن افتتاح عمله بهذا المفتاح، وأمره بالحالة الثانية، وهي النظر إلى القدر وملحظته، وأنه لو قُدر له لم يفته، ولم يغلبه عليه أحد، فلم يبق له ههنا أنفع من شهود القدر، ومشيئه الرب النافذة التي توجب وجود المقدور<sup>(٢)</sup>، وإذا انتفت امتنع وجوده، فلهذا قال: «فإن غلبك أمرٌ، فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل»<sup>(٣)</sup>. فأرشده إلى ما ينفعه في الحالتين: حالة حصول مطلوبه، وحالة فواته.

فلهذا كان هذا الحديث مما لا يستغني عنه العبد أبداً، بل هو أشد شيء إليه ضرورة، وهو يتضمن إثبات القدر والكسب والاختيار، والقيام بالعبودية ظاهراً وباطناً في حالي حصول المطلوب وعدمه، وبالله التوفيق.



---

(١) «د»: «القدر».

(٢) «د»: «المعدوم».

(٣) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٨٧٩١)، وأبي ماجه (٤١٦٨).

## البَابُ الْإِلَيْخَ

في ذكر التقدير الثالث والجنبين في بطن أمه، وهو تقدير شقاوته وسعادته ورزقه وأجله وعمله وسائر ما يلاقاه، وذكر الجمع بين

الأحاديث الواردة في ذلك<sup>(١)</sup>

عن عبد الله بن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ – وهو الصادق المصدوق –: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقَهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلْقَةٌ مُثْلِذَّلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مَضْغَةً مُثْلِذَّلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ، فَيُنْفَخُ فِي رُوحِهِ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رَزْقِهِ، وَأَجْلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِّيْهِ أَوْ سَعِيدٍ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ؛ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذَرَاعٌ، فَيُسَبِّقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذَرَاعٌ، فَيُسَبِّقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا» متفق عليه<sup>(٢)</sup>.

وعن حذيفة بن أصييل يبلغ به النبي ﷺ قال: «يُدْخَلُ الْمَلَكُ عَلَى النَّطْفَةِ بَعْدَمَا تَسْتَقِرُ فِي الرَّحْمِ بِأَرْبَعينِ أَوْ خَمْسَ وَأَرْبَعينَ لَيْلَةً، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَشْقَى أَمْ سَعِيدٌ؟ فَيَكْتَبُ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَذْكُرْ أَمْ أَنْشِئْ؟ فَيَكْتَبُ، وَيَكْتَبُ عَمَلَهُ وَأَثْرَهُ وَأَجْلَهُ وَرَزْقَهُ، ثُمَّ تُطْوَى الصَّحِيفَةُ فَلَا يَزَادُ فِيهَا وَلَا يَنْقُصُ» رواه

(١) ينظر: «تَهْذِيبُ السِّنْنِ» (٣/١٩٥-٢٠٥).

(٢) البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

مسلم<sup>(١)</sup>.

وعن عامر بن وائلة، أنه سمع عبد الله بن مسعود يقول: الشقي من شقي في بطن أمه، والسعيد من عظ بغيره. فأئِي رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له: حذيفة بن أُبيد الغفاري، فحدّثه بذلك من قول ابن مسعود فقال: وكيف يشقى رجل بغير عمل؟ فقال له الرجل: أتعجب من ذلك؟ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملائكة فصورها، وخلقن سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وظامها، ثم قال: يا رب، أذكر أم أنشي؟ فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملَك، ثم يقول: يا رب، أجله؟ فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملَك، ثم يقول: يا رب، رزقه؟ فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملَك، ثم يخرج الملَك بالصحيفة في يده، فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص».

وفي لفظ آخر: سمعت رسول الله ﷺ بأذني هاتين يقول: «إن النطفة تقع في الرّحم أربعين ليلة، ثم يتسرّر عليها الملَك». قال زهير بن معاوية: أحسبه قال: «الذى يخلقها» – «فيقول: يا رب، أذكر أم أنشي؟ فيجعله الله ذكرًا أو أنشي، ثم يقول: يا رب، سوياً أو غير سوياً؟ فيجعله الله سوياً أو غير سوياً، ثم يقول: يا رب، ما رزقه، وما أجمل، وما خلقه؟ ثم يجعله الله عز وجل شقيًا أو سعيدًا».

وفي لفظ آخر: «إن ملائكة موكلًا بالرحم، إذا أراد الله أن يخلق شيئاً بإذن الله، لبعض وأربعين ليلة» ثم ذكر نحوه.

---

(١) برقم (٢٦٤٤).

وهذا الحديث بطرقه انفرد به مسلم<sup>(١)</sup>.

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل قد وَكَلَ بالرَّحْمَنَ ملِكًا، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبٌّ نَطْفَةٌ؟ أَيُّ رَبٌّ عَلْقَةٌ؟ أَيُّ رَبٌّ مَضْغَةٌ؟ فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَقْضِي خَلْقًا، قَالَ الْمَلِكُ: أَيُّ رَبٌّ ذَكْرُ أُمَّتِنَا، شَقِيقُ أُمَّتِنَا، سَعِيدٌ، فَمَا الرِّزْقُ؟ فَمَا الْأَجْلُ؟ فَيَكْتُبُ كَذَلِكَ فِي بَطْنِ أُمَّهٖ» متفق عليه<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن وهب: أخبرني يونس، عن ابن شهاب، أن عبد الرحمن [بن]<sup>(٣)</sup> هنية حدثهم، أن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله أن يخلق النسمة، قال ملوك الأرحام مُعْرِضاً<sup>(٤)</sup>: يا رب، أذكر أم أنشئ؟ فيقضي الله أمره، ثم يقول: يا رب، شقي أم سعيد؟ فيقضي الله أمره، ثم يكتب بين عينيه ما هو لائق حتى النكبة ينكبها»<sup>(٥)</sup>.

قال ابن وهب: وأخبرني عبد الله بن أبي هيبة، عن بكر بن سوادة الجذامي، عن أبي تميم الجيشهاني، عن أبي ذر: أن النبي ﷺ قال: «إذا دَخَلْتُ - يعني

---

(١) برقم (٢٦٤٥).

(٢) البخاري (٦٥٩٥)، ومسلم (٢٦٤٦) واللفظ له.

(٣) زيادة لازمة، سقطت من «د» «م».

(٤) «م»: «معها» تحريف، وسقطت من «د»، والمثبت من مصدر الخبر، وفي بعض الطرق: «معترضاً» وفي أخرى: «وهو معرض»، جميعها بمعنى، انظر: «النهاية في الغريب» (عرض) (٣/٢١٥).

(٥) «القدر» لابن وهب (٣٠). ومن طريقه ابن حبان (٦١٧٨) .، وأخرج جابر بن أبي عاصم في «السنّة» (١٨٣)، واختلف عن الزهرى فيه وقفًا ورفعًا، وصحح الدارقطنى رفعه في «العلل» (١٣/١٣٣).

النطفة - في الرحم أربعين، أتى ملك النفس فعرج إلى الربّ، فقال: يا ربّ، عبده أذكر أو أنسى؟ فيقضي الله بما هو قاض. أشقي أم سعيد؟<sup>(١)</sup> فيكتب ما هو كائن»، وذكر بقية الحديث.<sup>(٢)</sup>

وقال ابن وهب: أخبرني ابن لهيعة، عن كعب بن علقة، عن عيسى بن هلال، عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: «إذا مكثت النطفة في رحم المرأة أربعين ليلة، جاءها ملك فاختلجلها<sup>(٣)</sup>، ثم عرج بها إلى الله عز وجل، فقال: أخلق يا أحسن الخالقين. فيقضي الله فيها بما يشاء من أمره، ثم تدفع إلى الملك، فيسأل الملك<sup>(٤)</sup> عند ذلك فيقول: يا ربّ، أسقط أم يتنم؟ فيبيّن له، ثم يقول: يا ربّ، أواحد أو توأم؟ فيبيّن له، ثم يقول: يا ربّ، أذكر أم أنسى؟ فيبيّن له، ثم يقول: يا ربّ، أناقص الأجل أم تام الأجل؟ فيبيّن له، ثم يقول: يا ربّ، اقطع رزقه مع خلقه<sup>(٥)</sup>. فيقضيهما جميـعاً<sup>(٦)</sup>، فوالذي نفس

(١) هكذا في «د» «م»، متابعة لما في مصدر الرواية الآتي، وفي «القدر» للفريابي (١٢٣): «ثم يقول: يارب، أشقي أم سعيد؟».

(٢) «القدر» لابن وهب (٣٦)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (٩٤)، وأخرجه من طرق عن ابن لهيعة موقوفاً: ابن سلام في «التفسير» (١/٣٥٥)، والفریابی في «القدر» (١٢٣)، ولا يصح إسناده، مداره على ابن لهيعة، وفي لفظه ما يُستنكر، وقد اضطرب في رفعه ووقفه، انظر: «الفوائد المجموعه» بتعليق المعلمي (٤٥١).

(٣) يعني نزعها وجذبها، «النهاية في الغريب» (خلج) (٢/٥٩).

(٤) «د»: «فيسأـل الله»، والمثبت من «م» موافق لمصدر الخبر.

(٥) في «القدر» للفريابي (١٤٦): «اقطع رزقه. فيقطع له رزقه مع خلقه».

(٦) الظاهر أن ضمير الشيـنة عائد على: رزقه وخلقـه، وعند الفريابي: «فيهبط بهما جميـعاً».

محمد بيده؛ لا ينال إلا ما قُسم له يومئذ، إذا أكل رزقه فُمض». <sup>(١)</sup>

وقال عبد الله بن أحمد: أخبرنا أحمد بن العلاء، ثنا أبو الأشعث، ثنا أبو عامر، عن الزبير بن عبد الله، حدثني جعفر بن مصعب، قال: سمعت عروة بن الزبير يحدث، عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «إن الله سبحانه حين يريد أن يخلق الخلق، يبعث ملائكةً فيدخلن الرحيم، فيقولون: أي رب، ماذا؟ فيقولون: غلام أو جارية أو ما شاء أن يخلق في الرحيم. فيقولون: أي رب، أشقي أم سعيد؟ فيقولون: شقي أو سعيد. فيقولون: أي رب، ما أجله؟ فيقولون: كذا وكذا. فيقولون: ما خلقه، ما خلائقه؟ فيقولون: كذا وكذا. فما شيء إلا وهو يُخلق معه في الرحيم». <sup>(٢)</sup>

وفي «المسندي» <sup>(٣)</sup> من حديث إسماعيل بن عبيد الله . وهو ابن أبي المهاجر ، أن أم الدرداء حدثته، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «فرغ الله عز وجل إلى كل عبد من خمس: من أجله، ورزقه، ومضجعه، وأثره، وشقي أم سعيد».

(١) «القدر» لابن وهب <sup>(٤)</sup> . ومن طريقه ابن بطة في «الإبانة الكبرى» (١٤١٨) . . وأخرجه اللالكائي في «شرح أصول أهل السنة» (١٢٣٦)، والفریابي (١٤٦).

(٢) أخرجه ابن راهويه في «المسندي» (٢/٣٤٥)، والبزار كما في «كشف الأستار» (٢١٥١)، وإسناده منكر، آفته الزبير بن عبد الله، قال ابن عدي في «الكامل» (١٥٢/٥) بعد أن أخرج الحديث: «وأحاديث زبير هذا منكرة المتن والإسناد، لا تروى إلا من هذا الوجه».

(٣) برقم (٢١٧٢٣) دون لفظ: «ومضجعه»، وهو فيه من وجہ آخر برقم (٢١٧٢٢)، وأخرجه بهذا اللفظ عبد الله من طريق والده في «السنة» (٨٥٩)، ورواه ابن أبي عاصم في «السنة» (٣٠٧)، وصححه ابن حبان (٦١٥٠).

وقال ابن حميد: ثنا يعقوب بن عبد الله، عن سعيد بن جبير<sup>(١)</sup>، عن ابن عباس قال: «إذا وقعت النطفة في الرحم مكثت أربعة أشهر وعشراً، ثم تُنفخ فيها الروح، ثم مكثت أربعين ليلة، ثم يُبعث إليها ملئك، فنَفَّفَها في نُقرة القفا<sup>(٢)</sup>، وكتب شقياً أو سعيداً»<sup>(٣)</sup>.

وروى ابن أبي خيثمة: حدثنا عبد الرحمن بن المبارك، ثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن محمد، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «السعيد من سعد في بطن أمه»<sup>(٤)</sup>.

رواه أبو داود في «القدر»<sup>(٥)</sup>، عن عبد الرحمن، عن حماد، عن هشام<sup>(٦)</sup> [بن حسان] ، عن محمد.

(١) كذا في «د» «م»: «يعقوب... عن سعيد»، سقط بينهما جعفر بن أبي المغيرة، كما في مصدر الرواية.

(٢) يعني ضربها ضربة يسيرة في الحفيرة الصغيرة الواقعة بأعلى العنق مما يلي الرأس، انظر: «المحكم» لأبي سعيد (نحو) ٤٤٦/٦، «المصباح المنير» (نحو) ٢٣٧).

(٣) أخرجه اللالكائي في «شرح الأصول» ١٠٦٠، وإسناده ضعيف، ابن حميد هو محمد بن حميد الرازي في حديثه نظر، وانظر: «جامع العلوم والحكم» ١٦٣/١).

(٤) أخرجه من طريق ابن أبي خيثمة به اللالكائي في «شرح الأصول» ١٠٥٤)، ومحمد هو ابن سيرين.

(٥) وأخرجه الطبراني في «الأوسط» ٨٤٦٥)، والبزار كما في «كشف الأستار» ٢١٥٠ من طرق عن عبد الرحمن به، وصحح إسناده البوصيري في «إتحاف الخيرة» ١٦٩/١).

(٦) في «د»: «عن هناد» تحريف، بعده بياض بمقدار الكلمة، والمثبت من مصادر التخريج، وسقطت من «م» جملة: «عن هشام... محمد».

وقال أَحْمَدُ بْنُ عَيْدٍ: أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُبَشِّرٍ، ثنا  
عَبْدُ الْحَمِيدَ بْنُ بَيَانٍ، ثنا خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ عَيْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِيهِ،  
عَنْ أَبِي هَرِيرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الشَّقِيقُ مِنْ شَقِيقٍ فِي بَطْنِ أُمِّهِ،  
وَالسَّعِيدُ مِنْ سَعِيدٍ فِي بَطْنِ أُمِّهِ»<sup>(١)</sup>.

وقال سعيد<sup>(٢)</sup>: عن ابن إسحاق<sup>(٣)</sup>، عن أبي الأحوص، عن ابن مسعود  
قال: «الشَّقِيقُ مِنْ شَقِيقٍ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَالسَّعِيدُ مِنْ وُعِظَّ بَغِيرَه»<sup>(٤)</sup>.

وقال شعبة: عن مُخَارِقٍ، عن طارق، عن عبد الله بن مسعود قال<sup>(٥)</sup>:  
«إِنَّ أَصْدِقَ الْحَدِيثِ كِتَابَ اللَّهِ، وَأَحْسَنُ الْهَدِيَّ هَدِيُّ مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ  
مَحْدُثَاتُهَا، فَاتَّبَعُوا وَلَا تَبْتَدَعُوا، فَإِنَّ الشَّقِيقَ مِنْ شَقِيقٍ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَالسَّعِيدُ مِنْ  
وُعِظَّ بَغِيرَه»، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ إِذَا كَانَ لِيْلَةَ الْجُمُعَةِ، قَامَ فَقَالَ: «إِنَّ  
أَصْدِقَ الْحَدِيثِ كِتَابَ اللَّهِ، وَإِنَّ أَحْسَنَ الْهَدِيَّ هَدِيُّ مُحَمَّدٍ، وَإِنَّ الشَّقِيقَ مِنْ

(١) أخرجه من طريق أَحْمَدَ بْنُ عَيْدٍ بِهِ الْلَّالِكَائِيُّ فِي «شَرْحِ الْأَصْوَلِ» (١٠٥٧)، ورواه  
مسدد كما في «إِتْحَافِ الْخَيْرَةِ» (١٦٩/١)، وَالْأَجْرِيُ فِي «الشَّرِيعَةِ» (٣٦٦) مِنْ طرق  
عَنْ خَالِدِ بْنِ دَاؤِدٍ، إِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ مِنْ أَجْلِ يَحْيَىٰ بْنِ عَيْدِ اللَّهِ الْقَرْشِيِّ فَقُدِّضَ ضَعْفُهُ جَمَاعَةً،  
وَفِي أَبِيهِ جَهَالَةً، وَيُحْسَنُ بِمَا قَبْلَهُ مِنَ الْطَّرُقِ.

(٢) كذا في «د» «م»: «سَعِيدٌ»، صوابه: «شَعْبَةُ» كما في مصادر التخريج.

(٣) كذا في «د» «م»: «ابن إسحاق»، صوابه: «أبي إسحاق» كما في مصادر التخريج.

(٤) أخرجه من طريق أَبِي دَاؤِدٍ بِهِ ابْنُ بَطْرَةَ فِي «الإِبَانَةِ الْكَبْرِيِّ» (١٤٢١)، ورواه الفريابي  
فِي «الْقَدْرِ» (١٣٠) مِنْ طرِيقِ آخَرٍ عَنْ شَعْبَةِ بْنِ عَيْدٍ، وَهُوَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» (٢٦٤٥) مِنْ  
وَجْهِ آخَرٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ بِسِيَاقِ أَطْوَلِهِ.

(٥) مِنْ قَوْلِهِ: «الشَّقِيقُ مِنْ شَقِيقٍ» إِلَى هَنَا ساقَطَ مِنْ «د».

شقي في بطن أمه، والسعيد من وُعظ بغيرة، وإن شرّ الرّوايا روايا الكذب<sup>(١)</sup>، وشرّ الأمور محدثاتها، وكل ما هو آت قريب»، رواهن أبو داود في «القدر»<sup>(٢)</sup>.

وذكر الطبراني من رواية أبي إسحاق، عن أبي عبيدة، عنه أنه كان يجيء كل يوم خميس، يقوم قائماً لا يجلس، فيقول: «إنما هما اثنتان: فأحسن الهدي هدي محمد، وأصدق الحديث كتاب الله، وشرّ الأمور محدثاتها، وكل محدث ضلاله، إن الشقي من شقي في بطن أمه، وإن السعيد من وُعظ بغيرة، ألا فلا يطولن عليكم الأمد، ولا يلهيئنكم الأمل، فإن كل ما هو آت قريب، وإنما البعيد ما ليس آتياً، وإن من شرار الناس بطال النهار حيفة الليل، وإن قتل المؤمن كفر، وإن سبابه فسوق، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخيه فوق ثلاث، ألا إن شرّ الرّوايا روايا الكذب، وإنه لا يصلح من الكذب جدولاً هزل، ولا أن ي تعد الرجل صبيه ثم لا ينجزه، ألا وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الصادق يقال له: صدق وير، وإن الكاذب يقال له: كذب وفجر، وإن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن العبد ليصدق فيكتب عند الله صديقاً، وإنه ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً». ألا هل تدرون ما

(١) الرّوايا جمع رَوِيَةٍ: ما يفكّر فيه الإنسان من القول والفعل، وقيل غيره، انظر: «النهاية في الغريب» (٢٧٩/٢).

(٢) أخرج شطره الأول ابن بطة في «الإبانة الكبرى» (١٤٢٣)، واللالكائي في «شرح الأصول» (١٢١٥) من طريق أبي داود به، وأخرج الدارمي (٢١٣) قريباً من شطره الثاني.

والشطران في «صحيغ البخاري» (٧٢٧٧، ٦٠٩٨) بسياق أخر منه.

العِصَمَةُ؟ هي النسمة التي تفسد بين الناس»<sup>(١)</sup>، وهذا متواتر عن عبد الله.

وبلغ معاوية أن الوباء اشتد بأهل داب<sup>(٢)</sup> فقال: «لو حولناهم عن مكانهم، فقال له أبو الدرداء: وكيف لك يا معاوية بأنفس قد حضرت آجالها؟ فكان معاوية وَجَدَ عَلَى أبي الدرداء، فقال له كعب: يا معاوية، لا تجد على أخيك؛ فإن الله سبحانه<sup>(٣)</sup> لم يدع نفساً حين تستقر نطفتها في الرحم أربعين ليلة إلا كتب: خلقها وَخُلُقْهَا وأجلها وَرَزْقُهَا، ثم لكل نفس ورقة خضراء معلقة بالعرش، فإذا دنا أجلها خَلَقَتْ<sup>(٤)</sup> تلك الورقة حتى تيسّر، ثم تسقط، فإذا بيسرت سقطت تلك النفس وانقطع أجلها وَرَزْقُهَا»، ذكره أبو داود عن محمود بن خالد، ثنا مروان، ثنا معاوية بن سلام، حدثني أخي زيد بن سلام، عن جده ابن سلام<sup>(٥)</sup> قال: بلغ معاوية ذكره<sup>(٦)</sup>.

وقال أبو داود: ثنا واصل بن عبد الأعلى، ثنا ابن فضيل، عن الحسن بن عمرو الفقيهي، عن الحكم، عن مجاهد في قوله تعالى: «وَكُلُّ إِنْسَنٍ أَنْزَلْنَاهُ

(١) «المعجم الأوسط» (٧٨٧١)، و«الكبير» (٨٥٢٢)، وأخرجه معمر في «الجامع» (٢٠٠٧٦)، والبغوي في «شرح السنة» (٣٥٧٥)، وروى مسلم (٢٦٠٦) تعريف العضة وبعض المرفوع منه، وقد جمع الطبراني في «الكبير» (٩٨/٩ - وما بعدها) طرق هذه الخطبة وألفاظها في عنوان مستقل: «خطبة ابن مسعود ومن كلامه».

(٢) كذلك في «د» «م» و«الإبابة»، ولم أهتم إليها.

(٣) من قوله: «وَكَيْفَ لَكَ يَا مَعَاوِيَةً إِلَى هَذَا سَاقَطَ مِنْ «د».

(٤) أي أصبحت قديمة باليه، انظر: «الصحاح» (خلق) (٤/١٤٧٢).

(٥) كذلك في «د» «م»: «ابن سلام» تحرير، صوابه: «أبي سلام»، وهو أبو سلام ممطرور الحبشي، انظر: «تهذيب الكمال» (٤٨٤/٢٨)، ووقع على الوجه في «الإبابة».

(٦) ومن طريق أبي داود أخرجه ابن بطة في «الإبابة الكبرى» (١٨١٧).

**طَلِيلَةٌ فِي عُنْقِهِ** ﴿الإِسْرَاءَ: ١٣﴾، قال: «ما من مولود يولد إلا في عنقه ورقة مكتوب فيها: شقيٌ أو سعيد»<sup>(١)</sup>.

وفي «الصحيحين»<sup>(٢)</sup> عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الغلام الذي قتله الخضر طُبع يوم طُبع كافراً، ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً».

وفي «صحيف مسلم»<sup>(٣)</sup> عن عائشة قالت: توفي صبيٌّ من الأنصار، فقلت: طوبى له، عصفور من عصافير الجنة، لم يعملسوء ولم يدركه. فقال: «أو غير ذلك يا عائشة! إن الله خلق للجنة أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم».

ولا ينافق هذا حديث سمرة بن جندب، الذي رواه البخاري في «صححه»<sup>(٤)</sup> من رؤيا النبي ﷺ أطفال المشركين حول إبراهيم الخليل في الروضة؛ فإن الأطفال منقسمون إلى شقي وسعيد كالبالغين، فالذين رأهم حول إبراهيم السعداء من أطفال المسلمين والمشركين، وأنكر على عائشةشهادتها للطفل المعين بأنه عصفور من عصافير الجنة، وقد يكون من القسم الآخر، كالشهادة للبالغين، وبالله التوفيق.

(١) ومن طريق أبي داود أخرجه ابن بطة في «الإبانة الكبرى» (١٧٤٣)، وأخرجه الطبرى (٤٠/٥٢٠) عن واصل به.

(٢) اللفظ لـ«مسلم» (٢٦٦١)، وليس بهذا السياق عند البخاري، بل بمعناه في قصة الخضر وموسى عليه السلام في عدة مواضع، انظر على سبيل المثال: (٤٧٢٦).

(٣) برقم (٢٦٦٢).

(٤) برقم (١٣٨٦).

فاجتمعت هذه الأحاديث والآثار على تقدير رزق العبد وأجله وشقاوته وسعادته وهو في بطن أمه، واختلفت في وقت هذا التقدير، وهذا تقدير بعد التقدير الأول السابق على خلق السماوات والأرض، وبعد التقدير الذي وقع يوم استخراج الذرية بعد خلق أبيهم آدم.

ففي حديث ابن مسعود أن هذا التقدير يقع بعد مائة وعشرين يوماً من حصول النطفة في الرحم، وحديث أنس غير مؤقت، وأما حديث حذيفة بن أَسِيد فقد وَقَّت فيه التقدير بأربعين يوماً، وفي لفظ: بأربعين ليلة<sup>(١)</sup>، وفي لفظ: ثنتين وأربعين ليلة، وفي لفظ: بثلاث وأربعين ليلة، وهو حديث انفرد به مسلم ولم يروه البخاري.

وكثير من الناس يظن التعارض بين الحديدين، ولا تعارض بينهما بحمد الله؛ فإن الملك الموكل بالنطفة يكتب ما يقدره الله سبحانه على رأس الأربعين الأولى، حتى تأخذ في الطور الثاني وهو العلقة، وأما الملك الذي ينفع فيه الروح فإنما ينفعها بعد الأربعين الثالثة، فيؤمر عند نفح الروح فيه بكثب: رزقه، وأجله، وعمله، وشقاوته وسعادته، وهذا تقدير آخر غير التقدير الذي كتبه الملك الموكل بالنطفة، ولهذا قال في حديث ابن مسعود: «ثم يرسل إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات»، وأما الملك الموكل بالنطفة، فذاك راتب معها ينقلها بإذن الله من حال إلى حال، فتقدير الله سبحانه شأن النطفة حين تأخذ في مبدأ التخليق وهو العلقة، وتقدير شأن الروح حين تتعلق بالجسد بعد مائة وعشرين يوماً، فهو تقدير بعد تقدير.

---

(١) جملة: «وفي لفظ: بأربعين ليلة» ساقطة من «م».

فاتفقت أحاديث رسول الله ﷺ، وصدق بعضها بعضاً، ودللت كلها على إثبات القدر السابق، ومراتب التقدير، وما يؤتى أحده إلا من غلط في الفهم، أو غلط في الرواية، ومتي صحت الرواية وفهمت كما ينبغي تبين أن الأمر كله من مشكاة واحدة صادقة متضمنة لنفس الحق، وبالله التوفيق.



## البَابُ الْخَامِسُ

### في ذكر التقدير الرابع ليلة القدر

قال الله تعالى: «**حَمٌ وَالْكَيْتَبُ الْمُبِينُ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ**» **فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٌ** **أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ**» [الدخان: ١ - ٥]، وهذه هي ليلة القدر قطعاً؛ لقوله تعالى: «**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ الْقَدْرِ**» [القدر: ١]، ومن زعم أنها ليلة النصف من شعبان فقد غلط.

قال سفيان: عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: «ليلة القدر ليلة الحكم» <sup>(١)</sup>.

وقال سفيان: عن محمد بن سُوْقَة، عن سعيد بن جبير: «يؤذن للحجاج في ليلة القدر، فيكتبون بأسمائهم وأسماء آبائهم، فلا يغادر منهم أحد، ولا يزad فيهم، ولا ينقص من them» <sup>(٢)</sup>.

وقال ابن عليـة: حدثنا ربيعة بن كلثوم قال: قال رجل للحسن - وأنا أسمع - أرأيت ليلة القدر، في كل رمضان هي؟ قال: نعم، والله الذي لا إله إلا هو إنها لفـي كل رمضان، وإنها لليلة القدر، يُفـرق فيها كل أمر حـكـيم، فيها يقضـي الله كل أـجل وعـمل ورـزـق إـلـى مـثـلـهـا <sup>(٣)</sup>.

(١) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» (٣٦٦٤)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٨٧٨٤)، وسفـيان هو الشورـي.

(٢) أخرجه الطبرـي (٥٤٤ / ٢٤).

(٣) أخرجه الطبرـي (٥٤٤ / ٢٤).

وذكر يوسف بن مهران، عن ابن عباس قال: «يُكتب من أُم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحجّاج، يقال: يحج فلان، ويحج فلان»<sup>(١)</sup>.

وذكر عنه سعيد بن جبير في هذه الآية: «إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى»<sup>(٢)</sup>.

وقال مقاتل: «يُقدّر الله في ليلة القدر أمر السنة في بلاده وعباده إلى السنة القابلة»<sup>(٣)</sup>.

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: «يُقدّر أمر السنة كلها في ليلة القدر»<sup>(٤)</sup>. وهذا هو الصحيح: أن القدر مصدر قَدْر الشيء يقدّره قدرًا، فهي ليلة الحكم والتقدير.

وقالت طائفة: ليلة القدر ليلة الشرف والعظمة، من قولهم: لفلان قدر في الناس.

فإن أراد صاحب هذا القول أن لها قدرًا وشرفاء مع ما يكون فيها من

---

(١) أخرجه ابن نصر في «قيام الليل- مختصره» (٢٥٠)، وعزاه السيوطي في «الدر المثور» إلى ابن أبي حاتم وابن المتندر.

(٢) أخرجه الحاكم (٣٦٧٨)، وبنحوه الطبرى (١٠/٢١).

(٣) بنحوه في «تفسير مقاتل» (٣/٨١٧)، والمؤلف صادر عن «البسيط» للواحدى (٢٤/١٩٠) في هذا الموضع والذي يليه.

(٤) أخرجه الطبرى (٨/٢١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٣٩٠)، وهو في «التفسير» المنسوب إلى مجاهد (٥٩٧).

التقدير فقد أصاب، وإن أراد أن معنى القدر فيها هو الشرف والخطر فقط فقد غلط؛ لأن الله سبحانه أخبر أن فيها يُفرق كل أمر حكيم، أي: يُفصل وَيُبَيِّن، ويُتَبَرَّم كل أمر حكيم.



البَابُ الْسَّادِسُ

## في ذكر التقدير الخامس اليومي

قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَنِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأنٍ﴾ [الرحمن: ۲۹]، ذكر الحاكم في «صحيحه»<sup>(۱)</sup> من حديث أبي حمزة الثمالي، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عباس: «إِنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ لَوْحًا مَحْفُوظًا مِنْ دَرَةٍ بِيَضَاءٍ، دَفَتَاهُ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، قَلَمَهُ نُورٌ، وَكَتَابَهُ نُورٌ، يَنْظَرُ فِيهِ كُلُّ يَوْمٍ ثَلَاثَمَائَةً وَسَتِينَ نَظَرَةً أَوْ مَرَّةً، فَفِي كُلِّ نَظَرَةٍ مِنْهَا يَخْلُقُ، وَيَرْزُقُ، وَيَحْيِي، وَيَمْتَ، وَيَعْزِزُ، وَيَذْلِّ، وَيَفْعُلُ مَا يَشَاءُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأنٍ﴾».

وقال مجاهد الكلبي وعبيد بن عمير وأبو ميسرة وعطاء ومقاتل: «من شأنه أنه يحيي ويميت، ويرزق ويمنع، وينصر، ويعزّ ويذلّ، ويفك عانِيَا، ويشفي مريضاً، ويجيب داعياً، ويعطى سائلاً، ويتوب على قوم، ويكشف كرباً، ويغفر ذنباً، ويضع أقواماً، ويرفع آخرين»، دخل كلام بعضهم في بعض<sup>(٢)</sup>:

وقد ذكر الطبراني في «المعجم» و«الستة»، وعثمان بن سعيد الدارمي في كتابه «الرد على المريسي»<sup>(٣)</sup>، عن عبد الله بن مسعود قال: «إن ريكم عز

(١) برقـم (٣٩١٧)، وأخرجه عبد الرزاق في «النـفسـير» (٢٦٣/٢)، والطـبـري (٢١٥/٢٢).

(٢) انظر : «السلط» (٢١/١٦١).

(٣) «المعجم الكبير» (٨٨٨٦) واللُّفْظُ لِهِ، «الرَّدُّ عَلَى الْمُرِيسِيِّ» (٤٧٥ / ١)، وآخر جهه أبو

وجل ليس عنده ليل ولا نهار، نور السماوات والأرض من نور وجهه، وإن مقدار كل يوم من أيامكم عنده ثنتي عشرة ساعة<sup>(١)</sup>، فتعرض عليه أعمالكم بالأمس أول النهار اليوم، فينظر فيها ثلث ساعات، فيطلع فيها على ما يكره، فيغضبه ذلك، وأول من يعلم غضبه حملة العرش، يجدونه يثقل عليهم، فيسبحه حملة العرش، وسرايقات العرش<sup>(٢)</sup>، والملائكة المقربون، وسائر الملائكة، ثم ينفح جبريل في القرن فلا يقى شيء إلا سمع صوته، فيسبحون الرحمن عز وجل ثلث ساعات حتى يمتلىء الرحمن عز وجل رحمة، فتلك ست ساعات، ثم يؤتى بالأرحام، فينظر فيها ثلث ساعات، فذلك قوله في كتابه: «هُوَ الَّذِي يُصوِّرُ كُلَّ فِي الْأَرْضِ كَمَا يَشَاءُ» [آل عمران: ٦]، وقوله: «يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنْتَهَا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الدُّكُورَ» أو تروجهم دُكُوراً إِنْ شَاءَ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ» [الشورى: ٤٩ - ٥٠]، فتلك تسع ساعات، ثم يؤتى بالأرزاق فينظر فيها ثلث ساعات، فذلك قوله في كتابه: «يَسْطُطُ الْرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ» [الشورى: ١٢]، و«كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأنٍ» [الرحمن: ٢٩]، قال: هذا من شأنكم وشأن ربكم تبارك وتعالى».

قال الطبراني: حدثنا بشر بن موسى، ثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا حماد ابن سلمة عن أبي عبد السلام، عن عبد الله - أو عبيد الله - بن مكرز، عن ابن

---

داود في «الزهد» (١٦٨)، وفي إسناده مجهولان، وبذلك أعلمه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٦٧٤).

(١) «م»: «سنة» تحريف، والمثبت من «د» موافق لما في مصادر التخريج.

(٢) واحدها سرايقات: وهو كل ما أحاط بشيء من حائط ونحوه، انظر: «النهاية في الغريب» (سردق) (٣٥٩/٢).

مسعود فذكره.

وقال عثمان بن سعيد الدارمي: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد ابن سلمة، عن الزبير أبي عبد السلام، عن أبوبن عبد الله الفهري، أن ابن مسعود قال: «إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار»، فذكر الحديث إلى قوله: «فيسبحه حملة العرش، وسرادقات العرش، والملائكة المقربون، وسائر الملائكة».

فهذا تقدير يومي، والذي قبله تقدير حولي، والذي قبله تقدير عمري عند تعلق<sup>(١)</sup> (١) النفس به، والذي قبله كذلك، لكن<sup>(٢)</sup> (٢) عند أول تخلقه وكونه مضغة، والذي قبله تقدير سابق على وجوده، لكن بعد خلق السماوات والأرض، والذي قبله تقدير سابق على خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكل واحد من هذه التقادير كالتفصيل من التقدير السابق.

وفي ذلك دليل على كمال علم الربُّ وقدرته وحكمته، وزيادة تعريف لملائكته وعباده المؤمنين بنفسه وأسمائه وصفاته.

وقد قال تعالى: «إِنَّا كُلَّا نَسْتَنْسَخُ مَا كُلُّمْ رَعَمْلُونَ» [الجاثية: ٢٩]. وأكثر المفسرين على أن هذا الاستنساخ من اللوح المحفوظ، فتستنسخ الملائكة ما يكون من أعمالبني آدم قبل أن يعملوها، فيجدون ذلك موافقاً لما يعلمونه، فيثبت الله منه ما فيه ثواب أو عقاب، ويطرح منه اللغو.

---

(١) «د»: «تعليق».

(٢) «لكن» من «د».

وذكر ابن مردوه في «تفسيره»<sup>(١)</sup> من طرق إلى بقية، عن أرطاة بن المنذر، عن مجاهد، عن ابن عمر يرفعه: «إن أول ما خلق الله القلم، فأخذته بيمنيه - وكلتا يديه يمين - فكتب الدنيا وما يكون فيها من عمل معمول، من بُرّ أو فجور، رطب أو يابس، فأحصاه عند الذكر»<sup>(٢)</sup>، وقال: اقرؤوا إن شتم: «هَذَا كِتَابٌ نَّارٌ يُنَطِّقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كَانَ شَاعِرُهُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» [الجاثية: ٢٩]، فهل تكون النسخة إلا من شيء قد فرغ منه».

وقال آدم: حدثنا ورقاء، عن عطاء بن السائب، عن مِقْسَم، عن ابن عباس: «إِنَّا كَانَ شَاعِرُهُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» [الجاثية: ٢٩] قال: « تستنسخ الحفظة من أم الكتاب ما يعمل بنو آدم، فإنما يعمل الإنسان على ما استنسخ الملك من أم الكتاب»<sup>(٣)</sup>.

وفي «تفسير الأشجعي»: عن سفيان، عن منصور، عن مِقْسَم، عن ابن عباس قال: «كَتَبَ فِي الْذِكْرِ عِنْدَهُ كُلُّ شَيْءٍ هُوَ كَايْنٌ، ثُمَّ بَعَثَ الْحَفْظَةَ عَلَى

(١) عزاه إليه في «الدر المثبور» (١٣/٥٣٠)، وأخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٦١٠)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٦٧٣)، والأجري في «الشريعة» (٣٣٩) من طرق عن بقية به، وإسناده جيد، بقية صرخ بالتحديث عند ابن أبي عاصم وغيره، وقد تابعه غير واحد.

(٢) كذلك في «د» و«م»: «فَأَحْصَاهُ عِنْدَ الذِكْرِ»، والصواب: «فَأَحْصَاهُ عِنْدَهُ فِي الذِكْرِ» كما في مصدر الرواية ومصادر التخريج الأخرى، وبه يستقيم المعنى.

(٣) هو في التفسير المنسب إلى مجاهد (٦٠٠) من طريق آدم به، ومن هذا الوجه أخرجه البهقي في «القضاء والقدر» (٤٠)، وعزاه في «الدر المثبور» (١٣/٣٠٦) إلى ابن مردوه.

آدم وذريته، ووكل ملائكته ينسخون من الذكر ما يعمل العباد، ثم قرأ: ﴿هَذَا  
كِتَبُنَا يَطِقُّ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَسْخِ مَا كُنَّمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩] (١).

وفي «تفسير الضحاك»: عن ابن عباس في هذه الآية قال: «هي أعمال أهل الدنيا: الحسنات والسيئات، تنزل من السماء كل غداة وعشية، ما يصيب الإنسان في ذلك اليوم أو الليلة، الذي يُقتل، والذي يغرق، والذي يقع من فوق بيت، والذي يتربّى من جبل، والذي يقع في بئر، والذي يُحرق بالنار، فيحفظوا عليه ذلك كله، وإذا كان المساء صعدوا به إلى السماء، فيجدونه كما في السماء، مكتوبًا في الذكر الحكيم» (٢).



(١) عزاه في «الدر المثبور» (٣٠٦ / ١٣) إلى ابن مردويه، وأخرجه من وجه آخر عن مِقْسَم بنحوه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢٦٢ / ٨).

(٢) قال في «الدر المثبور» (٣٠٦ / ١٣): «أخرج ابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس».

## البَابُ السِّتَّاَعُ

في أن سبق المقادير بالشقاوة والسعادة لا يقتضي ترك الأعمال، بل يقتضي الاجتهاد والحرص؛ لأنها إنما سبقت بالأسباب

يسبق إلى أفهم كثير من الناس أن القضاء والقدر إذا كان قد سبق فلا فائدة في الأفعال؛ فإن ما قضاه ربُّ سبحانه وقدره لابدَّ من وقوعه، فتوسُّط العمل لا فائدة فيه.

وقد سبق إيراد هذا السؤال من الصحابة رضي الله عنهم على النبي ﷺ فأجابهم بما فيه الشفاء والهدى.

ففي «الصحيحين»<sup>(١)</sup> عن علي بن أبي طالب قال: «كُنّا في جنازة في تقيع الغرقد، فأتانا رسول الله ﷺ، ومعه مخصوصة، فنكّس فجعل ينكّس بمحضرته، ثم قال: «ما منكم من أحد، ما من نفس مئفوسة، إلا كتب مكانها من الجنة والنار، وإنما قد كتبت شقية أو سعيدة»، فقال رجل: يا رسول الله، أفلان تتكل على كتابنا وندع العمل؟ فمن كان منا من أهل السعادة، فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة، فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة، فقال: «اعملوا بكل ميسّر، أما أهل السعادة فيمسيرون إلى عمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فيمسيرون لعمل أهل الشقاوة». ثم قرأ: «فَإِنَّمَا مَنْ أَعْطَنَا وَاتَّقَنَ<sup>⑤</sup> وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى<sup>⑥</sup> فَسَيُسْرُهُ الْمُيْسَرُ<sup>⑦</sup> وَإِنَّمَا مَنْ يَجْلِلَ وَاسْتَغْنَى<sup>⑧</sup> وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى<sup>⑨</sup> فَسَيُنَيْسُهُ<sup>⑩</sup>

(١) تقدم تخرّجه في (٢٦).

العشرى》 [الليل: ٥ - ١٠].

وفي بعض طرق البخاري: أفلأ نتكل على كتابنا، وندع العمل؟ فمَنْ كان مَنًا من أهل السعادة، فسيصير إلى أهل السعادة، وَمَنْ كان من أهل الشقاوة، فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة.

وعن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله، قال: جاء سراقة بن مالك بن جعْشُمْ، فقال: يا رسول الله، يَبِّن لَنَا دِينَنَا كَانَتْ خُلِقْنَا الْآنَ، فِيمَ الْعَمَلُ الْيَوْمُ؟ أَفِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ، وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ، أَمْ فِيمَا نَسْتَقْبِلُ؟ قال: «لا، بل فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ، وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ»، قال: فَقِيمُ الْعَمَلِ؟ فَقَالَ: «اَعْمَلُوا فَكُلُّ مِيسَرٍ» رواه مسلم<sup>(١)</sup>.

وعن عمران بن حصين قال: قيل: يا رسول الله، أَعْلَمُ أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؟ فقال: «نعم»، قيل: فَقِيمُ يَعْمَلُ الْعَامِلُونَ؟ فقال: «كُلُّ مِيسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ» متفق عليه.

وفي بعض طرق البخاري: «كُلُّ يَعْمَلُ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَوْ لِمَا يُسَرَّ لَهُ»<sup>(٢)</sup>.  
ورواه الإمام أحمد أطول من هذا فقال: حدثنا صفوان بن عيسى، ثنا عروة<sup>(٣)</sup> بن ثابت، عن يحيى بن عُقَيْل، عن ابن نعيم<sup>(٤)</sup>، عن أبي الأسود

---

(١) برقـم (٢٦٤٨).

(٢) تقدم تخریجهما في (٢٧).

(٣) كذا في «د» «م»: «عروة» تحریف، صوابه: «عَزْرَة»، كما في مصدر الروایة وكتب الرجال.

(٤) كذا في «د» «م»: «ابن نعيم» تحریف، صوابه: «ابن يَعْمَر»، كما في مصدر الروایة وكتب

الدُّولِي قال: غدوتُ عَلَى عمرانَ بْنَ حَصْنِي يوْمًا مِنَ الْأَيَامِ، فَقَالَ: إِنَّ رَجُلًا مِنْ جَهِينَةَ أَوْ مَزِينَةَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَيَكْدِحُونَ فِيهِ، شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ، أَوْ مَضِيَ عَلَيْهِمْ فِي قَدْرِ قَدْ سَبِقَ، أَوْ فِيمَا يَسْتَقْبَلُونَ مَا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيَّهُمْ، وَاتَّخَذُوا عَلَيْهِمْ بِهِ الْحَجَّةَ؟ قَالَ: «بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ، وَمَضِيَ عَلَيْهِمْ»، قَالَ: فَلِمَ يَعْمَلُونَ إِذْنَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَنْ كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَ خَلْقَهُ لَوْاحِدَةً مِنَ الْمَنْزَلَتَيْنِ يَهْيَهُ لَعْمَلَهَا، وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴿وَتَنَقِّيْسَ وَمَا سَوَّنَهَا ﴾۝ ﴿فَإِلَهُهُمَا فُجُورُهَا وَتَنَقُّوْنَهَا﴾ [الشمس: ٨-٧] (١).

وقال المحامي: ثنا أحمد بن المقدام، ثنا المعتمر بن سليمان، قال: سمعت أبا سفيان يحدث عن عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر، أنه قال: نزل: «فِيمَنْهُمْ شَقِّيْ وَسَعِيدُّ» [هود: ١٠٥]، فقال عمر: يا نبِيَ اللَّهِ، عَلَىٰ مَا نَعْمَلُ: عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ، أَمْ لَمْ يُفْرَغْ مِنْهُ؟ قَالَ: «لَا، عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ، وَجَرَتْ بِهِ الْأَقْلَامُ، وَلَكِنْ كُلُّ امْرَئٍ مِيسَرٌ»، «فَإِمَّا مَنْ أَعْطَيْنَا وَاتَّقَىٰ وَصَدَقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ وَسَنَسِيرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَإِمَّا مَنْ يَخْلُ وَأَسْتَغْنَىٰ وَكَذَبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ فَسَنَسِيرُهُ لِلْعُسْرَىٰ» [الليل: ٥-١٠] (٢).

الرجال، وهو يحيى بن يعمر البصري.

(١) «المسنـد» (١٩٩٣٦)، وأخرجه من طرق عن عزرة به الطيالسي (٨٨١)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٧٤)، ومسلم (٢٦٥٠).

(٢) ومن طريق المحامي أخرجه اللالكائي في «شرح الأصول» (١٠٦٧)، ورواه عبد بن حميد «المتتـبـ» (٢٠)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٧٠)، والترمذـي (٣١١١) من طرق عن أبي سفيان سليمان بن سفيان به، وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، لا نعرفه إلا من حديث عبد الملك بن عمرو»، وأبو سفيان منكر الحديث لم يرو سوى بضعة أحاديث كما في «الكامل» (٥/٢٤٨)، واختلف عنه أيضـا فيما =

فاتفقت هذه الأحاديث ونظائرها على أن القدر السابق لا يمنع العمل،  
ولا يوجب الاتكال عليه، بل يوجب الجد والاجتهد.

ولهذا لما سمع بعض الصحابة ذلك قال: «ما كنت أشدّ اجتهاداً مني الآن»<sup>(١)</sup>، وهذا مما يدل على جلالة فقه الصحابة، ودقة أفهمهم، وصحة علومهم؛ فإن النبي ﷺ أخبرهم بالقدر السابق وجريانه على الخلية بالأسباب، وأن العبد ينال ما قدر له بالسبب الذي أقدر عليه، وممكّن منه، وهبّ له، فإذا أتى بالسبب أوصله إلى القدر الذي سبق له في أم الكتاب، وكلما ازداد اجتهاداً في تحصيل السبب كان حصول المقدّر له أدنى إليه.

وهذا كما إذا قدر له أن يكون من أعلم أهل زمانه، فإنه لا ينال ذلك إلا بالاجتهاد والحرص على التعلم وأسبابه، وإذا قدر له أن يُرزق الولد لم ينل ذلك إلا بالنكاح أو التسرّي والوطء، وإذا قدر له أن يستغل من أرضه من المغلّ كذا لم ينله إلا بالبذر وفعل أسباب الزرع، وإذا قدر له الشبع والري والدفء فذلك موقوف على الأسباب المحصلة لذلك من الأكل والشرب واللبس، وهذا شأن أمور المعاش والمعاد، فمن عطل العمل اتكالاً على القدر السابق، فهو بمنزلة من عطل الأكل والشرب والحركة في المعاش وسائر أسبابه اتكالاً على ما قدر له.

---

أشار إليه الدارقطني في «العلل» (٦٨/٢)، وللحديث متابعات وشواهد يصح بها، انظر: «ظلال الجنّة» (١٦٣).

(١) أخرجه من قول سراقة بن جعشن به مسدّد كما في «إتحاف الخيرة» (١/١٦٨)، ونُقل معناه عن غير واحد من الصحابة، انظر: «فتح الباري» (١١/٤٩٧).

وقد فطر الله سبحانه عباده على الحرص على الأسباب التي بها قوام معايشهم ومصالحهم الدنيوية، بل فطر على ذلك سائر الحيوانات، فهكذا الأسباب التي بها مصالحهم الأخروية في معادهم، فإنه سبحانه رب الدنيا والأخرة، وهو الحكيم بما نصبه من الأسباب في المعاش والمعاد، وقد يسر كُلًاً من خلقه لما خلقه له في الدنيا والآخرة، فهو مُهِيئاً له مُيسِّر له.

فإذا علم العبد أن مصالح آخرته مرتبطة بالأسباب الموصلة إليها كان أشد اجتهاً في فعلها والقيام بها منه في أسباب معاشة ومصالح دنياه.

وقد فَقِهَ هذا كل الفقه مَنْ قال: «ما كنت أشد اجتهاً مني الآن»، فإن العبد إذا علم أن سلوك هذا الطريق يفضي به إلى رياض مونقة، وبساتين معgebungة، ومساكن طيبة، ولذة ونعم لا يشوبه نكد ولا تعب، كان حرصه على سلوكها، واجتهاه في السير فيها بحسب علمه بما يفضي إليه.

ولهذا قال أبو عثمان النهدي لسلمان: «لأننا بأول هذا الأمر أشد فرحاً مني بأخره»، وذلك لأنه إذا كان قد سبق له من الله سابقة، وهيأه ويسره للوصول إليها كان فرحة بالسابقة التي سبقت له من الله أعظم من فرحة بالأسباب التي تأتي بها، فإنها سبقت له من الله قبل الوسيلة منه، وعلمتها الله وشاءها وكتبها وقدرها، وهيأ له أسبابها؛ ليوصله إليها، فالامر كله من فضله وجوده السابق، فسبق له من الله سابقة السعادة ووسائلها وغايتها، فالمؤمن أشد فرحاً بذلك من كون أمره مجعلولاً إليه، كما قال بعض السلف: «والله ما أحب أن يجعل أمري إليّ، إنه إذا كان بيد الله خيرًا<sup>(١)</sup> من أن يكون بيدي».

---

(١) هكذا في «د» «م»: «كان بيد الله خيرًا» بحسب «خير»، والأشباه الرفع؛ اسم لـ «كان».

فالقدر السابق معين على الأعمال، وباعث عليها، ومقتضى لها، لا أنه منافٍ لها، وصادٌ عنها، وهذا موضع مزلة قدم، من ثبتت قدمه عليه فاز بالنعم المقيم، ومن زلت قدمه عنه هوى إلى قرار الجحيم.

فالنبي ﷺ أرشد الأمة في القدر إلى أمرين، هما سببا السعادة: الإيمان والإقرار به، فإنه نظام التوحيد. والإitan بالأسباب التي توصل إلى خيره، وتحجز عن شره، وذلك نظام الشرع.

فأرشدهم إلى نظام التوحيد والأمر، فأبى المنحرفون إلا القدح بإنكاره في أصل التوحيد، أو القدح بإثباته في أصل الشرع، ولم تتسع عقولهم - التي لم يُلِقَ الله عليها من نوره - للجمع بين ما جمعت الرسل جميعهم بينه، وهو القدر والشرع، والخلق والأمر **﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا أَخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ إِذَا نَهَىٰهُ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ﴾** [البقرة: ٢١٣]، والنبي ﷺ شديد الحرص على جمع هذين الأمرين للأمة، وقد تقدم قوله: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز»<sup>(١)</sup>، وأن العاجز من لم يتسع للأمرتين، وبالله التوفيق.



(١) تقدم تخریجه في (٦٠).

## الباب الثامن

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقُتْ لَهُمْ مِنَا الْحُسْنَىٰ فَلَيَكُنْ عَنْهُمْ بَعْدُ وَرَبَّ﴾

قد تقدمت الأحاديث بواقع أهل السعادة في إحدى القبضتين، وكتابتهم  
بأسمائهم، وأسماء آبائهم في ديوان السعداء قبل خلقهم.

وفي «صحيح الحاكم»<sup>(١)</sup> من حديث الحسين بن واقد، عن يزيد النحوي، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنياء: ٩٨] قال المشركون: فالملائكة وعيسى وعذير يعبدون من دون الله! قال: فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقُتْ لَهُمْ مِنَا الْحُسْنَىٰ فَلَيَكُنْ عَنْهُمْ بَعْدُ وَرَبَّ﴾ [الأنياء: ١٠١]. وهذا إسناد صحيح.

وقال علي بن المديني: ثنا يحيى بن آدم، ثنا أبو بكر بن عياش، عن عاصم قال: أخبرني أبو رزین، عن أبي يحيى، عن ابن عباس أنه قال: آية لا يسأل الناس عنها، لا أدری أعرفوها فلم يسألوا عنها، أو جهلوها فلا يسألون عنها. فقيل له: وما هي؟ فقال: لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُورَتَ﴾، شق ذلك على قريش، وعلى أهل

(١) برقم (٣٤٤٩) وقال: «صحيح الإسناد». ومن طريقه ابن عساكر في «تاریخ دمشق» (٣٢٨/٤٠) – وأخرجه الطبری (٤١٨/١٦)، والطحاوی في «شرح المشکل» (٩٨٥) من وجه آخر عن ابن عباس.

مكة، وقالوا: يشتم آلهاتنا. قال: فجاء ابن الزبير فقال: ما لكم؟ قالوا: يشتم آلهاتنا. قال: وما قال؟ قالوا: قال: **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** حَسَبُ جَهَنَّمَ أَسْمَاهَا وَرِدُورَتْ. قال: ادعوه لي. فلما دُعِيَ النبي ﷺ قال: يا محمد، هذا شيء لآلهاتنا خاصة، ألم لكل من عباد من دون الله؟ فقال: «لا، بل لكل من عباد من دون الله»، قال: فقال ابن الزبير: خصمت رب هذه البنية – يعني الكعبة – ألسنت تزعم أن الملائكة عباد صالحون، وأن عيسى عبد صالح، وأن عزيزا عبد صالح، وهذه بنو ملئع تعبد الملائكة، وهذه النصارى تعبد عيسى، وهذه اليهود تعبد عزيزا. قال: فضيّح أهل مكة، فأنزل الله عز وجل: **إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنْنَا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبَعَّدُونَ** – الملائكة وعزيز وعيسى – **أُولَئِكَ عَنْهَا مُبَعَّدُونَ** <sup>(١)</sup> لا يسمعون حسيسها <sup>(٢)</sup> [الأنبياء: ١٠١ - ١٠٢] قال: ونزلت: **وَلَمَّا ضَرَبَ أَنْبُعِيرَ مَثَلًا إِذَا قَوَمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ**

﴿الزخرف: ٥٧﴾ قال: هو الضجيج <sup>(٣)</sup>.

وهذا الإيراد الذي أورده ابن الزبير لا يرد على الآية؛ فإنه سبحانه قال: **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** ولم يقل: «ومَنْ تعبدون من

(١) أخرجه من طريق ابن المديني به الطبراني في «الكبير» (١٢٧٣٩)، والواحدي في «أسباب التزول» (١٠١)، ومن طريق ابن آدم آخرجه الطحاوي في «شرح المشكل» (٩٨٦)، ورواه أحمد (٢٩٢٠) بسياق مختلف من طريق عاصم، ولا بأس بإسناده، ويعضده رواية ابن عباس السابقة، وحسنه ابن حجر في «موافقة الخبر الخبر» (١٧٤/٢).

وأبو يحيى هو الأعرج اسمه مصدع، وأبو رزين اسمه مسعود بن مالك، وعاصم بن أبي النجود القاري.

دون الله»، و«ما» لما لا يعقل، فلا يدخل فيها الملائكة والمسيح وعذير، وإنما ذلك للأحجار ونحوها التي لا تعقل.

وأيضاً فإن السورة مكية، والخطاب فيها للبَّاد الأصنام، فإنه قال:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ فلفظة «إنكم» ولفظة «ما» تبطل سؤاله، وهو رجل من فصحاء العرب لا يخفى عليه ذلك، ولكن إيراده إنما كان من جهة القياس والعلوم المعنوي، الذي يعم الحكم فيه بعموم علته، أي: إنْ كان كونه معبوداً يوجب أن يكون حصب جهنم، فهذا المعنى بعينه موجود في الملائكة وعزيز المسيح، فأجيب بالفارق، وذلك من وجوهه:

أحدها: أن الملائكة والمسيح وعزيزاً ممن سبقت لهم من الله الحسنة، فهم سعداء لم يفعلوا ما يستوجبون به النار، فلا يُعذَّبون بعبادة غيرهم، مع بغضهم ومعادتهم لهم، فالتسوية بينهم وبين الأصنام أقبح من التسوية بين البيع والربا، والمينة والمذكى، وهذا شأن أهل الباطل، وإنما يسُوّون بين ما فرق الشرع والعقل والفترة بينه، ويفرقون بين ما سُوئَ الله ورسوله بينه.

الفرق الثاني: أن الأوثان حجارة غير مكلفة ولا ناطقة، فإذا حُصِّبت بها جهنم إهانةً لها ولعابديها؛ لم يكن في ذلك تعذيبٌ مَن لا يستحق العذاب، بخلاف الملائكة والمسيح وعزيز، فإنهم أحيا ناطقون، فلو حُصِّبت بهم النار كان ذلك إيلاماً وتعذيباً لهم.

الثالث: أن من عَبَدَ هؤلاء بزعمه فإنه لم يعبدهم في الحقيقة؛ فإنهم لم يدعوا إلى عبادتهم، وإنما عَبَدَ المشركون الشياطين، وتتوهموا أن العبادة لهؤلاء، فإنهم عبدوا بزعمهم مَن ادعى أنه معبد مع الله، وأنه معه إله، وقد برأ الله سبحانه ملائكته والمسيح وعزيزاً من ذلك، وإنما ادعى ذلك

الشياطين، وهم بزعمهم يعتقدون أنهم يرضون بأن يكونوا معبدين مع الله، ولا يرضي بذلك إلا الشياطين، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ تُخْسِرُهُمْ جَيْعَانٌ مَّأْكُولٌ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتَوْلَا إِيَّاكُمْ كَمَا نَوْا يَعْبُدُونَ ﴾فَالْأُولُو سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَيْسَتَ مِنْ دُونِنِّهِ بَلْ كَمَا نَوْا يَعْبُدُونَ الْجِنَّةَ أَكَمَّ رُؤُمُهُمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١ - ٤٠]، وقال تعالى: ﴿أَعْهَدْتِ إِيَّاكُمْ يَتَبَّعِيَّ إِادَمَ أَنَّ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَخْذُوا الرَّمَّلَنِ وَلَدُّا سُبْحَانَهُ وَبَلْ عِبَادُ مُكَرَّمُونَ ﴾لَا يَسِيقُونَهُرِ بِالْقُولِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾يَعْلَمُ مَا يَبْدِيَنَّ أَيْدِيهِمْ وَمَا حَلَفُهُمْ وَلَا يَשَفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَضَنِي وَهُمْ مِنْ حَشَّيَّتِهِ مُشَفِّقُونَ ﴾\* وَمَنْ يَقُلُّ مِنْهُمْ إِلَّا إِلَهٌ مِنْ دُونِنِهِ فَذَلِكَ بَخْزِيَهُ جَهَنَّمُ كَذَلِكَ بَخْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩ - ٢٦]، مما عَبَدَ غَيْرُ اللهِ إِلَّا الشيطان.

وهذه الأجرية مأخوذة<sup>(١)</sup> من قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقُتْ لَهُمْ مِنْنَا الْحَسَنَى﴾، فتأمل الآية تجدها تلوح في صفحات ألفاظها، وبالله التوفيق.  
والمقصود: ذكر الحسنة التي سبقت من الله لأهل السعادة قبل وجودهم.

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: ثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد، ثنا أبو عامر العقدي، ثنا عروة<sup>(٢)</sup> بن ثابت الأنباري، ثنا الزهرى، عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، أن عبد الرحمن بن عوف مرض مرضًا

(١) «م»: «متترعة».

(٢) كذا في «د» «م»: «عروة» تحرير، صوابه: «عَزْرَة»، كما في مصدر الرواية وكتب الرجال، وقد تقدم نظيره.

شديداً، أغمي عليه<sup>(١)</sup>، فأفاق، فقال: أغمي عليّ؟ قالوا: نعم، قال: إنه أتاني رجلان غليظان فأخذنا بيدي، فقالا: انطلق نحاكمك إلى العزيز الأمين. فانطلقا بي، فتقاهم رجل فقال: أين تريдан به؟ قالا: نحاكمه إلى العزيز الأمين. فقال: دعاه؛ فإن هذا ممن سبقت له السعادة، وهو في بطن أمه<sup>(٢)</sup>.

وقال عبد الله بن محمد البغوي: ثنا داود بن رشيد، ثنا ابن عليه، حدثني محمد بن محمد القرشي، عن عامر بن سعد قال: أقبل سعد من أرض له، فإذا الناس عكوف على رجل، فاطلع فإذا هو يسب طلحة والزبير وعلياً، فنهاه، فكأنما زاده إغراء، فقال: ويلك، تريد أن تسب<sup>(٣)</sup> أقواما هم خير منك؟! لستهين أو لا دعون عليك. فقال<sup>(٤)</sup>: كأنما يخوانينبي من الأنبياء. فانطلق فدخل دارا فتوضاً، ودخل المسجد، ثم قال: اللهم إن كان هذا قد سبَّ أقواما قد سبق لهم منك خيرا<sup>(٥)</sup>، أنسخطك سبَّه إياهم، فأرني اليوم آية تكون آية للمؤمنين. قال: وترجع بُحْتَيَة<sup>(٦)</sup> من داربني فلان نادة لا يردها

(١) كذا في «د» «م» و«شرح الأصول»: «أغمي عليه»، والأليق بالسياق إضافة حرف عطف قبلها: «فأغمي عليه» ونحو ذلك.

(٢) أخرجه من طريق ابن أبي حاتم به الالكتروني في «شرح الأصول» (١٢٢٠)، ومن طرق عن الزهرى رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١٣٤ / ٣)، وابن أبي الدنيا في «المختصرين» (٣٥٢).

(٣) كذا في «م»، وفي مصدر الخبر: «ما تريد إلى أن تسب» على وجه التعجب، وهي أليق بالسياق.

(٤) من قوله: «ويلك» إلى هنا ساقط من «د»، انتقال نظر.

(٥) «د»: «الحسنى»، والمثبت من «م» موافق لمصدر الخبر.

(٦) **البُحْتَيَة**: الأثنى من الجمال **البُحْتَ**، وهي جمال طوال الأعناق، وللهفظة معربة، =

شيء، حتى تنتهي إليه، ويتفرق الناس، وتجعله بين قوائمهما وتطأه حتى طفي، قال: فأنا رأيت سعداً يتبعه الناس، يقولون: استجابة الله لك يا أبي إسحاق، استجابة الله لك يا أبي إسحاق<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى: «وَجَاهُهُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جَهَادِهِ هُوَ أَجْتَبَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الَّذِينَ مِنْ حَرَجٍ مُّلَةً أَيْكُمْ إِبْرَاهِيمُ هُوَ سَمَدَكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا» [الحج: ٧٨]، أي: الله سماكم المسلمين من قبل القرآن وفي القرآن، فسبقت تسمية الحق سبحانه لهم المسلمين قبل إسلامهم وقبل وجودهم.

وقال تعالى: «وَلَقَدْ سَبَقْتُ كُمْتَنَاعِيَارَاتَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمُنْصُرُونَ ﴿٧﴾ وَإِنَّ جُنَاحَنَا لَهُمُ الْغَلَبُونَ ﴿٨﴾» [الصفات: ١٧١ - ١٧٣].

وقال ابن عباس في رواية الوالبي عنه في قوله تعالى: «وَبَشِّرِ الَّذِينَ أَمْنَوْا أَنَّ لَهُمْ قَدْمَ صَدِيقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ» [يونس: ٢]، قال: «سبقت لهم السعادة في الذكر الأول»<sup>(٢)</sup>.

وهذا لا يخالف قول من قال: إنه الأعمال الصالحة التي قدموها. ولا قول من قال: إنه محمد ﷺ؛ فإنه سبق لهم من الله في الذكر الأول السعادة بأعمالهم على يد محمد ﷺ، فهو خير تقدم لهم من الله، ثم قدمه لهم على

«النهاية في الغريب» (١٠١/١).

(١) أخرجه من طريق البغوي به أبو طاهر في «المخلصيات» (٢/٣٤٩)، واللالكائي في «شرح الأصول» (٢٣٦١)، وأخرجه الطبراني في «الكتاب» (٣٠٧) وابن الأعرابي في «المعجم» (٩٣٦) من طرق عن عامر بنحوه.

(٢) أخرجه الطبراني (١٢/١١٠)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/١٩٢٢).

يد رسوله، ثم يقدمهم عليه يوم لقائه.

وقد قال تعالى: «لَوْلَا كَتَبْ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَكُوكُرٌ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»  
[الأనفال: ٦٨]. وقد اختلف السلف في هذا الكتاب السابق<sup>(١)</sup>.

فقال جمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم: لو لا قضاء من الله سبق لكم يا أهل بدر في اللوح المحفوظ أن الغنائم حلال لكم؛ لعاقبكم.

وقال آخرون: لو لا كتاب من الله سبق أنه لا يعذب أحداً إلا بعد الحجّة؛  
لعاقبكم.

وقال آخرون: لو لا كتاب من الله سبق<sup>(٢)</sup> لأهل بدر أنهم مغفور لهم -  
 وإن عملا ما شاؤوا -؛ لعاقبهم.

وقال آخرون - وهو الصواب -: لو لا كتاب من الله سبق بهذا كله؛  
لمستكم فيما أخذتم عذاب عظيم. والله أعلم.



(١) انظر: «جامع البيان» (١١ / ٢٧٦-٢٨٣)، «زاد المسير» (٣ / ٣٨١-٣٨٢).

(٢) من قوله: «أنه لا يعذب» إلى هنا ساقط من «م».

## البَابُ التَّاسِعُ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾

قال سفيان: عن زياد بن إسماعيل المخزومي، حدثنا محمد بن عباد بن جعفر، حدثنا أبو هريرة قال: جاء مشركو قريش إلى رسول الله ﷺ يخاصمون في القدر، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴾<sup>١٧</sup> وَمَرَّ يُسْجَبُونَ فِي الْأَنَارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ دُوْقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٦﴾ إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [المراء: ٤٦-٤٩] رواه مسلم <sup>(١)</sup>.

وروى الدارقطني من حديث حبيب بن عمر <sup>(٢)</sup> الأنصاري، عن أبيه قال <sup>(٣)</sup>: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيمة نادى مناد: أين خصماء الله؟ وهم القدرية» <sup>(٤)</sup> ، ولكن حبيب هذا قال الدارقطني: «مجهول»، والحديث

(١) برق (٢٦٥٦)، وأخرجه ابن ماجه <sup>(٣)</sup>، والترمذى (٢١٥٧) واللفظ له.

(٢) كذا في «د» «م»: «عمرو» تحريف، صوابه: «عمر» كما في كتب التخريج والرجال.

(٣) كذا في «د» «م» بسقوط جملة: «عن ابن عمر، عن أبيه»، كما في مصادر التخريج، والحديث من مسند عمر وليس في شيء من الطرق إسناده إلى عمر الأنصاري.

(٤) أورده الدارقطني في «العلل» (٧١/٢)، وأخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٣٣٦)،

وابن راهويه وأبو يعلى كما في «المطالب العالية» (٢٩٧٩)، والطبراني في «الأوسط»

(٦٥١٠) وقال: (لا يروى هذا الحديث عن عمر إلا بهذا الإسناد، تفرد به بقية)، وقال

أبو حاتم في «العلل» (٢٨١٠): (هذا حديث منكر)، وحبيب بن عمر ضعيف الحديث

مجهول، لم يرو عنه غير بقية، وانظر: «مسند الفاروق» (٣/٢٨)، «السلسلة

الضعيفة» (٥٥٨١).

مضطرب الإسناد، ولا يثبت»<sup>(١)</sup>.

والمخاصلون في القدر نوعان:

أحدهما: مَن يُبَطِّل أَمْرَ اللَّهِ وَنَهِيَّ بِقَضَائِهِ وَقَدْرِهِ، كَالَّذِينَ قَالُوا: «لَوْشَاءَ اللَّهُ مَا أَشَرَّكْنَا وَلَا إِبَآءَأْنَا» [الأనعام: ١٤٨].

والثاني: مَن يُنْكِرُ قَضَائِهِ وَقَدْرِهِ السَّابِقِ. وَالظَّافِتَانِ خَصْمَاءُ اللَّهِ.

قال عوف: «من كَذَّب بالقدر فقد كَذَّب بالإسلام، إن الله تبارك وتعالى قادر أقداراً، وخلق الخلق بقدر، وقسم الأجال بقدر، وقسم الأرزاق بقدر، وقسم البلاء بقدر، وقسم العافية بقدر، وأمر ونهى»<sup>(٢)</sup>»<sup>(٣)</sup>.

وقال الإمام أحمد: «القدر قدرة الله»<sup>(٤)</sup>.

واستحسن ابن عقيل هذا الكلام جدًا، وقال: «هذا يدل على دقة علم

---

(١) بنحوه في «العلل» (٢/٧١).

(٢) جملة: «أَمْرٌ وَنَهْيٌ» سقطت من «م»، و«بَقْدَرٌ» سقطت من «د»، والمثبت منها موافق لمصادر الخبر.

(٣) لم أقف عليه من قول عوف بن أبي جميلة، ورواه الفريابي في «القدر» (٢٩٥) – ومن طريقه الأجري في «الشريعة» (٤٦٢) –، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (١٦٧٦) من طرق عن عوف، عن الحسن قوله.

(٤) «مسائل أحمد برواية ابن هانئ» (١٨٦٨) – ومن طريقه الخلال في «السنة» (٩٠٤) –، ويروى من قول عمر في «الإبانة الكبرى» (١٥٦٢)، ومن قول زيد بن أسلم عند الفريابي في «القدر» (٢٠٧).

ووَقَعَتِ الْعِبَارَةُ فِي «د»: «القدر قدرة».

أحمد، وبحره في معرفة أصول الدين<sup>(١)</sup>.

وهو كما قال أبو الوفاء، فإن إنكار القدر إنكار لقدرة رب على خلق أعمال العباد وكتابتها وتقديرها.

وسلف القدرة كانوا ينكرون علمه بها، وهم الذين اتفق سلف الأمة على تكفيরهم، وسنذكر ذلك فيما بعد إن شاء الله.

وفي تفسير علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس في قوله تعالى: «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عَبَادِهِ الظَّالِمُونَ» [فاطر: ٢٨] قال: «الذين يقولون: إن الله على كل شيء قادر»<sup>(٢)</sup>.

وهذا من فقه ابن عباس وعلمه بالتأويل، ومعرفته بحقائق الأسماء والصفات، فإن أكثر أهل الكلام لا يوفون بهذه الجملة حقها، وإن كانوا يقررون بها. فمنكرو القدر، وخلق أفعال العباد لا يقررون بها على وجهها، ومنكرو أفعال ربّ تعالى القائمة به لا يقررون بها على وجهها، بل يصرّحون أنه لا يقدر على فعل يقوم به.

ومن لا يقر بأن الله سبحانه كل يوم في شأن يفعل ما يشاء؛ لا يقر بأن الله على كل شيء قادر، ومن لا يقر بأن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلّبها كيف يشاء، وأنه سبحانه مقلب القلوب حقيقة، وأنه إن شاء أن يقيم القلب أقامه، وإن شاء أن يزيفه أزاغه = لا يقر بأن الله على كل شيء قادر.

(١) انظر: «طريق الهجرتين» (١٩٦/١).

(٢) أخرجه الالكائي في «شرح الأصول» (٩٤٥)، والطبراني (٣٦٤/١٩) بلفظ: «الذين يعلمون».

ومن لا يقرّ بأنه استوى على عرشه بعد أن خلق السماوات والأرض، وأنه ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا يقول: «من يسألني فأعطيه، من يستغرنِي فأغفر له»، وأنه نزل إلى الشجرة فكلم موسى كليمه منها، وأنه ينزل إلى الأرض قبل يوم القيمة حين تخلو من سكانها، وأنه يجيء يوم القيمة فيفصل بين عباده، وأنه يتجلّى لهم يصحيك، وأنه يريهم نفسه المقدسة، وأنه يضع رجله على النار فتضيق بأهلها، وينزوي بعضها إلى بعض، إلى غير ذلك من شؤونه وأفعاله، التي من لم يقرّ بها = لم يقرّ بأنه على كل شيء قادر.

فيما لها كلمة من حُبر الأمة وترجمان القرآن رَحْمَةً لِلَّهِ عَنْهُ.

وقد كان ابن عباس شديداً على القدرية، وكذلك الصحابة، كما سنذكر ذلك إن شاء الله.



## البَابُ الْعَاشِرُ

في مراتب القضاء والقدر التي من لم يؤمن بها  
لم يؤمن بالقضاء والقدر<sup>(١)</sup>

وهي أربع مراتب:

المرتبة الأولى: علم الرب سبحانه بالأشياء قبل كونها.

المرتبة الثانية: كتابته لها قبل كونها.

المرتبة الثالثة: مشيئته لها.

الرابعة: خلقه لها.

فأما المرتبة الأولى وهي العلم السابق، فقد اتفق عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم، واتفق عليه جميع الصحابة، ومن تبعهم من الأمة، وخالفهم في ذلك مجوس الأمة.

وكتابته السابقة تدل على علمه بها قبل كونها، وقد قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ رَبِّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيُشْفِلُ الْدِمَاءَ وَنَحْنُ نُسْخَى يَحْمِدُكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

قال مجاهد: «علم من إبليس المعصية، وخلقه لها، وعلم من آدم الطاعة، وخلقه لها»<sup>(٢)</sup>.

(١) من قوله: «التي من لم يؤمن» إلى هنا ليس في «د».

(٢) أسنده الطبرى (٥٠٩ / ١)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (١٣٩٣)، وشطره الأول في

وقال قتادة: «كان في علمه أنه سيكون من تلك الخليفة<sup>(١)</sup> أنبياء ورسل، وقوم صالحون، وساكنو الجنة»<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن مسعود: «أعلم ما لا تعلمون من شأن إبليس»<sup>(٣)</sup>.

وقال مجاهد أيضاً: «علم من إبليس أنه لا يسعده لآدم»<sup>(٤)</sup>.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْضِ  
وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ  
حِلْيَرُ﴾ [لقمان: ٣٤].

وفي «المسندي»<sup>(٥)</sup> من حديث لقيط بن عامر، عن النبي ﷺ أنه قال: يا

---

التفسير المنسوب إلى مجاهد (١٩٩)، وهو عند سعيد بن منصور في «التفسير»  
. (١٨٤).

(١) هكذا وقعت في الأصول موافقة لمصدر القول الآتي.

(٢) أسنده الطبرى (١٠٥)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٣٣٥).

(٣) أسنده الطبرى (١٥٠٧).

(٤) أسنده الطبرى (١٥٠٨).

(٥) برقم (٦٢٠٦) من زوائد عبد الله، وأخرجه في «الستة» (١١٢٠)، وابن أبي عاصم في «الستة» (٦٣٦)، وابن أبي خيثمة في «التاريخ الكبير» (٢١٦٥)، وغيرهم في سياق طويل، وصححه الحاكم في «المستدرك» (٨٦٨٣)، والمؤلف في عدة مواضع من كتبه، ومنه قوله في «الصواعق». المختصر - (٤٦١): «هذا حديث كبير مشهور، جلالة النبوة بادية على صفاتاته، تنادي عليه بالصدق»، ثم نقل تصحيحه عن بعض الحفاظ، وفي تصحيحه بهذا السياق نظر، فقد تفرد به سلسلة من أشباه المجاهيل ممن لا يتحمل تفردهم بما هو دون هذا المتن، قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٧/٣٣٩): «هذا حديث غريب جداً، وألفاظه في بعضها نكرة».

رسول الله، ما عندك من علم الغيب؟ فقال: «ضَنَّ رِبُّك بِمَفَاتِيحِ خَمْسٍ مِّنَ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ»، وأشار بيده، فقلتُ: ما هُنَّ؟ قال: «عِلْمُ الْمَنِيَّةِ، قَدْ عِلِّمَ مَنِيَّةً أَحَدَكُمْ وَلَا تَعْلَمُونَهُ، وَعِلْمُ الْمَنِيَّ حِينَ يَكُونُ فِي الرَّحْمَةِ، قَدْ عَلِمَهُ وَلَا تَعْلَمُونَهُ، وَعِلْمُ مَا فِي غَدٍ، قَدْ عِلِّمَ مَا أَنْتَ طَاعِمٌ وَلَا تَعْلَمُهُ، وَعِلْمُ يَوْمِ الْغَيْثِ، يُشَرِّفُ عَلَيْكُمْ أَزْلِينَ<sup>(۱)</sup> مَشْفَقَيْنِ، فَيَظْلِمُ يَضْحِكُ، قَدْ عِلِّمَ أَنْ عَوْثَكُمْ إِلَى قَرِيبٍ - قَالَ لَقِيطٌ: لَنْ نَعْدَمْ مِنْ رَبٍّ يَضْحِكُ خَيْرًا - وَعِلْمُ يَوْمِ السَّاعَةِ».

وقد تقدم حديث علي المتفق على صحته: «ما منكم من نفس متفوسة، إلا وقد عِلِّمَ مَكَانُهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ»<sup>(۲)</sup>.

وقال البزار: حدثنا محمد بن عمر بن هياج الكوفي، حدثنا عبيد الله بن موسى، حدثنا فضل<sup>(۳)</sup> بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ أحسبه قال: «يُؤْتَى بِالْهَالِكَ فِي الْفَتْرَةِ، وَالْمَعْتُوهُ، وَالْمَوْلُودُ، فَيَقُولُ الْهَالِكُ فِي الْفَتْرَةِ: لَمْ يَأْتِنِي كِتَابٌ وَلَا رَسُولٌ. وَيَقُولُ الْمَعْتُوهُ: أَيْ رَبٌّ، لَمْ تَجْعَلْ لِي عَقْلًا أَعْقَلْ بِهِ خَيْرًا وَلَا شَرًّا. وَيَقُولُ الْمَوْلُودُ: رَبٌّ، لَمْ أُدْرِكِ الْعَمَلَ. قَالَ: فَتُرْفَعُ لَهُمْ نَارٌ، فَيُقَالُ لَهُمْ: رِدُّوهَا، أَوْ قَالَ: ادْخُلُوهَا. فَيَرِدُّهَا مَنْ كَانَ فِي عِلْمِ اللَّهِ سَعِيدًا أَنْ لَوْ أُدْرِكَ الْعَمَلُ، قَالَ: وَيُمْسِكُ عَنْهَا مَنْ كَانَ فِي عِلْمِ اللَّهِ شَفِيقًا أَنْ

(۱) من الأزل: الشدة والضيق، «النهاية في الغريب» (أزل) (۴۶/۱).

(۲) تقدم تخریجه بسیاق مشابه في (۲۶)، ولفظ المؤلف هنا في «الإبانة الكبرى» (۱۴۱۳) وغيرها.

(۳) كذا في «د» «م»: «فضل»، صوابه: «فضيل» كما في مصادر التخریج، وانظر حاشية تحقيق «الجرح والتعديل» (۳/۵).

لو أدرك العمل، فيقول ببارك وتعالى: إِيَّاهُ عَصِيتُمْ، فَكَيْفَ بِرْ سَلِي  
بِالغَيْبِ»<sup>(١)</sup>.

وفي «الصححين»<sup>(٢)</sup> عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «ما من مولود  
يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تُتَّسِّعُ البَهِيمَةُ  
جَمِيعَهُ، هل تحسون فيها من جَدْعَاء؟»<sup>(٣)</sup> حتى تكونوا أنتم تجدعونها،  
قالوا: يا رسول الله، أفرأيت مَنْ يموت منهم وهو صغير؟ قال: «الله أعلم بما  
كانوا عاملين».

ومعنى الحديث: الله أعلم بما كانوا عاملين لو عاشوا.

وقد قال تعالى: «أَفَرَأَيْتَ مَنِ اخْتَدَى اللَّهُ هُوَ أَنْهُ وَأَضَلَّ اللَّهَ عَلَى عَلِيهِ» [الجاثية: ٢٣]،  
قال ابن عباس: «عَلِمَ ما يكون قبل أن يخلقه»<sup>(٤)</sup>.  
وقال أيضًا: «عَلِيٌّ عَلِمَ قَدْ سَبَقَ عَنْهُ»<sup>(٥)</sup>.

(١) أخرجه البزار كما في «كشف الأستار» (٢١٧٦)، وابن الجعدي (٢٠٣٨). ومن طريقه  
اللالكائي في «شرح الأصول» (١٠٧٦)، وفي إسناده عطية العوفي ضعيف.

وفي الباب عن أبي هريرة وأنس ومعاذ والأسود بن سريع - وهو أمثلها - تشد أصل  
الحديث، ورد ابن عبد البر طرق الباب كلها رواية ودرایة في «التمهید» (١٨ / ١٣٠)،  
وانظر: «القضاء والقدر» للبيهقي (٣٦٢-٣٦١)، «السلسلة الصحيحة» (٢٤٦٨).

(٢) البخاري (٦٥٩٩)، ومسلم (٢٦٥٨) مع اختلاف يسير.

(٣) البَهِيمَةُ الجماعَةُ هي التي لم يذهب من بدنها شيء، والجَدْعَاءُ المقطوعةُ الأذن، انظر:  
«فتح الباري» (٣ / ٢٥٠).

(٤) حكاه الواحدى في «البسيط» (٢٠ / ١٤٨).

(٥) أخرجه ابن بطة في «الإبانة الكبرى» (١٦٢٢).

وقال أيضًا: «يريد الأمر الذي سبق له في أُم الكتاب»<sup>(١)</sup>.

وقال سعيد بن جبير ومقاتل: «على علمه فيه»<sup>(٢)</sup>.

وقال أبو إسحاق: «أي على ما سبق في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه»<sup>(٣)</sup>.

وهذا الذي ذكره جمهور المفسرين.

قال الثعلبي: «على علم منه بعاقبة أمره»<sup>(٤)</sup>.

قال: «وقيل: على ما سبق في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه»<sup>(٥)</sup>.

وكذلك ذكر البغوي<sup>(٦)</sup>، وأبو الفرج بن الجوزي قال: «على علمه السابق منه أنه لا يهتدي»<sup>(٧)</sup>.

وذكر طائفة منهم المهدوي وغيره قولين في الآية، هذا أحدهما.

قال المهدوي: «فأضلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ عِلْمَهُ مِنْهُ

وقيل: المعنى: أضلَّهُ عَنِ التَّوَابِ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ بِأَنَّهُ لَا يَسْتَحْقِهُ.

(١) حكاه الواحدي في «البسيط» (٢٠/١٤٩).

(٢) حكاه عنهما الواحدي في «البسيط» (٢٠/١٤٨)، وانظر: «تفسير مقاتل» (٣/٨٣٩).

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٤/٤٣٣).

(٤) «الكشف والبيان» (٨/٣٦٣).

(٥) لم أجده في «الكشف والبيان»، وقد تقدمت قريباً من قول الزجاج، وإليه نسبها الواحدي في «الوسط» (٤/٩٩).

(٦) «معالم التنزيل» (٧/٢٤٥).

(٧) «زاد المسير» (٧/٣٦٢)، وفيه: «علمه السابق فيه».

قال: وقيل: على علم من عابد الصنم أنه لا ينفع ولا يضر<sup>(١)</sup>.

وعلى الأول يكون **«على غيره»** حال من الفاعل، المعنى: أضلله الله عالماً  
بأنه من أهل الضلال في سابق علمه.

وعلى الثاني: حال من المفعول، أي أضلله الله في حال علم الكافر بأنه  
ضال.

قلت: وعلى الوجه الأول فالمعنى: أضلله الله عالماً به، وبأقواله وما  
يناسبه ويليق به، ولا يصلح له غيره، قبل خلقه وبعده، وأنه أهل للضلال،  
وليس أهلاً أن يُهدي، وأنه لو هُدِيَ لكان قد وضعَ الهدى في غير محله، وعند  
من لا يستحقه، والربُّ تعالى حكيم، إنما يضع الأشياء في محالها اللائقة بها.  
فانتظمت الآية على هذا القول: إثبات القدر والحكمة التي لأجلها قدر  
عليه الضلال، وذكر العلم؛ إذ هو الكاشف المبين لحقائق الأمور، ووضع  
الشيء في موضعه، وإعطاء الخير من يستحقه، ومنه من لا يستحقه؛ فإن هذا  
لا يحصل بدون العلم، فهو سبحانه أضلله على علمه بأحواله التي تناسب  
ضلاله وتقتضيه وتستدعيه.

وهو سبحانه كثيراً ما يذكر ذلك مع إخباره بأنه الذي أضل الكافر، كما  
قال تعالى: **«فَمَنْ يُرِدُ اللَّهُ أَنْ يَهُدِيَهُ فَيَسْرَحُ صَدَرُهُ فِي الْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدُ أَنْ يُضْلَلَ**  
**يَجْعَلُ صَدَرَهُ دُصِّنَقًا حَرَجَانَ كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ أَرْجَسَ**  
**عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ»** [الأنعام: ١٢٥]، وقال تعالى: **«يُضْلَلُ إِلَهُ كَثِيرًا**  
**وَيَهُدِي إِلَهُ كَثِيرًا وَمَا يُضْلَلُ بِهِ إِلَّا أَفْنَسِقِينَ** ⑤ **الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ**

(١) التحصيل لفوائد كتاب التفصيل (٦/١١٣).

مِنْ بَعْدِ مِيَثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ إِلَيْكُمْ  
**هُمُ الْخَلِسُونَ** ﴿البقرة: ٢٦-٢٧﴾، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾  
 [الصف: ٧]، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي  
 مَنْ هُوَ كَذِيبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]، ﴿وَيُضَلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧]  
 ﴿كَذَلِكَ يُضَلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤]، ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ  
 كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَارٍ﴾ [غافر: ٣٥]، ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا  
 يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٩].

وقد أخبر سبحانه أنه يفعل ذلك عقوبة لأرباب هذه الجرائم، وهذا  
 إضلal ثانٍ بعد الإضلal الأول، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنْهُمْ  
 اللَّهُ يُكَفِّرُهُمْ﴾ (١) فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ ﴿البقرة: ٨٨﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا  
 يُشْعِرُكُمْ إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢) وَقَلِيلٌ أَفِيدَنَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ  
 يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةً وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩ - ١١٠]، وقال  
 تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ يَقُولُ لِقَوْمٍ لَمْ تُؤْذِنْنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ  
 إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَانُوكُمْ أَرَاعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف:  
 ٥]، وقال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وقال:  
 ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَسْتَجِبُ بِأَنَّهُ وَلِرَسُولٍ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحِبِّيكُمْ وَأَعْلَمُوا  
 أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنافاس: ٢٤]، أي إن  
 تركتم الاستجابة لله ورسوله عاقبكم بأن يحول بينكم وبين قلوبكم، فلا

(١) «د» م: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا يُكَفِّرُهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، وكأنه خلط بين آية البقرة  
 والنساء.

تقرون على الاستجابة بعد ذلك.

ويشبه هذا - إن لم يكن هو بعينه - قوله: «وَلَقَدْ أَهْلَكَ الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا  
ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ يَا لَبِيَتٍ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا»<sup>(١)</sup> [يوس: ١٣]، وفي موضع  
آخر: «تَلَكَ الْقُرَى نَقْصٌ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَأَهَا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ يَا لَبِيَتٍ فَمَا  
كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا مِنْ قَبْلٍ»<sup>(٢)</sup> كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكُفَّارِ  
[الأعراف: ١٠١].

وفي هذه الآية ثلاثة أقوال، هذا أحدها، قال أبو إسحاق: هذا إخبار عن  
 القوم لا يؤمنون، كما قال عن قوم<sup>(٣)</sup> نوح: «أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ  
 أَمَّنَ» [هود: ٣٦]، واحتج على هذا بقوله: «كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ  
 الْكُفَّارِ» [الأعراف: ١٠١]. قال: وهذا يدل على أنه قد طبع على قلوبهم<sup>(٤)</sup>.

وقال ابن عباس: «فما كان أولئك الكفار ليؤمنوا عند إرسال الرسل بما  
 كذبوا يوم أخذ ميشاقهم، حين أخرجتهم من ظهر آدم فآمنوا كثراً، وأقرّوا  
 باللسان، وأضمرروا التكذيب»<sup>(٥)</sup>.

وقال مجاهد: «فما كانوا - لو أحينناهم بعد هلاكهم - ليؤمنوا بما كذبوا  
 به من قبل هلاكهم»<sup>(٦)</sup>.

(١) (د) «م»: «فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا مِنْ قَبْلٍ»، كأنه انتقال نظر للآية الآتية.

(٢) في (د) «م»: «بِمَا كَذَبُوا بِهِ مِنْ قَبْلٍ» بزيادة «بِهِ» سهوا.

(٣) «قوم» ساقطة من «م»، والجملة مسوقة بتصرف من المصدر.

(٤) «معاني القرآن وإعرابه» (٢/ ٣٦١).

(٥) حكاه الشعبي في «الكشف والبيان» (٤/ ٢٦٥)، وانظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٢٦١).

(٦) أورده في «الكشف والبيان» (٤/ ٢٦٦)، والتعليق الذي يليه من كلام مجاهد في

قلت: وهو نظير قوله: ﴿وَلَوْرُدُوا لِعَادٍ وَالْمَانُهُوَأَعْنَهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقال آخرون: لما جاءتهم رسالهم بالأيات التي اقترحوها وطلبوها، ما كانوا يؤمّنوا بعد رؤيتها ومعايتها بما كذبوا به من قبل رؤيتها، فمنعهم تكذيبهم السابق بالحق لما عرفوه من الإيمان به بعد ذلك، وهذه عقوبة مَن ردَّ الحق إذا عُرِضَ عليه<sup>(١)</sup> فلم يقبله، فإنه يُصرَف عنه، ويُحال بينه وبينه، ويُقلب قلبه عنه، فهذا إضلال العقوبة، وهو من عدل الربِّ تعالى في عبده.

وأما الإضلال السابق الذي ضلَّ به عن قبوله أَوْلًا والاهتداء به: فهو إضلال ناشئ عن علم الله السابق في عبده أنه لا يصلح للهداي ولا يليق به، وأن محله غير قابل له، فالله أعلم حيث يضع هداه وتوفيقه، كما هو أعلم حيث يجعل رسالاته، فهو أعلم حيث يجعلها أصلًا وميراثًا.

وكما أنه ليس كل محل أهلاً لتحمل الرسالة عنه، وأدائها إلى الخلق؛ فليس كل محل أهلاً لقبولها والتصديق بها، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَّلِكَ فَتَنَّا بِعَصْبُهُمْ بِعَصِّيْلَيْقُولُوا أَهُوَلَّا مَنْ أَللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنَنَا أَلَيْسَ اللَّهُ يَأْعَلِمُ بِإِشَّكِيرَتِ﴾ [الأنعام: ٥٣]، أي: ابتلينا وختبرنا بعضهم البعض، فابتلى الرؤساء والساسة بالأتباع والموالي والضعفاء، فإذا نظر الرئيس والمطاع إلى المولى والضعفيف قد آمن، حمي أنفه، وأنفَّ أن يسلم، وقال: لهذا يُمْنَنَ الله عليه بالهداي والسعادة دوني؟! قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ يَأْعَلِمُ بِإِشَّكِيرَتِ﴾، وهم الذين يعرفون النعمة وقدرها، ويشكرون الله عليها بالاعتراف والذل والخضوع والعبودية، فلو كانت

---

تفسيره، انظر: التفسير المنسوب إلى مجاهد (٤٠)، «جامع البيان» (١٠ / ٣٣٨).

(١) تحتمل في «م»: «أو اعترض عليه»، والمثبت من «د» أشبه بالسياق.

قلوبكم مثل قلوبهم، تعرفون قدر نعمتي، وتشكروني عليها، وتذكروني بها، وتخضعون لي كخضوعهم، وتحبوني كحبهم = لم تنتُ عليكم كما منتُ عليهم، ولكن لمتنَّي ونعمي محال لا تليق إلا بها، ولا تحسن إلا عندها.

ولهذا يقرن سبحانه كثيراً أو مطرداً بين التخصيص والعلم، كقوله هنا:

**﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمُ بِالشَّكَرِينَ﴾**، قوله: **﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَيَّةٌ قَالُواْنَ لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُقْتَلَ مِثْلَ مَا أُوقِتَ رُسُلُ اللَّهِ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتِهِ﴾** [الأنعام: ١٢٤]، قوله تعالى: **﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَلَّمَ عَمَّا يُشَرِّكُونَ﴾** [القصص: ٦٨] و**﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُنُ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِمُونَ﴾** [الزمر: ٣١]

أي: هو سبحانه المنفرد بالخلق والاختيار مما خلق، وهو الاصطفاء والاجتباء، ولهذا كان الوقف التام على قوله: **﴿وَيَخْتَارُ﴾**.

ثم نفى عنهم الاختيار<sup>(٢)</sup> الذي اقترحوه ببارادتهم، وأن ذلك ليس إليهم، بل إلى الخالق العليم، الذي هو أعلم بمحال الاختيار ومواضعه، لأنَّ

قال: **﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنَ عَظِيمٍ﴾** [الزخرف: ٣١].

فأخبر سبحانه أنه لا يبعث الرسل باختيارهم، وأن البشر ليس لهم أن يختاروا على الله، بل هو الذي يخلق ما يشاء ويختار، ثم نفى سبحانه أن تكون لهم الخيرَة، كما ليس لهم الخلق.

(١) هكذا في «د» «م» بالجمع،قرأ بها الجمهور ابن عمرو وغيره كما في «النشر» ١٦٩٢/٥)، وانظر: «الحجّة» (١٣٣).

(٢) من قوله: «ولهذا كان الوقف» إلى هنا ساقط من «م».

ومَنْ زَعَمَ أَنْ «مَا» مفعول «يختار» فقد غلط<sup>(١)</sup>؛ إذ لو كان هذا هو المراد وكانت «الخِيرَةُ» منصوبة على أنها خبر «كان»، ولا يصح أن يُقال: المعنى «ما كان لهم الخِيرَةُ فِيهِ»، وحُذف العائد؛ فإن العائد هنا مجرور بحرف لم يُبْخَرَ الموصول بمثله، فلو حُذِفَ مع الحرف لم يكن عليه دليل، فلا يجوز حذفه.

وكذلك لم يفهم معنى الآية مَنْ قال: إن «الاختيار» ههنا هو الإرادة، كما يقول المتكلمون: إنه سبحانه فاعل بالاختيار؛ فإن هذا اصطلاح حادث منهم، لا يُحمل عليه كلام الله، بل لفظ الاختيار في القرآن مطابق لمعناه في اللغة، وهو اختيار الشيء على غيره، وهو يقتضي ترجيح ذلك المختار وتخصيصه وتقديمه على غيره<sup>(٢)</sup>، وهذا أمر أخص من مطلق الإرادة والمشيئة.

قال في «الصحاح»<sup>(٣)</sup>: «الخِيرَةُ الاسم من قولك: خَارَ اللَّهُ لَكَ فِي هَذَا الْأَمْرِ، وَالخِيرَةُ أَيْضًا، تقول: مُحَمَّدٌ خِيرَةُ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ، وَخِيرَةُ اللَّهِ أَيْضًا - بالتسكين - والاختيارُ: الاصطفاء، وكذلك التَّخْيِيرُ.

والاستخاراة: طلب الخِيرَةِ، يقال: اسْتَخِرِ اللَّهَ يَخِرْ لَكَ، وَخَيْرُكُمْ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ: فَوَضَعْتُ إِلَيْهِ الْخِيَارَ». انتهى.

فهذا هو الاختيار في اللغة، وهو أخص مما اصطلاح عليه أهل الكلام.

(١) اختار هذا القول ابن جرير (١٨/٢٩٩)، وانظر في المسألة: «معاني القرآن وإعرابه» (٤/١٥١)، «البحر المحيط» (٨/٣٢٠).

(٢) من قوله: «وهو يقتضي ترجيع» إلى هنا ساقط من «م»، انتقال نظر.

(٣) (٢/٦٥٢) باختصار يسير.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِقَوْمٍ لَّا مُؤْمِنُهُ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، قوله تعالى: ﴿وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ وَسَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف: ١٥٥]، أي: اختار منهم.

وبهذا يحصل جواب السؤال الذي تورده القدريّة، وهو: ما تقولون في الكفر والمعاصي: هل هي واقعة باختيار الله أم بغير اختياره؟  
فإن قلتم: باختياره؛ فكل مختار مرضي مصطفى محبوب، فتكون مرضية محبوبة.

وإن قلتم: بغير اختياره؛ لم تكن بمشيئته و اختياره.

وجوابه أن يقال: ما تعنون بالاختيار؟ تعنون به الاختيار العام في اصطلاح المتكلمين، وهو المشيئة والإرادة، أم تعنون به الاختيار الخاص الواقع في القرآن والسنة وكلام العرب؟

فإن أردتم بالاختيار الأول، فهي واقعة باختياره بهذا الاعتبار، ولكن لا يجوز أن يُطلق ذلك عليها، لما في لفظ الاختيار من معنى الاصطفاء والمحبة، بل يُقال: واقعة بمشيئته وقدرته.

وإن أردتم بالاختيار معناه في القرآن ولغة العرب، فهي غير واقعة باختياره بهذا المعنى، وإن كانت واقعة بمشيئته.

فإن قيل: فهل تقولون: إنها واقعة بيارادته، أم لا تطلقون ذلك؟

قيل: لفظ الإرادة في كتاب الله نوعان:

إرادة كونية شاملة لجميع المخلوقات، كقوله تعالى: ﴿فَعَالَ لِمَا يُرِيدُ﴾

【البروج: ١٦】، قوله: ﴿وَلَذَا أَرَدْنَا أَن نُهْكِلَّ قَرْيَةً﴾ [الإسراء: ١٦]، قوله: ﴿إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يَعُوِّيَّكُم﴾ [هود: ٣٤]، ونظائر ذلك.

وارادة دينية أمرية، لا يجب وقوع مرادها، قوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ يَكُمُ الْأَيْسَرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، قوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُم﴾ [النساء: ٢٧]، فهي مراده بالمعنى الأول، غير مراده بالمعنى الثاني.

وكذلك إن قيل: هل هي واقعة يراذنه أم لا؟

فالإذن أيضاً نوعاً:

كوني، قوله: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٠٢].  
وديني أمري، قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٥٩]، قوله: ﴿أَذِنَ اللَّذِينَ يَقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾ [الحج: ٣٩].

ولفظ الاختيار مشتق من الخير المخالف للشر، ولما كان الأصل في الحي أنه يريد ما ينفعه، وما هو خير سُميّت الإرادة اختياراً، وهذا يتضمن أن الإرادة لا ترجح نوعاً على نوع إلا لترجح ذلك النوع عند الفاعل.

والمقصود أنه سبحانه يذكر العلم عند المخصوصات، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخْرَجَنَّهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]، لا خلاف بين الناس أن المعنى: على علم متنى بأنهم أهل للاختيار، فالجملة في موضع نصب على الحال، أي: اخترواهم عالِمين بهم وبأحوالهم، وما يقتضي اختيارهم من قبل خلقهم، فذكر سبحانه اختيارهم وحكمته في اختياره إياهم، وذكر علمه الدال على موقع حكمته و اختياره.

ومن هذا قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدًا وَمِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنياء: ٥١]، وأصح الأقوال في الآية أن المعنى: من قبل نزول التوراة، فإنه سبحانه قال: ﴿وَلَقَدْ أَتَيْنَا مُوسَى وَهَلَّوْنَ الرُّفْقَانَ وَضَيَّأَهُ وَذَكَرَ الْمُتَّقِينَ﴾ [الأنياء: ٤٨]، ثم قال: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَنَّا شَرَّمَ لَهُ وَمُنْكِرُونَ﴾ [الأنياء: ٥٠]، ثم قال: ﴿وَلَقَدْ أَتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدًا وَمِنْ قَبْلُ﴾، أي من قبل ذلك، ولهذا قطعـت «قبل» عن الإضافة وبنـت؛ لأن المضاف مـنـوي مـعـلومـ، وإن كان غير مـذـكـورـ فيـ الـلـفـظـ، وـذـكـرـ سـبـحـانـهـ هـؤـلـاءـ الـثـلـاثـةـ وـهمـ أـئـمـةـ الرـسـلـ، وـأـكـرـمـ الـخـلـقـ عـلـيـهـ، وـهـمـ: مـحـمـدـ وـإـبـرـاهـيمـ وـمـوـسـىـ صـلـوـاتـ اللهـ عـلـيـهـمـ وـسـلـامـهـ.

وقد قيل: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي: في حال صغره قبل البلوغ، وليس في اللـفـظـ ما يدل علىـ هذاـ، والـسـيـاقـ إنـماـ يـقتـضـيـ منـ قـبـلـ ماـ ذـكـرـ.

وقيل: المعنى بقوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي: في سابق عـلـمـناـ. وليس في الآية أيضاـ ما يـدلـ علىـ ذـلـكـ، ولاـ هوـ أمرـ مـخـتصـ بـإـبـرـاهـيمـ، بلـ كـلـ مـؤـمـنـ فـقـدـ قـدـرـ اللهـ هـدـاهـ فيـ سـابـقـ عـلـمـهـ.

والـمـقـصـودـ قولـهـ: ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾، قالـ الـبـغـوـيـ: «إـنـهـ أـهـلـ للـهـدـاـيـةـ وـالـنـبـوـةـ»<sup>(١)</sup>.

وقالـ أـبـوـ الفـرجـ: «أـيـ: عـالـمـينـ بـأـنـهـ مـوـضـعـ لـإـيـاتـ الرـشـدـ»<sup>(٢)</sup>.

(١) «معالـمـ التـنزـيلـ» (٥/٣٢٢).

(٢) «زادـ المـسـيرـ» (٥/٣٥٧).

وقال صاحب «الكشاف»: «ومعنى «علمه به»: أنه علم منه أحواً لا بدّيعة، وأسراً عجيبة، وصفات قد رضيَّها وأحمدَها، حتى أهله لمحالّته ومحالّصته، وهذا كقولك في خيرٍ من الناس: أنا عالم بفلان، فكلامك هذا من الاحتواء على محسن الأوصاف»<sup>(١)</sup>.

وهذا كقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حِيثُ يَجْعَلُ رِسَالَتِهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخْرَجَنَّهُمْ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الدخان: ٣٢]، ونظير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَنَّ أَدَمَ وَوُحَّادَةَ الْإِبْرَاهِيمَ وَآلَّ اِبْرَاهِيمَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۚ﴾<sup>(٢)</sup> ذُرْيَةٌ بعضاًها من بعضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيهِمْ﴾ [آل عمران: ٣٣ - ٣٤]، و قريب من قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الْأَنْجَنَ عَاصِفَةَ بَحْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكَنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالَمِينَ﴾ [الأنياء: ٨١]، فلما ذكر ما خصّ به نبيه سليمان، وخصّ به الأرض التي بارك فيها قال: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالَمِينَ﴾، حيث وضعنا هذا التخصيص في المحل الذي يليق به من الأماكن والأناس.

## فصل

وهو سبحانه كما هو العليم الحكيم في اختيار من يختار من خلقه، وإضلالة من يضلهم؛ فهو العليم الحكيم بما في أمره وشرعه من العواقب الحميدة، والغايات العظيمة، قال تعالى: ﴿كُتُبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكُرْهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، بين سبحانه أن ما أمرهم به

(١) «الكشاف» (١٢١ / ٣).

يعلم ما فيه من المصلحة والمنفعة لهم التي اقتضت أنه يختاره، ويأمرهم به، وهم قد يكرهونه؛ إما لعدم العلم، وإما لنفور الطبع، فهذا علمه بما في عاًقب أمره مما لا يعلمه، وذاك علمه بما في اختياره من خلقه مما لا يعلمه، وهذه الآية تضمنت الحض على التزام أمر الله وإن شق على النفوس، وعلى الرضا بقضائه وإن كرهته النفوس.

وفي حديث الاستخاراة: «اللهم إني أستخرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم هذا الأمر خيراً لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري؛ فاقدره لي، ويسّره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم شرًا لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري؛ فاصرفة عني، واصرفي عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضّني به»<sup>(١)</sup>.

ولما كان العبد محتاجاً في فعل ما ينفعه في معاشة ومعاده إلى علمٍ بما فيه من المصلحة، وقدرة عليه، وتيسير له، وليس له من نفسه شيءٌ من ذلك، بل علمه من علم الإنسان ما لم يعلم، وقدرته منه؛ فإن لم يقدر عليه وإن فهو عاجز، وتيسيره منه؛ فإن لم يسره عليه وإن فهو متعرّض عليه بعد إقداره = أرشده النبي ﷺ إلى محض العبودية، وهو طلب الخيرة من العالم بعواقب الأمور وتفاصيلها وخيرها وشرها، وطلب القدرة منه؛ فإنه إن لم يقدر وإن فهو عاجز، وطلب فضله منه؛ فإنه إن لم يسره له، ويهيء له، وإن فهو متذر عليه، ثم إذا اختاره له بعلمه، وأعانه عليه بقدرته، ويسّره له من فضله؛ فهو

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٨٢)، (٧٣٩٠) وغيره بالفاظ متقاربة من حديث جابر.

يحتاج إلى أن يقيه عليه، ويديمه بالبركة<sup>(١)</sup> التي يضعها فيه، والبركة تتضمن ثبوته ونموه، وهذا قدْرٌ زائدٌ على إقداره عليه وتيسيره له، ثم إذا فعل به ذلك كله فهو محتاج إلى أن يرضيه به، فإنه قد يجيء له ما يكرهه، فيظل ساخطاً له وقد خار الله له فيه.

قال عبد الله بن عمر: «إن الرجل ليستخير الله فيختار له، فيسخط على ربِّه، فلا يلبي أن ينظر في العاقبة، فإذا هو قد خير له»<sup>(٢)</sup>.

وفي «المسنن»<sup>(٣)</sup> من حديث سعد بن أبي وقاص، عن النبي ﷺ: «من سعادة ابن آدم استخارته الله عز وجل، ومن سعادة ابن آدم رضاه بما قضاه الله، ومن شفاعة ابن آدم تركه استخارة الله عز وجل، ومن شفاعة ابن آدم سخطه بما قضى الله».

فالملائكة يكتنفه أمران: الاستخاراة قبله، والرضا بعده، فمن توفيق الله لعبدِه وإسعادِه إياه أن يختار قبل وقوعه، ويرضى بعد وقوعه، ومن خدلانه له أن لا يستخriه قبل وقوعه، ولا يرضى به بعد وقوعه.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا أبالي أصبحت على ما أحب أو على ما أكره؛ لأنني لا أدرِي: الخير فيما أحب أو فيما أكره»<sup>(٤)</sup>.

(١) «د»: «بالذكر» وكذلك في الموضع الآتي، تحريف.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله بقضائه» (٥٦).

(٣) برقم (٤٤٤)، وأخرجه الترمذى (٢١٥١)، وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن أبي حميد... وليس هو بالقوى عند أهل الحديث».

(٤) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٤٢٥)، وأبو داود في «الزهد» (١٠٣).

وقال الحسن: «لا تكرهوا النعمات الواقعة، والبلايا الحادثة، فلربّ أمر تكرهه فيه نجاتك، ولربّ أمر تؤثره فيه عطبك»<sup>(١)</sup>.

## فصل

ومما يناسب هذا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولُهُ الْرُّغْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْعَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَمْنِينَ مُحَلَّقِينَ رُؤُسُكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا يَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ يَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧]، بين سبحانه وتعالى حكمة ما كرهوه عام الحديبية من صد المشركين لهم عن البيت، حتى رجعوا ولم يعتروا، وبين لهم أن مطلوبهم يحصل بعد هذا، فحصل في العام القابل.

وقال سبحانه: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ يَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَحًا قَرِيبًا﴾ وهو صلح الحديبية، وهو أول الفتح المذكور في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحَتَّالَكَ فَتَحًا حَامِيًّا﴾ [الفتح: ١]، فإنه<sup>(٢)</sup> بسببه حصل من مصالح الدين والدنيا، والنصر، وظهور الإسلام، وبطلان الكفر، ما لم يكونوا يرجونه قبل ذلك، ودخل الناس بعضهم في بعض، وتكلم المسلمون بكلمة الإسلام وبراهينه وأدلة جهرة لا يخافون، ودخل في ذلك الوقت في الإسلام قريب ممن دخل فيه من أوله إلى ذلك الوقت. وظهر لكل أحد بغي المشركين وعدوانهم وعنادهم، وعلم الخاص والعام أن محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه أولى بالحق والهدى، وأن أعداءهم ليس بأيديهم إلا العدوان والعناد، فإن البيت الحرام لم يُصدّ عنه حاج ولا

(١) أورده الثعلبي في «الكشف والبيان» (٣/ ١٣٨).

(٢) «د» «م»: «فَإِنَّ».

معتمر من زمن إبراهيم عليه السلام، فتحققت العرب عناد قريش وعدوانهم، وكان ذلك داعية لبشر كثير إلى الإسلام، وزاد عناد القوم وطغيانهم، وذلك من أكبر العون على نفوسهم، وزاد صبر المؤمنين واحتمالهم والتزامهم بحكم الله وطاعة رسوله، وذلك من أعظم أسباب نصرهم، إلى غير ذلك من الأمور التي علمها الله سبحانه ولم يعلمها الصحابة، ولهذا سماه فتحا، وسئل النبي ﷺ: أفتح هو؟ قال: «نعم»<sup>(١)</sup>.

## فصل

ويشبه هذا قول يوسف الصديق: «يَأَيُّهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يَرُوكُمْ مِنْ قَبْلِنَّا فَجَعَلُوهَا إِلَيْنَا حَقَّاً وَقَدْ أَخْسَنُنَا إِذَا أَخْرَجْنَا مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَنَا إِلَيْكُمْ مِنَ الْبَدْرِ وَمِنْ بَعْدِ آنَّ نَزَّعَ الشَّيْطَانُ بَيْنَ يَدَيْنَا إِنْ رَبِّنَا لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» [يوسف: ١٠٠]، فأخبر أنه يلطف لما يريد، فيأتي به بطرق خفية لا يعلمها الناس.

واسمه «اللطيف» يتضمن علمه بالأشياء الدقيقة وإصالة الرحمة بالطرق الخفية، ومنه التلطف، كما قال أهل الكهف: «وَلَيَتَّلَطَّفَ وَلَا يُشَعِّرَنَّ إِلَيْكُمْ أَحَدًا» [الكهف: ١٩]، فكان ظاهر ما امتحن به يوسف من مفارقة أبيه، وإن القائه في السجن<sup>(٢)</sup>، وبيعه رقيقاً، ثم مراودة التي هو في بيته الـهـ عن نفسه، وكذبها عليه، وسجنه = محنا ومصائب، وباطنها نعمـاً ومنحـاً، جعلـها الله سبـباً لسعادـته في الدنيا والآخرـة.

(١) أخرجه بتمامه البخاري (٣١٨٢)، ومسلم (١٧٨٥) من حديث سهل بن حنيف.

(٢) «م»: «وللقائه الجب في السجن» سبق قلمـ، والمثبت من «د».

ومن هذا الباب ما يبتلي به عباده من المصائب، ويأمرهم به من المكاره، وينهاهم عنه من الشهوات، هي طرق يوصلهم بها إلى سعادتهم في العاجل والأجل، وقد حُفت الجنة بالمكاره، وحُفت النار بالشهوات، وقد قال ﷺ: «لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن»<sup>(١)</sup>، فالقضاء كله خير لمن أنعمت الشكر والصبر، جالباً ما جلب.

وكذلك ما فعله بأدَم وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم، من الأمور التي هي في الظاهر محن وابتلاء، وهي في الباطن طرق خفية أوصلهم بها بطريقه إلى غاية كمالهم وسعادتهم.

فتتأمل قصة موسى عليه السلام، وما لطف له من إخراجه في وقت ذبح فرعون الأطفال، ووحيه إلى أمه أن تلقيه في اليم، وسوقه بطريقه إلى دار عدوه الذي قدر هلاكه على يديه، وهو يذبح الأطفال في طلبه<sup>(٢)</sup>، فرباه في بيته وحجره على فراشه، ثم قدر له سبياً أخرجه به من مصر، وأوصله به إلى موضع لا حكم لفرعون عليه، ثم قدر له سبياً أوصله به إلى النكاح والغنى بعد العزوبة والعيلية، ثم ساقه إلى بلد عدوه فأقام عليه به حاجته، ثم أخرجه وقومه في صورة الهاريين الفارين منه، وكان ذلك عين نصرتهم على أعدائهم وإهلاكهم وهم ينظرون.

وهذا كلّه مما يبين أنه سبحانه يفعل ما يفعله لما يريد من العواقب

(١) أخرجه أحمد (١٨٩٣٤)، ومسلم (٢٩٩٩) من حديث صحيب بقريب منه.

(٢) أي: كان فرعون يذبح الأطفال طلباً في ذبح موسى، وفي «القوائد» (٥٩): «كم ذبح فرعون في طلب موسى من ولد!».

الحميدة، والحكم العظيمة التي لا تدركها عقول الخلق، مع ما في ضمانتها من الرحمة التامة، والنعمة السابعة، والتعرف إلى عباده بأسمائه وصفاته.

فكم في أكل آدم من الشجرة التي نُهي عنها، وإخراجه بسيبها من الجنة، من حكمة بالغة لا تهتدي العقول إلى تفاصيلها.

وكذلك ما قدره لسيد ولده من الأمور التي أوصله بها إلى أشرف غياته، وأوصله بالطرق الخفية فيها إلى أحمد العاقد.

وكذلك فعله بعباده وأوليائه، يوصل إليهم نعمه، ويسوقهم إلى كمالهم وسعادتهم في الطرق الخفية التي لا يهتدون إلى معرفتها إلا إذا لاحت لهم عواقبها.

وهذا أمر يضيق الجنان عن معرفة تفاصيله، ويحصر اللسان عن التعبير عنه، وأعرف خلق الله به أنبياؤه ورسله، وأعرفهم به خاتمهم وأفضلهم، وأمته في العلم به على مراتبهم ودرجاتهم ومنازلهم من العلم بالله وأسمائه وصفاته، وهو سبحانه قد أحاط علمًا بذلك كله قبل خلق السماوات والأرض، وقدره وكتبه عنده.

ثم يأمر الملائكة بكتابة ذلك من الكتاب الأول قبل خلق العبد، فيُطابق حاله و شأنه لما كتب في الكتاب، ولما كتبه الملائكة، لا يزيد شيئاً ولا ينقص مما كتبه سبحانه وأثبته عنده، كان في علمه قبل أن يكتبه، ثم كتبه كما في علمه، ثم وجد كما كتبه. قال تعالى: ﴿أَلمْ تَرَأَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

والله سبحانه قد علم قبل أن يوجد عباده أحوالهم، وما هم عاملون، وما

هم إليه صاثرون، ثم أخرجهم إلى هذه الدار ليظهر معلومه الذي علمه فيهم كما علمه، وابتلاهم من الأمر والنهي والخير والشر بما أظهر معلومه، فاستحقوا المدح والذم، والثواب والعقاب بما قام بهم من الأفعال والصفات المطابقة للعلم السابق، ولم يكونوا يستحقون ذلك، وهي في علمه قبل أن يعلموها، فأرسل رسلاه، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه إعذاراً إليهم، وإقامة للحججة عليهم؛ لئلا يقولوا: كيف تعاينا على علمك فيما، وهو لا يدخل تحت كسبنا وقدرتنا؟ فلما ظهر علمه فيهم بأفعالهم حصل العقاب على معلومه الذي أظهره الابتلاء والاختبار.

وكما ابتلاهم بأمره ونبيه ابتلاهم بما زينَه لهم من الدنيا، وبما رَكِبَ فيهم من الشهوات، فذلك ابتلاء بشرعه وأمره، وهذا ابتلاء بقضاءه وقدره، قال تعالى: «إِنَّا جَعَلْنَا مِاعَلِ الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا تَبُولُهُرُ أَيُّهُمْ أَحَسَنُ عَمَالًا» [الكهف: ٧]، وقال تعالى: «الَّذِي (١) خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَتَوَلَّ أَيُّهُمْ أَخْسَنُ عَمَالًا» [الملك: ٢]، وقال: «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرَشُهُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ يَتَبَوَّكُمْ أَيُّهُمْ أَخْسَنُ عَمَالًا» [هود: ٧]، فأخبر في هذه الآية أنه خلق السماوات والأرض ليتلي عباده بأمره ونبيه، وهذا من الحق الذي خلق به خلقه، وأخبر في الآية التي قبلها أنه خلق الموت والحياة ليتليهم أيضاً، فأحياءهم ليتليهم بأمره ونبيه، وقدر عليهم الموت الذي ينالوا<sup>(٢)</sup> به عاقبة ذلك الابتلاء من الثواب والعقاب.

(١) «د» «م»: «هو الذي».

(٢) كذا في «د» «م»: «ينالوا» بحذف النون دون أداة خفض أو نصب.

وأُخْبِرَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى أَنَّهُ زَيْنَ لَهُمْ مَا عَلَى الْأَرْضِ لِيُتَلَيَّهُمْ بِهِ أَيُّهُمْ يُؤْثِرُ  
عَلَى مَا عَنْهُ فَيَكُونُ حَظُّهُ، أَوْ يُؤْثِرُ مَا عَنْهُ عَلَيْهِ، وَابْتَلَى بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ،  
وَابْتَلَاهُمْ بِالنَّعْمَ وَالْمُصَاصَبِ، فَأَظَهَرَ هَذَا الْابْتِلَاءُ عِلْمَهُ السَّابِقِ فِيهِمْ مُوجَدًا  
عِيَانًا بَعْدَ أَنْ كَانَ غَيِّرًا فِي عِلْمِهِ.

فَابْتَلَى أَبُوِي الإِنْسَنِ وَالْجِنِّ كُلَّ مِنْهُمَا بِالْأُخْرَ، فَأَظَهَرَ ابْتِلَاءَ آدَمَ مَا عَلِمَهُ  
مِنْهُ، وَأَظَهَرَ ابْتِلَاءَ إِبْلِيسَ مَا عَلِمَهُ مِنْهُ، فَلَهُذَا قَالَ لِلْمَلَائِكَةَ: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَأَ  
تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وَاسْتَمَرَ هَذَا الْابْتِلَاءُ فِي الذَّرِيَّةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَابْتَلَى الْأَنْبِيَاءَ بِأَمْمِهِمْ،  
وَابْتَلَى أَمْمَهُمْ بِهِمْ، وَقَالَ لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَخَلِيلِهِ: «إِنِّي مُبَتَّلٌ إِلَيْكُمْ وَمُبَتَّلٌ بِكُمْ»<sup>(١)</sup>،  
وَقَالَ: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَلَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وَقَالَ:  
﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِيَعْصِيَ فِتْنَةً﴾ [الفرقان: ٢٠].

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيفِ<sup>(٢)</sup> أَنَّ ثَلَاثَةَ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُبَتَّلِيهِمْ، أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ  
وَأَعْمَى، فَأَظَهَرَ الْابْتِلَاءُ حَقَائِقَهُمُ الَّتِي كَانَتْ فِي عِلْمِهِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ.  
فَأَمَّا الْأَعْمَى فَاعْتَرَفَ بِإِنْعَامِ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ كَانَ أَعْمَى فَقِيرًا، فَأَعْطَاهُ اللَّهُ  
البَصَرَ وَالغَنَى، وَبَذَلَ لِلسَّائِلِ مَا طَلَبَهُ شَكِّرًا اللَّهُ.

وَأَمَّا الْأَقْرَعُ وَالْأَبْرَصُ فَكَلاهُمَا جِحْدَ مَا كَانُ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ مِنْ سُوءِ  
الحَالِ وَالْفَقْرِ، وَقَالَ فِي الغَنَى: إِنَّمَا أَوْتَيْتَهُ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ.

وَهَذَا حَالُ أَكْثَرِ النَّاسِ، لَا يَعْرِفُ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ أَوْلًَا مِنْ نَقْصٍ وَجَهْلٍ وَفَقْرٍ

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٨٦٥) بِمَعْنَاهُ مِنْ حَدِيثِ عِيَاضِ الْمَجَاشِعِيِّ.

(٢) أَخْرَجَهُ البَخَارِيُّ (٣٤٦٤)، وَمُسْلِمٌ (٢٩٦٤) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هَرِيْرَةَ.

وذنوب، وأن الله سبحانه نقله من ذلك إلى ضد ما كان عليه، وأنعم بذلك عليه.

ولهذا ينبه سبحانه الإنسان على مبدأ خلقه الضعيف من الماء المهين، ثم نقله في أطباقي خلقه وأطواره من حال إلى حال، حتى جعله بشراً سوياً، يسمع ويسير ويعقل وينطق ويطيش ويعلم، فنسي مبدأه وأوله، وكيف كان، ولم يعترف بنعم ربه عليه، كما قال تعالى: ﴿أَيَّتُمْ كُلُّ أُمَّرِيٍّ مِّنْهُمْ أَنْ يُدْخِلَ جَنَّةَ تَعْبُرُ<sup>(١)</sup> كُلَّاً نَّا خَلَقْنَاهُمْ مَمَّا يَعْلَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٩ - ٣٨].

وأنت إذا تأملت ارتباط إحدى هاتين الجملتين بالأخرى وجدت تحتهما كنزًا عظيمًا من كنوز المعرفة والعلم، فأشار سبحانه بمبدأ خلقهم «مَمَّا يَعْلَمُونَ» من النطفة وما بعدها إلى موضع الحجة والأية الدال على وجود الله ووحدانيته وكماله وتفرده بالربوبية والإلهية، وأنه لا يحسن به مع ذلك أن يتركهم سدى، لا يرسل إليهم رسولاً، ولا ينزل عليهم كتاباً، وأنه لا يعجز مع ذلك أن يخلقهم بعد ما أماتهم خلقاً جديداً، ويعثthem إلى داري وفيهم فيها أعمالهم من الخير والشر، فكيف يطمعون في دخول الجنة وهم يكذبون، ويُكذبون رسلي، ويدلون بي خلقي، وهم يعلمون من أي شيء خلقتهم!

ويشبه هذا قوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٧]، وهو كانوا مصدقين بأنه خالقهم، ولكن احتاج عليهم بخلقهم لهم على توحيده ومعرفته وصدق رسلي، فدعاهم منهم ومن خلقهم إلى الإقرار بأسمائه وصفاته وتوحيده وصدق رسلي<sup>(١)</sup> والإيمان بالمعاد.

---

(١) من قوله: «فدعهم» إلى هنا ساقط من «م»، انتقال نظر، وجملة: «منهم ومن خلقهم» لم يظهر لي وجهها في السياق، فلعلها تحرفت عن: «هم ومن خلقهم».

وهو سبحانه يذكّر عباده بنعمه عليهم، ويدعوهم بها إلى معرفته ومحبته وتصديق رسالته والإيمان بلقائه، كما تضمنته سورة النعم - وهي سورة النحل - من قوله: «خَلَقَ الْإِنْسَنَ مِنْ نُطْفَةٍ» إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّثَالَ خَلْقَ طِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاكَا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيمَكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيمُكُمْ بِالْأَسْكُنْ كَذَلِكَ يُتَمُّ فَعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْلُمُونَ﴾ [النحل: ٤ - ٨١]، فذكرهم بأصول النعم وفروعها، وعددها عليهم نعمة نعمة، وأخبر أنه أنعم بذلك عليهم؛ ليسلموه، فتكمل نعمه عليهم بالإسلام الذي هو رأس النعم، ثم أخبر عنمن كفره ولم يشك نعمه بقوله: «يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا» [النحل: ٨٢] قال مجاهد: «المساكن والأ נעام وسراويل الشياطين والحديد، يعرفه كفار قريش ثم ينكرونها، بأن يقولوا: هذا كان لأبائنا ورثناه عنهم»<sup>(١)</sup>.

وقال عون بن عبد الله: «يقولون: لو لا فلان لكان كذا»<sup>(٢)</sup>.

وقال الفراء وابن قتيبة: «يعرفون أن النعم من الله، ولكن يقولون: هذه بشفاعة آلهتنا»<sup>(٣)</sup>.

وقالت طائفة: النعمة هنا محمد ﷺ، وإنكارها جحد نبوته، وهذا يبرؤ عن مجاهد والسدي<sup>(٤)</sup>.

(١) التفسير المنسوب إلى مجاهد (٤٢٤)، وأسنده الطبرى (١٤/٣٢٦).

(٢) أسنده الطبرى (١٤/٣٢٦).

(٣) «معانى القرآن» للفراء (١٢/٢)، «تفسير غريب القرآن» لابن قتيبة (٢٤٨).

(٤) أسنده الخلال في «السنة» (٢١٢)، والطبرى (١٤/٣٢٥) عن السدي، ولم أقف على نسبة إلى مجاهد.

وهذا أقرب إلى حقيقة الإنكار؛ فإنه إنكار لما هو من أجل النعم أن تكون نعمة.

وأما على القول الأول والثاني والثالث فإنهم لما أضافوا النعمة إلى غير الله فقد أنكروا نعمة الله بنسبتها إلى غيره، فإن الذي قال: «إنما كان هذا لأنّا، ورثناه كابرًا عن كابر»؛ جاحد لنعمة الله عليه، غير معترف بها، وهو كالابرص والأقرع اللذين ذكرهما المَلَكُ بنعم الله عليهما فأنكر، وقال: «إنما ورثنا هذا كابرًا عن كابر». فقال: «إن كتما كاذبِيْن فصيّر كمَا الله إِلَى مَا كتما»، وكونها موروثة عن الآباء أبلغ في إنعام الله عليهم؛ إذ أنعم بها على آبائهم، ثم ورثهم إياها، فتعمدوا بهم وآباؤهم بنعمه.

وأما قول الآخر: «لولا فلان لما كان كذا»، فيتضمن قطع إضافة النعمة إلى مَنْ لولاه لم تكن، وإضافتها إلى مَنْ لا يملك لنفسه ولا لغيره ضرًا ولا نفعًا، وغايتها أن يكون جزءًا من أجزاء السبب<sup>(١)</sup>، أجرى الله نعمته على يديه، والسبب<sup>(٢)</sup> لا يستقل بالإيجاد، وجعله سببًا هو من نعم الله، فهو المنعم بتلك النعمة، وهو المنعم بما جعله من أسبابها، فالسبب والمبني من إنعامه، وهو سبحانه قد ينعم بذلك السبب، وقد ينعم بدونه، فلا يكون له أثر، وقد يسلبه سببيته، وقد يجعل لها معارضًا يقاومها، وقد يرتب على السبب<sup>(٣)</sup> ضدًّا مقتضاه، فهو وحده المنعم على الحقيقة.

وأما قول القائل: «بشفاعة آلهاتنا» فيتضمن الشرك، مع إضافة النعمة إلى

(١) «م»: «السبب»، والمثبت من «د» متسق مع السياق، وسيأتي من كلام المؤلف بيانه.

(٢) «م»: «السبب».

(٣) «م»: «السبب».

غير ولیها، فالآلهة التي تُعبد من دون الله أحق وآذل من أن تشفع عند الله، وهي مُحضره في العذاب والهوان مع عابديها، وأقرب الخلق إلى الله وأحبهم إليه لا يشفع عنده إلا من بعد إذنه لمن ارتضاه، فالشفاعة بذنه من نعمه، فهو المنعم بالشفاعة، وهو المنعم بقبولها، وهو المنعم بتأهيل المشفوع له، إذ ليس كل أحد أهلاً أن يُشفع له، فمن المنعم على الحقيقة سواه؟

قال تعالى: «وَمَا يَكُونُ مِنْ تَقْمِيمٍ فِينَّ اللَّهِ» [النحل: ٥٣]، فالعبد لا خروج له عن نعمته وفضله ومتنه وإحسانه طرفة عين، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

ولهذا ذَمَّ الله سبحانه مَنْ آتاه شيئاً من نعمه فقال: «إِنَّمَا أُوتِيتُهُ وَعَلَى إِلَيْهِ عِنْدِي» [القصص: ٧٨]، وفي الآية الأخرى: «فَإِذَا (١) مَسَ الْأَنْسَنَ ضُرُّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا حَوَّلَنَاهُ نِعْمَةً مَنْ تَاقَلَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ وَعَلَى إِلَيْهِ عِنْدِي» [الزمر: ٤٩].

قال البغوي: «على علم من الله أني له أهل» (٢).

وقال مقاتل: «على خير علمه الله عندي» (٣).

وقال آخرون: على علم من الله أني له أهل. ومضمون هذا القول أن الله آتانيه على علمه بأني أهله.

وقال آخرون: بل العلم له نفسه. ومعناه: أُوتته على علم مني بوجوه المكاسب. قاله قتادة وغيره (٤).

(١) «د» «م»: «وإذا».

(٢) «معالم التنزيل» (١٢٤/٧).

(٣) «تفسير مقاتل» (٣٥٦/٣)، والمُؤلف صادر في هذا الموضوع عن البغوي.

(٤) انظر: «المحرر الوجيز» (٥٤٩/١٢).

وقيل: المعنى: قد علمتُ أني لِمَا أُوتِيَتُ هذَا فِي الدِّنِيَا فَلِي عِنْدَ اللَّهِ مُتَزَّلَةٌ وَشَرْفٌ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مجاهِدٍ: «أُوتِيَتِهُ عَلَى شَرْفٍ»<sup>(١)</sup>.

قال تعالى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر: ٤٩]، أي: النعم التي أُوتِيَتُها فتنةٌ تختبره فيها، ومحنةٌ تختبره بها، لا يدل ذلك على اصطفائه واجتبائه، وأنه محبوب لنا، مقربٌ عندنا.

ولهذا قال في قصة قارون: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمِيعًا﴾ [القصص: ٧٨]، فلو كان إعطاء المال والقوة والجاه يدل على رضا الله سبحانه عن آثار ذلك، وشرف قدره وعلو منزلته عنده؛ لما أهلك من آثاره من ذلك أكثر مما آتى قارون. فلما أهلكهم مع سعة هذا العطاء وبسطه عُلِّمَ أن عطاءه إنما كان ابتلاءً وفتنةً ومحنةً، لا محبةً ورضاً واصطفاءً لهم على غيرهم.

ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾، أي: النعم فتنة لا كرامة، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ثم أكد هذا المعنى بقوله: ﴿فَقَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾﴾ [الزمر: ٥٠ - ٥١]، أي: قد قال هذه المقالة الذين من قبلهم لما آتيناهم نعمنا.

قال ابن عباس: «كانوا قد بطرروا نعمة الله، إذ آتاهم الدنيا وفرحوا بها وطغوا، وقالوا: هذه كرامة من الله لنا»<sup>(٢)</sup>.

(١) «تفسير مجاهد» (٥٨٠).

(٢) لم أقف عليه.

وقوله: **﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** المعنى: أنهم ظنوا أن ما آتيناهم لكرامتهم علينا، ولم يكن كذلك؛ لأنهم وقعوا في العذاب، ولم يُغْنِ عنهم ما كسبوا شيئاً، وتبيّن أن تلك النعم لم تكن لكرامتهم علينا، وهو ان مَنْ معناه إِيَاهَا<sup>(١)</sup>.

وقال أبو إسحاق: معنى الآية أن قوله: «إنما آتانا الله ذلك لكرامتنا عليه، وإننا أهلها»؛ أحبط أعمالهم<sup>(٢)</sup>، فكَنَّى عن إحباط العمل بقوله: **﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**، ثم أبطل سبحانه هذا الظن الكاذب منهم بقوله: **﴿وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾** [الزمر: ٥٢].

والملخص أن قوله: **﴿عَلَى عِلْمٍ عِنِّي﴾** [القصص: ٧٨] إن أريد به علمه نفسه، كان المعنى: أوتيته على ما عندي من العلم والخبرة والمعرفة التي توصلتُ بها إلى ذلك وحصلتُ بها. وإن أريد به علم الله؛ كان المعنى: أوتيته على ما علم الله عندي من الخير والاستحقاق وأني أهلها، وذلك من كرامتي عليه. وقد يتراجع هذا القول بقوله: «أوتته»، ولم يقل: حصلته واكتسبته بعلمي ومعرفتي، فدلّ على اعترافه بأن غيره آتاه إياه.

ويدل عليه قوله سبحانه: **﴿بِلِّهِ فِتْنَةٌ﴾** أي: محنّة واختبار، والمعنى: أنه لم يؤت<sup>(٣)</sup> هذا لكرامته علينا، بل أوتيه امتحاناً وابتلاءً واختباراً: هل يشكر فيه أم يكفر؟

(١) انظر: «الوسيط» للواحدي (٣/٥٨٦).

(٢) انظر: «معاني القرآن» (٤/٣٥٧).

(٣) «د»: «لم يوجب».

وأيضاً فهذا يوافق قوله: ﴿فَإِنَّمَا الْأَلِسَنُ إِذَا مَا أَبْتَلَنَا رُبُّهُ وَقَاتِلَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمُنِ [١٥] وَإِنَّمَا إِذَا مَا أَبْتَلَنَا قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَدَنِ﴾ [الفجر: ١٥ - ١٦]، فهو قد اعترف بأن ربه هو الذي آتاه ذلك، ولكن ظنَّ أنه<sup>(١)</sup> لكرامته عليه.

فالآية على التقدير الأول تتضمن ذم من أضاف النعم إلى نفسه وعلمه وقوته، ولم يضفها إلى فضل الله وإحسانه، وذلك محض الكفر بها؛ فإن رأس الشكر الاعتراف بالنعم، وأنها من المنعم وحده، فإذا أضيفت إلى غيره كان جحداً لها، فإذا قال: أوتته على ما عندي من العلم والخبرة التي حصلت بها ذلك؛ فقد أضافها إلى نفسه، وأعجب بها، كما أضافها إلى قدرته الذين قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّاقِهَ﴾ [فصلت: ١٥]، فهو لاء اغتروا بقوتهم، وهذا اغتر بعلمه، مما أغنى عن هؤلاء قوتهم، ولا عن هذا علمه.

وعلى التقدير الثاني: يتضمن ذم من اعتقد أن إنعام الله عليه لكونه أهلاً ومستحقاً لها، فقد جعل سبب النعمة ما قام به من الصفات التي يستحق بها على الله أن ينعم عليه، وأن تلك النعمة جزاء له على إحسانه وخيره، فقد جعل سببها ما اتصف به هو، لا ما قام ببرئه من الجود والإحسان والفضل والمنة، ولم يعلم أن ذلك ابتلاء واختبار له: أيشكراً أم يكفر، ليس ذلك جزاء له على ما منه، ولو كان ذلك جزاء على عمل عمله، أو خير قام به، فالله سبحانه هو المنعم عليه بذلك السبب، فهو المنعم بالسبب والجزاء، والكل محض منه وفضله وجوده، وليس للعبد من نفسه مثقال ذرة من الخير.

(١) «د»: «ربه هو الذي أراد ذلك، ولكن ضن به».

وعلى التقديرين فهو لم يضف النعمة إلى الرب من كل وجه، وإن أضافها إليه من وجه دون وجه، وهو سبحانه وحده المنعم من جميع الوجوه على الحقيقة بالنعم وأسبابها، فأسبابها من نعمه على العبد وإن حصلت بكسبه، فكسبه من نعمه، فكل نعمة فمن الله وحده، حتى الشكر فإنه نعمة وهي منه سبحانه، فلا يطيق أحد أن يشكرون إلا بنعمته، وشكرون نعمة منه عليه، كما قال داود عليه الصلاة والسلام: «يا رب، كيف أشكرك وشكري لك نعمة من نعمك عليّ تستوجب شكرًا آخر؟ فقال: الآن شكرتني يا داود» ذكره الإمام أحمد<sup>(١)</sup>.

وذكر أيضًا عن الحسن قال: قال داود: «إلهي، لو أن لكل شعرة من شعرى لسانين يذكرانك بالليل والنهار، والدهر كله؛ لما أذوا مالك عليّ من حق نعمة واحدة»<sup>(٢)</sup>.

والمحظوظ أن حال الشاكر ضد حال القائل: «إِنَّمَا أُوقِنُتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي» [القصص: ٧٨].

ونظير ذلك قوله تعالى: «لَا يَسْمَعُ الْإِنْسَنُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَغُوشُ قَنُوطٌ ⑩ وَلَيْنَ أَذْفَنَهُ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَّةٍ مَّسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي» [فصلت: ٤٩ - ٥٠]، قال ابن عباس: «يريد من عندي»<sup>(٣)</sup>.

(١) بنحوه في «الزهد» (٣٧٥)، وأخرجه ابن أبي حاتم بقريب منه كما في «تفسير ابن كثير» (٥٠١ / ٦).

(٢) بنحوه في «الزهد» (٣٦١)، وأخرجه ابن أبي شيبة (٣٢٥٥١).

(٣) نسبة إليه الواحدى في «البسيط» (٤٧٥ / ١٩).

وقال مقاتل: «يعني أنا أحق بهذا»<sup>(١)</sup>.

وقال مجاهد: «هذا بعملي، وأنا محقوق به»<sup>(٢)</sup>.

وقال الزجاج: «هذا واجب، بعملي استحققته»<sup>(٣)</sup>.

فوصفَ الإنسان بأربع صفاتٍ: إن مسنه الشُّرُّ صار إلى حال القانط، ووجم وجوم الآيس، فإذا مسنه الخيرُ نسي أن الله هو المنعم عليه المتفضل بما أعطاهم، فبطر وظنَّ أنه هو المستحق لذلك، ثم أضاف إلى ذلك تكذيبه بالبعث فقال: ﴿وَمَا آتَنَا لِلنَّاسَةَ قَلْيَمَةً﴾، ثم أضاف إلى ذلك ظنه الكاذب: أنه إن بُعثَ كان له عند الله الحُسْنى، فلم يدع هذا للجهل والغور موضعًا.

## فصل

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِلَ اللَّهُ عَلَىٰ عَلِيهِ﴾ [الجاثية: ٢٣] قول آخر أنه على علم عند الصال، كما قيل: على علم منه أن معبوده لا ينفع ولا يضر، فيكون المعنى: أضلَّه الله مع علمه الذي تقوم به عليه الحجة، لم يضلَّه على جهل وعدم علم.

وهذا يشبه قوله: ﴿فَلَا يَجِدُوا لِلَّهِ أَنَّ دَادَأَوْ أَنْشَمَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقوله: ﴿فَصَدَّهُمْ﴾<sup>(٤)</sup> عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿﴾ [العنكبوت: ٣٨]، وقوله:

(١) «تفسير مقاتل» (٣/٧٤٨).

(٢) التفسير المنسوب إلى مجاهد (٥٨٧)، وأسنده الطبرى (٢٠/٤٥٨).

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٤/٣٩١).

(٤) «د» (م): «وصدّهم».

﴿وَحَدُوا إِلَيْهَا وَسَيَقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]، قوله: ﴿وَأَتَيْنَا شَهُودَ الْنَّاقَةَ مُبَصِّرَةً فَظَلَمُوا هُنَّا﴾ [الإسراء: ٥٩]، قول موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَارَبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَك﴾ [الإسراء: ١٠٢]، قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَتَيْتُهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَ هُرُونَ وَإِنْ فِي قَامَنْهُمْ لَيَكُنْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَ الظَّالِمِينَ يَعْلَمُونَ اللَّهَ يَعْلَمُهُمْ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضْلِلَ قَوْمًا بَعْدَ إِنْهَادِهِمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقَوْنَ﴾ [التوبية: ١١٥]، ونظائره كثيرة.

وعلى هذا التقدير فهو ضال عن سلوك طريق رشده، وهو يراها عياناً كما في الحديث: «أشد الناس عذاباً يوم القيمة عالم لم ينفعه الله بعلمه»<sup>(١)</sup>، فإن الفضال عن الطريق قد يكون متبعاً لهواه، عالم<sup>(٢)</sup> بأن الرشد والهدى في خلاف ما يعمل.

ولما كان الهدى هو معرفة الحق والعمل به، كان له ضدان: الجهل بالحق، وترك العمل به، فال الأول ضلال في العلم، والثاني ضلال في القصد والعمل.

فقد وقع قوله: ﴿عَلَىٰ عَلِيهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخْرَتْهُمْ عَلَىٰ عَلِيهِ﴾ [الدخان: ٣٢]، وفي قوله: ﴿وَأَضْلَلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عَلِيهِ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وفي قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا

(١) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٩٠)، والطبراني في «الصغير» (٥٠٧)، وابن عدي في «الكامل» (٢٦/٨) من حديث أبي هريرة، وفي إسناده عثمان البري؛ متهم شديد الضعف، انظر: «الميزان» (٣/٥٦).

(٢) كذا في «د» «م» بالرفع على الاستئناف.

أُوتِيَتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ》 [القصص: ٧٨]، فال الأول يرجع العلم فيه إلى الله سبحانه وتعالى قوله: **«وَأَنْشَأَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ»** أن يكون كال الأول، وهو قول عامة السلف، والثالث فيه قولان محتملان، وقد ذُكِر توجيهُهما، والله أعلم.

والمقصود ذكر مراتب القضاء والقدر علمًا، وكتابه، ومشيته، وخلقاً.



## البَابُ الْحَادِيُّ عَشِيرٌ

في ذكر المرتبة الثانية، وهي مرتبة الكتابة

وقد تقدم في أول الكتاب ما دلّ على ذلك من نصوص القرآن والسنة الصحيحة الصريحة، فنذكر هنا بعض ما لم نذكره.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الْأَزْبُورِ مِنْ بَيْدِ الْأَرْضِ رِئَاتٍ هَا عِبَادِيَ الْمَلِكُوْتِ إِنَّ فِي هَذَا الْبَلْغًا لِقَوْمٍ عَلَيْدِينَ﴾ [الأنياء: ١٠٥ - ١٠٦]، فالزبور هنا جميع الكتب المنزلة من السماء، لا تختص بزبور داود، والذكر ألم الكتاب الذي عند الله، والأرض هي الدنيا، وعباده الصالحون أمة محمد ﷺ، هذا أصح الأقوال في هذه الآية.

وهي علمٌ من أعلام نبوة رسول الله ﷺ، فإنه أخبر بذلك بمكة وأهل الأرض كلهم كفار أعداء له ولأصحابه، والمشركون قد أخرجوهم من ديارهم ومساكنهم وشتوهم في أطراف الأرض، فأخبرهم ربهم تبارك وتعالى أنه كتب في الذكر الأول أنهم يرثون الأرض من الكفار، ثم كتب ذلك في الكتب التي أنزلها على رسليه.

والكتاب الأول قد أطلق عليه الذكر في قول النبي ﷺ في الحديث المتفق على صحته: «كان الله ولم يكن شيءٌ غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء»<sup>(١)</sup>، وهذا هو الذكر الذي كُتب فيه أن الدنيا تصير لأمة محمد ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري وحده (٣٩١) من حديث عمران بن حصين.

والكتب المنزلة قد أطلق عليها الزبیر في قوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ  
قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحى إِلَيْهِمْ فَتَسْلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ»<sup>(١)</sup> **بِالْبَيِّنَاتِ وَالْزُّبُرِ**  
[النحل: ٤٣ - ٤٤]، أي: أرسلناهم بالأيات الواضحة، والكتب التي فيها  
الهدى والنور، والذكر ه هنا: الكتابان اللذان أنزلناهما قبل رسول الله ﷺ، وهما  
التوراة والإنجيل.

والذكر في قوله: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْذِكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ» [النحل:  
٤٤] هو القرآن، ففي هذه الآية علمه بما كان قبل كونه، وكتابته له بعد علمه.  
وقال تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نُحْكِي الْمَوْقِعَ وَنَحْكُمُ بِمَا قَدَّمُوا وَإِنَّ رَهْمَمْ وَكُلَّ شَيْءٍ  
أَحَصَبَنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ» [يس: ١٢]، فجمع بين الكتابين: الكتاب السابق  
لأعمالهم قبل وجودهم، والكتاب المقارن لأعمالهم.

فأنخبر سبحانه أنه يحييهم بعد ما أماتهم للبعث، ويجازيهم بأعمالهم،  
وبنـه بكتابته لها على ذلك.

قال مقاتل: «(نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا) من خير أو شر فعلوه في حياتهم،  
«وَإِنَّ رَهْمَمْ» ما سُنُوا من سُنة خير أو شر فاقتدي بهم فيها بعد موتهم»<sup>(١)</sup>.

وقال ابن عباس في رواية عطاء: ««وَإِنَّ رَهْمَمْ» ما أثروا من خير أو  
شر»<sup>(٢)</sup>. كقوله: «يُبَيِّنُ إِلَيْهِنَّ بِمِنْهَا قَمَّ وَأَخْرَ» [القيامة: ١٣].

فإإن قلت: فقد استفيد هذا من قوله: «مَا قَدَّمُوا»، مما أفاد قوله:  
**«وَإِنَّ رَهْمَمْ»** على قوله؟

(١) «تفسير مقاتل» (٣ / ٥٧٤).

(٢) نسبة إليه الواحدى في «البسيط» (١٨ / ٤٦٠).

قلت: أفاد فائدة جليلة، وهو أنه سبحانه يكتب ما عملوه، وما تولد من أعمالهم، فيكون المولود عنها كأنهم عملوه في الخير والشر، وهو أثر أعمالهم<sup>(١)</sup>، فآثارهم هي آثار أعمالهم المولدة عنها، وهذا القول أعم من قول مقاتل، وكأن مقاتلاً أراد التمثيل والبيان على عادة السلف في تفسير اللفظة العامة بنوع أو فرد من أفراد مدلولها تقريراً وتمثيلاً، لا حضراً وإحاطة.

وقال أنس وابن عباس في رواية عكرمة: نزلت هذه الآية فيبني سلِّمة، فأرادوا أن يتقلوا إلى قرب المسجد، وكانت منازلهم بعيدة، فلما نزلت قالوا: بل نمكث مكاننا<sup>(٢)</sup>.

واحتاج أرباب هذا القول بما في «صحيح البخاري»<sup>(٣)</sup> من حديث أبي سعيد الخدري قال: كانت بني سلِّمة في ناحية المدينة، فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّا نَخْرُجُ شَعْبَ الْمَوْتَىٰ وَنَسْعَىٰ مَآقَدَ مُوْلَوْهُمْ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «يا بني سلِّمة، دياركم تُكتب آثاركم».

(١) من قوله: «فيكون المولود» إلى هنا ساقط من «د» انتقال نظر.

(٢) رواية عكرمة عن ابن عباس أخرجهها ابن ماجه (٧٨٥)، وابن جرير (٤١٠ / ١٩) بإسناد جيد، ولم أقف على قول أنس مستنداً، والفقرة بحروفها في «البسيط» (٤٦٠ / ١٨).

وأخرجه عن أنس دون التصريح بسبب التزول البخاري (٦٥٦).

(٣) كذا عزاه إلى «الصحيح» من حديث أبي سعيد سهواً، وهو فيه من حديث أنس - وسيأتي - وحديث أبي سعيد أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٩٨٢)، والترمذي (٣٢٢٦) وقال: «هذا حديث حسن غريب من حديث الثوري»، وفي إسناده طريف السعدي ضعيف، وقد أحاطا فيه، انظر: «فتح الباري» لابن رجب (٦ / ٢٩).

وقد روی مسلم نحوه من حديث جابر وأنس<sup>(١)</sup>.

وفي هذا القول نظر؛ فإن سورة «يس» مكية، وقصةبني سلمة بالمدينة، إلا أن يقال: هذه الآية وحدها مدنية.

وأحسن من هذا أن تكون ذُكِرت عند هذه القصة ودَلَلت عليها، وذُكِرَوا بها عندها، إما من النبي ﷺ أو من جبريل عليه السلام، فأطلق على ذلك: التزول، ولعل هذا مراد من قال في نظائر ذلك: نزلت مرتين.

والملخص: أن خطأهم إلى المساجد من آثارهم التي يكتبها الله لهم.

قال عمر بن عبد العزيز: «لو كان الله سبحانه تاركاً لابن آدم شيئاً لترك له ما عفت عليه الرياح من أثره»<sup>(٢)</sup>.

وقال مسروق: «ما خطأ رجل خطوة إلا كُبِّيت حسنة أو سيئة».

والملخص أن قوله تعالى: «وَكُلَّ شَيْءٍ أَخْصَبَنَا فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ»<sup>(٣)</sup> وهو اللوح المحفوظ، وهو أُمُّ الكتاب، وهو الذكر الذي كتب فيه كل شيء، يتضمن كتابة أعمال العباد قبل أن يعملوها، والإحصاء في الكتاب يتضمن علمه بها، وحفظه لها، والإحاطة بقدرها<sup>(٤)</sup>، وإثباتها فيه.

وقال تعالى: «وَمَا مِنْ دَآبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمُّ أَمْمٍ أَنْتَ الْكَمَّا

(١) أخرجه مسلم (٦٦٥) من حديث جابر، وحديث أنس انفرد به البخاري (٦٥٦) وليس فيه التصریح بسبب التزول.

(٢) أخرجه وتالیه عبد الرزاق في «التفسیر» (٣/١٤٠).

(٣) «م»: «بعدهما».

**فَرَطَنَافِ الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحَشِّرُونَ** ﴿الأنعام: ٢٨﴾، وقد اختلف في الكتاب هنا: هل هو القرآن أو اللوح المحفوظ؟ على قولين:

قال طائفة: المراد به القرآن، قالوا: وهذا من العام المراد به الخاص، أي: ما فرطنا فيه من شيء يحتاجون إلى ذكره وبيانه، كقوله: **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ** ﴿النحل: ٨٩﴾.

ويجوز أن يكون من العام المراد عمومه، والمراد أن كل شيء ذُكر فيه مجملًا ومفصلاً، كما قال ابن مسعود - وقد لعن الواصلة والمستوصلة -: ما لي لا أعن من لعنه الله في كتابه؟ فقالت امرأة: لقد قرأت القرآن فما وجده. فقال: إن كنت قرأتيه فقد وجديته، قال تعالى: **وَمَآءَاتَكُمْ رَسُولٌ فَخُدُودُهُ وَمَا نَهَنَكُمْ عَنْهُ فَاتَّهُوا** ﴿الحشر: ٧﴾ ولعن الله عليه السلام الواصلة والمستوصلة <sup>(١)</sup>.

وقال الشافعي: «ما تنزل بأحد من المسلمين نازلة إلا وفي كتاب الله سبيل الدلالة عليها» <sup>(٢)</sup>.

وقال طائفة: المراد بالكتاب في الآية اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل شيء. وهذا إحدى الروايتين عن ابن عباس <sup>(٣)</sup>.

(١) أخرجه أحمد (٣٩٤٥)، والبخاري (٤٨٨٦)، ومسلم (٢١٢٥).  
وهذه الفقرة وسابقتها مقتبسة من «البسيط» (١١٨/٨) وسياقه أوضح.

(٢) «الرسالة» (٢٠) بتصرف.

(٣) أخرجه الطبراني (١١/٣٤٥)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٧٢٥٩).

وكان هذا القول أظهر في الآية، والسياق يدل عليه، فإنه قال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَلْرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحِيهِ إِلَّا أُمُّ أَمَّا لَكُمْ﴾، وهذا يتضمن أنها أمم أمثالنا في الخلق والرزق والأجل والتقدير الأول، وأنها لم تخلق سدى، بل هي معبدة مذللة، قد قدر خلقها وأجلها ورزقها وما تصير إليه، ثم ذكر عاقبتها ومصيرها بعد فنائها، فقال: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ فذكر مبدأها ونهايتها، وأدخل بين هاتين الحالتين قوله: ﴿مَا فَرَّطَ نَافِذُ الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾، أي: كلها قد كُتِبَتْ وقُدِّرَتْ وأُخْصِيَتْ قبل أن توجد، فلا يناسب هذا ذكر كتاب الأمر والنهي، وإنما يناسب ذكر الكتاب الأول.

ولمن نصر القول الأول أن يجيب عن هذا بأن في ذكر القرآن هنا الإخبار عن تضمنه لذكر ذلك والإخبار به، فلم يفرط فيه من شيء، بل أخبرناكم بكل ما كان، وما هو كائن إجمالاً وتفصيلاً.

ويرجحه أمر آخر، وهو أن هذا ذكر عقيب قوله: ﴿وَقَالُوا تَوَلَّ إِلَيْهِمْ  
إِيمَانُهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْزِلَ إِيمَانَهُ  
وَلَا يَكُنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧]، فنبههم على أعظم الآيات وأدلها على صدق رسوله، وهو الكتاب الذي يتضمن تبيان كل شيء، ولم يفرط فيه من شيء، ثم نبههم بأنهم أمم من جملة الأمم التي في السموات والأرض، وهذا يتضمن التعريف بوجود الخالق سبحانه، وكمال قدرته وعلمه، وسعة ملكه، وكثرة جنوده، والأمم التي لا يخصيها غيره، وهذا يتضمن أنه لا إله غيره، ولا رب سواه، وأنه رب العالمين، فهذا دليل على وحدانيته وصفات كماله من جهة خلقه وقدره، وإنزال الكتاب الذي لم يفرط فيه من شيء دليل من جهة أمره وكلامه، فهذا

استدلال بأمره وذاك بخلقه، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارِكُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ويشهد لهذا أيضا قوله: «وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ إِيتٌ مِّنْ رَّبِّهِ فَلَمْ يَأْتِ إِنَّمَا أَلَّا يَأْتِ إِنَّمَا أَنَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ أَوْ لَمْ يَكُنْ فَهُمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُشَارِكُ أَعْلَمُهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لِرَحْمَةً وَذِكْرًا لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٠ - ٥١].

ولمن نصر أن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ أن يقول: لما سألهوا الآية أخبرهم سبحانه بأنه لم يترك إنزالها لعدم قدرته على ذلك، فإنه قادر على ذلك، وإنما لم ينزلها لحكمته ورحمته بهم، وإحسانه إليهم؛ إذ لو أنزلها على وفق اقتراحهم لعوجلوا بالعقوبة إن لم يؤمنوا.

ثم ذكر ما يدل على كمال قدرته بخلق الأمم العظيمة التي لا يحصي عددها إلا هو، فمن قدر على خلق هذه الأمم مع اختلاف أجناسها وأنواعها وصفاتها وهباتها؛ كيف يعجز عن إنزال آية؟

ثم أخبر عن كمال قدرته وعلمه بأن هؤلاء الأمم قد أحصاهم، وكتبهم، وقدر أرزاقهم وأجالهم وأحوالهم في كتاب لم يفرط فيه من شيء، ثم يحيط بهم، ثم يحضرهم إليه.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ (١) صُمُّوْرٌ كُوْكُوفُ الظُّلْمَمِتْ [الأنعام: ٣٩]، عن النظر والاعتبار الذي يؤديهم إلى معرفة ربوبيته ووحدانيته وصدق رسالته.

ثم أخبر أن الآيات لا تستقل بالهدى؛ ولو أنزلها على وفق اقتراح البشر،

---

(١) «د» «م»: «بابياته».

بل الأمر كله له، ﴿مَن يَشَاءُ اللَّهُ يُصْبِلُهُ وَمَن يَشَاءُ جَعَلَهُ عَلَى صَرْطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، فهذا أظهر القولين، والله أعلم.

وقال تعالى: «حَمٌ وَالْكَيْتَبُ الْمُبِينُ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ وَفِي أُمِّ الْكَيْتَبِ لِدِينِ النَّعْلَى حَكِيمٌ» [الزخرف: ٤-١٤]، قال ابن عباس: «في اللوح المحفوظ الذي عندنا»<sup>(١)</sup>.

قال مقاتل: «يقول: إن نسخته في أصل الكتاب، وهو اللوح المحفوظ»<sup>(٢)</sup>.

وأم الكتاب: أصل الكتاب، وأم كل شيء: أصله.

والقرآن كتبه الله في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض، كما قال تعالى: «بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّحْيَيٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ» [البروج: ٢١-٢٢].

وأجمع الصحابة والتابعون وجميع أهل السنة والحديث أن كل كائن إلى يوم القيمة فهو مكتوب في أم الكتاب.

وقد دل القرآن على أن رب تبارك وتعالى كتب في أم الكتاب ما يفعله وما يقوله، فكتب في اللوح فعاله وكلامه، فـ«تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ» في اللوح المحفوظ قبل وجود أبي لهب.

وقوله: «لَدِينَاتِ» يجوز فيه أن تكون من صلة «أُمِّ الْكَيْتَبِ»، أي: أنه

(١) أخرجه بنحوه ابن جرير (٤٧/٥٤)، وانظر: «الوسط» للواحدي (٤/٦٣).

(٢) «تفسير مقاتل» (٣/٧٨٩).

في ألم الكتاب الذي عندنا، وهذا اختيار ابن عباس<sup>(١)</sup>.

ويجوز أن يكون من صلة الخبر: أنه على حكيم عندنا، ليس هو كما عند المكذبين به، أي: وإن كذبتم به وكفرتم فهو عندنا في غاية الارتفاع والشرف والإحکام.

وقال تعالى: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْرَأَيْتَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَبَ بِغَايَتِهِ أُولَئِكَ بَنَاهُ هُنَّ تَصِيبُهُمْ مِنَ الْكَذِبِ» [الأعراف: ٣٧]، قال سعيد بن جبير ومجاحد وعطيه: أي ما سبق لهم في الكتاب من الشقاوة والسعادة، ثم قرأ عطيه: «فِي يَقَادِي وَقَرِيقًا حَقًّا عَلَيْهِمُ الضَّلَالُ» [مود: ٣٠]<sup>(٢)</sup>.

والمعنى أن هؤلاء أدرکهم ما كُتب لهم من الشقاوة، وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء، قال: «يريد ما سبق عليهم في علمي في اللوح المحفوظ»<sup>(٣)</sup>.

فالكتاب على هذا القول الكتاب الأول، ونصيبهم ما كُتب لهم فيه من الشقاوة وأسبابها.

وقال ابن زيد والقرظي والربيع بن أنس: ينالهم ما كُتب لهم من الأرزاق والأعمال والأعمار، فإذا فني نصيبيهم واستكملوه جاءتهم رسالنا يتوفونهم<sup>(٤)</sup>.

(١) تقدم تخریجه قریباً.

(٢) أسندها الطبری (١٦٩-١٧٠/١٠)، وانظر: «البسیط» (٩/١١٥).

(٣) نسبها إليه في «البسیط» (٩/١١٥).

(٤) أسندها الطبری (١٧٤-١٧٥/١٠)، وانظر: «البسیط» (٩/١١٦).

ورجح بعضهم هذا القول، لمكان «حتى» التي هي للغاية، يعني: أنهم يستوفون أرزاقهم وأعمارهم إلى الموت.

ولمن نصر القول الأول أن يقول: «حتى» في هذا الموضع هي التي تدخل على الجمل، وينصرف الكلام فيها إلى الابتداء كـ«أما»، كقوله:

فيما عجبًا حتى كليب تسبني<sup>(١)</sup>

والصحيح أن نصيهم من الكتاب يتناول الأمرين، فهو نصيهم من الشقاوة، ونصيهم من الأعمال التي هي أسبابها، ونصيهم من الأعمار التي هي مدة اكتسابها، ونصيهم من الأرزاق التي استعنوا بها على ذلك، فعمّت الآية هذا النصيب كلّه، وذكر هؤلاء بعضه، وهؤلاء بعضاً.

هذا على القول الصحيح، وأن المراد بالكتاب ما سبق لهم في أم الكتاب.

وقالت طائفه: المراد بالكتاب القرآن.

قال الزجاج: «معنى ﴿نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَبِ﴾: ما أخبر الله عز وجل من جزائهم، نحو قوله: ﴿فَإِنَّرَبِيعَكُلُّ كَارَاتَأَطَلَى﴾ [الليل: ١٤]، قوله: ﴿نَسْلُكُهُ عَدَابًا صَعَدَا﴾ [الجن: ١٧]، ونظائره»<sup>(٢)</sup>.

قال أرباب هذا القول: وهذا هو الظاهر؛ لأنّه ذكر عذابهم في القرآن في مواضع، ثم أخبر أنه ينالهم نصيّهم منه.

(١) صدر بيت للفرزدق، انظر: «الديوان» بشرح الفاعور (٣٦١).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٢/ ٣٣٤).

والصحيح القول الأول، وهو نصيبهم الذي كُتب لهم أن ينالوه قبل أن يخلقوا، ولهذا القول وجه حسن، وهو أن نصيب المؤمنين منه الرحمة والسعادة، ونصيب هؤلاء منه العذاب والشقاء، فنصيب كل فريق منه ما اختاروه لأنفسهم، وآثروه على غيره. كما أن حظَّ المؤمنين منه كان الهدى والرحمة، فحظ هؤلاء منه الضلال والخيبة، فكان حظهم من هذه النعمة أن صارت نعمة وحسرة عليهم.

و قريب من هذا قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُنْكُنْبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]، أي: تجعلون حظكم من هذا الرزق الذي به حياتكم التكذيب به.

قال الحسن: «تجعلون حظكم ونصيبيكم من القرآن أنكم تكذبون»، قال: «و خسر عبد لا يكون حظه من كتاب الله إلا التكذيب به»<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الْأَنْزِيرِ﴾ [القرآن: ٥٢]، قال عطاء ومقاتل: «كل شيء فعلوه مكتوب عليهم في اللوح المحفوظ»<sup>(٢)</sup>.

وروى حماد بن زيد، عن داود بن أبي هند، عن الشعبي: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الْأَنْزِيرِ﴾ قال: «كُتب عليهم قبل أن يعملاه»<sup>(٣)</sup>.

وقالت طائفة: المعنى أنه مُحصى عليهم في كتب أعمالهم.

و جمع أبو إسحاق بين القولين، فقال: «مكتوب عليهم قبل أن يفعلوه».

(١) عزاهما إليه في «البسيط» (٢١/٢٥٦)، وأسند الثاني منهم عبد الرزاق في «التفسير» (٣٧٢/٢٢)، وابن جرير (٢٧٣/٣).

(٢) عزاه إلى عطاء في «البسيط» (٢١/١٢٧)، وانظر: «تفسير مقاتل» (٤/١٨٥).

(٣) أورده بهذا السياق ابن عبد البر في «التمهيد» (٣/١٣٩).

ومكتوب لهم وعليهم إذا فعلوه للجزاء»<sup>(١)</sup>، وهذا أصح. وبإله التوفيق.

وفي «الصحيحين»<sup>(٢)</sup> من حديث ابن عباس قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللَّمَّم مما قال أبو هريرة: إن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة: فزنا العينين النَّظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تمنَّى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه».

وفي «الصحيحين»<sup>(٣)</sup> أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كُتِبَ على ابن آدم نصيبه من الزنا، مدركُ ذلك لا محالة: فالعينان زناهما النَّظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطأ، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق الفرج ذلك كلَّه ويكذبه».

وفي «صحيح البخاري»<sup>(٤)</sup> وغيره عن عمران بن حصين قال: دخلت على النبي ﷺ وعلقت ناقتي بالباب، فأناه ناس من بنبي تميم فقال: «اقبلوا البشرى يا بنى تميم»، قالوا: قد بشرتنا فأعطينا - مرتين - ثم دخل عليه ناس من اليمن، فقال: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن، إذ<sup>(٥)</sup> لم يقبلها بنو تميم». قالوا: قد قبِلنا يا رسول الله. قالوا: جئنا لنسألك عن هذا الأمر؟ قال: «كان الله

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٩٢ / ٥).

(٢) «البخاري» (٦٢٤٣)، و«مسلم» (٢٦٥٧) والله لفظ له.

(٣) «مسلم» (٢٦٥٧)، وعلق إسناده البخاري دون متن عقب الحديث (٦٦١٢)، وانظر: «تغليق التعليق» (١٩١ / ٥).

(٤) تقدم تخريرجه في (١٣٤).

(٥) بداية نسخة «ج».

ولم يكن شيءٌ غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض». فنادى منادٍ: ذهبت ناقتك يا ابن الحسين، فانطلقت، فإذا هي ينقطع دونها السراب، فوالله لو ددت أني كنت تركتها.

فالرب سبحانه وتعالى كتب ما يقوله وما يفعله، وما يكون بقوله و فعله، وكتب مقتضي أسمائه وصفاته وأثارها، كما في «الصحيحين»<sup>(١)</sup> من حديث أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلت غضبي».



---

(١) «البخاري» (٣١٩٤)، و«مسلم» (٢٧٥١).

## البَابُ الثَّالِثُ عَشْرُهُ

في ذكر المرتبة الثالثة من مراتب القضاء والقدر،

وهي مرتبة المشيئة

وهذه المرتبة قد دلّ عليها إجماعُ الرسل من أولهم إلى آخرهم، وجميع الكتب المترفة من عند الله، والقطرةُ التي فَطَرَ عليها خلقه، وأدلةُ العقول<sup>(١)</sup> والعيان.

وليس في الوجود موجبٌ ومقتضٍ على الحقيقة إلا مشيئة الله وحده، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، هذا عمودُ التوحيد الذي لا يقوم إلا به، والمسلمون من أولهم إلى آخرهم مجمعون على أنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

وخالفهم في ذلك من ليس منهم في هذا الموضع، وإن كان منهم في موضع آخر، فجوزوا أن يكون في الوجود ما لا يشاء الله، وأن يشاء ما لا يكون.

وخالفَ الرسَلَ كُلَّهُمْ وأتَيَّاعَهُم مَنْ نَفَى مشيئةَ الله بالكلية، ولم يثبت له سبحانه مشيئةً واختياراً أوجد بها الخلق، كما يقوله طوائف من أعداء الرسل من الفلاسفة وأتباعهم.

والقرآن والسنة مملوءان بتکذيب الطائفتين، كقوله تعالى: «وَلَوْ شَاءَ

---

(١) «م»: «المعقول».

اللهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ يَعْدُ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنُتُ وَلَكِنَّ أَخْتَلَفُ أَهْنَمُهُمْ مَنْ أَمْنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعُلُ مَا يُرِيدُ» [البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالى: «كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعُلُ مَا يَشَاءُ» [آل عمران: ٤٠]، وقال: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا لِشَيْطَنٍ إِلَّا إِنَّ اللَّهَ يُوحِي بِعَصْمَهُمْ إِلَى بَعْضِ رُحْرُقَ الْقَوْلِ عُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَدَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ» [الأنعام: ١١٢]، وقال: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَا مَنْ مِنَ الْأَرْضِ لَمْهُمْ جَمِيعًا» [يوسوس: ٩٩]، وقال: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَحْدَةً» [هود: ١١٨]، وقال: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى شَاءَ رَبُّكَ وَلَمْ يَجِدُوا لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَحْدَةً» [الأنعام: ٣٥]، وقال: «وَلَوْ شَتَّنَا الْأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَنَهَا» [السجدة: ١٣]، وقال: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَا تَنْتَصِرُ مِنْهُمْ» [محمد: ٤]، وقال: «وَلَمْ يَشْتَنَنَا لَنْذَهَنَنَا بِاللَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ» [الإسراء: ٨٦]، وقال: «فَإِنْ يَشَاءُ اللَّهُ يَخْتَرُ عَلَى قَلْبِكَ» [الشورى: ٢٤]، وقال: «إِنْ يَشَاءُ إِنْ هُبَكُمْ إِلَيْهَا النَّاسُ وَيَأْتُ إِلَيْهَا بِغَارِبِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا» [النساء: ١٣٣]، وقال: «لَا تَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ حَرَامًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَعِينًا» [الفتح: ٢٧].

وقال عن نوح إنه قال لقومه: «إِنَّمَا يَأْتِي كُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ» [هود: ٢٣]، وقال إمام الحنفاء وأبو الأنبياء لقومه: «وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسَمَّ رَبِّي كُلَّ شَيْئًا عِلْمًا» [الأنعام: ٨٠]، وقال الذبيح له: «سَتَرِحُدُ فِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّدِيرِينَ» [الصفات: ١٠٢]، وقال خطيب الأنبياء شعيب: «وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُوذُ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسَعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْئًا عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلَنَا» [الأعراف: ٨٩]، وقال الصديق الكرييم ابن الكرييم: «أَذْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَعِينًا» [يوسف: ٩٩]، وقال حمو موسى: «وَمَا

أَرِيدُ أَنْ أَشْقَى عَلَيْكَ سَتَّ جِدُونَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الظَّالِمِينَ» [القصص: ٢٧]،  
وقال كليم الرحمن للخضر: «سَتَّ جِدُونَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا» [الكهف: ٦٩]،  
وقال قوم موسى له: «وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمْ يَهْتَدُونَ» [البقرة: ٧٠]، وقال لسيد ولد  
آدم وأكرمه عليه صلوات الله وسلامه عليه: «وَلَا نَقُولَنَّ إِشَائِيَّةً إِنِّي فَاعْلُمْ ذَلِكَ  
غَدًا» <sup>(١)</sup> إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ» [الكهف: ٢٣ - ٢٤]، وقال: «قُلْ لَا أَمِلُّ لِنَفْسِي صَرَّأَ وَلَا  
نَفَعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ» [يونس: ٤٩]، وقال: «سَنَقِرِّيْكَ فَلَا تَسْتَحِيْ <sup>(٢)</sup> إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ»  
[الأعلى: ٦٢ - ٦٧]، وقال عن أهل الجنة: «خَلِيلِيْنَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ  
وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ» [موعد: ١٠٨] وعن أهل النار كذلك؛ ليبين أن الأمر  
راجعاً إلى مشيتهم، ولو شاء لكان غير ذلك.

وقال: «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَاءُ يَرْحَمُكُمْ أَوْ إِنْ يَشَاءُ يَعْذِبُكُمْ» [الإسراء:  
٥٤]، وقال: «يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَعْذِبُ مَنْ يَشَاءُ» [آل عمران: ١٢٩]، وقال: «إِنَّ  
رَبَّكَ يَسْطُطُ أَرْزَقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَعْدُلُ» [الإسراء: ٣٠]، وقال: «وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الْرِزْقَ  
لِعِبَادِهِ لَتَغْرِيْفِ الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدْرِ مَا يَشَاءُ» [الشورى: ٢٧]، وقال: «يَمْحُوا  
اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ» [الرعد: ٣٩]، وقال: «مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضْلِلُهُ وَمَنْ يَشَاءُ يَجْعَلُهُ  
عَلَى صَرَاطِ مُسْتَقِيمٍ» [الأنعام: ٣٩]، وقال: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يُسَانِ  
قَوْمِهِ» [لِيُبَيِّنَ لَهُمْ] <sup>(١)</sup> فَيُضْلِلُ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ  
أَعْزَىُ الْحَكَمِ» [إبراهيم: ٤]، وقال: «وَيُضْلِلُ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا  
يَشَاءُ» [إبراهيم: ٢٧]، وقال: «وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ وُرَا نَهَدِي بِهِ مَنْ نَشَاءَ مِنْ عَبْدِنَا»

(١) قوله تعالى: «لِيُبَيِّنَ لَهُمْ» ساقط من «د» «م»، وألحقتها في حاشية «ج» مصححاً.

[[الشوري: ٥٢]], وقال: «قُل لِّهُ الْمَسْرُقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطِ  
مُسْتَقِيمٍ» [[البقرة: ١٤٢]], وقال: «فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ أَمْوَالُهُمْ  
أَخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ  
الْحَقِيقَةِ بِإِذْنِهِ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطِ  
مُسْتَقِيمٍ» [[البقرة: ٢١٣]], وقال: «قُل  
لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَوَوَّلُهُ، وَعَيْنَكُمْ وَلَا أَذْرَنَكُمْ بِهِ» [[يونس: ١٦]], وقال: «لَمْ  
حَلِقُوكُمْ وَشَدَّدَنَا أَسْرَهُرُكُمْ وَإِذَا شَيَّنَا بَدَلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبَدِيلًا» [[الإنسان: ٢٨]],  
وقال: «وَمَا يَذَكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ» [[المدثر: ٥٦]], وفي الآية الأخرى: «وَمَا يَشَاءُونَ  
إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ» [[الإنسان: ٣٠]], فأخبر أن مشيتهم وفعلهم موقوفان<sup>(١)</sup> على  
مشيتيه لهم هذا وهذا.

وقال تعالى: «قُلْ اللَّهُمَّ مَنْ لِكَ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مَمَّنْ  
تَشَاءُ وَتُعْزِّزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذْلِّلُ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [[آل عمران:  
٢٦]], وقال: «وَاللَّهُ يَدْعُوكُمْ إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطِ  
مُسْتَقِيمٍ» [[يونس: ٢٥]], وقال: «وَيَعِدُّ بِالْمُنْتَفِقِينَ إِن شَاءَ أُوتُوهُمْ عَلَيْهِمْ» [[الأحزاب: ٢٤]].

وقوله: «يَخْصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ» [[آل عمران: ٧٤]], قوله: «وَلَكِنَّ اللَّهَ  
يُنْكِي مَن يَشَاءُ» [[النور: ٢١]], قوله: «وَاللَّهُ يُضَعِّفُ لِمَن يَشَاءُ» [[البقرة: ٢٦١]],  
قوله: «نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن يَشَاءُ» [[يوسف: ٥٦]], قوله: «تَرَقَّ دَرَجَتٍ مَّن  
يَشَاءُ» [[الأنعام: ٨٣]], قوله: «ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ» [[الجمعة: ٤]],  
قوله: «وَلَكِنَّ اللَّهَ يَعْنُ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ» [[إِبراهيم: ١١]], قوله:  
«فَنُجِيَ مَن يَشَاءُ» [[يوسف: ١١٠]], قوله: «فَيَبْسُطُهُ وَفِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ»

(١) «موقوفان» ساقطة من «د»، واستدرك موضعها الناسخ بلحق لم أتمكن من قراءته.

«الروم: ٤٨»، قوله: «إِنَّ رَبِّ لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ» [يوسف: ١٠٠]، قوله: «يُؤْتِي  
 الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ» [البقرة: ٢٦٩]، قوله: «وَلَوْ شَاءَ أَطْمَسَ عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ»  
 [يس: ٦٦]، قوله: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِ وَأَبْصَرَهُ» [البقرة: ٢٠]، قوله:  
 «إِنِّي شَاشِيْكَنَ الرِّيحَ» [الشوري: ٣٣]، قوله: «وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَاهُ حُطْلَمَا»  
 [الواقعة: ٦٥]، «وَلَوْ شَاءَ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا» [الواقعة: ٧٠]، قوله: «فَسَوْفَ يُعْنِيْكُمْ  
 اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ مَا إِنْ شَاءُ» [التوبية: ٢٨]، قوله: «إِنِّي شَاشِيْدِهِ كُنْ  
 وَيَسْتَخِلْفُ مِنْ بَعْدِ كُمَّا يَشَاءُ» [الأنعام: ١٣٣]، قوله: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ  
 لَأَعْنَتَكُمْ» [البقرة: ٢٢٠]، قوله: «اللَّهُ يُحَمِّلُ إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ» [الشوري: ١٣]،  
 قوله عن كليمه موسى أنه قال: «إِنَّهُ لِإِلَّا فِتْنَتُكَ تُضْلِلُ بِهَا مَنْ شَاءَ وَتَهْدِي مَنْ  
 شَاءَ» [الأعراف: ١٥٥].

وهذه الآيات ونحوها تتضمن الرد على طائفتي الضلال: نفاة المشيئة  
 بالكلية، ونفاة مشيئة أفعال العباد وحركاتهم وهداهم وضلالهم.

وهو سبحانه تارة يخبر أن كل ما في الكون بمشيئته، وتارة أن ماله يشا-  
 لم يكن، وتارة أنه لو شاء لكان خلاف الواقع، وأنه لو شاء لكان خلاف  
 المقدر<sup>(١)</sup> الذي قدره وكتبه، وأنه لو شاء لما عصي، وأنه لو شاء لجمع خلقه  
 على الهدى وجعلهم أمة واحدة، فتضمن ذلك أن الواقع بمشيئته، وأن ماله  
 يقع فهو لعدم مشيئته.

وهذا حقيقة الربوبية، وهو معنى كونه رب العالمين، وكونه القيوم القائم

(١) «م» «ج»: «القدر»، والمثبت من «د».

بتديير عباده، فلا خلق، ولا رزق، ولا عطاء، ولا منع، ولا قبض، ولا بسط، ولا موت، ولا حياة، ولا إضلal، ولا هدى، ولا سعادة، ولا شقاوة، إلا من بعد إذنه، وكل ذلك بمشيئته وتكوينه؛ إذ لا مالك غيره، ولا مدبر سواه، ولا رب غيره.

قال تعالى: «وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ» [القصص: ٦٨]، وقال: «وَنُقْرِفُ الْأَرْحَامِ مَا شَاءَ» [الحج: ٥]، وقال: «فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَبُّكَ» [الانفطار: ٨]، وقال: «لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهْبِطُ لِمَنْ يَشَاءُ إِذَا فَرَأَهُ وَيَهْبِطُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ⑤ أَوْ يُرِقُّ جُهُمَّدَ كَمَا نَحْنُ أَنَا وَإِنَّا هُوَ الَّذِي جَعَلَ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا» [الشورى: ٤٩ - ٥٠]، وقال: «يَهْدِي اللَّهُ لِنُورٍ وَمَنْ يَشَاءُ» [النور: ٣٥].

وقد تقدم<sup>(١)</sup> من حديث حذيفة بن أسيد في «صحيحة مسلم» في شأن الجنين: «فيقضي ربك ما يشاء، ويكتب الملك».

وفي «الصحابيين»<sup>(٢)</sup> من حديث أبي موسى، عن النبي ﷺ: «اشفعوا تؤجروا، ويقضى الله على لسان نبيه ما شاء».

وفي «صحيحة البخاري»<sup>(٣)</sup> من حديث علي بن أبي طالب، حين طرقه النبي ﷺ وفاطمة ليلاً فقال: «ألا تصليان؟» فقال علي: إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثها بعثها.

(١) في (٦٤).

(٢) «البخاري» (١٤٣٢) واللفظ له، «مسلم» (٢٦٢٧).

(٣) تقدم تخرجه في (٥٩).

وفي «صحيحه»<sup>(١)</sup> أيضاً في قصة نومهم في الوادي عنه ﷺ: «إن الله قبض أرواحكم حين شاء، وردها حين شاء».

وفي حديث ابن مسعود الذي في «المسند»<sup>(٢)</sup> وغيره في قصة رجوعهم من الحديبية، ونومهم عن صلاة الصبح، فقال النبي ﷺ: «إن الله لو شاء لم تناموا عنها، ولكن أراد أن تكون لمن بعدهم، فهكذا المن نام ونسى»، وفي لفظ آخر: «إن الله سبحانه لو شاء أيقظنا، ولكنه أراد أن يكون لمن بعدهم»<sup>(٣)</sup>.

وفي «مسند الإمام أحمد»<sup>(٤)</sup> عن طُفِيل بن سَخْبَرَةِ أَخِي عَاشَةَ لِأَمِّهَا أَنَّه رأى فيما يرى النائم كأنه مَرَّ بِرَهْطَ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ الْيَهُودُ. قَالَ: إِنْكُمْ أَنْتُمُ الْقَوْمَ، لَوْلَا أَنْكُمْ تَرْعُمُونَ أَنَّ عَزِيزًا ابْنَ اللَّهِ، فَقَالَتِ الْيَهُودُ: وَأَنْتُمُ الْقَوْمُ، لَوْلَا أَنْكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ. ثُمَّ مَرَّ بِرَهْطَ مِنَ النَّصَارَىِ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ النَّصَارَىِ. قَالَ: إِنْكُمْ أَنْتُمُ الْقَوْمَ، لَوْلَا أَنْكُمْ تَقُولُونَ: مَسِيحًا ابْنَ اللَّهِ، قَالُوا: وَأَنْتُمُ الْقَوْمُ، لَوْلَا أَنْكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ. فَلَمَّا أَصْبَحَ أَخْبَرَهَا مِنْ أَخْبَرِهِ، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ.

(١) تقدم تخریجه في (٦٠).

(٢) برقم (٣٧١٠)، وأخرجه ابن ماجه (٢١١٨)، والطیالسي (٣٧٧)، والنسائي في «الكبرى» (٨٨٥٤)، والبیهقی في «الكبرى» (٣١٨٢) واللفظ له، وفي إسناده عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي اختلط بأخرة، وللحديث شواهد تقویه.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ البیهقی في «الأسماء والصفات» (٢٩٠).

(٤) برقم (٢٠٦٩٤)، وأخرجه ابن أبي عاصم في «الأحاديث المثانى» (٢٧٤٣)، والبیهقی في «الأسماء والصفات» (٢٩٢)، وصححه الحاکم (٥٩٤٥).

قال: «هل أخبرت أحداً؟» قال: نعم، فلما صلوا خطبهم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إن طفيلاً رأي رؤيا، فأخبر بها من أخبر منكم، وإنكم تقولون كلمةً كان يمنعني الحياةً منكم<sup>(١)</sup> - زاد البيهقي: - فلا تقولوها، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده، لا شريك له».

وروى جعفر بن عون، عن الأجلح، عن يزيد بن الأصم، عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فكلمه في بعض الأمر، فقال الرجل لرسول الله ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال رسول الله ﷺ: «أجعلتني الله عدلاً؟! بل ما شاء الله وحده»<sup>(٢)</sup>.

وروى شعبة، عن منصور، عن عبد الله بن يسار، عن حذيفة، عن النبي ﷺ قال: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان: ولكن قولوا: ما شاء الله، ثم شاء فلان»<sup>(٣)</sup>.

قال الشافعي - في رواية الربيع عنه - : «المشيئة إرادة الله، قال الله عزوجل: «وَمَا يَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ» [الإنسان: ٣٠]، فأعلم الله خلقه أن المشيئة له دون خلقه، وأن مشيئتهم لا تكون إلا أن يشاء الله، فيقال لرسول الله ﷺ: ما شاء الله ثم شئت، ولا يقال: ما شاء الله وشئت. قال: ويقال: من

(١) تكملة الخبر: «أن أنهاكم عنها».

(٢) أخرجه من هذا الوجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٩٣)، ورواه أحمد (١٨٣٩)، والنسياني في «الكبرى» (١٠٧٥٩)، وابن ماجه (٢١١٧) بنحوه، بأسناد لا يأس به.

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٢٦٥)، وأبو داود (٤٩٨٠)، والنسياني في «الكبرى» (١٠٧٥٥) بأسناد صحيح.

يطبع الله ورسوله، فإن الله تعبَّدَ العباد بأن فرض عليهم طاعة رسوله، فإذا  
أطيع رسول الله ﷺ فقد أطيع الله بطاعة رسوله»<sup>(١)</sup>.

وفي «صحيح مسلم»<sup>(٢)</sup> من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ:  
«قلوب العباد بين أصابع الرحمن، كقلب واحد يصرُّفها كيف  
يشاء»، ثم قال رسول الله ﷺ: «يا مصرف القلوب، صرِّفْ قلوبنا على  
طاعتك».

وفي حديث النواس بن سمعان، سمعت النبي ﷺ يقول: «ما من قلب  
إلا بين أصابع الرحمن، إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه»، وكان  
رسول الله ﷺ يقول: «اللهم يا مقلب القلوب، ثبت قلوبنا على دينك،  
والميزان بيد الرحمن، يرفع أقواماً ويخفض آخرين إلى يوم القيمة»<sup>(٣)</sup>.

وفي «الصحيحيْن»<sup>(٤)</sup> من حديث عبد الله بن عمر، سمعت النبي ﷺ  
وهو قائم على المنبر يقول: «إنما بقاوكم فيما سلف من الأمم قبلكم، كما  
بين صلاة العصر إلى غروب الشمس – فذكر الحديث، وقال في آخره –  
فذلك فضلي أوتiéه من أشاء».

---

(١) «الأم» (٤١٦/١)، وأسنده البهقى في «الأسماء والصفات» (٢٩٥)، ومنه اقتبس  
المؤلف.

(٢) برقم (٢٦٥٤)، والبهقى في «الأسماء والصفات» (٢٩٨) ولفظه أقرب لسياق  
المؤلف.

(٣) أخرجه أحمد (١٧٦٣٠)، والنمسائي في «الكبرى» (٧٦٩١)، وابن ماجه (١٩٩)،  
وصححه ابن حبان (٩٤٣).

(٤) هو في البخاري وحده برقم (٧٤٦٧).

وفي «صحيح البخاري»<sup>(١)</sup> مرفوعاً: «مثُلُ الْكَافِرِ كَمُثُلُ الْأَرْزَقَةِ: صَمَاءٌ<sup>(٢)</sup>  
مُعْتَدَلَةٌ، حَتَّىٰ يَقْصُمَهَا اللَّهُ إِذَا شَاءَ».

وقال عبد الرزاق: عن همام، عن همام، هذا ما حديثنا أبو هريرة قال:  
قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: لا يقل ابن آدم: يا خيبة الدهر؛  
فإن أنا الدهر، أرسل الليل والنهار، فإذا شئت قبضتهما»<sup>(٣)</sup>.

قال الشافعي: «تأويله - والله أعلم -: أن العرب كان شأنها أن تذم الدهر،  
وتسبّه عند المصائب التي تنزل بهم من موت أو هدم أو تلف أو غير ذلك،  
فيقولون: إنما يهلكنا الدهر، وهو الليل والنهار، ويقولون: أصابتهم قوارع  
الدهر، وأبادهم الدهر، فيجعلون الليل والنهار اللذين يفعلان ذلك، فيذمون  
الدهر بأنه الذي يفنينا ويقتلنا <sup>(٤)</sup>، فقال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا الدهر»  
على أنه يفنيكم، والذي يفعل بكم هذه الأشياء؛ فإنكم إذا سببتم فاعل هذه  
الأشياء فإنما تسببون الله تبارك وتعالى، فإنه فاعل هذه الأشياء»<sup>(٥)</sup>.

وفي حديث أنس يرفعه: «اطلبوا الخير دهركم كله، وتعرضوا النفحات

(١) برقم (٧٤٦٦) من حديث أبي هريرة.

(٢) تحرفت في «د» «م» إلى: «حما»، وجاءت على الصواب في «ج».

(٣) أخرجه بهذا السياق من طريق عبد الرزاق به أحمد (٨٢٣٢)، والبيهقي في «الأسماء  
والصفات» (٣٠٥)، وهو في البخاري (٦١٨١)، ومسلم (٢٤٦) من طرق عن أبي  
هريرة بالفاظ متقاربة.

(٤) كذلك في الأصول، وفي مصدر القول: «يفنينا ويقتلنا».

(٥) أورده البيهقي في «الأسماء والصفات» عقب الحديث (٣٠٥)، وفي «مناقب الشافعي»  
(١/٣٣٦)، وانظر: «شأن الدعاء» (١٠٨).

رحمة الله، فإن الله عز وجل نفحات من رحمته، يصيب بها من يشاء من عباده،  
وسلوا الله أن يستر عوراتكم، ويؤمّن روّعاتكم»<sup>(١)</sup>.

وفي «الصحيحيْن»<sup>(٢)</sup> من حديث عبادة بن الصامت قال: كنا عند النبي ﷺ فقال: «تبَايِعُونِي عَلَى أَن لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تُنْزِنُوا، وَلَا تُسْرِقُوا، فَمَنْ وَفَّى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوْقَبَ بِهِ، فَهُوَ كُفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسْتَرَهُ اللَّهُ، فَهُوَ إِلَى اللَّهِ: إِن شَاءَ عَذَّبَهُ، إِن شَاءَ غَفَرَ لَهُ».

وفيهما أيضًا<sup>(٣)</sup> في حديث احتجاج الجنة والنار، قول الله للجنة: «أنت رحمتي أرحم بك من أشاء»، وللنار: «أنت عذابي أذعب بك من أشاء».

وفيهما أيضًا<sup>(٤)</sup> من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «لَا يَقُلُّ أَحَدُكُمْ لِلَّهِمَّ اغْفِرْ لِي إِن شَاءَتْ، وَارْحَمْنِي إِن شَاءَتْ، وَارْزُقْنِي إِن شَاءَتْ. لِيَعْزِمْ مَسْأَلَتَهُ؛ إِنَّهُ يَفْعُلُ مَا شَاءَ، لَا مُكَنَّهُ لَهُ».

وفي «صحيح مسلم»<sup>(٥)</sup> عنه يرفعه: «المُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الْمُسْعِفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ، احْرَصَ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ،

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» ٧٢٠، والبيهقي في «الأسماء والصفات» ٣٠٦ واللّفظ له، وإسناده ضعيف، فيه عيسى بن موسى ضعيف، كما في «الميزان» ٣٢٥/٣، ووقع فيه اختلاف أيضًا، انظر: «العلل» للدارقطني ٩٧/١٢.

(٢) «البخاري» ١٨، و«مسلم» ١٧٠٩.

(٣) «البخاري» ٤٨٥٠، و«مسلم» ٢٨٤٦ من حديث أبي هريرة.

(٤) «البخاري» ٧٤٧٧، و«مسلم» ٢٦٧٩.

(٥) تقدم تخرّيجه في ٦٠.

ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا، [ولكن]<sup>(١)</sup>  
قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان».

وفي حديث أبي ذر: «يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته...» الحديث،  
وفي آخره: «ذلك بأني جواد ماجد، أفعل ما أشاء، عطائي كلام، فإذا أردت  
شيئاً فإنما أقول له: كن، فيكون»<sup>(٢)</sup>.

وفي حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ: «ما أنعم الله على عبد من  
نعمه، من أهلِ ولدِ، فيقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، فيرى فيه آفة دون  
الموت»<sup>(٣)</sup>.

وهذا الحديث الصحيح مشتق من قوله تعالى: «وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ  
فُلِتَّ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» [الكهف: ٣٩].

وفي حديث الشفاعة: «إِذَا رأَيْتُ ربي وقعت له ساجداً، فيدعني ما شاء  
الله أن يدعني»<sup>(٤)</sup>.

وفي حديث آخر أهل الجنة دخولاً إليها: «فيسكت ما شاء الله أن يسكت،

(١) زيادة لازمة من مصدر الخبر.

(٢) أخرجه بهذا السياق أحمد (٢١٣٦٧)، والترمذى (٢٤٩٥) وحسنه، وابن ماجه (٤٢٥٧)، ومداره على شهر بن حوشب وفيه ضعف، وأصله عند مسلم (٢٥٧٧) بسياق آخر ليس فيه موضع الشاهد.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشcker» (١)، والطبراني في «الأوسط» (٤٢٦١)، وأبو يعلى كما في «إتحاف الخيرة» (٤٦٠/٤) وضعفه الأزدي كما في «تفسير ابن كثير» (١٥٩/٥)، وانظر: «فيض التدبر» (٤٢٩/٥).

(٤) أخرجه البخاري (٧٤١٠)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس.

- وفيه قوله سبحانه: «لَا أَهْزِأُكُوكَ، وَلَكُنِي عَلَى مَا أَشَاءَ قَادِرٌ»<sup>(١)</sup>، والحديثان في «الصححين».

وفيهما من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «لَكُلِّ نَبِيٍّ دُعْوَةٌ، فَأَرِيدُ إِن شاءَ اللَّهُ - أَنْ أَخْتَبِئَ دُعْوَتِي شَفاعةً لِأَمْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(٢)</sup>.

وقال: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ - إِنْ شاءَ اللَّهُ - مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ الَّذِينَ بَاعُوا تَحْتَهَا أَحَدًا»<sup>(٣)</sup>.

وقال: «إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ يَكُونَ حَوْضِي - إِنْ شاءَ اللَّهُ - أَوْسِعُ مَا بَيْنَ أَيْلَةِ إِلَى كَذَا»<sup>(٤)</sup>.

وقال في المدينة: «لَا يَدْخُلُهَا الطَّاعُونُ وَلَا الدَّجَالُ - إِنْ شاءَ اللَّهُ»<sup>(٥)</sup>.

وقال في زيارة المقابر: «وَإِنَّا - إِنْ شاءَ اللَّهُ - بِكُمْ لَاحِقُونَ»<sup>(٦)</sup>.

وقال لما حاصر الطائف: «إِنَّا قَافْلُونَ غَدًا - إِنْ شاءَ اللَّهُ -»<sup>(٧)</sup>.

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧٣)، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة، وموضع الشاهد عند مسلم (١٨٧) من حديث ابن مسعود.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٧٤)، ومسلم (١٩٨) من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٩٦) من حديث أم مبشر.

(٤) أخرجه من حديث أبي هريرة به الطبراني في «مسند الشاميين» (٣٣٤٢)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٥٠)، وأصله عند مسلم (٢٤٩٦) من وجه آخر.

(٥) أخرجه البخاري (٧١٣٤)، ومسلم (٢٩٤٣). وليس فيه موضع الشاهد، والترمذمي أخرجه مسلم (٢٢٤٢) من حديث أنس.

(٦) أخرجه مسلم (٢٤٩) من حديث أبي هريرة.

(٧) أخرجه البخاري (٦٠٨٦)، ومسلم (١٧٧٨) من حديث ابن عمر.

وقال لما قدم مكة: «منزلنا غداً - إن شاء الله - بحِجَّةِ بْنِ كَنَانَة»<sup>(١)</sup>.

وقال في يوم بدر: «هذا مصرع فلان غداً - إن شاء الله - ، وهذا مصرع  
فلان - إن شاء الله -»<sup>(٢)</sup>.

وقال في بعض أسفاره: «إنكم تسيرون عشيتكم وليلتكم، ثم تأتون الماء  
غداً - إن شاء الله -»<sup>(٣)</sup>.

وقال للأعرابي الذي عاده من الحمى: «لَا بَأْسَ طَهُورٌ - إِنْ شَاءَ  
اللَّهُ -»<sup>(٤)</sup>.

وأخبر عن سليمان بن داود أنه قال: «لَا طُوفَنَ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً،  
كُلُّ وَاحِدَةٍ تَأْتِي بِفَارِسٍ يَقْاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ لِهِ الْمَلَكُ: قُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ.  
فَلَمْ يَقُلْ، فَطَافَ عَلَيْهِنَ جَمِيعًا، فَلَمْ تَحْمُلْ مِنْهُنَ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً، جَاءَتْ  
بِشَقِّ رَجُلٍ. وَإِيمَانُ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَجَاهَدُوا فِي  
سَبِيلِ اللَّهِ فَرَسَانًا أَجْمَعُونَ»<sup>(٥)</sup>.

وقال: «مَنْ حَلَّفَ فَقَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَإِنْ شَاءَ مَضَى، وَإِنْ شَاءَ رَجَعَ غَيْرَ

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٨٩)، ومسلم (١٣١٤) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٧٣) من حديث أنس.

(٣) أخرجه مسلم (٦٨١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٥٠) - واللفظ له - من  
حديث أبي قتادة.

(٤) أخرجه البخاري (٣٦١٦) من حديث ابن عباس.

(٥) أخرجه البخاري (٣٤٢٤)، ومسلم (١٦٥٤) من حديث أبي هريرة.

حيث»<sup>(١)</sup>.

وقال: «لأغزوَنَّ قريشاً»، ثم قال في الثالثة: «إن شاء الله»<sup>(٢)</sup>.

وقال: «ألا مشمر للجنة؟» فقال الصحابة: نحن المشمرون لها يا رسول الله. فقال: «قولوا: إن شاء الله»<sup>(٣)</sup>.

وقال تعالى: «وَإِذَا كُرِّبَكُ إِذَا نَسِيْتَ» [الكهف: ٢٤]، قال الحسن: «إذا نسيت أن تقول: إن شاء الله»<sup>(٤)</sup>.

وهذا هو الاستثناء الذي كان يجوزه ابن عباس مترافقاً<sup>(٥)</sup>، ويتأول عليه الآية، لا الاستثناء في الإقرار واليمين والطلاق والعتاق، وهذا من كمال علم ابن عباس وفقهه في القرآن.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٦٢)، والترمذني (١٥٣١) وحسنه، والنسائي (٣٧٩٣)، وابن ماجه (٢١٠٥)، وصححه ابن حبان (٤٣٤٠)، واختلف في إسناده وقفاً ورفعاً، انظر: «العلل» للدارقطني (٢٩٨٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٢٨٥)، وأبو يعلى (٢٦٧٤)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١٩٢٨)، وابن حبان (٤٣٤٣) من طرق عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس به، واضطرب فيه سماك وصلاً وإرسالاً، ورجح غير واحد من الحفاظ إرساله، انظر: «العلل» لابن أبي حاتم (١٣٢٢)، «الكامل» (٣/٥٣٢).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٣٣٢)، وابن أبي عاصم في «الجهاد» (١)، وابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» (٢)، وإسناده ضعيف، مداره على الضحاك المعافري مجاهول، كما في «الميزان» (٢/٣٢٧).

(٤) أسنده الطبرى (١٥/٢٢٦)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٦٦).

(٥) أسنده الطبرى (١٥/٢٢٥)، والطبراني في «الأوسط» (١١٩).

وقد أجمع المسلمون على أن الحالف إذا استثنى في يمينه متصلًا بها، فقال: لأ فعلن كذا، أو لا أفعله إن شاء الله؛ أنه لا يحث إذا خالف ما حلف عليه؛ لأن من أصل أهل الإسلام أنه لا يكون شيء إلا بمشيئة الله، فإذا علق الحالف الفعل أو الترك بالمشيئة لم يحث عند عدم المشيئة، ولا تجب عليه الكفارة.

ولو ذهبنا نذكر كل حديث أو أثر جاء فيه لفظ المشيئة، وتعليق فعل الرب تعالى بها لطال الكتاب جدًا.

وأما الإرادة فورودها في نصوص القرآن والسنّة معلوم أيضًا، كقوله تعالى: **﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾** [البروج: ١٦]، **﴿فَلَرَادَ رَيْلُكَ أَنْ يَبْغَا أَشْدَهُمَا﴾** [الكهف: ٨٢]، **﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهَلِّكَ قَرْيَةً﴾** [الإسراء: ١٦]، **﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْأَسْرَرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾** [البقرة: ١٨٥]، **﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ وَكُنْ فِي كُونٍ﴾** [يس: ٨٢]، **﴿وَمَنْ يُرِيدُ اللَّهُ فَعْتَدَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ الْوَشَائِقَ﴾** [المائدة: ٤١]، وقول نوح: **﴿وَلَا يَفْعُلُنَّ صَحْيَ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُعَوِّيَكُمْ هُوَ بِكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾** [موعد: ٣٤]، وقوله: **﴿فَمَنْ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ وَيَسْرَحْ صَدَرَهُ لِلْأَسْلَمِ وَمَنْ يُرِيدُ أَنْ يُضْلِلَهُ يَجْعَلْ صَدَرَهُ دَضِيقًا حَرَجًا﴾** [الأنعام: ١٢٥]، وقوله: **﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ﴾** [الرعد: ١١]، وقوله: **﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّهِيُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيَالًا عَظِيمًا﴾**<sup>(٧)</sup> **﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخْفِقَ عَنْكُمْ وَحْلُقَ الْإِنْسَنُ ضَعِيفًا﴾** [النساء: ٢٨ - ٢٧]

وأخبر أنه إذا لم يرد تطهير قلوب عباده لم يكن لهم سبيل إلى تطهيرها،

فقال: ﴿أَوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدُ اللَّهُ أَن يُظْهِرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خَزْنٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

وقال: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَعْهِدُ مَنْ يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٦]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١]، وقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَا كَيْنَ يُرِيدُ لِيُظْهِرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، قوله: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ [المائدة: ١٧]، قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الْجِنَّسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، قوله: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: ١٧]، قول صاحب يس: ﴿أَتَخَذُونَ دُونَهُ إِلَهًا إِنْ يُرِيدُنَ الرَّحْمَنُ بِضَرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونَ﴾ [يس: ٢٢]، قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنَّ اللَّهَ بِضَرٍّ هَلْ هُنَّ كَلِشَفَقُوتُ ضُرَّةٌ أَوْ أَرَادَنَّ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكُوتُ رَحْمَتَهُ﴾ [الزمر: ٣٨]، قوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٧٦]، قوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ وَفِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نَرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨].

والنصوص النبوية في إثبات إرادة الله سبحانه أكثر من أن تحصر، كقوله: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»<sup>(٢)</sup>، «من يرد الله به خيراً يُصْبِب منه»<sup>(٣)</sup>،

(١) «د» «م»: (ولأن).

(٢) أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية.

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٤٥) من حديث أبي هريرة.

«إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِالْأَمْرِ خَيْرًا جَعَلَ لَهُ وَزِيرًا صَدِيقًا»<sup>(١)</sup>، «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ رَحْمَةً أَمَّةً قَبَضَ نَبِيَّهَا قَبْلَهَا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ هَلْكَةً أَمَّةً عَذَبَهَا وَنَبِيَّهَا حَيٌّ، فَأَقْرَبَ عَيْنَهُ بِهَلْكَتِهَا»<sup>(٢)</sup>، «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَ خَيْرًا عَجَّلَ لَهُ الْعَقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا»، «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَ شَرًّا أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ، حَتَّىٰ يَوَافِي بِهِ يَوْمُ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ عَيْرٌ»<sup>(٣)</sup>، «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ قَبْضَ عَبْدٍ بِأَرْضِ جَهَنَّمِ لَهُ إِلَيْهَا حَاجَةً»<sup>(٤)</sup>، «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِأَهْلِ بَيْتٍ خَيْرًا دَخَلَ عَلَيْهِمْ بَابَ الرَّفْقِ»<sup>(٥)</sup>، «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ عَذَابًا أَصَابَ مَنْ كَانَ فِيهِمْ ثُمَّ بَعْثَوْا عَلَىٰ نِيَاتِهِمْ»<sup>(٦)</sup>.

وَالآثار النبوية في ذلك أكثر من أن نستوعبها.

## فصل

وه هنا أمر يجب التبيه عليه، والتتبه له، وبمعرفته تزول إشكالات كثيرة

(١) أخرجه أحمـد (٢٤٤١٤)، وأبـو داود (٢٩٣٢)، والنـسائي (٤٢٠٤) من حـديث عـائشـة، وصحـحـه ابن حـبان (٤٤٩٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٨٨) من حـديث أبـي موسـى.

(٣) هـذا وسابـقه جـزءـ من حـديث أـخرـجه بنـحوـه أـحمدـ (١٦٨٠٦)، والـطـبرـانيـ فيـ «ـالـكـبـيرـ» (١١٨٤٢) من حـديث عبدـ اللهـ بنـ مـغـفلـ، وصحـحـه ابنـ حـبانـ (٢٩١١).

وقـولـهـ: «ـكـانـهـ عـيـرـ» أـرـادـ جـبـلـ عـيـرـ بـالـمـدـيـنـةـ، شـبـهـ عـظـمـ ذـنـبـهـ بـهـ، وـقـيلـ: العـيـرـ هـنـاـ الـحـمـارـ الـوـحـشـيـ، اـنـظـرـ: «ـالـنـهـاـيـةـ فـيـ الغـرـبـ» (٣٢٨/٣).

(٤) أخرجه أـحمدـ (١٥٥٣٩)، والـتـرمـذـيـ (٢١٤٧) من حـديث يـسـارـ بـنـ عـبدـ، وـصـحـحـه التـرمـذـيـ، وـابـنـ حـبانـ (٦١٥١).

(٥) أخرجه أـحمدـ (٢٤٧٣٤)، والـبـخـارـيـ فـيـ «ـالـتـارـيـخـ الـكـبـيرـ» (٤١٦/١) من حـديث عـائـشـةـ.

(٦) أخرجه البـخـارـيـ (٧١٠٨)، وـمـسـلـمـ (٢٨٧٩) من حـديث اـبـنـ عمرـ، وـفـيهـماـ: «ـيـعـثـونـ عـلـىـ أـعـمـالـهـمـ»، وـلـفـظـ الـمـؤـلـفـ أـخـرـجـهـ أـبـوـ يـعـلـىـ (٥٦٩٦) وـغـيـرـهـ.

تعرض لمن لم يُحط به علمًا.

وهو أن الله سبحانه له الخلق والأمر، وأمره سبحانه نوعان: أمر كوني قدرى، وأمر ديني شرعى.

فمشيئته سبحانه متعلقة بخلقه وأمره الكوني، ولذلك تتعلق بما يحبه وبما يكرهه، كله داخل تحت مشيئته، كما خلق إيليس وهو يبغضه، وخلق الشياطين والكفار والأعيان والأفعال المنسخة له وهو يبغضها، فمشيئته سبحانه شاملة لذلك كله.

وأما محبته ورضاه فمتعلقة بأمره الديني<sup>(١)</sup>، وشرعه الذي شرعه على ألسنة رسله، فما وُجِد منه تعلقت به المحبة والمشيئية جميعاً، فهو محظوظ للربّ واقعٌ بمشيئته، كطاعات الملائكة والأنبياء والمؤمنين. وما لم يوجد منه تعلقت به محبته وأمره الديني، ولم تعلق به مشيئته. وما وُجِد من الكفر والفسق والمعاصي تعلقت به مشيئته، ولم تعلق به محبته ولا رضاه ولا أمره الديني. وما لم يوجد منها لم تعلق به مشيئته ولا محبته.

فلفظ المشيئية كوني، ولفظ المحبة ديني شرعى، ولفظ الإرادة ينقسم إلى: إرادة كونية فتكون هي المشيئية، وإرادة دينية ف تكون هي المحبة.

إذا عُرف هذا؛ فقوله تعالى: «وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفُّرُ» [الزمر: ٧]، وقوله: «وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ» [البقرة: ٢٠٥]، وقوله: «وَلَا يُرِيدُ بِكُّلِّ الْعُسُرِ» [البقرة: ١٨٥]، لا ينافق نصوص القدر، والمشيئية العامة الدالة على وقوع ذلك بمشيئته

---

(١) زاد سهواً في «م»: «وشرعه الديني».

وقضاءه وقدره؛ فإن المحجة غير<sup>(١)</sup> المشيئة، والأمر غير<sup>(٢)</sup> الخلق.

ونظير هذا لفظ الأمر، فإنه نوعان: أمر تكوين، وأمر تشريع، والثاني قد يعصى ويخالف، بخلاف الأول، فقوله تعالى: «وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نَهْلِكَ قَرْيَةً أَمْرَنَا مُرْجِفَهَا فَفَسَقُوا فِيهَا» [الإسراء: ١٦]، لا ينافق قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ» [الأعراف: ٢٨]، ولا حاجة إلى تكليف تقدير: أمرنا مترفيها بالطاعة فعصونا وفسقوا فيها، بل الأمر ه هنا أمر تكوين وتقدير لا أمر تشريع؛ لوجوه:

أحدها: أن المستعمل في مثل هذا التركيب أن يكون ما بعد الفاء هو المأمور به، كما تقول: أمرته فقام، وأمرته فأكل، كما لو صرح باللفظة «افعل»،

قوله تعالى: «وَإِذْ قُنْدَنَ الْمَلَائِكَةُ أَسْجُدُوا لِلْأَدْمَنَسَجَدُوا» [البقرة: ٣٤]، وهذا كما تقول: دعوته فأقبل، قال تعالى: «يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ يَكْتُمُونَ» [الإسراء: ٥٢].

الثاني: أن الأمر بالطاعة لا يختص بالمترفين، فلا يصح حمل الآية عليه، بل تسقط فائدة ذكر المترفين؛ فإن جميع المبعوث إليهم مأمورون بالطاعة، فلا يصح أن يكون أمر المترفين علة إهلاك جميعهم.

الثالث: أن هذا النسق العجيب، والتركيب البديع، مقتضي ترتيب ما بعد الفاء على ما قبلها ترتيب المسبيب على سبيبه، والمعلول على علته. ألا ترى أن الفسق علة «حق القول عليهم»، و«حق القول عليهم» علة لتدميرهم،

---

(١) «م»: «عين».

(٢) «د» «م»: «عين» تصحيف، وجاءت على الصواب في «ج»، هذا والأشبہ بسياق الجملة وما بعدها أن تكون: «والإرادة غير الخلق».

فهكذا الأمر سبب لفسقهم ومقتضٍ له، وذلك هو أمر التكوين لا التشريع.

الرابع: أن إرادته سبحانه لإهلاكهم إنما كانت بعد معصيتهم ومخالفتهم لرسله، فمعصيتهم ومخالفتهم قد تقدمت، فأراد الله سبحانه هلاكهم فعاقبهم بأن قدر عليهم الأعمال التي تحتم معها هلاكهم.

فإن قيل: فمعصيتهم السابقة سببٌ لهلاكهم، فما الفائدة في قوله: ﴿أَمْنَا مُرِّقِيَّا فَسَقَوْفِيَّا﴾، وقد تقدم الفسق منهم؟

قيل: المعصية السابقة - وإن كانت سبباً للهلاك - ، لكن يجوز تخلف الهلاك عنها ولا يتحتم، كما هو عادة رب تعالى المعلومة في خلقه: أنه لا يحتم هلاكهم بمعاصيهم، فإذا أراد هلاكهم ولابدًّا أحدث سبباً آخر يتحتم معه الهلاك.

ألا ترى أن ثموداً لم يهلكهم بكفرهم السابق حتى أخرج لهم الناقة فعقروها، فأهلكوا حيثئذ.

وقوم فرعون لم يهلكهم بكفرهم السابق بموسى حتى أراهم الآيات المتتابعات، واستحکم بغيهم وعنادهم، فحيثئذ أهلكوا.

وكذلك قوم لوط لما أراد إهلاكهم أرسل الملائكة إلى لوط في صورة الأضياف، فقصدوهم بالفاحشة، ونالوا من لوط تواعدهوه<sup>(١)</sup>.

وكذلك سائر الأمم إذا أراد الله هلاكها أحدث لها بغيًا وعدوانًا وظلماً

---

(١) كذا في الأصول: «تواعدوه»، والأشبه بالسياق: «توعّدوه»؛ فإن الأولى تستعمل في الوعد بالخير، والثانية للتهديد، انظر: «تاج العروس» (٣٠٨-٣٠٩/٩).

فأخذها على أثره.

وهذه عادته مع عباده عموماً وخصوصاً، فيعصيه العبد وهو يحلم عنه ولا يعاجله، حتى إذا أراد أخذه فَيَقْضِي له عملاً يأخذه به مضافاً إلى أعماله الأولى، فيظنون الطان أنه أخذه بذلك العمل وحده، وليس كذلك، بل حق عليه القول بذلك العمل، وكان قبل ذلك لم يحق عليه القول، فأعماله الأولى تقتضي ثبوت الحق عليه، ولكن لم يحكم به أحکم الحاكمين، ولم يُمضِي الحكم، فإذا عمل بعد ذلك ما يقرر غضب الرب عليه أمضى حكمه عليه وأنفذه.

قال تعالى: **(فَلَمَّا آتَسْفُونَا أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ)** [الزخرف: ٥٥]، وقد كانوا قبل ذلك أغضبوه بمعصية رسوله، ولكن لم يكن غضبه سبحانه قد استقرَ واستحکم عليهم؛ إذ كان بصدده أن يزول بإيمانهم، فلما أيس من إيمانهم تقرر الغضبُ واستحکم، فحلت العقوبة.

وهذا الموضع من أسرار القرآن، وأسرار التقدير الإلهي، وفيُكُر العبد فيه من أفعى الأمور له؛ فإنه لا يدرى أي المعااصي هي الموجبة التي يتحتم عندها عقوبته فلا يُقال بعدها، والله المستعان.

وسنعقد لهذا الفصل باباً في الفرق بين القضاء الكوني والديني، نشيع الكلام فيه - إن شاء الله - لشدة الحاجة إليه<sup>(١)</sup>؛ إذ المقصود في هذا الباب ذِكْرُ مشيئة الرب تعالى، وأنها الموجبة لكل موجود، كما أن عدم مشيئته موجب

---

(١) الباب التاسع والعشرون (٣٧٧ / ٢).

لعدم وجود الشيء، فهما الموجبتان، ما شاء الله وجب وجوده<sup>(١)</sup>، وما لم يشاً وجباً عدمه وامتناعه، وهذا أمر يعم كل مقدور من الأعيان والأفعال والحركات والسكنات.

فسبحانه أن يكون في مملكته ما لا يشاء، أو أن يشاء شيئاً فلا يكون، وإن كان فيها ما لا يحبه ولا يرضاه، وإن كان يحب الشيء فلا يكون لعدم مشيته له، ولو شاءه لوجوده.



(١) من قوله: «كما أن عدم» إلى هنا ساقط من «م».

## البَابُ التَّالِيٌّ عَشِيرٌ

في ذكر المرتبة الرابعة من مراتب القضاء والقدر، وهي مرتبة

خَلْقِ الله سُبْحَانَهُ الْأَعْمَالُ وَتَكْوِينُهُ وَإِجَادَهُ لَهَا<sup>(١)</sup>

وهذا أمر متفق عليه بين الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وعليه اتفقت الكتب الإلهية، ودللت عليه أدلة العقول والنظر والاعتبار، وخالف في ذلك مجوس الأمة، فأخرجت طاعات ملائكته وأنبائه ورسله وعباده المؤمنين – وهي أشرف ما في العالم – عن ربوبيته وتكونيه ومشيئته، بل جعلوهم هم الخالقون<sup>(٢)</sup> لها، ولا تعلق لها بمشيئته، ولا تدخل تحت قدرته، وكذلك قالوا في جميع أفعال الحيوانات الاختيارية.

فعندهم أنه سبحانه لا يقدر أن يهدي ضالاً، ولا يُضلل مهتدياً، ولا يقدر أن يجعل المسلم مسلماً، والكافر كافراً، والمصلحي مصلحياً، وإنما ذلك بجعلهم أنفسهم كذلك، لا بجعله تعالى.

وقد نادى القرآن – بل الكتب السماوية كلها – والسنّة وأدلة التوحيد والعقول<sup>(٣)</sup> على بطلان قولهم، وصاح بهم أهل العلم والإيمان من أقطار الأرض، وصَنَفَ يَرَكُ الإِسْلَام<sup>(٤)</sup> وعصابةُ الرسول وعسركه التصانيف في

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢/١١٩) (٨/٣٨٦).

(٢) كذا في الأصول: «الخالقون» بالرفع، والأقرب فيها النصب: «الخالقين».

(٣) «م»: «المعقول» محتملة.

(٤) يعني طلائع جيش الإسلام ومقدمة حراسه، لفظة فارسية، ينظر: «جامع الأصول»

الرّدّ عليهم، وهي أكثر من أن يحصيها إلا الله.

ولم تزل أيدي السلف وأئمة السنة في أقوفيتهم، ونواصيهم تحت أرجلهم، إذ كانوا يردون باطلهم بالحق المحسن، ويدعوهم بالسنة، والسنة لا يقوم لها شيء. فكانوا معهم كأهل الذمة مع المسلمين.

إلى أن نبغت نابغة ردوا بدعتهم ببدعة تقابلها، وقابلوا باطلهم بباطل من جنسه، وقالوا: العبد مجبور على أفعاله<sup>(١)</sup>، مقهور عليها، لا تأثير له في وجودها بالّة، ولا هي واقعة بإرادته واختياره.

وغلا غلامتهم فقالوا: بل هي عين أفعال الله، ولا تنسب إلى العبد إلا على وجه المجاز، والله سبحانه وتعالى يلوم العبد، ويعاقبه، ويخلده في النار على ما لم يكن للعبد فيه صنع، ولا هو فعله، بل محسن فعل الله. وهذا قول الجبرية، وهو إن لم يكن شرّاً من قول القدرية فليس هو بدونه في البطلان، وإجماع الرسل واتفاق الكتب الإلهية وأدلة العقول والفطر والعيان يكذب هذا القول ويرده، والطائفتان في عمى عن الحق والصراط المستقيم.

ولما رأى<sup>(٢)</sup> القاضي وغيره بطلان هذا القول ومناقضته للشرع والعدل والحكمة قالوا: قدرة العبد وإن لم تؤثر في وجود الفعل فهي مؤثرة

---

(١) (٣٤٨/١٠)، «محيط المحيط» (٩٩٢)، «تكاملة المعاجم» (١١٨/١١).

وقد تكررت هذه الكلمة في عدة مواضع من كتب المؤلف، واضطرب في رسماها أكثر النساخ والمحققين، وتصحّفت في «م»: «ترك»، وجاءت معجمة على الصواب في «د» و«ج».

(٢) (د): «أفعال له».

(٣) (د): «تبين»، من لحق بالحاشية، والقاضي هو ابن البارقياني.

في صفة من صفاته، وتلك الصفة تسمى كسباً، وهي متعلقة بالأمر والنهي والثواب والعقاب، فإن الحركة التي هي طاعة، والحركة التي هي معصية، قد اشتربكت في نفس الحركة، وامتازت إحداها عن الأخرى بالطاعة والمعصية، فذات الحركة وجودها واقع بقدرة الله وإيجاده، وكونها طاعة ومعصية واقع بقدرة العبد وتأثيره.

وهذا وإن كان أقرب إلى الصواب، فالسائل به لم يوفه حقه؛ فإن كونها طاعة ومعصية هو موافقة الأمر ومخالفته، وهذه الموافقة والمخالفة إما أن تكون فعلاً للعبد تتعلق بقدرته و اختياره، أو لا تكون كذلك، فإن كان الأول ثبت أن فعل العبد واقع بقدرته و اختياره، وإن كان الثاني لم يكن للعبد اختيار ولا فعل ولا كسب البتة، فلم يثبت هؤلاء من الكسب أمراً معقولاً.

ولهذا يقال: حالات الكلام ثلاثة: كسب الأشعري، وأحوال أبي هاشم، وطفرة النظام<sup>(١)</sup>.

ولما رأى طائفه فساد هذا قالوا: المؤثر في وجود الفعل هو قدرة الرب على سبيل الاستقلال، وقدرة العبد على سبيل الاستقلال، قالوا: ولا يمتنع اجتماع المؤثرين على أثر واحد.

ولم يستوحش هؤلاء من القول بوقوع مفعول بين فاعلين، ولا مقدور بين قادرين، قالوا: كما لم يمتنع وقوع معلوم بين عالمين، ومراد بين مریدین، ومحبوب بين محبین، ومكره بين كارهین<sup>(٢)</sup>.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٢٨/٨).

(٢) «د»، ولحق بحاشية «م» دون تصحيح: «محبوبين» و«مكرهين» بصيغة المفعول،

قالوا: ونحن نشاهد قادرٍ مستقلٌ كل منهما يمكنه أن يستقل بالفعل، يقع بينهما مفعول واحد يشتراكان في فعله والتأثير فيه.

قالوا: وليس معكم ما يبطل هذا إلا قولكم: إن إضافته إلى أحدهما على سبيل الاستقلال يمنع إضافته إلى الآخر، فإذاً إضافته إليهما تمنع إضافته إليهما.

وهذه الحجة فيها إجمال لا بد من تفصيله، فيجوز وقوع مفعول بين فاعلين لا يستقل أحدهما به، كالمتعاونين على أمر لا يقدر عليه أحدهما وحده. ويجوز وقوع مفعول بين فاعلين، كل منهما يستقل به على سبيل البطل، وهذا ظاهر أيّضاً. ويجوز وقوع مفعول بين فاعلين يشتراكان فيه، وكل منهما يقدر عليه حال<sup>(١)</sup> الانفراد، كمحموم يحمله اثنان، كل منهما يمكنه أن يستقل بحمله وحده، فكل هذه الأقسام ممكنة، بل واقعة.

بقي قسم واحد، وهو: مفعول بين فاعلين كل منهما فعله على سبيل الاستقلال، فهذا محال؛ فإن استقلال كل منهما بفعله ينفي فعل الآخر له، فاستقلالهما ينافي استقلالهما.

وأكثر الطوائف يقر بوقوع مقدور بين قادرين، وإن اختلفوا في كيفية وقوعه.

فقالت طائفة: الفعل يضاف إلى قدرة الله سبحانه على وجه الاستقلال بالتأثير، ويضاف إلى قدرة العبد لكنها غير مستقلة، فإذاً انضمت قدرة الله إلى قدرة العبد صارت قدرة العبد مؤثرة على سبيل الاستقلال، بتوسط إعانة

---

ورسمهما في «ج» بمثل ذلك، ثم ضرب عليهما وكتب الصواب داخل المتن.

(١) «د»: «مثال» دون إعجام.

قدرة الله، وجعل قدرة العبد مؤثرة.

والسائل بهذا لم يخلص من الخطأ، حيث زعم أن قدرة العبد مستقلة بإعانته قدرة الله له، فعاد الأمر إلى اجتماع مؤثرين على أثر واحد، لكن قدرة أحدهما وتأثيره مستند إلى قدرة الآخر وتأثيره.

وكانه - والله أعلم - أراد أن قدرة الرب تعالى مستقلة بالتأثير في إيجاد قدرة العبد، ثم قدرة العبد مستقلة بالتأثير في إيجاد الفعل. وهذا قد قاله طائفه من العقلاه.

وقائل هذا لم يخلص من الخطأ، حيث جعل قدرة العبد مستقلة بالتأثير في إيجاد المقدور، وهذا باطل؛ إذ غاية قدرة العبد أن تكون سبباً، بل جزءاً من السبب، والسبب لا يستقل بحصول المسبب ولا يوجد، وليس في الوجود ما يوجب حصول المقدور إلا بمشيئة الله وحده.

وأصحاب هذا القول زعموا أن الله سبحانه أعطى العبد قدرة وإرادة، وفوض إليه بهما الفعل والترك، وخلاله وما يريد، فهو يفعل ويترك بقدرته وإرادته اللتين فوض إليه الفعل والترك بهما.

وقالت طائفة أخرى: مقدور العبد هو عين مقدور الرب، بشرط أن يفعله العبد إذا تركه الرب ولم يفعله، لا على أنه يفعله والرب له فاعل؛ لاستحالة خلق بين خالقين. وهذا هو بعينه مذهب من يقول بوقوع مفعول بين فاعلين على سبيل البدل، وهذا مذهب كثير من القدريه، منهم الشحّام وغيره.

وقالت طائفة: يجوز وقوع فعل بين فاعلين بنسبتين مختلفتين: أحدهما

يكون مُحْدِثًا، والآخر يكون كاسبياً. وهذا مذهب التجار، وضرار بن عمرو، ومحمد بن عيسى، وحفص.

والفرق بين هذا المذهب ومذهب الأشعري من وجهين:

أحدهما: أنَّ أصحاب هذا المذهب يقولون: العبد فاعلٌ حقيقة وإن لم يكن مُحْدِثًا مخترعاً للفعل. والأشعري يقول: العبد ليس بفاعل وإن نُسبَ إليه الفعل، وإنما الفاعل في الحقيقة هو الله، فلا فاعل سواه.

الثاني: أنهم يقولون: الرب هو المُحْدِث، والعبد هو الفاعل.

وقالت فرقة: بل أفعال العباد فعل الله على الحقيقة، وفعل العبد<sup>(١)</sup> على المجاز، وهذا أحد قولي الأشعري.

وقالت فرقة أخرى - منهم القلانسي وأبو إسحاق في بعض كتبه - : إنها فعل الله<sup>(٢)</sup> على الحقيقة، وفعل للإنسان<sup>(٣)</sup> على الحقيقة، لا على معنى أنه أحدهما، بل على معنى أنها كسب له.

وقالت طائفة أخرى - وهم جهم وأتباعه - : إنَّ القادر على الحقيقة هو الله وحده، وهو الفاعل حقاً، ومن سواه ليس بفاعل على الحقيقة ولا كاسب أصلاً، بل هو مضططر إلى جميع ما فيه من حركة وسكون، وقول القائل: قام، وقعد، وأكل، وشرب؛ مجاز بمنزلة قوله: مات، وكبر، ووقع، وطلعت الشمس وغابت. وهذا قول الجبرية الغلاة.

---

(١) «د»: «للعبد».

(٢) «م»: «الله».

(٣) «م» «ج»: «الإنسان».

وقابلة طائفة أخرى فقالوا: العباد موجدون لأفعالهم، مخترعون لها بقدرتهم<sup>(١)</sup> وإرادتهم، والرب تعالى لا يوصف بالقدرة على مقدور العبد، ولا تدخل أفعالهم تحت قدرته، كما لا يوصف العباد بمقدور الرب، ولا تدخل أفعاله تحت قدرتهم. وهذا قول جمهور القدرية، وكلهم متذمرون على أن الله سبحانه غير قادر لافعال العباد.

واختلفوا: هل يوصف بأنه مخترعها ومحدثها، وأنه قادر عليها وحالق لها؟

فجمهورهم نفوا ذلك، ومن يقرب منهم إلى السنة أثبت كونها مقدورة لله، وأن الله سبحانه قادر على أعيانها، وأن العباد أحدهما بإقدار الله لهم على إحداثها، وليس معنى قدرة الله عليها عندهم أنه قادر على فعلها، هذا عندهم عين المحال، بل قدرته عليها إقدارهم على إحداثها، فإنما أحدهما بإقداره بقدراته وإقداره وتمكينه، وهو لاء أقرب القدرية إلى السنة.

وأرباب هذه المذاهب مع كل طائفة منهم خطأً وصواب، وبعضهم أقرب إلى الصواب، وبعضهم أقرب إلى الخطأ، وأدلة كل منهم وحججه إنما تنبع على بطلان خطأ الطائفة الأخرى، لا على إبطال ما أصابوا فيه.

فكيل دليل صحيح للجبرية إنما يدل على إثبات قدرة الرب تعالى ومشيئته، وأنه لا خالق غيره، وأنه على كل شيء قادر، لا يُستثنى من هذا العموم فرد واحد من أفراد الممكنات<sup>(٢)</sup>، وهذا حق، ولكن ليس معهم دليل

---

(١) «د»: «بقدرهم».

(٢) «د» «م»: «الكتاب» والمثبت من «ج».

صحيح ينفي أن يكون العبد قادرًا مريديًا فاعلاً بمشيئته وقدرته، وأنه هو الفاعل حقيقة، وأفعاله قائمة به، وأنها فعل له لا لله، وأنها قائمة به لا بالله.

وكل دليل صحيح يقيمه القدرة فإنما يدل على أن أفعال العباد فعل لهم، قائم بهم، واقع بقدرتهم ومشيئتهم وإرادتهم، وأنهم مختارون لها غير مضطرين ولا مجبورين، وليس معهم دليل صحيح ينفي أن يكون الله سبحانه قادرًا على أفعالهم، وهو الذي جعلهم فاعلين.

فأدلة الجبرية متظافرة صحيحة على من نفي قدرة الله تعالى على كل شيء من الأعيان والأفعال، ونفي عموم مشيئته وخلقته لكل موجود، وأثبتت في الوجود شيئاً بدون مشيئته وخلقته.

وأدلة القدرة متظافرة صحيحة على من نفي فعل العبد وقدرته ومشيئته واختياره، وقال: إنه ليس بفاعل شيئاً، والله يعاقبه على ما لم يفعله<sup>(١)</sup>، ولا له قدرة عليه، بل هو مضطر إليه، مجبور عليه.

وأهل السنة وحزب الرسول وعسكر الإيمان لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، بل هم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه، ومع هؤلاء فيما أصابوا فيه، فكل حق مع طائفة من الطوائف فهم يوافقونهم فيه، وهم براء من باطلهم، فمذهبهم جمْعُ حق الطوائف بعضه إلى بعض، والقول به، ونصره، وموالاة أهلة من ذلك الوجه، وتَقْرِيبُ باطل كل طائفة من الطوائف وكسره، ومعاداة أهلة من هذا الوجه<sup>(٢)</sup>، فهم حُكَّام بين الطوائف لا يتحيزون إلى فئة منهم

---

(١) «د»: «ما يفعله».

(٢) من قوله: «ونفي باطل» إلى هنا ساقط من «د».

على الإطلاق، ولا يرددون حق طائفه من الطوائف، ولا يقابلون بدعة ببدعة، ولا يرددون باطلًا بباطل، ولا يحملهم شأن قوم يعادونهم ويكرهونهم على أن لا يعدلوا فيهم، بل يقولون فيهم الحق، ويحكمون في مقالاتهم بالعدل.

والله تعالى أمر رسوله أن يعدل بين الطوائف، فقال: ﴿فَلَا إِذَا كَفَرُوا  
وَأَسْتَقْمَعَ كَمَا أَمْرْتَ لَا تَتَّبِعَ هُنَاءَهُمْ وَقُلْ إِنَّمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ  
وَأَمْرَتْ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ [الشورى: ١٥]، فأمره سبحانه أن يدعو إلى دينه وكتابه،  
 وأن يستقيم في نفسه كما أمره، وأن لا يتبع هو أحد من الفرق، وأن يؤمن  
بالحق جميعه، لا يؤمن ببعضه دون بعض، وأن يعدل بين أرباب المقالات  
والديانات.

وأنت إذا تأملت هذه الآية وجدت أهل الكلام الباطل وأهل الأهواء، والبدع من جميع الطوائف أبخس الناس منها حظاً، وأقلهم منها نصيباً، ووجدت حزب الله ورسوله وأنصار سنته هم أحق بها وأهلها، وهم في هذه المسألة وغيرها من المسائل أسعد بالحق من جميع الطوائف، فإنهم يثبتون قدرة الله على جميع الموجودات من الأعيان والأفعال، ومشيته العامة، ويذّهونه أن يكون في ملكه ما لا يقدر عليه، ولا هو واقع تحت مشيئته، ويثبتون القدر السابق، وأن العباد يعملون على ما قدره الله وقضاءه وفرغ منه، وأنه لا يشاؤون إلا أن يشاء الله لهم، ولا يفعلون إلا من بعد مشيئته، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا تخصيص عندهم في هاتين القضيتين يوجه من الوجوه.

والقدر عندهم قدرة الله تعالى! وعلمه ومشيئته وخلقه، فلا تتحرك ذرة  
فما فوقها إلا بمشيئته وعلمه وقدره.

فهم المؤمنون بلا حول ولا قوة إلا بالله على الحقيقة إذا قالها غيرهم على المجاز؛ إذ العالم علوية وسفليّه، وكل حي يفعل فعلاً؛ فإنه يفعله بقوته فيه على الفعل، وهو في حول، من ترك إلى فعل، ومن فعل إلى ترك، ومن فعل إلى فعل، وذلك كله بالله تعالى لا بالعبد.

ويؤمنون بأنه من يهدى الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، وأنه هو الذي يجعل المسلم مسلماً، والكافر كافراً<sup>(١)</sup>، والمصلّي مصلّياً، والمتحرّك متحرّكاً، وهو الذي يسّير عبده في البر والبحر، فهو المسّير والعبد السائر، وهو المحرّك والعبد المتتحرّك، وهو المقيم والعبد القائم، وهو الهايدي والعبد المهتدي، كما أنه المطعم والعبد الطاعم، وهو المحيي المميت، والعبد الذي يحيى ويموت، ويثبتون مع ذلك قدرة العبد وإرادته واختياراته وفعله حقيقة لا مجازاً.

وهم متفقون على أن الفعل غير المفعول، كما حكاه عنهم البغوي وغيره، فحركاتهم واعتقاداتهم أفعال لهم حقيقة، وهي مفعولة لله سبحانه، مخلوقة له حقيقة، والذي قام بالرب عز وجل علمه وقدرته ومشيته وتكوينه، والذي قام بهم هو فعلهم وكسبهم وحركاتهم وسكناتهم، فهم المسلمون المصلّيون القائمون القاعدون حقيقة، وهو سبحانه المُقدِّر لهم على ذلك، القادر عليه، الذي شاء منهم وخلقهم، فمشيتهم<sup>(٢)</sup> وفعلهم بعد مشيته، بما يشاؤون إلا أن يشاء، وما يفعلون إلا أن يشاء.

---

(١) «والكافر كافراً» ساقط من «د» «م».

(٢) «م»: «مشيتهم»، «ج»: «ومشيتهم».

وإذا وازنت بين هذا المذهب وبين ما عدها من المذاهب، وجدته هو المذهب الوسط، والصراط المستقيم، ووجدت سائر المذاهب خطوطاً عن يمينه وعن شماله، فقريب منه وبعيد وبين ذلك.

وإذا أعطيت الفاتحة حقها وجدتها من أولها إلى آخرها منادية على ذلك، دالة عليه، صريحة فيه؛ فإن كمال حمده لا يقتضي غير ذلك، وكذلك كمال ربوبيته للعالمين لا يقتضي غير ذلك، فكيف يكون الحمد كله لمن لا يقدر على مقدور أهل سماواته وأرضه من الملائكة والجن والإنس والطير والوحش، بل يفعلون ما لا يقدر عليه ولا يشاءوه، ويشاء ما لا يفعله كثير منهم، فيشاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشاء، وهل يقتضي كمال حمده ذلك، وهل يقتضيه كمال ربوبيته؟

ثم قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] مبطل لقول الطائفتين المنحرفتين عن قصد السبيل؛ فإنه يتضمن إثبات فعل العبد، وقيام العبادة به حقيقة، فهو العابد على الحقيقة، وأن ذلك لا يحصل له إلا بإعانة رب العالمين عز وجل له، فإن لم يُعْنِه، ولم يُقْدِرْه، ولم يشأ له العبادة؛ لم يتمكن منها، ولم توجد منه البتة، فالفعل منه، والإقدار والإعانة من الرب عز وجل.

ثم قوله: ﴿أَهَدِنَا أَلصِرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] يتضمن طلب الهداء من هو قادر عليها، وهي بيده إن شاء أعطاها عبده، وإن شاء منعه إياها، والهداء معرفة الحق والعمل به، فمن لم يجعله الله تعالى عالماً بالحق عاملًا به لم يكن له سبيل إلى الاهتداء، فهو سبحانه المتفرد بالهداء الموجبة للإهتداء التي لا يختلف عنها، وهي جعل العبد مريداً للهدي، محباً له،

مؤثراً له، عاملاً به.

فهذه الهدایة ليست إلى مَلِك مقرب ولا نبی مرسل، وهي التي قال سبحانه فيها: ﴿إِنَّكَ لَأَنْهَدْتِي مَنْ أَحَبَبْتَ وَلَا كَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، مع قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، فهذه هداية الدعوة والتعليم والإرشاد، وهي التي هدى بها ثمود، فاستحبوا العمى عليها<sup>(١)</sup>، وهي التي قال تعالى فيها: ﴿وَمَا كَاتَ اللَّهُ لِيُضْلِلَ قَوْمًا بَعْدَ إِنْهَادِنَّهُمْ حَقَّ بَيْتِنَا لَهُمْ مَا يَتَقَوَّنُونَ﴾ [التوبه: ١١٥]، فهداهم هدى البيان الذي تقوم به حجته عليهم، ومنهم الهدایة الموجبة للاهتداء التي لا يضل من هداه بها، فذاك عدله فيهم، وهذا حكمته، فأعطاهم ما تقوم به الحجة عليهم، ومنهم ما ليسوا له بأهل، ولا يليق بهم.

وسنذكر في الباب الذي بعد هذا—إن شاء الله تعالى—ذكر الهدى والضلال ومراتبها وأقسامهما؛ فإن عليه مدار مسائل القدر.

والمقصود ذكر بعض ما يدل على إثبات هذه المرتبة الرابعة من مراتب القضاء والقدر، وهي خلق الله تعالى لأفعال المكلفين، ودخولها تحت قدرته ومشيئته، كما دخلت تحت علمه وكتابه<sup>(٢)</sup>، قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكَبِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]، وهذا عام محفوظ لا يخرج عنه شيء من العالم: أعيانه وأفعاله وحركاته وسكناته، وليس مخصوصاً بذاته وصفاته؛ فإنه الخالق بذاته وصفاته، وما سواه مخلوق له.

(١) «د»: «على الهدى» سبق قلم، وكتبها في «ج» كذلك، ثم ضرب عليها وكتب المثبت.

(٢) «م»: «وكتابته».

واللّفظ قد فرق بين الخالق والمخلوق، وصفاته سبحانه داخلة في مسمى اسمه؛ فإن الله سبحانه اسم للإله الموصوف بكل صفة كمال، المنزه عن كل صفة نقص ومثال.

والعالَم قسمان: أعيان وأفعال، فهو الخالق لأعيانه وما يصدر عنها من الأفعال، كما أنه العالم بتفاصيل ذلك، فلا يخرج شيء منه عن علمه، ولا عن قدرته، ولا عن خلقه ومشيئته.

قالت القدرية: نحن نقول: إن الله خالق أفعال العباد، لا على معنى أنه محدثها ومخترعها، لكن على معنى أنه مقدرها؛ فإن الخلق: التقدير، كما قال تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَلِيقَيْنَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وقال الشاعر:

ولأنت تُفري ما خلقت وبعـضِ القوم يخلق ثم لا يُفري<sup>(١)</sup>  
أي أنت تمضي ما قدرته، وتنفذه بعزمك وقدرتك، وبعض القوم يقدر  
ثم لا قوة له ولا عزيمة على إنفاذ ما قدره وأمضاه.

فالله تعالى مقدر أفعال العباد وهم الذين أوجدوها وأحدثوها.

قال أهل السنة: قدماً لكم ينكرون تقدير الله سبحانه وتعالي لأعمال العباد البتة، فلا يمكنهم أن يجيئوا بذلك، ومن اعترف منكم بالتقدير فهو تقدير لا يرجع إلى تأثير، وإنما هو مجرد العلم بها والخبر عنها، وليس التقدير عندكم جعلها على قدر<sup>(٢)</sup> كذا وكذا، وصفة كذا وكذا؛ فإن هذا عندكم غير مقدر للرب ولا مصنوع له، وإنما هو صنع العبد وإحداثه،

(١) البيت لزهير بن أبي سلمي، «شعر زهير» صنعة الشتمري (١١٩).

(٢) «د»: «تقدير».

فرجع التقدير إلى مجرد العلم والخبر، وهذا لا يسمى خلقاً في لغة أمة من الأمم، ولو كان هذا خلقاً لكان من علم شيئاً وعلم أسماءه وصفاته وأخبار عنه بذلك = خالقاً له.

فالتقدير الذي أثبتموه إن كان متضمناً للتأثير في إيجاد الفعل فهو خلاف مذهبكم، وإن لم يتضمن تأثيراً في إيجاده فهو راجع إلى محض العلم والخبر.

قالت القدرية: قوله: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [آل عمران: 62]، من العام المراد به الخاص، ولا سيما فأنكم قلتم: إن القرآن لم يدخل في هذا العموم، وهو من أعظم الأشياء وأجلها، فخصصنا منه أفعال العباد بالأدلة الدالة على كونها فعلهم وصنعهم.

قال أهل السنة: القرآن كلام الله سبحانه، وكلامه صفة من صفاتاته، وصفات الخالق وذاته لم تدخل في المخلوق؛ فإن الخالق غير المخلوق، فليس هنا تخصيصاً<sup>(١)</sup> بالذات، بل الله سبحانه بذاته وصفاته الخالق، وكل ما عداه مخلوق، وذلك عموم لا تخصيص فيه بوجه؛ إذ ليس إلا الخالق والمخلوق، والله وحده الخالق، وما سواه كله مخلوق.

وأما الأدلة الدالة على أن أفعال العباد صنع لهم، وأنها أفعالهم القائمة بهم، وأنهم هم الذين فعلوها؛ فكلها حق نقول بموجبها، ولكن لا ينبغي أن تكون أفعالاً لهم ومخلوقة مفعولة لله تعالى؛ فإن الفعل غير المفوعول، ولا نقول: إنها فعل لله، والعبد مضطر مجبر عليه، ولا نقول: إنها فعل للعبد،

---

(١) كذا في الأصول بالنصب: «تخصيصاً»، والجادة الرفع.

والله غير قادر عليها، ولا جا عمل العبد<sup>(١)</sup> فاعلأ لها<sup>(٢)</sup>، ولا نقول: إنها مخلوقة بين خالقين مستقلين بالإيجاد والتأثير، وكل هذه أقوال باطلة.

قالت القدرية: معنى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مما لا يقدر عليه غيره، وأما الأفعال التي يقدر عليها العباد فإضافتها إليهم تنفي إضافتها إليه، وإلا لزم وقوع مفعول بين فاعلين، وهو محال.

قال أهل السنة: إضافتها إليهم فعلًا وكسبًا لا ينفي إضافتها إليه سبحانه خلقًا ومشيئته، فهو سبحانه الذي شاءها وخلقها، وهم الذين فعلوها وكسبوها حقيقة، فلو لم تكن مضافة إلى مشيئته وقدرته وخلقته لاستحال وقوعها منهم؛ إذ العباد أعجز وأقل من أن يفعلوا ما لم يشاء الله، ولم يقدر عليه، ولا خلقه.

## فصل

ومما يدل على قدرته سبحانه على أفعالهم قوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَرِيرٌ﴾ [الحشر: ٦]، واعتراض القدرية على الاستدلال بذلك، والجواب عنه نظير الاعتراض على قوله: ﴿خَلَقَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وجوابه.

ونزيده تقريرًا: إن أفعالهم أشياء ممكنة، والله تعالى قادر على كل ممكן، فهو الذي جعلهم فاعلين بقدرته ومشيئته، ولو شاء ل الحال بينهم وبين الفعل، مع سلامته آلة الفعل منهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّ

(١) «م» «ج»: «للعبد» خطأ.

(٢) من قوله: «ولا نقول إنها فعل للعبد» إلى هنا ساقط من «د».

الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَنَاهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنَّ أَخْتَلَفُوا فَهُنَّ مَنْ إِمَانَ  
وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَقْعُلُ مَا يُرِيدُ» [البقرة: ٢٥٣]  
وقال: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوْهُ» [الأنعام: ١١٢]، وقال: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَ  
مَنِ فِي الْأَرْضِ لَكُلُّهُمْ بَحِيًّا» [يونس: ٩٩]، فهو سبحانه يحول بين المرء وقلبه،  
وبين اللسان ونطقه، وبين اليد وبطشهما، وبين الرجل ومشيها، فكيف يُظن به  
ظنَّ السوء، ويُجعل له مَثَلُ السوء: أنه لا يقدر على ما يقدر عليه عباده، ولا  
تدخل أفعالهم تحت قدرته؟! تعالى الله عما يقول الجاهلون به والجاددون  
لقدره علوًا كبيرًا.

نعم، ولا نظن به ظنَّ السوء، ونجعل له مَثَلُ السوء: أنه يعاقب عباده  
على ما لم يفعلوه، ولا قدرة لهم على فعله، بل على ما فعله هو دونهم،  
واضطربهم إليه، وجبرهم عليه، وذلك بمنزلة عقوبة الزَّمْنِ إذا لم يطر إلى  
السماء، وعقوبة أشَّلَّ الـيـدـيـنـ عـلـىـ تـرـكـ الـكـتـابـةـ، وـعـقـوـبـةـ الـأـخـرـسـ عـلـىـ تـرـكـ  
الكلام.

فتعالى الله عن هذين المذهبين الباطلين المنحرفين عن سواء السبيل.

## فصل

ومن الدليل على خلق أعمال العباد قوله سبحانه: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ  
مِمَّا خَلَقَ طَلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاكًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ  
تَقِيقُكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيقُكُمْ بِأَسْكَنَكُمْ» [النحل: ٨١]، فأخبر أنه هو الذي  
جعل السرابيل، وهي الدروع والثياب المصنوعة، ومادتها لا تسمى سرابيل،  
ولا تسمى بذلك إلا بعد أن تحلها صنعة الأدميين وعملهم، فإذا كانت

مجمولة لله فهي مخلوقة له بجملتها: صورتها ومادتها وهيئتها.

ونظير هذا قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ يُوْتَكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَمِ يُوْتَا لَسْتَ خَفْوَنَهَا يَوْمَ ظَعَنِّكُمْ وَيَقَمِ إِقَامَتِكُمْ﴾ [النحل: ٨٠]، فأخبر سبحانه أنه أنس البوس المصنوعة المستقرة والمنتقلة مجمولة له، وهي إنما صارت بيوتاً بالصنعة الأدمية.

ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاهُ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَسْحُونِ﴾ [١٦] وخلقنا لهم من مثيلهم ما يرتكبون﴾ [يس: ٤١ - ٤٢]، فأخبر سبحانه أنه خالق الفلك المصنوع للعباد، وأبعد من قال: إن المراد به مثله هو الإبل؛ فإنه إخراج للمماثل حقيقة، واعتبار لما هو بعيد عن المماثلة.

ونظير ذلك قوله تعالى حكاية عن خليله أنه قال لقومه: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْسُنُونَ﴾ [١٧] وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٥ - ٩٦]، فإن كانت «ما» مصدرية - كما قدره بعضهم - فالاستدلال ظاهر وليس بقوى؛ إذ لا تناسب بين إنكاره عليهم عبادة ما ينحوه بأيديهم وبين إخبارهم بأن الله خلق أعمالهم من عبادة تلك الآلهة ونحوها وغير ذلك، فال الأولى أن تكون «ما» موصولة، أي: والله خلقكم وخلق آهلكم التي عملتموها بأيديكم، فهي مخلوقة له، لا آلهة شرقاء معه، فأخبر أنه خلق معمولهم وقد حلل عملهم وصنعهم، ولا يقال: المراد مادته؛ فإن مادته غير معمولة لهم، وإنما يصير معمولاً بعد عملهم.

## فصل

وقد أخبر سبحانه أنه هو الذي جعل أئمة الخير يدعون إلى الهدى،

وأئمة الشر يدعون إلى النار، فتلك الإمامة والدعوة بجعله، فهي مجعلة له وفعل لهم، قال تعالى عن آل فرعون: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَبْيَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص: ٤١]، وقال عن أئمة الهدى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَبْيَةً يَهَدُونَ بِإِمْرِنَا﴾ [الأنياء: ٧٣]، فأخبر أن هذا وهذا بجعله مع كونه كسباً وفعلاً للأئمة.

ونظير ذلك قول الخليل عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، فأخبر الخليل أن الله سبحانه هو الذي يجعل المسلم مسلماً، وعند القدرة هو الذي جعل نفسه مسلماً، لا أن الله جعله مسلماً<sup>(١)</sup>، ولا جعله إماماً يهدي بأمره، ولا جعل الآخر إماماً يدعو إلى النار على الحقيقة، بل هم الجاعلون لأنفسهم كذلك حقيقة، ونسبة هذا يجعل إلى الله مجاز بمعنى التسمية، أي: سمعنا مسلمين لك، وكذلك ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَبْيَةً﴾ أي: سمعناهم كذلك، وهم جعلوا أنفسهم أئمة رشد وضلال، فمنهم الحقيقة، ومنه تعالى المجاز والتعبير.

## فصل

ومن ذلك إخباره سبحانه بأنه هو الذي يُلْهِمُ العبد فجوره وتقواه، والإلهام: الإلقاء في القلب، لا مجرد البيان والتعليم، كما قاله طائفة من المفسرين؛ إذ لا يقال لمن بين لغيره شيئاً وعلمه إيه: إنه قد ألهمه ذلك. هذا لا يُعرف في اللغة البتة، بل الصواب ما قاله ابن زيد، قال: «جعل فيها فجورها وتقوتها»<sup>(٢)</sup>.

(١) من قوله: «وعند القدرة» إلى هنا ساقط من «م».

(٢) أسنده الطبرى (٤٤٢/٢٤)، وانظر: «البسيط» (٥٥/٢٤).

وعليه دل حديث عمران بن حصين أن رجلاً من مزينة أو من جهنمة أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون، أشيءٌ فُضيَّ عليهم ومضى عليهم من قدر سبق، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم؟ قال: «بل شيءٌ فُضيَّ عليهم ومضى»، قال: فقييم العمل؟ قال: «من خلقه الله لإحدى المزلتين استعمله بعمل أهلها، وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿وَنَفِسٍ وَمَا سَوَّلَهَا﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورُهَا وَتَقْوَنَاهَا» [الشمس: ٧ - ٨] <sup>(١)</sup>.

قراءة هذه الآية عقب إخباره بتقدم القضاء والقدر السابق يدل على أن المراد بالإلهام استعمالها فيما سبق لها، لا مجرد تعريفها؛ فإن التعريف والبيان لا يستلزم وقوع ما سبق به <sup>(٢)</sup> القضاء والقدر.

ومن فسر الآية من السلف بالتعليم والتعريف فمراده: تعريف مستلزم الحصول ذلك، لا تعريف مجرد عن الحصول، فإنه لا يسمى إلهاماً، والله أعلم.

## فصل

ومن ذلك قوله تعالى: «وَسَرُّهُ أَنْ تَقُولُوا أَجَهْرُ وَإِلَهٌ إِنَّهُ رَّبُّكُمْ إِذَا دَعَاهُ الْمُصْدُورُ <sup>(٣)</sup> أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ الظَّفِيفُ الْخَيْرُ» [الملك: ١٣ - ١٤]، وذات الصدور كلمة جامعة لما يشتمل عليه الصدر من الاعتقادات والإرادات والحب والبغض، أي: صاحبة الصدور، فإنها لما كانت فيها قائمة بها، تُنسب إليها نسبة الصحبة والملازمية.

(١) تقدم تخريرجه في (٢٧).

(٢) «د»: «من».

وقد اختلف في إعراب **﴿من خلق﴾** هل هو الرفع أو النصب؟

فإن كان مرفوعاً فهو استدلال على علمه بذلك بخلقه له، والتقدير: إنه يعلم ما تضمنته الصدور، وكيف لا يعلم الخالق ما خلقه. وهذا الاستدلال في غاية الظهور والصحة؛ فإن الخلق يستلزم حياة الخالق وقدرته وعلمه ومشيته.

وإن كان منصوبًا فالمعنى: ألا يعلم مخلوقه، وذكر لفظة «من» تغليباً، ليتناول العلم العاقل وصفاته.

وعلى التقديرتين؛ فالآية دالة على خلق ما في الصدور، كما هي دالة على علمه سبحانه به.

وأيضاً فإنه سبحانه خلقه لما في الصدور دليلاً<sup>(١)</sup> على علمه بها، فقال: **﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَق﴾** أي: كيف يخفي عليه ما في الصدور وهو الذي خلقه، فلو كان ذلك غير مخلوق له بطل الاستدلال به على العلم، فخلقه سبحانه للشيء من أعظم الأدلة على علمه به، فإذا انتفى الخلق انتفى دليل العلم، فلم يبق معكم ما يدل على علمه بما تنتوي عليه الصدور إذا كان غير خالق لذلك.

وهذا من أعظم الكفر برب العالمين، وجحود لما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى آخرهم، وعلم بالضرورة أنهم أقوه إلى الأمم كما ألقوا إليهم أنه إله واحد لا شريك له.

---

(١) كذا في الأصول بالنصب، والأشبه بالسياق الرفع، وفي الجملة شيء.

## فصل

ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن خليله إبراهيم أنه قال: **﴿رَبِّيْ أَجْعَلْنِي مُقِيمًا الصَّلَوةَ وَمِنْ دُرِّيْتِي﴾** [إبراهيم: ٤٠]، قوله: **﴿فَأَجْعَلْتُ أَفْقَدَةَ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾** [إبراهيم: ٣٧]، قوله تعالى: **﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ أَتَبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾** [الحديد: ٢٧]، قوله تعالى حكاية عن زكريا أنه قال عن ولده: **﴿وَلَأَجْعَلَهُ رَبِّيْ رَضِيَّا﴾** [مرim: ٦] أي: مرضياً.

وقال في الطرف الآخر: **﴿فِيمَا نَقَضُهُمْ مِّثْقَلُهُمْ لَعَنَّهُمْ وَجَعَلْنَا فَلُوْهُمْ قَلِيسِيَّةً﴾** [المائدة: ١٣]، وقال: **﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكْتَنَةً أَنْ يَقْعُدُهُمْ وَوُفُّقُهُمْ فِي أَذَانِهِمْ وَقُرْبًا﴾** [الأنعام: ٢٥]، وهذه الأكتنة والوقر هي شدة البغض والنفرة والإعراض التي لا يستطيعون معها سمعاً ولا عقلاً.

والتحقيق أن هذا ناشئ عن الأكتنة والوقر، فهو وجوب ذلك ومقتضاه، فمن فسر الأكتنة والوقر به فقد فسرهما بموجبهما ومقتضاهما.

وبكل حال فتلك النفرة والإعراض والبغض من أفعالهم، وهي مجعلة الله سبحانه، كما أن الرأفة والرحمة وميل الأفتدة إلى بيته هو من أفعالهم، والله جاعله، فهو الجاعل للذوات وصفاتها وأفعالها وإراداتها واعتقاداتها، فذلك كله مجعل مخلوق له، وإن كان العبد فاعلاً له باختياره وإرادته.

فإن قيل: هذا كله معارض بقوله تعالى: **﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَابِيَّةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَارِمٍ﴾** [المائدة: ١٠٣]، والبحيرة والسابيبة إنما صارت كذلك بجعل العباد لها، فأخبر سبحانه أن ذلك لم يكن بجعله.

قيل: لا تعارض بحمد الله بين نصوص الكتاب بوجهٍ ما، والجعل هنا جعل شرعي أمري، لا كوفي قدرى؛ فإنَّ الْجَعْلَ فِي كِتَابِ اللَّهِ يُنْقَسِمُ إِلَى هَذِينَ النَّوْعَيْنِ، كَمَا يُنْقَسِمُ إِلَيْهِمَا الْأَمْرُ وَالْإِذْنُ وَالْقَضَاءُ وَالْكِتَابَةُ وَالْتَّحْرِيمُ كَمَا سِيَّاقٌ بِيَانِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَنَفَى سَبْحَانَهُ عَنِ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ جَعْلُهُ الدِّينِيُّ الشَّرِيعِيُّ، أَيْ: لَمْ يُشْرِعْ ذَلِكَ وَلَا أَمْرَ بِهِ، وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا افْتَرُوا عَلَيْهِ الْكَذْبُ، وَجَعَلُوا ذَلِكَ دِيَنًا لَهُ بِلَا عِلْمٍ.

ومن ذلك قوله تعالى: «**لَيَجْعَلَ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ وَالْقَاتِلَةُ فُلُوْبُهُمْ**» [الحج: ٥٣]، فأخبر سبحانه أن هذه الفتنة الحاصلة بما ألقى الشيطان هي بجعله سبحانه، وهذا جعل كوفي قدرى.

ومن هذا قوله عليه السلام في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن حبان في «صحيحه»<sup>(١)</sup>: «اللهم اجعلني لك شَكَارًا، لك ذَكَارًا، لك رهابًا، لك مطْواغًا، لك مختبئًا، إليك أَوَّلًا مُنْبِيًا»، فسأل ربه أن يجعله كذلك، وهذه كلها أفعال اختيارية واقعة بإرادة العبد و اختياره.

وفي هذا الحديث: «وَسَدَّدَ لِسَانِي»، فتسديد اللسان جعله ناطقاً بالسداد من القول.

ومثله قوله في الحديث الآخر: «اللهم اجعلني لك مخلصاً»<sup>(٢)</sup>.

(١) «المستند» (١٩٩٧)، «صحيف ابن حبان» (٩٤٧)، وأخرجه أيضًا أبو داود (١٥١١)، والترمذى (٣٥٥١)، وابن ماجه (٣٨٣٠) من حديث عبد الله بن عباس، وقال الترمذى: «حسن صحيح».

(٢) أخرجه أَحْمَد (١٩٢٩٣)، وأبو داود (١٥٠٨)، والنَّسَائِيُّ فِي «الْكَبْرَى» (٩٩٢٩) من حديث زيد بن أرقم، وفي إسناده داود الطفاوى: ضعيف، وأبو مسلم البجلي: لا

ومثله قوله: «اللهم اجعلني أعظم شكرك، وأكثر ذكرك، واتبع نصيحتك، وأحفظ وصيتك»<sup>(١)</sup>.

ومثله قول المؤمنين: «رَبَّنَا أَفْرَغَ عَلَيْنَا صَبَرًا وَتَبَّتْ أَقْدَامَنَا» [البقرة: ٢٥٠]، فالصبر وثبات الأقدام فعلان اختياريان، ولكن التصوير والتشبيت فعل الرب تعالى، وهو المسؤول، والصبر والثبات فعلهم القائم بهم حقيقة.

ومثله قوله: «رَبِّ أَوْزَعَنِي أَنَّ أَشْكُرْ نِعْمَتَكَ أَمْ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالدَّى وَأَنَّ أَعْمَلَ صَدِيقَاتَرَضْلَهُ» [النمل: ١٩]، قال ابن عباس والمفسرون بعده: ألهمني<sup>(٢)</sup>.

قال أبو إسحاق: «وتأويله في اللغة: كفني عن الأشياء إلا عن شكر نعمتك»<sup>(٣)</sup>.

ولهذا يقال في تفسير الموزع أنه المولع، ومنه الحديث: كان رسول الله ﷺ موزعاً بالسواك<sup>(٤)</sup>، أي مولعاً به، كأنه كفت ومبعد إلا منه.

---

يعرف، كما في «الميزان» (٤/٧) (٤/٥٧٣).

(١) أخرجه أحمد (٨١٠١)، والطیالسي (٢٦٧٦) من حديث أبي هريرة، وفي إسناده الفرج بن فضالة فيه ضعف، كما في «الميزان» (٣/٣٤٤).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٨/٢٨)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٩/٢٨٥٨).

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٤/١١٢).

(٤) لم أقف عليه مسندًا، وإن كان متداولاً في كتب اللغة والغريب، ينظر: «العين» (٢/٢٠٧)، «الغريبين» (٦/١٩٩٥).

وقال في «الصحاح»<sup>(١)</sup>: «وَزَعْتُهُ أَزْعَهُ وَزَعَّا: كفته، فاتَّزعَ عنه، أي: كَفَّ، وأَوْرَعْتُهُ بِالشَّيْءِ: أغريته به، فأوزع به، فهو مُوزع به، أي: مُغرى به. واستوزعت الله شكره فأوزعني، أي: استلهمته فاللهمني».

فقد دار معنى اللفظة على معنى: ألهمني ذلك، واجعلني مُغرى به، وكفني عما سواه.

وعند القدرة أن هذا غير مقدور للرب، بل هو عين مقدور العبد.

### فصل

ومن ذلك قوله تعالى: «وَاعْمَأْوَانَ فِي كُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَا كَنَّ اللَّهَ حَبَّتِ إِيمَانَ وَرَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّةٌ إِلَيْكُمُ الْكُفْرُ وَالْفُسُوقُ وَالْعَصِيَانُ وَلَتَّكَ هُمُ الْرَّاشِدُونَ» [الحجرات: ٧]، فتحبيب سبحانه الإيمان إلى عباده المؤمنين هو إلقاء محبته في قلوبهم، وهذا لا يقدر عليه سواه، وأما تحبيب العبد الشيء إلى غيره فإنما هو بتزيينه وذكر أو صافه وما يدعو إلى محبته، فأخبر سبحانه أنه جعل في قلوب عباده المؤمنين الأمرين: حبه وحسن الداعي إلى حبه، وألقى في قلوبهم كراهة ضده من الكفر والفسوق والعصيان، وأن ذلك محضر فضله ومته عليهم، حيث لم يكلهم إلى أنفسهم، بل تولى هو سبحانه هذا التحبيب والتزيين، وتكريره ضده، فجاد عليهم به فضلاً منه ونعمته، والله علیم بموضع فضله، ومن يصلح له ومن لا يصلح، حكيم يجعله في مواضعه.

ومن ذلك قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِصَرِّهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ۝ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَا كَنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ

(١) (١٢٩٧/٣).

**إِنَّهُ رَبُّ عَزِيزٍ حَكِيمٍ** [الأفال: ٦٢ - ٦٣]، وقال: **«وَلَذِكْرُ وَأَيْقَنَتُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفْ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا»** [آل عمران: ١٠٣]، وتتأليف القلوب جعل بعضها يألف بعضًا، ويميل إليه ويحبه، وهو من أفعالها الاختيارية، وقد أخبر سبحانه أنه هو الذي فعل ذلك لا غيره.

ومن ذلك قوله تعالى: **«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ كُرُونَعَمَتَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوُا إِلَيْكُمْ أَيْدِيهِمْ فَكَفَ أَيْدِيهِمْ عَنْهُمْ** [المائدة: ١١]، أخبر سبحانه بفعلهم وهو الهم، وبفعله وهو كفهم عمما هموابه، ولا يصح أن يقال: إنه سبحانه أشل أيديهم أو أماتهم، أو أنزل عليهم عذابًا حال بينهم وبين ما هموابه، بل كف قدرهم وإراداتهم مع سلامة حواسهم وبنائهم، وصحة آلات الفعل منهم.

وعند القدرة هذا محال، بل هم الذين يكفون أنفسهم، والقرآن صريح في إبطال قولهم.

ومثله قوله تعالى: **«وَهُوَ الَّذِي كَفَ أَيْدِيهِمْ عَنْهُمْ وَأَيْدِي كُوَافِرُهُمْ عَنْهُمْ بَطَنَ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرُهُمْ عَلَيْهِمْ** [الفتح: ٢٤]، فهذا كف أيدي الفريقين مع سلامتها وصحتها، وهو بأن حال بينهم وبين الفعل فكف بعضهم عن بعض.

ومن ذلك قوله تعالى: **«وَمَا يَكُونُ مِنْ نِعْمَةٍ فِينَ اللَّهِ** [النحل: ٥٣]، والإيمان والطاعة من أجل النعم، بل بما أجل النعم على الإطلاق، فهما منه سبحانه تعليمًا وإرشادًا وإلهامًا وتوفيقًا ومشيئة وخلقًا، ولا يصح أن يقال: إنما منه أمراً وبيانًا فقط، فإن ذلك حاصل بالنسبة إلى الكفار والعصاة، فتكون نعمته على أكفر الخلق كنعمته على أهل الإيمان والطاعة والبر منهم، إذ نعمة البيان

والإرشاد مشتركة، وهذا قول القدرية، وقد صرّح به كثير منهم، ولم يجعلوا الله على العبد نعمة في مشيّته له، وَخَلْقُه فِعله وتوفيقه إِيّاه حتّى فعله، وهذا من قولهم الذي باینوا به جميع الرسل والكتب.

وطردوا ذلك حتى لم يجعلوا الله على العبد مِنَّةً في إعطائه الجزاء، بل قالوا: ذلك محض حقّه الذي لا مِنَّةُ الله عليه فيه، واحتجوا بقوله: **﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾** [فصلت: ٨]، قالوا: أي: غير ممنون به عليهم، إذ هو جزاء أعمالهم وأجورها.

قالوا: والمِنَّةُ تكدر النعمة والعطية.

ولم يدع هؤلاء للجهل بالله موضعًا، وقادوا مِنْتَهَهُ على مِنَّةِ المخلوق، فإنهم مشبهة في الأفعال، معطلة في الصفات.

وليست المِنَّةُ في الحقيقة إِلاّ لله، فهو الماَنُّ بفضلِه، وأهل سماواته وأهل أرضه في محض مِنْتَهَهُ عليهم، قال تعالى: **﴿يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنَّ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُونَ أَعْنَى إِسْلَامَكُمْ كُلُّ الَّذِي يَسْعُنُ عَلَيْكُمْ كُلُّ أَنْ هَدَنَكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنَّ كُلَّمُصْلِيْدِيْنَ﴾** [الحجرات: ١٧]، وقال تعالى لـكليمـه موسـى: **﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾** [طه: ٣٧]، وقال: **﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مُوسَى وَهَرُونَ﴾** [الصفات: ١١٤]، وقال: **﴿وَأَنْرِيدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ أَسْتَضْعِفُ فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أَبْيَةً وَتَجْعَلَهُمُ الْوَرَثِينَ﴾** [التتصـصـ: ٥].

ولما قال النبي ﷺ للأنصار: **«ألم أجدكم ضلالاً فهذاكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟»** قالوا: الله ورسوله أمن<sup>(١)</sup>.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١) من حديث عبد الله بن زيد.

وقالت الرسل لقومهم: «إِنَّمَا يُحِبُّ الْأَنْبَارَ مَنْ كُفِّرَ وَلَا كُنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ» [إبراهيم: ١١].

فِيمَتَه سُبْحَانَه مَحْض إِحْسَانَه وَفَضْلَه وَرَحْمَتِه، وَمَا طَابَ عِيشَ أَهْلَ الجَنَّةِ فِيهَا إِلَّا بِمِنْتَهٖ عَلَيْهِمْ، وَلَهُذَا قَالَ أَهْلَهَا وَقَدْ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسْأَلُونَ: «إِنَّا كُنَّا نَاقْبَلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ» <sup>(١)</sup> فَمَنْ أَنْهَا اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَنَا عَذَابَ السَّمُومِ» [الطور: ٢٦ - ٢٧]، فَأَخْبَرُوا - لِمَعْرِفَتِهِم بِرَبِّهِمْ وَحْقَهِ عَلَيْهِمْ - أَنْ نِجَاتِهِم مِنْ عَذَابِ السُّمُومِ بِمَحْضِ مِنْتَهِهِ عَلَيْهِمْ.

وَقَدْ قَالَ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِاللَّهِ، وَأَحْبَبُهُمْ إِلَيْهِ، وَأَقْرَبُهُمْ مِنْهُ، وَأَطْوَعُهُمْ لَهُ: «إِنَّمَا يُدْخِلُ أَحَدُكُمُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ». قَالُوا: وَلَا أَنْتَ بِإِنْسَانٍ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةِ مِنْهُ وَفَضْلِهِ».

وَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ لَكَانَتْ رَحْمَتُهُ لَهُمْ خَيْرًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ»، وَالْأُولَى فِي «الصَّحِيفَةِ» <sup>(١)</sup>، وَالثَّانِي فِي «الْمُسْنَدِ» وَ«السِّنْنِ»، وَصَحَّحَهُ الْحَافِظُ حَمَّادُ الْحَمَّادِ وَغَيْرُهُ <sup>(٢)</sup>.

فَأَخْبَرَ سِيدَ الْعَالَمِينَ وَالْعَالَمِينَ أَنَّهُ لَا يُدْخِلُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ.

وَقَالَتِ الْقَدْرِيَّةُ: إِنَّهُمْ يُدْخَلُونَنَا بِأَعْمَالِهِمْ؛ لَثَلَاثَةٌ يُتَكَدِّرُ نِعِيمُهُمْ عَلَيْهِمْ بِمِنْتَهِهِ اللَّهُ، بِلَ يَكُونُ ذَلِكَ النِّعِيمُ عَوْضًا.

(١) أَخْرَجَهُ البَخَارِيُّ (٦٤٦٣)، وَمُسْلِمٌ (٢٨١٦) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ.

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٢١٥٨٩)، وَأَبُو دَاوُدَ (٤٦٩٩)، وَابْنِ مَاجَهَ (٧٧) مِنْ حَدِيثِ أَبِي بنِ كَعْبٍ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ (٧٢٧)، وَلَمْ أُعْثِرْ عَلَيْهِ فِي «الْمُسْتَدِرِكِ»، وَلَمْ أَجِدْ مِنْ عَزَّاهِ إِلَيْهِ مِنَ الْمُخَرَّجِينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وما رمى السلفُ – من الصحابة والتابعين ومن بعدهم – القدرةَ عن قوسٍ واحدةٍ إلا لعظم بدعهم، ومنافاتها لما بعث الله به أنبياءه ورسله.

فلو أتى العباد بكل طاعة، وكانت أنفاسهم كلها طاعات الله؛ لكانوا في محض مِنْتَهٰهِ وفضله، وكانت له المِنْتَهٰةُ عليهم، وكلما عظمت طاعة العبد كانت مِنْتَهٰةُ الله عليه أعظم، فهو المانٌ بفضلِه، فمن أنكر مِنْتَهٰهِ فقد أنكر إحسانه.

وأما قوله تعالى: «لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مُمْتَنُونَ» [فصلت: ٨]، فلم يختلف أهل العلم بالله ورسوله وكتابه أن معناه: غير مقطوع، ومنه: «رَبُّ الْمُنْتَنُونَ»، وهو الموت؛ لأنَّه يقطع العمر.

### فصل

ومن ذلك قوله تعالى: «فَأَغْرَيْنَا<sup>(١)</sup> بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» [المائدة: ١٤]، وقوله: «وَأَقْتَلَنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» [المائدة: ٦٤]، وهذا الإغراء والإلقاء محض فعله سبحانه، والتعادي والتباغض أثره، وهو محض فعلهم.

وأصل ضلال القدرة والجبرية من عدم اهتدائهم إلى الفرق بين فعله سبحانه وفعل العبد، فالجبرية جعلوا التعادي والتباغض فعلَ الرب تعالى دون المتعادين والمتباغضين، والقدرة جعلوا ذلك محض فعلهم الذي لا صنع لله فيه ولا قدرة ولا مشيئة، وأهل الصراط السوي جعلوا ذلك فعلهم، وهو أثر فعل الله وقدرته ومشيئته.

---

(١) في جميع الأصول: (وأغرينا).

كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسْبِبُ كُلَّ فِتْنَةٍ وَالْبَغْرِيْقُ﴾ [يونس: ٢٢]، فالتسير فعله، والسير فعل العباد، وهو أثر التسir، وكذلك الهدى والإضلal فعله، والاهتداء والضلالة أثر فعله، وهما أفعالنا القائمة بنا، فهو الهادي، والعبد المهتدي، وهو الذي يصل من يشاء، والعبد ضال، وهذا حقيقة وهذا حقيقة.

فالطائفتان عن الصراط المستقيم ناكبتان.

## فصل

ومن ذلك قوله تعالى عن خليله إبراهيم أنه قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيْ أَجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ إِيمَانًا وَلَحْبَنَى وَبَيْقَ أَنْ تَقْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، فمهما أمران: تجنب عبادتها، واجتنابها، فسأل الخليل ربه أن يجنبه وبنيه عبادتها؛ ليحصل منهم اجتنابها، فالاجتناب فعلهم، والتجنب فعله، ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله.

ونظير ذلك قول يوسف الصديق: ﴿رَبِّيْ أَسْتَجِنُ أَحَبُّ إِلَيْيَهِ مَمَّا يَدْعُونَيْ إِلَيْهِ وَالآَضْرَافِ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبِرُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [فاستجواب لدوربه وضرف عنه كيدهن إله وهو السميع العليم] [يوسف: ٣٤-٣٣]، وصرف كيدهن هو صرف دواعي قلوبهن، ومكرهن بالستهن وأعمالهن، وتلك أفعال اختيارية، وهو سبحانه الصراف لها، فالصرف فعله، والانصراف أثر فعله، وهو فعل النسوة.

ومن ذلك قوله سبحانه لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتَنَا لَقَدْ كِدَثَ تَرَكْنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قِيلًَا﴾ [الإسراء: ٧٤]، فالتشكيت فعله سبحانه، والثبات فعل رسوله، فهو سبحانه المثبت، وعده الثابت.

ومثله قوله: «يُشَيِّعُ اللَّهُ الَّذِينَ أَمْنُوا بِالْقَوْلِ أَثَابَتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضْلِلُ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَقْعُلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ» [إبراهيم: ٢٧]، فأخبر سبحانه أن تشييت المؤمنين، وإضلال الظالمين فعله، فإنه يفعل ما يشاء<sup>(١)</sup>، وأما الشبات والضلال فمحض أفعالهم.

ومن ذلك قوله تعالى: «فِيمَا نَقَضُهُمْ مِّا شَقَّهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا فَلُوَبَهُمْ قَسِيَّةً يُحَرِّفُونَ الْكَلَمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ» [المائدة: ١٣]، فأخبر أنه هو الذي قسّى قلوبهم حتى صارت قاسية، فالتساوية وصفها و فعلها، وهي أثر فعله، وهو جعلها قاسية، وذلك أثر معااصيهم ونقضهم ميشاقهم، وتركهم بعض ما ذكروا به، فالآلية مبطلة لقول القدرة والجبرية.

### فصل

ومن ذلك قوله تعالى: «فَأَخْرَجَنَّهُمْ قَنْجَتِينَ وَعَيْنَيْنِ وَكُنُوزٍ وَمَقَامَ كَرِيرٍ» [الشعراء: ٥٧-٥٨]، وهم إنما خرجوا باختيارهم، وقد أخبر أنه هو الذي أخرجهم، فالإخراج فعله حقيقة، والخروج فعلهم حقيقة، ولو لا إخراجه لما خرجوا.

وهذا بخلاف قوله: «وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِدُّكُمْ فِيهَا وَيُنْجِمُكُمْ إِخْرَاجًا» [نوح: ١٧-١٨]، و قوله: «هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِينِهِرِ لَا وَلَىٰ الْحَسْنِ» [الحاشر: ٢]، و قوله: «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ» [النحل: ٧٨]، فإن هذا إخراج لا صُنْعٌ لهم فيه؛ فإنه بغير اختيارهم وإرادتهم.

(١) من قوله: «فَأَخْبَرَ سَبَاحَهُ» إلى هنا ساقط من «م».

وأما قوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكُرَبِّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأفال: ٥]، فيحتمل أن يكون إخراجاً بقدره ومشيئته فيكون من الأول، ويحتمل أن يكون إخراجاً بوحيه وأمره فلا يكون من هذا، فيكون الإخراج في كتاب الله ثلاثة أنواع: أحدها: إخراج الخارج باختياره ومشيئته.

والثاني: إخراجه قهراً وكرهاً.

والثالث: إخراجه أمراً وشرعاً.

## فصل

وقد ظن طائفة من الناس أن من هذا الباب قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَاتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأفال: ١٧]، وجعلوا ذلك من أدلةهم على القدرة، ولم يفهموا مراد الآية، وليس من هذا الباب؛ فإن هذا خطاب لهم في وقعة بدر، حيث أنزل الله سبحانه ملائكته فقتلوا أعداءه، فلم ينفرد المسلمون بقتلهم، بل قتلتهم الملائكة.

وأما رمية النبي ﷺ فقد ذكره كان هو الحَدْف والإلقاء، وأما إيصال ما رمى به إلى وجوه العدو مع البعض، وإيصال ذلك إلى وجوه جميعهم؛ فلم يكن من فعله، ولكنه فعل الله وحده، فالرمي يُراد به الحَدْف والإلقاء، فأثبتت له الحَدْف بقوله: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾، ونفي عنه الإيصال بقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾.

## فصل

ومن ذلك قوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَصْحَاحُكَ وَأَبْكَنَ﴾ [النجم: ٤٣]، والضحك والبكاء فعلان اختياريان للعبد، فهو سبحانه المضحك المبكي حقيقة،

والعبد هو الضاحك الباكى حقيقة، وتأويل الآية بخلاف ذلك إخراج للكلام عن ظاهره بغير موجب.

ولا منافاة بين ما يذكر من تلك التأويلات وبين ظاهره؛ فإن إضحاك الأرض بالنبات، وإبکاء السماء بالمطر، وإضحاك العبد وإبکاءه بخلق آلات الضحك والبكاء له = لا ينافي حقيقة اللفظ وموضوعه ومعناه، من أنه جاعل الضحك والبكاء فيه، بل الجميع حق.

### فصل

ومن ذلك قوله تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي يُرِيدُكُمُ الْبَرَقَ حَوْفًا وَطَمَعًا﴾** [الرعد: ١٢]، ورؤية البرق أمر واقع باختيارهم، فالإرادة فعله، والرؤبة فعلنا، ولا يقال: إرادة البرق خلقه؛ فإن خلقه لا يسمى إرادة، ولا يستلزم رؤيتنا له، بل إراءتنا له جعلنا نراه، وذلك فعله سبحانه.

ومن ذلك قول الخضر لموسى: **﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشْدَهُمَا وَيَسْتَخِرُجَا كَزَهُمَا﴾** [الكهف: ٨٢]، فبلغ الأشد ليس من فعلهما، واستخرج الكنز من أفعالهما الاختيارية، وقد أخبر أن كليهما يرادته سبحانه.

ومن ذلك قوله تعالى عن السحرة: **﴿وَمَا هُمْ بِضَارَّينَ بِهِمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾** [البقرة: ١٠٢]، وليس إذنه هنا أمره وشرعه، بل قضاوه وقدره ومشيته، فهو إذن كوني قدرى، لا ديني أمري.

### فصل

ومن ذلك قوله تعالى: **﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ النَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾** [الفتح: ٢٦]، وكلمة النقوى هي الكلمة التي يُتقن الله بها، وأعلى أنواع هذه

الكلمة هي قول: لا إله إلا الله، ثم كل كلمة يُتقى الله بها بعدها فهي من الكلمة التقوى، وقد أخبر سبحانه أنه أَلْزَمَهَا عباده المؤمنين، فجعلها لازمة لهم لا ينفكون عنها، فبِإِلَزَامِهِ التَّرْمُوهَا، وَلَوْلَا إِلَزَامِهِ لَهُمْ إِيَاهَا لَمَا التَّرْمُوهَا، والتَّرْمُوهَا فعل اختياري تابع لإرادتهم و اختيارهم، فهو المُلْزِمُ وهم الملزمون.

## فصل

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَنَ حَقَّ هَلُوعًا﴾<sup>(١)</sup> إِذَا مَسَهُ الشَّرُّ جَرُوعًا<sup>(٢)</sup> وَإِذَا مَسَهُ الْخَيْرُ مَمُوعًا﴾ [المعارج: ٢١ - ١٩]، وهذا تفسير الهلوة، والهلع شدة الحرص الذي يترب علىه الجزع والمنع، فأخبر سبحانه أنه خلق الإنسان كذلك، وذلك صريح في أن هَلَعَه مخلوق الله، كما أن ذاته مخلوقة، فالإنسان بجملته ذاته وصفاته وأفعاله وأخلاقه مخلوق الله، ليس فيه شيء خَلَقَ الله وشيء خَلَقَ غيره، بل الله خالق الإنسان بجملته وأحواله كلها، فالهلع فعله حقيقة، والله خالق ذلك فيه حقيقة، فليس الله سبحانه بهلوة، ولا العبد هو الخالق لذلك.

## فصل

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠٠]، وإذنه هنا قضاوه وقدره، لا مجرد أمره وشرعه، كذلك قال السلف في تفسير هذه الآية.

قال ابن المبارك، عن الثوري: «بقضاء الله»<sup>(١)</sup>.

---

(١) أسنده الطبرى (١٢ / ٣٠٠).

وقال محمد بن جرير: «يقول جل ذكره لنبيه: وما كان لنفس خلقتها من سبيل إلى أن تصدقك إلا بأن آذن لها في ذلك، فلا تُجْهِدْ نفسك في طلب هداها، وبلغها وعید الله، ثم خلّها، فإن هداها بيد حالقها»<sup>(١)</sup>.

وما قبل الآية وما بعدها لا يدل إلا على ذلك، فإنه سبحانه قال: ﴿وَقَاتَ شَاءَ رَبُّكَ لَمَّا مَنَ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُ جِمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكَرِّهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا كَانَ لِفَنِيسَ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٩٩ - ١٠٠]، أي: لا تكفي دعوتك في حصول الإيمان حتى يأذن الله لمن دعوه أن يؤمن، ثم قال: ﴿فُلُّ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْأَكِيدُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

قال ابن جرير: «يقول تعالى: يا محمد، قل لهؤلاء المشركين السائليك الآيات على صحة ما تدعوه إليه من توحيد الله وخلع الأنداد والأوثان: انظروا أيها القوم - ماذا في السماوات من الآيات الدالة على حقيقة ما أدعوكم إليه من توحيد الله، من شمسها وقمرها، واختلاف لياتها ونهارها، ونزول الغيث بأرزاق العباد من سحابها، وفي الأرض من جبالها، وتصدقها ببناتها وأقوافها أهلها، وسائر صنوف عجائبهها، فإن في ذلك لكم - إن عقلتم وتدبرتم - عظة ومعتبراً، ودلالة أن ذلك من فعل من لا يجوز أن يكون له في ملكه شريك، ولا له على حفظه وتدبره ظهير يغنيكم عمما سواها من الآيات. وما يغنى ذلك عن قوم قد سبق لهم من الله الشقاء، وقضى عليهم في أم الكتاب أنهم من أهل النار، فهم لا يؤمنون بشيء من ذلك، ولا يصدقون به، ولو جاءتهم

(١) «جامع البيان» (٢٩٩ / ١٢).

كل آية حتى يروا العذاب الأليم»<sup>(١)</sup>.

## فصل

ومن ذلك قوله تعالى: «وَكُلَّ إِنْسَنٍ أَزْمَنَهُ طَبِيرٌ وَفِي عُنْقِهِ وَنَخْرُجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَتَبَاهُ مَنْشُورًا» [الإسراء: ١٣]، قال ابن جرير: «وكل إنسان أزمانه ما قضي له أنه عامله، وما هو صائر إليه من شقاء أو سعادة بعمله في عنقه لا يفارقه»<sup>(٢)</sup>، وهذا يجمع ما قاله الناس في الآية، وهو ما طار له من الشقاء والسعادة، وما طار عنه من العمل.

ثم ذكر عن ابن عباس قال: «طائره: عمله وما قدر عليه، فهو ملازم له أينما كان، وزائل معه أينما زال».

وكذلك قال ابن جريج وقتادة ومجاحد: «هو عمله»، زاد مجاهد: «وما كتب الله له»، وقال وقتادة أيضًا: «سعادته وشقاوته بعمله»<sup>(٣)</sup>.

قال ابن جرير: «إإن قال قائل: فكيف قال: «أَزْمَنَهُ طَبِيرٌ وَفِي عُنْقِهِ» إن كان الأمر على ما وصفت، ولم يقل: في يديه، أو رجليه، أو غير ذلك من أعضاء الجسد؟»

قيل: لأن العنق هي موضع السمات، وموضع القلائد والأطواق، وغير ذلك مما يزين أو يشين، فجرى كلام العرب بنسبة الأشياء اللاحمة لبني آدم وغيرهم إلى أنفاسهم، وكثير استعمالهم ذلك حتى أضافوا الأشياء اللاحمة

(١) «جامع البيان» (١٤ / ٣٠٠ - ٣٠١) باختصار.

(٢) «جامع البيان» (١٤ / ٥١٨).

(٣) أسنده هذه الآثار في «جامع البيان» (١٤ / ٥٢٠).

سائر الأبدان إلى الأعناق، كما أضافوا جنابات أعضاء الأبدان إلى اليد، فقالوا: ذلك بما كسبت يداه، وإن كان الذي جرّ عليه لسانه أو فرجه، فكذلك قوله: «أَلَزْمَتْهُ طَبِيرَةٌ فِي عَنْقِهِ»<sup>(١)</sup>.

وقال الفراء: «الطائر معناه عندهم: العمل»<sup>(٢)</sup>.

قال الأزهري: «والأصل في هذا: أنَّ الله سبحانه لما خلق آدم علم المطیع من ذريته والعاصي، فكتب ما علمه منهم أجمعين، وقضى بسعادة من علمه مطیعاً، وشقاوة من علمه عاصياً، فطار لكل ما هو صائر إليه عند خلقه وإن شائه»<sup>(٣)</sup>.

وأما قوله: «في عنقه» فقال أبو إسحاق: «إِنَّمَا يُقَالُ لِلشَّيْءِ الْلَّازِمُ: هَذَا فِي عَنْقِ فَلَانِ، أَيْ: لِزُومِهِ لِهِ كَلْزُومِ الْقَلَادَةِ مِنْ بَيْنِ مَا يُلْبِسُ فِي الْعَنْقِ»<sup>(٤)</sup>.

قال أبو علي: «هذا مثل قولهم: طوّقْتُكَ كَذَا، وقلّدْتُكَ كَذَا، أَيْ: صرفه نحوك وألزمتك إِيَّاهُ، ومنه: قلّدَهُ السُّلْطَانُ كَذَا، أَيْ: صارت الولاية في لزومها له في موضع القلادة، ومكان الطوق»<sup>(٥)</sup>.

وقيل: إنما خص العنق؛ لأن عمله لا يخلو إما أن يكون خيراً أو شراً،

(١) «جامع البيان» (١٤/٥٢١).

(٢) «معاني القرآن» (٢/١١٨) بمعنى.

(٣) «تبذيب اللغة» (١٤/١١) باختصار.

(٤) «معاني القرآن وإعرابه» (٣/٢٣٠) بتصرف.

(٥) «الحججة للقراء السبعة» (٥/٨٩).

وذلك مما يزين أو يشين، كالحُلْي والغُلّ، فأضيف إلى الأعنق<sup>(١)</sup>.

قالت القدرة: إِلَزَامُهُ ذَلِكَ: وسُمِّيَ بِهِ وَتَعْلِيمُهُ بِعِلْمٍ تُعَرَّفُ بِهِ الْمَلَائِكَةُ أَنَّهُ سَعِيدٌ أَوْ شَقِيقٌ، وَالْخَبَرُ عَنْهُ بِذَلِكَ، لَا أَنَّهُ لَزِمٌ الْعَمَلُ فَجَعَلَهُ لَازِمًا لَهُ.

قال أهل السنة: هذه طريقة لكم معروفة في تحريف الكلم عن مواضعه، سلكتمها في الختم والطبع والقفل، وهذا لا يعرفه أهل اللغة، وهو خلاف حقيقة اللفظ، وما فسره به أعلم الأمة بالقرآن، ولا يُعرف ما قلتمنوه عن أحد من سلف الأمة البتة، ولا فَسَرَ الآية به غيركم، ولا يصح حمل الآية عليه؛ فإن الخبر عنه بذلك، والعلامة التي أعلم بها؛ إنما حصل بعد طائره اللازم له من عمله، فلما لزمته ذلك الطائر ولم ينفك عنه أخبر عنه بذلك، وصارت عليه علامته وسمته.

ونحن قد أربناكم أقوال أئمة الهدى وسلف الأمة في الطائر، فأرؤنا قولكم عن واحد منهم قاله قبلكم.

وكل طائفه من أهل البدع تجرّ القرآن إلى بدعتها وضلالتها، وتفسّره بمذاهبها وأرائها، والقرآن بريء من ذلك، وبإله التوفيق.

## فصل

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّنْ رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا يُهْمِسُهُمْ وَنَذِلَّكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [الحجر: ١١-١٣]، وقد وقع هذا المعنى في القرآن في موضعين: هذا أحدهما، والثاني في سورة الشعراة في

---

(١) من جملة: «وقال الفراء» إلى هنا مقتبس من «البسيط» للواحدي (١٣/٢٧٧-٢٧٩).

قوله: «وَلَوْزَانَهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١﴾ فَقَرَاهُ وَعَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ كَذَلِكَ سَلَكُنَّهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٣﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ» [الشعراء: ٢٠١-١٩٨]، قال ابن عباس: «سلك الشرك في قلوب المكذبين، كما سلك الخرزة في الخيط»<sup>(١)</sup>.

وقال أبو إسحاق: «أي: كما فعل بالمجرمين الذين استهزءوا بمن تقدم من الرسل، كذلك سلك الضلال في قلوب المجرمين»<sup>(٢)</sup>.

وأختلفوا في مفسّر الضمير في قوله: «نَشَّلَكُهُ»، فقال ابن عباس: «سلكنا الشرك». وهو قول الحسن.

وقال الزجاج وغيره: «هو الضلال».

وقال الريبع: «يعني: الاستهزاء».

وقال الفراء: «التكذيب»<sup>(٣)</sup>.

وهذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد، والتکذیب والاستھزاء والشرك كل ذلك فعلهم حقيقة، وقد أخبر أنه سبحانه هو الذي سلكه في قلوبهم. وعندي في هذه الأقوال شيء؛ فإن الظاهر أن الضمير في قوله: «لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ» هو الضمير في قوله «سلكناه» فلا يصح أن يكون المعنى: لا يؤمنون بالشرك والتکذیب والاستھزاء.

(١) نسبة إليه في «البسيط» (١٢ / ٥٥١).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٣ / ١٧٤).

(٣) الفقرة مقتبسة من «البسيط» (١٢ / ٥٥٠).

فلا تصح تلك الأقوال إلا باختلاف مفسر الضميرين، والظاهر اتحاده، فالذى لا يؤمنون به هو الذى سلكه في قلوبهم وهو القرآن.

فإن قيل: فما معنى سلكه إياته في قلوبهم وهم ينكرون؟

قيل: سلكه في قلوبهم بهذه الحال، أي: سلكته غير مؤمنين به، فدخل في قلوبهم مكذبًا به، كما دخل في قلوب المؤمنين مصدقًا به، وهذا مراد من قال: إن الذي سلكه في قلوبهم هو التكذيب والضلالة، ولكن فسر الآية بالمعنى، فإنه إذا دخل في قلوبهم مكذبين به، فقد دخل التكذيب والضلالة في قلوبهم.

فإن قيل: فما معنى إدخاله في قلوبهم وهم لا يؤمنون به؟

قيل: لتقوم عليهم بذلك حجة الله، فدخل في قلوبهم وعلموا أنه حق وكذبوا به، فلم يدخل في قلوبهمدخول مصدق به مؤمن به مرضي به، وتکذبیهم به بعد دخوله في قلوبهم أعظم كفراً من تکذبیهم به قبل أن يدخل في قلوبهم؛ فإن المكذب بالحق بعد معرفته له شر من المكذب به ولم يعرفه، فتأمله فإنه من فقه التفسير، والله الموفق للصواب.

## فصل

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ ترَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيْطَانَ عَلَى الْكَفَّارِ تُزْهُمُهُ أَرْجُلَهُ﴾ [مريم: ٨٣]، فالإرسال هنا إرسال كوني قدرى، كإرسال الرياح، وليس بإرسال ديني شرعى، فهو إرسال تسليط، بخلاف قوله في المؤمنين: ﴿إِنَّ عَبَادِي لَيَسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، فهذا السلطان المنفي عنه على المؤمنين، هو الذى أرسل به جنده على الكافرين.

قال أبو إسحاق: «ومعنى الإرسال هنا التسليط، تقول: قد أرسلت

فلا نَا عَلَى فَلَانِ إِذَا سُلْطَتْهُ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ: «إِنَّ عَبْدَى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْفَارِينَ» فَأَعْلَمُ أَنَّ مَنْ اتَّبَعَهُ هُوَ سُلْطَانُهُ عَلَيْهِ<sup>(١)</sup>.

قَلْتُ: وَيَشْهُدُ لِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّنَهُ، وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ» [النَّحْل: ١٠٠]، وَقَوْلُهُ: «تَزَرُّهُمْ أَذًى»، فَالْأَذْ في الْلُّغَةِ: التَّحْرِيكُ وَالتَّهْبِيجُ، وَمِنْهُ يُقَالُ لِغَلِيَانِ الْقَدْرِ: الْأَزِيزُ؛ لِتَحْرِيكِ الْمَاءِ عِنْدِ الْغَلِيَانِ.

وَفِي الْحَدِيثِ: كَانَ لِصَدْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الْمِرْجَلِ مِنْ الْبَكَاءِ<sup>(٢)</sup>.

وَعَبَاراتُ السَّلْفِ تَدُورُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى.

قَالَ أَبْنُ عَبَّاسٍ: «تَغْرِيهِمْ إِغْرَاءً»<sup>(٣)</sup>، وَفِي رَوَايَةِ أُخْرَى عَنْهُ: «تَشْلِيهِمْ إِشْلَاءً»<sup>(٤)</sup>، وَفِي رَوَايَةِ أُخْرَى: «تَحْرِضُهُمْ تَحْرِيضاً»، وَفِي أُخْرَى: «تَزَعَّجُهُمْ إِلَى الْمَعَاصِي إِزْعَاجًا»، وَفِي أُخْرَى: «تَوَقْدُهُمْ إِيقَادًا»، أَيْ: كَمَا يَتَحْرِكُ الْمَاءُ بِالْوَقْدِ<sup>(٥)</sup> تَحْتَهُ<sup>(٦)</sup>.

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٣٤٥ / ٣).

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٦٣١٢)، وَأَبُو دَاوُدَ (٩٠٤)، وَالنَّسَائِيُّ (١٢١٤) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخْبِيرِ، وَصَحَّحَهُ أَبْنُ خَزِيمَةَ (٩٠٠)، وَابْنُ حَبَّانَ (٧٥٣).

(٣) أَسْنَدَهُ فِي «جَامِعِ البَيَانِ» (١٥ / ٦٢٧).

(٤) مِنْ أَشْلَيْتِهِ إِذَا دَعَوْتَهُ وَأَغْرَيْتَهُ، انْظُرْ: «مَقَايِيسُ الْلُّغَةِ» (شِلُو) (٣ / ٢٠٩).

(٥) «د»: «بِالْمَوْدِ»، وَفِي «الْبَسِيطِ»: «بِالْإِيقَادِ».

(٦) أَوْرَدَ هَذِهِ الرَّوَايَاتِ الْوَاحِدِيُّ فِي «الْبَسِيطِ» (١٤ / ٣٢٥) مِنْسُوبَةً لِأَصْحَابِهِ، وَلَيْسَ جَمِيعَهَا لِابْنِ عَبَّاسٍ - كَمَا يَظْهُرُ مِنْ صَنْبِعِ الْمُؤْلِفِ - خَلاَ الْأَوَّلَ وَالْآخِرِ مِنْهَا.

قال أبو عبيدة: «الأَزِيزُ الْإِلَهَابُ وَالْحَرْكَةُ، كَالْإِلَهَابِ النَّارُ فِي الْحَطْبِ،  
يَقُولُ: أَزَّ قَدْرَكَ، أَيْ: أَلْهَبَ تَحْتَهَا النَّارُ، وَأَنْتَزَّتَ الْقَدْرَ إِذَا اشْتَدَ غَلِيلَهَا»<sup>(١)</sup>،  
وَهَذَا اخْتِيَارُ الْأَخْفَشِ<sup>(٢)</sup>.

وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ الْفَظْوَةَ تَجْمِعُ الْمَعْنَيَيْنِ جَمِيعًا.

قَالَتِ الْقَدْرِيَّةُ: مَعْنَى **﴿أَرْسَلْنَا الشَّيْطَنَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾** خَلَّيْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ  
الْكَافِرِينَ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ التَّسْلِيْطُ.

قَالَ أَبُو عَلِيٍّ: «الْإِرْسَالُ يَسْتَعْمِلُ بِمَعْنَى التَّخْلِيَّةِ بَيْنَ الْمُرْسَلِ وَمَا يَرِيدُ،  
فَمَعْنَى الْآيَةِ: خَلَّيْنَا بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ الْكَافِرِينَ، وَلَمْ نَمْنَعْهُمْ مِنْهُمْ، وَلَمْ  
نَعْذِهُمْ، بِخَلَافِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ قِيلَ فِيهِمْ: **﴿إِنَّ عَبْدَهُ لَيَسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾**<sup>(٣)</sup>.

قَالَ الْوَاحِدِيُّ: «وَإِلَى هَذَا الْوَجْهِ تَذَهَّبُ الْقَدْرِيَّةُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ»، قَالَ:  
«وَلَيْسَ الْمَعْنَى عَلَى مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ»<sup>(٤)</sup>.

وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: «وَالْمُخْتَارُ أَنَّهُمْ أُرْسَلُوا عَلَيْهِمْ، وَقَيْضُوا لَهُمْ بِكُفْرِهِمْ،  
كَمَا قَالَ تَعَالَى: **﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ فَقَبِضَ لَهُ شَيْطَانٌ فَهُوَ وَلَهُ وَقْرَبٌ﴾**<sup>(٥)</sup>  
[الزُّخْرُف: ٣٦]، وَقَالَ: **﴿وَقَيْضَيْنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ فَزَوَّلُوا هُمْ مَا يَبْيَنُونَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلَفُهُمْ﴾**

(١) حَكَاهُ فِي «تَهْذِيبِ الْلُّغَةِ» (أَزَّ) (٢٨١ / ١٣)، وَفِي «مَجَازِ الْقُرْآنِ» (١١ / ٢) تَفْسِيرُ آخَرَ.

(٢) حَكَاهُ فِي «الْبَسِيطِ» (١٤) (٣٢٤ / ١)، وَلَيْسَ هُوَ فِي نَشْرَةِ «مَعْنَى الْقُرْآنِ» لِلْأَخْفَشِ.

(٣) حَكَاهُ فِي «الْبَسِيطِ» (١٤) (٣٢١ / ١).

(٤) «الْبَسِيطِ» (١٤) (٣٢٢ / ١).

[فصلت: ٢٥] وإنما معنى الآية التسلیط<sup>(١)</sup>.

قلت: وهذا هو المفهوم من معنى الإرسال، كما في الحديث: «إذا أرسلت كلبك المعلم»<sup>(٢)</sup> أي: سلطته، ولو خلّي بينه وبين الصيد من غير إرسال منه لم يُبح صيده.

وكذلك قوله: ﴿وَفِي عَادٍ إِذَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ أَلْيَمَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]، أي: سلطناها وسخّرناها عليهم.

وكذلك قوله: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ [الفيل: ٣]، وكذلك قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَجَدَةً﴾ [القمر: ٣١].

والتخلية بين المرسل وبين ما أُرسِل عليه من لوازم هذا المعنى، ولا يتم التسلیط إلا به، فإذا أُرسِل الشيء الذي من طبعه و شأنه أن يفعل فعلًا ولم يمنعه من فعله فهذا هو التسلیط.

ثم إن القدرة تناقضوا في هذا القول، فإنهم إن جوّزوا منعهم منهم وعصمتهم وإعادتهم فقد نقضوا أصلهم؛ فإن منع المختار من فعله الاختياري مع سلامته آلت وصحّة بنيته يدل على أن فعله وتركه مقدور للرب، وهذا عين قول أهل السنة.

وإن قالوا: لا يقدر على منعهم وعصمتهم منهم وإعادتهم، فقد جعلوا قدرتهم ومشيّتهم بفعل ما لا يقدر الرب على المنع منه، وهذا أبطل الباطل.

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٣٤٥ / ٣)، وفيه: «معنى الإرسال ه هنا التسلیط».

(٢) أخرجه البخاري (١٧٥)، ومسلم (١٩٢٩) من حديث عدي بن حاتم.

ثم قالت القدرة: معنى **﴿تُؤْزِّهُمْ أَذًًا﴾**: تأمرهم بالمعاصي أمراً.  
وحكوا ذلك عن الصحاح.

وهذا لا يلتفت إليه؛ إذ لا يقال لمن أمر غيره بشيء: قد أذله. ولا تساعد  
اللغة على ذلك، ولو كان ذلك صحيحاً لكان توز المؤمنين أيضاً؛ فإنها  
تأمرهم بالمعاصي أكثر من أمر الكافرين؛ فإن الكافر سريع الطاعة والقبول  
من الشيطان، فلا يحتاج من أمره إلى ما يحتاج إليه من أمر المؤمنين، بل يأمر  
الكافر مرة، ويأمر المؤمن مرات، فلو كان الأذن الأمر لم يكن له اختصاص  
بالكافرين.

### فصل

ومن ذلك قوله تعالى: **﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۖ مَلِكِ النَّاسِ ۗ إِلَهِ النَّاسِ ۗ مِنْ شَرِّ الْوَسَوَاسِ الْخَنَّاسِ ۗ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۗ مِنَ الْجِحَّةِ وَالنَّاسِ ۗ﴾** [الناس: ١-٦]، قوله: **﴿وَقُلْ رَبِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَرَاتِ الشَّيَاطِينِ ۗ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّي أَنْ يَحْضُرُونِ ۗ﴾** [المؤمنون: ٩٧-٩٨]،  
وقوله: **﴿فَإِذَا قَرَأَتِ الْقُرْءَانَ فَأَسْتَعِذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيَاطِينِ الْأَجِيمِ ۗ﴾** [النحل: ٩٨]،  
ومن المعلوم أن الإعاذه من الشيطان الرجيم ليست بإماتته، ولا تعطيل آلات  
كيده وشره، وإنما هي بأن يعصم المستعيد من أذاه له، ويحول بينه وبين فعله  
الاختياري به، فدل على أن فعله مقدور له سبحانه، إن شاء سلطه على العبد،  
وإن شاء حال بينه وبينه.

وهذا على أصول القدرة باطل، فلا يثبتون حقيقة الإعاذه، وإن ثبتوها  
حقيقة الاستعاذه من العبد، وجعلوا الآية ردًّا على الجبرية. والجبرية ثبتوها

حقيقة الإعاذه، ولم يثبتوا حقيقة الاستعاذه من العبد، بل الاستعاذه فعل  
الربّ حقيقة، كما أن الإعاذه فعله.

وقد ضلّلت الطائفتان عن الصراط المستقيم، وأصابت كل طائفة منهمما  
فيما أثبتته من الحق.

## فصل

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبَرْ إِلَّا إِنَّ اللَّهَ﴾ [النحل: ١٢٧]،  
وقول هود عليه السلام: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا إِنَّ اللَّهَ﴾ [هود: ٨٨]، ومعلوم أن الصبر  
وال توفيق فعل اختياري للعبد، وقد أخبر أنه به سبحانه لا بالعبد، وهذا لا  
ينفي أن يكون فعلاً للعبد حقيقة، ولهذا أمر به وهو لا يأمر عبده بفعل نفسه  
سبحانه، وإنما يؤمر العبد بفعله هو، ومع هذا فليس فعله واقعاً به، وإنما هو  
بالخالق لكل شيء، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فالتصير منه  
سبحانه وهو فعله، والصبر هو القائم بالعبد، وهو فعل العبد.

ولهذا أثني على من سأله أن يصبره فقال تعالى: ﴿وَلَئَابِرْ زُوْلِ الجَالُوت  
وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبِرْ وَثَبِتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ  
الْكَافِرِ﴾ فَهَزَّ مُوْهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٠ - ٢٥١]، ففي الآية  
أربعة أدلة:

أحدها: قولهم: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبِرْ﴾، والصبر فعلهم اختياري،  
فسألوه لمن<sup>(١)</sup> هو بيده ومشيئته وإذنه إن شاء أعطاهموه، وإن شاء منعهموه.

---

(١) كذا في الأصول: «فسألوه لمن»، ولم يظهر لي وجهها، فلعلها: «فسألوا من».

الثاني: قولهم: **﴿وَثَيَّتَ أَقْدَامَنَا﴾**، وثبات الأقدام فعل اختياري، ولكن التشيت فعله، والثبات فعلهم، ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله.

الثالث: قولهم: **﴿وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾**، فسألوه النصر، وذلك بأن يقوى عزائمهم ويشجعهم ويصبرهم ويشبّههم، ويلقي في قلوب أعدائهم الخور والخوف والرعب، فيحصل النصر.

وأيضاً فإن كون الإنسان منصوراً على غيره إما أن يكون بأفعال الجوارح، وهو واقع بقدرة العبد و اختياره، وإما أن يكون بالحججة والبيان والعلم، وذلك أيضاً فعل العبد، وقد أخبر سبحانه أن النصر بجملته من عنده، وأتني على من طلبه منه، وعنده القدرة لا يدخل تحت مقدور الرب.

الرابع: قوله: **﴿فَهَرَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾**، إذنه هنا هو الإذن الكوني القدري، أي: بمشيئة وقضاء وقدره، ليس هو الإذن الشرعي الذي هو معنى الأمر؛ فإن ذلك لا يستلزم الهزيمة، بخلاف إذنه الكوني وأمره الكوني، **فإن المأمور المكون<sup>(١)</sup> لا يختلف عنه البتة.**

## فصل

ومن ذلك قوله تعالى: **﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا أَقْبَهُ وَعَنْ ذِكْرِنَا وَأَتْبَعَهُ هَوَانَهُ﴾** [الكهف: ٢٨]، وفي الآية ردٌّ ظاهر على الطائفتين وإبطال لقولهما، فإنه سبحانه أغلق قلب العبد عن ذكره فغفل هو، فالإغفال فعل الله، والغفلة فعل العبد، ثم أخبر عن اتباعه هواه، وذلك فعل العبد حقيقة.

---

(١) «م»: «الكوني».

والقدرية تحرّف هذا النص وأمثاله بالتسمية والعلم، فيقولون: معنى أغفلنا قلبه: سميناه غافلاً أو وجدناه غافلاً، أي: علمناه كذلك، وهذا من تحريفهم، بل أغفلته مثل: أقمته وأعدته وأغنته وأقرته، أي: جعلته كذلك. وأما فعلته إذا أوجدته كذلك، كأحمدته وأجبته وأبخلته وأعجزته؛ فلا يقع في أفعال الله البتة، وإنما يقع في أفعال العاجز أن يجعل غيره جباناً وبخيلاً وعاجزاً، فيكون معناه صادفته كذلك.

وهل يخطر بقلب الداعي: «اللهم أقدرني وأوزعني وألهمني» أي: سمني وأعلمني كذلك؟! وهل هذا إلا كذب عليه وعلى المدعو سبحانه، والعقلاء يعلمون علمًا ضروريًا أن الداعي إنما سأل الله أن يخلق له ذلك، ويشاء له، ويقدر عليه، حتى القديري إذا غابت عنه بدعته وما تقلده عن أشياخه وأسلافه، وبقي وفطرته؛ لم يخطر بقلبه سوى ذلك.

وأيضاً فلا يمكن أن يكون العبد هو المُغْفِل لنفسه عن الشيء؛ فإن إغفاله نفسه عنه مشروط بشعوره به، وذلك مضاد لغفلته عنه، بخلاف إغفال ربّ تعالى له، فإنه لا يضاد علم ربّ بما يغفل عنه العبد، وبخلاف غفلة العبد، فإنها لا تكون إلا مع عدم شعوره بالمحظى عنه، وهذا ظاهر جدًا، فثبتت أن الإغفال فعل الله بعده، والغفلة فعل العبد.

## فصل

ومن ذلك قوله تعالى إخبارًا عن نبيه شعيب أنه قال لقومه: **﴿قَدْ أَفْتَنَنَا عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا إِنَّ عُذْنَاتِي مِلَّتْكُ بَعْدَ إِذْ بَخَنَنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾** [الأعراف: ٨٩]، وهذا يبطل تأويلي للقدرية المشيئة في مثل ذلك بمعنى

الأمر، فقد علمت الرسل أنه من الممتنع على الله أن يأمر بالدخول في ملة الكفر والشرك به، ولكن استثنوا بمشيته التي يصل بها من يشاء، وبهدي من يشاء.

ثم قال شعيب: ﴿وَسَعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، فردّ الأمر إلى مشيته وعلمه، فإن له سبحانه في خلقه علم محيط<sup>(١)</sup> ومشيته نافذة وراء ما يعلمه الخلائق، فامتناعنا من العَوْد فيها هو مبلغ علومنا ومشيتنا، والله علم آخر ومشيطة أخرى وراء علومنا ومشيتنا، فلذلك ردّ الأمر إليه.

ومثله قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشَرِّكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسَعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَاتَ ذَكَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠]، فأعادت الرسل -بكمال معرفتها بالله- أمورها إلى مشيطة ربّ وعلمه.

ولهذا أمر الله رسوله أن لا يقول لشيء: إنه فاعله؛ حتى يستثنى بمشيطة الله؛ فإنه إن شاء فعله، وإن شاء لم يفعله. وقد تقدم تقرير هذا المعنى.

وبالجملة، فكل دليل في القرآن على التوحيد فهو دليل على القدر وخلق أعمال العباد، ولهذا كان إثبات القدر أساس التوحيد، قال ابن عباس: «الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن كَذَب بالقدر نقض تكذيبه توحيدَه»<sup>(٢)</sup>.



(١) كذا في الأصول بالرفع في الكلمتين: «علم محيط»، والجادة النصب بيان.

(٢) أخرجه عبد الله في «السنة» (٩٢٥)، والفریابی في «القدر» (٢٠٥) بنحوه.

## البَابُ الْكَلِيلُ عَشَرُونَ

في الهدى والضلال ومراتبهم،  
والقدر منهم للخلق وغير المقدر لهم

هذا الباب<sup>(١)</sup> هو قلب أبواب القدر ومسائله؛ فإن أفضل ما يقدر الله  
لعبد وأجل ما يقسمه له: الهدى، وأعظم ما يتليه به، ويقدر عليه: الضلال،  
وكل نعمة دون نعمة الهدى، وكل مصيبة دون مصيبة الضلال.

وقد انفقت رسل الله من أولهم إلى آخرهم، وكتبه المتنزلة عليهم على  
أنه سبحانه يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، وأنه من يهده الله فلا مضل له،  
ومن يضل فلا هادي له، وأن الهدى والإضلal بيده، لا ييد العبد، وأن  
العبد هو الضال أو المهدى، فالهدایة والإضلal فعله سبحانه وقدره،  
والاهداء والضلال فعل العبد وكسبه.

ولابد قبل الخوض في تقرير ذلك من ذكر مراتب الهدى والضلال في  
القرآن.

فأما مراتب الهدى فأربعة:

إحداها: الهدى العام، وهو هداية كل نفس إلى مصالح معاشها وما  
يقيمها، وهذا أعم مراتبه.

المرتبة الثانية: الهدى بمعنى البيان والدلالة والتعليم والدعوة إلى

---

(١) ماعدا «ج»: «المذهب».

مصالح العبد في معاده، وهذا خاص بالمكلفين، وهذه المرتبة أخص من المرتبة الأولى، وأعم من الثالثة.

المرتبة الثالثة: الهدایة المستلزمة للاهتداء، وهي هدایة التوفيق ومشيئة الله لعبد الهدایة، وخلقه دواعي الهدایة وإرادته والقدرة عليه للعبد، وهذه الهدایة التي لا يقدر عليها إلا الله عز وجل.

المرتبة الرابعة: الهدایة يوم المعاد إلى طريق الجنة والنار.

## فصل

فاما المرتبة الأولى فقد قال سبحانه: ﴿سَيِّئَ أَشْرَكَكَ الْأَعْلَىٰ ۖ إِنَّمَا حَكَىٰ فَسَوَىٰ ۖ وَإِنَّمَا قَدَرَ فِيهِمْ ۚ﴾ [الأعلى: ١ - ٣]، فذكر سبحانه أربعة أمور عامة: الخلق والتسوية والتقدير والهدایة، وجعل التسوية من تمام الخلق، والهدایة من تمام التقدير.

قال عطاء: ﴿خَلَقَ فَسَوَىٰ﴾: «أحسن ما خلقه»<sup>(١)</sup>، وشاهد قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [السجدة: ٧].

فإحسان خلقه يتضمن تسويته، وتناسب خلقه وأجزائه، بحيث لم يحصل بينها تفاوت يخل بالتناسب والاعتدال، فالخلق: الإيجاد، والتسوية: إتقانه وإحسان خلقه.

وقال الكلبي: «خَلَقَ كُلَّ ذِي رُوحٍ، فَجَمَعَ خَلْقَهُ وَسَوَاهُ بِالْيَدِينِ»<sup>(٢)</sup>

(١) نسبة إليه في «البسيط» (٤٣١ / ٢٣).

(٢) كذا في الأصول: «بِالْيَدِينِ»، وفي مصدر النقل: «الْيَدِينِ»، وهو الأشبه.

والعينين والرجلين»<sup>(١)</sup>.

وقال مقاتل: «خلق لكل دابة ما يصلح لها من الخلق»<sup>(٢)</sup>.

وقال أبو إسحاق: «خلق الإنسان مستوياً»<sup>(٣)</sup>، وهذا تمثيل، وإلا فالخلق والتسوية شامل للإنسان وغيره، قال تعالى: ﴿وَنَفَّيْسٌ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس: ٧]، وقال: ﴿فَسَوَّلُهُنَّ سَبَعَ سَمَوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]، فالتسوية شاملة لجميع مخلوقاته: ﴿مَاتَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَقْوِيتٍ﴾ [الملك: ٣]، وما يوجد من التفاوت وعدم التسوية فهو راجع إلى عدم إعطاء التسوية للمخلوق؛ فإن التسوية أمر وجودي يتعلق بالتأثير والإبداع، فما عُدِم منها فلعدم إرادة الخالق للتسوية، وذلك أمر عدمي يكفي فيه عدم الإبداع والتأثير.

فتتأمل ذلك؛ فإنه يزيل عنك الإشكال في قوله: ﴿مَاتَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَقْوِيتٍ﴾، فالتفاوت حاصل بسبب عدم مشيئة التسوية، كما أن الجهل والصمم والعمى والخرس والبكم يكفي فيها عدم مشيئة خلقها وإيجادها، وتمام هذا يأتي - إن شاء الله - في باب دخول الشر في القضاء الإلهي عند قول النبي ﷺ: «والشر ليس إليك»<sup>(٤)</sup>.

والمقصود أن كل مخلوق فقد سواه خالقه سبحانه في مرتبة خلقه، وإن

(١) نسبة إليه في «البسيط» (٤٣١/٢٣)، ومثله في «تفسير البغوي» (٨/٤٠٠).

(٢) نسبة إليه في «البسيط» (٤٣١/٢٣)، ونسبت إلى عطاء في «الكشف والبيان» (١٠/١٨٣) وغيره.

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٥/٣١٥).

(٤) (٢/٨١).

فاتها التسوية من وجه آخر لم يخلق له.

## فصل

وأما التقدير والهداية فقال مقاتل: «قدّر خلق الذكر والأئمّة من الدواب، فهدي الذكر للأئمّة كيف يأتيها»<sup>(١)</sup>، وقاله ابن عباس والكلبي<sup>(٢)</sup>.

وكذلك قال عطاء: «قدر من النسل ما أراد، ثم هدى الذكر للأئمّة»<sup>(٣)</sup>.

واختار هذا القول صاحب «النظم»<sup>(٤)</sup> فقال: «معنى «هدي» هداية الذكر لإتّيان الأئمّة كيف يأتيها؛ لأن إتّيان ذكر ان الحيوان لإنّه مختلف لاختلاف الصور والخلق والهيئات، فلو لا أنه سبحانه جبل كل ذكر على معرفة كيف يأتي أئمّة جنسه لما اهتدى لذلك»<sup>(٥)</sup>.

وقال مقاتل أيضًا: «هداه لمعيشه ومرعاه»<sup>(٦)</sup>.

وقال السدي: «قدّر مدة الجنين في الرحم، ثم هدّي للخروج»<sup>(٧)</sup>.

---

(١) «تفسير مقاتل» (٤/٦٦٩) بنحوه، وبنصها في «البسيط» (٤٣٣/٢٢٣).

(٢) أخرج أثر ابن عباس بمعناه الطبرى (١٦/٧٩)، وأثر الكلبي بمعناه عبد الرزاق في «التفسير» (١٨١٥)، وانظر: «البسيط» (٤٣٣/٢٢٣).

(٣) نسبة إليه في «البسيط» (٤٣٢/٢٢٣).

(٤) «نظم القرآن» لأبي علي الحسن بن يحيى الجرجاني من علماء القرن الرابع، انظر: «تاريخ جرجان» (١٨٧).

(٥) انظر: «البسيط» (٤٣٣/٢٢٣).

(٦) «تفسير مقاتل» (٣/٢٩).

(٧) نسبة إليه في «البسيط» (٤٣٤/٢٢٣).

وقال مجاهد: «هدى الإنسان لسبيل الخير والشر، والسعادة والشقاوة»<sup>(١)</sup>.

وقال الفراء: «القدر: فهدى وأضل، فاكتفى من ذكر أحدهما بالآخر»<sup>(٢)</sup>.

قلت: الآية أعمّ من هذا كله، وأضعف الأقوال فيها قول الفراء؛ إذ المراد هنا الهدایة العامة لمصالح الحيوان في معيشته، وليس المراد هداية الإيمان والضلال بمشيّته، وهي نظير قوله: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَنَا كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَهُوَ بِهِ دَائِرٌ﴾ [ط: ٥٠]، فإنّه يعطّأه الخلق: إيجاده في الخارج، والهدایة: التعليم والدلالة على سبيل بقائه وما يحفظه ويقيمه.

وما ذكره مجاهد فهو تمثيل منه، لا تفسير مطابق للآية؛ فإن الآية شاملة لهداية الحيوان كله: ناطقه وبهيمه، طيره ودوابه، فصيحه وأعجمه.

وكذلك قول من قال: «إنه هداية الذكر لإتيان الأنثى»، تمثيل أيضاً، وهو فرد واحد من أفراد الهدایة التي لا يحصرها إلا الله.

وكذلك قول من قال: «هداه للمرعى»، فإن ذلك من الهدایة، فأين الهدایة إلى التقادم الذي عند خروجه من بطن أمه؟ والهدایة إلى معرفته أنه دون غيرها حتى يتبعها أين ذهبت؟ والهدایة إلى قصد ما ينفعه من المرعى دون ما يضره منه، وهداية الطير والوحش والدواب إلى الأفعال العجيبة التي

---

(١) بنحوه في التفسير المنسوب إليه (٧٢٢)، وأسنده الطبرى (٣١١ / ٢٤)، وانظر: «البسيط» (٤٣٣ / ٢٣).

(٢) «معاني القرآن» (٢٥٦ / ٣).

يعجز عنها الإنسان، كهدایة النحل إلى سلوك السُّبُل التي فيها مراعيها على تباينها<sup>(١)</sup>، ثم عودها إلى بيوتها من الشجر والجبال وما يعرش بنو آدم.

وأمر النحل في هدايتها من أعجب العجب، وذلك أن لها أميراً ومدبّراً وهو اليَسُوب، وهو أكبر جسمًا من جميع النحل، وأحسن لوناً وشكلًا.

وإناث النحل تلد في إقبال الربع، وأكثر أولادها يكنّ إناثاً، وإذا وقع فيها ذكرٌ لم تدعه بينها<sup>(٢)</sup>، بل إما أن تطرده، وإما أن تقتله، إلا طائفة يسيرة منها تكون حول الملك، وذلك أن الذكر منها لا يعمل شيئاً ولا يكسب.

ثم تجتمع الأمهات وفراخها عند الملك، فيخرج بها إلى المرعى من المروج والرياض والبساتين والمرابع في أقصد الطرق وأقربها، فتجتني منها كفايتها، فيرجع بها الملك، فإذا انتهوا إلى الخلايا وقف على بابها، ولم يدع ذكرًا ولا نحلة غريبة تدخلها.

إذا تكامل دخولها دخل بعدها، وقد أخذت النحل مقاعدها وأماكنها، فيبتدىء الملك بالعمل كأنه يعلمها إياها، فيأخذ النحل في العمل ويتسارع إليه، ويترك الملك العمل ويجلس ناحية بحيث يشاهد النحل، فيأخذ النحل في إيجاد الشمع من لزوجات الأوراق والأنوار.

ثم تقسم النحل فرقاً، فمنها فرقة تلزم الملك ولا تفارقه ولا تعمل ولا تكسب، وهم حاشية الملك من الذكورة.

(١) «ج»: «بابها»، وفي «د» دون إعجام، وطمسـت في «م»، والمثبت أشبه.

(٢) «م»: «لم تدعه يدخل بيته».

ومنها فرقة تهين الشمع وتصفيه، والشمع هو ثقل العسل<sup>(١)</sup>، وفيه حلاوة كحلاوة التين، وللنحل به عناية شديدة فوق عنايتها بالعسل، فينظفه النحل ويصفّيه ويخلّصه مما يخالطه من أبوالها وغيرها.

وفرقة تبني البيوت، وفرقة تسقي الماء، وتحمله على متونها، وفرقة تكنس الخلايا وتنظفها من الأوساخ والجيف والزبل.

وإذا رأى بينها نحلة مهينة بطالة قطعتها وقتلتها حتى لا تفسد عليهم بقية العمال، وتعديهن ببطالتها ومهانتها.

وأول ما تبني في الخلية مقعد الملك وبيته، فتبني له بيئاً مريعاً يشبه السرير والتحت، فيجلس عليه ويستدير حوله طائفة من النحل شبه الأمراء والخدم والخواص لا يفارقه، ويجعل النحل بين يديه شيئاً يشبه الحوض، يصب فيه من العسل أصفى ما يقدر عليه، ويملاً منه الحوض، يكون ذلك طعاماً للملك وخواصه.

ثم يأخذن في بناء البيوت على خطوط متساوية كأنها سكاك ومحال، وتبني بيوتها مسدسة الأشكال، متساوية الأضلاع، كأنها قرأت كتاب إقليدس، حتى عرفت أوف الأشكال لبيوتها؛ لأن المطلوب من بناء الدور هو الوثاقة والسعّة، والشكل المسدس - دون سائر الأشكال - إذا انضم بعض أشكاله إلى بعض صارت شكلاً مستديراً كاستداررة الرحي، ولا يبقى فيه فروج ولا خلل، ويشد بعضه ببعضه، حتى يصير طبقاً واحداً محكماً، لا

---

(١) ما استقر أسفل العسل من بقايا وくだرونحوها، انظر: «تاج العروس» (ثقل) .(٢٨/١٥٤)

يدخل بين بيته رؤوس الإبر.

فتبارك الذي ألهما أن تبني بيتها هذا البناء المحكم، الذي يعجز البشر عن صنع مثله، فلعلم أنها محتاجة إلى أن تبني بيتها من أشكال موصوفة بصفتين:

إحداهما<sup>(١)</sup>: أن لا تكون زواياها ضيقة، حتى لا يبقى الموضع الضيق معطلاً.

الثاني<sup>(٢)</sup>: أن تكون تلك البيوت مشكلة بأشكال إذا انضم بعضها إلى بعض امتلاء العَرْضة<sup>(٣)</sup> منها، ولا يبقى شيء منها ضائعاً.

ثم إنها علمت أن الشكل الموصوف بهاتين الصفتين هو المسدس فقط؛ فإن المثلثات والمربعات وإن أمكن امتلاء العَرْضة منها إلا أن زواياها ضيقة، وأما سائر الأشكال وإن كانت زواياها واسعة إلا أنها لا تمتلي العَرْضة منها، بل يبقى فيما بينها فروج خالية ضائعة، وأما المسدس فهو موصوف بهاتين الصفتين.

فهداها سبحانه إلى<sup>(٤)</sup> بناء بيتها على هذا الشكل، من غير تسطير ولا آلة ولا مثال يُحتذى عليه، وأصنع بني آدم لا يقدر على بناء البيت المسدس إلا بالآلات الكثيرة.

---

(١) «د»: «أحدها».

(٢) كذا في الأصول: «الثاني»، والوجه: «الثانية».

(٣) البقعة الواسعة بين الدور الخالية من البناء، انظر: «الصحاب» (عرص) (٣/١٠٤٤).

(٤) في الأصول: «على» خطأ.

فتبارك الذي هداها أن تسلك سبل مراعيها على قوتها<sup>(١)</sup>، وتأنثها ذللاً لا تستعصي عليها ولا تضل عنها، وأن تجتني أطيب ما في المرعى والطفه، وأن تعود إلى بيتها الخالية فتصب فيها شراباً مختلفاً لوانه فيه شفاء للناس، «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَا يَكُنْ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» [النحل: ٦٩].

فإذا فرغت من بناء البيوت خرجت خماماً تسيح سهلاً وج بلاً، فأكلت من الحلوات المرتفعة على رؤوس الأزهار، وورق الأشجار، فترجع بطأناً، وجعل سبحانه في أفواهها حرارة منضجة تنضح ما جتنه، فتفيده حلاوة ونضجاً، ثم تمجّه في البيوت، حتى إذا امتلأت ختمتها وسدت رؤوسها بالشمع المصفّى، فإذا امتلأت تلك البيوت عمدت إلى مكان آخر – إن صادفته – فاتخذت فيه بيوتاً، وفعلت كما فعلت في البيوت الأولى.

فإذا برد الهواء، وأخلف المرعى<sup>(٢)</sup>، وحيل بينها وبين الكسب، لزمت بيتها، واغتذت بما ادخرته من العسل.

وهي في أيام الكسب والسعى تخرج بكرة، وتسيح في المراتع، وتشتغل كل فرقة منها بما يخصّها من العمل، فإذا أمست رجعت إلى بيتها.

وإذا كان وقت رجوعها وقف على باب الخلية بوّاب منها ومعه أغوان له، فكل نحلة تريد الدخول يشمها البوّاب ويتفقدوها؛ فإن وجد منها رائحة منكرة، أو رأى بها لطخة من قذر منها من الدخول، وعزلها ناحية إلى أن

(١) «قوتها» من «ج»، ومثلها في «د» مهملة، وفي «م»: «قرها»، وفي المعنى شيء.

(٢) أخلف النبات: أخرج الخليفة، وهو الذي يخرج بعد الورق الأول في الصيف، انظر: «تاج العروس» (خلف) (٢٣/٢٧٢)، وفي «م»: «واختلف».

يدخل الجميع، فيرجع إلى المعزولات الممتوّعات من الدخول فيتفقدهنّ، ويكشف أحوالهنّ مرة ثانية، فمن وجده قد وقع على شيء مُثيّن أو نجس قدّه نصفين، ومن كانت جنائيته خفيفة تركه خارج الخلية، هذا دأب البواب كل عشية.

وأما الملك فلا يكثر الخروج من الخلية إلا نادراً، إذا اشتهر الترّز فيخرج ومعه أمراء النحل والخدم، فيطوف في المروج والرياض والبساتين ساعة من النهار، ثم يعود إلى مكانه.

ومن عجيب أمره أنه ربما لحقه أذى من النحل أو من صاحب الخلية أو من خدمه، فيغضب ويخرج من الخلية، ويتباعد عنها، ويتبعه جميع النحل، وتبقى الخلية خالية، فإذا رأى صاحبها ذلك، وخفّ أن يأخذ النحل وينذهب بها إلى مكان آخر احتال لاسترجاعه وطلب رضاه، فيتعرف موضعه الذي صار إليه بالنحل، فيعرفه باجتماع النحل إليه، فإنها لا تفارقه، وتجمّع عليه حتى تصير عليه عنقوداً، وهو إذا خرج غضبان جلس على مكان مرتفع من الشجرة، وطافت به النحل، وانضمّت إليه، حتى تصير كالكرة، فيأخذ صاحب النحل رمحاً أو قصبة طويلة، ويشدّ على رأسها حزمةً من النبات الطيب الرائحة العطر النظيف، ويدنيه إلى محل الملك، ويكون معه إما مِزْهَر<sup>(١)</sup> أو يَرَاع أو شيء من آلات الطرب، فيحركه وقد أدنى إليه ذلك الحشيش، فلا يزال كذلك إلى أن يرضي الملك، فإذا رضي وزال غضبه طَرَق

---

(١) المِزْهَر: العود الموسيقية التي يضرب بها، ينظر: «تاج العروس» (زهر) (٤٨٠ / ١١)، «تكلمة المعاجم» (٣٣٩ / ٧).

ووقع على ذلك الضّغْث<sup>(١)</sup>، وتبعه خدمه وسائر النحل، فيحمله صاحبه إلى الخلية، فينزل ويدخلها هو وجنوده.

ولا يقع النحل على جيفة ولا حيوان ولا طعام.

ومن عجيب أمرها أنها تقتل الملوك الظلمة المفسدة، ولا تدين بطاعتها.

والنحل الصغار المجتمعه الخلق هي العَسَالَة، وهي تحاول مقاتلة الطوال القليلة النفع، وإخراجها ونفيها عن الخلايا، وإذا فعلت ذلك جاد العسل، وتجتهد أن تقتل ما تريد قتلها خارج الخلية؛ صيانة للخلية عن جيفته.

ومنها صنف قليلة النفع كبيرة الجسم، وبينها وبين العَسَالَة حرب، فهي تقصدها وتغتالها، وتفتح عليها بيوتها، وتقصد هلاكها، والعَسَالَة شديدة التيقظ والتحفظ منها، فإذا هجمت عليها بيوتها صاولتها<sup>(٢)</sup> وأجلتها إلى أبواب البيوت، فتلتقط بالعسل، فلا تقدر على الطيران، ولا يفلت منها إلا كل طويل العمر، فإذا انقضت الحرب، وبرد القتال عادت إلى القتل فحملتها، وألقتها خارج الخلية.

وقد ذكرنا أن الملك لا يخرج إلا في الأحيان، وإذا خرج خرج في جموع من الفراخ والشباب، وإذا عزم على الخروج ظلّ قبل ذلك بيوم أو يومين يعلم الفراخ، وينزلها منازلها ويرتبها، فيخرج ويخرجون معه على ترتيب ونظام قد دبره معهن، لا يخرجون عنه.

---

(١) طَقْرٌ: وَبَ، والضّغْث: قبضة حشيش مختلطة الرطب باليابس، ينظر: «الصحاح» (ضغث) (١/٢٥٨) (طفر) (٢/٧٢٦).

(٢) تحرفت في الأصول إلى: «حاولتها».

وإذا تولدت عنده ذكران عرف أنهن يطلبين الملك، فيجعل كل واحد منهم على طائفة من الفراخ، ولا يقتل ملكٌ منها ملكاً آخر؛ لما في ذلك من فساد الرعية وهلاكها وتفرقها.

وإذا رأى صاحب الخلية الملوك قد كثرت في الخلية، وخفاف من تفرق النحل بسببيهم؛ احتال عليهم وأخذ الملوك كلها إلا واحداً، ويحبس الباقي عنده في إناء، ويدع عندهم من العسل ما يكفيهم، حتى إذا حدث بالملك المنصوب حدث من مرض أو موت أو كان مفسداً فقتله النحل؛أخذ من هؤلاء المحبوسين واحداً، وجعله مكانه؛ لئلا يبقى النحل بلا ملك فيتشتت أمرها.

ومن عجيب أمرها أن الملك إذا خرج متنزّهاً ومعه الأمراء والجنود ربما لحقه إعياء فتحمله الفراخ.

وفي النحل كرام عمال لها سعي وهمة واجتهاد، وفيها الشام كسائلٍ قليلة النفع مؤثرة للبطالة، فالكرام دائمًا تطردها وتنفيها عن الخلية، ولا تسكنها خشية أن تعدى كرامها وتفسدتها.

والنحل من أنظف الحيوان وأنقاه، ولذلك لا تلقى زيلها إلا وهي تطير، وتكره التتن والروائح الخبيثة.

وأبكارها وفراخها أحقرن وأشد اجتهاذاً من الكبار، وأقل لسعًا وأجدد عسلاً، ولسعها إذا لسعت أقل ضررًا من لسع الكبار.

ولما كانت النحل من أنسف الحيوان وأبركه - وقد خصّت من وحي ربّ تعالى وهدايته بما لم يشركها فيه غيرها - وكان الخارج من بطونها مادة الشفاء من الأسمام والنور الذي يضيء في الظلام بمنزلة الهداة من الأنام = كانت

أكثر الحيوان أعداء، وكان أعداؤها من أقل الحيوان منفعة وبركة، وهذه سنة الله في خلقه، وهو العزيز الحكيم.

### فصل (١)

وهذه النمل من أهدى الحيوانات، وهدايتها من أعجب شيء؛ فإنَّ النملة الصغيرة تخرجُ من بيتها وتطلب قوتها وإنْ بَعُدَتْ عليها الطريق، فإذا ظفرت به حملته وساقته في طرق مُعَوَّجة بعيدة، ذات صعود وهبوط، في غاية من التوعُّر حتى تصل إلى بيتها، فتخزن فيها أقواتها في وقت الإمكان، فإذا خزنتها عمدت إلى ما ينْبَتْ منها فقلقته فلقتين لثلا ينْبَتْ، فإنْ كان ينْبَتْ مع فُلقِه باثنين فلقته بأربعة، فإذا أصابه بلل وخافت عليه العفن والفساد انتظرت به يوماً ذا شمس، فخرجت به فنشرته على أبواب بيتها، ثم أعادته إليها، ولا تتغذى منها نملة على ما جمعه غيرها.

ويكفي في هداية النمل ما حكاه الله سبحانه في القرآن عن النملة التي سمع سليمان كلامها وخطابها لأصحابها بقولها: «يَا إِيَّاهَا النَّمَلُ اذْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَجِدُ مِنْكُمْ سُلَيْمَانٌ وَجُونُودُ وَقُوَّةٍ لَا يَشْعُرُونَ» [النمل: ١٨]، فاستفتحت خطابها بالنداء الذي يسمعه من خاطبته، ثم أتت بالاسم المبهم، ثم أتبعته بما يبيّنه من اسم الجنس إرادة للعموم، ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم فيتحصنون من العسكر، ثم أخبرت عن سبب هذا الدخول، وهو خشية أن يصيبهم مَعْرَةُ الجيش<sup>(٢)</sup>، فيحطمهم سليمان وجنوده، ثم اعتذر عن النبي

(١) سيقتبس المؤلف في هذا الفصل كثيراً من «الحيوان» للجاحظ (٤ / ٣٦ - ٥).

(٢) المعْرَةُ: الأمر القبيح المكره والأذى، «النهاية في الغريب» (عرر) (٣ / ٢٠٥).

الله وجنوده بأنهم لا يشعرون بذلك، وهذا من أعجب الهدایة.

وتأمل كيف عظُم الله سبحانه شأن النمل بقوله: ﴿وَحِشَرَ لِسْلَيَّمَنَ جُنُودًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسَ وَأَطَيَرَ فَهُمْ يُوَزَّعُونَ﴾ [النمل: ١٧]، ثم قال: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْعَدَ وَادَّ النَّمَلِ﴾، فأخبر أنهم بأجمعهم مروا على ذلك الوادي، ودلَّ على أن ذلك الوادي كان معروفاً بالنمل، كوادي السَّبَاع ونحوه، ثم أخبر عَمَّا دلَّ على شدة فطنة هذه النملة، ودقة معرفتها، حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصة بهم، فقد عرفت هي والنمل أن لكل طائفة منها مسكنًا لا يدخل عليهم فيه سواهم، ثم قالت: لا يحطمكم سليمان، فجمعت بين اسمه وعينه، وعرَفته بهما، وعرفت جنوده وقادتها، ثم قالت: وهم لا يشعرون، فكأنها جمعت بين الاعتذار عن مَعْرَةِ الجيش بكوئهم لا يشعرون، وبين لوم أمة النمل حيث لم يأخذوا حِذْرَهُمْ، ويدخلوا مساكنهم، ولذلك تبَسَّم نبي الله سليمان ضاحكاً من قولها، وإنَّه لموضع تعجب وتَبَسَّم.

وقد روى الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل أربع: النملة، والتحلة، والهدهد، والصُّرد<sup>(١)</sup>.

وفي «الصحيح» عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «نزل نبِيٌّ من الأنبياء تحت شجرة فقرصته نملة، فأمر بجهازه فأخرج، وأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أمن أجل أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسَبِّح؟!

(١) أخرجه عبد الرزاق (٨٤١٥)، ومن طريقه أحمد (٣٠٦٦)، وأبو داود (٥٢٦٧)، وابن ماجه (٣٢٢٤)، وصححه ابن حبان (٥٤٦).

والصُّرد طائر أكبر من العصفور ضخم الرأس والمنقار يصيد صغار الحشرات وربما صاد العصفور، وكانوا يتشارعون به، انظر: «المعجم الوسيط» (٥١٢/١).

فهلا نملة واحدة!»<sup>(١)</sup>.

وذكر هشام بن حسان أن أهل الأحنف بن قيس لقوا من النمل شدة، فأمر الأحنف بكرسي فوضع عند بيتهن مجلس عليه، ثم تشهد، ثم قال: لتنتهن أو لنحرقك عل يكن ونفعل ونفعل، قال: فذهبين<sup>(٢)</sup>.

وروى عوف بن أبي جميلة، عن قَسَّامة بن زهير، قال: قال أبو موسى الأشعري: إن لكل شيء سادة، حتى إن للنمل سادة<sup>(٣)</sup>.

ومن عجيب هدایتها، أنها تعرف ربها بأنه فوق سماواته على عرشه، كما رواه الإمام أحمد في «كتاب الزهد»<sup>(٤)</sup> من حديث أبي هريرة يرفعه قال: «خرج النبي من الأنبياء بالناس يستسقون، فإذا هم بنملة رافعة قوائمها إلى السماء تدعونا، مستلقية على ظهرها، فقال: ارجعوا فقد كفيتكم أو سقيتم بغيركم».

ولهذا الأثر عدّة طرق، ورواه الطحاوي في «التهذيب»<sup>(٥)</sup> وغيره.

وقال الإمام أحمد: حدثنا [وكيع، حدثنا مسعود، عن زيد العميّ، عن أبي

(١) أخرجه البخاري (٣١٩)، ومسلم (٢٤١).

(٢) أورده الجاحظ في «الحيوان» (٤/١٨)، وأسنده من أوجه أخرى لأحمد في «مسائل عبد الله» (١٦٢٠)، و«الزهد» (١٢٩٦).

(٣) «الحيوان» (٤/١٩)، وأسنده الحارث كما في «بغية الباحث» (٧٩٩).

(٤) لم أقف عليه في مطبوعته، وأخرجه الدارقطني في «السنن» (١٧٩٧)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٥/١٧٥٣)، من طرق لينة تشد بعضها بعضًا، وصححه الحاكم (١٢١٥).

(٥) لعله يقصد «كشف مشكل الآثار» (٨٧٥)، فإني لم أقف عليه في «شرح المعاني» له.

الصديق الناجي<sup>(١)</sup>] قال: «خرج سليمان بن داود يستسقي، فرأى نملة مستلقية على ظهرها، رافعة قوائمها إلى السماء، وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك، ليس بنا غنى عن سقياك ورزقك، فإنما أن تسقينا وترزقنا، وإنما أن تهلكنا، فقال: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم»<sup>(٢)</sup>.

وقد حدثني من أثق به أن نملة خرجت من بيتها، فصادفت شقّ جرادة، فحاولت أن تحمله فلم تطق، فذهبت وجاءت معها بأعوان يحملنّه معها، قال: فرفعت ذلك من الأرض، فطافت في مكانه فلم تجده، فانصرفوا وتركوه، قال: فوضعته، فعادت تحاول حمله فلم تقدر، فذهبت وجاءت بهم، فرفعته، فطافت فلم تجده، فانصرفوا، قال: فعلت ذلك مراراً، فلما كان في المرة الأخيرة استدار النمل حلقة، ووضعوها في وسطها، وقطعوها عضواً.

قال شيخنا – وقد حكى له هذه الحكاية – : «هذه النمل فطرها الله سبحانه على قبح الكذب وعقوبة الكذاب»<sup>(٣)</sup>.

والنمل من أحقر الحيوان، ويُضرب بحرصه المثل.  
ويُذكر أن سليمان بن داود – صلوات الله وسلامه عليه – لما رأى حرص النمل، وشدة دخوارها للغذاء؛ استحضر نملة وسألها: كم تأكل النملة من

(١) زيادة من مصدر الخبر، موضعه بياض في الأصول.

(٢) «الزهد» (٤٤٩)، وأخرجه ابن أبي شيبة (٣٠١٠١)، والجاحظ في «الحيوان» (١٩/٤) واللفظ له.

(٣) انظر: «مفتاح دار السعادة» (٢/٦٩٠).

الطعام كل سنة؟ قالت: ثلث حبات من الحنطة، فأمر يالقائهما في قارورة، وسَدَّ فم القارورة، وجعل معها ثلث حبات حنطة، وتركها سنة بعد ما  
قالت<sup>(١)</sup>، ثم أمر بفتح القارورة عند فراغ السنة، فوُجِدَ فيها حبة ونصف حبة، فقال: أنتِ زعمتِ أنْ قُوتَك كل سنة ثلث حبات! فقالت: نعم، ولقد  
صدقتك، ولكن لما رأيتك مشغولاً بمصالح أبناء جنسك، حَسِبْتُ الذي معي  
فوجدته أكثر من المدة المضروبة، فاقتصرت على نصف القوت، واستبقيت  
نصفه استبقاء لنفسي.

فعجب سليمان من شدة حرصها، وهذا من أعجب الهدایة والفتنة.  
ومن حرصها أنها تكدر طوال الصيف، وتجمع للشتاء، علمًا منها بإعواز  
الطلب في الشتاء، وتعذر الكسب فيه.  
وهي على ضعفها شديدة القوى؛ فإنها تحمل أضعافًا ووزنها،  
وتجره إلى بيتها.

ومن عجيب أمرها أنك إذا أخذت عضو جرادة يابساً فأدنته إلى أنفك  
لم تشم له رائحة، فإذا وضعته على الأرض أقبلت النملة من مكان بعيد إليه  
فاحتملته، فإن عجزت عن حمله ذهبت وأتت معها بصف<sup>(٢)</sup> من النمل  
يحملونه، فكيف وجدت رائحة ذلك من جوف بيتها حتى أقبلت بسرعة إليه!  
 فهي تدرك بالشم من بعد ما يدركه غيرها بالبصر أو بالسمع، فتأتي من  
مكان بعيد إلى موضع أكل فيه الإنسان، وبقي فيه فتات من الخبز أو غيره،

---

(١) «بعد ما قالت» زيادة من «د».

(٢) «م»: «بصف».

فتحمله وتذهب به، وإن كان أكبر منها، فإن عجزت عن حمله، ذهبت إلى جحرها وجاءت معها بطائفة من أصحابها، فجاؤوا كخيط أسود يتبع بعضهم بعضاً، حتى يتساعدوا على حمله ونقله.

وهي تأتي إلى السنبلة فتشمها، فإن وجدتها حنطة قطعتها وفرقتها وحملتها، وإن وجدتها شيئاً تركتها.

فلها أولاً صدق الشم، وبُعد الهمة، وشدة الحرص، والجرأة على محاولة نقل ما هو أضعف أضعف وزنه<sup>(١)</sup>.

وليس للنمل قائد ورئيس يدبرها كما يكون للنحل، إلا أن لها رائداً يطلب الرزق، فإذا وقف عليه أخبر أصحابه فيخرجن مجتمعات.

وكل نملة تجتهد في صلاح العامة منها، غير مختلسة من الحبّ شيئاً لنفسها دون صواباتها.

ومن عجيب أمرها أنّ الرجل إذا أراد أن يحترز من الذر لا يسقط في عسل أو نحوه، فإنه يحفر حُفيرة ويجعل حولها ماء، أو يتخذ إناء كبيرة ويملئه ماء، ثم يضع فيه ذلك الشيء، فيأتي الذر يطيف به فلا يقدر عليه، فيتسلق في الحائط، ويمشي على السقف، إلى أن يحاذى بذلك الشيء، فتلقي نفسها عليه، وجرينا نحن ذلك.

وأحمد صانع مرأة طوقاً بالنار، ورماه على الأرض ليبرد، واتفق أن أسفل الطوق نمل، فتوجه في الجهات ليخرج فلحقه وهج النار، فلزم المركز

---

(١) انظر: «الحيوان» (٤/٦-٧).

ووسط الطوق وكان فيه، وكان<sup>(١)</sup> ذلك مركزاً له، وهو أبعد مكان من المحيط.

## فصل

وهذا الهدد من أهدى الحيوان وأبصره بمواضع الماء تحت الأرض حيث لا يراه غيره.

ومن هدياته ما حكاه الله سبحانه عنه في كتابه أنه قال لبني الله سليمان، وقد فقلده وتواعده<sup>(٢)</sup>، فلما جاءه بدره بالعذر قبل أن يُدره سليمان بالعقوبة، ومخاطبه خطاباً هيجه به على الإصغاء إليه، والقبول منه، فقال: «أحاطتُ بما لم تُخْطِبْ به» [النمل: ٢٢]، وفي ضمن هذا: آني أتيتك بأمر قد عرفته حق المعرفة بحيث أحاطت به، وهو خبر عظيم له شأن، فلذلك قال: «وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأً يَبْيَأُ يَقِينِ» [النمل: ٢٢]، والنبا هو الخبر الذي له شأن، والنفوس متطلعة إلى معرفته، ثم وصفه بأنه نباً يقين لا شك فيه ولا ريب، فهذه مقدمة بين يدي إخباره لبني الله بذلك النبا، استفرغت قلب المخبر لتلقّي الخبر وقوله، وأوجبت له التشوف التام إلى سماعه ومعرفته، وهذا نوع من براعة الاستهلال وخطاب التهيج.

ثم كشف له عن حقيقة الخبر كشفاً مؤكداً بأداة<sup>(٣)</sup> التأكيد، فقال: «إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ» [النمل: ٢٣].

(١) «وكان» زيادة من «م»، وفي السياق شيء.

(٢) كذا في الأصول: «تواعده»، والأشباه سياق القصة: «توعده»؛ وقد سلف التنبيه عليه.

(٣) «د»: «بأدلة» تحريف.

ثم أخبر عن شأن تلك الملكة، وأنها من أجل الملوك، بحيث أوتيت من كل شيء يصلاح أن تؤتاه الملوك، ثم زاد في تعظيم شأنها بذكر عرশها التي تجلس عليه، وأنه عرش عظيم.

ثم أخبره بما يدعوه إلى قصدهم وغزوهم في عقر دارهم بعد دعوتهم إلى الله، فقال: «وَجَدْنَاهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمَسِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» [النمل: ٢٤]، وحذف أداء العطف من هذه الجملة، وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها، إذأنها هي المقصودة وما قبلها توطئة لها، ثم أخبر عن المغوي لهم، الحامل لهم على ذلك، وهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم حتى صدّهم عن السبيل المستقيم، وهو السجود لله وحده، ثم أخبر أن ذلك الصدّ حال بينهم وبين الهدایة للسجود للذي لا ينبغي السجود إلا له.

ثم ذكر من أفعاله سبحانه إخراج الخباء في السماوات والأرض، وهو المخبوء فيما من المطر والنبات والمعادن، وأنواع ما ينزل من السماء، وما يخرج من الأرض.

وفي ذكر الهدى هذا الشأن من أفعال رب تعالى بخصوصه إشعار بما خصّه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت الأرض.

قال صاحب «الكساف»: «وفي إخراج الخباء أمارة على أنه من كلام الهدى؛ لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض، وذلك بإلهام من يخرج الخباء في السماوات والأرض، جلت قدرته ولطف علمه، ولا يكاد يخفى على ذي الفراسة الناظر بنور الله مخايل كل مختص بصناعة أو فن من العلم في روايه<sup>(١)</sup>

---

(١) الرواء: حسن المنظر، «الصحاح» (رأى) (٦/٢٣٤٧).

ومنطقه وشمائله، فما عمل آدمي عملاً إلا ألقى الله عليه رداء عمله»<sup>(١)</sup>.

## فصل (٢)

وهذا الحمام من أعجب الحيوان هداية، حتى قال الشافعی: «أعقل الطیر الحمام»<sup>(٣)</sup>.

وبُرُد الحمام - وهي التي تحمل الرسائل والكتب - ربما زادت قيمة الطير منها على قيمة المملوك والعبد؛ فإن الغرض الذي يحصل به لا يحصل بملك ولا بحيوان غيره؛ لأنه يذهب ويرجع إلى مكانه من مسيرة ألف فرسخ فما دونها، وينهي<sup>(٤)</sup> الأخبار والأغراض والمقاصد التي تتعلق بها مهمات المالك والدول.

والقيّمون بأمرها يعتنون بأنسابها اعتناءً عظيماً، فيفرقون بين ذكورها وإناثها وقت السُّفَاد، وتنقل الذكور عن إناثها إلى غيرها، والإثاث عن ذكورها، ويختلفون عليها من فساد أنسابها وحملها من غيرها، ويتعرفون صحة طرقها ومحلها؛ لأنهم لا يأمنون أن يُسْفِد<sup>(٥)</sup> الأنثى ذكر<sup>(٦)</sup> من عرض الحمام فتعتريها الهُجْنة.

(١) «الکشاف» (٣٦٢ / ٣).

(٢) انظر: «الحيوان» (٣ / ١٤٤-٢٩٨)، وجمل مادة هذا الفصل مقتبسة منه.

(٣) بنحوه في «الأم» (٣ / ٥٠٧)، وبنصه أورده ابن العربي في «أحكام القرآن» (٣ / ٤٧٢).

(٤) «م»: «ويرى».

(٥) «د» «م»: «يفسد»، والمثبت من «ج»، والسياق يعضده.

(٦) في الأصول: «ذكر» خطأ مفسد للمعنى، والقرة بقريب منها في «الحيوان» (٣ / ٢١٣).

والقيّمون بأمرها لا يحفظون أرحام نسائهم ويحتاطون لها كما يحفظون  
أرحام حمامهم ويحتاطون لها.

والقيّمون بأمرها لهم في ذلك قواعد وطرق يعتنون بها غاية الاعتناء،  
بحيث إذا رأوا حماماً ساقطاً لم يُخفَ عليهم حسبُها ونسبُها وبلدُها.

ويعظّمون صاحب التجربة والمعرفة، وتسمح أنفسهم بالجعل الوافر  
له.

ويختارون لحمل الكتب والرسائل الذكور منها، ويقولون: هو أحنُ إلى  
بيته لمكان أنتهائه، وهو أشدّ متأنّاً، وأقوى بدنًا، وأحسن اهتماءً.

وطائفة منهم يختار لذلك الإناث، ويقولون: الذكر إذا سافر وبعد عهده  
كَحْنَ إلى الإناث، وتأقت نفسه إليهن، فربما رأى أنثى في طريقه ومجيئه فلا  
يصبر عنها، فترك المسير، ومال إلى قضاء وطره منها.

وهداية الحمام على قدر التعليم والتقطين.

والحمام موصوف باليُمِن والإِلْف والتَّائِنَس، ويحب الناس ويحبونه،  
ويألف المكان، ويثبت على العهد والوفاء لصاحبها وإن أساء إليه، ويعود إليه  
من مسافات شاسعة، وربما صدّ واختزل<sup>(١)</sup> عن وطنه عشر حجج<sup>(٢)</sup>، وهو  
ثابت على الوفاء، حتى إذا وجد فرصة واستطاعة عاد إليه.

والحمام إذا أراد السُّفَاد تلطّف للأنثى غاية التلطّف، فيبدأ بنشر ذنبه

(١) من الاختزال وهو الانقطاع والانفراد، كما في «تاج العروس» (خزل) (٤٠٦/٢٨)،  
وفي «د»: «وافترك» دون إعجام، وفي «ج»: «فترك»، والمثبت من «م».

(٢) «ج»: «ستين».

ولإرخاء جناحيه، ثم يدنو من الأنثى، فيهدر لها ويقبّلها ويزُفّها<sup>(١)</sup> وينتفش ويرفع صدره، ثم يعتريه ضرب من الحكة والتفلّي، والأنثى في ذلك مرسلة جناحها وكتفها<sup>(٢)</sup> على الأرض، فإذا قضى حاجته منها، ركبته الأنثى! وليس ذلك في شيء من الحيوان سواه.

وإذا علم الذكر أنه أودع رحم الأنثى ما يكون منه الولد، تقدّم هو والأنثى بطلب القصب والخشيش وصغار العيدان، فيعملان منه أفحوصة<sup>(٣)</sup>، وينسجاهما<sup>(٤)</sup> نسجًا متداخلاً في الموضع الذي يكون بقدر جثمان الحمام، و يجعلان حروفها شاخصة مرتفعه؛ لثلا يتدرج عنها البيض، ويكون حصناً للحاضن، ثم يتعاودان ذلك المكان، ويعاقبان الأفحوص يسخنانه ويطيّنانه، وينفيان طباعه الأول ويحدثان فيه طبعاً آخر، مشتقاً ومستخرجاً من طباع أبدانهما ورائحتهما؛ لكي تقع البيضة إذا وقعت في مكان هو أشبه المواقع بأرحام الحمام، ويكون على مقدار من الحر والبرد والرخاوة والصلابة.

ثم إذا ضربها المخاض بادرت إلى ذلك المكان ووضعت فيه البيض. فإن أفرعها رعد قاصف رمت بالبيضة دون ذلك المكان الذي هيأته، كالمرأة التي تسقط من الفرع.

(١) من الرّزق وهو إطعام الطائر فراخه بفيه، «الصحاح» (زنق) (٤/١٤٩٢).

(٢) «الحيوان» (٣/١٥٨): «وكفيها».

(٣) الأفحوصة: الموضع الذي تضع فيه الحمام بيضها؛ لأنها تفحص الموضع، ثم تبيض فيه، ينظر: «تاج العروس» (فحص) (١٨/٦٣).

(٤) «ج»: «ينسجاهما»، والمثبت من «د» «م» موافق لما في «الحيوان» (٣/١٤٩).

فإذا وضعت البيض في ذلك المكان لم يزالا يتعاقبان الحَضْنُ، حتى إذا بلغ الحَضْنُ<sup>(١)</sup> مدها وانتهت أيامه، انصدع عن الفرخ فأعاناه على خروجه، فييدآن أولاً بفتح الريح في حلقة حتى تتسع حوصلته، علمًا منهم بأن الحوصلة تضيق عن الغذاء، فتتسع الحوصلة بعد التحامها، وتتفتق بعد ارتقاها. ثم يعلمان أن الحوصلة وإن كانت قد اتسعت شيئاً فإنها في أول الأمر لا تحتمل الغذاء، فيزقانه بلعاهما المختلط بالغذاء وفيه قوى الطعم، ثم يعلمان أن طبع الحوصلة تضعف عن استمرار الغذاء، وأنها تحتاج إلى دفع وقوية لتكون لها بعض المتانة، فيلقطان من أصول الحيطان الحب اللين الرخو ويزقانه الفرخ، ثم يزقانه بعد ذلك الحب الذي هو أقوى وأشد، ولا يزالان يزقانه بالحب والماء على تدريج بحسب قوة الفرخ، وهو يتطلب ذلك منهمما، حتى إذا علموا أنه قد أطاق اللقط منعاً بعض المنع ليحتاج إلى اللقط ويعتاده.

وإذا علما أن أدواته قد قويت وتمّت، وأنهما إن فطماه فطمًا قوي على اللقط وتبليغ لنفسه؛ ضرباه إذا سألهما الزّق ومنعاً، ثم تنزع تلك الرحمة العجيبة منهمما، وينسيان ذلك التعطف المتمكن حين يعلمان أنه قد أطاق القيام بنفسه والتكمب، ثم يتدئان العمل ابتداء على ذلك النظام.

والحمام مشاكل للناس في أكثر طباعه ومذاهبه؛ فإن في إناه أثني لا تزيد إلا زوجها، وفيه أخرى لاتزيد لامس، وأخرى لاتتناى إلا بعد الطلب الحديث، وأخرى ترتكب من أول وهلة وأول طلب<sup>(٢)</sup>، وأخرى لها ذكر

(١) «الحيوان» (٣/١٥١): «حتى إذا بلغ ذلك البيض مدها».

(٢) من قوله: «وآخرى لاتناى» إلى هنا ساقط من «م».

المعروف بها، وهي تتمكن ذكرًا آخر منها عند غيبة ذكرها لا تعوده، قد اتخذته خدًنا، وأخرى مسافحة إذا غاب زوجها لم تمنع ممن ركبها، وأخرى تتمكن من نفسها غير زوجها وهو يراهما ويشاهدهما ولا تبالي بحضوره، وأخرى تُقْمِط<sup>(١)</sup> الذكر وتدعوه إلى نفسها، وأنثى تركب أنثى وتساقها، وذكر يركب ذكرًا ويعشقه، وكل حالة توجد في الناس ذكورهم وإناثهم توجد في الحمام. وفيها من لا تبيض، وإن باضت أفسدت البيضة، كالمرأة التي لا تريد الولد، كيلا يشغلها عن شأنها.

وفي إناث الحمام من إذا عرض لها ذكر - أي ذكر كان - أسرعت هاربة ولا توaci غير زوجها البتّة، بمنزلة المرأة الحرة، ومنها ما يأخذ أنثى يتمتع بها مدة ثم يتقل عنها إلى غيرها، وكذلك الأنثى توافق ذكرًا آخر غير زوجها وتنتقل عنه، وإن كانوا جميعاً في بُرج واحد، ومنها ما يتصالح على الأنثى منها ذكران أو أكثر فتعاشرهم كلهم، حتى إذا غالب واحد منهم لرفيقه وقهره مالت إليه، وأعرضت عن المغلوب.

وفي الحديث أن النبي ﷺ رأى حمامه<sup>(٢)</sup> تتبع حمامة فقال: «شيطان يتبع شيطانة»<sup>(٣)</sup>.

(١) في الأصول: «تعمط» تحريف والمعنى لا يساعد، ففي «القاموس» (٦٧٩): «عَمْط عَرْضَهُ: عَابَهُ، وَثَلَبَهُ»، وأما القَمْط فهو سفاد الطائر كما في «مقاييس اللغة» (٥/٢٧)، وكذلك هي في مصدر المؤلف: «الحيوان» (٣/١٦٥).

(٢) كذا في الأصول: «حمامه» سبق قلم، وضبب عليها في «م» وكتب في الحاشية: «رجالًا» وهو الصواب كما في مصادر التخريج.

(٣) أخرجه أحمد (٨٥٤٣)، وأبو داود (٤٩٤٠)، وابن ماجه (٣٧٦٥) من حديث أبي

ومنها ما يُزْقِ فراخه خاصةً، ومنها ما فيه شفقة ورحمة بالغة يُزْقِ فراخه وغيرها.

ومن عجيب هدايتها أنها إذا حملت الرسائل سلكت الطرق البعيدة عن القرى ومواقع الناس؛ لثلا يعرض لها من يصدها، ولا تَرِد مياهم، بل تَرِد المياه التي لا يَرِدُها الناس.

ومن هدايتها أيضًا أنه إذا رأى البازي في الهواء فيعرف<sup>(١)</sup> أي الزيارة هو، وأي نوع من الأنواع صيده<sup>(٢)</sup>؛ فيخالف فعله ليس لم منه.

ومن كيسه أنه في أول نهوضه يعقل ويميّز بين النسر والعقاب، وبين الرَّحْم والبازي، وبين الغراب والصقر، فيعرف من يقصده ومن لا يقصده، وإن رأى الشاهين فكأنه رأى السم الناقع، ويأخذه تحيرًا كما يأخذ الشاه عند رؤية الذئب، والحمار عند مشاهدة الأسد.

ومن هداية الحمام أن الذكر والأنثى يتقاسمان أمر الفراخ، فتكون الحضانة والتربية والكافلة على الأنثى، وجلب القوت والرِّزق على الذكر، فإن الأب هو صاحب العيال والكاسب لهم، والأم هي التي تحبل وتلد وتترضع.

---

هريرة، وصححه ابن حبان (٥٨٧٤)، وقد اختلف في إسناده، وصواب الدارقطني المرسل في «العلل» (٣٦٤٨).

(١) «د»: «فُرِفَ» والمثبت من «م»، والأقرب حذف الفاء.

(٢) «د»: «صَدَه» مهملة، وطمسـت في «م»، والمثبت من «ج» موافقة للـ«الحيوان»

(٣) وعبارة: «الحمام لا يخفى عليه في أول ما يرى البازي في الهواء أي الزيارة هو، وأي نوع صيده»، فيخالف ذلك.

ومن عجيب أمرها ما ذكره الجاحظ: أن رجلاً كان له زوج حمام مقصوص، وزوج حمام طيار، وللطيار فرخان، قال: ففتحت لهم في أعلى الغرفة كَوْةً للدخول والخروج وزقَ فراخهما.

قال: فحبسني السلطان فجأة، فاهتممت بشأن المقصوص غاية الاهتمام، ولم أشك في موتهما؛ لأنهما لا يقدران على الخروج من الكَوْة، وليس عندهما ما يأكلان ويشربان.

قال: فلما خُلِّي سبيلي لم يكن لي هَمٌ غيرهما، ففتحت البيت فوجدت الفرخين قد كبرا، ووجدت المقصوصين على أحسن حال، فتعجبت، فلم ألبث أن جاء الزوج الطيار، فدنا الزوج المقصوص إلى أفواههما يستطيعانهما كما يستطيع الفرخ، فزقاهما<sup>(١)</sup>.

فانتظر إلى هذه الهدایة، فإن المقصوصين لما شاهدا تلطف الفرخ للأبوين وكيف يستطيعانهما، واشتد بهما الجوع والعطش، فعلاً كفعل الفرخين فأدركتهما رحمة الطيارين، فزقاهما كما يزقان فراخهما.

ونظير ذلك ما ذكره الجاحظ وغيره - قال الجاحظ: وهو أمر مشهور عندنا بالبصرة - : أنه لما وقع الطاعون الجارف أتى على أهل دار، فلم يشك أهل تلك المحلة أنه لم يُبْتِ من them أحداً، فعمدوا إلى باب الدار فسدوه، وكان قد بقي صبي صغير يرضع ولم يفطنوا له.

فلما كان بعد ذلك بمدة تحول إليها بعض ورثة القوم، ففتح الباب، فلما

---

(١) «الحيوان» (٢/١٥٦-١٥٧).

أفضى إلى عرصة الدار إذا هو بصبي يلعب مع جراء كلبة قد كانت لأهل الدار، فراغه ذلك، فلم يلبث أن أقبلت كلبة قد كانت لأهل الدار، فلما رآها الصبي حبا إليها فامكته من أطبائها فقصّها.

وذلك أن الصبي لما اشتَدَّ جوعه، ورأى جراء الكلبة يرتصعون من أطبائها حبا إليها، فعطفت عليه، فلما سقته مرّة أدامت له ذلك، وأدام هو الطلب.

ولا يُستبعد هذا وما هو أعجب منه؛ فإن الذي هدى المولود إلى مص恩 إيهامه ساعة يولد، ثم هداه إلى التقام حلمة ثدي لم يتقدم له به عادة، كأنه قد قيل له: هذه خزانة طعامك وشرابك التي كأنك لم تزل بها عارفًا = في هدایته للحيوان إلى مصالحه ما هو أعجب من ذلك<sup>(١)</sup>.

ومن ذلك أن الديك الشاب إذا أُلقى له حبًّا لم يأكله حتى يفرقه، فإذا هرم وشاخ أكله من غير تفريق، كما قال المدائني<sup>(٢)</sup>: إن إياس بن معاوية مَرَّ بديك ينقر حبًّا ولا يفرقه، فقال: ينبغي أن يكون هرماً؛ فإن الديك الشاب يفرق الحبَّ لتجتمع الدجاج حوله فيصبن منه، والهرم قد فنيت رغبته فيهن، فليس له همة إلا نفسه. قال إياس: والديك الشاب يأخذ الحبة فيؤثر بها الدجاجة حتى يلقيها من فيه، والهرم يتلعلها ولا يلقيها للدجاجة<sup>(٣)</sup>.

(١) «الحيوان» (٢/١٥٢، ١٥٠).

(٢) علي بن محمد أبو الحسن البصري المدائني الأخباري (٢٢٥هـ)، «تاريخ الإسلام» (٥/٦٣٨).

(٣) «الحيوان» (٢/١٥٦-١٥٥).

وذكر ابن الأعرابي قال: أكلت حيّة بيض مكاء<sup>(١)</sup>، فجعل المكاء يشوش<sup>(٢)</sup> ويطير على رأسها ويدنو منه، حتى إذا فتحت فاها وهمت به ألقى فيه حَسْكَة، فأخذت بحلقها حتى ماتت.

وأنشد أبو عمرو الشيباني في ذلك قول الأستدي:

إن كنت أبصرنِي عَيْلًا ومُصْطَلِمًا فربما قُتِلَ المَكَاءُ ثَعَبَانَ<sup>(٣)</sup>  
وهداية الحيوانات إلى مصالح معاشها كالبحر، حدث عنه ولا حرج.  
ومن عجيب هدایتها أن الثعلب إذا امتألاً من البراغيث أخذ صوفة بفمه،  
ثم عمد إلى ماء رقيق، فنزل فيه قليلاً قليلاً، حتى ترتفع البراغيث إلى  
الصوفة، فيلقنها في الماء ويخرج<sup>(٤)</sup>.

ومن عجيب أمره أن ذئباً أكل أولاده، وكان للذئب أولاد، وهناك زُبْيَة<sup>(٥)</sup>، فعمد الثعلب وألقى نفسه فيها، وحرر فيها سرداراً يخرج منه، ثم عمد إلى أولاد الذئب فقتلهم، وجلس ناحية يتظاهر الذئب، فلما أقبل وعرف أنها فعلته هرب قدّامه وهو يتبعه، فألقى نفسه في الزُبْيَة، ثم خرج من

(١) طائر له صفير حسن، وتصعید في الجو وھبوط، من فصيلة القنابر، ينظر: «معجم الحيوان» لمعلمون (١٤٦).

(٢) من التشويش وهو الخلط واللبس، وفي «الحيوان» (٧/٢٣): «يششر»، والشرشرة كالرفقة بالجناح، انظر: «التفقية» (٤٣٢).

(٣) الحكاية والشاهد في «الحيوان» (٧/٢٣)، وفيه: «أبصرنِي فذًا» أي: فرداً، قوله: «مُصْطَلِمًا» يعني مقطوعاً وحيداً.

(٤) «الحيوان» (٦/٣٠٦).

(٥) الزُبْيَة: حفرة لاصطياد السبع تحفر في موضع عال، «الصحاح» (زبي) (٦/٢٣٦٦).

السَّرَّاب<sup>(١)</sup>، فَأَلْقَى الذِئْبَ نَفْسَهُ وَرَاءَهُ فَلَمْ يَجِدْهُ، وَلَمْ يُطِقْ الْخَرْوَجَ، فَقُتِلَهُ أَهْلُ النَّاحِيَةِ.

وَمِنْ عَجِيبِ أَمْرِهِ أَنْ رَجُلًا كَانَ مَعَهُ دَجَاجَتَانِ، فَاخْتَفَى لَهُ<sup>(٢)</sup> وَخُطِفَ إِحْدَاهُمَا وَفَرَّ، ثُمَّ أَعْمَلَ فَكْرَهُ فِي أَخْذِ الْأُخْرَى، فَتَرَاءَى لِصَاحِبِهِ مِنْ بَعِيدٍ، وَفِي فَمِهِ شَبِيهٌ بِالظَّاهِرِ، وَأَطْمَعَهُ فِي اسْتِنْقَادِهِ بِأَنْ تَرَكَهُ وَفَرَّ، فَظَنَّ الرَّجُلُ أَنَّهَا الدَّجَاجَةُ فَأَسْرَعَ نَحْوَهَا، وَيَخَالِفُهُ الشَّعْلُ<sup>(٣)</sup> إِلَى أَخْتَهَا، فَأَخْذَهَا وَذَهَبَ<sup>(٤)</sup>.

وَمِنْ عَجِيبِ أَمْرِهِ أَنَّهُ أَتَى إِلَى جَزِيرَةٍ فِيهَا طَيْرٌ، فَأَعْمَلَ الْحِيلَةَ كَيْفَ يَأْخُذُ مِنْهَا شَيْئًا، فَلَمْ يُطِقْ، فَذَهَبَ وَجَاءَ بِضِعْثَةً مِنْ حَشِيشٍ وَأَلْقَاهُ فِي مَجْرِيِ الْمَاءِ الَّذِي نَحْوُ الطَّيْرِ، فَفَزَعَ الطَّيْرُ مِنْهُ، فَلَمَّا عَرَفَ أَنَّهُ حَشِيشٌ رَجَعَ إِلَى أَمَاكِنِهَا، فَعَادَ لِذَلِكَ مَرَّةً ثَانِيَةً، وَثَالِثَةً، وَرَابِعَةً، حَتَّى تَوَطَّنَ الطَّيْرُ عَلَى ذَلِكَ وَأَفْلَتَهُ، فَعَمِدَ إِلَى جُبْرَةٍ<sup>(٥)</sup> أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَدَخَلَ فِيهَا وَعَبَرَ إِلَى الطَّيْرِ، فَلَمْ يَشَكْ الطَّيْرُ أَنَّهُ مِنْ جَنْسِ مَا قَبْلَهُ فَلَمْ تَنْفِرْ مِنْهُ، فَوَثَبَ عَلَى طَائِرٍ مِنْهَا وَعَدَاهُ.

وَمِنْ عَجِيبِ أَمْرِ الذِئْبِ أَنَّهُ عَرَضَ لِإِنْسَانٍ يَرِيدُ قَتْلَهُ، فَرَأَى مَعَهُ قَوْسًا

(١) «السراب»: الطريق والقناة والجُمُخر، «تاج العروس» (سراب) (٣/٤٩-٥٠).

(٢) كذا في الأصول: «فَاخْتَفَى لَهُ»، والأشباه بالسياق: «فَاخْتَبَأَ لَهُ».

(٣) «ج»: «وَأَسْرَعَ يَخَالِفُهُ الشَّعْلُ».

(٤) جرت للإمام الشافعي حكاية مماثلة أوردها ياقوت في «معجم الأدباء» (٦/٢٤٠٧) من طريق الآبرى عن المزني بها، وليس في القدر المطبوع من «مناقب الشافعي» للأبرى.

(٥) الجزء: الحزمة من الحشيش ونحوها، «المخصص» (٣/٣٥)، والضُّغْثَةُ: قبضة حشيش مختلطة الرطب باليابس.

وسهاماً، فذهب وجاء بعظم رأس جمل في فيه، وأقبل نحو الرجل، فجعل الرجل كلما رماه بسهم انتقاماً بذلك العظم، حتى أعجزه وعاين نفاذ سهامه، فصادف من استعان به على طرد الذئب.

ومن عجيب أمر القرد ما ذكره البخاري في «صحيحه»<sup>(١)</sup> عن عمرو بن ميمون الأودي قال: «رأيت في الجاهلية قرداً وقردة زنياً، فاجتمع عليهما القرود فرجموهما حتى ماتاً، فهو لاء القرود أقاموا حدَّ الله حين عطَّله بنو آدم.

وهذه البقر يُضرب ببلادتها المثل، وقد أخبر النبي ﷺ أن رجلاً يُبَشِّرُهُ أن يسوق بقرة إذ ركبها، فقالت: إنما لم نخلق لهذا، فقال الناس: سبحان الله، بقرة تتكلم! فقال: «فإني أؤمن بهذا أنا وأبو بكر وعمر» وما هماثم<sup>٢</sup>، قال: وبينما رجل يرعى غنمًا له، إذ عدا الذئب على شاة منها فاستنقذها منه، فقال الذئب: يا هذا، استنقذتها مني! فمن لها يوم السبع، يوم لا راعي لها غيري؟ فقال الناس: سبحان الله، ذئب يتكلم! فقال رسول الله ﷺ: «إنّي أؤمن بهذا أنا وأبو بكر وعمر» وما هماثم<sup>٢</sup>.

ومن هداية الحمار - الذي هو من أبلد الحيوان - أن الرجل يسير به، ويأتي به إلى منزله من البُعد في ليلة مظلمة، فيعرف المنزل، فإذا خلّي جاء إليه، ويفرق بين الصوت الذي يُستوقف به، والصوت الذي يُحثّ به على السير.

(١) برقم (٣٨٤٩) بنحوه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٧١)، ومسلم (٢٣٨٨) من حديث أبي هريرة.

ومن عجيب أمر الفأر أنها إذا شربت من الزيت الذي في أعلى الجرة فنقص، وعَزَّ عليها الوصول إليه؛ ذهبت وحملت في أفواها ماء، وصبته في الجرة حتى يرتفع الزيت فتشيره.

والأطباء تزعم أن الحُقْنة أخذت من طائر طويل المنقار، إذا تعسر عليه الدُّرَق جاء إلى البحر المالح وأخذ بمنقاره منه، واحتقن به، فيخرج الدُّرَق بسرعة<sup>(١)</sup>.

وهذا الشعلب إذا اشتَدَّ به الجوع انتفخ ورمى بنفسه في الصحراء كأنه جيفة، فتدنو منه الطير، فلا يُظهر حركة ولا نفَسًا، فلا تشک أنه ميت، حتى إذا نقرته بمنقارها وثب عليها، فضمّها ضمة الموت<sup>(٢)</sup>.

وهذا ابن عرس والقنفذ إذا أكل الأفاعي والحيّات عمداً إلى الصَّعْتَر البريّ، فأكلاه كالتریاق لذلك<sup>(٣)</sup>.

ومن عجيب أمر الشعلب أنه إذا أصاب القنفذ قلبه لظهره لأجل شوكه، فيجتمع القنفذ حتى يصير كُبة شوك، فيبول الشعلب على بطنه، ما بين مَغْرِز عَجْجه إلى فَكِيه، فإذا أصابه بوله اعتراه الأُسْر<sup>(٤)</sup> فانبسط، فيسلّخه الشعلب من

---

(١) انظر: «الحيوان» (٣٢/٧)، والدُّرَق خراء الطائر، «الصحاح» (ذرق) (٤/٤) (١٤٧٨).

(٢) انظر: «الحيوان» (٢/٢٩٠).

(٣) انظر: «الحيوان» (٧/٣٣).

(٤) الأُسْر: احتباس البول، وفي «الحيوان»: «الأُسْن»، يقال: أُسْن الرجل إذا دخل البشر فأصابته ريح متنّة فغشّي عليه، أو دار رأسه، وهذا المعنى أليق بالسياق، ينظر: «الصحاح» (٥٧٨/٢) (٥٧٨/٥) (٢٠٧٠).

بطنه، ويأكل مسلوحة<sup>(١)</sup>.

## فصل

وكثير من العقلاة يتعلم من الحيوان البهيم أموراً تنفعه في معاشه وأخلاقه، وصناعته، وحريره، وحزمه، وصبره.

وهداية الحيوان فوق هداية أكثر الناس، قال تعالى: «أَفَرَئِيْسْتُ أَنَّ أَكَيْرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ بِلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا» [الفرقان: ٤٤]، قال أبو جعفر الباقر: «وَاللَّهُ مَا اقْتَصَرَ عَلَى تَشْبِيهِهِمْ بِالْأَنْعَامِ حَتَّى جَعَلَهُمْ أَضَلَّ سَبِيلًا مِنْهَا»<sup>(٢)</sup>.

فمن هدى الأنبياء من السباع إذا وضعت ولدها أن ترفعه في الهواء أيامًا، تهرب به من الذر والنمل؛ لأنها تضنه كفدرة<sup>(٣)</sup> من لحم، فهي تخاف عليه الذر والنمل، فلا تزال ترفعه وتضنه، وتحوله من مكان إلى مكان حتى يشتدد<sup>(٤)</sup>.

وقال ابن الأعرابي: قيل لشيخ من قريش: من علمك هذا كله، وإنما يعرف مثله أصحاب التجارب والتكتسب؟

قال: علمني الله ما علّم الحمامات تقليب بيضها حتى تعطي الوجهين

---

(١) انظر: «الحيوان» (٣٣/٧).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) الفدرة: القطعة من اللحم إذا كانت مجتمعة، «الصحاح» (٢/٧٧٩).

(٤) انظر: «الحيوان» (٧/٣٦)، وفيه: «وَمَنْ عَلِمَ الدَّبَ...».

جَمِيعًا نَصِيبُهُمَا مِنْ حَضَانَتِهَا، وَلِخَوْفٍ<sup>(١)</sup> طَبَاعُ الْأَرْضِ عَلَى الْبَيْضِ إِذَا  
اسْتَمَرَ عَلَى جَانِبٍ وَاحِدٍ<sup>(٢)</sup>.

وَقَيلَ لَآخَرُ: مَا عَلِمْتُ الْلَّجَاجَ فِي الْحَاجَةِ وَالصَّبَرِ عَلَيْهَا وَإِنْ اسْتَعْصَتْ  
حَتَّى تَظَفَرَ بِهَا؟

قَالَ: مَنْ عَلِمَ الْخَنْفِسَاءَ إِذَا صَعَدَتْ فِي الْحَائِطِ تَسْقَطُ، ثُمَّ تَصْعَدُ، ثُمَّ  
تَسْقَطُ مَرَارًا عَدِيدًا، حَتَّى تَسْتَمِرَ صَاعِدَةً<sup>(٣)</sup>.

وَقَيلَ لَآخَرُ: مَنْ عَلِمَ الْبَكُورَ فِي حَوَائِجِكَ أَوْلَ النَّهَارِ لَا تُخْلِّي بَهُ؟

قَالَ: مَنْ عَلِمَ الطَّيْرَ تَغْدو خِمَاصًا كُلَّ بَكْرَةً فِي طَلْبِ أَقْوَاتِهَا عَلَى قَرْبِهَا  
وَبَعْدَهَا، لَا تَسْأَمُ ذَلِكَ، وَلَا تَخَافُ مَا يَعْرُضُ لَهَا فِي الْجَوِّ وَالْأَرْضِ.

وَقَيلَ لَآخَرُ: مَنْ عَلِمَ السُّكُونَ وَالتَّحْفِظَ وَالْتَّمَاوِتَ حَتَّى تَظَفَرَ بِأَرْبِيكَ،  
فَإِذَا ظَفَرَتْ بِهِ، وَثَبَتَ وَثُوبَ الأَسْدِ عَلَى فَرِيسِتِهِ؟

فَقَالَ: الَّذِي عَلِمَ السَّنْتُورَ أَنْ تَرْصِدَ جُحْرَ الْفَأْرَةِ، فَلَا تَتَحرِكُ وَلَا تَمُورُ<sup>(٤)</sup>  
وَلَا تَخْتَلِجُ، كَأَنَّهَا مِيَّةٌ، حَتَّى إِذَا بَرَزَتْ لَهَا الْفَأْرَةُ وَثَبَتَ عَلَيْهَا كَالْأَسْدِ.

وَقَيلَ لَآخَرُ: مَنْ عَلِمَ الصَّبَرَ وَالْجَلدَ وَالاِحْتِمَالِ وَعَدْمِ الشَّكْوَى؟

قَالَ: مَنْ عَلِمَ أَبَا أَيُوبَ<sup>(٥)</sup> صَبَرَهُ عَلَى الْأَثْقَالِ وَالْأَحْمَالِ التَّقِيلَةِ، وَالْمَشِيِّ

---

(١) «د» «م»: «وَتَخَوْفٌ»، وَالْمُبَثَّتُ مِنْ «ج» مُوَافِقٌ لِمَا فِي «الْحَيْوَانِ».

(٢) انْظُرْ: «الْحَيْوَانُ» (٧/٣٥).

(٣) يَنْظُرُ فِي لِجَاجِ الْخَنْفِسَاءِ: «الْحَيْوَانُ» (٣/٣٤٠).

(٤) «وَلَا تَمُورُ» مِنْ «م»، وَفِي «د» «ج»: «تَنْوِي» مَهْمَلَة، وَلِعَلِّهَا: «وَلَا تَمُورُ».

(٥) هِيَ كَنْيَةُ الْجَمَلِ، وَيَكْنَى أَيْضًا أَبَا صَفْوَانَ، كَمَا فِي «ثَمَارِ الْقُلُوبِ» (٢٥١).

بها على ظهره من بلد إلى بلد، ماداً عنقه مستسلماً، صابراً على الجوع والعطش والتعب، وغلظة الجمال وضربه، فالثقل والكل على ظهره، ومرارة الجوع والعطش في كبدة، وجهد التعب والمشقة ملء جوارحه، ولا معول له غير الصبر.

وقيل لآخر: من علمك حسن الإيثار والسماحة بالبذل؟

قال: من علم الديك يصادف الحبة في الأرض وهو يحتاج إليها فلا يأكلها، بل يستدعي الدجاج، ويطلبهن طلباً حثيناً، حتى تجيء الواحدة منهن فتلقطها، وهو مسرور بذلك طيب النفس به، وإذا وضع له العحب الكبير فرقه هنا وهناك وإن لم يكن هناك دجاج؛ لأن طبعه قد ألف البذل والجود، فهو يرى من اللؤم أن يستبدل وحده بالطعام.

وقيل لآخر: من علمك هذا التحليل في طلب الرزق، ووجوه تحصيله؟

قال: من علم الشعلب تلك الحيل التي يعجز العقلاً عن علمها وعملها، وهي أكثر من أن تذكر؟

ومن علم الأسد إذا مشى وخف أني يقتضي أثره ويُطلب، عفا<sup>(١)</sup> على أثر مشيته بذنبه، ومن علمه أن يأتي إلى شبله في اليوم الثالث من وضعه فينفتح في منخريه فيتحرّك؛ لأن اللبوة تضعه خوراً كالميت، فلا تزال تحرسه حتى يأتي أبوه فيفعل به ذلك، ومن ألمهم كرام الأسود وأشرافها أن لا تأكل إلا من فريستها، وإذا مر بفريسة غيره لم يدّن منها ولو وجهه الجوع؟

ومن علم الأسد أن يخضع للببر، ويذلّ له إذا اجتمعوا حتى ينجو منه،

---

(١) كذلك في الأصول: «عفا»، والأقرب: «أن يغفو».

ومن عجيب أمره أنه إذا استعصى<sup>(١)</sup> عليه شيء من السباع دعا الأسد فأجابه إجابة المملوك لمالكه، ثم أمره فربض بين يديه فيبول في أذنه، فإذا رأت السباع ذلك أذعنـت للبـير بالطاعة والخضوع؟

ومن علـم الثعلـب إذا اشـتد بـه الجـوع أن يـستلـقـي عـلـى ظـهـرـه، ويـختـلسـ<sup>(٢)</sup> نـفـسـه إـلـى دـاخـل بـدـنـه حـتـى يـتـفـخـ، فـيـظـنـ الطـيـرـ<sup>(٣)</sup> أـنـه مـيـتـةـ، فـيـقـع عـلـيـهـ، فـيـثـبـ علىـ منـ انـقـضـيـ عـمـرـهـ مـنـهـ؟

ومن علـمـهـ إـذـا أـصـابـهـ صـدـعـ أوـ جـرـحـ أـنـ يـأـتـيـ إـلـىـ صـبـغـ مـعـرـوفـ، فـيـأـخـذـ مـنـهـ وـيـضـعـهـ عـلـىـ جـرـحـهـ كـالـمـرـهـ؟

ومن علـمـهـ إـذـا أـصـابـهـ كـلـمـ أـنـ يـأـتـيـ إـلـىـ نـبـتـ قـدـ عـرـفـهـ، وجـهـلـهـ صـاحـبـ الحـشـائـشـ، فـيـتـداـوىـ بـهـ فـيـبـرـ؟

ومن عـلـمـ الـأـنـثـيـ مـنـ الفـيـلـةـ إـذـا دـنـاـ وـقـتـ وـلـادـهـ أـنـ تـأـقـيـ إـلـىـ المـاءـ فـتـلـدـهـ فـيـهـ؛ لأنـهاـ دـوـنـ سـائـرـ الـحـيـوانـاتـ لـاـ تـلـدـ إـلـاـ قـائـمـةـ؛ لأنـ أـوـصـالـهـ عـلـىـ خـلـافـ أـوـصـالـ الـحـيـوانـ<sup>(٤)</sup>، وـهـيـ عـالـيـةـ، فـتـخـافـ أـنـ تـسـقـطـهـ عـلـىـ الـأـرـضـ فـيـتـصـدـعـ أـوـ يـنـشـقـ، فـتـأـقـيـ إـلـىـ مـاءـ وـسـطـ تـضـعـهـ فـيـهـ، يـكـوـنـ كـالـفـراـشـ اللـيـنـ، وـالـوـطـاءـ النـاعـمـ؟

ومن عـلـمـ الـذـبـابـ إـذـا سـقـطـ فـيـ مـائـعـ أـنـ يـتـقـيـ بـالـجـنـاحـ الـذـيـ فـيـهـ الدـاءـ دـوـنـ الـأـخـرـ؟

(١) في الأصول: «عصى»، تحريف، والصواب المثبت.

(٢) هـكـذـاـ رـسـمـتـ فـيـ «دـ» «مـ»: «ويـختـلسـ» مـهـمـلـةـ، والـاـخـلاـسـ اـسـتـلـابـ الشـيـءـ.

(٣) «دـ»: «الـظـانـ».

(٤) في «حياة الـحـيـوانـ» للـدـمـيـريـ (٣٠٩ / ٢): «وـلـاـ فـوـاصـلـ لـقـوـائـمـهـ».

ومن عَلِمَ الكلب إذا عاين الظباء أن يعرف المُعْتَلَ من غيره، والذكر من الأثنى؛ فيقصد الذكر مع علمه بأن عَدُوهُ أشَدُّ وأبعد وثبة، ويُدعَيُ الأثنى على نقصان عَدُوها؛ لأنَّه قد عَلِمَ أنَّ الذكر إذا عادَا شوَطًا أو شوطين حَقِيب ببوله<sup>(١)</sup>، وكلَّ حيوان إذا اشتَدَ فزعه فإنه يدركه الحَقِيب، وإذا حَقِيب الذكر لم يستطع البول مع شدة العدو، فيقل عدوه فيدركه الكلب، وأما الأثنى فإنهما تُحذف بولهما لِسَعَةِ القبل، وسهولة المخرج، فيدوم عَدُوها<sup>(٢)</sup>؟

ومن عَلِمَ أنه إذا كسا الثلُجُ الأرضَ أن يتَأْمِلَ الموضع الرقيق الذي قد انخسف، فيعلم أنَّ تَحْتَه جُحْرُ الأَرْنَبِ، فينبشِه ويصطادها، علمًا منه بأنَّ حرارة أنفاسها تذيب بعض الثلُجِ فيِرق<sup>(٣)</sup>؟

ومن عَلِمَ الذئب إذا نام أن يجعل النوم ثُوابًا بين عينيه، فینام بإحداهما حتى إذا تَبَعَتِ الأُخْرَى نام بها وفتح النائمة، حتى قال فيه بعض العرب:

ينام بإحدى مُقلَّتِيه ويتنقِي      بأخرى المنايا فهو يقطان هاجع<sup>(٤)</sup>

ومن عَلِمَ العصافورة إذا سقط فرخها أن تستغيث، فلا يبقى عصافور بجوارها حتى يجيء، فيطيرون حول الفرخ ويحركونه بأفعالهم، ويحدثون له قوة وهمة وحركة حتى يطير معهم؟

قال بعض الصيادين: ربما رأيت العصافور على الحائط فأومئ بيدي

(١) الحَقِيب احتباس البول، ينظر: «الصَّاحِح» (١١٤/١).

(٢) انظر: «الحيوان» (٢/١١٧-١١٨).

(٣) انظر: «الحيوان» (٢/١١٨-١١٩).

(٤) البيت لِحَمِيدَ بْنِ ثُورِ الْهَلَالِيِّ، وهو في «ديوانه» (١٠٥)، وانظر: «الحيوان» (٦/٤٦٧).

كأنني أرميه فلا يطير، وربما أهويت إلى الأرض كأني أتناول شيئاً فلا يتحرك،  
فإن مسست بيدي أدنى حصاة أو حجر أو نواة طار قبل أن تتمكن منها  
يدى<sup>(١)</sup>.

ومن علّم الحمام إذا حملت أن تأخذ هي والأب في بناء العش، وأن  
يقيما له حروفاً تشبه الحائط، ثم يسخناه ويحدثا فيه طبيعة أخرى، ثم يقلبان  
البيض في الأيام؟

ومن قسم بينهما الحضانة والكدر؟ فأكثر ساعات الحضانة على الأنثى،  
وأكثر ساعات جلب القوت على الأب.

وإذا خرج الفرخ علما ضيق حوصلته عن الطعام فتفحافي فيه نفخاً  
متدرجاً حتى تتسع حوصلته، ثم يُزقّانه اللعب أول شيء قبل الطعام، وهو  
كالليل للطفل، ثم يعلمان احتياج الحوصلة إلى دباغ، فيزقّانه من أصل  
الحيطان من شيء بين الملح والتراب، تتدبغ به الحوصلة، فإذا اندبعت زقّاه  
الحب، فإذا علما أنه أطاق اللقط منعه الزق على التدريج، فإذا تكاملت  
قوته وسائلهما الكفالة ضرباه.

ومن علمهما إذا أرادا السُّفاد أن يتذئب الذكر بالدعاء، فتطارده له الأنثى  
قليلًا لتذيقه حلاوة المواصلة، ثم تطمعه في نفسها، ثم تمنع بعض التمنع  
ليشتد طلبه وحبه، ثم تهادى وتتكلّل، وترى معطفها، وتعرض محسنهما،  
ثم يحدث بينهما من التغزل والعشق والتقبيل والترشف ما هو مشاهد  
بالعيان؟

---

(١) انظر: «الحيوان» (٣٢٩/٢).

ومن عَلَمَ الْمُرْسَلَةِ مِنْهَا إِذَا سَافَرَتْ لِيَلَّا أَنْ تَسْتَدِلْ بِيَطْوَنَ الْأَوْدِيَةِ،  
وَمَجَارِي الْمَيَاهِ وَالْجَبَالِ، وَمَهَابِ الرِّيَاحِ وَمَطْلَعِ الشَّمْسِ وَمَغْرِبِهَا، فَتَسْتَدِلْ  
بِذَلِكَ وَبِغَيْرِهِ إِذَا ضَلَّتْ، فَإِذَا عَرَفَتِ الطَّرِيقَ مَرَّ الْرِّيحَ؟

وَمِنْ عَلَمَ الْلَّيْثِ - وَهُوَ صَنْفٌ مِنَ الْعَنَاكِبِ - أَنْ يَلْطَأْ بِالْأَرْضِ وَيَجْمَعْ  
نَفْسَهُ، فَيُرِيَ الْذَّبَابَةَ أَنَّهُ لَا يَهُ عَنْهَا، ثُمَّ يَثْبُتْ عَلَيْهَا وَثَوْبَ الْفَهْدِ؟

وَمِنْ عَلَمَ الْعَنْكَبُوتَ نَسْجَ تِلْكَ الشَّبَكَةِ الرَّفِيعَةِ الْمُحَكَّمَةِ، وَيَجْعَلُ فِي  
أَعْلَاهَا خَيْطًا، ثُمَّ يَتَعَلَّقُ بِهِ، فَإِذَا تَعْرَقَلَتِ الْبَعْوَضَةُ فِي الشَّبَكَةِ نَزَلَ إِلَيْهَا  
فَاصْطَادَهَا؟

وَمِنْ عَلَمَ الظَّبَىِ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ كِنَاسَهُ إِلَّا مُسْتَدِبَّا؛ لِيَسْتَقْبِلْ بَعْينِيهِ مَا يَخَافُهُ  
عَلَى نَفْسِهِ وَخُشْفِهِ؟<sup>(١)</sup>

وَمِنْ عَلَمَ السَّنَورِ إِذَا رَأَتْ فَأْرَةَ فِي السَّقْفِ أَنْ تَرْفَعَ يَدِيهَا كَالْمُشَيرَةِ إِلَيْهَا  
بِالْعُودِ، ثُمَّ تَشِيرُ إِلَيْهَا بِالرِّجُوعِ، وَإِنَّمَا تَرِيدُ أَنْ تَرْهَبَهَا فَتَزَلَّقَ فَتَسْقُطَ؟<sup>(٢)</sup>

وَمِنْ عَلَمَ الْيَرْبُوعِ أَنْ يَحْفَرَ بَيْتَهُ فِي سَفْحِ الْوَادِيِّ، حِيثُ يَرْتَفَعُ عَنْ مَجْرِيِ  
السَّيلِ؛ لِيَسْلُمَ مِنْ مَدَقِّ الْحَافِرِ، وَمَجْرِيِ الْمَاءِ، وَيَعْمَقُهُ، ثُمَّ يَتَخَذِّذُ فِي زَوَایَاهِ  
أَبْوَابِهَا عَدِيدَةٍ، وَيَجْعَلُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ وَجْهِ الْأَرْضِ حَاجِزًا رَقِيقًا، فَإِذَا أَحْسَسَ بِالشَّرِّ  
فَتَحَ بَعْضَهَا بِأَيْسَرِ شَيْءٍ وَخَرَجَ مِنْهُ؟

(١) الخُشْفُ - مُثْلِثَةُ الْخَاءِ - : وَلَدُ الظَّبَىِ أَوْلَ مَا يُولَدُ، انْظُرْ: «تَاجُ الْعَرْوَسِ» (٢٣ / ٢٠٩)،  
وَالْفَقْرَةُ فِي «الْحَيْوَانِ» (٦ / ٤٤).

(٢) سِيَاقُهُ فِي «الْحَيْوَانِ» (٥ / ٢٥٢): «فَيَقُولُ السَّنَورُ بِيَدِهِ كَالْمُشَيرِ بِيَسَارِهِ: ارْجِعْ. فَإِذَا  
رَجَعَتْ أَشَارَ بِيَمِينِهِ: أَنْ عَدْ فِي عُودِهِ. وَإِنَّمَا يَطْلَبُ أَنْ تَعْيَا أَوْ تَزَلَّقَ أَوْ يُدَارَ بِهَا».

ولما كان كثير النسيان لم يحفر بيته إلا عند أكمة أو صخرة أو شجرة،  
علامة له على البيت إذا ضلّ عنه.

ومن عَلِمَ الفهد إذا سُمِّنَ أَنْ يتوارى لثقل الحركة عليه، حتى يذهب  
ذلك السمن، ثم يظهر؟

ومن عَلِمَ الإِيلَّا إِذَا سقط قرنه أَنْ يتوارى؛ لأن سلاحه قد ذهب فليس من  
لذلك، فإذا كمل نبات قرنه تعرّض للشمس والرياح، وأكثر الحركة؛ ليشتند  
لرحمه، ويزول السمن المانع له من العدو؟<sup>(١)</sup>

وهذا باب واسع جدًا، ويكتفي فيه قوله سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ دَآبَةٍ فِي الْأَرْضِ  
وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمُّ أَنْثَالَكُمْ مَا فَرَّظْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ تُمَّ إِلَيْنَا  
يُحَشَّرُونَ﴾<sup>(٢)</sup> وَالَّذِينَ كَذَّبُوا أَعْيَاتِنَا صُمْرٌ وَكَمْرٌ فِي الظُّلْمُوتِ مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضْلِلُهُ وَمَنْ  
يَشَاءُ يَجْعَلُهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩ - ٣٨].

وقد قال النبي ﷺ: «لو لا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها»<sup>(٣)</sup>،  
وهذا يتحمل وجهين:

أحدهما: أن يكون إخبارًا عن أمر غير ممكن فعله، وهو أن الكلاب أمة  
لا يمكن إفناؤها لكثرتها في الأرض، فلو أمكن إعدامها من الأرض لأمرت  
بتقتليها.

(١) انظر: «الحيوان» (٤٢/٧).

(٢) أخرجه أحمد (١٦٧٨٨)، وأبو داود (٢٨٤٥)، والترمذى (١٤٨٦)، والنسائي (٤٢٨٠)،  
وابن ماجه (٣٢٠٥) من حديث عبد الله بن مغفل، وقال الترمذى: «حسن  
صحيح».

والثاني: أن يكون مثل قوله: «أَمْن أَجْلٍ أَنْ قَرْصَتْكَ نَمْلَةً أَحْرَقْتَ أَمْمَةً مِنَ الْأُمُمِ تَسْبِحُ»<sup>(١)</sup>، فهـي أمة مخلوقة لحكمة ومصلحة، فإذا عدّامها وإفناؤها ينافق ما خلقت له، والله أعلم بما أراد رسوله.

قال ابن عباس في رواية عطاء **«إِلَّا أُمَمٌ أَمْتَالُكُمْ»**: يريـد يعرفونـي ويـوـحدونـي ويسـبـونـي ويـحـمـدونـني، مثل قوله تعالى: **«فَوَانِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسْبِحُ بِحَمْدِهِ»** [الإسراء: ٤٤]، ومثل قوله تعالى: **«أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ وَمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْأَطْيُرُ صَافَقَتْ كُلَّ قَدَّمَ عَلَيْهِ صَلَاتَهُ وَتَسْبِحَهُ»** [النور: ٤١]، فـعلـى هـذا جـعلـتـ أمـمـاـ أمـثـالـنـاـ فـي التـوـحـيدـ وـالـعـرـفـ بـرـبـهـاـ وـتـسـبـيـحـهـ<sup>(٢)</sup>.

ويـدلـ عـلـى هـذـاـ قولـهـ تـعـالـىـ: **«أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ وَمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ وَالنَّجُومُ وَالجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُ»** [الحجـ: ١٨]، وقولـهـ: **«وَإِلَهٌ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ»** [النـحلـ: ٤٩ـ]، ويـدلـ عـلـى هـذـاـ قولـهـ تـعـالـىـ: **«يَرْجِبَ الْأَوَّلِيَّ مَعَهُ وَالظَّيْرُ»** [سبـاـ: ١٠ـ]، ويـدلـ عـلـى هـذـاـ قولـهـ: **«وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَيْكَ النَّحْلَ»** [النـحلـ: ٦٨ـ]، وقولـهـ: **«قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَآتِيهَا الْتَّمْلُ»** [النـملـ: ١٨ـ]، وقولـ سـليمـانـ عـلـيـهـ السـلامـ: **«عِلْمَنَا مِنْ طَيْرٍ»** [النـملـ: ١٦ـ].

وقـالـ مجـاهـدـ: **«أَمْمٌ أَمْتَالُكُمْ»** أصنـافـ مـصنـفةـ تـعرـفـ بـاسـمـائـهـ<sup>(٣)</sup>.

وقـالـ الزـجاجـ: **«أَمْمٌ أَمْتَالُكُمْ»** فيـأـنـهـ تـبعـثـ<sup>(٤)</sup>.

(١) تـقدـمـ تـخـريـجـهـ فـيـ (٢٣١ـ).

(٢) الفـقرـةـ مـقـبـيسـةـ مـنـ «الـبـسيـطـ» (٨/ ١١٢ـ ١١٣ـ).

(٣) أـسـنـدـهـ الطـبـريـ (٩/ ٢٣٣ـ).

(٤) بـمعـناـهـ فـيـ «مـعـانـيـ الـقـرـآنـ وـإـعـراـبـهـ» (٢/ ٢٤٥ـ).

وقال ابن قتيبة: «أمم أمثالنا في طلب الغذاء، وابتغاء الرزق، وتوقي المهالك»<sup>(١)</sup>.

وقال سفيان بن عيينة: «ما في الأرض آدمي إلا وفيه شبه من البهائم، فمنهم من يهتصر اهتصار الأسد، ومنهم من يعدو عدو الذئب، ومنهم من ينبع نباح الكلب، ومنهم من يتطوس كفعل الطاووس، ومنهم من يشبه الخنازير التي لو ألقى إليها الطعام الطيب عافته، فإذا قام الرجل عن رجيعه ولغت فيه، فكذلك تجد من الآدميين من لو سمع خمسين حكمة لم يحفظ واحدة منها، وإن أخطأ رجل ترواه وحفظه»<sup>(٢)</sup>.

قال الخطابي: «ما أحسن ما تأول سفيان هذه الآية، واستنبط منها هذه الحكمة، وذلك أن الكلام إذا لم يكن حكمه مطاوعاً لظاهره، وجب المصير إلى باطنه، وقد أخبر الله تعالى عن وجود المماثلة بيننا وبين كل طائر ودابة، وذلك ممتنع من جهة الخلقة والصورة، وعدم من جهة المنطق والمعرفة، فوجب أن يكون منصراً إلى المماثلة في الطباع والأخلاق، وإذا كان الأمر كذلك فاعلم أنك إنما تعاشر البهائم والسباع، فليكن حذرك منهم وباعدتك إياهم على حسب ذلك»<sup>(٣)</sup>، انتهى كلامه.

والله سبحانه قد جعل بعض الدواب كسوياً محتاً، وبعضها متوكلاً غير محتاب، وبعض الحشرات يدخل لنفسه قوت سنته، وبعضها يتكل على الثقة

---

(١) بفتحه في «تأويل مشكل القرآن» (٤٤٥).

(٢) رواه الخطابي في «العزلة» (٥٥)، ومن طريقه الواحدi في «البسيط» (١١٧/٨).

(٣) «العزلة» (٥٥).

بأن له في كل يوم قدر كفایته رزقاً مضموناً، وأمراً مقطوعاً، وبعضها يدخل، وبعضها يُكتسب له<sup>(١)</sup>، وبعض الذكورة يعول ولده، وبعضها لا يعرف ولده البتة، وبعض الإناث تكفل ولدتها لا تعوده، وبعضها تضيّع ولدتها وتケفل ولد غيرها، وبعضها لا تعرف ولدتها إذا استغنى عنها، وبعضها لا تزال تعرفه وتعطف عليه.

وجعل بعض الحيوانات يُتمها من قبل أمهاها، وبعضها يُتمها من قبل آبائها، وبعضها لا يتلمس الولد، وبعضها يستفرغ الهم في طلبه.

وبعضها يعرف الإحسان ويشكّره، وبعضها لا يؤثّر ذلك عنده شيئاً، وبعضها يؤثّر على نفسه، وبعضها إذا ظفر بما يكفي أمة من جنسه لم يدع أحداً يدنو منه.

وبعضها يحب السُّفَاد ويكثر منه، وبعضها لا يفعله في السنة إلا مرة، وبعضها يقتصر على أنثاء، وبعضها لا يعفّ عن أنثى، ولو كانت أمه أو أخته، وبعضها لا تتمكن غير زوجها من نفسها، وبعضها لا تردد لامس.

وبعضها يألفبني آدم ويأنس بهم، وبعضها يستوحش منهم، وينفر غاية النفار.

وبعضها لا يأكل إلا الطيب، وبعضها لا يأكل إلا الخبائث، وبعضها يجمع بين الأمرين.

وبعضها لا يؤذى من بالغ في أذاها، وبعضها يؤذى من لا يؤذيها، وبعضها حقود لا ينسى الإساءة، وبعضها لا يذكرها البتة، وبعضها لا

---

(١) في «الحيوان» (١١٤/٢): «وبعضه يكتسب».

يغضب، وبعضها يشتد غضبه فلا يزال يُسترضى حتى يرضى.

وبعضها عنده علم ومعرفة بأمور دقيقة لا يهتدي إليها أكثر الناس، وبعضها لا معرفة له بشيء من ذلك البتة، وبعضها يستقبح القبيح وينفر منه، وبعضها الحسن والقبيح عنده سواء، وبعضها يقبل التعليم بسرعة، وبعضها مع الطول، وبعضها لا يقبل ذلك بحال.

وهذا كله من أدل الدلائل على الخالق لها سبحانه، وعلى إتقان صنعه، وعجب تدبيره، ولطيف حكمته، فإن فيما أودعها من غرائب المعارف، وغواصات الحيل وحسن التدبير والتائي لما تريده=ما يستنطق الأفواه بالتسبيح، ويملا القلوب من معرفته ومعرفة حكمته وقدرته، وما يعلم به كل عاقل أنه لم يخلق شيئاً، ولا يترك<sup>(١)</sup> سدى، وأن الله سبحانه في كل مخلوق حكماً باهرة، وأيات ظاهرة، ويرهاً قاطعاً، يدل على أنه رب كل شيء ومليكه، وأنه المنفرد بكل كمال دون خلقه، وأنه على كل شيء قادر، وبكل شيء عالم<sup>(٢)</sup>.

## فصل

فلنرجع إلى ما ساقنا إلى هذا الموضع، وهو الكلام على الهدایة العامة، التي هي قرينة الخلق في الدلالة على رب تبارك وتعالى وأسمائه وصفاته وتوحيدته.

قال تعالى إنذاراً عن فرعون أنه قال: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمْ مَا يَمْوَسِي﴾<sup>(٣)</sup> قال ربنا الذي

(١) عدا «م»: «ولم يترك».

(٢) إزاءه بحاشية «م» دون لحق: «وله في كل شيء آية تدل على أنه واحد».

**أَعْطِي كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَفُرِّهَدَى** [طه: ٤٩ - ٥٠]، قال مجاهد: «أعطى كل شيء خلقه، لم يعط الإنسان خلق البهائم، ولا البهائم خلق الإنسان»<sup>(١)</sup>.

وأقوال أكثر المفسرين تدور على هذا المعنى.

قال عطية ومقاتل: «أعطى كل شيء صورته»<sup>(٢)</sup>.

وقال الحسن وقتادة: «أعطى كل شيء صلاحه»<sup>(٣)</sup>.

ومعنى هذا: أعطاه من الخلق والتصوير ما يصلح به لما خلق له، ثم هداه لما خُلِق له، وهداه لما يصلحه من معيشته ومطعمه ومشربه ومنكحةه وتقلبه وتصرفة.

هذا هو القول الصحيح الذي عليه جمهور المفسرين، فيكون نظير قوله: **«فَدَرَّ فَهَدَى**» [الأعلى: ٣].

وقال الكلبي والسدّي: «أعطى الرجل المرأة، والبعمير الناقة، والذكر الأنثى من جنسه»<sup>(٤)</sup>، ولفظ السدي: «أعطى الذكر الأنثى مثل خلقه، ثم هدى إلى الجماع».

---

(١) أنسدنه بنحوه الطبرى (٨١ / ١٦).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢٩ / ٣)، «البسيط» (٤١٤ / ١٤).

(٣) رواه عبد الرزاق في «التفسير» (١٧ / ٣) عن الحسن، ورواه في «جامع البيان» (٨١ / ١٦) عن قتادة.

(٤) رواه عبد الرزاق في «التفسير» (١٧ / ٣) عن الكلبي، ورواه في «جامع البيان» (٨٠ / ١٦) عن السدي، وانظر: «البسيط» (٤١٥ / ١٤).

وهذا القول اختيار ابن قتيبة<sup>(١)</sup> والفراء، قال الفراء: «أعطي الذكر من الناس امرأة مثله، والشاة شاة، والثور بقرة، ثم ألم الذكر كيف يأتها»<sup>(٢)</sup>.

قال أبو إسحاق: «وهذا التفسير جائز؛ لأننا نرى الذكر من الحيوان يأتي الأنثى ولم ير ذكرًا قد أتى أنثى قبله، فألهمه الله ذلك ودهاه إليه، قال: والقول الأول ينstem هذا المعنى؛ لأنه إذا هداه لمصلحته فهذا داخل في المصلحة»<sup>(٣)</sup>.

قلت: أرباب هذا القول هضموا الآية معناها؛ فإن معناها أجل وأعظم مما ذكروه، قوله: ﴿أَعْطِيَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يأبى هذا التفسير؛ فإن حمل كل شيء على ذكر الحيوان وإنائه خاصة ممتنع لا وجه له، وكيف يخرج من هذا اللفظ الملائكة والجن، ومن لم يتزوج منبني آدم، ومن لم يسافد من الحيوان؟ وكيف يسمى الحيوان الذي يأتيه الذكر خلقاً له؟ وأين نظير هذا في القرآن؟

وهو سبحانه لما أراد التعبير عن هذا المعنى الذي ذكروه ذكره بأدلل عبارة عليه وأوضحتها، فقال: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الرَّوْجَيْنَ الْذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ [النجم: ٤٤]، وقال: ﴿وَمَا حَلَقَ الْذَّكَرُ وَالْأُنْثَى﴾ [الليل: ٣]، وقال: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُهُ الرَّوْجَيْنَ الْذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ [القيامة: ٣٩]، فحمل قوله: ﴿أَعْطِيَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ على هذا المعنى غير صحيح، فتأمله.

(١) «تأويل مشكل القرآن» (٤٤).

(٢) «معاني القرآن» (٢/١٨١).

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٣/٣٥٩).

وفي الآية قول آخر قاله الضحاك، قال: «أَعْطِيَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ» قال (١): «أعطى اليد البطش، والرجل المشي، واللسان النطق، والعين البصر، والأذن السمع» (٢). ومعنى هذا القول: أعطى كلّ عضو من الأعضاء ما خلّق له، والخلق على هذا بمعنى المفعول، أي: أعطى كلّ عضو مخلوقه الذي خلقه له؛ فإن هذه المعانى كلها مخلوقة الله تعالى، أودعها الأعضاء.

وهذا المعنى وإن كان صحيحاً في نفسه، لكن معنى الآية أعم، والقول هو الأول، وأنه سبحانه أعطى كل شيء خلقه المختص به، ثم هداه لما خلّقه له، ولا خالق سواه سبحانه ولا هادي غيره، فهذا الخلق وهذه الهدایة من آيات ربوبيته ووحدانيته، فهذا وجه الاستدلال على عدو الله فرعون.

ولهذا لما علم فرعون أن هذه حجة قاطعة لا مطعن فيها بوجه من الوجوه، عدل إلى سؤال فاسد غير وارد فقال: «فَمَا بَالُ الْقُرُونُ الْأُولَى؟» [طه: ٥١]، أي: فما للقرون الأولى لم تُقرّ بهذا الرّبّ ولم تعبده، بل عبدت دونه الأوثان، والمعنى: لو كان ما تقوله حقاً لم يخفَ على القرون الأولى، ولم يهملوه، فاحتاج عليه موسى عليه السلام بما يشاهده هو وغيره من آثار ربوبية رب العالمين، فعارضه عدو الله بكفر الكافرين به وشرك المشركين، وهذا شأن كل مبطل (٣).

ولهذا صار هذا ميراثاً في ورثته، يعارضون نصوص الأنبياء بأقوال

(١) كذا في الأصول بيعادة «قال».

(٢) نسبة إليه في «البسيط» (٤١٥ / ٤١٤)، والقررة وما يليها مقتبسة منه.

(٣) «ج»: «معطل».

الزنادقة والملاحدة، وأفراح الفلسفه والصباة والسحرة، ومبتدعة الأمة، وأهل الضلال منهم.

فأجابه موسى عن معارضته بأحسن جواب فقال: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [طه: ٥٢]، أي: أعمال تلك القرون وكفرهم وشركم معلوم لربِّي قد أحصاه وحفظه وأودعه في كتاب، فيجازيهم عليه يوم القيمة، ولم يودعه في الكتاب خشية النسيان والضلال؛ فإنه سبحانه لا يضل ولا ينسى، وعلى هذا فالكتاب هنا كتاب الأعمال.

وقال الكلبي: «يعني به اللوح المحفوظ»<sup>(١)</sup>، وعلى هذا فهو كتاب القدر السابق، والمعنى على هذا: أنه سبحانه قد علم أعمالهم وكتبها عنده قبل أن يعملوها، فيكون هذا من تمام قوله: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَمَنْهُ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، فتأمله.

## فصل

وهو سبحانه في القرآن كثيراً ما يجمع بين الخلق والهداية، كقوله في أول سورة أنزلها على رسوله: ﴿أَقْرَأَ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَنَ مِنْ عَلِيقٍ ② أَقْرَأَ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلِمَ بِالْقُلُوبَ ④ عَلِمَ الْإِنْسَنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥]، وقوله: ﴿الْرَّحْمَنُ ① عَلَمَ الْقُرْبَانَ ② خَلَقَ الْإِنْسَنَ ③ عَلَمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤]، وقوله: ﴿أَنَّمَا يَعْجَلُ لَهُ دِعَتِينِ ④ وَسَانَاتِ شَفَقَتِينِ ⑤ وَهَدَيْنَاهُ التَّجَدَّدَينِ﴾ [البلد: ٨-١٠]، وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَنَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجَ نَبْتَلِيهُ فَجَعَلْنَاهُ سَيِّئَاتِصِيرًا ⑥ إِنَّا هَدَيْنَاهُ

(١) نسبة إليه في «البسيط» (٤١٧/١٤).

**السَّيْلَ إِمَّا شَارَكَ إِمَّا هُوَ** [الإنسان: ٢-٣]، قوله: **﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ  
وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَا هَمَّ فَأَتَبْتَابِهِ حَدَّ أَيْنَ دَاتَ بَهْجَةً﴾** الآيات [النمل: ٦٠]، ثم  
قال: **﴿أَمَّنْ يَهْدِي كُوْفَيْرَ ظُلْمَتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾** [النمل: ٦٣]، فالخلق إعطاء الوجود  
العيني الخارجي، والهدى إعطاء الوجود العلمي الذهني، وهذا خلقه، وهذا  
هداه وتعليميه.

## فصل

المرتبة الثانية من مراتب الهدایة: هدایة الإرشاد والبيان للمكلفين، وهذه الهدایة لا تستلزم حصول التوفيق واتباع الحق، وإن كانت شرطاً فيه أو جزء سبب، وذلك لا يستلزم حصول المشروع والمسبب، بل قد يتختلف عنه المقتضى إما لعدم كمال السبب، أو لوجود مانع، ولهذا قال تعالى: **﴿وَمَا أَنَّمُودُ فَهَدَيْهُمْ فَأَسْتَحْبُوا عَمَّا عَلَى الْهُدَى﴾** [فصلت: ١٧]، وقال: **﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضْلِلَ قَوْمًا بَعْدَ إِنْهَادَهُمْ حَتَّىٰ يَبْيَثُنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾** [التوبية: ١١٥]

فهداهم هدى البيان والدلالة فلم يهتدوا، فأضلهم عقوبة لهم على ترك الاهتداء أولاً بعد أن عرفوا الهدى فأعرضوا عنه، فأعماهم عنه بعد أن أراهموه.

وهذا شأنه سبحانه في كل من أنعم عليه بنعمة فکرها، فإنه يسلبه إياها بعد أن كانت نصيبيه وحظه، كما قال تعالى: **﴿ذَلِكَ يَأْنَ اللَّهُ لَرِيَافُ مُغَيْرًا يَقْعُمَهُ أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾** [الأفال: ٥٣]، وقال تعالى عن قوم فرعون: **﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَأَسْتَيْقَنُتُهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًا﴾** [النمل: ١٤]، أي: جحدوا بأياتنا بعد أن تيقنوا صحتها، وقال: **﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ**

إِيمَنِهِمْ وَشَهَدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْفُوْرَى  
الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ [آل عمران: ٨٦].

وهذه الهدایة هي التي أثبّتها لرسوله، حيث قال: «وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطِ  
مُسْتَقِيمٍ» [الشورى: ٥٢]، ونفي عنّه ملك الهدایة الموجّبة، وهي هدایة التوفيق  
والإلهام بقوله: «إِنَّكَ لَأَنْهَدِي مَنْ أَحْبَبْتَ» [القصص: ٥٦]، ولهذا قال ﷺ:  
«بَعْثَتُ دَاعِيًّا وَمُبْلِغاً، وَلَيْسَ إِلَيَّ مِنَ الْهَدَايَا شَيْءٌ، وَبَعْثَتُ إِبْرِيزَ مُزِيَّنًا وَمَغْوِيًّا،  
وَلَيْسَ إِلَيْهِ مِنَ الضَّلَالَةِ شَيْءٌ»<sup>(١)</sup>.

قال تعالى: «وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِالسَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطِ  
مُسْتَقِيمٍ» [يوحنا: ٢٥]، فجمع سبحانه بين الهدایتين: العامة والخاصة، فعم بالدعوة  
حجّة منه وعدلاً، وخاص بالهدایة نعمة منه وفضلاً.

وهذه المرتبة أخص من المرتبة التي قبلها، فإنّها هدایة تختص  
المكلفين، وهي حجّة الله على خلقه التي لا يعذّب أحداً إلا بعد إقامتها عليه،  
قال تعالى: «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ بَعَثَرَسُولاً» [الإسراء: ١٥]، وقال: «رُسُلًا  
مُّبَيِّنُونَ وَمُنْذِرُونَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرَّسُولِ» [النساء: ١٦٥]،  
وقال: «أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَكْحَسِرَنِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنِّبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمَنَ  
السَّابِقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْاْنَ اللَّهَ هَدَنِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ» [الزمر: ٥٧-٥٨]، وقال:

(١) أخرجه الدوّلابي في «الأسماء والكتنى» (٢٠١٧)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (١٢٨٣) من حديث عمر بن الخطاب، وهو حديث باطل لا أصل له، في إسناده خالد بن عبد الرحمن أبو الهيثم، قال العقيلي في «الضعفاء» (١/٥٧٠): «ليس بمعرف بالنقل، وحديثه غير محفوظ، ولا يعرف له أصل»، وانظر: «الموضوعات» (٥٢٩).

﴿كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ حَرَثَتِهَا الْمُرْبَاتُ كُونِزِيرٌ ﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَبَنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَيْدِرٌ ﴾ [الملك: ٩ - ٨].

فإن قيل: فكيف تقوم حجته عليهم وقد منعهم من الهدى، وحال بينهم وبينه؟

قيل: حُجَّتَه قائمة عليهم بتخليةه بينهم وبين الهدى، وبيان الرسل لهم، وإراءتهم الطريق المستقيم حتى كأنهم يشاهدونه عياناً، وأقام لهم أسباب الهدایة ظاهراً وباطناً، ولم يحل بينهم وبين تلك الأسباب، ومن حال بينه وبينها منهم بزوال عقل أو صغر لا تميز معه، أو كونه بناحية من الأرض لم تبلغه دعوة رسله = فإنه لا يعذبه حتى يقيم عليه حجته، فلم يمنعهم من هذا الهدى، ولم يحل بينهم وبينه.

نعم، قطع عنهم توفيقه، ولم يرد من نفسه إعانتهم والإقبال بقلوبهم إليه، فلم يحل بينهم وبين ما هو مقدور لهم، وإن حال بينهم وبين ما لا يقدرون عليه، وهو فعله ومشيئته وتوفيقه، فهذا غير مقدور لهم، وهو الذي مُتعوه، وحيل بينهم وبينه، فتأمل هذا الموضع، واعرف قدره، والله المستعان.

## فصل

المرتبة الثالثة من مراتب الهدایة: هداية التوفيق والإلهام، وخلق المشيئة المستلزمة للفعل.

وهذه المرتبة أخصُّ من التي قبلها، وهي التي ضلَّ جهال القدرة بإنكارها، وصاح عليهم سلف الأمة وأهل السنة منهم من نواحي الأرض عصراً بعد عصر إلى وقتنا هذا، ولكن الجبرية ظلمتهم ولم تنصفهم، كما

ظلموا أنفسهم بإنكار الأسباب والقوى، وإنكار فعل العبد وقدرته، وأن يكون له تأثير في الفعل البتة، فلم تهتد القدرة بقول<sup>(١)</sup> هؤلاء، بل زادهم ضلالاً على ضلالهم، وتمسّكاً بما هم عليه.

وهذا شأن المبطل إذا دعا مبطلاً آخر إلى أن يترك مذهبـه لقولـه ومذهبـه الباطلـ، كالنصرانيـ إذا دعا اليهوديـ إلى التثليـث وعبادة الصليبـ وأن المسيحـ إلهـ تامـ غير مخلوقـ، إلىـ أمثلـاً ذلكـ منـ الباطلـ الذيـ هوـ عليهـ.

وهذه المرتبة تستلزمـ أمرـينـ:  
أحدهـماـ: فعلـ الـربـ تعـالـىـ وهوـ الـهـدـىـ.

والثـانـيـ: فعلـ العـبـدـ وهوـ الـاهـتـداءـ، وهوـ أثـرـ فعلـهـ سـبـحانـهـ، فهوـ الـهـادـيـ  
والـعـبـدـ الـمـهـتـديـ، قالـ تعـالـىـ: ﴿مَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ [الـكـهـفـ: ١٧ـ]ـ،  
ولاـ سـبـيلـ إـلـىـ وجودـ الـأـثـرـ إـلـاـ بـمـؤـثرـهـ التـامـ، فإنـ لـمـ يـحـصـلـ فعلـهـ لـمـ يـحـصـلـ  
فعلـ العـبـدـ.

ولهـذاـ قالـ تعـالـىـ: ﴿إِنَّ تَحْرِصُ عَلَىٰ هُدَنَّهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُهْدِي مَنْ يُضْلِلُ﴾  
[الـنـحـلـ: ٣٧ـ]ـ، وهذاـ صـرـيحـ فيـ أنـ هـذـاـ الـهـدـىـ لـيـسـ إـلـيـهـ ﷺـ ولوـ حـرـصـ عـلـيـهـ،  
وـلـاـ إـلـىـ أـحـدـ غـيرـ اللهـ، وـأـنـ اللهـ سـبـحانـهـ إـذـ أـضـلـ عـبـدـاـ لـمـ يـكـنـ لأـحـدـ سـبـيلـ إـلـىـ  
هـدـايـتـهـ، كماـ قالـ تعـالـىـ: ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ اللَّهُ﴾ [الـأـعـرـافـ: ١٨٦ـ]ـ، وـقـالـ  
تعـالـىـ: ﴿مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضْلِلُهُ وَمَنْ يَشَاءُ جَعَلَهُ عَلَىٰ صَرْطِ مُسْتَقِيرٍ﴾ [الـأـنـعـامـ: ٣٩ـ]ـ،  
وـقـالـ تعـالـىـ: ﴿أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ رُسُوْلُهُ عَمَلَهُ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضْلِلُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ

---

(١) «د»: «فـلـمـ يـهـتـدواـ بـقـوـلـ».

يُشَاءُ فَلَا تَذَهَّبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَتْ ﴿٨﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: «أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخْذَنَا اللَّهُمْ  
هُوَلَهُ وَأَصْبَاهُ اللَّهُ عَلَى عَلِيٍّ وَخَتَرَ عَلَى سَمِيعِهِ وَقَلِيلِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غُشْنَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ  
اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» [الجاثية: ٢٣]، وقال تعالى: «إِنَّ أَثْبَاعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءُهُمْ  
يُغَيِّرُ عَلَيْهِمْ فَمَنْ يَهْدِي مِنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَصِيرٍ» [الروم: ٢٩]، وقال:  
«إِنَّ اللَّهَ عَلَيْكُمْ هُدًى نَّهَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» [البقرة: ٢٧٢]، وقال:  
«وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ قَسِيسٍ هُدًنَاهَا» [السجدة: ١٣]، وقال: «أَفَلَمْ يَأْيُسْ  
الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا» [الرعد: ٣١]، وقال: «فَمَنْ يُرِدْ  
اللَّهُ أَنْ يَهْدِيهِ وَيُشَرِّحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضْلَلْ وَيَجْعَلْ صَدْرَهُ دُصِّنَا  
حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ» [الأنعام: ١٢٥]، وقال أهل الجنة: «الْحَمْدُ  
لِلَّهِ الَّذِي هَدَنَا لِهَذَا وَمَا كَانَ الْهَمَدُى لَوْلَا أَنْ هَدَنَا اللَّهُ» [الأعراف: ٤٣]، ولم يريدوا  
أن بعض أنواع الهدى منه وبعضها منهم، بل الهدى كلّه منه، ولو لا هدايته  
لهم لما اهتدوا.

٢٧)، وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضْلِلُ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودُ رِبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، وقال: ﴿يُضْلِلُ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يَضْلُلُ بِهِ إِلَّا الْفَسِيقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، وقال: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ وَسُبْلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلْمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦].

وأمر سبحانه عباده كلهم أن يسألوه هدايتهم الصراط المستقيم كل يوم وليلة في الصلوات الخمس، وذلك يتضمن الهدایة إلى الصراط، والهدایة فيه، كما أن الضلال نوعان: ضلال عن الصراط، فلا يهتدي إليه، وضلال فيه، فالأول ضلال عن معرفته، والثاني ضلال عن تفاصيله أو بعضها.

قال شيخنا: «ولما كان العبد في كل حال مفتقرًا إلى هذه الهدایة في جميع ما يأتيه ويذره من أمور قد أتتها على غير الهدایة، فهو يحتاج إلى التوبه منها، وأمور هُدِيَ إلى أصلها دون تفصيلها، أو هُدِيَ إليها من وجه دون وجه، فهو يحتاج إلى تمام الهدایة فيها، ليزداد هدى، وأمور هو يحتاج إلى أن يحصل له من الهدایة فيها في المستقبل مثل ما حصل له في الماضي، وأمور هو خال عن اعتقاد فيها، فهو يحتاج إلى الهدایة فيها، وأمور لم يفعلها فهو يحتاج إلى فعلها على وجه الهدایة، إلى غير ذلك من أنواع الهدایات= فرض الله عليه أن يسأله هذه الهدایة في أفضل أحواله وهي الصلاة، مرات متعددة في اليوم والليلة»<sup>(١)</sup>، انتهى كلامه.

ولا يتم المقصود إلا بالهدایة إلى الطريق والهدایة فيها؛ فإن العبد قد

(١) «بيان الدليل على بطلان التحليل» (١٥).

يهتدي إلى طريق قصده، وتميز له عن غيرها، ولا يهتدي إلى تفاصيل سيره فيها، وأوقات السير من غيره، وزاد المسير، وآفات الطريق.

ولهذا قال ابن عباس في قوله تعالى: **﴿إِنَّكُلٌّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرُعَةً وَمِنْهَا جَأْ﴾** [المائدة: ٤٨]، قال: «سيلاً وسنة»<sup>(١)</sup>، وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير، فالسبيل الطريق وهي المنهاج، والسنة الشرعة وهي تفاصيل الطريق وحذرونه وكيفية السير فيه وأوقات السير، وعلى هذا فقوله: سيلاً وسنة تكون السبيل: المنهاج، والسنة: الشرعة، فالمقدم في الآية للمؤخر في التفسير، وفي لفظ آخر: «سنة وسيلا»<sup>(٢)</sup>، فيكون المقدم للمقدم والمؤخر للثاني.

## فصل

ومن هذا إخباره سبحانه بأنه طبع على قلوب الكافرين وختم عليها، وأنه أصمها عن الحق، وأعمى أبصارها عنه، كما قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِسْوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ يُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾** [البقرة: ٦-٧]، والوقف تمام هنا، ثم قال: **﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غَشْوَةٌ﴾** [البقرة: ٧]، كقوله: **«أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَنْذَلَ اللَّهُهُ وَهُوَهُ وَأَضْلَلَ اللَّهُ عَلَىٰ عَيْنِهِ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غَشْوَةً﴾** [الجاثية: ٢٣]، وقال تعالى: **﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْمَلٌ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُثُرٍ﴾** [النساء: ١٥٥]، وقال تعالى: **﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ**

(١) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» (١/١٩٢).

(٢) أخرجه الطبرى (٤٩٦/٨).

الله عَلَى قُلُوبِ الْكُفَّارِ》 [الأعْرَاف: ١٠١]، 《كَذَلِكَ نَطْبِعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ》 [يُونس: ٧٤]، 《وَنَظِيبُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ》 [الأعْرَاف: ١٠٠].

وأخبر سبحانه أن على بعض القلوب أفقاً لمنعها من أن تفتح لدخول الهدى إليها، وقال: 《قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَلِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيءَ اذَانِهِمْ وَقَرْرُ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمَّى》 [فصلت: ٤٤]، فهذا الواقع والعمى حال بينهم وبين أن يكون لهم هدى وشفاء.

وقال تعالى: 《إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَقْعُدُهُمْ وَوُرُقَّةً إِذَا ذَاهَبُهُمْ وَقَرَّاً》 [الكهف: ٥٧]، وقال تعالى: 《وَكَذَلِكَ رُبُّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ》 [غافر: ٣٧]، فرأوا الكوفيون «وَصُدًّا» بضم الصاد حملًا على «زُّين».

وقال تعالى: 《إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ》 [غافر: ٢٨]، وقال: 《وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ》 [البقرة: ٢٥٨]، ومعلوم أنه لم ينفع هدى البيان والدلالة الذي تقوم به الحجّة، فإنه حجّته على عباده.

والقدرة تردّ هذا كله إلى المتشابه، وتجعله من متشابه القرآن، وتتأوله على غير تأويله، بل تتأوله بما يقطع ببطلانه وعدم إرادة المتكلم له، كقول بعضهم: المراد من ذلك تسمية الله تعالى العبد مهدياً وضالاً، فجعلوا هداه وإضلالة مجرد تسمية العبد بذلك.

وهذا مما يعلم قطعاً أنه لا يصح حمل هذه الآيات عليه، وأنت إذا تأملتها وجدتها لا تتحمل ما ذكروه البتة، وليس في لغة أمة من الأمم، فضلاً عن أ方言 اللغات وأكملها؛ هداه بمعنى: سَمَّاه مهدياً، وأضلَّه: سَمَّاه ضالاً، وهل يصح أن يقال: عَلِمَهُ إِذَا سَمَّاه عالماً، وفَهَمَهُ إِذَا سَمَّاه فَهِمَا؟

وكيف يصح هذا في مثل قوله: **﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدًى لَهُمْ وَلَا كَانَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾** [البقرة: ٢٧٢]؟ فهل فهم أحد غير القدرة المحرفة للقرآن من هذا: ليس عليك تسميتهم مهتدين، ولكن الله يسمّي من يشاء مهتدياً؟!  
وهل فهم أحد قط من قوله تعالى: **﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحَبْتَ﴾** [القصص: ٥٦] لا تسميه مهتدياً، ولكن الله يسميه بهذا الاسم؟!<sup>(١)</sup>

وهل فهم أحد من قول الداعي: **﴿أَهَدَنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيرَ﴾** [الفاتحة: ٦]، قوله: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي مِنْ عَنْكَ»<sup>(٢)</sup>، ونحوه: اللَّهُمَّ سُمِّنِي مَهْتَدِيًّا؟!

وهذا من جنایة القدرة على القرآن ومعناه، نظير جنایة إخوانهم من الجهمية على نصوص الصفات، وتحريفها عن مواضعها، وفتحوا للزنادقة والملحدة جنایتهم على نصوص المعاد وتأويلها بتأويلات إن لم تكن أقوى من تأويلاتهم لم تكن دونها، وفتحوا للفرامطة والباطنية تأويل نصوص الأمر والنهي بنحو تأويلاتهم.

فتأويل التحريف الذي سلكته<sup>(٣)</sup> هذه الطوائف أصل فساد الدنيا والدين، وخراب العالم، وسنفرد إن شاء الله كتاباً نذكر فيه جنایة المتأولين على الدنيا والدين<sup>(٤)</sup>.

(١) من قوله: «وَهُلْ فَهُمْ أَحَدُ قَطٍّ» إلى هنا ساقط من «م».

(٢) هو جزء من حديث أخرجه الطبراني في «الكبير» (٩٤٠)، وابن السنّي في «عمل اليوم والليلة» (١٣٣) من حديث أنس بن مالك، وإسناده تالّف، فيه نافع السلمي متّرك الحديث كما في «الميزان» (١/٥٠١).

(٣) «د»: «سلسلته».

(٤) كأنه يشير إلى ما ضمّنته كتابه «الصواعق المرسلة» من مباحث في الموضوع، كما

وأنت إذا وازنت بين تأويلاً للقدرية والجهمية والرافضة لم تجد بينها وبين تأويلاً الملاحدة والزنادقة من القرامطة والباطنية وأمثالهم كبير فرق.

والتأويل الباطل يتضمن تعطيل ما جاء به الرسول ﷺ، والكذب على المتكلم أنه أراد ذلك المعنى، فيتضمن إبطال الحق وتحقيق الباطل، ونسبة المتكلم إلى ما لا يليق به من التلبيس والإلغاز، مع القول عليه بلا علم أنه أراد هذا المعنى.

فالمتأول عليه أن يبين صلاحية اللفظ للمعنى الذي ذكره أولاً، واستعمال المتكلم به في ذلك المعنى في أكثر الموضع، حتى إذا استعمله فيما يحتمل غيره حُمِّل على ما عُهِدَ منه استعماله فيه، وعليه أن يقيم دليلاً سالماً عن المعارض على الموجب لصرف اللفظ عن ظاهره وحقيقة إلى مجازه واستعارته، وإلا كان ذلك مجرد دعوى منه فلا تقبل.

وتأنّى بعضهم هذه النصوص على أن المراد بها هداية البيان والتعریف لا خلق الهدى في القلب، فإن الله سبحانه لا يقدر على ذلك عند هذه الطائفة.

وهذا التأويل من أبطل الباطل، فإن الله سبحانه يخبر أنه قسم هدايته للعبد قسمين: قسماً لا يقدر عليه غيره، وقسماً مقدوراً للعباد، فقال في القسم المقدور للبشر: ﴿وَإِنَّكَ لَهَدِيٌ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال في غير المقدور للبشر: ﴿إِنَّكَ لَا تَهِيَّدِي مِنْ أَحَبَّتْ﴾ [القصص: ٥٦]، وقال: ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

---

سلف الكلام عليه في مقدمة التحقيق.

ومعلوم قطعاً أن البيان والدلالة قد تحصل له ولا تنفي عنه، وكذلك قوله: **﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُهْدِي مَنْ يُضْلِلُ﴾** [النحل: ٣٧]، لا يصح حمله على هداية الدعوة والبيان، فإن هذا يهدى - وإن أضلله الله - بالدعوة والبيان.

وكذا قوله: **﴿وَأَضَلَّ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَرَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَوَقْلِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾** [الجاثية: ٢٣]، هل يجوز حمله على معنى: فمن يدعوه إلى الهدى، ويبين له<sup>(١)</sup> ما تقوم به حجة الله عليه، وكيف يصنع هؤلاء النصوص التي فيها أنه سبحانه هو الذي أضلهم، أيجوز لهم حملها على أنه دعاهم إلى الضلال؟!

فإن قالوا: ليس ذلك معناها، وإنما معناها ألا يفهم ووجدهم كذلك، أو أعلم ملائكته ورسله بضلالهم، أو جعل على قلوبهم علامات تعرف الملائكة بها أنهم ضلال.

قيل: هذا<sup>(٢)</sup> من جنس قولكم: إن هداه سبحانه وإضلالهم بتسميتهم مهتدين وضالين.

فهذه أربع تحريرات لكم، وهي: أنه سماهم بذلك، وعلمهم بعلامة تعرفهم بها الملائكة، وأخبر عنهم بذلك، ووجدهم كذلك.

فالإخبار من جنس التسمية، وقد بينا أن اللغة لا تحتمل ذلك، وأن النصوص إذا تأملها المتأنل وجدها أبعد شيء عن هذا المعنى.

(١) من هنا يبدأ خرم لوح كامل في «م»، وستأتي نهايةه.

(٢) «هذا» سقطت من «د» «ج»، واستدركت من «ت».

وأما العلامة فيا عجبا لفرقة التحريف، وما جنت على القرآن والإيمان، ففي أي لغة وأي لسان يدل على أن معنى<sup>(١)</sup> قوله تعالى: «إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ» [القصص: ٥٦]، أي: إنك لا تعلم بعلامة، ولكن الله هو الذي يعلمه بها؟!

وقوله: «مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِي لَهُ» [الأعراف: ١٨٦]، مَنْ يعلم الله بعلامة الضلال لم يعلمه غيره بعلامة الهدى.

وقوله: «وَلَوْ شِئْنَا لَا تَيَّنَ اكْعَلَ نَفْسٍ هُدًّا لَهَا» [السجدة: ١٣] لعلمناها بعلامة الهدى الذي خلقته هي لنفسها وأعطيته نفسها.

ومن<sup>(٢)</sup> أي لغة يفهم من قول الداعي «أَهَدِنَا إِلَيْرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» [الفاتحة: ٦]، علمنا بعلامة تعرف الملائكة بها أنها مهتدون؟

وقولهم: «رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا» [آل عمران: ٨] لا تعلمنا بعلامة أهل الزيف.

وقوله: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك»، «يا مصرف القلوب، صرف قلبي على طاعتكم»<sup>(٣)</sup> وأمثال ذلك من النصوص، ففي أي لغة، وأي لسان يفهم من هذا علمنا بعلامة الثبات والتصريف على طاعتكم؟

وفي أي لغة يكون معنى قوله: «وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَسِيَّةً» [المائدة: ١٣]، علمناها بعلامة القسوة أو وجدناها كذلك؟

(١) «على أن معنى» ساقطة من «د» «ج»، واستدركت من «ت».

(٢) «ج»: «قيل: أي».

(٣) تقدم تخريرجهما في (١٥٥).

نعم، لو نزل القرآن بلغة القدريّة والجهميّة وأهل البدع لأمكن حمله على ذلك، وكان الحق تبعاً لأهوائهم، وكانت نصوصه تبعاً لبدع المبتدعين، وآراء المتحرّرين.

وأنت تجد جميع هذه الطوائف تنزل القرآن على مذاهبها ويدعوها وآرائها، فالقرآن عند الجهميّة جهميّ، وعند المعتزليّة معتزليّ، وعند القدريّة قدريّ، وعند الرافضة رافضيّ، وكذلك هو عند جميع أهل الباطل، ﴿وَمَا كَانُواْ أُولَئِكَ هُوَ إِنْ أُولَئِكَ هُوَ إِلَّا الْمُتَقْوُنَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

وأما تحريفهم هذه النصوص وأمثالها بأن المعنى: ألفاهم ووجدهم كذلك؛ ففي أي لسان، وأي لغة وجدم: هديت الرجل إذا وجدته مهتمياً؟ وختم الله على قلبه وسمعه، وجعل على بصره غشاوة وجده كذلك؟ وهل هذا إلا افتراه محض على القرآن واللغة؟!

فإن قالوا: نحن لم نقل هذا في نحو ذلك، وإنما قلنا في نحو: ﴿أَضَلَّهُ اللَّهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] أي: وجده ضالاً، كما يقال: أحmedت الرجل وأبغسلته وأجبنته، إذا وجدته كذلك، أو نسبته إليه.

فيقال لفرقة التحرير: هذا إنما ورد في ألفاظ معدودة نادرة، وإلا فوضع هذا البناء على أنك فعلت ذلك به، ولا سيما إذا كانت الهمزة للتعدية من الثلاثيّ كقام وأقمته، وقعد وأقعدته، وذهب وأذهبته، وسمع وأسمعته، ونام وأنمته، وكذا ضلّ وأضلّه الله، وأسعده وأشقاءه، وأعطاه وأخزاه، وأماته وأحياه، وأزاغ قلبه، وأقامه إلى طاعته، وأيقظه من غفلته، وأرأه آياته، وأنزله منزلًا مباركاً، وأسكنه جنته، إلى أضعاف ذلك، هل تجد فيها لفظاً واحداً

معناه أنه وجده كذلك، تعالى الله عما يقول المحرفون.

ثم انظر في كتاب « فعل وأفعل » هل تظفر فيه بـ « أ فعلته » بمعنى وجدته - مع سعة الباب - إلّا في الحرفين أو الثلاثة نقاً عن أهل اللغة ؟

ثم انظر هل قال أحد من الأولين والآخرين من أهل اللغة : إن العرب وضعوا أصله الله و هداه ، و ختم على سمعه و قلبه ، و أزاغ قلبه و صرفة على طاعته و نحو ذلك ، بمعنى وجده كذلك ؟

ولما أراد سبحانه الإبانة عن هذا المعنى قال : **﴿وَوَجَدَكُوكَضَا لِأَفَهَدَى﴾** [الضحى : ٧] ، ولم يقل : وأضلتك ، وقال في حق من خالف الرسول وكفر بما جاء به : **﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عَلِيٍّ﴾** ، ولم يقل : ووجده الله ضالاً .

ثم أي توحيد و تمثّح وتعريف للعباد أن الأمر كله لله و بيده ، وأنه ليس لأحد من أمره شيء في مجرد التسمية والعلامة ومصادفة الرب تعالى عباده كذلك ، و وجوده <sup>(١)</sup> لهم على هذه الصفات من غير أن يكون له فيها صنع ، أو خلق ، أو مشيئة ؟ وهل يعجز البشر عن التسمية والمصادفة والوجود كذلك ؟ فائي مدحه وأي ثناء يحسن على الرب تعالى بمجرد ذلك ؟

فأنتم وإخوانكم من الجبرية لم تمدحوا الرب بما يستحق أن يُمْدح به ، ولم تثنوا عليه بأوصاف كماله ، ولم تقدروه حق قدره ، وأتباع الرسول وحزبه وخصائه بريثون منكم ومنهم في باطلكم وباطلهم ، وهم معكم ومعهم فيما عندكم من الحق ، لا يتحيزون إلى فئة غير الرسول وما جاء به ، ولا

---

(١) من هذا الموضع يتنهى الخرم في « م ». .

ينحرفون عنه نصرة لأراء الرجال المختلفة وأهوائهم المتشتتة<sup>(١)</sup>، وذلك فضل الله يؤتى به من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

قال ابن مسعود: علمنا رسول الله ﷺ التشهد في الصلاة والتشهد في الحاجة: «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَسْتَعِنُ بِهِ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ أَنفُسِنَا، مِنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضْلِلَ لَهُ، وَمِنْ يَضْلِلُ فَلَا هَادِي لَهُ، وَأَشَهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشَهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ»، ويقرأ ثلث آيات: «أَتَقُولُوا إِنَّ اللَّهَ حَقٌّ تَقَاتِلُهُ» الآية [آل عمران: ٢٠]، «أَتَقُولُوا إِنَّ اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ، وَالْأَرْجَامُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا» [النساء: ١]، «أَتَقُولُوا إِنَّ اللَّهَ وَقُولُوا إِنَّا سَدِيدُّا» الآية [الأحزاب: ٧٠]، قال الترمذى: «هذا حديث صحيح»<sup>(٢)</sup>.

وقال أبو داود: حدثنا محمد بن كثير، أخبرنا سفيان، عن خالد الحذاء، عن عبد الأعلى، عن عبد الله بن الحارث، قال: خطب عمر بن الخطاب بالجارية، فحمد الله وأثنى عليه، وعنده جاثيليق<sup>(٣)</sup> يترجم له ما يقول، فقال: من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له. فنفض جبينه كالمنكر لما يقول، قال عمر: ما يقول؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، يزعم أن الله لا يضل أحداً. قال عمر: كذبت أي عدو الله، بل الله خلقك وقد أضلتك، ثم يدخلك النار، أما والله لو لا عهد لك لضررت عنقك، إن الله عز وجل خلق أهل الجنة وما

(١) «أ»: «المتشبّه»، «د»: لم ينقط سوى الشين، والمثبت من «ج» أشبه بالمعنى.

(٢) أخرجه أحمد (٣٧٢١)، وأبو داود (٢١١٨)، والترمذى (١١٠٥)، والنسائي (٣٢٧٧)، وابن ماجه (١٨٩٢).

(٣) هو مقدم الأساقفة عند بعض طوائف المسيحية الشرقية، «المعجم الوسيط» (١٠٧/١).

هم عاملون، وخلق أهل النار وما هم عاملون، فقال: هؤلاء لهذه، وهؤلاء لهذه. قال: فتفرق الناس وما يختلفون في القدر<sup>(١)</sup>.

## فصل

المرتبة الرابعة من مراتب الهدایة: الهدایة إلى الجنة والنار يوم القيمة، قال تعالى: «أَخْسِرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ»<sup>(٢)</sup> من دون الله فأهددهم إلى صراط الحجير» [الصافات: ٢٢ - ٢٣]، وقال تعالى: «وَالَّذِينَ قُتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُبْطَلَ أَعْمَالُهُمْ»<sup>(٣)</sup> سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَأْلَهُمْ» [محمد: ٤ - ٥]، فهذه هداية بعد قتلهم.

فقيل: المعنى: سيهديهم إلى طريق الجنة، ويصلح حالهم في الآخرة بارضاء خصومهم، وقبول أعمالهم.

وقال ابن عباس: «سيهديهم إلى أرشد الأمور، ويعصمهم أيام حياتهم في الدنيا»<sup>(٤)</sup>، واستشكيل هذا القول؛ لأنّه أخبر عن المقتولين في سبيله بأنه سيهديهم، واختاره الزجاج، وقال: يصلح بالهم في المعاش، وأحكام الدنيا، قال: وأراد أنه يجمع لهم خير الدنيا والآخرة<sup>(٥)</sup>، وعلى هذا القول فلا بد من حمل قوله: «قُتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» على معنى يصح معه إثبات الهدایة وإصلاح البال.



(١) أخرجه أبو داود في كتاب «القدر» كما في «تهذيب الكمال» (٦/٣٥٨)، والفریابی في «القدر» (٤٥)، وبإسناد أبي داود مختصر الدارمي في «الرد على الجهمية» (٢٥٧).

(٢) نسبة إليه في «البسيط» (٢٠/٢٢٣).

(٣) بمعناه في «معانی القرآن» (٧/٥)، وانظر: «البسيط» (٢٠/٢٢٣).

## البَابُ الْخَامِسُ عَشَرُ

في الطبع والختم والقفل والغلل والسد والغشاوة الحاليل بين الكافر  
وبين الإيمان، وأن ذلك مجعل للرب تبارك وتعالى

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦٧]، وختَّمَ الله عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غَشْوَةٌ﴾ [البقرة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَبِّتْ مِنْ أَنْخَذَ إِلَهَهُ وَهُوَ هُوَ وَأَصْلَهَ اللَّهُ عَلَى عَلِيٍّ وَخَتَّمَ عَلَى سَمْعِهِ وَوَقَلِيلٌ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غَشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ (١) قُلُوبُ اسْتَأْلِفُ بِلِ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا يَكُفِّرُهُ﴾ [النساء: ١٥٥]، وقال: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكُفَّارِ﴾ [الأعراف: ١٠١]، وقال: ﴿وَنَظَّمَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠]، وقال: ﴿أَفَلَا تَدْبَرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْتَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وقال: ﴿لَقَدْحَقَ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْتِقَهُمْ أَعْلَلًا فَهُنَّ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ] [٨] وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سُدًّا وَمِنْ حَلْفِهِمْ سُدًّا فَأَعْسَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبَصِّرُونَ﴾ [٩] وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ١٠ - ٧].

وقد ضلَّ (٢) بهذه الآيات ونحوها طائفتنا القدرية والجبرية: فحرَّفَها القدرية بأنواع من التحرير المبطل لمعانيها وما أريد منها. وزعمت الجبرية

(١) في النسخ الخطية: ﴿وَقَالُوا﴾.

(٢) «د»: «دخل».

أن الله أكرها على ذلك، وقهرها عليه، وأجبرها من غير فعل منها ولا إرادة ولا اختيار ولا كسب البتة، بل حال بينها وبين الهدى ابتداء من غير ذنب ولا سبب من العبد يقتضي ذلك، بل أمره وحال – مع أمره – بينه وبين الهدى، فلم يسرّ له إليه سبيلاً، ولا أعطاه عليه قدرة، ولا مكّنه منه بوجه، وزاد بعضهم: بل أحب له الضلال والكفر والمعاصي، ورضيه منه.

وهدى الله أهل السنة والحديث وأتباع الرسول لما اختلف فيه هاتان الطائفتان من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

قالت القدريّة: لا يجوز حمل هذه الآيات على أنه منعهم من الإيمان، وحال بينهم وبينه، إذ تكون لهم الحجة على الله، ويقولون: كيف تأمرنا بأمر ثم تحول بيننا وبينه، وتعاقبنا عليه وقد منعنا من فعله؟! وكيف تكلفنا بأمر لا قدرة لنا عليه؟! وهل هذا إلا بمثابة منْ أمر عبداً بالدخول من باب، ثم سدّ عليه ذلك الباب سداً محكمًا لا يمكنه الدخول معه البتة، ثم عاقبه أشد العقوبة على عدم الدخول؟! وبمنزلة منْ أمره بالمشي إلى مكان، ثم قيده بقيد لا يمكنه معه نقل قدمه، ثم أخذ يعاقبه على ترك المشي؟!

ولذا كان هذا قبيحاً في حق المخلوق الفقير المحتاج، فكيف يُنسب إلى رب تعالى مع كمال غناه وعلمه وإحسانه ورحمته؟!

قالوا: وقد كذَّب الله سبحانه الذين قالوا: قلوبنا غُلْفٌ، وفي أكنة، وإنها قد طُبع عليها، وذمَّهم على هذا القول، فكيف يُنسب إليه تعالى؟!

ولكن القوم لما أعرضوا وتركوا الاهتمام بهداه الذي بعث به رسالته حتى صار ذلك الإعراض والنفور كالإلف والطبيعة والرسجة؛ أشبه حالهم حال من مُنِع عن الشيء وصُدِّ عنه، وصار هذا وقرأ في آذانهم، وختنما على قلوبهم،

وغشاوة على أعينهم، فلا يخلص إليها الهدى، وإنما أضاف الله تعالى ذلك إليه لأن هذه الصفة قد صارت في تمكناها وقوه ثباتها كالخلقة التي خلق عليها العبد.

قالوا: ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّا لَبْلَرَ رَأَنَ عَلَى قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، وقال: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بَيْكُرْهُ﴾ [النساء: ١٥٥]، وقال: ﴿فَلَمَّا زَاغَ عَوْأَدُوا أَزَاعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ فِي سَاقَاتِهِ قُلُوبُهُمْ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبية: ٧٧].

ولعمير الله، إن الذي قاله هؤلاء حقه أكثر من باطله، وصحيحه أكثر من سقيميه، ولكن لم يوفوه حقه، وعظموا الله من جهة وأخلوا بتعظيمه من جهة؛ فعظموه بتنتزيعه عن الظلم وخلاف الحكمة، وأخلوا بتعظيمه من جهة التوحيد وكمال القدرة ونفوذ المشيئة.

والقرآن يدل على صحة ما قالوه في الران والطبع والختم من وجهه، وعلى بطلانه من وجهه.

فاما صحته فإنه سبحانه جعل ذلك عقوبة لهم، وجزاء على كفرهم وإعراضهم عن الحق بعد أن عرفوه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغَ عَوْأَدُوا أَزَاعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهِيءِ لِلنَّاسِ إِلَّا مَا يَشَاءُ﴾ [الصف: ٥]، وقال: ﴿كَلَّا لَبْلَرَ رَأَنَ عَلَى قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، وقال: ﴿وَنَتَلِبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا تَرَى يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال: ﴿فُمَّا أَنْصَرَ فُرُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [التوبية: ١٢٧].

وقد اعترف بعض القدرية بأن ذلك خلق لله تعالى، ولكنه عقوبة على

كفرهم وإعراضهم السابق، فإنه سبحانه يعاقب على الضلال المقدور بإضلal بعده، ويثيب على الهدى بهدى بعده، كما يعاقب على السيئة بسيئة مثلها، ويثيب على الحسنة بحسنة مثلها، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادُهُمْ هُدَىٰ وَمَا تَنْهَمُ تَقُولُهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، وقال: ﴿يَتَأَبَّلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُولُ اللَّهُ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحُ لَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]، وقال: ﴿يَتَأَبَّلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَقَوَّلُوا اللَّهُ يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، ومن الفرقان الهدى الذي يُفرق به بين الحق والباطل، وقال في ضد ذلك: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتَنَنَّ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ [النّساء: ٨٨]، وقال: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وقال: ﴿ثُمَّ أَنْصَرَهُمْ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [التوبه: ١٢٧].

وهذا الذي ذهب إليه هؤلاء حق، والقرآن دلّ عليه، وهو موجب العدل، والله سبحانه ماضٍ في العبد حكمه، عدلٌ في عبده قضاوته، فإنه إذا دعا عبده إلى معرفته ومحبته وذكره وشكره فأبى العبد إلا إعراضًا وكفراً؛ قضى عليه بأن أغفل قلبه عن ذكره، وصدّه عن الإيمان به، وحال بين قلبه وبين قبول الهدى، وذلك عدلٌ منه فيه، وتكون عقوبته بالختم والطبع والطبع والصدّ عن الإيمان كعقوبته له بذلك في الآخرة مع دخول النار، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنِ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمْ يَحْجُوْنَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ أَصَابُوا الْجَحِيْمَ﴾ [المطففين: ١٥-١٦]، فحجاجهم عنه بإضلال لهم<sup>(١)</sup>، وصدّ عن رؤيته وكمال معرفته، كما عاقب قلوبهم في هذه الدار بصدّها عن الإيمان، وكذلك عقوبته لهم بتصديهم عن

(١) «د»: «إضلالهم».

السجود له يوم القيمة مع الساجدين هو جزاء امتناعهم من السجود له في الدنيا، وكذلك عماهم عن الهدى في الآخرة عقوبة لهم على عماهم في الدنيا عنه، ولكن الفرق أن أسباب هذه الجرائم في الدنيا كانت مقدورة لهم<sup>(١)</sup>، واقعة باختيارهم وإرادتهم وفعلهم، فإذا وقعت عقوبات<sup>(٢)</sup> لم تكن مقدورة، بل قضاء جار عليهم ماضٍ عدل فيهم. قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَانِ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَيِّلًا﴾ [الإسراء: ٧٢].

ومن هنا يفتح للعبد باب واسع عظيم النفع جدًا في قضاء الله<sup>(٣)</sup> المعصية والكفر والفسق على العبد، وأن ذلك محض عدله فيه.

وليس المراد بالعدل ما يقوله الجبرية أنه الممكن، وكل ما يمكن فعله بالعبد فهو عندهم عدل، والظلم هو الممتنع لذاته، فهو لا قد سدوا على أنفسهم باب الكلام في الأسباب والحكم.

ولا المراد به ما تقوله القدرية النفاة أنه إنكار عموم قدرة الله<sup>(٤)</sup> على أفعال عباده وهدايتهم وإضلalهم، وعموم مشيئته لذلك، وأن الأمر إليهم لا إليه.

وتأمل قول النبي ﷺ: «ماضٍ في حكمك، عدلٌ في قضاؤك»<sup>(٥)</sup>، كيف

(١) «د» «م»: «له».

(٢) كذا في الأصول: «عقوبات»، ولعل الأقرب للمعنى: «عقوباتها»، والله أعلم.

(٣) «م»: «إقضاء الله».

(٤) «م» «ج»: «قدرة الله ومشيئته» بزيادة «ومشيئته»، والسياق بدونها أكثر اتساقاً.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٩٩٣٠)، وأحمد (٣٧١٢)، وأبو يعلى (٥٢٩٧) من طرق عن فضيل بن مرزوق، ثنا أبو سلمة الجهني، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن

ذكر العدل في القضاء مع الحكم النافذ، وفي ذلك رد لقول الطائفتين القدرية والجبرية؛ فإن العدل الذي أثبتته القدرية منافٍ للتوحيد، معطل لكمال قدرة ربّ، وعموم مشيّته. والعدل الذي أثبتته الجبرية منافٍ للحكمة والرحمة، ولحقيقة العدل.

والعدل الذي هو اسمه وصفته ونعته سبحانه خارج عن هذا وهذا، ولم تعرفه إلا الرسل وأتباعهم، ولهذا قال هود ﷺ لقومه: «إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَمَّا يُنَزَّلُ إِلَّا هُوَ أَخْدُو بِنَاصِيَّتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» [هود: ٥٦]، فأخبر عن عموم قدرته، ونفوذ مشيّته، وتصرّفه في خلقه كيف شاء، ثم أخبر أنه في هذا التصرّف والحكم على صراط مستقيم.

قال أبو إسحاق: «أي: هو سبحانه وإن كانت قدرته تنازلهم بما شاء، فهو لا يشاء إلا العدل»<sup>(١)</sup>.

وقال ابن الأنباري: «لما قال: «هُوَ أَخْدُو بِنَاصِيَّتِهَا» كان في معنى: لا يخرج عن قبضته، وأنه قاهر بعظيم سلطانه لكل دابة، فاتبع قوله: «إِنَّ رَبِّي عَلَى

عبد الله بن مسعود به، وأعمل باثنين: الاختلاف في تعين الجندي، وسماع القاسم من أبيه، ولو متابعة وشاهد ضعيف من حديث أبي موسى، وصححه ابن حبان (٩٧٢)، وقال الحاكم (١٨٧٧): «هذا حديث صحيح على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبد الرحمن بن عبد الله، عن أبيه فإنه مختلف في سمعاه عن أبيه»، وتعقبه النهيبي بقوله: «قلت: وأبو سلمة لا يدرى من هو، ولا رواية له في الكتب الستة»، وحسنه بمتابعته وشاهدته ابن حجر في «نتائج الأفكار» (٤/ ١٠٠)، وانظر: «علل الدارقطني» (٨١٩)، حاشية محققى «مسند أحمد» (٦/ ٢٤٧).

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٥٨).

**صِرَاطُ مُسْتَقِيمٍ** أي: على الحق، قال: وهذا نحو كلام العرب إذا وصفوا رجلاً بحسن السيرة والعدل والإنصاف قالوا: فلان على طريقة حسنة، وليس ثمة طريق.

ثم ذكر وجهاً آخر، فقال: لما ذكر أن سلطانه قد قهر كل دابة أتبع هذا قوله: **إِنَّ رَبَّيْ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**، أي: أنه لا يخفى عليه مشتبه، ولا يعدل عنه هارب، فذكر الصراط المستقيم، وهو يعني به الطريق الذي لا يكون لأحد مسلك إلا عليه، كما قال: **إِنَّ رَبَّكَ لِيَأْمُرُ صَادِ** [الحجر: ١٤] (١).

قلت: فعل القول الأول يكون المراد أنه في تصرفه في ملكه يتصرف بالعدل ومجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ولا يظلم مثقال ذرة، ولا يعاقب أحداً بما لم يجنه، ولا يهضم ثواب ما عمله، ولا يحمل عليه ذنب غيره، ولا يأخذ أحداً بجريمة أحد، ولا يكلف نفساً ما لا تطيقه، فيكون من باب **لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ** [التغابن: ١]، ومن باب «ماضٍ في حكمك، عدلٌ في قضاؤك»، ومن بباب **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** [الفاتحة: ٢]، أي: كما أنه رب العالمين المتصرف فيهم بقدرته ومشيته فهو محمود على هذا التصرف، وله الحمد على جميعه.

وعلى القول الثاني فالمراد به التهديد والوعيد، وأن مصير العباد إليه، وطريقهم عليه لا يفوته منهم أحد، كما قال تعالى: **فَقَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ** [الحجر: ٤١]، قال القراء: «يقول: مرجعهم إلى فأجاز لهم، كقوله: **إِنَّ رَبَّكَ لِيَأْمُرُ صَادِ** [الحجر: ١٤]، قال: وهذا كما تقول في الكلام: طريقك

(١) نقله الواحدي في «البسط» (٤٤٨ / ١١)، وعنـه المؤلف.

عليّ، وأنا على طريقك، لمن أ وعدته»<sup>(١)</sup>، وكذلك قال الكلبي والكسائي<sup>(٢)</sup>.

ومثل قوله: **﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾** [النحل: ٩]، على أحد القولين في الآية، قال مجاهد: «الحق يرجع إلى الله، وعليه طريقه»<sup>(٣)</sup>، **﴿وَمِنْهَا﴾** أي: ومن السبيل ما هو جائز عن الحق، **﴿وَلَوْ شَاءَ لَهُذَا كُلُّ أَجْمَعِينَ﴾**، فأخبر عن عموم مشيئته وقدرته، وأن طريق الحق عليه، موصلة إليه، فمن سلكها فإليه يصل، ومن عدل عنها فإنه يضل عنه.

والمقصود أن هذه الآيات تتضمن عدل الرب تعالى وتوحيده، وأنه يتصرف في خلقه بملكه وحمده وعدله وإحسانه، فهو على صراط مستقيم في قوله وفعله وشرعه وقدره وثوابه وعقابه، يقول الحق، ويفعل العدل، **﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾** [الأحزاب: ٤].

فهذا العدل والتوحيد الذي دلّ عليه القرآن لا يتناقضان، وأما توحيد أهل القدر والجبر وعدلهم، فكل منهما يبطل الآخر ويناقضه.

## فصل

ومن سلك من القدرة هذه الطريق فقد توسط بين الطائفتين، لكنه يلزمه الرجوع إلى قول مثبتي القدر قطعاً، وإلا تناقض أبين تناقض، فإنه إذا زعم أن

(١) «معاني القرآن» (٨٩/٢).

(٢) انظر: «البسيط» (٦٠٧/١٢).

(٣) بنحوه في «تفسير مجاهد» (٤٢٠)، و«جامع البيان» (١٤/١٧٨)، وانظر: «البسيط» (١٣/٢٣).

الضلال والطبع والختم والقفل والوقر، وما يحول بين العبد وبين الإيمان مخلوق لله، وهو واقع بقدرته ومشيئته؛ فقد أعطى أن أفعال العبد مخلوقة لله، وأنها واقعة بمشيئته، فلا فرق بين الفعل الابتدائي والفعل الجزائي إن كان هذا مقدوراً لله واقعاً بمشيئته فالآخر كذلك، وإن لم يكن ذاك مقدوراً، ولا يصح دخوله تحت المشيئة فهذا كذلك، والتفريق بين النوعين تناقض محض.

وقد حَكَى هذا التفريق عن بعض القدريّة أبو القاسم الأنصاري في «شرح الإرشاد» فقال: «ولقد اعترف طوائف من القدريّة بأن الختم والطبع موانع، غير أنها عقوبات من الله تعالى لأصحاب الجرائم، قال: ومن من صار إلى هذا المذهب: عبد الواحد بن زيد البصري، وبكر ابن أخته، قال: وسبيل المعاقبين بذلك سبيل المعاقبين بالنار»<sup>(١)</sup>، وهؤلاء بقي عليهم درجة واحدة وقد تحيزوا إلى أهل السنة والحديث.

## فصل

وقالت طائفة منهم: الكافر هو الذي طَبَعَ على قلب نفسه في الحقيقة، وَخَتَمَ على قلبه، والشيطان أيضًا فعل ذلك، ولكن لما كان الله سبحانه هو الذي أقدر العبد والشيطان على ذلك نسب الفعل إليه؛ لإقداره للفاعل على ذلك، لأنَّه هو الذي فعله.

قال أهل السنة والعدل: هذا الكلام فيه حق وباطل، فلا يُقبل مطلقاً ولا يُرد مطلقاً، فقولكم: «إن الله سبحانه أقدر الكافر والشيطان على الطبع

---

(١) «شرح الإرشاد» نسخة أبي صوفيا (ق ١٨٠ / أ) باختصار.

والختم» كلام باطل؛ فإنه لم يقدره إلا على التزيين والوسوسة والدعوة إلى الكفر، ولم يقدره على خلق ذلك في قلب العبد البَّة، وهو أقل من ذلك وأعجز، وقد قال ﷺ: «بِعِشْتُ دَاعِيًّا وَمُبَلِّغًا، وَلَيْسَ إِلَيَّ مِنَ الْهَدَايَةِ شَيْءٌ»، وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مُزِيَّنًا، وَلَيْسَ إِلَيْهِ مِنَ الضَّلَالَةِ شَيْءٌ»<sup>(١)</sup>، فمقدور الشيطان أن يدعو العبد إلى فعل الأسباب التي إذا فعلها ختم الله على قلبه وسمعه وطبع عليه، كما يدعوه إلى الأسباب التي إذا فعلها<sup>(٢)</sup> عاقبه الله بالنار، فعقابه بالنار كعقابه بالختم والطبع، وأسباب العقاب فعله، وتزيينها وتحسينها فعل الشيطان، والجميع مخلوق لله.

وأما ما في هذا الكلام من الحق فهو أن الله سبحانه أقدر العبد على الفعل الذي أوجب الطبع والختم على قلبه، فلو لا إقدار الله له على ذلك لم يفعله.

وهذا حق، لكن القدرة لم تؤدي لهذا الموضع حقه، وقالت: أقدره قدرة تصلح للضدين، فكان فعل أحدهما باختياره ومشيئته التي لا تدخل تحت مقدوره، وإن دخلت قدرته الصالحة لهما تحت مقدوره سبحانه، فمشيئته واختياره وفعله غير واقع تحت مقدوره، وهذا من أبطل الباطل، فإن كل ما سواه مخلوق له، داخل تحت قدرته، واقع بمشيئته، ولو لم يشاء لم يكن.

(١) تقدم تخريرجه في (٢٦٦).

(٢) من قوله: «ختم الله» إلى هنا ساقط من «م» انتقال نظر.

قالت القدرية: لما أعرضوا عن التدبر، ولم يصغوا إلى التذكرة<sup>(١)</sup>، وكان ذلك مقارناً لإيراد الله سبحانه حجته عليهم؛ أضيفت أفعالهم إلى الله؛ لأن حدوثها إنما اتفق عند إيراد الحجة عليهم.

قال أهل السنة: هذا من محل المحال أن يضيف الله إلى نفسه أمراً لا يُضاف إليه البَّة؛ لمقارنته ما هو من فعله، ومن المعلوم أن الضد يقارن الضد، فالشر يقارن الخير، والحق يقارن الباطل، والصدق يقارن الكذب، وهل يُقال: إن الله سبحانه يحب الكفر والفسق والعصيان لمقارنتهما ما يحبه من الإيمان والطاعة، وإنه يحب إيليس لمقارنته وجود الملائكة؟!

فإن قيل: قد يُنسب الشيء إلى الشيء لمقارنته له وإن لم يكن له فيه تأثير، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ شُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَهُ هَذِهِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُنَّ يَسْتَبِّشُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِم﴾ [التوبه: ١٢٤ - ١٢٥]، ومعلوم أن السورة لم تُحدث لهم زيادة الرّجس، بل قارن زيادة رجسهم لنزولها فُنِّسب إليها.

قيل: لم ينحصر الأمر في هذين الأمرين اللذين ذكرتموهما، وهمما: إحداث السورة الرّجس، والثاني: مقارنته لنزولها، بل هنا أمر ثالث، وهو أن السورة لما أنزلت اقتضى نزولها الإيمان بها، والتصديق والإذعان لأوامرها ونواهيهما، والعمل بما فيها، فوطّن المؤمنون أنفسهم على ذلك، فازدادوا إيماناً بسيبهما، فُنِّسبت زيادة الإيمان إليها؛ إذ هي السبب في زيادة، وكذب بها الكافرون وجحدهما، وكذبوا من جاء بها، ووطّنوا أنفسهم على مخالفة ما

---

(١) «د»: «الذكر».

تضمنته وإنكاره، فازدادوا بذلك رجسًا، فتُنسب إليها؛ إذ كان نزولها ووصولها إليهم هو السبب في تلك الزيادة.

فأين هذا من نسبة الأفعال القبيحة عندكم التي لا تجوز نسبتها إلى الله عند دعوتهم إلى الإيمان وتذير آياته؟

على أن أفعالهم القبيحة لا تُنسب إلى الله سبحانه، وإنما هي منسوبة إليهم، والمنسوب إليه سبحانه أفعاله الحسنة الجميلة، المتضمنة للغaiات المحمودة، والحكم المطلوبة، فالختم والطبع والقفل والإضلال أفعال حسنة من الله، وضعها في أليق الموضع بها، إذ لا يليق بذلك المحل الخبيث غيرها. والشرك والكفر والمعاصي والظلم أفعالهم القبيحة التي لا تُنسب إلى الله فعلاً، وإن تُنسب إليه خلقاً، فخلقتها غيرها، والخلق غير المخلوق، والفعل غير المفعول، والقضاء غير الم قضي، والقدر غير المقدر، وستمر بك هذه المسألة مستوفاة – إن شاء الله – في باب: اجتماع الرضا بالقضاء<sup>(١)</sup> وسخط الكفر والفسق والعصيان، إن شاء الله<sup>(٢)</sup>.

قالت القدرية: لما بلغوا في الكفر إلى حيث لم يبق طريق إلى تحصيل الإيمان لهم إلا بالقسر والإلقاء، ولم تقتض حكمته تعالى أن يقسرهم على الإيمان؛ لئلا تزول حكمة التكليف= عبر عن ترك الإلقاء والقسر بالختم والطبع؛ إعلاماً بأنهم انتهوا في الكفر والإعراض إلى حيث لا يتھون عنه إلا بالقسر، وتلك الغاية في وصف لجاجهم وتماديهم في الكفر.

---

(١) «م»: «بالقدر».

(٢) (٣٧٠) / (٢).

قال أهل السنة: هذا كلام باطل؛ فإنه سبحانه قادر على أن يخلق فيهم مشيئة الإيمان وإرادته ومحبته، فيؤمنون بغير قسر ولا إلجلاء، بل إيمان اختيار وطاعة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَ مَنِ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، وإيمان القسر والإلجلاء لا يسمى إيماناً، ولهذا يؤمن الناس كلهم يوم القيمة، ولا يسمى ذلك إيماناً؛ لأنّه عن إلجلاء وأضطرار.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَنَّا﴾ [السجدة: ١٣]، وما يحصل للنفوس من المعرفة والتصديق بطريق الإلجلاء والاضطرار والقسر لا يسمى هدى، وكذلك قوله: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِيْنَاهُمْ بِآمْنَوْا أَنَّ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَهُدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١].

فقولكم: لم يبق طريق إلى إيمانهم إلا بالقسر: باطل؛ فإنه بقي إلى إيمانهم طريق لم يُرِّهم الله إياه، وهو مشيّته وتوفيقه وإلهامه، وإمالة قلوبهم إلى الهدى، وإقامتها على الصراط المستقيم، وذلك أمر لا يعجز عنه رب كل شيء ومليكه، بل هو القادر عليه كقدرته على خلق ذواتهم وصفاتهم وذرّاتهم، ولكن منعهم ذلك لحكمته وعدله فيهم، وعدم استحقاقهم وأهلية لهم لبذل ذلك لهم، كما منع السُّفل خصائص العلو، ومنع الحار خصائص البارد، ومنع الخبيث خصائص الطيب.

ولا يقال: فلم فعل هذا؟ فإن ذلك من لوازم ملكه وربوبيته، ومن مقتضيات أسمائه وصفاته، وهل يليق بحكمته أن يسوّي بين الطيب والخبيث، والحسن والقبيح، والجيد والرديء؟ ومن لوازم الربوبية خلق الزوجين، وتنوع المخلوقات وأخلاقها.

فقول القائل: لِمَ خَلَقَ الرَّدِيءَ وَالخَيْثَ وَاللَّئِيمَ؟ سُؤالٌ جاهمٌ بِأَسْمَاهِهِ  
وَصَفَاتِهِ وَمُلْكِهِ وَرَبِّيَّتِهِ، وَهُوَ سَبَحَانُهُ قَدْ فَرَقَ بَيْنَ خَلْقِهِ أَعْظَمَ تَفْرِيقٍ، وَذَلِكَ  
مِنْ كَمَالِ قَدْرَتِهِ وَرَبِّيَّتِهِ، فَجَعَلَ مِنْهُ مَا يَقْبِلُ جَمِيعَ الْكَمَالِ الْمُمْكِنِ، وَمِنْهُ مَا  
لَا يَقْبِلُ شَيْئًا مِنْهُ، وَبَيْنَ ذَلِكَ دَرَجَاتٌ مُتَفَاقِّةٌ لَا يُحْصِيهَا إِلَّا الْخَلَقُ الْعَلِيمُ،  
وَهُدَىٰ كُلُّ نَفْسٍ إِلَى حَصُولِ مَا هِيَ قَابِلَةٌ لَهُ، وَالْقَابِلُ وَالْمُقْبُولُ وَالْمَقْبُولُ كُلُّهُ  
مَفْعُولُهُ وَمَخْلُوقُهُ، وَأَثْرُ فَعْلِهِ وَخَلْقِهِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي ذَهَبَ عَنِ الْجُبْرِيَّةِ  
وَالْقَدْرِيَّةِ وَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَيْهِ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

قالت القدرية: الختم والطبع هو شهادته سبحانه عليهم بأنهم لا يؤمنون،  
وعلى أسمائهم وعلى قلوبهم<sup>(١)</sup>.

قال أهل السنة: هذا هو قولكم بأن الختم والطبع هو الإخبار عنهم  
بذلك، وقد تقدم فساد هذا بما فيه كفاية، وأنه لا يقال في لغة من لغات الأمم  
لمن أخبر عن غيره بأنه مطبوع على قلبه، وأن عليه ختماً: إنه قد طبع على  
قلبه وختم عليه، بل هذا كذب على اللغات وعلى القرآن.

وكذلك قول من قال: إن ختمه على قلوبهم اطلاعه على ما فيها من  
الكفر. وكذلك قول من قال: إنه إحصاؤه عليهم حتى يجازيهم به. وقول من  
قال: إنه إعلامها بعلمة تعرفها بها الملائكة. وقد بيّنا بطلان ذلك بما فيه  
كفاية.

قالت القدرية: لا يلزم من الطبع والختم والقفل أن تكون مانعةً من  
الإيمان، بل يجوز أن يجعل الله فيهم ذلك من غير أن يكون منعهم من

---

(١) هكذا وقعت الجملة في الأصول.

الإيمان، بل يكون ذلك من جنس الغفلة والبلادة والعشا في البصر، فيورث ذلك إعراضًا عن الحق وتعاميًّا عنه، ولو أنعم النظر، وتفكر وتدبر؛ لما أثر على الإيمان غيره.

وهذا الذي قالوه يجوز أن يكون في أول الأمر، فإذا تمكن واستحكم من القلب ورسخ فيه امتنع معه الإيمان، ومع هذا فهو أثر فعله وإعراضه وغفلته، وإيثار شهوته وكبره على الحق والهدى، فلما تمكن فيه واستحكم صار صفة راسخة وطبعاً وختماً وقفلَا وراثاً، فكان مبدئه غير حائل بينهم وبين الإيمان، والإيمان ممكناً معه، لو شاؤوا الآمنوا مع مبادئ تلك الموانع، فلما استحكمت لم يبق إلى الإيمان سبيل.

ونظير هذا أن العبد يستحسن ما يهواه فيميل إليه بعض الميل، ففي هذه الحال يمكن صرف دواعيه وعشقه له، إذ الأسباب لم تستحكم، فإذا استمر على ميله، واستدعي أسبابه، واستحكمت لم يمكنه صرف قلبه عن الهوى والمحبة، فيطبع على قلبه، ويختتم عليه، فلا يبقى فيه محل لغير ما يهواه ويحبه، فكان الانصراف عن السعي مقدوراً له في أول الأمر، فلما تمتكت أسبابه لم يبق مقدوراً له، كما قال الشاعر:

تولَّع بالعشق حتى عشق      فلما استقل به لم يُطْلُق  
رأى لُجَّةَ ظنِّها موجَّةً      فلما تمكن منها غرق<sup>(١)</sup>

---

(١) من أربعة أبيات لأبي الحسين محمد بن المظفر بن نحرير البغدادي (٤٥٥هـ) أسندها ابن الجوزي في «ذم الهوى» (٥٨٦)، وهي في ترجمته من «تاريخ الإسلام» (٦٥/١٠).

فلو أنهم بادروا في مبدأ الأمر<sup>(١)</sup> إلى مخالفة الأسباب الصادقة عن الهدى لسهل عليهم، ولما استعصى عليهم، ولقدروا عليه.

ونظير ذلك: المبادرة إلى إزالة العلة قبل استحکمت أسبابها، ولزومها للبدن لزوماً لا ينفك منها، فإذا استحکمت العلة، وصارت كالجزء من البدن عَزَّ على الطيب استنقاذ العليل منها.

ونظير ذلك: المتأوّل في حمأة، فإنه ما لم يدخل لجتها فهو قادر على التخلص، فإذا توسيط معظمها عَزَّ عليه وعلى غيره إنقاذه.

فمبادئ الأمور مقدورة للعبد، فإذا استحکمت<sup>(٢)</sup> أسبابها منه وتمكنت لم يبق الأمر مقدوراً له، فتأمل هذا الموضع حق التأمل، فإنه من أفع الأشياء في باب القدر، والله الموفق للصواب.

والله سبحانه جاعل ذلك كله وحالقه فيهم بأسباب منهم، وتلك الأسباب قد تكون أموراً عدمية يكفي فيها عدم مشيئته ضدادها، فلا يشاء سبحانه أن يخلق للعبد أسباب الهدى، فيبقى على العدم الأصلي. وإن أراد من عبده الهدایة فهي لا تحصل حتى يريد من نفسه إعانته وتوفيقه، فإذا لم يريد سبحانه من نفسه<sup>(٣)</sup> ذلك لم تحصل الهدایة.

---

وأوردها المؤلف في «الداء والدواء» (٤٩٨)، و«روضة المحبين» (٢٢٥)، و«الكلام على مسألة السماع» (٢٤٨).

(١) «م»: «أول الأمر».

(٢) «د» «م»: «تحکمت».

(٣) «د»: «عبده».

## فصل

ومما ينبغي أن يعلم أنه لا يمتنع مع الطبع والختم والقفل حصول الإيمان، بأن يفك الذي خُتِمَ على القلب، وطُبِعَ عليه، وُسُرِّبَ عليه القفل ذلك الختم والطابع والقفل، وبهديه بعد ضلالته، ويعلمه بعد جهله، ويرشده بعد غيَّه، ويفتح قفل قلبه بمفاسيح توفيقه التي هي بيده، حتى لو كتب على جبينه الشقاوة والكفر، لم يمتنع أن يمحوها، ويكتب عليه السعادة والإيمان.

وقرأ قارئ عند عمر بن الخطاب: «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا» [محمد: ٢٤]، وعنده شاب فقال: اللهم علينا أقفالها، ومفاتيحها بيديك، لا يفتحها سواك. فعرفها له عمر، وزادته عنده خيراً<sup>(١)</sup>.

وكان عمر رضي الله عنه يقول في دعائه: «اللهم إن كنت كتبتني شقياً فامحنني واكتبني سعيداً، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت»<sup>(٢)</sup>.

---

(١) لم أقف عليه بهذا السياق.

وأخرج اللالكاني في «أصول الاعتقاد» (٩٧٢)، والبيهقي في «القضاء والقدر» (٣٨٦) عن سهل بن سعد قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا»، وغلام جالس عند رسول الله ﷺ فقال: بل والله يا رسول الله، إن عليها لأقفالها ولا يفتحها إلا الذي أفلتها. فلما ولي عمر طلبه ليستعمله، وقال: لم يقل ذلك إلا من عقل. وفي إسناد المقدم بن داود وذؤيب بن عمامة: ضعيفان كما في «الميزان» (٤/١٧٦)، وله شاهد من مرسل عروة أخرجه إسحاق كما في «إتحاف الخيرة» (٥٨٢١)، والطبرى (٢١٧/٢١).

(٢) أخرجه الطبرى (٥٦٤/١٣)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (١٥٦٥)، وأثر عن غير واحد من السلف نحوه.

فالرب تعالى فعالٌ لما يريد، لا حجر عليه.

وقد ضلّ هنا فريقان:

القدرة: حيث زعمت أن ذلك ليس مقدوراً للرب، ولا يدخل تحت فعله؛ إذ لو كان مقدوراً له ومنعه العبد لนาقض جوده ولطفه.

والجبرية: حيث زعمت أنه سبحانه إذا قدر قدرًا، أو علم شيئاً فإنه لا يغيره بعد هذا، ولا يتصرف فيه بخلاف ما قدره وعلمه.

والطائفتان حجرت على من لا يدخل تحت حجر أحد أصلًا، وجميع خلقه تحت حجره شرعاً وقدراً.

وهذه المسألة من أكبر مسائل القدر، وسيمر بك – إن شاء الله – في باب المحو والإثبات ما يشفيك فيها<sup>(١)</sup>.

والمقصود أنه مع الطبع والختم والقفل لو تعرض العبد لفَكِ ذلك الختم والطابع، وفتح ذلك القفل لفتحه من بيده مفاتيح كل شيء، وأسباب الفتح مقدورة للعبد غير ممتنعة عليه، وإن كان فَكُ الختم وفتح القفل غير مقدور له، كما أن شرب الدواء مقدور له، وزوال العلة وحصول العافية غير مقدور له، فإذا استحکم به المرض، وصار صفة لازمة له لم يكن له عذر في تعاطي ما إليه من أسباب الشفاء، وإن كان غير مقدور له، ولكن لما أُلف العلة وساكَتها، ولم يحب زوالها، ولا آثر ضدتها عليها، مع معرفته بما بينها<sup>(٢)</sup> وبين ضدتها من التفاوت = فقد سدَّ على نفسه باب الشفاء بالكلية.

(١) لم يفرد المؤلف باباً لذلك، فلعل قصده مباحث النسخ الآتية في (١٢٠-١٢٤).

(٢) «م»: «وبينه».

والله سبحانه يهدي عبده إذا كان ضالاً وهو يحسب أنه على هدى، فإذا تبيّن له الهدى لم يعدل عنه لمحبته له، وملاءمته لنفسه. فإذا عرف الهدى فلم يحبه، ولم يرض به، وأثر عليه الضلال، مع تكرر تعريفه منفعة هذا وغيره، ومضره هذا وشره؛ فقد سدّ على نفسه باب الهدى بالكلية.

فلو أنه في هذه الحال تعرض وافقر إلى من يهدى هداه، وعلم أنه ليس إليه هدى نفسه، وأنه إن لم يهده فهو ضال، وسأل الله أن يُقبل بقلبه، وأن يقيه شر نفسه = لوفقه وهداه، بل لو علم الله منه كراهيّة لما هو عليه من الضلال، وأنه مرض قاتل له إن لم يشفه منه أهلكه؛ وكانت كراحته له وبغضه إياه مع كونه مبتلى به من أسباب الشفاء والهداية، ولكن من أعظم أسباب الشقاء والضلال محبته له، ورضاه به، وكراحته للهدى والحق.

فلو أن المطبوع على قلبه، المختوم عليه، كره ذلك ورغب إلى الله في فك ذلك عنه وفعل مقدوره؛ لأن هداه أقرب شيء إليه، ولكن إذا استحکم الطبع والختم حال بينه وبين كراهة ذلك، وسؤال الرب فكه وفتح قلبه.

## فصل

فإن قيل: فإذا جوزتم أن يكون الطبع والختم والقفل عقوبة وجذاء على الجرائم والإعراض والكفر السابق؛ فكيف يمكنكم طرد ذلك في الختم والطبع السابق على فعل الجرائم؟

قيل: هذا موضع يغلط فيه أكثر الناس، ويظنون بالله سبحانه خلاف موجب اسمائه وصفاته، والقرآن من أوله إلى آخره إنما يدل على أنّ الطبع والختم والغشاوة لم يفعلها رب سبحانه بعده من أول وهلة حين أمره

بالإيمان وبيّنه له، وإنما فعله بعد تكرر الدعوة منه سبحانه، والتأكيد في البيان والإرشاد، وتكرر الإعراض منهم، والبالغة في الكفر والعناد، فحيثند يطبع على قلوبهم، ويختم عليها، فلا تقبل الهدى بعد ذلك، والإعراض والكفر الأول لم يكن مع ختم وطبع، بل كان اختياراً، فلما تكرر منهم صار طبيعة وسجية.

فتأمل هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ مَا أَنْذَرْتَهُمْ أَفَلَمْ يَشْدُرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ⑥ حَتَّمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَرِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦-٧]، ومعلوم أن هذا ليس حكماً يعم جميع الكفار، بل الذين آمنوا وصدقوا الرسول كان أكثرهم كفاراً قبل ذلك، ولم يختم على قلوبهم وأسماعهم.

فهذه الآيات في حق أقوام مخصوصين من الكفار، فعل الله بهم ذلك عقوبة منه لهم في الدنيا بهذا النوع من العقوبة العاجلة، كما عاقب بعضهم بالمسخ قردة وخنازير، وبعضهم بالطمس على أعينهم، فهو سبحانه يعاقب بالطمس على القلوب، كما يعاقب بالطمس على الأعين، وهو سبحانه قد يعاقب بالضلال عن الحق عقوبة دائمة مستمرة، وقد يعاقب به إلى وقت، ثم يعافي عبده ويهديه، كما يعاقب بالعذاب كذلك.

## فصل

وهنها عدة أمور عاقب بها الكفار بمنعهم من الإيمان، وهي: الختم، والطبع، والأكنة، والغطاء، والغلاف، والحجاب، والتوقر، والغشاوة، والران، والغل، والسد، والقفل، والصمم، والبكير، والعمى، والصد، والصرف،

والشد على القلب، والضلال، والإغفال، والمرض، وتقليل الأفتشدة، والحوْل بين المرء وقلبه، وإزاغة القلوب، والخذلان، والإركاس، والتثبيط، والتزيين، وعدم إرادة هداهم وتطهيرهم، وإماتة<sup>(١)</sup> قلوبهم بعدم خلق الحياة فيها، فتبقى على الموت الأصلي، وإمساك النور عنها فتبقى في الظلمة الأصلية، وجعل القلب قاسياً لا ينطبع فيه مثال الهدى وصورته، وجعل الصدر ضيقاً حرجاً لا يقبل الإيمان.

وهذه الأمور منها ما يرجع إلى القلب، كالختم والطبع والقفل والأكنة والإغفال والمرض ونحوها، وما يرجع إلى رسوله الموصل إليه الهدى كالصمم والوَقْرُ، ومنها ما يرجع إلى طليعته ورائده كالعمى والغشاء<sup>(٢)</sup>، ومنها ما يرجع إلى ترجمانه ورسوله المبلغ عنه كالبَكَمُ النطقي، وهو نتيجة البَكَمُ القلبي، فإذا بَكَمَ القلب بَكَمَ اللسان.

ولا تصح إلى قول من يقول: إن هذه مجازات واستعارات، فإنه قال بحسب مبلغه من العلم والفهم عن الله ورسوله، وكأن هذا القائل حقيقة القفل عنده أن يكون من حديد، والختم أن يكون بشمع أو طين، والمرض أن يكون حمّى بنافض أو قَوْلَنْجَا<sup>(٣)</sup> أو غيرهما من أمراض البدن، والموت هو مفارقة الروح للبدن ليس إلا، والعمى ذهاب ضوء العين الذي تبصر به. وهذه الفرقة من أغلفظ الناس حجاجاً؛ فإن هذه الأمور إذا أضيفت إلى

(١) «م»: «إماتة».

(٢) من قوله: «ومنها ما يرجع إلى هنا ساقط من «د».

(٣) مرض معوي مؤلم يصعب معه خروج البراز والريح، وسببه التهاب القولون، وفي ضبطه عدة أوجه، انظر: «محيط المحيط» (٧٦٣)، «المعجم الوسيط» (٢/٧٦٧).

حالها كانت بحسب تلك المحال، فنسبة قفل القلب كنسبة قفل الباب إليه، وكذلك الختم والطابع الذي عليه هو بالنسبة إليه كالختم والطابع الذي على الباب والصندوق ونحوهما، وكذلك نسبة الصمم والعمرى إليه نسبة الصمم والعمرى إلى الأذن والعين، وكذلك موته وحياته نظير موت البدن وحياته، بل هذه أمور ألزم للقلب منها للبدن.

فلو قيل: إنها حقيقة في ذلك، مجاز في الأجسام<sup>(١)</sup> المحسوسة؛ لكن مثل قول هؤلاء وأقوئ منه، وكلاهما باطل، فالمعنى في الحقيقة والبكم والموت والقفل للقلب.

ثم قال تعالى: «فَإِنَّهَا لَا تَعْمَلُ الْأَبْصَرُ وَلَكِنْ تَعْمَلُ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» [الحج: ٤٦]، وهذا النفي يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون المعنى: إن أبصارهم لم تعم عن رؤية آياتنا، بل رأوها عياناً، ولكن عميت قلوبهم عنها.

ويدل عليه قوله تعالى: «أَفَمَرْسِلُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ إِذَا نُسَمِّعُوهُنَّ بِهَا» [الحج: ٤٦]، ثم قال: «فَإِنَّهَا لَا تَعْمَلُ الْأَبْصَرُ» أي: قد رأوا وأبصروا، ولكن عميت قلوبهم ولم يصروا.

الوجه الثاني: أن يكون المعنى: أنه ليس العمي في الحقيقة عمي البصر إذا كان القلب مبصراً، وإنما العمي الحقيقي عمي القلب الذي في الصدر، والمعنى: أنه معظم العمي وأصله.

---

(١) «د»: «الأقسام».

وهذا كقوله ﷺ: «إنما الربا في النسيئة»<sup>(١)</sup>، وقوله: «إنما الماء من الماء»<sup>(٢)</sup>، وقوله: «ليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس»<sup>(٣)</sup>، وقوله: «ليس المسكين الطواف الذي تردد اللقمة واللقطتان والتمرة والتمرتان، إنما المسكين الذي لا يجد ما يغنيه، ولا يفطن له فيصدق عليه»<sup>(٤)</sup>، وقوله: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»<sup>(٥)</sup>، ولم يرد نفي الاسم عن هذه المسميات، إنما أراد أن هؤلاء أولئى بهذه الأسماء وأحق من يسمونه بها، فهكذا قوله: «لَا تَعْمَلُ الْأَبْصَارُ وَلَا كُنْ تَعْمَلُ الْقُلُوبُ أَلَّا تَكُونُوا فِي الصُّدُورِ»، و قريب من هذا قوله تعالى: «لَيْسَ الْبَرُّ أَنْ تُؤْلُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبَرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَآتَيْهِ أَنْكِحْرَ» الآية [البقرة: ١٧٧]، وعلى التقديرين فقد أثبت للقلب عمى حقيقة، وهكذا جمیع ما نسب إليه.

ولما كان القلب ملك الأعضاء وهي جنوده، وهو الذي يحركها ويستعملها، والإرادة والقوى والحركة الاختيارية منه تبعث؛ كانت هذه الأشياء له أصلًا، ولالأعضاء<sup>(٦)</sup> تبعًا، فلتذكر هذه الأمور مفصلاً ومواقعها في

(١) أخرجه البخاري (٢١٧٨)، ومسلم (١٥٩٦). - واللفظ له - من حديث أسماء بن زيد.

(٢) أخرجه البخاري (١٨٠)، ومسلم (٣٤٣) - واللفظ له - من حديث أبي سعيد الخدري.

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١) من حديث أبي هريرة.

(٤) أخرجه البخاري (١٤٧٩)، ومسلم (١٠٣٩) من حديث أبي هريرة.

(٥) أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩) من حديث أبي هريرة.

(٦) «د» و«م»: «الأعضاء».

القرآن.

فقد تقدم الختم، قال الأزهري: «وأصله التغطية، وختم البذر في الأرض إذا عطاه»<sup>(١)</sup>.

وقال أبو إسحاق: «معنى: ختم وطبع في اللغة واحد، وهو: التغطية على الشيء والاستيثاق منه، فلا يدخله شيء، كما قال تعالى: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَفْفَالِهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وكذلك قوله: ﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِم﴾ [محمد: ١٦]<sup>(٢)</sup>.

قلت: الختم والطبع يشتركان فيما ذكر، ويفترقان في معنى آخر، وهو: أن الطبع ختم يصير سجية وطبيعة، فهو تأثير لازم لا يفارق.

وأما الأكنة ففي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَيْكُمْ أَكْنَةً أَنْ يَفْقَهُوا﴾ [الإسراء: ٤٦]، وهي جمع كثنان، كعنان وأعنة، وأصله من الستر والتغطية، ويقال: كنة وأكنة، وليس بمعنى واحد، بل بينهما فرق، فأكنة إذا ستره وأخفاه، كقوله تعالى: ﴿أَوَ أَكَنَّتُمْ فِي أَنفُسِكُم﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وكنة إذا صانه وحفظه، كقوله: ﴿بَيَضْ مَكْبُونٌ﴾ [الصفات: ٤٩]، ويشتراكان في الستر، والكتنان ما أكنت الشيء وستره، وهو كالغلاف، وقد أقرروا على أنفسهم بذلك فقالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكْنَتٍ مِّمَّا نَدَّعُونَا إِلَيْهِ وَفِي أَذْنَانَا وَفِي رُؤْسِنَا وَبَيْنَ أَرْبَيْنِكَ حِجَابٍ﴾ [فصلت: ٥]، فذكروا غطاء القلب وهي الأكنة، وغطاء الأذن وهو الوقر، وغطاء العين وهو الحجاب، والمعنى: لا نفقه كلامك، ولا نسمعه، ولا نراك، والمعنى: إنما في ترك القبول منك بمنزلة من لا يفقه ما تقول، ولا يسمعه، ولا يراك.

(١) «تهذيب اللغة» (٣١٦ / ٧).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٨٢ / ١).

قال ابن عباس: «**فُلُونَافِي أَكْنَتَهُ**» مثل الكنانة التي فيها السهام<sup>(١)</sup>.

وقال مجاهد: «**كجَعْبَةُ النَّبْلِ**»<sup>(٢)</sup>.

وقال مقاتل: «عليها غطاء فلا تفقه ما تقول»<sup>(٣)</sup>.

## فصل

وأما الغطاء فقال تعالى: «وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّكُفَّارِينَ عَرَضاً إِنَّ الَّذِينَ كَانُوا إِغْيَاناً هُنْ فِي غَطَّاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعَاً» [الكهف: ١٠١ - ١٠٠]، وهذا يتضمن معنيين:

أحدهما: أن أعينهم في غطاء عما تضمنه الذكر من آيات الله وأدلة توحيده وعجائب قدرته.

والثاني: أن أعين قلوبهم في غطاء عن فهم القرآن وتدبره والاهتداء به، وهذا الغطاء للقلب أولاً، ثم يسري منه إلى العين.

## فصل

وأما الغلاف فقال تعالى: «وَقَالُوا قُلُونَاتَأْغْلَفُ بَلْ لَعْنَهُمُ اللَّهُ يَكُوْفِرُهُمْ» [البقرة: ٨٨]، وقد اختلف في معنى قولهم: «**قُلُونَاتَأْغْلَفُ**».

فقالت طائفة: المعنى: قلوبنا أو عية للحكمة والعلم، فما بالها لا تفهم عنك ما أتيت به؟ أو لا تحتاج إليك، وعلى هذا فيكون «غلف» جمع غلاف.

(١) نسبة إليه في «البسيط» (١٩/٤١٩).

(٢) أنسده عبد الرزاق في «التفسير» (٢٦٨٨)، وانظر: التفسير المنسوب إلى مجاهد (٥٨٥).

(٣) نسبة إليه في «البسيط» (١٩/٤١٩)، وانظر: «تفسير مقاتل» (٣/٧٣٥).

والصحيح قول أكثر المفسرين أن المعنى: قلوبنا لا تفقه ولا تفهم ما يقول، وعلى هذا فهو جمع «أَغْلَف» كأحمر وحمر.

قال أبو عبيدة: «كل شيء في غلاف فهو أغلف، كما يقال: سيف أغلف، وقوس غلفاء، ورجل أغلف غير مختون»<sup>(١)</sup>.

قال ابن عباس وقتادة ومجاحد: على قلوبنا غشاوة، فهي في أوعية، فلا تعي ولا تفقه ما يقول<sup>(٢)</sup>.

وهذا هو الصواب في معنى الآية؛ لتكرر نظائره في القرآن، كقولهم: **﴿فُلُوْبُنَا فِي أَكِنَّتِنَا﴾** [فصلت: ٥]، قوله تعالى: **﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَّاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾** [الكهف: ١٠١]، ونظائر ذلك.

وأما قول من قال: هي أوعية للحكمة، فليس في اللفظ ما يدل عليه البة، وليس له في القرآن نظير يُحمل عليه، ولا يقال مثل هذا اللفظ في مدح الإنسان نفسه بالعلم والحكمة، فأين وجدتم في الاستعمال قول القائل: قلبي غلاف، وقلوب المؤمنين العالمين غُلْف، أي: أوعية للعلم؟

والغلاف قد يكون وعاء للجيد والرديء، فلا يلزم من كون القلب غلافاً أن يكون داخله العلم والحكمة، وهذا ظاهر جداً.

فإن قيل: فالإضراب بـ«بل» على هذا القول الذي قويتموه ما معناه؟  
وأما على القول الآخر فظاهر، أي: ليست قلوبكم محلًا للعلم والحكمة، بل مطبوع عليها.

(١) «مجاز القرآن» (٤٦/١).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٢/٢٢٨)، «البسيط» (٣/١٣٤).

قيل: وجه الإضراب في غاية الظهور، وهو أفهم احتجوا بأن الله لم يفتح لهم الطريق إلى فهم ما جاء به الرسول ومعرفته، بل جعل قلوبهم داخلة في غُلْفٍ فلاتفقهه، فكيف تقوم به عليهم الحجة، وكأنهم ادعوا أن قلوبهم (١) خلقت في غُلْفٍ، فهم معدورون في عدم الإيمان، فأكذبهم الله سبحانه و قال: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بَيْكُرْهُم﴾ [النساء: ١٥٥]، وقال في الآية الأخرى: ﴿بَلْ لَعَنْهُمُ اللَّهُ بِكُرْهِهِم﴾ [البقرة: ٨٨].

فأخبر سبحانه أن الطبع والإبعاد عن توفيقه وفضله إنما كان بكفرهم الذي اختاروه لأنفسهم، وأثروه على الإيمان، فعاقبهم عليه بالطبع واللعنة، والمعنى: لم نخلق قلوبهم غلباً لا تعي ولا تفقه ثم نأمرهم بالإيمان وهم لا يفهمونه ولا يفهونه، بل اكتسبوا أعمالاً عاقبناهم عليها بالطبع على القلوب والختم عليها.

## فصل

وأما الحجاب ففي قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَمِنْ أَيْمَنَاتِكُنَّ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]، وقوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُرًا﴾ [الاسراء: ٤٥]، على أصح القولين، والمعنى: جعلنا بين القرآن - إذا قرأته - وبينهم حجاب (٢)، يحول بينهم وبين فهمه وتدبره والإيمان به، وبينه قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قَلُوبِهِمْ أَكْنَةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَهُوَ فِي إِذَا نَهَمْ وَقَرَأَ﴾ [الأنعام: ٢٥] وهذه الثلاثة هي الثلاثة المذكورة في قوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْنَةٍ مَمَّا نَدُعُونَا

(١) من قوله: «داخلة» إلى هنا ساقط من «د».

(٢) كذا في الأصول: «حجاب» دون تنوين، والوجه النصب على المفعولية.

إِلَيْهِ وَقَدْ أَذَانَا وَقُرُورَهُ مِنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ» [فصلت: ٥]، فأخبر سبحانه أن ذلك جعله، فالحجاب يمنع عن رؤية الحق، والأكنة تمنع من فهمه، والوقر يمنع من سماعه.

وقال الكلبي: «الحجاب ه هنا مانع يمنعهم عن الوصول إلى رسول الله ﷺ بالأذى من الرعب ونحوه مما يصدّهم عن الإقدام عليه»<sup>(١)</sup>.

ووصفه بكونه مستوراً، فقيل: بمعنى ساتر، وقيل: على النسب، أي: ذو ستر، وال الصحيح: أنه على بابه، أي: مستوراً عن الأ بصار فلا يرى، ومجيء مفعول بمعنى فاعل لا يثبت، والنسب في مفعول لم يُشتق من فعله، كمكان مهول، أي: ذي هول، ورجل مرتّب، أي: ذي رطوبة، فأما مفعول فهو جار على فعله، فهو الذي وقع عليه الفعل، كمضروب ومحروم ومستور<sup>(٢)</sup>.

## فصل

وأما الران فقد قال تعالى: «كَلَّا لَكُمْ رَأَيٌ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» [المطففين: ١٤]، قال أبو عبيدة: «غلب عليها، والخمر ترّين على عقل السكران، والموت يرّين على الميت فيذهب به»<sup>(٣)</sup>.

ومن هذا حديث أَسْيَفُعْ جهينة، وقول عمر: «فَأَصْبَحَ قَدْرِينَ بِهِ»<sup>(٤)</sup>، أي غالب عليه، وأحاط به الرّئن.

(١) لم أقف عليه.

(٢) انظر: «البسيط» (١٣/٣٤٨).

(٣) «مجاز القرآن» (٢/٢٨٩).

(٤) أخرجه مالك (٢/٧٧٠)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١١/٧١).

وقال أبو معاذ النحوي: «الرَّئِنُ: أَنْ يَسْوَدَ الْقَلْبُ مِنَ الذَّنَبِ، وَالْطَّبَعُ: أَنْ يُطْبَعَ عَلَى الْقَلْبِ، وَهُوَ أَشَدُ مِنَ الرَّئِنِ، وَالْإِقْفَالُ أَشَدُ مِنَ الْطَّبَعِ، وَهُوَ أَنْ يُقْفَلَ عَلَى الْقَلْبِ»<sup>(١)</sup>.

وقال الفراء: «كثُرت الذُّنُوبُ وَالْمَعَاصِي مِنْهُمْ، فَأَحَاطَتْ بِقُلُوبِهِمْ، فَذَلِكَ الرَّئِنُ عَلَيْهَا»<sup>(٢)</sup>.

وقال أبو إسحاق: «رَانَ غَطَّى، يَقُولُ: رَانَ عَلَى قَلْبِهِ الذَّنَبُ، يَرِينَ رَيْنًا، أَيْ: غَشِيهُ، قَالَ: وَالرَّئِنُ كَالْغَشَاءِ يَغْشِي الْقَلْبَ، وَمِثْلُهُ الْغَيْنُ»<sup>(٣)</sup>.

قلت: أخطأ أبو إسحاق، فالغين ألطاف شيء يكون وأرقه، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مائَةً مَرَّةً»<sup>(٤)</sup>، وأما الرَّئِنُ والرَّانُ فهو من أغلظ الحجب على القلب، وأكثفها.

قال مجاهد: «هُوَ الذَّنَبُ عَلَى الذَّنَبِ حَتَّى تُحِيطَ الذُّنُوبُ بِالْقَلْبِ وَتَغْشَاهُ، فَيُمُوتُ الْقَلْبُ»<sup>(٥)</sup>.

وقال مقاتل: «غَمَرَتِ الْقُلُوبَ أَعْمَالُهُمُ الْخَيْثَةُ»<sup>(٦)</sup>.

(١) نقله في «تهذيب اللغة» (١٥ / ٢٢٤).

(٢) «معاني القرآن» (٣ / ٢٤٦).

(٣) بنحوه في «معاني القرآن وإعرابه» (٥ / ٢٩٩).

(٤) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغر المزني.

(٥) أسنده بنحوه الطبرى (٢٤ / ٢٠١)، وانظر: التفسير المنسوب إلى مجاهد (٧١١)، «البسيط» (٢٣ / ٣٢٥).

(٦) حكاه في «البسيط» (٢٣ / ٣٢٥).

وفي «سنن النسائي» و«الترمذى»<sup>(١)</sup>، من حديث أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكِتَ في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صُقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكره الله: ﴿كَلَّا لَيَرَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَلَّا لَوْيَكُسِبُونَ﴾» قال الترمذى: «هذا حديث صحيح».

وقال عبد الله بن مسعود: «كلما أذنب، نُكِتَ في قلبه نكتة سوداء، حتى يَسُودَ القلب كله»<sup>(٢)</sup>.

فأخبر سبحانه أن ذنوبهم التي كسبوها أوجبت لهم رِيْئًا على قلوبهم، فكان سبب الران منهم، وهو خلق الله فيهم، فهو خالق السبب ومسببه، لكن السبب باختيار العبد، والمسبب خارج عن قدرته واختياره.

## فصل

وأما الغل فقال تعالى: ﴿لَقَدْحَقَ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَعْلَالًا فَهُنَّ إِلَى الْأَذَافَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سُدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سُدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبَصِّرُونَ﴾ [يس: ٩-٧]، قال الفراء: «حبسناهم عن الإنفاق في سبيل الله»<sup>(٣)</sup>.

(١) النسائي في «الكبرى» ١٧٩، والترمذى ٣٣٤، وأخرجه أحمد ٧٩٥٢، وابن ماجه ٤٢٤٤.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» ٩٥٨، والبيهقي في «شعب الإيمان» ٦٨٠٩.

(٣) «معاني القرآن» ٣٧٣/٢.

وقال أبو عبيدة: «منعناهم عن الإيمان بموانع»<sup>(١)</sup>.

ولما كان الغل مانعاً للمغلول من التصرف والتقلب كان الغل الذي على القلب مانعاً من الإيمان.

فإن قيل: فالغل المانع من الإيمان هو الذي في القلب، فكيف ذكر الغل الذي في العنق؟

قيل: لما كان عادة الغل أن يوضع في العنق ناسب ذكره ذكر محله، والمراد به القلب، كقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَنٍ أَنْزَمْنَا طَلَيْرَهُ فِي عُقُولِهِ﴾ [الإسراء: ١٣].

ومن هذا قوله: إثني في عنقك، وهذا في عنقك.

ومن هذا قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنْقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩]، شبه الإمساك عن الإنفاق باليد إذا غلت إلى العنق.

ومن هذا قال الفراء: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾: «حبسناهم عن الإنفاق».

قال أبو إسحاق: « وإنما يقال للشيء اللازم: هذا في عنق فلان، أي: لزومه له كلزمون القلاادة من بين ما يلبس في العنق»<sup>(٢)</sup>.

قال أبو علي: «هذا مثل قوله: طوقتك كذا وقلدتك كذا، ومنه قلده السلطان كذا، أي: صارت الولاية في لزومها له في موضع القلاادة ومكان

(١) نسبة إليه في «البسيط» (٤٥٥ / ١٨).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٣ / ٢٣٠).

الطوق»<sup>(١)</sup>.

قلت: ومن هذا قولهم: قلدت فلاناً حكم كذا وكذا، لأنك جعلته طوفاً في عنقه.

وقد سمي سبحانه التكاليف الشاقة أغلالاً في قوله تعالى: «وَيَضْعُفُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالُ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ» [الأعراف: ١٥٧]، فشبّهها بالأغلال لشدتها وصعوبتها.

قال الحسن: «هي الشدائد التي كانت في العبادة، كقطع أثر البول، وقتل النفس في التوبة<sup>(٢)</sup>، وقطع الأعضاء الخاطئة، وتتبع العروق من اللحم»<sup>(٣)</sup>.

وقال ابن قتيبة: «هي تحرير الله سبحانه عليهم كثيراً مما أطلقه لأمة محمد عليه السلام، وجعلها أغلالاً؛ لأن التحرير يمنع، كما يقبض الغل اليد»<sup>(٤)</sup>.

وقوله: «فَهُنَّ إِلَى الْأَذْقَانِ» قالـت طافية: الضمير يعود على الأيدي وإن لم تذكر؛ لدلالة السياق عليها.

قالـوا: لأن الغل يكون في العنق فـتجمـع إـلـيـهـ الـيدـ، ولـذـلـكـ سـمـيـ جـامـعـةـ.

وعلى هذا فالمعنى: فأيديهم أو فـأـيـمـانـهـمـ مـضـمـوـنةـ إـلـىـ أـذـقـانـهـمـ. هـذـاـ قولـ الفـرـاءـ وـالـزـجاجـ.

(١) «الحجـةـ لـلـقـراءـ السـبـعةـ» (٨٩/٥).

(٢) «د»: «النفس»، سبق قلمـ.

(٣) لم أقف عليهـ، وـنـسـبـهـ فـيـ «الـبـسيـطـ» (٤٠١/٩) إـلـىـ المـفـسـرـينـ، وـانـظـرـ: «جـامـعـ الـبـيـانـ» (٤٩٥/١٠).

(٤) «تأـوـيلـ مشـكـلـ الـقـرـآنـ» (١٤٨).

وقالت طائفه: الضمير يرجع إلى الأغلال، وهذا هو الظاهر، وقوله:  
**﴿فَهُنَّ إِلَى الْأَذْقَانِ﴾** أي: واصلة ومُلْزُوْزَة إِلَيْهَا<sup>(١)</sup>، فهو غل عريض قد أحاط بالعنق حتى وصل إلى الذقن.

وقوله: **﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾** قال الفراء والزجاج: «المُقْمَح هو الغاضب بصره بعد رفع رأسه»<sup>(٢)</sup>.

ومعنى الإقماح في اللغة: رفع الرأس وغض البصر، يقال: أقمح البعير رأسه، وقمح.

وقال الأصمعي: «بعير قامح إذا رفع رأسه عن الحوض، ولم يشرب»<sup>(٣)</sup>.

قال الأزهرى: «لما غلت أيديهم إلى أعناقهم رفعت الأغلال أذقانهم ورؤوسهم صعداً، كالإبل الرافعة رؤوسها»<sup>(٤)</sup>، انتهى.

فإن قيل: فما وجه التشبيه بين هذا وبين حبس القلب عن الهدى والإيمان؟

قيل: أحسن وجه وأبينه؛ فإن الغل إذا كان في العنق واليد مجموعة إليها مَنَعَ اليد عن التصرف والبطش، فإذا كان عريضاً قد ملا العنق ووصل إلى الذقن منع الرأس من تصويبه، وجعل صاحبه شاخص الرأس متتصبه لا

(١) من لز الشيء إذا شدَه وألصقه إليه، «الصحاح» (٨٩٤/٣).

(٢) «معاني القرآن» للفراء (٢/٣٧٣)، «معاني القرآن واعرابه» للزجاج (٤/٢٧٩).

(٣) بنحوه في «الأصداد» (١٦)، وانظر: «غريب الحديث» لأبي عبيد (٢/٣٠٣).

(٤) «تهذيب اللغة» (٤/٨٢)، وانظر: «البسيط» (١٨/٤٥٦).

يستطيع له حرفة.

ثم أكد هذا المنع والحبس بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سُدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سُدًّا﴾ [يس: ٩]، قال ابن عباس: «منعهم من الهدى لما سبق في علمه»<sup>(١)</sup>.

والسد الذي جعل من بين أيديهم ومن خلفهم هو الذي سد عليهم طريق الهدى، فأخبر سبحانه عن الموانع التي منعهم بها من الإيمان عقوبة لهم، ومثلها أحسن تمثيل وأبلغه، وذلك حال قوم قد وضعوا الأغلال العريضة الواصلة إلى الأذقان في أنفاسهم، وضمت أيديهم إليها، وجعلوا بين سدين لا يستطيعون النفوذ من بينهما، وأغشيت أبصارهم فهم لا يرون شيئاً.

وإذا تأملت حال الكافر الذي عرف الحق وتبيّن له، ثم جحده وكفر به وعاده أعظم معاداة؛ وجدت هذا المثل مطابقاً له أتم مطابقة، وأنه قد حيل بينه وبين الإيمان، كما حيل بين هذا وبين التصرف، والله المستعان.

## فصل

وأما القفل، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَدْبَرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَفْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، قال ابن عباس: «يريد على قلوب هؤلاء أقفال»<sup>(٢)</sup>.

وقال مقاتل: «يعني الطبع على القلب»<sup>(٣)</sup>.

فكأن القلب بمنزلة الباب المرتاج الذي قد ضرب عليه قفل، فإنه مالم

(١) نسبة إليه في «البسيط» (٤٥٨/١٨).

(٢) نسبة إليه في «البسيط» (٢٥٥/٢٠).

(٣) «تفسير مقاتل» (٤٩/٤).

يفتح القفل<sup>(١)</sup> لا يمكن فتح الباب والوصول إلى ما وراءه، كذلك مالم يُرفع  
الختم والقفل عن القلب لم يدخله الإيمان والقرآن.

وتأمل تكير القلوب وتعريف الأقوال، فإن تكير القلوب يتضمن إرادة  
قلوب هؤلاء، وقلوب من هم بهذه الصفة، ولو قال: (أم على قلوبهم) لم  
تدخل قلوب غيرهم في هذه الجملة.

وفي قوله: **﴿أَفَقَاتُهَا﴾** بالتعريف: نوع تأكيد، فإنه لو قال (أقوال) لذهب  
الوهم إلى ما يُعرف بهذا الاسم، فلما أضافها إلى القلوب عُلِّم أن المراد بها  
ما هو للقلب بمنزلة القفل للباب، فكانه أراد أقوالها المختصة بها التي لا  
تكون لغيرها، والله أعلم.

## فصل

وأما الصمم والوَقْر، ففي قوله تعالى: **﴿صُمُّ يُكَمِّ عَمَّي﴾** [البقرة: ١٨]، وقوله:  
**﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنْهُمُ اللَّهُ فَاصْحَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَرَهُم﴾** [محمد: ٢٣]، وقوله: **﴿وَلَقَدْ**  
**ذَرَنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا قَوْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسَنِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾**<sup>(٢)</sup> [٢٤] **يَهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبَصِّرُونَ** **بِهَا**  
**وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ** **بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمْ بَلْ هُمْ أَصْلُ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾**  
[الأعراف: ١٧٩] ، وقوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ** **فِي إِذَا نَاهَمُّ وَقُرُّ وَهُوَ عَلَيْهِمْ**  
**عَمَّيْ أُولَئِكَ يَنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾** [فصلت: ٤٤] ، قال ابن عباس: «في  
آذانهم صمم عن استماع القرآن، **﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمَّيْ﴾** أعمى الله قلوبهم فلا

(١) «م»: «القلب».

(٢) في جميع الأصول: «لا يعقلون».

يفقهونه، «أَوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ» مثل البهيمة التي لا تفهم إلا دعاء ونداء»<sup>(١)</sup>.

وقال مجاهد: «بعيد من قلوبهم»<sup>(٢)</sup>.

وقال الفراء: «تقول للرجل الذي لا يفهم كلامك: أنت تُنادى من مكان بعيد»، قال: «وجاء في التفسير: كأنما ينادون من السماء فلا يسمعون»<sup>(٣)</sup> انتهى.

والمعنى: أنهم لا يسمعون ولا يفهمون، كما أن من دُعي من مكان بعيد لم يسمع ولم يفهم.

## فصل

وأما البكم فقال تعالى: «صُرْبِكُمْ عُمَّى» [البقرة: ١٨]، والبكم جمع أبكم، وهو الذي لا ينطق، والبكم نوعان: بكم القلب، وبكم اللسان، كما أن النطق نطقان: نطق القلب، ونطق اللسان، وأشدهما بكم القلب، كما أن عماء وصممه أشد من عمى العين وصمم الأذن. فوصفهم سبحانه بأنهم لا يفهون الحق، ولا تنطق به ألسنتهم.

والعلم يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب: من سمعه، وبيصره، وقلبه، وقد سُدّت عليهم هذه الأبواب الثلاثة، فسُدّ السمع بالصمم، والبصر

(١) نسبة إليه في «البسيط» (١٩/٤٧٠-٤٧١).

(٢) أسنده الطبرى (٢٠/٤٥١).

(٣) «معانى القرآن» (٣/٢٠).

بالعمى، والقلبُ بالبَكَمْ، ونظيره قوله تعالى: **﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْهَمُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبَصِّرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾** [الأعراف: ١٧٩]، وقد جمع سبحانه بين الثلاثة في قوله: **﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَقْدَةً فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَقْدَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذَا كَانُوا يَجْحَدُونَ بِعِيَاتِ اللَّهِ﴾** [الآحقاف: ٣٦].

فإذا أراد الله سبحانه هداية عبد فتح قلبه وسمعه وبصره، وإذا أراد ضلاله أصمّه وأعماه وأبكمه، وبالله التوفيق.

## فصل

وأما الغشاوة فهو غطاء العين، كما قال تعالى: **﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غُشَّةً﴾** [الجاثية: ٢٣]، وهذا الغطاء سرى إليها من غطاء القلب؛ فإن ما في القلب يظهر على العين من الخير والشر، فالعين مرآة القلب تُظْهِر ما فيه، وأنت إذا أبغضت رجلاً بغضنا شديداً، وأبغضت كلامه ومجالسته؛ تجد على عينيك غشاوة عند رؤيته ومخاطبته<sup>(١)</sup>، فتلك أثر البغض والإعراض عنه.

وغلّظت على الكفار عقوبة لهم على إعراضهم ونفورهم عن الرسول، وجاءت الغشاوة عليها تشعر بالإحاطة على ما تحته كالعمامة.

ولما عَشَوا عن ذكره الذي أنزله صار ذلك العَشَّا غشاوة على أعيتهم فلا تبصر موقع الهدى.

(١) «د» «ج»: «ومخالفته».

## فصل

وأما الصدّ فقال تعالى: «وَكَذَلِكَ زُيْنَ لِفَرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ» [غافر: ٣٧]، قرأها أهل الكوفة: «وَصَدَّ» على البناء للمفعول حملًا على (زُين)، وقرأ الباقيون: «وَصَدَّ» بفتح الصاد، ويحتمل وجهين: أحدهما: أعرض، فيكون لازماً.

والثاني: صدّ غيره، فيكون متعدياً.

والقراءتان كالأيتين لا تتناقضان.

وأما الشدّ على القلب ففي قوله تعالى: «وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ نَصِيرُ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيَضْلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا أَطْمَسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَأَشَدَّ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَقَّنَ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ» <sup>١٦</sup> قال قد أحييت دعوتُكما» [يوس: ٨٨-٨٩]، فهذا الشدّ على القلب هو الصدّ والمنع، ولهذا قال ابن عباس: «يريد امنعها» <sup>(١)</sup>، والمعنى: قسّها واطبع عليها حتى لا تلين ولا تشرح للإيمان.

وهذا مطابق لما في التوراة، أن الله سبحانه قال لموسى: «اذهب إلى فرعون فإني سأقصي قلبه، فلا يؤمن حتى تظهر آياتي وعجائبي بمصر» <sup>(٢)</sup>.

وهذا الشدّ والتقصية من كمال عدل الربّ تعالى في أعدائه، جعله عقوبة لهم على كفرهم وإعراضهم، عقوبته لهم بالمصائب، ولهذا كان محموداً

(١) نسبة إليه في «البسيط» (١١/٢٩٥).

(٢) انظر: «العهد القديم: سفر الخروج» (الإصلاح) (١/١٠).

عليه، وهو حسن منه سبحانه، وأقبح شيء منهم، فإنه عدل منه وحكمة، وهو ظلم منهم وسفة.

فالقضاء والقدر فعل عادل حكيم غني عليم، يضع الخير والشر في أليق الموضع بهما، والمُقْضي المُقدَّر يكون ظلماً وجوراً وسفهاً، وهو فعل جاهل ظالم سفيه.

### فصل

وأما الصرف، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتَ شَوَّرَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَى كُمَّمْ أَحَدُهُمْ أَنْصَرَ فَوْأَدَ صَرْفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبه: ١٢٧]، فأخبر سبحانه عن فعلهم وهو الانصراف، وعن فعله فيهم وهو صرف قلوبهم عن القرآن وتدبره؛ لأنهم ليسوا أهلاً له، فال محل غير صالح ولا قابل، فإن صلاحية المحل بشيئين: حسن فهم، وحسن قصد، وهؤلاء قلوبهم لا تفقهه، وقصودهم سيئة.

وقد صرَّح سبحانه بهذا في قوله: ﴿وَأَوْعِدُ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَا سَمَعَهُو وَأَشَمَّهُمْ تَوَلُّا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، فأخبر سبحانه عن عدم قابلية الإيمان فيهم، وأنهم لا خير فيهم يدخل بسيبه الإيمان إلى قلوبهم، فلم يُسمِّعُهم سماع إفهام يتفعون به، وإن سمعوه سماعاً تقوم به عليهم حجته، فسماع الفهم الذي سمعه به المؤمنون لم يحصل لهم.

ثم أخبر سبحانه عن مانع آخر قام بقلوبهم يمنعهم من الإيمان لو أسمعهم هذا السماع الخاص، وهو الكبر والتولي والإعراض، فال الأول مانع من الفهم، والثاني مانع من الانقياد والإذعان، فأفهام سيئة وقصود رديئة،

وهذه نسخة الضلال وعلم الشقاء، كما أن نسخة الهدى وعلم السعادة فهم صحيح وقصد صالح، والله المستعان.

وتأمل قوله سبحانه: **﴿ثُمَّ أَنْصَرَ فَوْصَرَقَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾**، كيف جعل هذه الجملة الثانية - سواء كانت خبراً أو دعاء - عقوبة لانصرافهم، فعقابهم عليه بصرف آخر غير الصرف الأول، فإن انصرافهم كان لعدم إرادته سبحانه ومشيئته لاقبالهم؛ لأنه لا صلاحية فيهم ولا قبول، فلم يشأ لهم الإقبال والإذعان، فانصرفت قلوبهم بما فيها من الجهل والظلم عن القرآن، فجازاهم على ذلك صرفاً آخر غير الصرف الأول، كما جازاهم على زيف قلوبهم عن الهدى إزاغة أخرى غير الزيف الأول، كما قال تعالى: **﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾** [الصف: ٥]، وهكذا إذا أعرض العبد عن ربه جازاه سبحانه بأن يعرض بقلبه عنه، فلا يمكنه من الإقبال عليه.

ولتكن قصة إبليس منك على ذكر، تنتفع بها أتم انتفاع، فإنه لما عصى ربّه تعالى ولم ينقد لأمره، وأصرّ على ذلك؛ عاقبه بأن جعله داعينا إلى كل معصية، فعاقبه على معصيته الأولى بأصول المعاشي وفروعها، صغيرها وكبيرها، وصار هذا الإعراض والكفر منه عقوبة لذلك الإعراض والكفر السابق، فمن عقاب السيئة السيئة بعدها، كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها.

فإن قيل: فكيف يلشم إنكاره سبحانه عليهم الانصراف والإعراض وهو منه، وقد قال تعالى: **﴿فَأَنَّ تُصْرِفُونَ﴾** [يونس: ٣٢]، و**﴿فَإِنَّ (١) تُوقَكُونَ﴾**

---

(١) في الأصول الخطية: «أنى».

﴿الأنعام: ٩٥﴾، وقال: ﴿وَمَا لَهُمْ عِنَ الْتَّذِكْرَةِ مُعْرِضُينَ﴾ [المدثر: ٤٩]، فإذا كان هو الذي صرفهم وجعلهم معرضين ومأفوكلين؛ فكيف ينبغي إنكار ذلك عليهم؟!

قيل: هم دائرون بين عدله فيهم وحجته عليهم، فمكّنهم وفتح لهم الباب، ونهج لهم الطريق، وهيأ لهم الأسباب، وأرسل إليهم رسلاه، وأنزل عليهم كتبه، ودعاهم على ألسنة رسلاه، وجعل لهم عقولاً تميّز بين الخير والشر، والنافع والضار، وأسباب الرّدّي، وأسباب الفلاح، وجعل لهم أسماعاً وأبصاراً، فأثروا الهوى على التقوى، واستحبوا العمى على الهدى، وقالوا: معصيتك آثر عندنا من طاعتكم، والشرك بك أحب إلينا من توحيدك، وعبادة سواك أفعى لنا في دنيانا من عبادتك، فأعرضت قلوبهم عن ربهم وخالقهم ومليكهم، وانصرفت عن طاعته ومحبته وتوحيده، وأفكت عن هداه، فلما رأها سبحانه كذلك عدل فيها بأن صرفها، وأعرض بها عنه، وصدها عن الإقبال عليه وعن معرفته ومحبته، فهذا عدله فيهم، وتلك حجته عليهم.

فهم سدوا على نفوسهم باب الهدى إرادة منهم و اختياراً، فسدّه عليهم اضطراراً، فخلّا لهم وما اختاروا لأنفسهم، وولّاهم ما تولوه، وmekّنهم مما ارتضوه، وأدخلهم من الباب الذي استبقوا إليه، وأغلق عنهم الباب الذي تولوا عنه وهم معرضون، فلا أقبح من فعلهم، ولا أحسن من فعله.

ولوشاء لخلقهم على غير هذه الصفة، ولأنشأهم غير هذه النّشأة، ولكنه سبحانه خالق العلو والسفل، والنور والظلمة، والنافع والضار، والطيب والخبيث، والملائكة والشياطين، والشاء والذئاب، ومعطيها آلاتها

وصفاتها، وقوتها وأفعالها، ومستعملها فيما خلقت له، فبعضها بطبعها وبعضاً بارادتها ومشيئتها، وكل ذلك جار على وفق حكمته، وهو وجوب حمده، ومقدسي كماله المقدس وملكه التام، ولا نسبة لما علمه الخلق من ذلك إلى ما خفي عنهم بوجه ما، إن هو إلا كنقرة عصفور من البحر.

### فصل

وأما الإغفال فقال تعالى: ﴿وَلَا نُطْعِمُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَبْلَهُ وَعَنْ ذِكْرِنَا وَأَبْعَثْنَاهُ هَوَانَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ وَقُرْطَاهُ﴾ [الكهف: ٢٨].

سئل أبو العباس ثعلب عن قوله: ﴿أَغْفَلْنَا قَبْلَهُ وَعَنْ ذِكْرِنَا﴾ فقال: «من جعلناه غافلاً، قال: ويكون في الكلام: أغفلته سميته غافلاً، ووجده غافلاً»<sup>(١)</sup>.

قلت: الغفل: الشيء الفارغ، والأرض الغفل: التي لا علامة بها، والكتاب الغفل: الذي لا شكل عليه، فأغفلناه تركناه غافلاً عن الذكر، فارغاً منه، فهو إبقاء له على العدم الأصلي؛ لأن سبحانه لم يسأل له الذكر، ففي غافلاً، فالغفلة وصفه، والإغفال فعل الله فيه بمشيئته لغفلته وعدم مشيئته للتذكرة، فكل منهما مقتضي لغفلته، فإذا لم يسأل له التذكرة لم يتذكر، وإذا شاء غفلته امتنع منه التذكرة.

فإن قيل: فهل تضاف الغفلة والكفر والإعراض ونحوها إلى عدم مشيئته الرب أضدادها أم إلى مشيئته لوقوعها؟

---

(١) انظر: «تهذيب اللغة» (٨/١٣٦)، «البسيط» (١٣/٦٠٠).

قيل: القرآن قد نطق بهذا وهذا، قال تعالى: ﴿أَوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدُ اللَّهُ أَنْ يُظْهِرُ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]، وقال: ﴿وَمَنْ يُرِدُ اللَّهُ فَتَّأْتَهُ وَ﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿وَمَنْ يُرِدُ أَنْ يُضْلَلَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فإن قيل: فكيف يكون عدم السبب المقتضي موجِّباً للأثر؟

قيل: الأثر إن كان وجودياً فلا بد له من مؤثّر وجودي، وأما العدم فيكتفي فيه عدم سببه وموجيّه، فيبقى على العدم الأصلي، فإذا أضيف إليه كان من باب إضافة الشيء إلى دليله، فعدم السبب دليل على عدم المسبّب، وإذا سُميّ موجِّباً ومقتضياً بهذا الاعتبار فلا مشاحة في ذلك، وأما أن يكون العدم أثراً ومؤثّراً فلا، وهذا الإغفال ترتب عليه اتباع هواه، وتفریطه في أمره.

قال مجاهد: «(كَانَ أَمْرًا فُرُطًا) أي: ضياعاً»<sup>(١)</sup>.

وقال قتادة: «أضاع أكبر الضياعة»<sup>(٢)</sup>.

وقال السُّعْدِي: «هلاكًا»<sup>(٣)</sup>.

وقال أبو الهيثم: «أمر فُرُطٌ، أي: متهاون به، مُضيّع»<sup>(٤)</sup>، والتفریط تقديم العجز.

(١) التفسير المنسوب إليه (٤٤٧)، وأسنده الطبرى (١٥ / ٢٤٢).

(٢) نسبة إليه في «البسيط» (١٣ / ٦٠٠).

(٣) نسبة إليه في «البسيط» (١٣ / ٦٠٠).

(٤) انظر: «تهذيب اللغة» (١٣ / ٣٣٢).

قال أبو إسحاق: «من قدم العجز في أمر أضاعه وأهلكه»<sup>(١)</sup>.

قال الليث: «الْفُرُطُ: الأمر الذي تفرّط فيه، تقول: كل أمر فلان فُرُطٌ»<sup>(٢)</sup>.

قال الفراء: «فُرُطًا: متروكًا»<sup>(٣)</sup>.

ففرّط فيما لا ينبغي التفريط فيه، واتبع ما لا ينبغي اتباعه، وغفل عما لا يحسن الغفلة عنه.

## فصل

وأما المرض فقال تعالى: «فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا» [آل عمران: ١٠]، وقال: «فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقُرْبَى فَيَطْمَعُ الَّذِي فِي قُلُوبِهِ مَرَضٌ» [الأحزاب: ٣٢]، وقال: «وَلَا يَرَأُوا الْكِتَبَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ وَالْكُفَّارُ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا إِمْلَاكًا» [المدثر: ٣١].

ومرض القلوب خروجها عن كمال صحتها واعتدالها، فإن صحتها أن تكون عارفة بالحق، محبة له، مؤثرة له على غيره، فمرضها إما بالشك فيه،

(١) كذا نسب المصنف العبارة إلى أبي إسحاق وليس له، بل هي من تعليق الواحدى الذي ينقل عنه المصنف هنا، قال في «البسيط» (٦٠٠ / ١٣) بعد أن حكى قول أبي الهيثم: «و[ي]أشبه أن يكون أصل هذا من التفريط، وهو تقديم العجز، وهذا بمعنى قول أبي إسحاق. ومن قدم العجز في أمره أضاعه وأهلكه»، ونص أبي إسحاق: «أي كان أمره التفريط، والتفريط تقديم العجز» «معاني القرآن وإعرابه» (٣ / ٢٨١).

(٢) «العين» (٧ / ٤٢٠).

(٣) «معاني القرآن» (٢ / ١٤٠).

وإما بيايثير غيره عليه، فمرض المنافقين مرض شك وريب، ومرض العصاة مرض غيّ وشهوة، وقد سُمِّيَ الله سبحانه كلاًّ منهما بالمرض.

قال ابن الأباري: «أصل المرض في اللغة: الفساد، مرض فلان فسد جسمه وتغيرت حاله، ومرضت الأرض تغيرت وفسدت»<sup>(١)</sup>.

قالت ليلى الأخيّالية:

إذا هبط الحجاج أرضاً مريضة تتبع أقصى دائها فشفاها<sup>(٢)</sup>

وقال آخر:

الم تر أن الأرض أضحت مريضة لفقد الحسين<sup>(٣)</sup> والبلاد اقشعرت<sup>(٤)</sup>  
والمرض يدور على أربعة أشياء: فساد، وضعف، ونقسان، وظلمة،  
ومنه: مَرْضُ الرَّجُلِ فِي الْأَمْرِ: إِذَا ضَعَفَ فِيهِ وَلَمْ يَبَالِغْ، وَعَيْنُ مَرِيْضَةِ النَّظَرِ،  
أَيْ: فَاتَّرَةُ ضَعْفِيَّةٍ، وَرَيْحُ مَرِيْضَةٍ إِذَا ضَعَفَ هَبُوبِهَا، كَمَا قَالَ:

راحت لأُرْبِيعِ الْرِّيَاحِ مَرِيْضَة<sup>(٥)</sup>

(١) حكاہ في «البسيط» (١٤٤/٢)، وفي «الزاهر» (٤٥٧/١) معنى آخر.

(٢) «الديوان» جمع عطية (١٢١) من عشرة أبيات في مدح الحجاج، وهي في «الكامن» (٢٤٢/١).

(٣) كذلك في «البسيط» وعن المؤلف: «الحسين» ولا يستقيم به الوزن، وفي سائر المصادر: «حسين».

(٤) من قصيدة لسليمان بن قتة يرثي الحسين بن علي رَحْمَةً اللَّهِ عَنْهُمَا، أنشدتها في «نسب قريش» (٤١)، و«مقاتل الطالبيين» (١٢١).

(٥) صدر بيت للبحترى من قصيدة يمدح فيها إسحاق المصبغي، وعجزه:

أي: لِيَنَّة ضعيفة حتى لا تعفي أثراها.

وقال ابن الأعرابي: «أصل المرض النقصان، ومنه بدن مريض: ناقص القوة، وقلب مريض: ناقص الدين، ومَرْضٌ في حاجتي إذا نقصت حركته فيها»<sup>(١)</sup>.

وقال الأزهري، عن المنذري، عن بعض أصحابه: المرض إظام الطبيعة واضطراها بعد صفاتها، قال: والمرض الظلمة، وأنشد:

وليله مَرِضَتْ من كل ناحية فما يضيء لها شمس ولا قمر<sup>(٢)</sup>

هذا أصله في اللغة، ثم الشك والجهل، والحيرة والضلal، وإرادة الغي، وشهوة الفجور في القلب، تعود إلى هذه الأمور الأربع، فيتعاطى العبد أسباب المرض حتى يمرض، فيعاقبه الله بزيادة المرض؛ لإيثاره أسبابه وتعاطيه لها.

## فصل

وأما تقليل الأفئدة فقال تعالى: «وَقُلْبٌ أَفِدَّهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ كَمَالٌ

---

وأصاب مغناكِ الغمامُ الصَّيْبُ

انظر: «ديوان البحترى» جمع الصيرفي (١/٧٢)، و«الصناعتين» (٣٢٩).

(١) انظر: «تهذيب اللغة» (١٤/٣٤).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٢/٣٤-٣٥)، وفيه: « وأنشد أبو العباس »، والمؤلف صادر عن «البسيط» (٢/١٤٦) ومتابع له في هذا.

والبيت لأبي حية النميري في «ديوانه» جمع الجبوري (١٤٨)، وفيه: «نجم» بدل «شمس»، والأخيرة رواية الأزهري والواحدى.

**يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةً وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَلُونَ**» [الأنعام: ١١٠]، وهذا عطف على **«إِذَا جَاءَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**» [الأنعام: ١٠٩]، أي: نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم تلك الآية فلا يؤمنون.

وأختلف في قوله: **«كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةً**»، فقال كثير من المفسرين: المعنى نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم الآية، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرّة.

قال ابن عباس في رواية عطاء عنه: «ونقلب أفتديهم وأبصارهم حتى يرجعوا إلى ما سبق عليهم من علمي»، قال: وهذا كقوله: **«وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلُمُ بَيْنَ الْمَرْءَ وَقَلْبِهِ**» [الأنفال: ٢٤] (١).

وقال آخرون: المعنى: ونقلب أفتديهم وأبصارهم لتركهم الإيمان به أول مرّة، فعاقبناهم بتقليل أفتديهم وأبصارهم (٢). وهذا معنى حسن؛ فإن كاف التشبيه تتضمن نوعاً من التعليل، كقوله: **«وَأَخْسِنُ كَمَا أَخْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ**» [القصص: ٧٧]، قوله: **«كَمَا أَرْسَلْنَا فِي كُلِّ رُسُولٍ مِّنْكُمْ يَتُلَوَّ عَلَيْكُمْ إِيمَانُنَا وَإِيمَانَكُمْ** و**يَعْلَمُكُمْ الْكِتَابُ وَالْحِكْمَةُ وَيَعْلَمُكُمْ مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ** فاذكروني أذكريكم» [آل عمران: ١٥٢-١٥١]، والذي حسن اجتماع التعليل والتشبيه الإعلام بأن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر.

والتشبيه: تحويل الشيء من وجه إلى وجه، وكان الواجب من مقتضى

(١) نسبة إليه في «البسيط» (٨/٣٥٨).

(٢) انظر: «البسيط» (٨/٣٦٢).

إنزال الآية ووصولها إليهم كما سألوا أن يؤمنوا إذا جاءتهم؛ لأنهم رأوها عياناً وعرفوا دلالتها، وتحققوا صدقها، فإذا لم يؤمنوا كان ذلك تقليلًا لقلوبهم وأبصارهم عن وجهها الذي ينبغي أن تكون عليه.

وقد روى مسلم في «صحيحة»<sup>(١)</sup> من حديث عبد الله بن عمرو أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد يصرفه كيف يشاء»، ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مصرف القلوب، صرف قلوبنا على طاعتك».

وروى الترمذى<sup>(٢)</sup> من حديث أنس، قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك»، فقلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله، يقلبها كيف يشاء»، قال: «هذا حديث حسن».

وروى حماد، عن أئوب وهشام ويعلى<sup>(٣)</sup> بن زياد، عن الحسن قال: قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: دعوة كان رسول الله ﷺ يكثر أن يدعو بها: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك»، فقلت: يا رسول الله، دعوة كثيراً ما تدعوه بها! قال: «إنه ليس من عبد إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله، فإذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه»<sup>(٤)</sup>.

(١) برقم (٢٦٥٤).

(٢) برقم (٢١٤٠)، وأخرجه أحمد (١٢١٠٧)، وصححه الحاكم (١٩٢٧).

(٣) كذا في الأصول: «أئوب وهشام ويعلى»، صوابه: «يونس وهشام ويعلى» كما في مصادر التخريج.

(٤) أخرجه أحمد (٤٢٤٦٠)، والنسائي في «الكبرى» (٧٦٩٠)، والأجري في «الشريعة»

وقوله: «وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَلُونَ»، قال ابن عباس: «أخذُهم  
وأدعهم في ضلالتهم يتمادون»<sup>(١)</sup>.

## فصل

وأما إزاغة القلوب، فقال تعالى: «فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» [الصف: ٥]، وقال عن عباده المؤمنين أنهم سألوه: «رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا» [آل عمران: ٨].

وأصل الزيغ الميل، ومنه زاغت الشمس إذا مالت، فإذا زاغة القلب إِمَالَتْهُ، وزيغه ميله عن الهدى إلى الضلال، والزيغ يوصف به القلب والبصر، كما قال تعالى: «وَإِذَا زَاغَتِ الْأَبْصَرُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجَرَ» [الأحزاب: ١٠].

قال قتادة ومقاتل: «شَخَصْتُ فَرَقاً»<sup>(٢)</sup>، وهذا تقريب للمعنى؛ فإن الشخص غير الزيغ، وهو أن يفتح عينيه ينظر إلى الشيء فلا يطرف، ومنه شخص بصر الميت.

ولما مالت الأ بصار عن كل شيء فلم تنظر إلا إلى هؤلاء الذين أقبلوا إليهم من كل جانب؛ اشتغلت عن النظر إلى شيء آخر فمالت عنه، وشخصت بالنظر إلى الأحزاب.

---

(١) ٣٢١)، وفي سماع الحسن من عائشة كلام، كما في «تحفة التحصيل» (٧٤)، لكن الحديث يصح بما قبله من شواهد.

(٢) أخرجه مختصرًا الطبرى (١/ ٣٢٣)، وابن أبي حاتم في «التفسيير» (١٤٩)، وهو بنصه في «البسيط» (٣٦٣/ ٨).

(٣) أخرجه عن قتادة بنحوه الطبرى (١٩/ ٣٥)، وهو في «تفسير مقاتل» (٤٧٦/ ٣).

قال الكلبي: «مالت أبصارهم إلا من النظر إليهم»<sup>(١)</sup>.

وقال الفراء: «زاغت عن كل شيء، فلم تلتفت إلا إلى عدوها متغيرة تنظر إليه»<sup>(٢)</sup>.

قلت: القلب إذا امتلاً رعياً شغله ذلك عن ملاحظة ما سوى المَحْوَفِ، فراغ البصر عن الواقع عليه وهو مقابلُه.

## فصل

وأما الخذلان، فقال تعالى: «إِن يَنْصُرُكُمُ اللَّهُ فَلَا يَأْلِمُكُمْ وَإِن يَخْذُلُكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ» [آل عمران: ١٦٠]، وأصل الخذلان: الترك والتخلية، ويقال للبقرة والشاة إذا تخلفت مع ولدها في المراعى، وتركت صواباتها: خذلول.

قال محمد بن إسحاق في هذه الآية: «إن ينصرك الله فلا غالب لك من الناس، ولن ينصرك خذلان من خذلك، وإن يخذلك فلن ينصرك الناس، أي: لا ترك أمري للناس، وارفضي الناس لأمري»<sup>(٣)</sup>.

فالخذلان أن يخلّي الله تعالى بين العبد وبين نفسه ويكله إليها، والتوفيق ضده: أن لا يدعه ونفسه ولا يكله إليها، بل يصنع له ويلطف به، ويعينه ويدفع عنه، ويكلؤه كلاعة الوالد الشفيف للولد العاجز عن نفسه، فمن خلّى بيته وبين نفسه، فقد هلك كل الهلاك.

(١) نسبة إليه في «البسيط» (١٨/١٨).

(٢) «معاني القرآن» (٢/٣٣٦).

(٣) أسنده ابن المنذر في «التفسير» (١١٢٣)، وانظر: «سيرة ابن هشام» (٣/١٥٩).

ولهذا كان من دعائة ﷺ: «يا حيّ، يا قيوم، يا بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت، برحمتك أستغث، أصلح لي شأن كلّه، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك»<sup>(١)</sup>.

فالعبد مطروح بين الله وبين عدوه إبليس، فإن تولاه الله لم يظفر به عدوه، وإن خذله وأعرض عنه افترسه الشيطان كما يفترس الذئب الشاة إذا خلّ الراعي بينه وبينها، فالشيطان ذئب الإنسان.

فإن قيل: فما ذنب الشاة إذا خلّ الراعي بين الذئب وبينها، وهل يمكنها أن تقوى على الذئب وتنجو منه؟

قيل: لعمر الله، إن الشيطان ذئب الإنسان كما قاله الصادق المصدوق، ولكن لم يجعل الله لهذا الذئب اللعين على هذه الشاة سلطاناً مع ضعفها، فإذا أعطيت يدها، وسالت الذئب، ودعاهما فلبت دعوته، وأجبت أمره ولم تختلف، بل أقبلت نحوه سريعة مطيبة، وفارقته حمى الراعي الذي ليس للذئب عليه سبيل، ودخلت في محل الذئب الذي من دخله كان صيداً لهم، فهل الذنب كل الذنب إلا للشاة، فكيف والراعي يحذّرها، ويخوّفها وينذرها، وقد أراها مصارع الشّاء التي انفردت عن الراعي، ودخلت وادي الذئاب.

قال أحمد بن مروان المالكي في كتاب «المجالسة»<sup>(٢)</sup>: «سمعت ابن

(١) لم أقف عليه بهذا السياق، وأخرجه مختصر النسائي في «الكبرى» (١٠٣٣٠)، والبزار (٦٣٦٨) بأسناد جيد من طريق عثمان بن موهب عن أنس بن مالك، وصححه الحاكم (٢٠٠٠).

(٢) (١٩٣/٥)، من طريق ابن أبي الدنيا في «الإشراف في منازل الأشراف» (٣٩٧).

أبي الدنيا يقول: إن الله سبحانه من العلوم ما لا يحصى، يعطي كل واحد من ذلك ما لا يعطي غيره.

لقد حدثنا أبو عبد الله أحمد بن محمد بن سعيد الطائي، ثنا عبد الله بن بكر السهمي، عن أبيه: أن قوماً كانوا في سفر، فكان فيهم رجل يمر الطائر فيقول: أتذرون ما تقول هذه؟ فيقولون: لا. فيقول: تقول كذا وكذا. فيحيلنا على شيء لا ندري أصادق هو أم كاذب.

إلى أن مررنا على غنم وفيها شاة قد تخللت على سخلة لها، فجعلت تحنو عنقها إليها وتثنو، فقال: أتذرون ما تقول هذه الشاة؟ قلنا: لا. قال: تقول للسخلة: الحقي، لا يأكلك الذئب كما أكل أخاك عام أول في هذا المكان. قال: فانتهينا إلى الراعي، فقلنا له: ولدت هذه الشاة قبل عامك هذا؟ قال: نعم، ولدت سخلة عام أول، فأكلها الذئب بهذا المكان.

ثم أتينا على قوم فيهم ظعينة على جمل لها، وهو يرغو ويحنو عنقه إليها، فقال: أتذرون ما يقول هذا البعير؟ قلنا: لا. قال: فإنه يلعن راكبته، ويزعم أنها رحلته على محيط، وهو في سنامه. قال: فانتهينا إليهم، فقلنا: يا هؤلاء، إن صاحبنا هذا يزعم أن هذا البعير يلعن راكبته، ويزعم أنها رحلته على محيط، وأنه في سنامه. قال: فأناخوا البعير، وحطوا عنه، فإذا هو كما قال».

فهذه شاة قد حذررت سخلتها من الذئب مرة فحضرت، وقد حذر الله سبحانه ابن آدم من ذئبه مرة بعد مرة، وهو يأبى إلا أن يستجيب له إذا دعا، وبيت معه ويصبح، «وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَتَأْفِضُ إِلَيْنَا مَرَّةً وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَنٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ

فَأَسْتَجْبُ لِلَّذِينَ يُصْرِخُونَ  
فَلَا تَلُمُونِي رَوْمًا أَنْفَسَكُمْ مَا أَنْتُ مُصْرِخٌ  
وَمَا أَنْتُ بِمُصْرِخٍ إِلَّا  
كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكُمُونَ» مِنْ قَبْلٍ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» [إِبْرَاهِيمٌ: ٢٢].

## فصل

وَأَمَا الإِرْكَاسُ، فَقَالَ تَعَالَى: «فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فَنَعَيْنَ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ  
بِمَا كَسَبُوا إِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ أَنْ يَهْدُو مِنْ أَضَلَّ اللَّهَ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَهْدِي لَهُمْ سَيِّلًا» [النَّسَاء: ٨٨]، قَالَ الْفَرَّاءُ: «أَرْكَسُهُمْ: رَدُّهُمْ إِلَى الْكُفَرِ» (١).

قَالَ أَبُو عَبِيدَةَ (٢): يَقَالُ: رَكَسْتَ الشَّيْءَ وَأَرْكَسْتَهُ — لغْتَانَ — إِذَا  
رَدَّتْهُ» (٣).

وَالرَّكْسُ قلب الشيء على رأسه (٤)، أو رَدُّ أُولِهِ عَلَى آخِرِهِ، والارتکاس:  
الارتداد، قال أمية:

فَأَرْكَسُوا فِي حَمِيمِ النَّارِ إِنْهُمْ كَانُوا عَصَةً وَقَالُوا إِلَهُكُمْ وَالزُّورَا (٥)  
وَمِنْ هَذَا يَقَالُ لِلرُّوْثِ: الرَّكْسُ؛ لِأَنَّهُ رُدٌّ إِلَى حَالِ النِّجَاسَةِ، وَلِهَذَا

(١) «معاني القرآن» (١/٢٨١).

(٢) كذا في الأصول: «أبو عبيدة»، متابعة لما في «البسيط» (٧/٢٨)، صوابه: «أبو عبيد».

(٣) «غريب الحديث» (١/٢٧٥).

(٤) «م»: «نفسه».

(٥) البيت بهذا الوزن وهذه الألفاظ في «جامع البيان» (٧/٢٨١)، و«البسيط» (٧/١٢٨)،  
وانظر: «ديوان أمية» صنعة السطلي (٤٠٨).

المعنى سمي رجينا، والرَّكْس والنَّكْس والمرَّكوس<sup>(١)</sup> والمنكوس بمعنى واحد.

قال الزَّجاج: «أركسهم: نكسهم وردهم»<sup>(٢)</sup>.

والمعنى: أنه ردهم إلى حكم الكفار من الذل والصغر، وأخبر سبحانه عن حكمه وقضائه فيهم وعدله، وأن إركاسهم كان بسبب كسبهم وأعمالهم، كما قال: ﴿كَلَّا لِرَبَّنَا عَلَىٰ فُؤُلُومَهَا كَأَوْلَادِكَسْبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

فهذا توحيد وهذا عدل، لا ما تقوله القدرة المعلولة أن التوحيد إنكار الصفات، والعدل التكذيب بالقدر.

## فصل

وأما التشبيط، فقال تعالى: «وَلَوْ أَرَادُوا الْخُروجَ لَأَعْدُوهُمْ عَذَّةً وَلَكِنْ كَرَهَ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ فَتَبَطَّهُمْ وَقَيْلَ أَقْعُدُوهُمْ مَعَ الْقَاعِدِينَ» [التوبه: ٤٦]، والتشبيط رد الإنسان عن الشيء الذي يفعله.

قال ابن عباس: «يريد خذلهم وكسالهم عن الخروج»<sup>(٣)</sup>.

وقال في رواية أخرى: «حَبَسَهُمْ»<sup>(٤)</sup>.

قال مقاتل: «وأوحى إلى قلوبهم: أقعدوا مع القاعددين»<sup>(٥)</sup>.

(١) من قوله: «لأنه رد» إلى هنا ساقط من «م».

(٢) «معاني القرآن» (٢/٨٨).

(٣) نسبة إليه في «البسيط» (١٠/٤٦).

(٤) أخرجهما ابن أبي حاتم في «التفسيير» (٨٧/١٠٠).

(٥) بمعناه في «تفسير مقاتل» (٢/١٧٣).

وقد بَيْنَ سُبْحَانَهُ حِكْمَتِهِ فِي هَذَا التَّشْبِيهِ وَالخَذْلَانِ قَبْلَ وَبَعْدِ، فَقَالَ: «إِنَّمَا يَسْتَغْذِنُكَ» - يَعْنِي: فِي التَّخْلُفِ عَنْكَ - «الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَأَيْتَمُرُ أَكْثَرُهُ وَأَرْتَابَتُ فُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ» (٤٦) \* وَلَوْ أَرَادُوا لَتَرْوِجَ لَأَعْدُوا لَهُ عَدَّةً وَلَكِنْ كَرَّهَ اللَّهُ أَيْمَانَهُمْ فَشَبَطُهُمْ وَقِيلَ أَفْعَدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ» [التوبه: ٤٥-٤٦].

فَلَمَّا تَرَكُوا إِيمَانَهُ وَبِلْقَائِهِ وَارْتَابُوا بِمَا لَا رِيبَ فِيهِ، وَلَمْ يَرِيدُوا الْخُرُوجَ فِي طَاعَتِهِ، وَلَمْ يَسْتَعْدُوا لَهُ، وَلَا أَخْذُوا أَهْبَةَ ذَلِكَ؛ كَرْهَ سُبْحَانَهُ ابْعَاثَ مِنْ هَذَا شَأنَهُ؛ فَإِنْ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِهِ وَبِرْسُولِهِ وَكِتَابِهِ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبِلْ هَدِيَّتِهِ الَّتِي أَهْدَاهَا إِلَيْهِ عَلَى يَدِ أَحَبِّ خَلْقِهِ إِلَيْهِ وَأَكْرَمَهُمْ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ هَذِهِ النِّعْمَةِ وَلَا شَكْرَهَا، بَلْ بَدَّلَهَا كُفُرًا؛ فَإِنْ طَاعَةُ هَذَا وَخْرُوجُهُ مَعَ رَسُولِهِ يَكْرِهُهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ، فَتَبَطَّهُ لَئِلَا يَقْعُدُ مَا يَكْرِهُ مِنْ خَرْوَجِهِ، وَأَوْحَى إِلَى قَلْبِهِ قَدْرًا وَكَوْنًا أَنْ يَقْعُدُ مَعَ الْقَاعِدِينَ.

ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنِ الْحِكْمَةِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالمُؤْمِنِينَ فِي تَشْبِيهِ هُؤُلَاءِ عَنْهُمْ، فَقَالَ: «لَوْخَرَجُوكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا» [التوبه: ٤٧]، وَالْخَبَالُ: الْفَسَادُ وَالاضْطَرَابُ، فَلَوْخَرَجُوكُمْ مَمْنَنِ الْمُؤْمِنِينَ لَأَفْسَدُوكُمْ أَمْرَهُمْ، وَأَوْقَعُوكُمْ بِيَنْهُمُ الاضْطَرَابُ وَالاخْتِلَافُ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا: عَجَزًا وَجَبَنًا» (١).

يَعْنِي: يَجْبَنُوكُمْ عَنِ لِقَاءِ الْعُدُوِّ بِتَهْوِيلِ أَمْرِهِمْ عَلَيْهِمْ وَتَعْظِيمِهِمْ فِي صَدْرِهِمْ.

(١) حَكَاهُ عَنْهُ فِي «الْبَسِيطِ» (٤٦٥ / ١٠).

ثم قال: ﴿وَلَا وَضَعُولٌ خَلَّا كُم﴾ أي: أسرعوا في الدخول يبنكم للتضرير والإفساد.

قال ابن عباس: «يريد أضعفوا شجاعتكم»<sup>(١)</sup>، يعني بالتضرير بينهم لِتَفَرَّقَ الكلمة فيجبنوا عن العدو.

وقال الحسن: «أَوْضَعُوا خَلَّاكُم بِالنَّمِيمَةِ لِإِفْسَادِ ذَاتِ الْبَيْنِ»<sup>(٢)</sup>.

وقال الكلبي: «ساروا بينكم يغونكم العَنَّت»<sup>(٣)</sup>.

قال لبيد<sup>(٤)</sup>:

أَرَانَا مُوْضِعِينَ لِحَتْمٍ غَيْبٍ      وَنُسْخَرُ بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ<sup>(٥)</sup>  
أي: مسرعين.

ومنه قول عمر بن أبي ربيعة:

تَبَاهَنَ بِالْعِرْفَانِ لِمَا عَرَفْتَنِي      وَقُلْنَ امْرُؤٌ باغٌ أَكَلَّ وَأَوْضَعَا<sup>(٦)</sup>

(١) حكاه عنه في «البسيط» (٤٦٩ / ١٠).

(٢) حكاه عنه الجصاص في «أحكام القرآن» (٤ / ٣٢٠).

(٣) أورده التعلبي في «الكشف والبيان» (٥ / ٥١)، والواحدي في «البسيط» (١٠ / ٤٦٩)، وقع في «ج» وبعض المصادر: «يغونكم العيب»، والمثبت من «م».

(٤) كذا في الأصول منسوباً إلى «البيد»، متابعة لما في «البسيط» (١٠ / ٤٦٧)، والأشهر نسبة إلى أمير القيس كما سيأتي.

(٥) أنسدله لأمير القيس في «الجمهرة» (١ / ٥١١)، وفي «الزاهر» (١ / ٧٩)، وهو في «الديوان» بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (٩٧).

(٦) أنسدله له في «الكامل» (٣ / ٧٨)، والقالي في «الأمالى» (٢ / ٥٠٥)، وهو في «الديوان»

أي: أسرع حتى كلّت مطية.

﴿يَتَغُونُكُمُ الْفِتْنَةُ وَفِي كُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾، قال قتادة: «وفيكم من يسمع  
كلامهم ويطيعهم»<sup>(١)</sup>.

وقال ابن إسحاق: «وفيكم قوم أهل محبة لهم، وطاعة فيما يدعونهم  
إليه؛ لشرفهم فيهم»<sup>(٢)</sup>.

ومعناه على هذا القول: وفيكم أهل سمع وطاعة لهم، لو صحبهم  
هؤلاء المنافقون أفسدوهم عليكم.

قلت: فتضمن «سمّاعين» معنى مستجيين.

وقال مجاهد وابن زيد والكلبي: «المعنى: وفيكم عيون لهم، ينقلون  
إليهم ما يسمعون منكم»<sup>(٣)</sup>، أي: جواسيس.

والقول هو الأول، كما قال تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة:  
٤١]، أي: قابلون له، ولم يكن في المؤمنين جواسيس للمنافقين؛ فإن  
المنافقين كانوا مختلفين بالمؤمنين ينزلون معهم، ويرحلون ويصلون معهم  
ويجالسونهم، ولم يكونوا متحيزين عنهم قد أرسلوا فيهم العيون ينقلون  
إليهم أخبارهم؛ فإن هذا إنما يفعله من انحاز عن طائفة ولم يخالطها،

---

بشرح محيي الدين (١٧١).

(١) أنسنده الطبرى (١١/٤٨٦).

(٢) أنسنده الطبرى (١١/٤٨٦)، وانظر: «سيرة ابن هشام» (٥٤٩/٢).

(٣) أنسنده الطبرى (١١/٤٨٦)، عن مجاهد وابن زيد، ونسبة إلى الكلبي في  
«البسيط» (١٠/٤٧٤).

وأرصد بينهم عيوناً له، فالقول قول قتادة وابن إسحاق، والله أعلم.

فإن قيل: إنبعاثهم إلى طاعته طاعة له، فكيف يكرهها؟ وإذا كان سبحانه يكرهها، فهو يحب ضدّها لا محالة؛ إذ كراهة أحد الضّدين تستلزم محبة الضّد الآخر، فيكون قعودهم محبوبًا له، فكيف يعاقبهم عليه؟

قيل: هذا سؤال له شأن، وهو من أكبر الأسئلة في هذا الباب، وأجوبة الطوائف عنه على حسب أصولهم.

فالجبرية تجيب عنه بأن أفعاله لا تُتعلّل بالحكم والمصالح، وكل ممكّن فهو جائز عليه، ويجوز أن يذبحهم على فعل ما يحبه ويرضاه، وترك ما يبغضه ويستخطه، والجميع بالنسبة إليه سواء، وهذه الفرقة قد سدت على أنفسها باب الحكمة والتعليق.

والقدريّة تجيب عنه على أصولها بأنه سبحانه لم يثبّطهم حقيقة ولم يمنعهم، بل هم منعوا أنفسهم، وثبّطواها عن الخروج، وفعلوا ما لا يريدون، ولما كان في خروجهم المفسدة التي ذكرها الله سبحانه القى في نفوسهم كراهة الخروج مع رسوله.

قالوا: وجعل سبحانه إلقاء كراهة الانبعاث في قلوبهم كراهة منه لذلك، من غير أن يكره هو سبحانه انبعاثهم؛ فإنه أمرهم به، قالوا: وكيف يأمرهم بما يكرهه؟

ولا يخفى على من نور الله بصيرته فساد هذين الجوابين، ويعدهما من دلالة القرآن.

فالجواب الصحيح: أنه سبحانه أمرهم بالخروج طاعة له ولأمره،

وابياعاً لرسوله ﷺ ونصرة له وللمؤمنين، وأحب ذلك منهم ورضيه لهم ديناً، وعلم سبحانه أن خروجهم لو خرجوا لم يقع على هذا الوجه، بل يكون خروجهم خروج خذلان لرسوله وللمؤمنين، فكان خروجاً يتضمن خلاف ما يُحبّه ويرضاه، ويستلزم وقوع ما يكرهه ويبغضه، وكان مكروهاً له من هذا الوجه، ومحبوباً له من الوجه الذي خرج عليه أولياؤه، وهو يعلم أنه لا يقع منهم إلا على الوجه المكره إليه، فكرهه وعاقبهم على ترك الخروج الذي يُحبّه ويرضاه، لا على ترك الخروج الذي يبغضه ويستخطه، وعلى هذا فليس الخروج الذي كرهه منهم طاعة، حتى لو فعلوه لم يثبتم عليهم، ولم يرضه منهم.

وهذا الخروج المكره له ضدان:

أحدهما: الخروج المرضى المحبوب، وهذا الضد هو الذي يُحبّه.

والثاني: التخلف عن رسوله والقعود عن الغزو معه، وهذا الضد يبغضه ويكرهه أيضاً، وكراهته للخروج على الوجه الذي كانوا يخرجون عليه لا ينافي كراهته لهذا الضد، فقول السائل: قعودهم يكون محبوباً له ليس ب صحيح، بل قعودهم مبغوض له.

ولكن هنا أمران مكرهان له سبحانه، وأحدهما أكره إليه من الآخر؛ لأنّه أعظم مفسدة: فإن قعودهم مكره له، وخروجهم على الوجه الذي ذكره أكره إليه، ولم يكن لهم بد من أحد المكرهين إليه سبحانه، فدفع المكره الأعلى بالمكره الأدنى؛ فإن مفسدة قعودهم عنه أصغر من مفسدة خروجهم معه؛ فإن مفسدة قعودهم تختص بهم، ومفسدة خروجهم تعود على المؤمنين. فتأمل هذا الموضوع.

فإن قلتَ: فهلا وفقُهم للخروج الذي يحبّه ويرضاه، وهو الذي خرج  
عليه المؤمنون؟

قلتُ: قد تقدم جواب مثل هذا السؤال مراتاً، وأن حكمته سبحانه تأبى  
أن يضع التوفيق في غير محله وعند غير أهله، فالله أعلم حيث يجعل هداته  
وتوفيقه وفضله، وليس كل محل يصلح لذلك، ووضع الشيء في غير محله  
لا يليق بحكمته.

فإن قلتَ: وعلى ذلك: فهلا جعل المحال كلها صالحة؟

قلتُ: يأباه كمال ربوبيته وملكه، وظهور آثار أسمائه وصفاته في الخلق  
والأمر، وهو سبحانه لو فعل ذلك لكان محبوبًا له؛ فإنّه يحب أن يُذكر  
ويُشكر ويُطاع ويُوحّد ويُعبد، ولكن كان ذلك يستلزم فوات ما هو أحب إليه  
من استواء أقدام الخلائق في الطاعة والإيمان، وهو محبته لجهاد أعدائه  
والانتقام منهم، وإظهار قدر أوليائه وشرفهم، وتخسيصهم بفضله، وبذل  
نفوسهم له في معاداة من عاداه، وظهور عزته وقدرته وسطوته، وشدة أخذه،  
وأليم عقابه، وأضعاف أضعاف هذه الحكم التي لا سبيل للخلق - ولو تناهوا  
في العلم والمعرفة - إلى الإحاطة بها، ونسبة ما عقلوه منها إلى ما خفي عنهم  
كثرة عصفور في بحر.

## فصل

وأما التزيين، فقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَ لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]،  
وقال: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَأَهُ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾  
[فاطر: ٨]، وقال: ﴿وَرَأَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]،

فأضاف التزيين إليه سبحانه خلقاً ومشيئة، وحذف فاعله تارة، ونسبه إلى سببه<sup>(١)</sup> ومن أجراه على يده تارة، وهذا التزيين منه سبحانه حسن؛ إذ هو ابتلاء واختبار لعيده؛ ليتميز المطيع منهم من العاصي، والمؤمن من الكافر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا إِنَّ الْبُلُوْهُ أَيْمَنُهُمْ أَحْسَنُ عَمَالًا﴾ [الكهف: ٧]، وهو من الشيطان قبيح.

وأيضاً فتزينه سبحانه للعبد عمله السيئ عقوبة منه له على إعراضه عن توحيده وعبوديته، وإيثاره سيئ العمل على حسنِه؛ فإنه لا بد أن يعرفه سبحانه السيئ من الحسن، فإذا آثر القبيح، واختاره وأحبَّه ورضيه لنفسه زينه سبحانه له، وأعممه عن رؤية قبحه بعد أن رأه قبيحاً، وكل ظالم وفاجر وفاسق لا بد أن يريه الله تعالى ظلمه وفجوره وفسقه قبيحاً، فإذا تمادى عليه ارتفعت رؤية قبحه من قلبه، فربما رأه حسناً عقوبة له؛ فإنه إنما يكشف له عن قبحه بالنور الذي في قلبه، وهو حجة الله عليه، فإذا تمادى في غيجه وظلمه ذهب ذلك النور، فلم ير قبحه في ظلمات الجهل والفسق والظلم.

ومع هذا فحجة الله قائمة عليه بالرسالة، وبالتعريف الأول، فتزين الرب تعالى عدل، وعقوبته حكمة، وتزيين الشيطان إغواء وظلم، وهو السبب الخارجي عن العبد، والسبب الداخلي فيه حبه وبغضه وإعراضه، والرب سبحانه خالق الجميع، والجميع واقع بمشيئته وقدرته، ولو شاء لهدى خلقه أجمعين، والمعصوم من عصمه الله، والمخدول من خذله الله، ﴿أَلَّا لَهُ الْخَلْقُ﴾

(١) «د»: «مشيئته» مهملة، «م»: «سته»، والمثبت من «ج» مطابق للسياق.

(٢) «د»: «منه سبحانه جزاء، وهو ابتلاء».

**وَالْأَكْمَرُ تَبَارَكَ اللَّهُوَرَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴿الاعراف: ٥٤﴾

## فصل

وأما عدم مشيئته سبحانه وإرادته، فكما قال تعالى: **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدُ اللَّهُ أَن يُطْهِرَ فَلَوْلَاهُمْ** [المائدة: ٤١]، وقال: **﴿وَلَوْ شِئْنَا لَا تَدِينَ أَكُلَّ قَقِيسٍ هُدَنَاهَا** [السجدة: ١٣]، **﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَ مَنِ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَيِّعاً** [يوسوس: ٩٩]، وعدم مشيئته للشيء مستلزم لعدم وجوده، كما أن مشيئته له تستلزم وجوده، فما شاء الله وجب وجوده، وما لم يشاً امتنع وجوده.

وقد أخبر الله سبحانه أن العباد لا يشاؤون إلا بعد مشيئته، ولا يفعلون إلا بعد مشيئته، فقال: **﴿وَمَا يَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ** [الإنسان: ٣٠]، وقال: **﴿وَمَا يَدْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ** [المدثر: ٥٦].

فإن قيل: فهل يكون الفعل مقدوراً للعبد في حال عدم مشيئته له أن يفعله؟

قيل: إن أريد بكونه مقدوراً: سلامـة آلـة العـبد التي يـتمكن بها من الفـعل، وصـحة أـعـصـائـه، ووجـود قـواـهـ، وتمـكـينـهـ من أـسـبـابـ الفـعلـ، وتعـرـيفـهـ طـرـيقـ فعلـهـ، وفتحـ الطـرـيقـ لهـ = فـنـعـمـ، هو مـقـدـورـ بـهـذاـ الـاعـتـبارـ.

وإن أريد بكونه مقدوراً: القدرة المقارنة للفعل، وهي الموجبة له، التي إذا وجدت لم يختلف عنها الفعل؛ فليس بمقدور بهذا الاعتبار.

وتقرير ذلك أن القدرة نوعان:

قدرة مُصَحَّحة، وهي قدرة الأسباب والشروط وسلامة الآلة، وهي

مناط التكليف، وهذه متقدمة على الفعل غير موجبة له.

وقدرة مقارنة للفعل مستلزمة له، لا يختلف الفعل عنها، وهذه ليست شرطاً في التكليف، فلا توقف صحته وحسنه عليها، فإيمان من لم يشأ الله إيمانه، وطاعة من لم يشا طاعته مقدور بالاعتبار الأول، غير مقدور بالاعتبار الثاني.

وبهذا التحقيق تزول الشبهة في تكليف ما لا يُطاق، كما يأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى.

فإذا قيل: هل خلق لمن علم أنه لا يؤمن قدرة على الإيمان، أم لم يخلق له قدرة؟

قيل: خلق له قدرة مصححة متقدمة على الفعل، هي مناط الأمر والنهي، ولم يخلق له قدرة موجبة للفعل مستلزمة له، لا يختلف عنها، فهذه فضله يؤتى به من يشاء، وتلك عدله التي تقوم بها حجته على عبده.

فإن قيل: فهل يمكنه الفعل ولم تُخلق له هذه القدرة؟

قيل: هذا هو السؤال السابق بعينه، وقد عرفت جوابه، وبالله التوفيق.

## فصل

وأما إمامتنا قلوبهم، ففي قوله: «إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمُؤْمِنَ» [النمل: ٨٠]، وقوله: «أَوَّلَمْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يُمْشِي بِهِ فِي الْأَرْضِ كَمْ مَشَّاهُرٌ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا» [الأعراف: ١٢٢]، وقوله: «لَيُنذَرَ مَنْ كَانَ حَيًّا» [يس: ٧٠]، وقوله: «وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّنْ فِي الْقُبُوْرِ» [فاطر: ٢٢]، فوصف

الكافر بأنه ميت، وأنه بمنزلة أصحاب القبور، وذلك أن القلب الحي هو الذي يعرف الحق ويقبله ويحبه ويؤثره على غيره، فإذا مات القلب لم يبق فيه إحساس ولا تمييز بين الحق والباطل، ولا إرادة<sup>(١)</sup> للحق وكراهة للباطل، بمنزلة الجسد الميت الذي لا يحسّ بلذة الطعام والشراب وألم فقدهما.

ولذلك<sup>(٢)</sup> وصف سبحانه كتابه ووحيه بأنه روح؛ لحصول حياة القلب به، فيكون القلب حيًّا، ويزداد حياة بروح الوحي، فيحصل له حياة على حياة، ونور على نور، نور الوحي على نور الفطرة، قال تعالى: «يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ» [غافر: ١٥]، وقال: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا إِلَيْمَنْ وَلِكُنْ جَعَلْنَاهُ فُرْقَانًا» [الشورى: ٥٢]، فجعله روحًا لما يحصل به من الحياة، ونورًا لما يحصل به من الهدى والإضاءة، وذلك نور وحياة زائد على نور الفطرة وحياتها، فهو نور على نور، وحياة على حياة.

ولهذا يضرب سبحانه لمن عدم ذلك مثلاً بمستوقد النار التي ذهب عنها ضوءها، وبصاحب الصَّبَبِ الذي كان حظه منه الصواعق والظلمات والرعد والبرق، فلا استئنار بما أوقد من النار، ولا حبي بما في الصَّبَبِ من الماء، وكذلك ضرب هذين المثلين في «سورة الرعد» لمن استجاب له، فحصل على الحياة والنور، ولمن لم يستجب له وكان حظه الموت

---

(١) د: «لذادة».

(٢) عدا م: «وكذلك».

والظلمة، وأخبر عنمن أمسك عنه نوره بأنه في الظلمة ليس له من نفسه نور، فقال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثُلُ نُورُهِ كَمِشْكَوْقٍ فِيهَا مَصْبَاحٌ الْمَصْبَاحُ فِي رُجَاجَةِ الرُّجَاجَةِ كَانَهَا كَوْكَبٌ دِرَىٰ تُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَرِّكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرَقَيَّةٍ وَلَا غَرَبَيَّةٍ يَكَادُ زَيْنَهَا يُضِيَّعُ وَلَوْلَمْ تَمَسَّسْهُ نَارٌ لُّؤْرُ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١) [النور: ٣٥].

ثم ذكر من أمسك عنه هذا النور، ولم يجعله له، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ يَقِيعَةٌ يَخْسِبُهُ الظُّمَرُ أَمَّا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُو لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُو فَوْقَهُ حَسَابٌ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٢) أو كظمت في بحر لعنى يغسله موج من فوقه، موج من فوقه سحاب ظلمت بعضها فوق بعض إذا أخرج يده و لم يكدر لها و مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهَ لَهُ نُورًا فَمَا اللَّهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠ - ٣٩].

وفي «المسندي» من حديث عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصحابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل»، فلذلك أقول: جفت القلم على علم الله (٢).

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِعِيَاتِنَا صُمٌّ وَّبُكْمٌ فِي الظُّلْمَاتِ مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضْلِلُهُ وَمَنْ يَشَاءُ يَجْعَلُهُ عَلَىٰ صَرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]. وهذه الظلمات ضد الأنوار التي يتقلب فيها المؤمن، فإن نور الإيمان في قلبه، ومدخله نور، ومخرج نور، وعمله نور، ومشيه في الناس بالنور، وكلامه نور، ومصيره إلى النور. والكافر بالضد.

(١) قوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من «م».

(٢) تقدم تخرجه في (٢٢).

ولما كان النور من أسمائه سبحانه وصفاته كان دينه نوراً، ورسوله نوراً، وكلامه نوراً، وداره نوراً تتلاًأ، والنور يتقد في قلوب عباده المؤمنين، ويجري على ألسنتهم، ويظهر على وجوههم.

وكذلك لما كان الإيمان صفتة، واسم المؤمن؛ لم يعطه إلا أحب خلقه إليه. وكذلك الإحسان صفتة وهو المحسن، ويحب المحسنين، وهو صابر يحب الصابرين، شاكر يحب الشاكرين، عفو يحب أهل العفو، حيي يحب أهل الحياة، ستيّر يحب أهل الستر، قوي يحب أهل القوة من المؤمنين، عليم يحب أهل العلم من عباده، جواد يحب أهل الجود، جميل يحب المتجمّلين، بَر يحب الأبرار، رحيم يحب الرحماء، عدل يحب أهل العدل، رشيد يحب أهل الرشد، وهو الذي جعل من يحبه من خلقه كذلك، وأعطاه من هذه الصفات ما شاء، وأمسكها عنمن يبغضه، وجعله على أصدادها، فهذا عدله، وذلك فضله، والله ذو الفضل العظيم.

## فصل

وأما جعله القلب قاسيًا، فقال تعالى: «فَيَسْأَلُنَّهُمْ مِمَّا كُفِّرُوا هُمْ وَجَعَلْنَا فُؤُبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَطَّا مَمَّا ذُكِّرُوا بِهِ» [المائدة: ١٣]، والقصوة: الشدة والصلابة في كل شيء، يقال: حجر قاس، وأرض قاسية لا تنبت شيئاً.

قال ابن عباس: «قاسية عن الإيمان».

وقال الحسن: «طبع عليها»<sup>(١)</sup>.

(١) نسبة إليهما في «البسيط» (٧/٣٠٣).

والقلوب ثلاثة: قلب قاس، وهو اليابس الصلب الذي لا يقبل صورة الحق، ولا تنطبع فيه لبيسه. وضده القلب اللين المتماسك، وهو السليم من المرض، الذي يقبل صورة الحق بلينه، ويحفظها بتماسكه، بخلاف المريض الذي لا يحفظ ما ينطبع فيه؛ لميعانه ورخاوته، كالماعذ الذي إذا طبعت فيه الشيء قبل صورته بما فيه من اللين، ولكن رخاؤته تمنعه من حفظها، فخير القلوب الصلب الصافي اللين، فهو يرى الحق بصفائه، ويقبله بلينه، ويحفظه بصلاته.

وفي «المسند»<sup>(١)</sup> وغيره عن النبي ﷺ: «القلوب آنية الله في أرضه، فأحجاها إليه أصلبها وأرقها وأصفاها».

وقد ذكر سبحانه أنواع القلوب في قوله: «لَيُجَعَّلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شَقَاقٍ بَعِيدٍ ٥٣ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أَتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُحِيطَ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ» [الحج: ٥٣ - ٥٤]، فذكر القلب المريض وهو الضعيف المنحل الذي لا تثبت فيه صورة الحق، والقلب القاسي اليابس الذي لا يقبلها ولا تنطبع فيه، فهذا القلبان شقيان معدبان.

(١) لم أقف عليه في «المسند».

وقد روی هذا الأثر مرفوعاً وموقعاً ومقطوعاً: فآخرجه مرفوعاً الطبراني في «مسند الشاميين» (٨٤٠) من حديث أبي عنبة الخولاني بأسناد جيد، وله شاهد في «الزهد» (٨٣٠) عن أبي أمامة، وهو في «جزء الدراج» (٩٩) موقعاً على أبي عنبة، ومقطوعاً على خالد بن معدان في «الزهد» (٢٢٦٤)، انظر: «فيض القدير» (٢/٤٩٦)، «الصحيحه» (١٦٩١).

ثم ذكر القلب المُحْبِت المطمئن إليه، وهو الذي يتفع بالقرآن ويزكيه

. به

قال الكلبي: «**(فَتَحِّيَتْ لَهُ قُلُوبُهُمْ)** فترق للقرآن قلوبهم»<sup>(١)</sup>.

وقد بين سبحانه حقيقة الإِخْبَات ووصف المُحْبِتين في قوله: **(وَلَشَّرِّ**  
**الْمُحْبِتِينَ ﴿٢٤﴾ إِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَأَصَابَهُمْ**  
**وَالْمُقِيمِيَ الْصَّلَوةٌ وَمَمَّا رَفَعْتُهُمْ يُنفِقُونَ)** [الحج: ٣٤-٣٥].

فذكر للمُحْبِتين أربع علامات: وجَلَ قلوبهم عند ذكره - والوَجْل: خوفٌ  
مقرون بـهيبة ومحبة -، وصبرهم على أقداره، وإتيانهم بالصلة قائمة الأركان  
ظاهراً وباطناً، وإحسانهم إلى عباده بالإِنفاق مما آتاهم، وهذا إنما يتأتى  
للقلب المُحْبِت.

قال ابن عباس: «المُحْبِتِينَ: المتواضعين»<sup>(٢)</sup>.

وقال مجاهد: «المطمئنِينَ إلى الله»<sup>(٣)</sup>.

وقال الأخفش: «الخاشعين»<sup>(٤)</sup>.

---

(١) حكاه عنه في «البسيط» (٤٧٢ / ١٥).

(٢) نسبة إليه التعلبي في «الكشف والبيان» (٧ / ٢٢)، وعلقه البخاري في «الصحيح»  
(٦ / ٩٧) عن سفيان بن عيينة، وأسنده عبد الرزاق في «التفسير» (٢ / ٣٨) عن قتادة  
ومجاهد.

(٣) أسنده في «جامع البيان» (٦ / ٥٥١)، وهو في «تفسير مجاهد» (٤٨١).

(٤) حكاه عنه في «الكشف والبيان» (٧ / ٢٢).

وقال ابن جرير: «الخاضعين»<sup>(١)</sup>.

قال الزّجاج: «اشتقاقه من المُخْبَت وهو المنخفض من الأرض، فكل مُخْبَت متواضع، فالإخبارات سكون الجوارح على وجه التواضع والخشوع لله تعالى»<sup>(٢)</sup>.

فإن قيل: فإذا كان معناه التواضع والخشوع، فكيف عدّي بـ«إلى» في قوله: «وَأَخْبَتوُا إِلَى زَيْمَر» [هود: ٢٣]؟

قيل: ضمّن معنى: أثابوا واطمأنوا وتابوا، وهذه عبارات السلف في هذا الموضع.

والمقصود: أن القلب المُخْبَت ضد القاسي والمريض، وهو سبحانه الذي جعل بعض القلوب مُخْبَتاً إليه، وبعضها مريضاً، وبعضها قاسياً، وجعل للقسوة آثاراً، وللإخبارات آثاراً.

فمن آثار القسوة: تحريف الكلم عن مواضعه، وذلك من سوء الفهم وسوء القصد، وكلاهما ناشئ عن قسوة القلب، ومنها نسيان ما ذُكر به، وهو ترك ما أمر به علمًا وعملاً، ومن آثار الإخبارات وجَل القلوب لذكره سبحانه، والصبر على أقداره، والإخلاص في عبوديته، والإحسان إلى خلقه.

## فصل

وأما تضييق الصدر وجعله حرجاً لا يقبل الإيمان، فقال تعالى: «فَمَن

(١) «جامع البيان» (١٦ / ٥٥٠).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٣ / ٤٢٧).

يُرِدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيهِ رَيْشَحْ صَدْرُهُ لِلْإِسْلَمِ وَمَنْ يُرِدُ أَنْ يُضْلَلَ يَجْعَلُ صَدْرُهُ رَصِيقًا حَرِيجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ» [الأعما: ١٢٥]، والحرج: هو الشديد الضيق في قول أهل اللغة جميعهم، يقال: رجل حرج وحرج، أي: ضيق الصدر، قال الشاعر:

لا حرج الصدر ولا عنيف<sup>(١)</sup>

قال عبيد بن عمير: قرأ ابن عباس هذه الآية فقال: هل هنا أحد منبني بكر؟ قال رجل: نعم. قال: ما الحرج فيكم؟ قال: الوادي الكثير الشجر الذي لا طريق فيه. فقال ابن عباس: كذلك قلب الكافر<sup>(٢)</sup>.

وقرأ عمر بن الخطاب الآية فقال: ابغوني رجالاً من كنانة، واجعلوه راعياً. فأثنوه به، فقال له عمر: يا فتى، ما الحرج فيكم؟ فقال: الشجرة تحدق بها الأشجار فلا تصل إليها راعية ولا وحشية. فقال عمر: كذلك قلب الكافر، لا يصل إليه شيء من الخير<sup>(٣)</sup>.

قال ابن عباس: «يَجْعَلُ صَدْرَهُ رَصِيقًا حَرِيجًا»، إذا سمع ذكر الله أشمازاً قلبه ونفسه، وإذا ذُكِرَ شيء من عبادة الأصنام ارتاح إلى ذلك<sup>(٤)</sup>.

(١) هو دون نسبة في «العين» (٧٦/٣)، و«تهذيب اللغة» (٤/١٣٧).

(٢) أورده بهذا النطق الشعبي في «الكشف والبيان» (٤/١٨٨)، والواحدي في «البسيط» (٨/٤٢٣)، وأسنده السرقسطي في «الدلائل في غريب الحديث» (٣/١٠٣٤) من طريق عبيد بن عمير بنحوه، ومن وجه آخر الطبراني في «جامع البيان» (٦/٦٤١).

(٣) أسنده الطبراني (٩/٥٤٥).

(٤) نسبة إليه في «البسيط» (٨/٤٢٥).

ولما كان القلب محلًّا للمعرفة والعلم والمحبة والإنابة، وكانت هذه الأشياء إنما تدخل في القلب إذا اتسع لها، فإذا أراد الله هداية عبده وسَعَ صدره وشرحه، فدخلت فيه وسكتته، وإذا أراد ضلاله ضيق صدره وأحرجه، فلم يجد محلًا يدخل فيه، فيعدل عنه ولا يساكنه، وكل إنسان فارغ إذا دخل فيه الشيء ضاق به، وكلما أفرغت فيه الشيء ضاق، إلا القلب اللين<sup>(١)</sup>، فكلما أُفرغ فيه الإيمان والعلم اتسع وانفسح، وهذا من آيات<sup>(٢)</sup> قدرة رب تعالى.

وفي «الترمذى» وغيره<sup>(٣)</sup> عن النبي ﷺ: «إذا دخل النورُ القلب انفسح وانشرح»، قالوا: فما علامه ذلك يا رسول الله؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله».

فَشَرَحَ الصدر من أعظم أسباب الهدى، وتضييقه من أسباب الضلال، كما أن شَرَحَه من أَجَلِ النعم، وتضييقه من أعظم النقم، فالمؤمن مشروح الصدر منفسحه في هذه الدار على ما ناله من مكر وها، وإذا قوي الإيمان وخالفت بشاشته القلوب كان على مكارها أشرح صدرًا منه على شهواتها

(١) «اللين» من «ج».

(٢) «د»: «باب» معجمة.

(٣) لم أقف عليه عند الترمذى ولم يعزه إليه أحد، وهو في «نواذر الأصول» للحكيم الترمذى كما في «تخریج أحاديث الكشاف» للزیلعي (٢٠١/٣).

والحديث أخرجه وكبيع في «الزهد» (١٥)، وسعيد بن منصور في «التفسير» (٩١٨)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٤٥٥)، من طرق عن عمرو بن مرة، عن أبي جعفر عبد الله بن مسور المدائني - وهو وضاع - مرسلاً، قال ابن رجب: «هذا هو أصل الحديث، ثم وصله قوم، وجعلوا له إسنادًا موصولاً مع اختلافهم فيه»، انظر: «علل الدارقطنى» (١٨٩/٥)، «شرح العلل» لابن رجب (٧٧٢/٢).

ومحابها، فإذا فارقها كان انفساح روحه والشريح الحاصل له بفارقها أعظم بكثير، كحال من خرج من سجن ضيق إلى فضاء واسع موافق له؛ فإنها سجن المؤمن، فإذا بعثه الله يوم القيمة، رأى من ان شراح صدره وسعته ما لا نسبة لما قبله إليه، فشرح الصدر كما أنه سبب الهدایة فهو أصل كل نعمة، وأساس كل خير.

وقد سأله كليم الرحمن موسى بن عمران رئيشه أن يشرح له صدره لما علم أنه لا يمكن من تبليغ رسالته والقيام بأعبائها إلا إذا شرح له صدره.

وقد عدّ سبحانه من نعمه على خاتم الأنبياء ورسله شرح صدره له، وأخبر عن أتباعه أنه شرّح صدورهم للإسلام.

فإن قلتَ: فما الأسباب التي تشرح الصدر، والتي تضيقه؟

قلتُ: السبب الذي يشرح الصدر: النور الذي يقذفه الله سبحانه فيه، فإذا دخله ذلك النور اتسع بحسب قوة النور وضعفه، وإذا فقد ذلك النور أظلم وتضيق.

فإن قلتَ: فهل يمكن اكتساب هذا النور، أم هو وَهْبٌ؟

قلت: هو وَهْبٌ وكُنْبِيٌّ، واكتسابه أيضاً مجرد موهبة من الله تعالى، فالامر كله لله، والحمد كله له، والخير كله بيديه، وليس مع العبد من نفسه شيءٌ بالبتة، بل الله واهب الأسباب ومسبياتها وجعلها أسباباً، ومانحها من يشاء، ومانعها من يشاء، فإذا أراد بعده خيراً وفقه لاستفراغ وسعه وبذل جهده في الرغبة والرّهبة إليه، فإنهما مادتا التوفيق، فعلى قدر قيام الرغبة والرّهبة في القلب يحصل التوفيق.

فإن قلتَ: فالرغبة والرهبة بيده لا يهد العبد!

قلتُ: نعم والله، وهمما مجرد فضله ومتنه، وإنما يجعلهما في المحل الذي يليق بهما، ويحبسهما عنمن لا يصلح.

فإن قلتَ: فما ذنب من لا يصلح؟

قلتُ: أكبر ذنبه أنه لا يصلح؛ لأن عدم صلاحيته بما اختاره لنفسه وأثره وأحبه من الضلال والعمى<sup>(١)</sup> على بصيرة من أمره، فآخر هواء على حق ربه ومرضاته، واستحب العمى على الهدى، وكان كُفْرُ المُنْعِمِ عليه بصنوف النعم، وجَحْدَ إلهيته والشرك به، والسعى في مساخطه؛ أحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ شَكْرِهِ وتوحيدِه، والسعى في مرضاته، فهذا من عدم صلاحيته لتوفيق خالقه ومالكه، وأي ذنب فوق هذا؟!

فإِذَا أَمْسَكَ الْحَكْمُ الْعَدْلُ تَوْفِيقَهُ عَنْهُ هَذَا شَأْنَهُ كَانَ قَدْ عَدَلَ فِيهِ، وَانسَدَّتْ عَلَيْهِ أَبْوَابُ الْهُدَى وَطُرُقُ الرِّشادِ، فَأَظْلَمَ قَلْبَهُ، فَضَاقَ عَنْ دُخُولِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ فِيهِ، فَلَوْ جَاءَتْهُ كُلُّ آيَةٍ لَمْ تَزِدْهُ إِلَّا ضَلَالًا وَكُفْرًا.

وإِذَا تَأْمَلَ مِنْ شَرْحِ اللَّهِ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ هَذِهِ الْآيَةُ، وَمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ أَسْرَارِ التَّوْحِيدِ وَالْقَدْرِ وَالْعَدْلِ وَعَظَمَةِ شَأنِ الرِّبوبِيَّةِ؛ صَارَ لِقَلْبِهِ عِبُودِيَّةً أُخْرَى وَمَعْرِفَةً خَاصَّةً، وَعْلَمَ أَنَّهُ عَبْدٌ مِنْ كُلِّ وِجْهٍ وَبِكُلِّ اعْتِبَارٍ، وَأَنَّ الرَّبَّ تَعَالَى رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ مِنَ الْأَعْيَانِ وَالصَّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ، وَالْأَمْرُ كُلُّهُ بِيَدِهِ، وَالْحَمْدُ كُلُّهُ لَهُ، وَأَزْمَمَةُ الْأَمْرُورُ بِيَدِيهِ، وَمَرْجِعُهَا كُلُّهَا إِلَيْهِ.

ولهذه الآية شأن فوق عقولنا، وأجل من أنفهامنا، وأعظم مما قال فيها

---

(١) «د»: «والغَيِّ»، والمثبت من «م».

المتكلمون الذين ظلموا معاها، وأنفسهم كانوا يظلمون. تالله لقد غلظ عنها حجابهم، وكفت عنها أفهمهم، ومنعهم الوصول إلى المراد بها أصولهم التي أصلوها، وقواعدُهم التي أسسواها؛ فإنها تضمنت إثبات التوحيد والعدل الذي بعث الله به رسلاه، وأنزل به كتبه، لا التوحيد والعدل الذي يقوله معظلو الصفات ونفاة القدر، وتضمنت إثبات الحكمة، والقدرة، والشرع، والقدر، والسبب، والحكم، والذنب، والعقوبة، ففتحت للقلب الصحيح باباً واسعاً من معرفة الرب تعالى بأسمائه، وصفات كماله، ونعوت جلاله، وحكمته في شرعه وقدره، وعدله في عقابه، وفضله في ثوابه.

وتضمنت كمال توحيده في ربوبيته<sup>(١)</sup> وفي يوميته وإلهيته، وأن مصادر الأمور كلها عن محض إرادته، ومردها إلى كمال حكمته، وأن المهتدى من خصّه بهدایته، وشرح صدره لدینه وشريعته، وأن الضبال من جعل صدره ضيقاً حرجاً عن معرفته ومحبته، لأنما تصاعد في السماء، وليس ذلك في قدرته، وأن ذلك عدل منه في عقوبته لمن لم يقدره حتى قدره، وجحد كمال ربوبيته، وكفر بنعمته، وأثر عبادة الشيطان على عبوديته، فسدّ عليه باب توفيقه وهدایته، وفتح عليه أبواب غيّه وضلالته، فضاق صدره، وقسّا قلبه، وتعطلت من عبودية ربّها جوارحه، وامتلأت بالظلمة جوانحه.

والذنب له حيث أعرض عن الإيمان، واستبدل به الكفر والفسق والعصيان، ورضي بموالاة الشيطان، وهانت عليه معاداة الرحمن، لا يحدث نفسه بالرجوع إلى مولاه، ولا يعزم يوماً على إقلاعه عن هواه، قد ضاد الله في أمره بحب ما يبغضه، وبغض ما يحبه، ويتوالي من يعاديه، ويعادي من يواليه،

---

(١) «م»: «ديوميته».

فيغضب إذا رضي الرب، ويرضى إذا غضب، هذا وهو يتقلب في إحسانه،  
ويسكن في داره، ويغتذى برزقه، ويتنقى على معاصيه بنعمه.

فمنْ أَعْدَلُ مِنْهُ - سُبْحَانَهُ عَمَّا يَصِفُهُ بِالْجَاهِلِونَ وَالظَّالِمِونَ - إِذَا جَعَلَ  
الرَّجُسَ عَلَىٰ أَمْثَالِ هُؤُلَاءِ مِنَ الظَّالِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ؟!

## فصل

إذا شرح الله صدر عبد بنوره الذي يقذفه في قلبه أراه في ضوء ذلك النور  
حقائق الأسماء والصفات التي تصل إليها معرفة العبد؛ إذ لا يمكن أن يعرفها  
العبد على ما هي عليه في نفس الأمر، وأراه في ضوء ذلك النور حقائق  
الإيمان، وحقائق العبودية وما يصححها وما يفسدها.

وتفاوت الناس في معرفة الأسماء والصفات، والإيمان والإخلاص،  
وأحكام العبودية بحسب تفاوتهم في هذا النور، قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ  
مَيَتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ، فِي الظُّلُمَتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ  
مِّنْهَا﴾ [الأనعام: ۱۲۲]، وقال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَتَقُولُوا لِلَّهِ وَإِنْتَ مُؤْمِنٌ بِرَسُولِهِ يُؤْتَكُمْ  
كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلُ لَكُمْ نُورًا تَنْتَشِرُونَ بِهِ﴾ [الحديد: ۲۸].

فيكشف لقلب المؤمن في ضوء ذلك النور عن حقيقة المثل الأعلى،  
مستويًا على عرش الإيمان في قلب العبد المؤمن، فيشهد بقلبه ربًا عظيمًا  
قاھرًا قادرًا، أكبر من كل شيء في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله، السماوات  
السبع قبضة إحدى يديه، والأرضون السبع قبضة اليد الأخرى، يمسك  
السماءات على أصبع، والأرضين على أصبع، والجبال على أصبع، والشجر  
على أصبع، والثرى على أصبع، ثم يهزّهن، ثم يقول: أنا الملك. فالسماءات

السبع في كفه كخردلة في كف العبد.

يحيط ولا يحاط به، ويحصر خلقه ولا يحصرونه، ويدركهم ولا يدركونه، لو أن الناس من لدن آدم إلى آخر الخلق قاموا صفاً واحداً ما أحاطوا به سبحانه.

ثم يشهده في علمه فوق كل علیم، وفي قدرته فوق كل قادر، وفي جوده فوق كل جواد، وفي رحمته فوق كل رحيم، وفي جماله فوق كل جميل، حتى لو كان جمال الخلائق كلهم على شخص واحد منهم، ثم أعطي الخلق كلهم مثل ذلك الجمال؛ لكان نسبته إلى جمال الرب تبارك وتعالى دون نسبة سراج ضعيف إلى ضوء الشمس.

ولو اجتمعت قوى الخلائق على شخص واحد منهم، ثم أعطي كلّ منهم مثل تلك القوة؛ لكان نسبتها إلى قوته سبحانه دون نسبة قوة البعوضة إلى الأسد.

ولو كان جودهم على رجل واحد، وكل الخلائق على ذلك الجود؛ ل كانت نسبته إلى جوده دون نسبة قطرة إلى البحر.

وكذلك علم الخلائق إذا نسب إلى علمه كان كنقرة عصفور من البحر.

وهكذا سائر صفاته، كحياته وسمعه وبصره وإرادته، فلو فرض البحر المحيط بالأرض مداداً تحيط به سبعة أبحار، وجميع أشجار الأرض شيئاً بعد شيئاً أقلام؛ لفني ذلك المداد والأقلام، ولا تفني كلماته ولا تنفد، فهو أكبر في علمه من كل عالم، وفي قدرته من كل قادر، وفي جوده من كل جواد، وفي غناه من كل غني، وفي علوه من كل عال، وفي رحمته من كل رحيم.

استوى على عرشه، واستولى على خلقه، متفرد بتدبير مملكته، فلا قبض ولا بسط، ولا عطاء ولا منع، ولا هدى ولا ضلال، ولا سعادة ولا شقاوة، ولا موت ولا حياة، ولا نفع ولا ضر إلا بيده، لا مالك غيره، ولا مدبر سواه، لا يستقل أحد معه بملك مثقال ذرة في السماوات والأرض، ولا يشركه في ملكها، ولا يحتاج إلى وزير ولا ظهير ولا معين، ولا يغيب فيخلفه غيره، ولا يعني<sup>(١)</sup> فيعينه سواه، ولا يتقدم أحد بالشفاعة بين يديه إلا من بعد إذنه لمن شاء فيمن شاء.

فهذا أول مشاهد المعرفة.

ثم يترقى منه إلى مشهد آخر فوقه، لا يتم الإيمان إلا به، وهو مشهد الإلهية، فيشهد له سبحانه متجلياً في كلامه بأمره ونبيه، ووعده ووعيده، وثوابه وعقابه، وعدله في عقابه، وفضله في ثوابه، فيشهد ربّاً قيوماً متكلّماً، أمّا ناهياً، يحبّ ويبغض، ويرضى ويغضب، قد أرسل رسلاً، وأنزل كتبه، وأقام على عباده حجته البالغة، وأتم عليهم نعمته السابقة، يهدي من يشاء نعمة منه وفضلاً، ويصل من يشاء حكمة منه وعدلاً، تنزل إليهم أوامرها، وتعرض عليه أعمالاً لهم، لم يخلقهم عبّاً، ولم يتركهم سدىً، بل أمره جارٍ عليهم في حركاتهم وسكناتهم، وظواهرهم وبواطنهم، فلله عليهم حُكْم وأمر في كل تحرّيكة وتسكينة، وللحظة وللفظة.

وينكشف له في ضوء هذا النور عدله وحكمته، ورحمته ولطفه، وإحسانه وبرّه، في شرعه وأحكامه، وأتها أحكام ربّ رحيم محسن لطيف

---

(١) عدا «ج»: «معين».

حكيم، قد بهرت حكمته العقول، وأقرت بها الفطر، وشهدت لمتزها  
باليقانة، ولمن جاء بها بالرسالة والنبوة.

وينكشف له في ضوء ذلك النور إثبات صفات الكمال، وتزييه سبحانه  
عن الناقص والمثال، وأن كل كمال في الوجود فمعطيه وخالقه أحق به  
أولى، وكل نقص وعيوب فهو سبحانه متنزه عنه، متعال عنه.

وينكشف له في ضوء هذا النور حقائق المعاد واليوم الآخر، وما أخبر به  
الرسول عنه، حتى كانه يشاهده عياناً، وكأنه يخبر عن الله وأسمائه وصفاته،  
وأمره ونهيه، ووعده ووعيده؛ إخباراً من كانه قد رأى وعاين وشاهد ما أخبر  
به.

فمن أراد الله سبحانه هدایته شرح صدره لهذا، فاتسع له وانفسح، ومن  
أراد ضلاله جعل صدره من ذلك في ضيق وحرج، لا يجد فيه مسلكاً ولا  
منفذًا، والله الموفق المعين.

وهذا الباب يكفي الليبي في معرفة القدر والحكمة، ويطلعه على العدل  
والتوحيد اللذين تضمنهما قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ  
وَالْمَلَكُ كَيْفَةٌ وَأُولُو الْعِلْمٍ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [١٨-١٩].



## البَابُ الْسَّاِنِينَ عَشَرَهُنَّ

ما جاء من السنة في تفرد الرب تعالى بخلق أعمال العباد كما هو متفرد بخلق ذواتهم وصفاتهم

قال البخاري في كتاب «خلق أفعال العباد»<sup>(١)</sup>: حدثنا علي بن عبد الله، ثنا مروان بن معاوية، ثنا أبو مالك، عن ربيعي بن حراش، عن حذيفة قال: قال النبي ﷺ: «إن الله يصنع كل صانع وصنعته»، قال البخاري: وتلا بعضهم عند ذلك: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

حدثنا محمد، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن شقيق، عن حذيفة نحوه موقفاً عليه.

وأما استشهاد بعضهم بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، فحملَ «ما» على المصدر، أي: خلقكم وأعمالكم، والظاهر خلاف هذا، وأنها موصولة، أي: خلقكم وخلق الأصنام التي تعملونها، فهو يدل على خلق أعمالهم من جهة اللزوم؛ فإن الصنم اسم للألة التي حل فيها العمل المخصوص، فإذا كان مخلوقاً لله كان خلقه متناولاً لمادته وصورته.

قال البخاري: وحدثنا عمرو بن محمد، ثنا ابن عيينة، عن عمرو، عن طاووس، عن ابن عمر<sup>(٢)</sup>: «كل شيء بقدر حتى وضعك يدك على

(١) (٦٦/٢)، وأخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٣٥٧)، والبزار (٢٨٣٧)، وصححه الحاكم (٨٥).

(٢) كذا في الأصول: «ابن عمر»، صوابه: «ابن عباس» كما في مصدر الخبر.

ذلك»<sup>(١)</sup>.

قال البخاري: وحدثني إسماعيل، قال: حدثني مالك، عن زياد بن سعد، عن عمرو بن مسلم، عن طاوس قال: «أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس»<sup>(٢)</sup>.

ورواه مسلم في «صحيحه»<sup>(٣)</sup> عن طاوس، وقال: سمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس»<sup>(٤)</sup>.

قال البخاري: وقال ليث: عن طاوس، عن ابن عباس: «﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ حَلَقْنَاهُ بِقَدْرٍ﴾ [القمر: ٤٩] حتى العجز والكيس».

قال البخاري: سمعت عبيد الله بن سعيد يقول: سمعت يحيى بن سعيد يقول: ما زلت أسمع أصحابنا يقولون: «أفعال العباد مخلوقة».

قال البخاري: «حركاتهم وأصواتهم واكتسابهم وكتابتهم مخلوقة»<sup>(٥)</sup>.  
وقال جابر بن عبد الله: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور،

---

(١) «خلق أفعال العباد» (٦٩/٢)، وأخرجه الفريابي في «القدر» (٢٠٦) وغيره من حديث ابن عباس.

(٢) «خلق أفعال العباد» (٦٨/٢) إلا أنه في مطبوعته حتى قول طاوس: «كل شيء بقدر»، وما بعده كسياق مسلم الآتي، وهو بمثيل سياق المؤلف في «الإبانة الكبرى» (١٦٦٣).

(٣) (٢٦٥٥).

(٤) من قوله: «ورواه مسلم» إلى هنا ساقط من «م».

(٥) «خلق أفعال العباد» (٢/٧٠).

كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: «إذا هم أحدكم بالأمر فليرجع ركتعين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخلك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فيسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفة عني واصرفي عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضّني به»، قال: «ويسمى حاجته»، قال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح»<sup>(١)</sup>.

فقوله: «إذا هم أحدكم بالأمر» صريحٌ في أنه الفعل الاختياري المتعلق بإرادة العبد.

وإذا عُلِمَ ذلك، فقوله: «أستقدرك بقدرتك» أي: أسألك أن تقدرني على فعله بقدرتك، وملووم أنه لم يسأل القدرة المُصَحَّحة التي هي سلامه الأعضاء وصحة البنية، وإنما سأله القدرة التي توجب الفعل، فعلم أنها مقدورة لله ومخلوقة له، وأكد ذلك بقوله: «إنك تقدر ولا أقدر» أي: تقدر أن يجعلني قادرًا فاعلاً، ولا أقدر أجعل نفسي كذلك.

وكذلك قوله: «تعلم ولا أعلم» أي: حقيقة العلم بعواقب الأمور، وما لها والنافع منها والضار عندك، وليس عندي.

وقوله: «يسره لي، أو اصرفه عنِّي» فإنه طَلَبَ من الله تيسيره إن كان له فيه

---

(١) تقدم تخریجه، وهو في الترمذی برقم (٤٨٠).

مصلحة، وصَرْفُه عنه إن كان عليه فيه مفسدة. وهذا التيسير<sup>(١)</sup> والصرف متضمن إلقاء داعية الفعل في القلب، أو إلقاء داعية الترك فيه، ومتنى حصلت داعية الفعل حصل الفعل، وداعية الترك امتنع الفعل.

وعند القدرة ترجيح فاعلية العبد على تركه منه، ليس للرب فيه صنع ولا تأثير، فطَلَبُ هذا التيسير منه لا معنى له عندهم؛ فإن تيسير الأسباب التي لا قدرة للعبد عليها موجود، ولم يسأله العبد.

وقوله: «ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ» يدل على أن حصول الرضا – وهو فعل اختياري من أفعال القلوب – أمر مقدور للرب تعالى، وهو الذي يلقيه في قلب عبده فيجعله راضياً.

وعند القدرة هو الذي يجعل نفسه راضياً.

وقوله: «فاصرفة عنِي واصرفي عنِه» صريح في أنه سبحانه هو الذي يصرف عبده عن فعله الاختياري إذا شاء صرفه عنه، كما قال سبحانه في حق يوسف الصديق: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِقَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف: ٢٤]، وصَرْفُ السُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ هو صَرْفُ دواعي القلب وميله إليهما، فينصرفان عنه بـصَرْفِ دواعيهما.

وقوله: «وَاقْدِرْ لِي الْخَيْرُ حِيثُ كَانَ» يعم الخير المقدور للعبد من طاعاته، وغير المقدور له، فعلى علم أن فعل العبد للطاعة والخير أمر مقدور لله، إن لم يقدر الله لعبد له لم يقع من العبد.

ففي هذا الحديث الشفاء في مسألة القدر.

---

(١) من قوله: «إِنْ كَانَ لَهُ فِيهِ مَصْلَحةً» إلى هنا ساقط من «د».

وأمرَ النبي ﷺ الداعي به أن يقدم بين يدي هذا الدعاء ركعتين، عبودية منه بين يدي نجواه، وأن تكونا من غير الفريضة؛ ليتجبرد فعلهما لهذا الغرض المطلوب.

ولما كان الفعل الاختياري متوقّفاً على العلم والقدرة والإرادة، لا يحصل إلا بها؛ توسل الداعي إلى الله بعلمه وقدرته وإرادته التي يؤتى بها من فضله، وأكّد هذا المعنى بتجرده وبراءته من ذلك، فقال: «إنك تعلم ولا أعلم، وقدر ولا أقدر»، وأمرَ الداعي أن يعلق التيسير والصرف بالشرط - وهو علم الله سبحانه - تحقيقاً للتفسير وإعطاها العبودية حقها، وإعطاء الأمور، كما اعترف بعجزه، ففي هذا الدعاء إعطاء العبودية حقها، وإعطاء الربوبية حقها، وبالله المستعان.

وفي الترمذى<sup>(١)</sup> وغيره من حديث الحسن بن علي قال: علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر: «اللهم اهدنِي فيمن هديت، وعافنِي فيمن عافيت، وتولنِي فيمن توليت، وبارك لِي فيما أعطيت، وقُنِي شرّ ما قضيت، إنك تقضي ولا يُقضى عليك، إنه لا يذل من واليت، تبارك وتعالى».

فقوله: «اهدنا» سؤال للهداية المطلقة التي لا يختلف عنها الاهتداء.

وعند القدريّة أن الرّب - سبحانه وتعالى عن قولهم - لا يقدر على هذه الهدایة، وإنما يقدر على هداية البيان والدلالة المشتركة بين المؤمنين والكافار.

---

(١) برقم (٤٦٤)، وأخرجه أحمـد (١٧١٨)، وأبـو داود (١٤٢٥)، والنـسائـي (١٧٤٥)، وابـن ماجـه (١١٧٨)، وصـحـحـه اـبـنـ خـزـيمـة (١٠٩٥)، وابـنـ حـبـانـ (٩٤٥).

وقوله: «فِيمَنْ هَدَيْتَ» فِيهِ فَوَائِدٌ:

أحدها: أنه سؤال له أن يدخله في جملة المهتدين وزمرتهم ورفقتهم.

الثانية: توسل إليه بإحسانه وإنعامه، أي: إنك قد هديت من عبادك بشرًا كثيًرا فضلاً منك وإحسانًا، فأحسن إليك كما أحسنت إليهم، كما يقول الرجل للملك: أجعلني من جملة من أغنيته وأعطيته وأحسنت إليه.

الثالثة: أن ما حصل لأولئك من الهدى لم يكن منهم ولا بأنفسهم، وإنما كان منك، فأنت الذي هديتهم.

وقوله: «وَعَافَنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ» إنما يسأل رب العافية المطلقة، وهي العافية من الكفر والفسق والعصيان والغفلة والإعراض، وفعل ما لا يجبه، وترك ما يجبه، فهذا حقيقة العافية، ولهذا ما سُئلَ الرَّبُّ سبحانه شيشاً أحب إليه من العافية؛ لأنها الكلمة جامعة للتخلص من الشر كله وأسبابه.

وقوله: «وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ» سؤال للتولي الكامل، ليس المراد به ما فعله بالكافر من خلق القدرة وسلامة الآلة وبيان الطريق، فإن كان هذا هو ولاته للمؤمنين فهو ولی الكفار كما هو ولی المؤمنين، وهو سبحانه يتولى أولياءه بأمور لا توجد في حق الكفار؛ من توفيقهم وإلهامهم وجعلهم مهتدين مطيعين.

ويدل عليه قوله: «إِنَّه لَا يَذَلُّ مَنْ وَالَّبِيتَ»؛ فإنه منصور عزيز غالب بسبب توليك له، وفي هذا تنبية على أن من حصل له ذلل في الناس فهو بنقصان ما فاته من تولي الله له، وإنما فمع الولاية الكاملة يتلفي الذل كله، ولو سلط عليه بالأذى من بأقطارها فهو العزيز غير الذليل.

وقوله: «وَقَنِي شَرًّا مَا قَضَيْتُ» يتضمن أن الشَّرَّ بِقضائِهِ، وأنه هو الَّذِي يقي منه.

وفي «المسند»<sup>(١)</sup> وغيره أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ بن جبل: «يا معاذ، والله إني لأحبك، فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»، وهذه أفعال اختيارية، وقد سأله أن يعينه على فعلها.

وهذا الطلب لا معنى له عند القدرة؛ فإن الإعانة عندهم: الإقدار، والتمكين، وإزاحة الأعذار، وسلامة الآلة، وهذا حاصل للسائل ولل千方百ن، والإعانة التي سألها أن يجعله ذاكراً له، شاكراً، محسناً لعبادته، كما في حديث ابن عباس عنه ﷺ في دعائه المشهور: «رب، أعني ولا تعن عليّ، وانصرني ولا تنصر عليّ، وامكر لي ولا تمكر عليّ، واهدني ويسر الهدى لي، وانصرني على من بغي عليّ»<sup>(٢)</sup>، رب اجعلني لك شاكراً، لك ذكاراً، لك رهاباً، لك مطواعاً، لك مُحْبِتاً، إليك أَوَّلَهَا مُنْبِتاً، رب، تقبل توبيتي، واغسل حَوْبِتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، واهد قلبي، وسدّ لسانِي، واسلل سخِيمَةِ صدري» رواه الإمام أحمد في «المسند»، والترمذى وقال: «حديث حسن صحيح»<sup>(٣)</sup>، وفيه أحد وعشرون دليلاً، فتأملها.

(١) برقم (٢٢١١٩)، وأخرجه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣)، وصححه ابن خزيمة (٧٥١)، وابن حبان (٢٠٢٠).

(٢) من قوله: «واهدني» إلى هنا ساقط من «د».

(٣) تقدم تخریجه في (١٩١).

وفي «الصحيحين»<sup>(١)</sup> أنه ﷺ كان يقول بعد انتهاء صلاته: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ»، وكان يقول ذلك الدعاء عند اعتداله من الركوع، ففي هذا نفي الشريك عنه بكل اعتبار، وإثبات عموم الملك له بكل اعتبار، وإثبات عموم الحمد، وإثبات عموم القدرة، وأن الله سبحانه إذا أعطى عبدًا فلا مانع له، وإذا منعه فلا معطي له.

و عند القدرة أن العبد قد يمنع من أعطى الله، ويعطي من منعه؛ فإنه يفعل باختياره عطاً ومنعًا لم يشأ الله، ولم يجعله معطياً مانعاً، فيتصور أن يكون لمن أعطى مانع، ولمن منع معطٍ.

وفي الصحيح عنه أن رجلاً سأله أن يدخله على عمل يدخل به الجنة، فقال: «إنه ليسير على من يسره الله عليه»<sup>(٢)</sup>، فدلّ على أن التيسير الصادر من قبله سبحانه يوجب اليسر في العمل، وعدم التيسير يستلزم عدم العمل؛ لأنَّه ملزومه، والملزوم يتضيَّ لانتفاء لازمه، والتيسير بمعنى التمكين، وخلق العقل، وإزاحة العذر، وسلامة الأعضاء؛ حاصل للمؤمن والكافر، والتيسير المذكور في الحديث أمر آخر وراء ذلك، وبالله التوفيق والتيسير.

(١) البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣) من حديث المغيرة بن شعبة.

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه أحمد (٢٢٠١٦)، والنسائي في «الكبري» (١١٣٣٠)، والترمذى (٢٦١٦) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٣٩٧٣)، من حديث معاذ بن جبل، وصححه ابن حبان (٢١٤).

وفي «ال الصحيح»<sup>(١)</sup> عنه روى أنّه قال لأبي موسى: «ألا أدلّك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوّة إلا بالله»، وقد أجمع المسلمون على هذه الكلمة وتلقّيها بالقبول، وهي شافية كافية في إثبات القدر، وإبطال قول القدرة.

وفي بعض الحديث إذا قالها العبد قال الله: «أسلم عبدي واستسلم»<sup>(٢)</sup>، وفي بعضه: «فَوَّضَ إِلَيْيَ عَبْدِي»<sup>(٣)</sup>.

قال بعض المتسبيّن للقدر: لما كانت القدرة بالنسبة إلى الفعل وإلى الترک على السوية، وما دام الأمر كذلك امتنع صدور الفعل، فإذا رجح جانب الفعل على الترک بحصول الدواعي، وإزالة الصوارف حصل الفعل، وهذه القوّة هي المشار إليها بقولنا: لا حول ولا قوّة إلا بالله.

وشأن الكلمة أعظم مما قال، فإن العالم العلوي والسفلي كلّه في تحول من حال إلى حال، وذلك التحوّل لا يقع إلا بقوّة يقع بها التحوّل، فذلك<sup>(٤)</sup> الحول وتلك القوّة عليه بالله وحده ليست بالتحوّل، فيدخل في هذا كل حركة في العالم العلوي والسفلي، وكل قوّة على تلك الحركة، سواء كانت الحركة قسرية أو إرادية أو طبيعية، سواء كانت من الوسط أو إلى الوسط أو على الوسط، سواء كانت في الگم أو في الكيف أو في الأين، كحركة النبات،

(١) البخاري (٤٢٠٥)، ومسلم (٢٧٠٤).

(٢) أخرجه أحمد (٧٩٦٦)، والترمذى (٣٦٠١)، والنسائي في «الكبرى» (٩٧٥٧) من حديث أبي هريرة، وصححه الحاكم (٥٤).

(٣) لم أهتد إليه.

(٤) «م»: «وذلك».

وحركة الطبيعة، وحركة الحيوان، وحركة الفلك، وحركة النفس والقلب، والقوة على هذه الحركات التي هي حَوْل، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ولما كان الكنز هو المال النفيس المجتمع الذي يخفى على أكثر الناس، وكان هذا شأن هذه الكلمة؛ كانت كنزاً من كنوز الجنة، وأوتتها النبي ﷺ من كنز تحت العرش، وكأن قاتلها أسلم واستسلم لمن أزمَّة الأمور بيديه، وفُوضَ إلىه.

وفي «المسند» و«السنن»<sup>(١)</sup> عن ابن الديلمي قال: أتيت أبي بن كعب فقلت: في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء لعل الله يذهبه من قلبي. فقال: إن الله لو عذَّب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم وكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أحد ذهبَا ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصييك، ولو مت على غير ذلك لكت من أهل النار. قال: فأتيت عبد الله بن مسعود، وحنيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت؛ فكل منهم حدثني بمثل ذلك عن رسول الله ﷺ.

وهذا الحديث حديث صحيح، رواه الحاكم في «صححه»، وله شأن عظيم، وهو دليل على أن من تكلم به أعرف الخلق بالله، وأعظمهم له توحيداً، وأكثرهم له تعظيمًا، وفيه الشفاء التام في باب العدل والتوحيد؛ فإنه لا يزال يجول في نفوس كثير من الناس كيف يجتمع القضاء والقدر، والأمر والنهي؟ وكيف يجتمع العدل والعقاب على المُقْضي المُقدَّر الذي لا بد للعبد من

---

(١) تقدم تخريرجه في (١٩٦).

فعله؟

ثم سلك كل طائفة في هذا المقام وادياً وطريقاً.

فسلكت الجبرية وادي الجَبْر وطريق المشيئه المحضة التي تُرجح مِثلاً على مِثل من غير اعتبار علة، ولا غاية، ولا حكمة.

قالوا: وكل ممکن عدل، والظلم هو الممتنع لذاته، فلو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لكان متصرفًا في ملکه، والظلم تصرف القادر في غير ملکه، وذلك مستحيل عليه سبحانه.

قالوا: ولما كان الأمر راجعاً إلى محض المشيئه لم تكن الأعمال سبباً للنجاة، فكانت رحمته للعباد هي المستقلة بنجاتهم لا أعمالهم، فكانت رحمته خيراً من أعمالهم، وهؤلاء رأعوا جانب المُلْك، وعطّلوا جانب الحمد، والله سبحانه له المُلْك وله الحمد.

وسلكت القدرة وادي العدل والحكمة، ولم يوفوه حقه، وعطّلوا جانب التوحيد والمُلْك، وحاروا في هذا الحديث، ولم يدرروا ما وجهه، وربما قابله كثير منهم بالتكذيب والردة له، وأن الرسول لم يقل ذلك.

قالوا: وأيُّ ظلم يكون أعظم من تعذيب من استنفذ أوقات عمره كلها، واستفرغ قواه في طاعته، وفعل ما يحبه، ولم يعصه طرفة عين، وكان يعمل بأمره دائمًا، فكيف يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه: إن تعذيب هذا يكون عدلاً لا ظلماً؟!

قالوا: ولا يقال: إن حَقَّه عليهم وما ينبغي له أعظم من طاعاتهم، فلا تنفع تلك الطاعات في مقابلة نعمه وحقوقه، فلو عذبهم لعذبهم بحقه عليهم؛ لأنهم

إذا فعلوا مقدورهم من طاعته لم يُكلّفوا بغيره، فكيف يُعذّبون على ترك ما لا قدرة لهم عليه، وهل ذلك إلا بمنزلة تعذيبهم على كونهم لم يخلقوا السماوات والأرض، ونحو ذلك مما لا يدخل تحت مقدورهم؟!

قالوا: فلا وجه لهذا الحديث إلا ردّه، أو تأويله وحمله على معنىٍ يصح، وهو أنه لو أراد تعذيبهم لجعلهم أمّة واحدة على الكفر، فلو عذّبهم في هذه الحال لكان غير ظالم لهم، وهو لم يقل: لو عذّبهم مع كونهم<sup>(١)</sup> مطيعين له، عابدين له؛ لعذّبهم وهو غير ظالم لهم، ثم أخبر أنه لو عمّهم بالرحمة وكانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم، ثم أخبر أنه لا يُقبل من العبد عملٌ حتى يؤمّن بالقدر، والقدر هو علم الله بالكائنات وحكمه فيها.

ووقفت طائفة أخرى في وادي الحيرة بين القدر والأمر، والشواب والعقارب، فتارة يغلب عليهم شهودُ القدر فيغيبون به عن الأمر، وتارة يغلب عليهم شهودُ الأمر فيغيبون به عن القدر، وتارة ييقون في حيرة وعمى.

وهذا كله إنما سببه الأصول الفاسدة، والقواعد الباطلة التي بنوا عليها، ولو جمعوا بين الملك والحمد، والربوبية والإلهية، والحكمة والقدرة، وأثبتوه الكمال المطلق، ووصفوه بالقدرة التامة الشاملة، والمشيئة العامة النافذة التي لا يوجد كائن إلا بعد وجودها، والحكمة البالغة التي ظهرت في كل موجود= لعلموا حقيقة الأمر، وزالت عنهم الحيرة، ودخلوا إلى الله سبحانه من باب أوسع من السماوات السبع، وعرفوا أنه لا يليق بكماله المقدس إلا ما أخبر به عن نفسه على ألسنة رسله، وأن ما خالقه ظنون كاذبة،

---

(١) من قوله: «فلو عذّبهم» إلى هنا ساقط من «د».

وأوهام باطلة، تولّدت من بين أفكار باطلة، وأراء مظلمة، فنقول وبالله التوفيق، وهو المستعان، وعليه التكلال، ولا حول ولا قوة إلا به:

الرب تبارك اسمه وتعالى بجده ولا إله غيره هو المنعم على الحقيقة  
بصنوف النعم التي لا يحصيها أهل سماواته وأرضه، فإيجادهم نعمة منه،  
وجعلهم أحياً ناطقين نعمة منه، وإعطاؤهم الأسماع والأبصار والعقول  
نعمه منه، وإدار الرزاق عليهم على اختلاف أنواعها وأصنافها نعمة منه،  
وتعريفهم نفسه بأسمائه وصفاته وأفعاله نعمة منه، وإجراء ذكره على ألسنتهم  
ومحبته ومعرفته على قلوبهم نعمة منه، وحفظهم بعد إيجادهم نعمة منه،  
وقيامه بصالحهم دقيقها وجليلها نعمة منه، وهدايتهم إلى أسباب  
مصالحهم ومعاشرهم نعمة منه. وذكر نعمه على سبيل التفصيل لا سبيل إليه،  
ولا قدرة للبشر عليه.

ويكفي أن النّفس من أدنى نعمه التي لا يكادون يعتذرون بها، وهو أربعة  
وعشرون ألف نفّس في كل يوم وليلة، فللّه على العبد في النّفس خاصة أربعة  
وعشرون ألف نعمة كل يوم وليلة، دع ما عدا ذلك من أصناف نعمه على  
العبد.

ولكل نعمة من هذه النعم حق من الشكر يستدعيه ويقتضيه، فإذا رُزّعَت  
طاعات العبد كلها على هذه النعم لم يُخُرُجْ في قسط<sup>(١)</sup> كل نعمة منها إلا  
جزءاً يسيراً جدًّا، لا نسبة له إلى قدر تلك النعمة بوجه من الوجوه.

قال أنس بن مالك: «يُنشر للعبد يوم القيمة ثلاثة دواوين: ديوان فيه

---

(١) «د»: «لم يخرج قسط».

ذنوبه، وديوان فيه النعم، وديوان فيه العمل الصالح، فيأمر الله تعالى أصغر نعمة من نعمه فتقوم فتستوعب عمله كلّه، ثم تقول: أي ربّ، وعزتك وجلالك ما استوفيت ثمني. وقد بقية الذنوب والنعيم؛ فإذا أراد الله بعد خيراً قال: ابن آدم، ضعفت حسناتك، وتجاوزت عن سيئاتك، ووهبت لك نعيمٍ فيما بيني وبينك»<sup>(١)</sup>.

وفي « صحيح الحاكم»<sup>(٢)</sup> حديث صاحب الرمانة الذي عَبَدَ الله خمسماة سنة، يأكل كل يوم رمانة تخرج له من شجرة، ثم يقوم إلى صلاته، فيسأل ربه وقت الأجل أن يقبضه ساجداً، وأن لا يجعل للأرض عليه سبيلاً حتى يبعث وهو ساجد، فإذا كان يوم القيمة وقف بين يديه ربّه، فيقول تعالى: أدخلوا عبدِي الجنة برحمتي. فيقول: يا ربّ، بل بعملي. فيقول: أدخلوا عبدِي الجنة برحمتي. فيقول: ربّ، بل بعملي. فيقول ربّ جل جلاله: قايسوا عبدِي بنعمتي عليه وبعمله. فتوجد نعمة البصر قد أحاطت بعبادة خمسماة سنة، وبقيت نعمة الجسد فضلاً عليه. فيقول: أدخلوا عبدِي النار. فيُجْرِي إِلَى النار، فينادي: ربّ، برحمتك، ربّ، برحمتك أدخلني الجنة. فيقول: رُدْوَه. فيوقف بين يديه، فيقول: يا عبدِي، من خلقك ولم تكن شيئاً؟ فيقول: أنت يا ربّ. فيقول: من قوّاك على عبادة خمسماة سنة؟ فيقول: أنت يا ربّ. فيقول: من أنزلك في جبل وسط اللّجّة؟ وأخرج لك الماء العذب من

(١) أخرجه البزار (٦٤٦٢)، والدينوري في «المجالسة» (١/٢٩١).

(٢) برقم (٧٦٣٧)، وأخرجه الخراططي في «فضيلة الشكر» (٥٩)، والعقيلي في «الضعفاء» (١٦٦/٢)، ومداره على سليمان بن هرم، قال العقيلي: «مجهول بنقل الحديث، وحديثه غير محفوظ»، وبه أعلى الحديث جماعة، انظر: «الميزان» (٢/٢٢٨).

الماء المالح؟ وأخرج لك كل يوم رمانة، وإنما تخرج مرة في السنة؟ وسألتني  
أن أقبضك ساجداً ففعلت ذلك بك. فيقول: أنت يا ربّ. فيقول الله: فذلك  
برحمتي، وبرحمتي أدخلك الجنة».

رواه من طريق يحيى بن بُكير، ثنا الليث بن سعد، عن سليمان بن هرم،  
عن محمد بن المنكدر، عن جابر عن النبي ﷺ، والإسناد صحيح، ومعناه  
صحيح لا ريب فيه.

فقد صحّ عنه ﷺ أنه قال: «لن ينجو أحدٌ منكم بعمله»، وفي لفظ: «لن  
يدخل أحد منكم الجنة بعمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا،  
إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»<sup>(١)</sup>.

فقد أخبر ﷺ أنه لا ينجي أحداً عملاً، لا من الأولين ولا من الآخرين،  
إلا أن يرحمه ربه تبارك وتعالى، فتكون رحمته له خيراً من عمله؛ لأن رحمته  
تنجيه، وعمله لا ينجيه، فعلم أنه سبحانه لو عذّب أهل سماواته وأرضه  
لعذّبهم ببعض حقه عليهم.

ومما يوضحه: أنه كلما كملت نعمة الله على العبد عظم حقه عليه،  
وكان ما يطالب به من الشكر أكثر مما يطالبه به مَنْ هو دونه، فيكون حق الله  
عليه أعظم، وأعماله لا تفي بحقه عليه، وهذا إنما يعرفه حق المعرفة مَنْ  
عرف الله وعرف نفسه.

هذا كله لو لم يحصل للعبد من الغفلة والإعراض والذنوب ما يكون في  
قبالة طاعاته، فكيف إذا حصل له من ذلك ما يوازي طاعاته أو يزيد عليها؟!

---

(١) تقدم تخریجه في (١٩٦).

فإن من حق الله على عبده أن يعبده لا يشرك به شيئاً، وأن يذكره ولا ينساه، وأن يشكره ولا يكفره، وأن يرضى به ربّاً، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا، وليس الرضا بذلك مجرد إطلاق هذا اللفظ، وحاله وإرادته تكذبه وتخالفه، فكيف يرضى به ربّاً مَنْ يتسرّط ما يقضيه له إذا لم يكن موافقاً لإرادته وهواء، فيظل ساخطاً به مُتبرّماً، يرضى وربه غضبان، ويغضب وربه راض، فهذا إنما رضي بحظه من ربّه حظًّا [من] لم يرض (١) بالله ربّاً.

وكيف يدعى الرضا بالإسلام دينًا مَنْ ينبذ أصوله خلف ظهره إذا خالفت بدعنته وهواء، وفروعه وراءه إذا لم توافق غرضه وشهوته؟!

وكيف يصح الرضا بمحمد رسولًا لمن لم يحكمه على ظاهره وباطنه، ويتلقّ أصول دينه وفروعه من مشكاته وحده؟!

وكيف يرضى به رسولًا من يترك ما جاء به لقول غيره، ولا يترك قول غيره لقوله، ولا يحكمه ويحتاج بقوله إلا إذا وافق تقليده ومذهبة، فإذا خالفه لم يلتفت إلى قوله؟!

والملخص أن من حقه سبحانه على كل أحد من عباده أن يرضى به ربّاً، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا، وأن يكون حبه كله لله، وبغضه في الله، وقوله لله، و فعله لله، وتركه لله، وأن يذكره ولا ينساه، ويطيعه ولا يعصيه، ويشكره ولا يكفره.

وإذا قام بذلك كله كانت نعم الله عليه أكثر من عمله، بل ذلك نفسه من

---

(١) في الأصول: «حظاً لم يرض»، ولا يستقيم، والمثبت مع ما زدته هو الصواب إن شاء الله.

نعم الله عليه، حيث وفقه له، ويُسره وأعانه عليه، وجعله من أهله، واختصه به على غيره، فهو يستدعي شكرًا آخر عليه، فلا سبيل له إلى القيام بما يجب لله من الشكر أبدًا، فنعم الله تطالبه بالشكر، وأعماله لا تقابلها، وذنبه وغفلته وتقصيره قد تستنفذ عمله. فديوان النعم وديوان الذنوب يستنفذان طاعاته كلها.

هذا وأعمال العبد مُستحقّة عليه بمقتضى كونه عبداً مملوّكاً مُستعملاً فيما يأمره به سيده، فنفسه مملوكة، وأعماله مُستحقّة بموجب العبودية، فليس له شيء من أعماله، كما أنه ليس له ذرة من نفسه، فلا هو مالك لنفسه ولا صفاته ولا أعماله ولا لما بيده من المال في الحقيقة، بل كل ذلك مملوك عليه، مُستحقّ عليه لمالكه، أعظم استحقاقاً من سيد اشتري عبداً بخالص ماله، ثم قال: أعمل، وأدّ إلى، فليس لك في نفسك ولا في كسبك شيء. فلو عمل هذا العبد من الأعمال ما عمل لرأي ذلك كله مُستحقّاً عليه لسيده، وحقّاً من حقوقه عليه.

فكيف بالمنعن الممالك على الحقيقة، الذي لا تُعدّ نعمه وحقوقه على عبده، ولا يمكن أن تقابلها طاعاته بوجه، فلو عذبه سبحانه لعذبه وهو غير ظالم له، وإذا رحمه فرحمته خير له من أعماله، ولا تكون أعماله ثمناً لرحمته البتّة.

فلولا فضل الله ورحمته ومغفرته ما هنا أحداً عيشُ البتة<sup>(١)</sup>، ولا عرف

(١) كذا في الأصول: «ما هنا أحداً عيش»، ولم يظهر لي وجهها، والأشبه: «ما هنا أحداً بعيش» ونحوها، يقال: هنأني الطعام تيسّر بلا مشقة، وهنأتُ الرجلَ أعطيته، وهنئتُ به إذا فرحت، وهنئتُ الرجلَ إذا أعطيته وسررته، انظر: «الأفعال» لابن القطاع

حالقه، ولا ذكره، ولا آمن به، ولا أطاعه، فكما أن وجود العبد محض جوده وفضله وممتهن عليه، وهو المحمود على إيجاده؛ فتتابع وجوده كلها كذلك، ليس للعبد منها شيء، كما ليس له في وجوده شيء، فالحمد كله لله، والفضل كله له، والإنعم كله له، والحق له على جميع خلقه.

ومن لم ينظر في حقه عليه، ويرى تقصيره وعجزه عن القيام به فهو من أجهل الخلق بربه وبنفسه، ولا تنفعه طاعاته، ولا يسمع دعاؤه.

قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا جرير بن حازم، عن وهب قال: بلغني أن نبي الله موسى عليه السلام مرّ برجل يدعو ويضرع، فقال: يا رب، ارحمه فإني قد رحمته. فأوحى الله تعالى إليه: لو دعاني حتى تقطع قواه<sup>(١)</sup> ما استجبت له حتى ينظر في حقي عليه<sup>(٢)</sup>.

والعبد يسير إلى الله سبحانه بين مشاهدة ممتهنه عليه ونعمه وحقوقه، وبين رؤية عيب نفسه وعمله وتغريبه وإضاعته، فهو يعلم أن ربّه لوعذبه أشد العذاب لكان قد عدل فيه، وأن أقضيته كلها عدل فيه، وأن ما هو فيه من الخير ف مجرد فضله وممتهنه وصدقته عليه، ولهذا كان في حديث سيد الاستغفار: «أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي»<sup>(٣)</sup>، فلا يرى نفسه إلا مقصرًا مذنبًا، ولا يرى ربّه إلا محسنًا متفضلًا.

---

= .(٣٦٠-٣٦١ / ٣)

(١) «ج»: «يتقطع فزاده»، والمثبت من النسخ الأخرى موافق لما في مصدر الخبر.

(٢) «الزهد» (٤٥١).

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٠٦) من حديث شداد بن أوس.

وقد قسم الله خلقه إلى قسمين لا ثالث لهما: تائبين وظالمين، فقال: **﴿وَمَنْ لَرَيْبَشْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾** [الحجرات: ١١]، وكذلك جعلهم قسمين: معدّين وتائبين، فمن لم يتوب فهو معدّ ولا بد، قال تعالى: **﴿لَيَعْزِيزَ اللَّهُ أَمْنَافِقِينَ وَالْمُسَفِّقَاتِ وَالْمُسَرِّكِينَ وَالْمُسَرِّكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾** [الأحزاب: ٧٣].

وأمرَ جميع المؤمنين من أولهم إلى آخرهم بالتوبة، فلا يُستثنى من ذلك أحد، وعلقَ فلا حهم بها، قال تعالى: **﴿وَتُوَبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** [النور: ٣١].

وعدد سبحانه من جملة نعمه على خير خلقه وأكرمه عليهم، وأطوعهم له، وأحساهم له، أن تاب عليه وعلى خواص أتباعه، فقال: **﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ آتَيْتَهُمْ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَانُوا يَذْرِفُونَ فُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾** [التوبه: ١١٧]، ثم كرر توبته عليهم، فقال: **﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ رَبُّهُمْ رَّؤُوفٌ رَّجِيمٌ﴾**. وقدّم توبته عليهم على توبية الثلاثة الذين خلفوا، وأخبر سبحانه أن الجنة التي وعدها أهلها في التوراة والإنجيل والقرآن إنما يدخلها التائبون، فذكر عموم التائبين أولاً، ثم خصّ النبي والمهاجرين والأنصار بها، ثم خصّ الثلاثة الذين خلفوا، فعلم بذلك احتياج جميع الخلق إلى توبته عليهم، ومغفرته لهم، وغفوه عنهم.

وقد قال تعالى لسيد ولد آدم، وأحب خلقه إليه: **﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾** [التوبه: ٤٣]، فهذا خبر منه سبحانه - وهو أصدق القائلين - أو دعاء لرسوله بعفوه عنه، وهو طلب من نفسه.

وكان عليه السلام يقول في سجوده - أقرب ما يكون من ربه -: «أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بعفوك من عقوتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أنتت على نفسك»<sup>(١)</sup>.

وقال لأطوع نساء الأمة وأفضلهن وخيرهن: الصديقة بنت الصديق، وقد قالت له: يا رسول الله، إن وافقت ليلة القدر فما أدعوه به؟ قال: «قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو، فاعف عنّي»<sup>(٢)</sup>، قال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح».

وهو سبحانه لمحبته للعفو وللتوبة خلق خلقه على صفات وهبات وأحوال تقتضي توبتهم إليه واستغفارهم، وعفوه ومغفرته<sup>(٣)</sup>، وقد روى مسلم في «صححه»<sup>(٤)</sup> من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله عليه السلام: «والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا بالذهب والفضة بكم، ولجاجء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم».

والله تعالى يحب التوابين، والتوبة من أحب الطاعات إليه، ويكتفي في محبتها شدة فرحة بها سبحانه كما في «صحح مسلم»<sup>(٥)</sup> عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله عليه السلام: «قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين

(١) أخرجه مسلم (٤٨٦) بنحوه من حديث عائشة.

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٣٨٤)، والترمذى (٣٥١٣)، والنمسائي في «الكبرى» (١٠٧٠٨)، وابن ماجه (٣٨٥٠).

(٣) «ط»: «وطلبهم عفوه ومغفرته».

(٤) برقم (٢٧٤٩).

(٥) برقم (٢٦٧٥).

يذكرني، والله، أفرح بتوبية عبده من أحدكم يجد ضالته في الغلاة».

وفي «الصحيحين»<sup>(١)</sup> من حديث عبد الله بن مسعود، عن رسول الله ﷺ: «الله أشد فرحاً بتوبية عبده المؤمن من رجل في أرض دويبة مهلكة، معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فنام، فاستيقظ وقد ذهب، فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى المكان الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت. فوضع رأسه على ساعد़ه ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته، عليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحاً بتوبية العبد المؤمن من هذا براحته وزاده».

وفي «صحيح مسلم»<sup>(٢)</sup> عن النعمان بن بشير يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «الله أشد فرحاً بتوبية عبده من رجل حمل زاده ومزاده على بعير، ثم سار حتى كان بفلاة من الأرض، فأدركته القائلة، فنزل فقال تحت شجرة، فغلبته عينه، وانسلَّ بعيره، فاستيقظ فسعى شرفاً<sup>(٣)</sup> فلم ير شيئاً، ثم سعى شرفاً ثانياً، فلم ير شيئاً، ثم سعى شرفاً ثالثاً، فلم ير شيئاً، فأقبل حتى أتى مكانها الذي قال فيه، فبينا هو قاعد فيه، إذ جاء بعيره يمشي حتى وضع خطامه في يده، فالله أشد فرحاً بتوبية العبد من هذا حين وجد بعيره على حاله».

فتتأمل محبتِه سبحانه لهذه الطاعة التي هي أصل الطاعات وأساسها، وإن من زعم أن أحداً من الناس يستغني عنها ولا حاجة به إليها فقد جهل حق الربوبية، ومرتبة العبودية، وينقص من أغناء بزعمه عن التوبة من حيث

(١) البخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤).

(٢) برقم (٢٧٤٥).

(٣) الشرف: المكان المرتفع من الأرض، أو مقدار من المسافة نحو شوط الخيل، أو الميل، واستظهر القاضي أولهما، «إكمال المعلم» (٨/ ٢٤٥).

زعم أنه مُعَظِّم له؛ إذ عطله عن هذه الطاعة العظيمة التي هي من أجل الطاعات، والقربة الشريفة التي هي من أجل القربات، وقال: لست من أهل هذه الطاعة، ولا حاجة بك إليها، فلا قدر الله حَقْ قدره، ولا قدر العبد حق قدره، وجعل بعض عباده غنياً عن مغفرة الله وعفوه وتوبته إليه، وزعم أنه لا يحتاج إلى ربه في ذلك.

وفي «الصحيحين»<sup>(١)</sup> من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «الله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها وقد يئس من راحلته، فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح».

وأكمل الخلق أكملهم توبة، وأكثرهم استغفاراً.

وفي «صحيح البخاري»<sup>(٢)</sup> عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والله، إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرّة».

ولما سمع أبو هريرة هذا من النبي ﷺ كان يقول - ما رواه الإمام أحمد في كتاب «الزهد»<sup>(٣)</sup>...<sup>(٤)</sup> عنه -: «إني لأستغفر الله في اليوم والليلة اثني عشر

(١) البخاري (٦٣٠٩)، ومسلم (٢٧٤٧) واللفظ له.

(٢) برقم (٦٣٠٧).

(٣) لم أقف عليه في مطبوعة الكتاب، وأورده في «إتحاف الخيرة» (٧٢٣٤)، وأخرجه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٤٧٦٢).

(٤) بياض في «د» (ج)، وعلق ناسخ الأخيرة: «بياض في الأصل المنسوق عنه».

ألف مرّة بقدر ديني»، ثم ساقه من طريق آخر، وقال: «بقدر دينه<sup>(١)</sup>».

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: <sup>(٢)</sup> ثنا يزيد بن هارون، أبنا محمد بن راشد، عن مكحول، عن رجل، عن أبي هريرة قال: ما جلست إلى أحد أكثر استغفاراً من رسول الله ﷺ.

قال الرجل: وما جلست إلى أحد أكثر استغفاراً من أبي هريرة<sup>(٣)</sup>.

وفي «صحيف مسلم» <sup>(٤)</sup> عن الأَغْرِ المُزَنَّى أن رسول الله ﷺ قال: «إنه ليغفان على قلبي، وإنما لاستغفر الله في اليوم مائة مرّة».

وفي السنن و«المسنن» <sup>(٥)</sup> من حديث ابن عمر، قال: كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرّة: «رب اغفر لي وتب علي، إنك أنت التواب الرحيم» قال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح».

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا يونس، عن حميد بن هلال، عن أبي بُرْدة قال: جلست إلى شيخ من أصحاب رسول الله ﷺ في مسجد الكوفة فحدثني، قال: سمعت رسول الله ﷺ، أو قال: قال رسول الله ﷺ: «يا

(١) «م» «ج»: «بقدر ذنبه» و«بقدر ذنبه» معجمة في الموضعين، وأهملهما في «د»، وتبأيت فيما مصادر الخبر المطبوعة، والمثبت من «ط» هو الأليق بالمعنى؛ فإن العدد المذكور هو مقدار الدية بالدرارهم في ذلك الزمان، والله أعلم.

(٢) في «الزهد»: «حدثنا أبي، حدثنا يزيد»، وعبد الله هو راوية الكتاب عن أبيه.

(٣) «الزهد» (٢١١).

(٤) تقدم تخریجه في (٣٠٩).

(٥) أبو داود (١٥١٦)، والترمذى (٣٤٣٤)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٢١٩)، وابن ماجه (٣٨١٤)، وأحمد (٤٧٢٦).

أيها الناس، توبوا إلى الله عز وجل واستغفروه، فإني أتوب إلى الله وأستغفره كل يوم مائة مرة»<sup>(١)</sup>.

قال الإمام أحمد: وحدثنا يحيى، عن شعبة، حدثنا عمرو بن مُرّة، قال: سمعت أبا بُرْدَةَ، قال: سمعت الأَغْرِيَ يحدث ابن عمر، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس، توبوا إلى ربكم عز وجل، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرّة»<sup>(٢)</sup>.

وقال أحمد: حدثنا يزيد، أبنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أبي عثمان النهدي، عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يقول: «اللهم اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أساءوا استغفروا»<sup>(٣)</sup>.

وكان من دعائه ﷺ في أول الصلاة عند الاستفتاح بعد التكبير: «اللهم أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سوء الأخلاق لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك، والخير في يديك، أنا بك وإليك، تبارك وتعالىت، أستغفرك وأتوب إليك» رواه مسلم في «صححه»<sup>(٤)</sup>.

(١) «المسنن» (٢٣٤٨٨)، وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٠٠٦١)، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) «المسنن» (١٧٨٤٧)، وهو عند مسلم (٢٧٠٢) من طريق شعبة به.

(٣) «المسنن» (٢٥١٢٠)، وأخرجه الطيالسي (١٦٣٧)، وابن ماجه (٣٨٢٠)، وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان ضعيف، كما في «الميزان» (٣/١٢٧).

(٤) برقم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب.

وفي «الصحيحين»<sup>(١)</sup> عنه أنه كان يقول في دعاء الاستفتاح: «اللهم باعد بيني وبين خطايدي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقني من الخطايا كما ينقى الشوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلني من خطايدي بالماء والثلج والبرد»، وكان يقول هذا سرّاً لم يعلم به أحدٌ من خلفه، حتى سأله عنه أبو هريرة.

وروى عنه علي بن أبي طالب أنه كان إذا استفتح الصلاة قال: «لا إله إلا أنت سبحانك، ظلمت نفسى، وعملت سوءاً، فاغفر لي إنك لا يغفر الذنوب إلا أنت»<sup>(٢)</sup>.

وفي «الصحيحين»<sup>(٣)</sup> أنه كان يقول في رکوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي».

وفي «صحیح مسلم»<sup>(٤)</sup> من حديث عبد الله بن أبي أوفى أنه عليه السلام كان إذا رفع رأسه من الرکوع، قال: «سمع الله لمن حمده، اللهم ربنا لك الحمد ملء السماوات، وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، اللهم طهري بالثلج

(١) البخاري (٧٤٤)، ومسلم (٥٩٨) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البيهقي في «الكبرى» (٢٣٤٦) من طريق شعبة، عن أبي إسحاق، عن الحارث الأعور، عن علي مرفوعاً، والحارث متهم، كما في «الميزان» (١/٤٣٥).

وأخرجه الشافعي في «الأم» (١٧٥/٧)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٤٢٠) من طرق صحيحة عن أبي إسحاق، عن أبي الخليل - وقيل: عبد الله بن أبي الخليل - عن علي موقوفاً عليه، قال البيهقي بعد أن حکى طريق الشافعي: «فإن كان محفوظاً فيحتمل أن يكون أبو إسحاق سمعه منهما»، يعني من الحارث وأبي الخليل.

(٣) البخاري (٧٩٤)، ومسلم (٤٨٤) من حديث عائشة.

(٤) برقم (٤٧٦).

والبرد والماء البارد، اللهم طهرني من الذنوب والخطايا كما يُنقى الثوب الأبيض من الوسخ».

وفي «صحيح مسلم»<sup>(١)</sup> من حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ كان يقول في سجوده: «اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجله، أوله وأخره، علانيته وسرّه».

وفي «مسند الإمام أحمد»<sup>(٢)</sup> أنه كان يقول في صلاته: «اللهم اغفر لي ذنبي، ووسع لي في ذاتي»<sup>(٣)</sup>، وبارك لي فيما رزقني».

وفي «صحيح مسلم»<sup>(٤)</sup> عن فروة بن نوفل، قال: قلت لعائشة: حدثني بشيء كان رسول الله ﷺ يدعو به في صلاته، قالت: نعم، كان يقول: «اللهم إني أُعوذ بك من شر ما عملت، ومن شر مالم أعمل».

وكان يقول بين السجدين: «اللهم اغفر لي، وارحمني، واجبرني، واهدي، وارزقني»<sup>(٥)</sup>.

---

(١) برقم (٤٨٣).

(٢) برقم (١٦٥٩٩) عن رجل من الصحابة لم يسم، وله شاهد من حديث أبي موسى، وأبي هريرة، انظر: «البدر المنير» (٢٧٨/٢).

(٣) كذا في الأصول: «ذاتي»، وكذلك هو في بعض نسخ «المسند» كما أشار إليه محققون، وفي بعضها: «داري»، وأشار إليها في حاشية: «ج».

(٤) برقم (٢٧١٦).

(٥) أخرجه أحمد (٣٥١٤)، وأبو داود (٨٥٠)، والترمذى (٢٨٤)، وابن ماجه (٨٩٨) من حديث عبد الله بن عباس، قال الترمذى: «هذا حديث غريب»، وصححه الحاكم (٩٦٤).

وكان يقول في قيامه إلى الصلاة بالليل: «اللهم لك الحمد» الحديث، وفيه: «فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت»<sup>(١)</sup>.

وكان يقول في آخر صلاته قبل التسليم: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت»<sup>(٢)</sup>، وما أسرفت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت»<sup>(٣)</sup>.

وفي «الصحيحين»<sup>(٤)</sup> عن أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ كان يدعو بهذا الدعاء: «اللهم اغفر لي خططي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قادر».

وحقيقة الأمر أن العبد فقير إلى الله من كل وجه، وبكل اعتبار، فهو فقير إليه من جهة ربوبيته له، وإحسانه إليه، وقيامه بمصالحه، وتدييره له. وفقير إليه من جهة إلهيته، وكونه معبوده وإلهه، ومحبوبه الأعظم الذي لا صلاح له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا بأن يكون أحبّ شيء إليه، فيكون أحبّ إليه من نفسه وأهله وماله وولده ووالده، ومن الخلق كلهم. وفقير إليه من جهة معافاته له من أنواع البلاء؛ فإنه إن لم يعاوه منها هلك ببعضها. وفقير إليه من جهة عفوه عنه، ومغفرته له؛ فإن لم يعف عن العبد، ويغفر له، فلا سبيل له إلى النجاة، فما نجا أحد إلا بعفو الله، ولا دخل الجنة إلا برحمته الله.

(١) أخرجه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩) من حديث عبد الله بن عباس.

(٢) من قوله: «وكان يقول في آخر صلاته» إلى هنا ساقط من «د».

(٣) أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب.

(٤) البخاري (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩).

وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ يُنْظَرُ إِلَى نَفْسِهِ مَا يُتَابُ مِنْهُ فِي رَاهِ نَقْصًا، وَلَا يُنْظَرُ إِلَى كَمَالِ الْغَايَةِ الْحَاصِلَةِ بِالتَّوْبَةِ، وَأَنَّ الْعَبْدَ بَعْدَ التَّوْبَةِ النَّصْوِحَ خَيْرٌ مِّنْهُ مَنْ قَبْلَ الذَّنْبِ. وَلَا يُنْظَرُ إِلَى كَمَالِ الرِّبُوبِيَّةِ وَتَفْرِدِ الرَّبِّ بِالْكَمَالِ وَحْدَهُ، وَأَنَّ لَوْازِمَ الْبَشَرِيَّةِ لَا يَنْفَكُ مِنْهَا الْبَشَرُ، وَأَنَّ التَّوْبَةَ غَايَةً كُلَّ أَحَدٍ مِّنْ وَلَدِ آدَمَ وَكُمَالِهِ، كَمَا كَانَتْ هِيَ غَايَةً وَكُمَالَهُ، فَلَيْسَ لِلْعَبْدِ كَمَالًا بَدْوَنَ التَّوْبَةِ الْبَتَّةِ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ انْفَكَاكًا عَنْ سَبِبِهَا.

فَاللَّهُ سَبَّحَانَهُ هُوَ الْمُنْفَرِدُ الْمُسْتَأْثِرُ بِالْغَنَىِ وَالْحَمْدُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وَبِكُلِّ اعتبارٍ، وَالْعَبْدُ هُوَ الْفَقِيرُ الْمُحْتَاجُ إِلَيْهِ، الْمُضْطَرُ إِلَيْهِ بِكُلِّ وَجْهٍ وَبِكُلِّ اعتبارٍ، فَرَحْمَتُهُ لِلْعَبْدِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ عَمَلِهِ؛ فَإِنَّ عَمَلَهُ لَا يَسْتَقْلُ بِنَجَاتِهِ وَلَا بِسُعَادِتِهِ، وَلَوْ  
وُكِلَ إِلَى عَمَلِهِ لَمْ يَنْجُ بِهِ الْبَتَّةِ.

فَهَذَا بَعْضُ مَا يَتَعَلَّقُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: «إِنَّ اللَّهَ لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لِعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ»<sup>(١)</sup>.

وَمَا يُوضِّحُهُ أَنَّ شَكْرَهُ سَبَّحَانَهُ مُسْتَحْقَّ عَلَيْهِمْ بِجَهَةِ رَبُوبِيَّتِهِ لَهُمْ، وَكَوْنِهِمْ عَبِيدَهُ وَمَمَالِيكَهُ، وَذَلِكَ يُوجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْرُفُوهُ وَيَعْظِمُوهُ وَيَوْحِدوهُ، وَيَتَقْرِبُوا إِلَيْهِ تَقْرِبُ الْعَبْدِ الْمُحِبِّ لِسَيِّدِهِ، الَّذِي يَتَقْلِبُ فِي نَعْمَهِ، وَلَا غَنَاءَ بِهِ عَنْهُ طَرْفَةُ عَيْنٍ، فَهُوَ يَدْأَبُ فِي التَّقْرِبِ إِلَيْهِ بِجَهَدِهِ، وَيَسْتَفْرِغُ فِي ذَلِكَ وَسَعْهِ وَطَاقَتِهِ، وَلَا يَعْدُلُ بِهِ سُوَاهُ فِي شَيْءٍ مِّنَ الْأَشْيَاءِ، وَيُؤْثِرُ رَضَا سَيِّدِهِ عَلَى إِرَادَتِهِ وَهُوَاهُ، بَلْ لَا هُوَ لَهُ وَلَا إِرَادَةٌ إِلَّا فِيمَا يَرِيدُهُ سَيِّدُهُ وَيَحْبُّهُ، وَهَذَا يَسْتَلِزمُ عِلْمًا وَأَعْمَالًا وَإِرَادَاتٍ وَعَزَائِمٍ لَا يَعْارِضُهَا غَيْرُهَا، وَلَا يَقْنِي لَهُ مَعْهَا

---

(١) تَقْدِمُ تَخْرِيجَهُ فِي (١٩٦).

التفات إلى غيره بوجهه، ومعلوم أن ما طبع عليه البشر لا يفي بذلك، وما يستحقه الرب جل جلاله لذاته، وأنه أهل أن يُعبد؛ أعظم مما يستحقه لإحسانه، فهو المستحق لنهاية العبادة والمحبة والخضوع والذل لذاته والإحسان وإنعامه.

وفي بعض الآثار: «لو لم أخلق جنةً ولا ناراً، أما كنتُ أهلاً أن أُعبد؟»<sup>(١)</sup>.

ولهذا يقول أَعْبُد خلقه له يوم القيمة - وهم الملائكة - : «سبحانك ما عبدناك حق عبادتك»<sup>(٢)</sup>.

فمن كرمه وجوده ورحمته أن رضي من عباده بدون يسير مما ينبغي أن يُعبد به ويستحقه لذاته وإحسانه، فلا نسبة للواقع منهم إلى ما يستحقه بوجه من الوجوه، فلا يسعهم إلا عفوه وتجاوزه، وهو سبحانه أعلم بعباده منهم بأنفسهم، فلو عذّبهم لعذّبهم بما يعلمه منهم وإن لم يحيطوا به علمًا، ولو عذّبهم قبل إرسال رسلي إليهم على أعمالهم لم يكن ظالماً لهم، كما أنه سبحانه لم يظلمهم بمقدته لهم قبل إرسال رسوله على كفرهم وشرکهم وقبائحهم، فإنه سبحانه نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقایا من أهل الكتاب، ولكن أوجب على نفسه إذ كتب عليها الرحمة أنه لا

(١) أورده في «قوت القلوب» (٢/٩٢) منسوباً إلى وهب بن منبه يحكى عن «الزبور».

(٢) روی هذا في غير ما حديث عن نفر من الصحابة مرفوعاً وموقاوفاً، أمثلها ما أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٥٧٣)، ويحيى بن سلام في «التفسير» (١/٣١٨) من حديث سلمان موقوفاً عليه، وروي مرفوعاً أيضاً، وصحح الوقف ابن رجب في «جامع العلوم» (٢/١٨).

يعدب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه برسالته.

وسر المسألة أنه لما كان شكر المنعم على قدره وعلى قدر نعمه، ولا يقوم بذلك أحد؛ كان حَقّه سبحانه على كل أحد، وله المطالبة به، فإن لم يغفر له ويرحمه وإلا عذبه، ف حاجتهم إلى مغفرته ورحمته وعفوه ك حاجتهم إلى حفظه وكلاءه ورزقه، فإن لم يحفظهم هلكوا، وإن لم يرزقهم هلكوا، وإن لم يغفر لهم ويرحمهم هلكوا وخسروا.

ولهذا قال أبوهم آدم عليه السلام وأمهم: «رَبَّنَا ظلَّتْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَعْفِرْ لَنَا وَتَرَحَّمْنَا الَّذِينَ كُونُنَا مِنَ الْخَيْرِينَ» [الأعراف: ٢٣]، وهذا شأن ولده من بعده.

وقد قال موسى كليمه سبحانه: «رَبِّ إِنِّي ظلمَتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي» [القصص: ١٦]، وقال: «سُبْبَحْنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنَّا أَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ» [الأعراف: ١٤٣]، وقال: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَادْخِنْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَإِنَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» [الأعراف: ١٥١]، وقال: «أَنَّتَ وَلِئِنْتَا فَاغْفِرْ لَنَا وَأَرْحَمْنَا وَإِنَّكَ خَيْرُ الْغَفِيرِينَ» [الأعراف: ١٥٥].

وقال خليله إبراهيم: «رَبِّ أَجْعَلْنِي مُقِيمَ الْصَّلَاةِ وَمِنْ دُرِّيْقَ رَبَّنَا وَقَبَّلَ دُعَائِهِ ⚫ رَبَّنَا أَغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ» [٤٠ - ٤١]، وقال: «وَالَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِنِي ⚫» إلى قوله: «وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الْلِّيْلِينَ» [الشعراء: ٧٨ - ٨٢].

وقال أول رسله إلى أهل الأرض: «رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْعَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَرَحَّمْنِي أَكُونُ مِنَ الْخَيْرِينَ» [هود: ٤٧].

وقال تعالى لأكرم خلقه عليه وأحبهم إليه: «وَأَسْتَغْفِرُ لِذَنْبِكَ وَلِمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ» [محمد: ١٩]، وقال: «إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحُقْقِ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَيْتَ اللَّهَ وَلَا تَكُنْ لِلْخَابِرِينَ حَصِيمًا» [٦٥] وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَّحِيمًا» [النساء: ١٠٦ - ١٠٥]، وقال: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ١ لِعَفْرَارَكَ اللَّهُ مَا لَقَدْمَ مِنْ ذَلِيلٍ وَمَا تَأْخَرَ وَيُتْسَمَّ بِعَمَّةٍ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صَرَاطًا مُّسْتَقِيمًا» [الفتح: ١ - ٢].

وقد تقدم حديث ابن عباس في دعائه ﷺ: «رب أعني ولا تعن عليّ» وفيه: «رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي» الحديث<sup>(١)</sup>.

وقد أخبر سبحانه عن عبد البشر داود أنه استغفر ربيه، وخر راكعاً وأناب، قال تعالى: «فَغَفَرْنَا لَهُ وَذَلِكُ ٢٥» [ص: ٢٥].

وقال عن نبيه سليمان: «وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَقْتَيْنَا عَلَى كُوسِيهِ جَسَدًا ثُرَّثَرَثَرَ أَنَابَ ٣٤ قَالَ رَبِّي أَعْقِلْنِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ٣٥ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَابُ» [ص: ٣٤ - ٣٥].

وقال عن نبيه يونس أنه ناداه في الظلمات: «أَنَّ لَآ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» [الأنياء: ٨٧].

وقال له صديق الأمة وخيراها وأبراها وأتقاها الله بعد رسوله: يا رسول الله، علمتني دعاء أدعوه في صلاتي. فقال: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك

(١) تقدم تخریجه في (١٩١).

أنت الغفور الرحيم»<sup>(١)</sup>، فاستفتح الخبر عن نفسه بأداة التوكيد التي تقتضي تقرير ما بعدها، ثم ثنى بالإخبار عن ظلمه لنفسه، ثم وصف ذلك الظلم بأنه ظلم كثير، ثم طلب من ربه أن يغفر له مغفرة من عنده، أي لا يبلغها عمله ولا سعيه، بل هي محض متنه وإحسانه، وأكبر من عمله، فإذا كان هذا شأن مَنْ وزِنَ بالأمة فرجح بهم؛ فكيف بمن دونه؟!

وأيضاً فإنّ حق الله على عبده أن يطاعه ولا يعصيه، ويذكره ولا ينساه، ويشكّره ولا يكفره، فتكون هذه حاله دائمًا لا يفتر عنها، ولا يفارقها طرفة عين، ولا نفسًا واحدًا، ومعلوم أن الغفلة والذهول والاستغال أحياناً بغير ذلك واقع ولا بدّ، وهو سبب التعذيب الذي هو الألم، وليس في الحديث أنه لو عذبهم في النار سرّمداً أبداً لكان غير ظالم لهم، والأعمّ لا يستلزم الأخضر، بل لو ألم من غفل عن ذكره وشكّره وعبادته، وأوصل إليه عذاباً بحسبه لكان غير ظالم له.

وعلى كل حال فكمال حقوقه على أهل السماوات والأرض يستلزم وجوب كمال عبوديته التي تقتضيها عظمة المنعم وكثرة نعمه ودوامها، وذلك غير مقدور، والمقدور منه لابد أن يعرض فيه من النقص ما يناسب نقص المخلوق، فلا يسعه إلا المغفرة والرحمة.



(١) أخرجه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥) من حديث أبي بكر الصديق.

## البَابُ السِّتِّيُّعُ عَشْرُهُ

في الْكَسْبِ وَالْجَنْبِ وَمَعْنَاهُمَا لِغَةُ وَاصْطِلَاحًا، وَإِطْلَاقُهُمَا نَفِيًّا وَإِثْبَاتًا،  
وَمَا دَلَّ عَلَيْهِ السَّمْعُ وَالْعُقْلُ مِنْ ذَلِكَ

أَمَا الْكَسْبُ فَأَصْلُهُ فِي الْلُّغَةِ: الْجَمْعُ، قَالَهُ الْجُوهُرِيُّ، قَالَ: «وَهُوَ طَلْبُ  
الرِّزْقِ»، يَقُولُ: كَسِبْتُ شَيْئًا وَأَكْتَسَبْتُ بِمَعْنَى، وَكَسِبْتُ أَهْلِيَّ خَيْرًا، وَكَسِبْتُ  
الرَّجُلَ مَالًا فَكَسَبَهُ، وَهَذَا مَا جَاءَ عَلَى فَعَلْتُهُ فَفَعَلَ، وَالْكَوَافِرُ: الْجَوَارِحُ،  
وَتَكَسُّبُ: تَكَلَّفَ الْكَسْبَ»<sup>(١)</sup>، اِنْتَهَى.

وَالْكَسْبُ قَدْ وَقَعَ فِي الْقُرْآنِ عَلَى ثَلَاثَةِ أُوْجَهٍ:

أَحَدُهَا: عَقْدُ الْقَلْبِ وَعَزْمُهُ، كَقُولُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ إِنَّمَا يُنَكِّرُ  
وَلَا يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبْتُمْ فَلَوْلَكُمْ﴾ [الْقَرْآنُ: ٢٢٥]، أَيْ: بِمَا عَزَّمْتُمْ عَلَيْهِ  
وَقَصَدْتُمُوهُ، وَقَالَ الرَّجَاجُ: «أَيْ: يُؤَاخِذُكُم بِعَزْمِكُمْ عَلَى أَنْ لَا تَبْرُوا، وَأَنْ لَا  
تَقْتُوا، وَأَنْ تَعْتَلُوا فِي ذَلِكَ بِأَنْكُمْ حَلْفَتُمْ»<sup>(٢)</sup>، وَكَأَنَّهُ التَّفَتَ إِلَيْهِ لِفَظُ الْمَوَاحِذَةِ،  
وَأَنَّهَا تَقْتَضِي تَعْذِيْبًا، فَجَعَلَ كَسْبَ قُلُوبِهِمْ عَزْمَهُمْ عَلَى تَرْكِ الْبَرِّ وَالتَّقْوَى  
لِمَكَانِ الْيَمِينِ<sup>(٣)</sup>.

وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَصْحَحُ، وَهُوَ قَوْلُ جَمِيعِ أَهْلِ التَّفْسِيرِ؛ فَإِنَّهُ قَابِلٌ بِهِ لِغَوِ  
الْيَمِينِ، وَهُوَ أَنْ لَا يَقْصِدِ الْيَمِينَ، فَكَسْبُ الْقَلْبِ الْمُقَابِلُ لِلْغَوِ الْيَمِينِ هُوَ

(١) «الصَّاحِحُ» (١/٢١٢).

(٢) «مَعْنَى الْقُرْآنِ وَإِعْرَابُهُ» (١/٢٩٩).

(٣) «د»: «النَّهَيُّ».

عقده وعزمها، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَكُنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَدَّتُمُ  
الْأَيَّمَنَ﴾ [المائدة: ٨٩]، فتعقيد الأيمان هو كسب القلب.

الوجه الثاني من الكسب: كسب المال من التجارة، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا  
الَّذِينَ أَمْتُوا أَنفُقُوا مِنْ طِبَّاتِ مَا كَسَبُوا وَمِمَّا لَخِجَّالَكُوْرُونَ أَرَضِ<sup>٣</sup>﴾ [القراءة:  
٢٦٧]، فال الأول للتجار، والثاني للزراع.

والوجه الثالث من الكسب: السعي والعمل، كقوله تعالى: ﴿لَا يَكِفُّ اللَّهُ  
نَفْسًا إِلَّا وَسَعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا أَكْسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قوله: ﴿إِنَّمَا  
كُنْتُ نُذَرَّ تَكَسِّبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٩]، قوله: ﴿وَذَكِيرَيْهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسُ  
إِنَّمَا كَسَبَتْ﴾ [الأنعام: ٧٠]، قوله: ﴿إِنَّمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمُ﴾ [الشورى: ٣٠]  
وهذا كله للعمل.

واختلف الناس في الكسب والاكتساب: هل هما بمعنى واحد، أم بينهما  
فرق؟

فقالت طائفه: معناهما واحد، قال أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي:  
«وهو الصحيح عند أهل اللغة، ولا فرق بينهما»<sup>(١)</sup>.

قال ذو الرئمة:

ألفي أبيه بذلك الكسب يكتب<sup>(٢)</sup>

(١) «البسيط» (٤/٥٣٣).

(٢) «الديوان» بشرح الباهلي (١/٩٩)، وصدر البيت:  
ومطعم الصيد هبّال لبغته

وقال آخرون: الاكتساب أخص من الْكَسْبِ، لأن الْكَسْبَ ينقسم إلى  
كسبه لنفسه ولغيره، ولا يقال: يكتسب أهله.

قال الحُطَيْثَةَ:

أَلْقَيْتَ كَاسِبِهِمْ فِي قَعْدِ مُظْلِمَةٍ فَاغْفِرْ هَذَاكَ مَلِيكُ النَّاسِ يَا عَمْرَ<sup>(۱)</sup>

قلت: والاكتساب افتعال، وهو يستدعي اهتماماً وتعتملاً واجتهاً، وأما  
الْكَسْبَ فتصبح نسبته بأدنى شيء، ففي جانب الفضل جعل لها ما لها فيه أدنى  
سعى، وفي جانب العدل لم يجعل عليها إلا ما لها فيه اجتها واهتمام.

وأما الجَبْرُ فيرجع في اللغة إلى ثلاثة أصول:

أحدها: أن تُغْنِي الرجل من فقر، أو تجبر عظمه من كسر، وهذا من  
الإصلاح<sup>(۲)</sup>، وهذا الأصل يستعمل لازماً ومتعدياً، تقول: جَبَرْتُ العَظَمَ،  
وجَبَرَ العَظَمُ، وقد جمع العَجَاج بينهما في قوله:

قد جَبَرَ الدِّينَ إِلَهُ فَجَبَرَ<sup>(۳)</sup>

الأصل الثاني: الإِكْرَاهُ والقَهْرُ، وأكثر ما يستعمل هذا على أفعَلَ، يقال:  
أجبرته على كذا، إذا أكرهته عليه، ولا يكاد يجيء: جبرته عليه؛ إلا قليلاً.

(۱) «ديوان الحطينة» برواية ابن السكikt وشرحه (۱۹۲)، وفيه:

غَيْتَ كَاسِبِهِمْ ..... فَاغْفِرْ عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ يَا عَمْرَ

واللفظ الذي ساقه المؤلف في «البسيط» للواحدي (۴/۵۳۴).

(۲) «د»: «الاصطلاح».

(۳) «الديوان» (۲۰۱)، من رجز في مدح عمر بن عبيد الله، وانظر: «الصحاح» (۶۰۷/۲).

والأصل الثالث: من العَز وامتناع، ومنه نخلة جَبَّارة، قال الجوهرى:  
«والجَبَّارُ من النخل: ما طال وفات اليد»<sup>(١)</sup>.

قال الأعشى:

طَرِيقٌ وَجَبَّارٌ رَوَاءُ أَصْوَلُهُ      عَلَيْهِ أَبَايْلُ مِن الطِيرِ تَنَعُّبُ<sup>(٢)</sup>

وقال الأخفش في قوله تعالى: «إِذْ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ» [المائدة: ٢٢]،  
قال: «أراد الطول والقوة والعظم»<sup>(٣)</sup>، ذهب في هذا إلى الجَبَّار من النخل،  
وهو الطويل الذي فات الأيدي. ويقال: رجل جَبَّار: إذا كان طويلاً عظيماً  
قوياً، تشبيهاً بالجَبَّار من النخل.

قال فتادة: «كانت لهم أجسام وخلق عجيبة ليست لغيرهم»<sup>(٤)</sup>.

وقيل: الجَبَّار ه هنا من جَبَرَه على الأمر، إذا أكرهه عليه، قال الأزهري:  
«وهي لغة معروفة، وكثير من الحجازيين يقولونها. وكان الشافعي يقول:  
جبَرَهُ السُلطان»<sup>(٥)</sup>.

ويجوز أن يكون الجَبَّار من أجبره على الأمر، إذا أكرهه.

قال الفراء: «لم أسمع فعالاً من أفعَلَ إِلَّا في حرفين، وهما: جَبَّار؛ من

(١) «الصحاح» (٦٠٨/٢).

(٢) «الديوان» (٢٠١)، من قصيدة في رثاء الحارث بن وَعْلة.

(٣) نسبة إليه في «البسيط» (٧/٣٢٤)، وحكاه في «تهذيب اللغة» (١١/٥٧) عن أبي  
الحسن اللحياني.

(٤) أنسنه الطبرى (٨/٢٩١).

(٥) «تهذيب اللغة» (١١/٦٠).

أَجْبَرَ، وَدَرَّاكٌ؛ مِنْ أَدْرَكَ»<sup>(١)</sup>.

وهذا اختيار الرَّجَاج، قال: «الْجَبَارُ مِنَ النَّاسِ: الْعَاقِيُّ الَّذِي يُجْبِرُ النَّاسَ عَلَىٰ مَا يَرِيدُ»<sup>(٢)</sup>.

وأما الجَبَارُ في أسماء الرب تعالى فقد فُسِّرَ بأنه الذي يُجْبِرُ الكسير، ويغْنِي الفقير، والرب تبارك وتعالى كذلك، ولكن ليس هذا معنى اسمه الجَبَارُ، وللهذا قرنه باسمه المتكبِّرُ، وإنما هو من الجبروت، وكان النبي ﷺ يقول: «سَبَّحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكَبْرَيَاءِ وَالْعَظَمَةِ»<sup>(٣)</sup>.

فالجَبَارُ اسْمٌ من أسماء التَّعْظِيمِ، كالمتكبِّرُ والملَكُ وَالْعَظِيمُ وَالْقَهَّارُ، قال ابن عباس في قوله تعالى: «أَلْجَبَارُ الْمُتَكَبِّرُ» [الحشر: ٢٣]: «هُوَ الْعَظِيمُ، وَجَبَرُوتُ اللَّهِ عَظَمَتِهِ»<sup>(٤)</sup>.

والجَبَارُ من أسماء الملوك، والجَبَرُ الْمَلِكُ، والجَبَرَةُ الْمُلُوكُ، قال الشاعر:

وَأَنْعَمْ صَبَاحًا أَيْهَا الْجَبَرُ<sup>(٥)</sup>

(١) بمعنىه في «معاني القرآن» (٣/٨١)، وانظر: «البسيط» (٢١/٣٩٧).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٢/١٦٣).

(٣) جزء من حديث أخرجه أحمد (٢٢٩٨٠)، وأبو داود (٨٧٣)، والنسائي (١٠٤٩) من حديث عوف بن مالك، وصححه التوسي في «الخلاصة» (١٢٥٤).

(٤) أورده الثعلبي في «الكشف والبيان» (٩/٢٨٧).

(٥) عجز بيت لعمرو بن أحمر الباهلي في «ديوانه» جمع عطوان (٩٤)، وصدره: وَاسْلَمْ بِرَأْوُقِ حُبِّيْتَ بِهِ وَهُوَ فِي «جمهرة اللغة» (١/٢٦٥) وغيرها.

أي: أيها الملك.

وقال السُّدِّي: «هو الذي يجبر الناس، ويقهرهم على ما يريد»<sup>(١)</sup>، وعلى هذا فالجبار معناه القهار.

قال محمد بن كعب: «إنما سمي الجبار لأنَّه جبر الخلق على ما أراد، والخلق أدق شأنًا من أن يعصوا ربَّهم طرفة عين إلا بمشيئته»<sup>(٢)</sup>.

قال الزَّجاج: «الجبار الذي جبر الخلق على ما أراد»<sup>(٣)</sup>.

وقال ابن الأَبْنَارِي: «الجبار في صفة الرب سبحانه الذي لا يُنال، ومنه قولهم: نخلة جَبَارة إذا فاتت يد المتناول»<sup>(٤)</sup>.

فالجَبَارُ في صفة الربِّ سبحانه وتعالى ترجع إلى ثلاثة معانٍ: الملك والقهر والعلو، فإن النخلة إذا طالت وارتقت وفاقت الأيدي سميت جَبَارة، ولهذا جعل سبحانه اسمه الجَبَار مقرورًا بالعزيز والمتكبر، وكل واحد من هذه الأسماء الثلاثة يتضمن الآخرين، وهذه الأسماء الثلاثة نظير الأسماء الثلاثة، وهي: الخالق الباري المصور، فالجبار المتكبر يجريان مجرى التفصيل لمعنى اسم العزيز، كما أن الباري المصور تفصيل لمعنى

(١) أورده الثعلبي في «الكشف والبيان» (٩/٢٨٧).

(٢) أنسد الجزء الأول منه سعيد بن منصور كما في «الدر المثبور» (١٤/٤٠١) – ومن طريقه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٤٨) –، وهو بتمامه في «الكشف والبيان» (٩/٢٨٨).

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٥/١٥١).

(٤) حكايه عنه في «تهذيب اللغة» (١١/٥٨).

اسم الخالق، فالجبار من أوصافه يرجع إلى كمال القدرة والعزة والملك، ولهذا كان من أسمائه الحسنة.

وأما المخلوق فاتصافه بالجبار ذم له ونقص، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ  
اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

وقال لرسوله: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِم بِجَبَارٍ﴾ [ق: ٤٥]، أي: مُسْلِطٌ<sup>(١)</sup> تفهُّمُهم  
وتكرهُهم على الإيمان.

وفي الترمذى وغيره<sup>(٢)</sup> عن النبي ﷺ: «يُحشِّرُ الْجَبَارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ النَّرْ يَطْؤُهُمُ النَّاسُ».

### فصل (٣)

إذا عُرِفَ هذا فلفظ الْكَسْبِ تطلقه القدرة على معنى، والجبرية على  
معنى، وأهل السنة والحديث على معنى.

فَكَسْبُ القدرة هو وقوع الفعل عندهم بإيجاد العبد وإحداثه ومشيئته،  
من غير أن يكون الله شاهد أو أوجده.

وَكَسْبُ الجبرية لفظ لا معنى له، ولا حاصل تحته، وقد اختلفت

(١) «م»: «مغلظ».

(٢) الترمذى (٢٤٩٢)، وأحمد (٦٦٧٧)، والنسائي في «الكبرى» (١١٨٢٧) من حديث  
عبد الله بن عمرو بلفظ: «يُحشِّرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ النَّرِ» الحديث، وحسن  
إسناده الترمذى، ولفظ المؤلف آخر جره ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول»  
(٢٢٤) من حديث أبي هريرة، وحسن إسناده العراقي في «تخيير الأحياء» (١٢٥١).

(٣) انظر: «شرح الإرشاد» نسخة أبي صوفيا (ق: ١٦٣-١٦١)، والمؤلف صادر عنه.

عياراتهم فيه، وضرروا به الأمثال، وأطالوا فيه المقال.

فقال القاضي: «الكَسْبُ مَا وُجِدَ وَعَلَيْهِ قَدْرَةٌ مُحْدَثَةٌ»<sup>(١)</sup>.

وقيل: إنه المتعلق بالقادر على غير جهة الحدوث.

وقيل: إنه المقدور بالقدرة الحادثة<sup>(٢)</sup>.

قالوا: ولسنا نريد بقولنا: «ما وُجِدَ وَعَلَيْهِ قَدْرَةٌ مُحْدَثَةٌ» أنها قدرة على وجوده؛ فإن القادر على وجوده هو الله وحده، وإنما يعني بذلك أن للكسب تعلقاً بالقدرة الحادثة، لا من باب الحدوث والوجود.

وقال الإسفرايني: «حقيقة الخلق من الخالق وقوعه بقدرته من حيث صحة انفراده به، وحقيقة الفعل وقوعه بقدرته، وحقيقة الكسب من المكتسب وقوعه بقدرته مع انفراده به<sup>(٣)</sup>، ويختص القديم تعالى بالخلق، ويشتراك القديم والمحدث في الفعل، ويختص المحدث بالكسب»<sup>(٤)</sup>.

قلت: مراده أن إطلاق لفظ الخلق لا يجوز إلا على الله وحده، وإطلاق لفظ الكسب يختص بالمحدث، وإطلاق لفظ الفعل يصح على الرب والعبد.

(١) نقله في «شرح الإرشاد» (ق ١٦١ / أ)، وفيه: «قدرة حادثة»، والقاضي هو ابن البارقياني، وانظر: «المعتمد في أصول الدين» (١٢٨).

(٢) انظر: «شرح الإرشاد» (ق ١٦١ / أ)، «نهاية الإقدام» (٧١).

(٣) كذا في الأصول الخطية ومصدر المؤلف: «مع انفراده به»، وفي «نهاية الإقدام» (٧٢): «مع تعدد انفراده به»، وهو الصواب.

(٤) حكاه في «شرح الإرشاد» (ق ١٦١ / أ)، «نهاية الإقدام» (٧٢).

وقال أيضًا: «كل فعل يقع على التعاون كان كسباً من المستعين»<sup>(١)</sup>.

قلت: يريد أن الخالق يستقل بالخلق والإيجاد، والكاسب إنما يقع منه الفعل على جهة المعاونة والمشاركة منه ومن غيره، لا يمكنه أن يستقل بإيجاد شيء البتة.

وقال آخرون: قدرة المُكتَسِب تتعلق بقدرته على وجه ما، وقدرة الخالق تتعلق به من جميع الوجوه.

قالوا: وليس كون الفعل كسباً من حفائمه التي تختصه، بل هو معنى طرأ عليه، كما يقول منازعونا من المعتزلة: إن هذه الحركة لطف، وهذا الفعل لطف، وصيغة «افعل» تصير أمراً بالإرادة، لا أنها حدثت بالإرادة، واعتقاد الشيء على ما هو به يصير علماً بسكن النفس إليه، لا أنه يحدث كذلك به، والأشياء قد تقرن في الوجود فتتغير أو صافها وأحكامها.

قالوا: فالحركة إذا صادفت المتحرّك بها على وجه مخصوص تسمى سباحة مثلاً، ولطاماً، ومشياً، ورقصًا.

وقال الأشعري وابن البارقي: الواقع بالقدرة الحادثة هو كون الفعل كسباً، دون كونه موجوداً، أو مُحدداً، فكونه كسباً وصف للوجود بمثابة كونه معلوماً<sup>(٢)</sup>.

ولنخص بعض متأخرיהם هذه العبارات بأن قال: الكسب عبارة عن

(١) نقله في «شرح الإرشاد» (ق ١٦١ / أ)، و«نهاية الإقدام» (٧٢).

(٢) بتصرف من «شرح الإرشاد» (ق ١٦١ / أ)، وانظر: «مقالات الإسلاميين» (٥٤٢)، «التمهيد» (٢٨٦)، «الإنصاف» (٤٣)، «المطالب العالية» (٩ / ١٠ - ٩).

الاقتران العادي بين القدرة المُحدَّثة والفعل، فإن الله سبحانه أجرى العادة بخلق الفعل عند قدرة العبد وإرادته لا بهما، فهذا الاقتران هو الكسب.

ولهذا قال كثير من العقلاة: إن هذا من محالات الكلام، وإن شقيق أحوال أبي هاشم، وطفرة النظام، والمعنى القائم بالنفس الذي يسميه القائلون به كلاماً، وهي من ذلك غير معقول ولا متصور.

والذي استقر عليه قول الأشعري: أن القدرة الحادثة لا تؤثر في مقدورها، ولم يقع المقدور ولا صفة من صفاته بها، بل المقدور بجميع صفاته واقع بالقدرة القديمة، ولا تأثير للقدرة الحادثة فيه. وتتابعه على ذلك عامة أصحابه.

والقاضي أبو بكر يوافقه مرّة، ومرّة يقول: القدرة الحادثة لا تؤثر في إثبات الذات وإحداثها، ولكنها تقتضي صفة للمقدور زائدة على ذاته تكون حالاً له.

ثم تارة يقول: تلك الصفة التي من أثر القدرة الحادثة مقدورة لله تعالى.

ولم يمنع من إثبات هذا المقدور بين قادرين على هذا الوجه.

وقد اضطررت آراء أتباع الأشعري في الكسب اضطراباً عظيمًا، واحتللت عباراتهم فيه اختلافاً كثيراً، وقد ذكره<sup>(١)</sup> كله أبو القاسم سليمان بن ناصر<sup>(٢)</sup>

---

(١) في جميع النسخ: «ذكر».

(٢) تحرّف اسمه في «د» و«م» إلى: «سليمان بن ماجه»، ووافقتهما «ج» في الأول منهما، والمثبت هو الصواب المشهور، وقد نص ابن الصلاح على فتح السين في «سلمان»، انظر: «المتخب من السياق» (٢٦٨)، «طبقات الشافعية» لابن الصلاح (٤٧٧ / ١).

الأنصاري في «شرح الإرشاد»، وذكر اختلاف طرائفهم وأضراراً بهم فيه، ثم قال<sup>(١)</sup>: وقد قال الأستاذ<sup>(٢)</sup> في «المختصر»: قول أهل الحق في الكسب لا يرجع إلى إثبات قدرة للعبد عليه<sup>(٣)</sup>، كما يقال: إنه معلوم له. إلا أن الإمام ادعى على الأستاذ أنه أثبت للقدرة الحادثة أثراً في الحدوث، فإنه لما نفى الأحوال وأثبتت للقدرة الحادثة أثراً فلا يعقل الجمع بينهما إلا أن يكون الأثر في الحدوث.

ثم ذكر لنفسه مذهبًا ذكره في الكتاب المترجم بـ«النظامية»<sup>(٤)</sup>، وانفرد به عن الأصحاب، وهو قريب من مذهب المعتزلة. والخلاف بينه وبينهم فيه في الاسم.

قال: وهذه العقدة التي تورط الأصحاب فيها في الكسب شبيهة بالعقدة التي وقعت للأئمة في القراءة والمقروء.

قال: وما ذكره الإمام في «النظامية» له وجه، غير أنه مما انفرد بإطلاقه، ولكل ناظر نظره، والله يرحمنا وإياكم.

قلت: الذي قاله الإمام في «النظامية» أقرب إلى الحق مما قاله الأشعري وابن البارقي ومن تابعهما، ونحن نذكر كلامه بلفظه.

قال: «وقد تقرر عند كل حافظ بعقله، متراجعاً عن مراتب التقليد في قواعد

---

(١) «شرح الإرشاد» نسخة أبي صوفيا (ق ١٦٣ / ب).

(٢) هو إبراهيم بن محمد أبو إسحاق الإسفلاني (٤١٨ هـ).

(٣) الجملة مثبتة في «شرح الإرشاد»: (قول أهل الحق في الكسب يرجع الخ).

(٤) «النظامية» (٤٥) وما بعدها.

التوحيد: أنَّ الرَّبَّ سُبْحَانَهُ مُطَالِبٌ عِبَادُهُ بِأَعْمَالِهِمْ فِي حَيَاةِهِمْ، وَدَاعِيهِمْ إِلَيْهَا، وَمُشَبِّهِمْ وَمُعَاكِبِهِمْ عَلَيْهَا فِي مَا كَفَرُوا، وَتَبَيَّنَ بِالنَّصوصِ الَّتِي لَا تُتَعَرَّضُ لِلتَّأْوِيلَاتِ أَنَّهُ أَقْدَرُهُمْ عَلَى الْوَفَاءِ بِمَا طَالَبُوهُمْ بِهِ، وَمُمْكِنُهُمْ مِنَ التَّوْصِلِ إِلَى امْتِشَالِ الْأَمْرِ، وَالْإِنْكَافَ عَنْ مَوْاقِعِ الزَّجْرِ، وَلَوْ ذَهَبَتْ أَتْلُو الْأَيَّ الْمُتَضَمِّنةُ لِهَذِهِ الْمَعْانِي لِطَالِ الْمَرَامِ، وَلَا حَاجَةٌ إِلَى ذَلِكَ مَعَ قَطْعِ الْلَّبِيبِ الْمُنْصِفِ بِهِ.

وَمِنْ نَظَرٍ فِي كُلِّيَاتِ الشَّرَائِعِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْاسْتِحْثَاثِ عَلَى الْمَكْرَمَاتِ، وَالْزَّوْاْجِرُ عَنِ الْفَوَاحِشِ الْمُوْبِقَاتِ، وَمَا نَيْطٌ بَعْضُهَا مِنَ الْحَدُودِ وَالْعَقُوبَاتِ، ثُمَّ تَلَفَّتَ عَلَى الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَمَا يَجْبُ عَقْدَهُ مِنْ تَصْدِيقِ الْمُرْسِلِينَ فِي الْإِنْبَاءِ عَمَّا يَتَوَجَّهُ عَلَى الْمَرْدَةِ الْعُتَّةِ مِنَ الْحِسَابِ وَالْعِقَابِ، وَسُوءِ الْمَنْقَلْبِ وَالْمَأَبِ، وَقَوْلِ اللَّهِ لَهُمْ: لَمْ تَعْدِيْتُمْ وَعَصَيْتُمْ وَأَبَيْتُمْ؟ وَقَدْ أَرْخَيْتُ لَكُمُ الطَّوْلَ، وَفَسَحْتُ لَكُمُ الْمُهَلَّ، وَأَرْسَلْتُ الرَّسُولَ، وَأَوْضَحْتُ الْمَحَاجَةَ «إِنَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ» [النَّسَاءِ: ١٦٥]، وَأَحْاطَ بِذَلِكَ كُلَّهُ<sup>(١)</sup>، ثُمَّ اسْتَرَابَ فِي أَنْ أَفْعَالِ الْعِبَادِ وَاقْعَةً عَلَى حَسْبِ إِيمَانِهِمْ وَإِخْتِيَارِهِمْ وَاقْتِدارِهِمْ = فَهُوَ مَصَابٌ فِي عَقْلِهِ، أَوْ مُسْتَقِرٌ فِي تَقْلِيدهِ، مَصَمَّمٌ عَلَى جَهْلِهِ، فَفِي الْمَصِيرِ إِلَى أَنَّهُ لَا أَثْرٌ لِقَدْرَةِ الْعَبْدِ فِي فَعْلِهِ قَطْعَ طَلَبَاتِ الشَّرَائِعِ، وَالتَّكْذِيبُ بِمَا جَاءَ بِهِ الْمُرْسِلُونَ.

فَإِنْ زَعَمْ مَنْ لَمْ يُوفَّقْ لِمَنْهِجِ الرِّشَادِ أَنَّهُ لَا أَثْرٌ لِقَدْرَةِ الْعَبْدِ فِي مَقْدُورِهِ

---

(١) جملة: «وَأَحْاطَ...» معطوفة على «وَمِنْ نَظَرٍ فِي كُلِّيَاتِ الشَّرِيعَةِ»، وفي مطبوعة «النظمية»: «فَمَنْ أَحْاطَ».

أصلًا، وإذا طولب بمتعلق طلب الله بفعل العبد<sup>(١)</sup> تحريرًا وفرضًا؛ ذهب في الجواب طولاً وعرضًا، وقال: الله أن يفعل ما يشاء، ولا يتعرض للاعتراض عليه المعترضون، ﴿لَا يَسْعُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ لَا يُعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

قيل له: ليس لما جئت به حاصل، كلمة حق أريد بها باطل، نعم، يفعل الله ما يشاء، ويحكم ما يريد، ولكن يتقدس عن الخلف ونقض الصدق.

وقد فهمنا بضرورات العقول، من الشعاع المنقول: أنه -عزّت قدرته - طالب عباده بما أخبر أنهم ممكّنون من الوفاء به، فلم يكلفهم إلا على مبلغ الطاقة والواسع في موارد الشرع، ومن زعم أنه لا أثر للقدرة الحادثة في مقدورها، كما لا أثر للعلم في معلومه، فوجه مطالبة العبد بأفعاله عنده كوجه مطالبته بأن يثبت في نفسه ألواناً وإدراكات، وهذا خروج عن حدّ الاعتدال، إلى التزام الباطل والمحال، وفيه إبطال الشرائع، وردّ ما جاء به النبيون عليهم الصلاة والسلام.

فإذا لزم المصير بأن القدرة الحادثة تؤثّر في مقدورها، واستحال إطلاق القول بأن العبد خالق أعماله؛ فإنّ فيه الخروج عما درج عليه سلف الأمة، واقتحام ورطات الضلال.

ولا سبيل إلى المصير إلى وقوع فعل العبد بقدرته الحادثة والقدرة القديمة؛ فإن الفعل الواحد يستحيل حدوثه بقادرين؛ إذ الواحد لا ينقسم، فإن وقع بقدرة الله استقل بها، ويسقط أثر القدرة الحادثة، ويستحيل أن يقع بعضه بقدرة الله تعالى؛ فإن الفعل الواحد لا بعض له.

---

(١) «د»: «ال فعل العبد».

وهذه مهواة لا يسلم من غوايتها إلا مُرشَدٌ موفقٌ، إذ المرء بين أن يدعى الاستبداد بالخلق<sup>(١)</sup>، وبين أن يُخرج نفسه عن كونه مطالبًا بالشرايع، وفيه إبطال دعوة المرسلين، وبين أن يثبت نفسه شريكةً لله تعالى في إيجاد الفعل الواحد، وهذه الأقسام بجملتها باطلة، ولا ينجي من هذا [البحر]<sup>(٢)</sup> المُلْطَطِم ذُكرُ اسمِ مختص ولقب مجرد من غير تحصيل معنى.

وذلك أن قائلًا لو قال: العبد مُكتَسِبٌ، وأثر قدرته الاكتساب، والرب تعالى مختار خالق لما العبد مُكتَسِبٌ له.

قيل له: فما الكَسْبُ، وما معناه؟ وأدبرت الأقسام المتقدمة على هذا القائل، فلا يجد عنه مهرباً<sup>(٣)</sup>.

ثم قال: «فنتقول: قدرة العبد مخلوقة الله تعالى باتفاق القائلين بالصانع، والفعل المقدور بالقدرة الحادثة واقع بها قطعاً، ولكنه مضاف إلى الله سبحانه تقديرًا وخلقًا، فإنه وقع بفعل الله وهو القدرة، [وليس القدرة]<sup>(٤)</sup> فعلاً للعبد، وإنما هي صفتة<sup>(٥)</sup>، وهي مُلك الله وَخَلْقُ لَه<sup>(٦)</sup>، فإذا كان مُوقع الفعل خَلْقاً لله؛ فالواقع به مضاف خلقاً إلى الله تعالى وتقديرًا. وقد مَلَكَ الله تعالى العبد اختياراً يُصْرِفُ به القدرة، فإذا أوقع بالقدرة شيئاً آكِ الواقع إلى

(١) «د»: «بالحق».

(٢) زيادة من مصدر النقل ساقطة من الأصول.

(٣) «النظمية» (٤٢-٤٥).

(٤) زيادة لازمة من «النظمية» (٤٧) ساقطة من الأصول.

(٥) «د»: «صنعته» دون إعجام، والمثبت من «ج» موافق للسياق ومصدر النقل.

(٦) «د»: «الله».

حكم الله من حيث إنه وقع بفعل الله.

ولو اهتدت إلى هذا الفرقا الضالة لم يكن بيننا وبينهم خلاف، ولكنهم أدعوا استباداً بالاحتراع، وانفراداً بالخلق والابداع، فضلوا وأضلوا.

ونبيّن تميّزنا عنهم بتفريح المذهبين: فإنما لما أضفنا فعل العبد إلى تقدير الإله قلنا: أحدهم الله تعالى القدرة في العبد على أقدار أحاط بها علمه، وهياً أسباب الفعل، وسلب العبد العلم بالتفاصيل، وأراد من العبد أن يفعل، فأحدث فيه دواعي مُستحبّة وخِيرَة وإرادة، وعلم أنَّ الأفعال ستقع على قدر معلوم، فوّقعت بالقدرة التي اخترعها للعبد على ما عالم وأراد، [وللعباد] اختيارهم<sup>(١)</sup> واتصافهم بالاقتدار، والقدرة خلق الله ابتداء، ومقدورها مضابط إلهية مشيئة وعلمًا وقضاء وخلقاً وفعلاً<sup>(٢)</sup> من حيث إنه نتاجة ما انفرد بخلقها وهو القدرة، ولو لم يرد وقوع مقدورها لما أقدرها عليه، ولما هيّأ أسباب وقوعه، ومن هُدِي لهذا استمرّ له الحق المبين.

فالعبد فاعل مختار مُطالب، مأموم منهي، وفعله تقدير الله، مراد له، خلق مُفضي.

ونحن نضرب في ذلك مثلاً شرعياً يستروح إليه الناظر في ذلك فنقول: العبد لا يملك أن يتصرف في مال سيده، ولو استبد بالتصريف فيه لم ينفذ تصرفه، فإذا أذن له في بيع ماله فباعه نفذ، والبيع في التحقيق معزوٌ إلى السيد

---

(١) في الأصول الخطية: «أراد، فاختيارهم...»، والمثبت من مصدر النقل، وبه يستقيم السياق.

(٢) بدلـه في «النظمـية»: «وبقاء».

من حيث إن سببه إذنه، ولو لا إذنه لم ينفذ التصرف، ولكن العبد يؤمر بالتصرف وينهى ويوبّخ على المخالفه ويعاقب، فهذا والله الحق الذي لا غطاء دونه، ولا مراء فيه لمن وعاه حق وعيه.

وأما الفرقه الضالة فإنهم اعتقدوا انفرد العبد بالخلق، ثم صاروا إلى أنه إذا عصى فقد انفرد بخلق فعله، والربُّ كاره له، فكان العبد على هذا الرأي الفاسد مزاحماً لربِّه في التدبير، موقعاً ما أراد إيقاعه شاء الربُّ أو كره.

فإن قيل: على ماذا تحملون آيات الطبع والختم والإضلال في القرآن، وهي متضمنة اضطرارَ الربِّ تعالى الأشقياء إلى ضلالتهم؟

قلنا: إذا أتاح الله حلّ هذا الإشكال، والجواب عن هذا السؤال، لم يبق على ذوي البصائر بعده غموض.

فنقول أولاً: من أنبأ الله سبحانه عن الطبع على قلوبهم كانوا مخاطبين بالإيمان، مطالبين بالإسلام، والتزام الأحكام؛ مطالبة تكليف ودعاء، مع وصفهم بالتمكن والاقتدار والإيثار، كما سبق تقريره.

ومن اعتقاد أنهم كانوا ممنوعين مأمورين، مصدودين قهراً مدعوين؛ فالتكليف عنده إذا بثابة ما لو شدَّ من الرجل يداه ورجلاه رباطاً، وألقي في البحر، ثم قيل له: لا تبتل!

وهذا أمر<sup>(1)</sup> لا يحمل شرائطَ الرسل عليه إلا عابثٌ بنفسه، مجرئ على ربِّه، ولا فرق عند هذا القائل بين أمر التسخير والتكونين في قوله: ﴿كُنْ فَاكُونُوا﴾

---

(1) موضعه في «النظمية»: «متنهى».

**قردَةَ حَسَعِينَ**» [البقرة: ٦٥]، قوله: **﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾** [يس: ٨٢] وبين أمر التكليف.

فإذا بطل ذلك فالوجه في الكلام على هذه الآية – وقد غوى في معانيها أكثر الفرق – أن نقول: إذا أراد الله بعده خيراً أكمل عقله، وأتم بصيرته، ثم صرف عنه العوائق والدوافع، وأزاح عنه الموانع، ووفق له قرناء الخير، وسهّل له سبله، وقطع عنه الملميات وأسباب الغفلات والذهول، وقيض له ما يقربه إلى القربات، فيوافيها ثم يعتادها، ويتمرّن عليها.

وإذا أراد بعده شرّاً قدر له ما يبعده عن الخير ويقصيه، وهيأ له أسباب تمادي في الغي، وحجب إليه التشوّف إلى الشهوات، وعرضه للآفات، وكلما غلت عليه دواعي النفس<sup>(١)</sup> خنست دواعي الخير، ثم يستمر على الشرور على مر الدهور، هاوياً في مهاويها، وتعاون علىه الوساوس ونزغات الشيطان، ونَزَقات النفس الأمارة بالسوء، فتنسج الغفلة على قلبه غشاوة بقضاء الله وقدره، فذلكم الطبع والختم والأكنة.

وأنا أضرب في ذلك مثلاً فأقول: لو فرضنا شاباً حديث العهد بحلمه، لم تهذّبه المذاهب، ولم تحنّكه التجارب، وهو على نهايته في غلّته وشهوته، وقد استمكّن من بُلْغَةٍ من الحُطّام، وُخُصّ بمسحةٍ من الجمال، ولم يقم عليه قوّام يزعه عن ورطات الردى، ويعنّه عن الارتباك في شبكات الهوى<sup>(٢)</sup>،

(١) في «النظمية»: «داعي الشر»، وهو الأليق بالسياق.

(٢) في «الصحاح» (٤/١٥٨٦): «ارتكب الرجل في الأمر، أي نشب فيه، ولم يكدر يتخلص منه».

ووافاه أخذان الفساد، وهو في غلواء شبابه، يحدث نفسه بالبقاء أبداً بعيداً،  
فما أقرب من هذا وصفه من خلع العِدَار، والبدار إلى شيء الأشرار، وهو مع  
ذلك كله مؤثراً مختاراً، ليس مجبراً على المعاصي والزلات، ولا مصدوداً عن  
الطاعات، ومعه من العقل ما يستوجب به اللائمة إذا عصى، فمن هذا سبileه  
لا يستحيل في العقل تكليفه؛ فإنه ليس ممنوعاً، ولكن إن سبق له من الله سوء  
القضاء فهو صائر إلى حكم الله الجزم وقضائه الفصل، محجوجاً بحججة الله،  
إلا أن يتغمده الله برحمته، وهو أرحم الراحمين.

وهذا الذي ذكرته بين في معاني الآيات، لا يتماري فيه موفق، قال الله  
تعالى: ﴿تُرْقَسْتَ قُلُوبَكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٧٤]، أراد أنهم استمرروا على  
المخالفات، وأصرروا بانتهاك الحرمات، فقصت قلوبهم.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَعْقَنَا أَفْلَهُ وَعَنْ ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨].

فقد جَمِعْتَ بين تفويض الأمور كلها - نفعها وضرها، خيرها وشرّها -  
إلى الإله جلت قدرته، وبين إثبات حقائق التكليف، وتقرير قواعد الشرع  
على الوجه المعقول، ألسنت في هذا أهدى سبيلاً، وأقوم قيلاً من يُقدّر الطبع  
منعًا، والختم صدًا ودفعًا، ثم ينفي التكاليف بزعمه.

وقد افترق الخلق في هذا المقام فرقاً، فذهب ذاهبون إلى أن المخدولين  
ممنوعون مدفوعون، لا اقتدار لهم على إجابة دعوة الحق، وهم مع ذلك  
ملزمون. وهذا خطب جسيم، وأمر عظيم، وهو طعن في الشرائع، وإبطال  
للدعوات، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ [الكهف: ٥٥]، وقال  
لأبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ [ص: ٧٥].

نعود بالله من سوء النظر، في موقع الخطر.

وذهب طوائف من الصُّلَال إلى أن العبد يعصي، والرب لِمَا يأْتِي به كاره، فهذا خَبْطٌ في الأحكام الإلهية، وزاحمة في الريوبية، ولو لم يردَ الربُّ من الفجّار ما علِمَهُ منهم في أزْلِهِ لما فطَرَهُم مع علمِهِ بهم، كَيْفَ وَقَدْ أَكْمَلَ قواهم، وأَمْدَهُمْ بِالْعَدْدِ وَالْعَدْدِ وَالْعَتَادِ، وَسَهَّلَ لَهُمْ طَرِيقَ الْخَيْرِ عَنِ السَّدَادِ.

فإن قيل: فَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ لِيُطِيعُوهُ؟

قلنا: أَتَى يَسْتَقِيمُ ذَلِكَ وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُمْ يَعْصُونَهُ، وَيَهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ، وَيَهْلِكُونَ أُولَىٰعَهُ وَأَنْبِيَاءَهُ، وَيَشْقَوْنَ شَقاوةً لَا يَسْعَدُونَ بَعْدَهَا أَبْدًا، وَلَوْ عَلِمَ سَيِّدُّنَا وَحْيَ أَوْ إِخْبَارَ نَبِيِّهِ أَنَّهُ لَوْ أَمْدَدَ عَبْدَهُ بِالْمَالِ لِطَغَىٰ وَأَبْقَى وَقَطَعَ الطَّرِيقَ؛ فَأَمْدَهُ بِالْمَالِ زَاعِمًا أَنَّهُ يَرِيدُ مِنْهُ ابْتِنَاءَ الْقَنَاطِيرَ وَالْمَسَاجِدَ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَقُولُ: أَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ قَطُّعًا = فَهَذَا السَّيِّدُ مَفْسُدٌ لِعَبْدِهِ، وَلَيْسَ مَصْلَحَّاهُ بِاتْفَاقٍ مِنْ أَرْيَابِ الْأَلْبَابِ.

فقد زاغت الفتتان، وضللت الفرقتان، واعتبرت إحداهما على القواعد الشرعية، وزاحت أخرى أحكام الريوبية، واقتصر الموقفون، فقالوا: مراد الله من عباده ما علِمَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ يَصِيرُونَ، ولَكُنَّهُ لَمْ يُسْلِبُهُمْ قُدرَهُمْ، ولم يمنعهم مراسدهم، فَقَرَّتِ الشَّرِيعَةُ فِي نَصَابِهَا، وَجَرَتِ الْعَقِيدَةُ فِي الأَحْكَامِ الإلهية على صوابها.

فإن قيل: كَيْفَ يَرِيدُ الْحَكِيمُ السَّفَهَ؟

فقد أوضحتنا أنَّ الْأَفْعَالَ مُتَسَاوِيَةٌ فِي حَقِّ مَنْ لَا يَتَفَعَّلُ وَلَا يَتَضَرَّرُ، وَلَكِنْ إِذَا أَخْبَرَ أَنَّهُ مَكْلُفٌ مُطَالِبٌ عَبَادَهُ، مُزِيْعٌ عَلَّهُمْ؛ فَقُولَهُ الْحَقُّ، وَكَلَامُهُ الصدق.

وأقرب أمر يعارضون به أن الحكم منا إذا رأى جواريه وعيشه يمرجع بعضهم في بعض، وهم على محارمهم بمرأى منه ومسمع، فلا يحسن تركهم على ما هم عليه، والرب تعالى يطلع على سوء أفعال العباد، ويستدرجهم من حيث لا يعلمون.

ثم قال: قد أطلت أنفاسي قليلاً، ولكن لو وجدت في اقباس هذا العلم من يسرد لي هذا الفصل لكان - وحق القائم على كل نفس بما كسبت - أحب إلى من ملك الدنيا بحذافيرها طول أمدها<sup>(١)</sup> انتهي كلامه بلفظه.

وهذا توسط حسن بين الفريقين، وقد أنكره عليه عامة أصحابه، منهم الأننصاري شارح «الإرشاد» وغيره، وقالوا: هو قريب من مذهب المعتزلة، ولا يرجع الخلاف بينه وبينهم إلا إلى الاسم فقط، وإن هذا مما انفرد به.

ولكن بقي عليه فيه أمور:

منها: أنه نفى كراهة الله لما قدره من المعاصي بناء على أصله أن كل مراد له فهو محبوب له، وأنه إذا كان قد قدر الكفر والفسق والعصيان فهو يريده ويحبّه ولا يكرهه، وإن كانت قدرة العبد و اختياره مؤثرة في إيجاد الفعل عنده بإقدار الرب تعالى.

وقد أصاب في هذا وأجاد، لكن القول بأن الله سبحانه يحب الكفر والفسق والعصيان ولا يكرهه إذا كان واقعاً = قول في غاية البطلان، وهو مخالف لصريح العقل والنقل.

---

(١) «النظمية» (٤٦-٥٤).

والذى قاده إلى ذلك قوله: إن المحبة هي الإرادة والمشيئة، وإن كل ما شاءه الله فقد أراده وأحبه. ومن لم يفرق بين المشيئة والمحبة لزمه أحد أمرين باطلين لا بد له من التزامه: إما القول بأن الله سبحانه يحب الكفر والفسق والعصيان، أو القول بأنه ما شاء ذلك ولا قدره ولا قضاه، وقد قال بكل من المتلازمين طائفه، قالت طائفه: لا يحبها ولا يرضها، فما شاءها ولا قضاها. وقالت طائفه: هي واقعة بمشيئته وإرادته، فهو يحبّها ويرضها. فاشترك الطائفتان في هذا الأصل، وتبأينا في لازمه.

وقد أنكر الله سبحانه على من احتج على محبته بمشيئته في ثلاثة مواضع من كتابه: في سورة الأنعام والنحل والزخرف، فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكَنَا وَلَاَءَابْتَأْنَا وَلَا حَرَمَنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَّالِكَ كَذَّابَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بِأَسْنَاقُهُمْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَبِعُونَ إِلَّا أَطْلَقْنَّ وَإِنْ أَنْشُرْ إِلَّا خَرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وكذلك حكم عنهم في النحل، ثم قال: ﴿كَذَّالِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا أَبْلَغُ الْمُسِينُ﴾ [النحل: ٣٥]، وقال في الزخرف: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدَهُمْ وَلَئِنْ كُنْتَ مِنْ عَلِيهِ مَنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠]، فاحتاجوا على محبته لشركهم ورضاه به بكونه أقربهم عليه، وأنه لو لا محبته له ورضاه به لما شاءه منهم، وعارضوا بذلك أمره ونفيه ودعوة الرسل، وقالوا: كيف يأمرنا بشيء قد شاءه منا خلافه؟ وكيف يكرهه منا ما قد شاء وقوعه؟ فلو كرهه لم يُمْكِنَّ منه، ولحال بيننا وبينه، فكثّبهم سبحانه في ذلك، وأخبر أن هذا تكذيب منهم لرسله، وأن رسله متفقون على أنه سبحانه يكره شركهم، ويبغضه ويمقته، وأنه لو لا بغضه وكراهته له لما أذاق المشركين بأمسه؛ فإنه لا يعذب عبده على ما يحبه.

ثم طالبهم بالعلم على صحة مذهبهم بأن الله أذن فيه، وأنه يحبه ويرضاه، ومجرد إقراره لهم قدرًا لا يدل على ذلك عند أحد من العقلاء، وإنما كان الظلم والفواحش والسعى في الأرض بالفساد والبغى محبوًا له مرضيًّا.

ثم أخبر سبحانه أن مستندهم في ذلك إنما هو الظن، وهو أكذب الحديث، وأنهم لذلك كانوا أهل الخرص والكذب.

ثم أخبر سبحانه أن له الحجة عليهم من جهتين:

إحداهما: ما رَكِبُوهُ فِيهِمْ مِنَ الْعُقُولِ الْيَتَمُّرُونَ بَيْنَ الْحَسَنِ وَالْقَبِيحِ،  
وَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ الَّتِي هِيَ آلَةُ إِدْرَاكِ الْحَقِّ، وَالَّتِي يُفَرِّقُ  
بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَاطِلِ.

والثانية: إرسال رسليه، وإنزال كتبه، وتمكينهم من الإيمان والإسلام.

ولم يؤخذهم بأحد الأمرين، بل بمجموعهما؛ لكمال عدله، وقطعاً لعدرهم من جميع الوجوه، ولذلك سُمِّي حجته عليهم بالغة، أي: قد بلغت غاية البيان وأقصاه، بحيث لم يبق معها مقال لقائل، ولا عذر لمعذر، ومن اعتذر إليه سبحانه بعد صريح قوله.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿فَوَّشَاءَ لَهُ دَلْكُ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وأنه لا يكون شيء إلا بمشيئته، وهذا من تمام حجته البالغة؛ فإنه إذا امتنع شيءٌ لعدم مشيئته، ولزمه وجوده عند مشيئته، فما شاءَ كَانَ، وما لم يشأْ لَمْ يَكُنْ؛ كان هذا من أعظم أدلة التوحيد، ومن أبين أدلة بطلان ما أنتم عليه من الشرك

واتخاذ الأنداد من دونه، فما<sup>(١)</sup> احتجيتم به من المشيئة على ما أنتم عليه من الشرك هو من أظهر الأدلة على بطلانه وفساده.

فلو أنهم ذكروا القدر والمشيئة توحيداً له، وافتقاراً والتجاء إليه، وبراءة من الحول والقوة إلا به، ورغبة إليه أن يقيلهم مما لو شاء أن لا يقع منهم لما وقع = لنفعهم ذلك، ولفتح لهم باب الهداية، ولكن ذكروه معارضين به أمره، وبطليين به دعوة الرسل، فما ازدادوا به إلا ضلالاً.

والملخص أنه سبحانه قد فرق بين محبته ومشيئته، وقد حكى أبو الحسن الأشعري في «مقالاته»<sup>(٢)</sup> اتفاق أهل السنة والحديث على ذلك، والذي حكى عنه ابن فورك في كتاب «تجريده لمقالاته» أنه كان لا يفرق بين ذلك، قال: «وكان لا يفرق بين الود والحب والإرادة والمشيئة والرضا، وكان لا يقول: إن شيئاً منها يخص بعض المرادات دون بعض، بل كان يقول: إن كل واحد منها بمعنى صاحبه على جهة التقييد الذي يزول معه الإيمان»<sup>(٣)</sup>، وهو أن المؤمن محبوب الله وأن يكون مؤمناً من أهل الخير كما علمه، والكافر أيضاً مراد أن يكون كافراً كما علمه من أهل الشر، ومحب أن يكون ذلك كذلك كما علم.

وكذلك كان يقول في الرضا والاصطفاء والاختيار، ويقيد اللفظ بذلك حتى لا يتوجه فيه الخطأ»<sup>(٤)</sup> انتهى.

(١) «م»: «مما»، وهي محتملة في «د».

(٢) «مقالات الإسلاميين» (٢٩٤).

(٣) «م»: «الإيمان»، وأعملت في «د»، والمثبت من مصدر القول، وسيأتي ما يعززه.

(٤) «مجرد مقالات الأشعري» (٥٢).

والذي عليه أهل الحديث والسنّة قاطبة، والفقهاء كلهم، وجمهور المتكلمين والصوفية: أنه سبحانه يكره بعض الأعيان والأفعال والصفات، وإن كانت واقعة بمشيئته، فهو يبغضها ويمقتها، كما يبغض ذات إبليس وذوات جنوده، ويبغض أعمالهم، ولا يحب ذلك، وإن وُجد بمشيئته، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وقال: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [القمان: ١٨]، وقال: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهَرُ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ [النساء: ١٤٨]، وقال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧]، وقال: ﴿إِنَّكُمْ تَكُفُّرُو أَفَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفَّارُ﴾ [الزمر: ٧]، فهذا إخبار عن عدم محبتة لهذه الأمور ورضاه بها بعد وقوعها.

فهذا صريح في إبطال قول من تأول هذه النصوص على أنه لا يحبها من لم تقع منه، ويحبها إذا وقعت، فهو يحبها ممن وقعت منه، ولا يحبها ممن لم تقع منه.

وهذا من أعظم الباطل والكذب على الله، بل هو سبحانه يكرهها ويبغضها قبل وقوعها، وحال وقوعها، وبعد وقوعها؛ فإنها قبائح وخبائث، والله منزه عن محبة القبيح والخبيث، بل هو أكره شيء إليه، قال تعالى: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئَةً عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨].

وقد أخبر سبحانه أنه يكره طاعات المنافقين، ولأجل ذلك ثبطهم عنها، فكيف يحب نفاقهم ويرضاه، ويكون أهل محبوبين له، مصطفين عنده مرضيin.

ومن هذا الأصل الباطل نشأ قولهم باستواء الأفعال بالنسبة إلى الرب سبحانه، وأنها لا تنقسم في نفسها إلى حسن وقبيح، فلا فرق بالنسبة إليه سبحانه بين الشكر والكفر.

وكذلك قالوا: لا يجب شكره على نعمه عقلًا.

فعن هذا الأصل قالوا: إن مشيئته هي عين محبته<sup>(١)</sup>، وإن كل ما شاءه فهو محبوب له، ومرضى له، ومصطفى ومحظى، فلم يمكنهم بعد تأصيل هذا الأصل أن يقولوا: إنه يبغض بعض الأعيان والأفعال التي خلقها، ويحب بعضها، بل كل ما فعله وخلقه فهو محبوب له، والمكره المبغوض مالم يشاء، ولم يخلقه.

وإنما أصلوا هذا الأصل محافظة منهم على القدر، فجذوا به على الشرع والقدر، والتزموا للأجله لوازمه شوشوا بها على القدر والحكمة، وكابروا لأجلها صريح العقل، وسووا بين أقبح القبائح وأحسن الحسنات في نفس الأمر، وقالوا: هما سواء، لا فرق بينهما إلا بمجرد الأمر والنهي. فالكذب - عندهم - والظلم والبغى والعدوان مساوٍ للصدق والعدل والإحسان في نفس الأمر، ليس في هذا ما يقتضي حُسْنَة، ولا في هذا ما يقتضي قُبْحَة.

وجعلوا هذا المذهب شعاراً لأهل السنة، والقول بخلافه قول أهل البدع من المعتزلة وغيرهم، ولعمر الله؛ إنه لمن أبطل الأقوال، وأشدّها منافاة للعقل والشرع، ولفطرة الله التي فطر عليها خلقه، وقد بتنا بطلانه من أكثر من خمسين وجهاً في كتاب «المفتاح»<sup>(٢)</sup>.

---

(١) «م»: «عين مشيئته» سبق قلم.

(٢) «مفتاح دار السعادة» (٢/١٠١٧-١١٣٥)، وعدّتها: واحد وستون وجهاً.

والمقصود: أنه لما انضم القول به إلى القول بأنه سبحانه لا يحب شيئاً ويبغض شيئاً، بل كل موجود فهو محبوب له، وكل معذوم فهو مكرور له، وانضم إلى هذين الأمرين إنكار الحكم والغايات المطلوبة في أفعاله سبحانه، وأنه لا يفعل شيئاً لشيء البتة، وانضم إلى ذلك إنكار الأسباب، وأنه لا يفعل شيئاً بشيء، وإنكار القوى والطبع والغائز، وأن تكون أسباباً أو يكون لها أثر = انسد عليهم باب الصواب في مسائل القدر، والتزموا بهذه الأصول الباطلة لوازماً هي أظهر بطلاناً وفساداً، وهي من أدلى شيئاً على فساد هذه الأصول وبطلاتها؛ فإن فساد اللازم من فساد ملزومه.

فإن قيل: الكراهة والمحبة ترجع إلى المنافة والملاعنة للطبع، وذلك محال في حق من لا يوصف بطبع ولا ملاعنة ولا منافرة!

قيل: قد دلت النصوص التي لا تُدفع على وصفه تعالى بالمحبة والكراهة، فنفيكم حقائق ما دلت عليه بالتعبير عنها بملاءمة الطبع ومنافرته باطل.

وهو كنفي كل مبطل حقائق أسمائه وصفاته بالتعبير عنها بعبارات اصطلاحية، توصل بها إلى نفي ما وصف به نفسه، كتسمية الجهمية المعطلة صفاته تعالى: أعراضًا، ثم توصلوا بهذه التسمية إلى نفيها.

وسمو أفعاله القائمة به: حوادث، ثم توصلوا بهذه التسمية إلى نفيها، وقالوا: لا تحله الحوادث، كما قالت المعطلة: لا تقوم به الأعراض.

وسمو علوه على خلقه واستواءه على عرشه، وكونه قاهراً فوق عباده: تحيزاً وتجسيماً، ثم توصلوا بنفي ذلك إلى نفي علوه على خلقه، واستواءه على عرشه.

وسموا ما أخبر به عن نفسه من الوجه واليدين والأصبع: جوارح وأعضاء، ثم نفوا ما أثبته لنفسه بتسميتهم له بغير تلك الأسماء، ﴿إِنَّ هَذِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ أَبْأَبٌ كُلُّ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَنٍ إِنْ يَتَّسِعُنَ إِلَّا الظُّلَمَّ وَمَا نَهَىٰ إِلَّا نَفْسٌ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ٢٣].

فتوصلوا بالتجسيم والتشبيه والتركيب والحوادث والأعراض والتحيز إلى تعطيل صفات كماله، ونحوت جلاله، وأفعاله، وأخلوا تلك الأسماء من معانيها، وعطلوها من حقيقتها.

فيقال لمن نفى محبته وكراهته لاستلزم امهما ميل الطبع ونفرته: ما الفرق بينك وبين من نفى كونه مريداً لاستلزم الإرادة حركة النفس إلى جلب ما ينفعها، ودفع ما يضرها؟ ونفى سمعه وبصره لاستلزم ذلك تأثير السمع والبصر<sup>(١)</sup> بالسمسم والمبصر، وانطباع صورة المرئي في الرائي، وحمل الهواء الصوت المسموع إلى أذن السامع؟ ومن نفى علمه لاستلزم اهتمامه انطباع صورة المعلوم في النفس الناطقة؟ ونفى غضبه ورضاه لاستلزم ذلك حرفة القلب وانفعاله بما يرد عليه من المؤلم والساير؟ ونفى كلامه لاستلزم الكلام محلًا يقوم به، ويظهر منه: من شفة ولسان ولهوات؟

ولتألم يمكن<sup>(٢)</sup> أحدًا أقرّ بوجود رب العالمين طردد ذلك وقع في التناقض ولا بدّ؛ فإنه أي شيء أثبته لزمه فيه ما التزم، كمن<sup>(٣)</sup> أثبت ما نفاه هو من غير فرق البتة.

(١) «م»: «السمسم البصير».

(٢) «م»: «يكن».

(٣) «م»: «المن».

ولهذا لما تفطن بعض المعطلة لذلك طرَّدَ هذا الأصل، وقال: لا أثبت شيئاً البتة.

ولهذا قال الإمام أحمد وغيره من أئمة السنة: لا نزيل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة المشنعين<sup>(١)</sup>.

والمقصود أنا لا نجحد محبته سبحانه لما يحبه<sup>(٢)</sup>، وكراحته لما يكرهه لتسمية النفا لذلك ملاعنة ومنافرة.

ويينبغي التفطن لهذا الموضع؛ فإنه من أعظم أصول الضلال، فلا نسمى العرش حِيّزاً، ولا نسمى الاستواء تحِيّزاً، ولا نسمى الصفات أعراضاً، ولا الأفعال حوادث، ولا الوجه واليدين والأصابع جوارح وأعضاء، ولا إثبات صفات كماله التي وصف بها نفسه، ووصفه بها رسالته: تجسيماً وتشبيهاً، فنجني جنائيتين عظيمتين: جنائية على اللفظ، وجنائية على المعنى، فنبذل الاسم، ونعطي معناه. ونظير هذا تسمية خلقه سبحانه لأفعال عباده وقضائه السابق: جَبْراً.

ولذلك أنكر أئمة السنة كالأوزاعي، وسفيان الثوري، وعبد الرحمن بن مهدي، والإمام أحمد وغيرهم هذا اللفظ<sup>(٣)</sup>.

---

(١) أسنده غلام الخلال في «السنة - زاد المسافر» (١/٣٠٣)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٧/٣٢٦)، وانظر: «إبطال التأويلات» (٢٩٧).

(٢) «م»: «محبته سبحانه طاعتَه».

(٣) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٨/٣٢٢-٣٢٦) (٨/١٣٣-١٣٤).

قال الأوزاعي، والزبيدي<sup>(١)</sup>: ليس في الكتاب والسنة لفظ «جَبْر»، وإنما جاءت السنة بلفظ «الجَبْل»<sup>(٢)</sup>. كما في الصحيح<sup>(٣)</sup> أن النبي ﷺ قال لأشج عبد القيس: «إن فيك خُلُقين يحبهما الله: الحلم والأناة»، فقال: أخُلُقين تخلّقت بهما، أم جُبِلت عليهما؟ فقال: «بل جُبِلت عليهما»، فقال: الحمد لله الذي جبّني على ما يحب.

فأخبر النبي ﷺ أن الله جَبَّه على الحلم والأناة وهم من الأفعال الاختيارية، وإن كانوا خُلُقين قائمين بالعبد<sup>(٤)</sup>، فإن من الأخلاق ما هو كَسْبِي، ومنها ما لا يدخل تحت الكَسْب، والنوعان قد جَبَلَ الله العبد عليهما، وهو سبحانه يحب ما جَبَلَ عبده عليه من محسنات الأخلاق، ويكره ما جَبَلَه عليه من مساوئها، فكلاهما بِجَبْلِه، وهذا محبوب له، وهذا مكرره، كما أن جبريل صلوات الله وسلامه عليه مخلوق له، وإبليس عليه لعائن الله مخلوق له، وجبريل محبوب له مصطفى عنده، وإبليس أبغض خلقه إليه.

ومما يوضح ذلك أن لفظ الجَبْر لفظ مجمل، فإنه يقال: أَجْبَرَ الْأَبُ<sup>(٥)</sup>

(١) محمد بن الوليد أبو الهذيل الحمصي صاحب الزهرى (١٤٨ هـ)، «تاريخ الإسلام» (٩٧٥ / ٣).

(٢) أسنده الخلال في «السنة» (٥٥٥ / ٣)، ونص عبارة الزبيدي: «أمر الله أعظم، وقدرته أعظم من أن يجبر أو يعطل، ولكن يقضى ويقدر ويخلق ويجلب عبده على ما أحبه»، وانظر: «درء التعارض» (٦٦ / ١).

(٣) «صحيح مسلم» (١٨) من حديث أبي سعيد الخدري وليس فيه موضع الشاهد، وهو عند أبي داود (٥٢٥) من حديث زارع، وله عدة شواهد.

(٤) «م»: «قائمين فانهن بالعبد» دون إعجام.

(٥) «م»: «جَبَرَ الْأَبُ»، وجَبَر لغة فصيحة في أجبر، كما في «الأفعال» لابن القطاع (٢٥٧ / ١).

ابته على النكاح، وجبر الحاكم الرجل على البيع، ومعنى هذا الجبر: أكرهه عليه، ليس معناه أنه جعله محبًا لذلك، راضياً به، مختارًا له، والله تعالى إذا خلق فعل العبد جعله محبًا له، مختارًا لإيقاعه، راضياً به، كارهًا لعدمه، فإطلاق لفظ «الجبر» على ذلك فاسد لفظًا ومعنى؛ فإن الله سبحانه أجل وأعدل<sup>(١)</sup> من أن يجبر عبده بذلك المعنى، وإنما يجبر العاجز عن أن يجعل غيره فاعلًا بآرادته ومحبته ورضاه. وأمامَنْ جَعَلَ الْعَبْدَ<sup>(٢)</sup> مريداً محبًا مؤثراً لما يفعله، فكيف يقال: إنه جبره عليه؟!

فهو سبحانه أجل وأعظم وأقدر من أن يجبر عبده، ويكرهه على فعل ما يشاؤه منه، بل إذا شاء من عبده أن يفعل فعالًا جعله قادرًا عليه، مريداً له، محبًا مختارًا لإيقاعه، وهو أيضًا قادر على أن يجعله فاعلًا له باختياره مع كراهته له، وبغضه وتفرته عنه.

وكل ما يقع من العباد بآراداتهم ومشيئاتهم فهو سبحانه الذي جعلهم فاعلين له، سواء أحبوه، أو أبغضوه وكرهوه، وهو سبحانه لم يجبرهم في النوعين، كما يجبر غيره من لا يقدر على جعله فاعلًا بآرادته ومشيئته.

نعم، نحن لا ننكر استعمال لفظ «الجبر» فيما هو أعمّ من ذلك، بحيث يتناول من قهر غيره، وقدر على جعله فاعلًا لما يشاء فعله، وتاركًا لما لا يشاء فعله؛ فإنه سبحانه المحدث لإرادته له، وقدرته عليه، كما قال محمد بن كعب القرظي في اسم «الجيّار» سبحانه: «هو الذي جبر العباد على

---

(١) «د»: «أعز».

(٢) «د»: « فعل العبد».

ما أراد»<sup>(١)</sup>.

وفي الدعاء المعروف عن علي رضي الله عنه: «اللهم داحي المذحوات، وباري المسموّات، جبار القلوب على فطراتها شقيها وسعیدها»<sup>(٢)</sup>.

فالجبر بهذا الاعتبار معناه القدرة والقدرة، وأنه سبحانه قادر على أن يفعل بعده ما شاء، وإذا شاء منه شيئاً وقع ولا بد، وإن لم يشاء لم يكن، ليس كالعجز الذي يشاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشاء، والفرق بين هذا الجبر وجبر المخلوق لغيره من وجوه:

أحدها: أن المخلوق لا قدرة له على جعل الغير مريداً للفعل، محبّاً له، والربّ تعالى قادر على جعل عبده كذلك.

الثاني: أن المخلوق قد يجبر غيره إجباراً يكون به ظالماً له، معتدياً عليه، والربّ تعالى أعدل من ذلك؛ فإنه لا يظلم أحداً من خلقه، بل مشيّته نافذة فيهم بالعدل والإحسان، بل عدله فيهم من إحسانه إليهم، كما سنبينه إن شاء الله.

الثالث: أن المخلوق يكون في جبره لغيره سفيهاً أو عابشاً أو جاهلاً، والربّ تعالى إذا جعل عبده على أمر من الأمور كان له في ذلك من الحكمة والعدل والإحسان والرحمة ما هو محمود عليه بجميع وجوه الحمد.

الرابع: أن المخلوق يجبر غيره لحاجته إلى ما جبره عليه، ولا تفاعله

---

(١) تقدم توثيقه (٣٩٦/١).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠١٣٤)، وابن أبي عاصم في «الصلة على النبي ﷺ» (٢٣).

بذلك، وهذا لأنَّه فقير بالذات، وأما الرَّبُّ تَعَالَى فهو الغني بذاته، الذي كلَّ ما سواه محتاجٌ إليه، وليس به حاجةٌ إلى أحدٍ.

الخامس: أنَّ المخلوق يجبر غيرَه لنقصِه، فيجبره ليحصل له الكمال بما أجربه عليه، والرَّبُّ تَعَالَى له الكمال المطلق من جميعِ الوجه، وكماله من لوازِم ذاتِه لم يستفده من خلقِه، بل هو الذي أعطاهم من الكمال ما يليق بهم، فالمخلوق يجبر غيرَه ليتكمَّل نقصِه به، والرَّبُّ تَعَالَى منزَّه عن كلِّ نقصٍ وعيوب، فكماله المقدَّس ينفي الجَبْر.

السادس: أنَّ المخلوق يجبر غيرَه علىِ فعلٍ يعينه به علىِ غرضِه؛ لعجزه عن التوصل إلىِه إلا بمعاونته له، فصار الفعل منْ هذا، والإكراه والقهر منْ هذا؛ محضًا لغرضِ المُكْرِه، كما أنَّ المعين<sup>(١)</sup> لغيرِه باختيارِ شريكِ له في الفعل، والرَّبُّ تَعَالَى غنيًّا عمَّا سواه بكلِّ وجه، فيستحيل في حقِّه الجَبْر.

السابع: أنَّ المجبور علىِ فعلِ ما لا يريد فعله يجد من نفسه فرقًا ضروريًا بينَ ما يريد فعله باختيارِه ومحبته، فالتسوية بين الأمرين تسوية بين ما عُلِّم بالحسن والاضطرار الفرقُ بينهما، وهو كالتسوية بين حركة المُرْتَعِش وحركة الكاتب، وهذا منْ أبطل الباطل.

الثامن: أنَّ الله سبحانه قد فطر العباد علىِ أنَّ المجبور المُكْرِه علىِ الفعل معذورٌ لا يستحقُ الذم والعقوبة، ويقولون: قد أُكْرِه علىِ كذا، وجَبَرَه عليه السلطان. وكما أنهم مفطوروون علىِ هذا فهم مفطوروون أيضًا علىِ ذمِّ من فعل القبائح باختيارِه وإرادته، وعَدَم عذرِه، ولا يقولون: هو معذور، ولا

---

(١) «د»: «الغني».

فاعل بغير اختياره<sup>(١)</sup>، وشريعته سبحانه موافقة لفطرته في ذلك، فمن سُوى بين الأمرين فقد خرج عن موجب الشرع والعقل والفطرة.

الناسع: أنَّ من أمر غيره بمصلحة المأمور وما هو محتاج إليه، ولا سعادة له، ولا فلاح إلا به؛ لا يقال: جبره على ذلك. وإنما يقال: نصحه وأرشده، ونفعه وهداه، ونحو ذلك. وقد لا يختار المأمور المنهيُّ بذلك، فيجبره الناصحُ له على ذلك مَنْ لَهُ ولَاية الإجبار، وهذا جبر بحق، وهو جائز، بل واقع في شرع الربِّ وقدره وحكمته ورحمته وإحسانه، لا نمنع هذا الجبر.

العاشر: أنَّ الربَّ تعالى ليس كمثله شيءٌ في ذاته، ولا في صفاتِه، ولا في أفعاله، فجعله العبد فاعلاً بقدرته وميشيته واختياره أمر يختص به تبارك وتعالى، والمخلوق لا يقدر أن يجعل غيره فاعلاً إلا بإكراهه له على ذلك، فإن لم يكرهه لم يقدر على غير الدعاء والأمر بالفعل، وذلك لا يصير العبد فاعلاً؛ فالمخلوق هو الذي يجبر غيره على الفعل، ويكرهه عليه، فنسبة ذلك إلى الربِّ تشبيه له في أفعاله بالمخلوق الذي لا يجعل غيره فاعلاً إلا بجبره له وإكراهه، فكمال قدرته تعالى، وكمال علمه، وكمال مشيتيه، وكمال عدله وإحسانه، وكمال غناه، وكمال ملكته، وكمال حجته على عبده تنفي الجبر.

## فصل

فالطوائف كلها متفقة على الكسب، ومحظيون في حقيقته.

---

(١) من قوله: «وإرادته وعدم» إلى هنا ساقط من «د» انتقال نظر.

فقالت القدرية: هو إحداث العبد لفعله بقدرته ومشيئته استقلالاً، وليس للرب صُنْعٌ فيه، ولا هو خالق فعله، ولا مكوّنه، ولا مرید له.

وقالت الجبرية: الكَسْب اقتران الفعل بالقدرة الحادثة، من غير أن يكون لها فيه أثر.

وكلا الطائفتين فرّق بين الخَلْق والكَسْب، ثم اختلفوا فيما وقع به الفرق.

فقال الأشعري في عامة كتبه: معنى الكَسْب: أن يكون الفعل بقدرة مُحدَثة، فمن وقع منه الفعل بقدرة قديمة فهو فاعل خالق، ومن وقع منه بقدرة مُحدَثة فهو مُكتَسِب.

وقال قائلون: من يفعل بغير آلة ولا جارحة فهو خالق، ومن يحتاج في فعله إلى الآلات والجوارح فهو مُكتَسِب، وهذا قول الإسکافي وطوائف من المعتزلة.

قال<sup>(١)</sup>: «واختلفوا هل يقال: إن الإنسان فاعل على الحقيقة؟

فقالت المعتزلة كُلُّها إِلَّا الناشئ<sup>(٢)</sup>: إن الإنسان فاعل مُحدِثٌ ومحْتَرِعٌ ومنشئ على الحقيقة دون المجاز.

وقال الناشئ: الإنسان لا يفعل في الحقيقة، ولا يُحدِث في الحقيقة،

---

(١) أي الأشعري.

(٢) عبد الله بن محمد أبو العباس الناشئ الشاعر من كبار المعتزلة (٢٩٣هـ)، «تاريخ الإسلام» (٩٦٦/٦).

وكان [لا]<sup>(١)</sup> يقول: إن البارئ أحدث كسب الإنسان، قال: فلزمه مُحدث لا لمُحدث في الحقيقة، ومفعول لا لفاعل<sup>(٢)</sup> في الحقيقة<sup>(٣)</sup>.

قلت: وجه إلزامه ذلك أنه قد أعطى أن الإنسان غير فاعل لفعله، وفعله مُحدث مفعول، وليس هو فعلاً للعبد، فلزمته مفعول من غير فاعل.

ولعمر الله؛ إن هذا الإلزام لازم لأبي الحسن<sup>(٤)</sup> وللجريدة؛ فإن عندهم الإنسان ليس بفاعل حقيقة، والفاعل هو الله، وأفعال الإنسان قائمة به لم تقم بالله، فإذا لم يكن الإنسان فاعلها مع قيامها به، فكيف يكون الله سبحانه هو فاعلها؟! ولو كان هو فاعلها لعادت أحكامها عليه، واستُنفِتْتْ له منها أسماء، وذلك ممتنع مستحيل على الله، فيلزمك أن تكون أفعالاً لا فاعل لها؛ فإن العبد ليس بفاعل عننك، ولو كان رب فاعلاً لها لاشتُنَتْ له منها أسماء، وعاد حكمها عليه.

فإن قيل: فما تقولون أنتم في هذا المقام؟

قلنا: لا نقول بواحد من القولين، بل نقول: هي أفعال للعبد حقيقة ومفعولة للرب، فال فعل عندنا غير المفعول، وهو إجماع من أهل السنة، حكاه الحسين بن مسعود البغوي وغيره<sup>(٥)</sup>، فالعبد فاعلها حقيقة، والله

(١) زيادة لازمة من مصدر النقل لإقامة السياق.

(٢) «م»: «لا بمحدث.. لا بفاعل»، وما في النسخ الأخرى موافق للمصدر.

(٣) «مقالات الإسلاميين» (٥٣٩).

(٤) يعني الأشعري.

(٥) لم أهتد إلى موضعه في مؤلفات البغوي، وثمة نقل في «شرح السنة» (١٨٦/١) عن

خالقه، وخالق ما فعل به من القدرة والإرادة، وخالق فاعليته.

وسر المسألة: أن العبد فاعل مُنْفَعِل باعتبارين، بل هو مُنْفَعِل فاعليته، فربه تعالى هو الذي جعله فاعلاً بقدرته ومشيئته، وأقدره على الفعل، وأحدث له المشيئة التي يفعل بها.

قال الأشعري: «وكثير من أهل الإثبات يقولون: إن الإنسان فاعل في الحقيقة بمعنى: مُكْتَسِب، ويمنعون أنه مُحَدِّث»<sup>(١)</sup>.

قلت: هؤلاء وقفوا مع ألفاظ الكتاب والسنة، فإنهما مملوآن من نسبة الأفعال إلى العبد باسمها العام وأسمائها الخاصة، فالاسم العام كقوله تعالى: «تَعْمَلُونَ، تَقْعَدُونَ، تَكْسِبُونَ»، والأسماء الخاصة: «يُقَيِّمُونَ الْصَّلَاةَ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ، وَيُؤْمِنُونَ، وَيَخْافُونَ، يَتُوبُونَ، يُجْهَدُونَ».

وأما لفظ الإحداث فلم يجيء إلا في الذم، كقوله ﷺ: «لعن الله من أحدث حَدَثًا، أو آوى مُحَدِّثًا»<sup>(٢)</sup>، فهذا ليس بمعنى الفعل والكسب.

وكذلك قول عبد الله بن مغفل لابنته: «إياك والحدث في الإسلام»<sup>(٣)</sup>.

---

سلف الأمة قولهم في القرآن: إنه كلام الله لا خالق ولا مخلوق الخ، وقد نقل شيخ الإسلام في عدة مواضع من كتبه نحوه عن البغوي كما في «الرد على المنطقيين» (٢٣٠) و«درء التعارض» (٢٦٤)، والله أعلم.

(١) «مقالات المسلمين» (٥٤٠).

(٢) أخرجه مسلم (١٩٧٨)، وأبو عوانة (٧٨٤٤). واللفظ له - من حديث علي بن أبي طالب.

(٣) أخرجه أحمد (٢٠٥٥٩)، والطحاوي في «شرح المعاني» (١١٩٦).

ولا يمتنع إطلاقه على فعل الخير مع التقييد، كما قال بعض السلف:  
«إذا أحدث الله لك نعمة فأحدث لها شكرًا، وإذا أحدثت ذنبًا فأحدث له  
توبة»<sup>(١)</sup>.

ومنه قوله: هل أحدثت توبة؟ وأحدث للذنب استغفاراً.

ولا يلزم من ذلك إطلاق اسم المحدث عليه، والإحداث على فعله.  
قال الأشعري: «وبلغني أن بعضهم أطلق في الإنسان أنه محدث على  
الحقيقة بمعنى: مُكتَسِب»<sup>(٢)</sup>.

قلت: هنا ألفاظ وهي: فاعل، وعامل، ومُكتَسِب، وكاسب، وصانع،  
ومُحدِث، وجاعل، ومؤثر، ومنشئ، وموجد، وخلق، وبارئ، ومصوّر،  
و قادر، ومريد.

وهذه الألفاظ ثلاثة أقسام:

قسم لم يُطلق إلا على الرب سبحانه، كالبارئ والبديع والمبدع.  
قسم لا يُطلق إلا على العبد، كالكاسب والمُكتَسِب.  
قسم وقع إطلاقه على الرب والعبد، كاسم: صانع، وفاعل، وعامل،  
ومنشئ، ومريد، و قادر.

وأما الخالق والمصوّر فإن استعمالاً مطلقاً غير مقيدين لم يُطلق إلا  
على الرب سبحانه، كقوله: «الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ» [الحشر: ٢٤]، وإن

(١) لم أقف عليه.

(٢) «مقالات الإسلاميين» (٥٤٠).

استعملا مقيدين أطلقا على العبد، كما يقال لمن قدر شيئاً في نفسه: إنه خلقه.

قال:

ولأنك تفري ما خلقت وبع ض القوم يخلق ثم لا يفري<sup>(١)</sup>  
أي: لك قدرة تمضي وتنفذ بها ما قدرته في نفسك، وغيرك يقدر أشياء  
وهو عاجز عن إنفاذها وإمساها.

وبهذا الاعتبار صحّ إطلاق خالق على العبد في قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، أي: أحسن المصوّرين والمقدّرين.  
والعرب تقول: قدرت الأديم وخلقته إذا قسته لقطعه منه مزاده أو قربة  
ونحوها.

قال مجاهد: «يصنعون ويصنع الله، والله خير الصانعين»<sup>(٢)</sup>.  
وقال الليث: «رجل خالق، أي: صانع، وهن الحالات: للنساء»<sup>(٣)</sup>.  
وقال مقاتل: «يقول الله تعالى: هو أحسن خلقاً من الذين يخلقون التماشيل وغيرها، التي لا يتحرك منها شيء»<sup>(٤)</sup>.  
وأما البارئ فلا يصح إطلاقه إلا عليه سبحانه؛ فإنه الذي برأ الخليقة وأوجدها بعد عدمها، والعبد لا تعلق قدرته بذلك؛ إذ غاية مقدوره التصرف

(١) البيت لزهير، وقد سلفت نسبة في (١٨٢).

(٢) أنسدنه الطبرى (٢٥ / ١٧).

(٣) انظر: «تحذيب اللغة» (٢٥ / ٧).

(٤) «تفسير مقاتل» (٣ / ١٥٣)، وانظر: «البسيط» (١٥ / ٥٤٢)، والمؤلف صادر عنه في هذه النقول.

في بعض صفات ما أوجده الربُّ تعالى وبرأه، وتغييرها من حال إلى حال على وجه مخصوص لا تتعداه قدرته.

وليس من هذا: بريت القلم؛ لأنَّه معتلٌ لا مهموز. ولا: برأت من المرض؛ لأنَّه فعل لازم غير متعدّ.

وكذلك مُبدِع الشيء ويديعه لا يصح إطلاقه إلا على الربُّ تعالى، قوله: **﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** [البقرة: ١١٧]، والإبداع: إيجاد المُبدِع على غير مثال سبق، والعبد يُسمى: مُبتدعاً لكونه أحدث قولًا لم تمضِ به سنة، ثم يقال لمن اتبَعه عليه: مُبتدع أيضًا.

وأما لفظ المُوجِد، فلم يقع في أسمائه سبحانه، وإن كان هو المُوجِد على الحقيقة، ووقع في أسمائه الواحد، وهو بمعنى: الغني الذي له الوجود.

وأما المُوجِد فهو مفعولٍ من أوجد، وله معنian:

أحدهما: أن يجعل الشيء موجوداً، وهو تعدية وجَد وأوجده.

قال الجوهرى: «وَجَدَ الشَّيْءَ عَنْ دُمُّهِ فَهُوَ مُوجَدٌ، مُثَلُ حُمَّ، فَهُوَ مَحْمُومٌ. وَأَوْجَدَ اللَّهُ، وَلَا يَقُولُ: وَجَدَه»<sup>(١)</sup>.

والمعنى الثاني: أوجده: جعل له جذةً وغنىًّا، وهذا يتعدى إلى مفعولين.

قال في «الصَّاحِحَ»<sup>(٢)</sup>: «أَوْجَدَ اللَّهُ مَطْلُوبَهُ، أَيْ: أَظْفَرَهُ بِهِ، وَأَوْجَدَهُ، أَيْ: أَغْنَاهُ».

---

(١) «الصَّاحِحَ» (٥٤٧/٢).

(٢) «الصَّاحِحَ» (٥٤٧/٢).

قلت: وهذا يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون من باب حذف أحد المفعولين، أي: أوجده مالاً وغنى.

وأن يكون من باب: صَيْرَه واجدًا، مثل أغناه وأفقره؛ إذا صَيْرَه غنيًا وفقيرًا.

فعلى التقدير الأول يكون تَعْدِية: وَجَدَ مالًا وغنى، وأوجده الله إِيَّاه.

وعلى الثاني يكون تَعْدِية: وَجَدُ وُجْدًا إذا استغنى. ومصدر هذا الْوُجْدُ بالضم والفتح والكسر، قال تعالى: ﴿أَشْكُونُهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنُوكُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ﴾ [الطلاق: ٦].

غير ممتنع أن يُطلق على من يفعل بالقدرة الْمُحَدَّثَة أنه أوجد مقدوره؛ كما يُطلق عليه أنه فعله وعمله وصنعه وأحدثه، لا على سبيل الاستقلال.

وكذلك لفظ المؤثر، لم يرد إطلاقه في أسماء الربّ، وقد وقع إطلاق الأثر والتأثير على فعل العبد، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَخْتُنُ نَحْنُ الْمُؤْتَأْثِرُونَ كُتُبُ مَا قَدَّمُوا وَأَثْرَهُمْ﴾ [يس: ١٢].

قال ابن عباس: «ما أثروا من خير أو شر»<sup>(١)</sup>.

فسمى ذلك آثاراً؛ لحصوله بتأثيرهم.

ومن العجب أن المتكلمين يمتنعون من إطلاق التأثير والمؤثر على من أُطلق عليه في القرآن والسنة، كما قال النبي ﷺ: «يا بني سلمة، دياركم تُكتب

(١) أورده في «البسيط» (١٨ / ٤٦٠).

أثاْركم»<sup>(١)</sup>، أي: الزموا دياركم، ويخصّونه بمن لم يقع إطلاقه عليه في كتاب ولا سنة، وإن استعمل في حقه الإيثار والاستئثار، كما قال إخوة يوسف:

﴿تَأَلَّهُ لَقَدْ أَثَرْتَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٩١].

وفي الأثر: «إذا استأثر الله بشيء فالله عنه»<sup>(٢)</sup>.

وقال الناظم:

استأثر الله بالثبات وبالحمد — دوّل الملامة الْرِجْلُ<sup>(٣)</sup>

ولما كان التأثير تفعيلاً من أثّرت في كذا تأثيراً، فأنا مؤثّر؛ لم يتمتنع إطلاقه على العبد، قال في «الصحاح»<sup>(٤)</sup>: «التأثير إبقاء الأثر في الشيء».

وأما لفظ الصانع فلم يرد في أسماء الربّ تعالى، ولا يمكن وروده<sup>(٥)</sup>؛ فإن الصانع مَنْ صَنَعَ شيئاً، عدلاً كان أو ظلماً، سفهاً أو حكمة، جائزاً أو غير جائز. وما انقسم مسمى إلى مدح وذم لم يجئ اسمه المطلق في الأسماء

(١) تقدم تخرّجه في (١٣٦).

(٢) يروى هذا الأثر عن عمر بن الخطاب كما في «حلية الأولياء» (٣٢٦ / ٥)، وعن ابنه عبد الله أيضاً كما في «تاريخ دمشق» (٣١ / ١٥٤)، وعدده المعاف في «الجليس» (٢٥ / ٢) من أمثال العرب.

(٣) هو للأعشى في «الديوان» (٢٣٣)، ولفظه - وهو المشهور - : «استأثر الله بالوفاء وبالعدل»، وفي «الحيوان» (٤٨٣ / ٣): «استأثر الله بالبقاء وبالحمد»، وقد أوردته المصنف على أوجه في عدد من مؤلفاته، انظر: حاشية تحقيق الإصلاحي لـ «طريق الهجرتين» (١ / ١).

(٤) «الصحاح» (٢ / ٥٧٦).

(٥) في الأصول: «ورودها» تحرير.

الحسنى، كالفاعل والعامل والصانع والمريد والمتكلم؛ لأنقسام معانى هذه الأسماء إلى محمود ومذموم، بخلاف العالم القادر والحي والسميع والبصير.

وقد سمي النبي ﷺ العبد صانعاً.

قال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، ثنا مروان بن معاوية، ثنا أبو مالك، عن ربيعي بن حراش، عن حذيفة قال: قال النبي ﷺ: «إن الله يصنع كل صانع وصنعته»<sup>(١)</sup>.

وقد أطلق سبحانه على فعله اسم الصنْع، فقال: «صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ»، وهو منصوب على المصدر؛ لأن قوله تعالى: «وَرَأَى الْجَبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهُنَّ تَمَرَّدَ السَّحَابَ» [المل: ٨٨]، يدل على الصنعة.

وقيل: هو نصبٌ على المفعولية، أي: انظروا صنْع الله.

فعلى الأول: يكون «صُنِعَ اللَّهُ» مصدرًا بمعنى الفعل.

وعلى الثاني: يكون بمعنى المصنوع المفعول، فإنه الذي يمكن وقوع النظر والرؤيا عليه.

وأما الإنشاء فإنما وقع إطلاقه عليه سبحانه فعلاً، كقوله: «وَيُنْشِئُ السَّحَابَ التِّقَالَ» [الرعد: ١٢]، وقوله: «فَأَشَانَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ» [المؤمنون: ١٩]، وقوله: «وَيُنْشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْمَلُونَ» [الواقعة: ٦١]، وهو كثير، ولم يرد لفظ المُنْشَىء.

---

(١) تقدم تخريرجه في (٣٥٩).

وأما العبد فُيطلق عليه الإنشاء باعتبار آخر، وهو شروعه في الفعل  
وابتداؤه له، تقول: أنشأ يحدّثنا، وأنشأ السير، فهو منشئ لذلك.

وهذا إنشاء مقيد، وإنشاء الرب إنشاء مطلق.

وهذه اللفظة تدور على معنى الابتداء، أنشأ الله، أي: ابتدأ خلقه، وأنشأ  
يفعل كذا: ابتدأ، وفلان يُنشئ الأحاديث، أي: يبتديء وضعها، والناسى أول  
ما ينشأ من السحاب.

قال الجوهرى: «ناشئة الليل أول ساعاته»<sup>(١)</sup>.

قلت: هذا قد قاله غير واحد من السلف: إن ناشئة الليل أوله التي منها  
ينشا الليل، وال الصحيح أنها لا تختص بالساعة الأولى، بل هي ساعاته ناشئة  
بعد ناشئة، كلما انقضت ساعة نشاً بعدها أخرى.

قال أبو عبيدة: «ناشئة الليل: ساعاته وأناؤه ناشئة بعد ناشئة»<sup>(٢)</sup>.

قال الزجاج: «ناشئة الليل: كلّ ما نشا منه، أي: حدث منه، فهو  
ناشئة»<sup>(٣)</sup>.

قال ابن قتيبة: «هي آناء الليل وساعاته، مأخوذة من نشأت تنشأ نشاً، أي:  
ابتدأت وأقبلت شيئاً بعد شيء، وأنشأها الله فنشأت»<sup>(٤)</sup>.

---

(١) «الصحاب» (١/٧٨).

(٢) «مجاز القرآن» (٢/٢٧٣).

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٥/٤٠).

(٤) «تأويل مشكل القرآن» (٣٦٥).

والمعنى أن ساعات الليل الناشئة، وقول صاحب «الصحاح» منقول عن  
كثير من السلف.

قال علي بن الحسين: «ناشئة الليل: ما بين المغرب إلى العشاء»<sup>(١)</sup>.  
وهذا قول أنس، وثابت، وسعيد بن جبير، والضحاك، والحكم، واختيار  
الكسائي، قالوا: ناشئة الليل أوله<sup>(٢)</sup>، وهؤلاء رأعوا معنى الأولية في الناشئة.  
وفيها قول ثالث: أن الليل كله ناشئة، وهذا قول عكرمة، وأبي مجلز،  
ومجاهد، والستّي، وابن الزبير، وابن عباس في رواية.

قال ابن أبي ملائكة: سألت ابن الزبير وابن عباس عن ناشئة الليل، فقالا:  
الليل كله ناشئة<sup>(٣)</sup>.

فهذه أقوال من جعل ناشئة الليل زماناً.

وأما من جعلها فعلاً ينشأ بالليل؛ فالناشئة عندهم اسم لما يفعل بالليل

---

(١) أسنده الثعلبي في «الكشف والبيان» (٦١ / ١٠)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٤٧٥٦).

(٢) قول أنس وسعيد أسندهما ابن أبي شيبة في «المصنف» (٥٩٧٥، ٥٩٧٧)، وأورد  
الأزهرى في «تهذيب اللغة» (٤١٩ / ١١) قول الضحاك - وفي «جامع البيان»  
(٣٦٨ / ٢٢) عنه ما يوافق القول الثالث - والحكم واختيار الكسائي، ولم أقف على  
نسبة ثابت، قال في «البسيط» (٣٥٨ / ٢٢) بعد حكاية القول: «وهو قول أنس. روى  
ثابت أنه كان يصلى ما بين المغرب والعشاء، ويقول: هي: (ناشئة الليل)»، فلعل  
المصنف نسب القول إلى ثابت سهواً مع أنه هو الراوي عن أنس فحسب، والله أعلم.  
(٣) أقوال عكرمة وأبي مجلز ومجاهد أسندها الطبرى (٣٦٧ / ٢٣)، وفي «غريب  
ال الحديث» للحربي (٢ / ٨٧٩) نسبته إلى السدي.

من القيام، هذا قول ابن مسعود، ومعاوية بن قرۃ، وجماعة، قالوا: ناشئة الليل: قيام الليل<sup>(١)</sup>.

وقال آخرون – منهم عائشة – إنما يكون القيام ناشئة إذا تقدمه نوم،  
قالت عائشة: «ناشئة الليل القيام بعد النوم»<sup>(٢)</sup>.

وهو قول ابن الأعرابي، قال: «إذا نمت من أول الليلة نومة، ثم قمت فتلک النشأة، ومنه ناشئة الليل»<sup>(٣)</sup>.

فعلى قول الأولين: «ناشئة الليل» إضافة بمعنى «من»، إضافة نوع إلى جنسه، أي: ناشئة منه.

وعلى قول هؤلاء: إضافة بمعنى «في»، أي: طاعة ناشئة فيه.

والملخص: أن الإنشاء ابتداء، سواء تقدمه مثله كالنشأة الثانية، أو لم يتقدمه كالنشأة الأولى.

وأما الجَعْل فقد أطلق على الله سبحانه بمعنىين:  
أحدهما: الإيجاد والخلق.  
والثاني: التصوير.

فال الأول يتعدى إلى مفعول، كقوله: «وَجَعَلَ الظُّلْمَاتِ وَالنُّورَ» [الأنعام: ١]

(١) قول ابن مسعود أسنده ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٠٥٩٢)، وقول ابن قرۃ نسبه إلى المروزی في «قيام الليل». مختصره. (٤٠).

(٢) أورده الثعلبی في «الكشف والبيان» (٦١ / ١٠).

(٣) أورده الواحدی في «البسيط» (٢٢ / ٣٥٩)، والمصنف مقتبس في هذا الموضع منه.

والثاني أكثر ما يتعدي إلى مفعولين، قوله: «إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْبَةً أَنَا عَرَبِيٌّ» [الزخرف: ٣]، وأطلق على العبد بالمعنى الثاني خاصة، قوله: «وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَّا مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَعْمَمْ نَصِيبًا»، غالباً ما يُستعمل في حق العبد في جعل التسمية والاعتقاد، حيث لا يكون له صُنْع في المجعل، قوله: «وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِنَّهُمْ» [الزخرف: ١٩]، قوله: «فَلَأَرَءَ يَشْرُكُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ فِنْهُ حَرَاماً وَحَلَلاً» [يونس: ٥٩]، وهذا متعدد إلى واحد، وهو جعل اعتقاد وتسمية.

وأما الفعل والعمل فإطلاقه على العبد كثير، «لَيَسْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» [المائدة: ٧٩]، «لَيَسْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» [المائدة: ٦٢]، «بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» [المائدة: ١٠٥].

وأطلقه على نفسه فعلاً واسماً، فال الأول قوله: «وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ» [إبراهيم: ٢٧]، والثاني قوله: «فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ» [هود: ١٠٧]، قوله: «وَكُنَّا فَعِيلِينَ» في موضعين من كتابه: أحدهما قوله: «وَسَخَنَامَ دَاؤِدَ الْجِبَالَ يُسَيِّحُنَ وَأَطَيْرُ وَكُنَّافَعِيلِينَ» [الأنياء: ٧٩]، والثاني قوله: «وَوَمَ نَطَوْيِ الْأَسْمَاءَ كَطَى السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأَنَا أَوْلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَعِيلِينَ» [الأنياء: ١٠٤].

فتتأمل قوله: «كُنَّافَاعِيلِينَ» في هذين الموضعين المتضمنين للصنع العجيب الخارج عن العادة: كيف تجده كالدليل على ما أخبر به، وأنه لا يستعصي على الفاعل حقيقة، أي: شأننا الفعل، كما لا يخفى الجهر والإسرار بالقول على من شأنه العلم والخبرة، ولا تصعب المغفرة على من

شأنه أن يغفر الذنوب، ولا الرزق على من شأنه أن يرزق العباد.  
وقد وقع الزجاج على هذا المعنى بعينه، فقال: «وَكُنَّا فَعِلَّيْنَ» أي:  
قادرين على فعل ما نشاء»<sup>(١)</sup>.



---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤٠٠/٣) وعبارته: «أي: وكنا نقدر على ما نريده».

## البَابُ الثَّامِنُ، عَشْرُونُ

### في فَعْلٍ وَأَفْعَلٍ فِي الْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ وَالْكَسْبِ، وَذِكْرِ الْفَعْلِ وَالْإِنْفَعَالِ

ينبغي الاعتناء بكشف هذا الباب، وتحقيق معناه، فبذلك ينحل عن العبد أنواع من ضلالات القدرة والجبرية، حيث لم يعطوا هذا الباب حقه من العرفان.

اعلم أنَّ الرَّبَّ تَعَالَى فَاعِلٌ غَيْرُ مُنْفَعِلٍ، وَالْعَبْدُ فَاعِلٌ مُنْفَعِلٌ، وَهُوَ فِي  
فَاعِلِيَّتِهِ مُنْفَعِلٌ لِلْفَاعِلِ الَّذِي لَا يَنْفَعُ بِوَجْهِهِ.

فالجبرية شهدت كونه مُنْفَعِلًا يجري عليه الحكم بمنزلة الآلة والمحل، وجعلوا حركته بمنزلة حركات الأشجار، ولم يجعلوه فاعلاً إلا على سبيل المجاز، فقام، وقعد، وأكل، وشرب، وصلى، وصام، عندهم بمنزلة مرض، وألم، ومات، ونحو ذلك مما هو فيه مُنْفَعِلٌ محضر.

والقدرة شهدت كونه فاعلاً محضًا غير مُنْفَعِلٍ في فعله.

وَكُلُّ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ نَظَرَ بَعْنَ عُورَاءَ، وَأَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِعْدَادِ أَعْطَوَا كُلَا  
الْمَقَامِينَ حَقَّهُ، وَلَمْ يَبْطِلُوا أَحَدَ الْأَمْرَيْنِ<sup>(۱)</sup> بِالْآخِرِ، فَاسْتَقَامُ لَهُمْ نَظَرُهُمْ  
وَمَنَاظِرُهُمْ، وَاسْتَقَرَ عَنْهُمُ الشَّرْعُ وَالْقَدْرُ فِي نَصَابِهِ، وَشَهَدُوا وَقْوَعَ الشَّوَّابِ  
وَالْعِقَابِ عَلَى مَنْ هُوَ أَوْلَى بِهِ.

---

(۱) «م»: «المقامين».

فَأَتَبْتُوا نَطْقَ الْعَبْدِ حَقْيَةً، وَإِنْطَاقَ اللَّهُ لَهُ حَقْيَةً، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لَمْ يَشْهُدُ عَلَيْنَا فَقُلُّا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فَصْلُت: ٢١]، فَإِنَّ اِنْطَاقَ فَعْلَ اللَّهِ الَّذِي لَا يَجُوزُ تَعْطِيلُهُ، وَالنَّطْقُ فَعْلُ الْعَبْدِ الَّذِي لَا يَمْكُنْ إِنْكَارُهُ.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَوَرَتِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ إِنَّهُ لَحَقٌ مِثْلَ مَا أَنْكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذَّارِيَاتِ: ٢٣]، فَعُلِمَ أَنَّ كُوْنَهُمْ يَنْطِقُونَ هُوَ أَمْرٌ حَقِيقِيٌّ، حَتَّى<sup>(١)</sup> شَبَّهَ بِهِ فِي تَحْقِيقِ كُوْنِهِ مَا أَخْبَرَ بِهِ، وَأَنَّ هَذَا حَقِيقَةً لَا مَجَازٌ.

وَمِنْ جَعْلِ إِضَافَةِ نَطْقِ الْعَبْدِ إِلَيْهِ مَجَازًا لَمْ يَكُنْ نَاطِقًا عَنْهُ حَقِيقَةً<sup>(٢)</sup>، فَلَا يَكُونُ التَّشْبِيهُ بِنَطْقِهِ مَحْقُوقًا لِمَا أَخْبَرَ بِهِ، فَتَأْمِلُهُ.

وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ [النَّجْمُ: ٤٣]، فَهُوَ الْمُضْحِكُ الْمُبْكِيُّ حَقِيقَةً، وَالْعَبْدُ الضَّاحِكُ الْبَاكِيُّ حَقِيقَةً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَيَضْحَكُوكُمْ أَقْلِيلًا وَلَيَبْكِيُوكُمْ كَثِيرًا﴾ [التَّوْبَةُ: ٨٢]، وَقَالَ: ﴿أَفَيْنَ هَذَا الْحَدِيثُ تَعَجَّبُونَ وَنَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ [النَّجْمُ: ٥٩ - ٦٠]، فَلَوْلَا الْمُنْطِقُ الَّذِي أَنْطَقَ، وَالْمُضْحِكُ وَالْمُبْكِيُّ الَّذِي أَضْحَكَ وَأَبْكَى؛ لَمْ يَوْجُدْ نَاطِقٌ وَلَا ضَاحِكٌ وَلَا باكٌ.

فَإِذَا أَحَبَّ عَبْدَهُ أَنْطَقَهُ بِمَا يُحِبُّ فَأَثَابَهُ عَلَيْهِ، وَإِذَا أَبْغَضَهُ أَنْطَقَهُ بِمَا يُكْرِهُهُ فَعَاقَبَهُ عَلَيْهِ، وَهُوَ الَّذِي أَنْطَقَ هَذَا وَهَذَا، وَأَجْرَى مَا يُحِبُّ عَلَيْهِ لِسَانَ هَذَا، وَمَا يُكْرِهُ عَلَيْهِ لِسَانَ هَذَا، كَمَا أَنَّهُ أَجْرَى عَلَيْهِ قَلْبَ هَذَا مَا أَضْحَكَهُ، وَعَلَيْهِ قَلْبٌ

(١) «ج»: «حَيْنٌ».

(٢) مِنْ قَوْلِهِ: «لَا مَجَازٌ إِلَى هَنَا سَاقَطٌ مِنْ «د»».

هذا ما أبكاه.

وكذلك قوله تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾** [يونس: ٢٢]، وقوله: **﴿فَلَمْ يَرُو فِي الْأَرْضِ﴾** [الأنعام: ١١]، فالتسير فعله حقيقة، والسير فعل العبد حقيقة، فالتسير فعل ماضٍ، والسير فعل وانفعال.

ومن هذا قوله: **﴿فَلَمَّا أَتَنَا رَبِيعَيْنِ مِنْهَا وَطَرَا زَوْجَتَهُمَا﴾** [الأحزاب: ٣٧]، فهو سبحانه المزوج ورسوله المتزوج.

وكذلك قوله: **﴿وَزَوْجَتَهُمْ بِمُؤْرِعِينِ﴾** [الدخان: ٥٤]، فهو المزوج وهم المتزوجون.

وقد جمع سبحانه بين الأمرين في قوله: **﴿فَلَمَّا زَاغَ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾** [الصف: ٥]، فالإزاغة فعله، والزيغ فعلهم.

فإن قيل: أنتم قررتם أنه لم يقع منهم الفعل إلا بعد فعله، وأنه لو لا إنطافه لهم وإضحاكه وإبكاؤه لما نطقوا وما ضحكوا ولا بكوا، وقد دلت هذه الآية على أن فعله بعد فعلهم، وأنه أزاغ قلوبهم بعد أن زاغوا، وهذا يدل على أن إزاغة قلوبهم هو حكمه عليهما بالزيغ، لا جعلها زائفة، وكذلك قوله: **﴿أَنْطَقَنَا اللَّهُ﴾** [فصلت: ٢١]، المراد به: جعل لنا آلة النطق، وأضحك وأبكى: جعل لهم آلة الضحك والبكاء.

قيل: أما الإزاغة المترتبة على زيغهم فهي إزاغة أخرى غير الإزاغة التي زاغوا بها أولاً؛ عقوبة لهم على زيغهم، والرب تعالى يعقوب على السيئة بمثلها، كما يثيب على الحسنة بمثلها، فأخذت لهم منها زيج آخر غير الزيغ الأول، فهم زاغوا أولاً فجازاهم الله بإزاغة فوق زيغهم، فأخذت لهم تلك

الإزاغة زيفاً فوق زيفهم.

فإن قيل: فالزيغ الأول من فعلهم، وهو مخلوق لله فيهم على غير وجه  
الجزاء، وإنما تسلسل الأمر.

قيل: بل الزيغ الأول وقع جزاءً لهم وعقوبة<sup>(١)</sup> على تركهم الإيمان  
والتصديق لما جاءهم الهدى<sup>(٢)</sup>، وهذا الترك أمر عدمي لا يستدعي فاعلاً؛  
فإن تأثير الفاعل إنما هو في الوجود لا في العدم.

فإن قيل: فهذا الترك العدمي له سبب، أو لا سبب له؟

قيل: سببه عدم سبب ضده، فبقي على العدم الأصلي.

ويشبه هذا قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُم﴾ [الحشر: ١٩]، عاقبهم على نسيانهم له بأن أنساهم أنفسهم، فنسوا  
مصالحها أن يفعلوها، وعيوبها أن يصلحوها، وحظوظها أن يتناولوها، ومن  
أعظم مصالحها وأنفع حظوظها ذكرها لربها وفاطرها، ومن لا نعيم لها ولا  
سرور ولا فلاح ولا صلاح إلا بذكره وحبه وطاعته، والإقبال عليه،  
والإعراض عما سواه، فأنساهم ذلك لاما نسوه، وأحدث لهم هذا النسيان  
نسياناً آخر.

وهذا ضد حال الذين ذكروه ولم ينسوه، فذكراهم مصالح نفوسهم  
ففعلوها، ووقفهم على عيوبها فأصلحوها، وعَرَفُهم حظوظها العالية فبادروا  
إليها.

---

(١) «د»: «عقوبة لهم».

(٢) «ج»: «لما جاءهم من الهدى».

فجازى أولئك على نسيانهم بأن أنساهم الإيمان به ومحبته وذكره وشكره، فلما خلت قلوبهم من ذلك لم تجد عن ضده محيضاً.

وهذا يبيّن لك كمال عدله سبحانه في تقدير الكفر والذنوب عليها.

وإذا كان قضاوئه عليها بالكفر والذنوب عدلاً منه فيها؛ فقضاياها عليها بالعقوبة أعدل وأعدل، فهو سبحانه ماضٍ في عبده حكمه، عَدْلٌ فيه قضاوئه، وله فيها قضاءان: قضاء السبب، وقضاء المُسَبِّب، وكلاهما عدل فيه؛ فإنه لما ترك ذكره، وترك فعل ما يحبه؛ عاقبه بنسيانته نفسه، فأحدث له هذا النسيان ارتكاب ما يبغضه ويستخطه بقضائه الذي هو عدل، فترتباً له على هذا الفعل والترك عقوبات وآلام لم يكن له منها بُدّ، بل هي متربة عليه ترتب المُسيّبات على أسبابها، فهي عدل محض من ربّ تعالى، فعَدَلَ في العبد أولاً وآخرًا.

وهو محسن في عدله، محبوبٌ عليه، محمود فيه، يحمد له من عدل فيه طوعاً وكرهاً.

قال الحسن: «لقد دخلوا النار وإن حمده لفي قلوبهم، ما وجدوا عليه سبيلاً»<sup>(١)</sup>.

و سنزيد هذا الموضع بسطاً وبياناً في باب دخول الشر في القضاء الإلهي، إن شاء الله<sup>(٢)</sup>.

إذ المقصود ههنا بيان كون العبد فاعلاً مُنفعلاً، والفرق في هذا الباب

(١) لم أقف عليه، وسيورده المؤلف لاحقاً، وقد أورده في غير واحد من مصنفاته، انظر: «حادي الأرواح» (٢/٧٩٠)، «القواعد» (٢٣٧)، «روضة المحبين» (١٠١).

(٢) (٨١/٢).

بين فَعَلَ وَأَفْعَلَ، وَأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَفْعَلَ، وَالْعَبْدُ فَعَلَ، فَهُوَ الَّذِي أَقَامَ  
الْعَبْدُ وَأَضْلَلَهُ وَأَمَاتَهُ، وَالْعَبْدُ هُوَ الَّذِي قَامَ وَضَلَّ وَمَاتَ.

وَأَمَا قَوْلُكُمْ: إِنْ مَعْنَى أَنْطَقَهُ وَأَضْحَكَهُ وَأَبْكَاهُ: جَعَلَ لَهُ آلَةً يُنْطِقُ بِهَا  
وَيُضْحِكُ وَيُبَكِّي؛ فَإِعْطَاوَهُ الْآلَةُ وَحْدَهَا لَا يَكْفِي فِي صَدْقَةِ الْفَعْلِ بِأَنَّهُ أَنْطَقَهُ  
وَأَضْحَكَهُ، فَلَوْ أَنْ رَجُلًا صَمِتَ يَوْمًا كَامِلًا، فَحَلَفَ حَالَفَ أَنَّ اللَّهَ أَنْطَقَهُ؛ لِكَانَ  
كَذَبَّا حَانَّا، وَلَوْ دَعَوْتَ كَافَرِينَ إِلَى الإِسْلَامِ، فَنَطَقَ أَحْدُهُمَا بِكَلْمَةِ الشَّهَادَةِ،  
وَسَكَتَ الْآخَرُ؛ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ قَطًّا: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَنْطَقَ السَّاكِنَ كَمَا أَنْطَقَ الْمُتَكَلِّمَ،  
وَكَلَاهُمَا قَدْ أُعْطِيَ آلَةَ النَّطْقِ، وَمَتَعَلِّقُ الْأَمْرُ وَالنَّهِيُّ وَالثَّوَابُ وَالْعِقَابُ: الْفَعْلُ  
لَا إِلَّا فَعَالٌ.

فَإِنْ قِيلَ: هَلْ تَطْرُدُونَ هَذَا فِي جَمِيعِ أَفْعَالِ الْعَبْدِ مِنْ كُفْرِهِ وَزَنَاهِ وَسُرْقَتِهِ،  
فَتَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ أَفْعَلَهُ، وَهُوَ الَّذِي فَعَلَ، أَمْ تَخْصُّونَ ذَلِكَ بِبَعْضِ الْأَفْعَالِ،  
فَيُظَهِّرُ تَنَاقُضَكُمْ؟

قِيلَ: هُنَّا أَمْرَانَ: أَمْرٌ لغُويٌّ، وَأَمْرٌ مَعْنويٌّ، فَأَمْرٌ لغُويٌّ: فَإِنْ ذَلِكَ لَا  
يُطَرَّدُ فِي لِغَةِ الْعَرَبِ، لَا يَقُولُونَ: أَرَنِي اللَّهُ الرَّجُلُ، وَأَسْرَقَهُ وَأَشْرَبَهُ وَأَقْتَلَهُ؛ إِذَا  
جَعَلَهُ يَزْنِي وَيُسْرِقُ وَيُشَرِّبُ وَيُقْتَلُ، وَإِنْ كَانَ فِي لِغَتِهَا: أَقَامَهُ وَأَقْعَدَهُ وَأَنْطَقَهُ  
وَأَضْحَكَهُ وَأَبْكَاهُ وَأَضْلَلَهُ، وَقَدْ يَأْتِي هَذَا مَضَاعِفًا كَفَهُمْ وَعَلَمُهُ وَسَيِّرُهُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَفَهَمَّتَهَا سَلِيمَانٌ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، فَالْتَّفَهِيمُ مِنْهُ سُبْحَانُهُ،  
وَالْفَهْمُ مِنْ نَبِيِّهِ سَلِيمَانَ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَعَلَّمَتْهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]،  
فَالْتَّعْلِيمُ مِنْهُ سُبْحَانُهُ، وَكَذَلِكَ التَّسْبِيرُ، وَالسَّيِّرُ وَالْتَّعْلِمُ مِنَ الْعَبْدِ.

فَهَذَا الْمَعْنَى ثَابِتٌ فِي جَمِيعِ الْأَفْعَالِ، فَهُوَ سُبْحَانُهُ هُوَ الَّذِي جَعَلَ

العبد فاعلاً، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَبْيَهَ يَهَدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنياء: ٧٣]،  
﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَبْيَهَ يَكْدُعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص: ٤١]، فهو الذي جعل أئمة  
الهدى يهدون بأمره، وجعل أئمة الضلال والبدع يدعون إلى النار، فامتناع  
إطلاق: أكلمه فتكلّم؛ لا يمنع من إطلاق: أنطقه فنطق، وكذلك امتناع  
إطلاق: أهداه بأمره، وأدعاه إلى النار؛ لا يمنع من إطلاق: جعله يهدي بأمره،  
ويدعوه إلى النار.

فإن قيل: ومع ذلك كله هل تقولون: إن الله سبحانه هو الذي جعل  
الزانيين يزنيان، وهو الذي جمع بينهما على الفعل، وساق أحدهما إلى  
صاحب؟

قيل: أصل بلاء أكثر الناس من جهة الألفاظ المجملة التي تشتمل على  
حق وباطل، فيطلقها من يريد حقها، فينكرها عليه من يريد باطلها<sup>(١)</sup>، فيرد  
عليه من يريد حقها.

وهذا باب إذا تأمله الذكي الفطن رأى منه عجائب، وخلصه من ورطات  
تورّط فيها أكثر الطوائف.

فالجعل المضاف إلى الله سبحانه يراد به: الجعل الذي يحبه ويرضاه،  
والجعل الذي قدره وقضاه، قال الله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَابِقَةٍ وَلَا  
وَصِيلَةٍ وَلَا حَامِرًا﴾ [المائدة: ١٠٣]، فهذا نفي لجعله الشرعي الديني، أي: ما شرع  
ذلك ولا أمر به، ولا أحبه ورضيه.

---

(١) بعدها في «د»: «وينكرها من يريد باطلها» تكرار.

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَبْيَهَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص: ٤١]، فهذا جعل كوني قدرٍ، أي: قدّرنا ذلك وقضيناه، وجعل العبد إماماً يدعو إلى النار أبلغ من جعله يزني ويسرق ويقتل.

وجعله أيضاً كذلك لفظ مجمل يراد به: أنه جبره على ذلك، وأكرهه عليه، وأضطره إليه، وهذا محال في حق الرب تعالى، وكماله المقدس يأبه ذلك، وصفات كماله تمنع منه كما تقدم. ويراد به: أنه مكّنه من ذلك، وأقدره عليه من غير أن يضطره إليه، ولا أكرهه، ولا أجراه؛ فهذا حق.

فإن قيل: هذا كلّه عدول عن المقصود، فمن أحدث معصيته<sup>(١)</sup>،  
وأوجدها وأبرزها من العدم إلى الوجود؟

قيل: الفاعل لها هو الذي أوجدها وأحدثها، وأبرزها من العدم إلى الوجود يقدّر الله له على ذلك، وتمكّنه منه من غير إلقاء له، ولا اضطرار منه له إلى فعلها.

فإن قيل: فمن الذي خلقها إذا؟

قيل لكم: ومن الذي فعلها؟

فإن قلتم: الرب تعالى هو الفاعل للفسق والعصيان؛ أكذبكم العقل والفطرة، وكتّب الله المترفة، وإجماع رسليه، وإثبات حمده، وصفات كماله؛ فإن فعله سبحانه كله خير، وتعالى أن يفعل شرّاً بوجه من الوجوه، فالشر ليس إليه<sup>(٢)</sup>، والخير هو الذي إليه، فلا يفعل إلا خيراً، ولا يريد إلا خيراً، ولا

(١) «د»: «مصدقة» دون إعجمان.

(٢) «د»: «قال: وليس» تحريف.

يشاء إلا خيراً، ولو شاء لفعل غير ذلك، ولكنه تعالى منزه عن فعل ما لا ينبغي وإرادته ومشيئته، كما هو منزه عن الوصف به، والتسمية باسمه<sup>(١)</sup>.

وإن قلتم: العبد هو الذي فعلها بما خلق فيه من الإرادة والمشيئة<sup>(٢)</sup>.

قيل: فالله سبحانه خالق أفعال العباد كلها بهذا الاعتبار.

ولو سلك الجبري مع القدرى هذا المسلك لاستراح معه وأراحه، وكذلك القدرى معه، ولكن انحرف الفريقان عن سواء السبيل.

سارت مشرقة وسرت مغرباً شتان بين مشرق ومغرب<sup>(٣)</sup>

فإن قيل: فهل يمكنه الامتناع منها، وقد خلقت فيه نفسها أو أسبابها الموجة لها، وخلق السبب الموجب خلق لمسييه وموجهه؟

قيل: هذا السؤال يورد على وجهين:

أحدهما: أن يراد به أنه يصير مضطراً إليها، ملجأً إلى فعلها بخلقها أو خلق أسبابها فيه، بحيث لا يبقى لها اختيار في نفسه ولا إرادة، وتبقى حركته

---

(١) «ج»: «والتسمية به».

(٢) جملة: « وإن قلتم » إلى هنا ساقط من « د ».

(٣) البيت ثانٍ ثلاثة دون نسبة في «البصائر والذخائر» (١٧٨/٨)، وصدره: «بكرت مشرقة ورحت مغرباً»، واستشهد بعجزه في «الصحاح» (٤/١٥٠)، وقد كان أبو إسحاق الشيرازي (٤٧٦هـ) يتمثل به إذا ناظر فذكر له سؤال لا يتعلّق بدلبله، كما رواه عبد الخالق بن أسد في «المعجم» (٣٤٢)، ومثله في «فتاوی ابن الصلاح» (١٢٥).

ووقع في «م» و«ج»: «وسار مغرباً».

قسرية لا إرادية.

والثاني: أنه هل لاختياره وإرادته وقدرته تأثير فيها، أو التأثير لقدرة الربّ ومشيئته فقط، وذلك هو السبب الموجب للفعل؟

فإن أوردتموه على الوجه الأول فجوابه: أنه يمكنه أن يفعل، وأن لا يفعل، ولا يصير مضطراً مُلْجَأاً بخَلْقِها فيه، ولا بخَلْقِ أسبابها ودعائهما؛ فإنه إنما خُلِقت فيه على وجه يمكنه فعلها وتركها، فلو لم يمكنه الترك لزم اجتماع النقيضين، وأن يكون مریداً غير مرید، فاعلاً غير فاعل، مُلْجَأاً غير مُلْجَأاً.

وإن أوردتموه على الوجه الثاني فجوابه: أن لا إرادته و اختياره وقدرته أثراً فيها، وهي السبب الذي خلقها الله به في العبد، فقولكم: «إنه لا يمكنه الترك» مع الاعتراف بكونه ممكناً من الفعل = جمع بين النقيضين؛ فإنه إذا تمكّن من الفعل كان الفعل اختيارياً: إن شاء فعله، وإن شاء لم يفعله، فكيف يصح أن يقال: لا يمكنه ترك الفعل الاختياري الممكّن، هذا خُلُفٌ من القول، وحقيقة الأمر أنه يمكنه الترك لو أراده، لكنه لا يريده، فصار لازماً بالإرادة الجازمة.

فإن قيل: فهذا يكفي في كونه مجبوراً عليه.

قيل: بل هذا من أدلّ شيء على بطلان الجبر؛ فإنه إنما لزم بإرادته المنافية للجبر، ولو كان وجوب الفعل بالإرادة يقتضي الجبر لكان الربّ تعالى وتقديس مجبوراً على أفعاله؛ لوجوبها بإرادته ومشيئته، وذلك محال.

فإن قيل: الفرق أن إرادة الربّ تعالى من نفسه، لم يجعله غيره مریداً،

والعبد إرادته من ربّه، إذ هي مخلوقة له، فإنه هو الذي جعله مريداً.  
قيل: هذا موضع اضطراب فيه الناس، فسلكت فيه القدرة وادياً،  
وسلكت الجبرية وادياً.

فقالت القدرة: العبد هو الذي يُحدِث إرادته، وليس مخلوقة لله، والله  
مكّنه من إحداث إرادته بأن خلقه كذلك.

وقالت الجبرية: بل الله تعالى هو الذي يُحدِث إرادات العبد شيئاً بعد  
شيء، وإحداث الإرادات فيه كإحداث لونه وطوله وقصره وسواه وبياضه،  
مما لا صنع له فيه البَّة، فلو أراد أن لا يريد لما أمكنه ذلك، وكان كما لو أراد  
أن يكون طوله وقصره ولونه على غير ما هو عليه، فهو مضطَر إلى الإرادة،  
وكل إرادة من إراداته فهي متوقفة على مشيئة الرَّبِّ تعالى لها بخصوصها،  
 فهي مراده له سبحانه، كما هي معلومة مقدورة، فلزمهم القول بالجبر من  
هذه الجهة، ومن جهة نفيهم<sup>(١)</sup> أن يكون لإرادة العبد وقدرته أثر في الفعل.

فإن قيل: فأي وادٍ تسلكونه غير هذين الواديين، وأي طريق تمرؤن  
فيها<sup>(٢)</sup> سوى هذين الطريقين؟

قيل: نعم، ه هنا طريق ثالثة لم يسلكها الفريقان، ولم تهد إليها  
الطائفتان، ولو حَكَمْتُ كل طائفة ما معها من الحق، والتزمت لوازمه  
وطرده؛ لساقتها إلى هذه الطريق، ولا وقعتها على المحاجة المستقيمة.

فنقول وبالله التوفيق، وهو المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة

---

(١) «د»: «منعهم»، ويشبه أن تكون في «م»: «قضيتهم»! والمثبت من «ج».

(٢) «م»: «تسلكونها سوى هاتين».

إلا بالله:

العبد بجملته مخلوق لله جسمه وروحه وصفاته وأفعاله وأحواله، فهو مخلوق من جميع الوجوه، وُخُلِقَ على نشأة وصفة يتمكن بها من إحداث إراداته وأفعاله، وتلك النشأة بمشيئة الله وقدرته وتكوينه، فهو الذي خلقه وكُوِّنَه كذلك، وهو لم يجعل نفسه كذلك، بل خالقه وبарьه جعله مُحدِّثاً لإراداته وأفعاله، وبذلك أمره ونهاه، وأقام عليه حجته، وعَرَضَه للثواب والعقاب، فأمَرَه بما هو متمكن من إحداثه، ونهاه عما هو متمكن من تركه، ورتب ثوابه وعقابه على هذه الأفعال والتزوك التي مكَّنه منها، وأقدرها عليها، وناظها به، وفطر خلقه على مدحه وذمه عليها، مؤمنهم وكافرهم، المقر بالشريعة منهم والجادب بها، فكان مریداً شائياً بمشيئة الله له، ولو لا مشيئة الله أن يكون شائياً لكان أعجز وأضعف من أن يجعل نفسه شائياً<sup>(١)</sup>.

فالربُّ تعالى أعطاه مشيئة وقدرة وإرادة، وعَرَفَه ما يفعه وما يضره، وأمره أن يجري مشيئته وإرادته وقدرته في الطريق التي يصل بها إلى غاية صلاحه، فأجراها في طريق هلاكه، بمنزلة من أعطى عبده فرساً يركبها، وأوقفه على طريقي نجاة وهلاكة، وقال: أَجْرِهَا في هذه الطريق. فعدل بها إلى الطريق الأخرى، وأجراها فيها، فغلبته بقوّة رأسها، وشدة سيرها، وعزّ على ردها عن جهة جريها، وحيل بينه وبين إدارتها إلى ورائها، مع اختيارها وإرادتها.

فلو قلت: كان ردها عن طريقها ممكناً له مقدوراً؛ أصبت.

---

(١) من قوله: «بمشيئة الله له» إلى هنا ساقط من «م».

وإن قلت: لم يبق في هذه الحال بيده من أمرها شيء، ولا هو متمكن منه؛ أصبت، بل قد حال بينه وبين ردها مَنْ يحول بين المرء وقلبه، ومن يقلب أفئدة المعاندين وأبصارهم.

وإذا أردت فهم هذا على الحقيقة فتأمل حال من عرضت له صورة بارعة الجمال، فدعاه حسنُها إلى محبتها، فنهاه عقله، وذُكره ما في ذلك من التلف والعطب، وأراه مصارع العشاق عن يمينه وعن شماله، ومن بين يديه ومن خلفه، فعاد يعاود النظر مرة بعد مرة، ويبحث نفسه على التعلق وقوته الإرادة، ويحرض على أسباب المحبة، ويدني الوقود من النار، حتى إذا اشتعلت، وشبّ ضرّامها، ورمي بشررها، وقد أحاطت به = طلب الخلاص، قال له القلب: هيئات لات حين مناص، وأنشدَه:

تولّع بالعشق حتى عشق  
فلما استقلّ به لم يطُنْ  
رأى لجّة، ظَهَّا موجة  
فلما تمكّن منها غرق<sup>(١)</sup>

فكان الترك أو لا مقدورًا له، لما لم يوجد السبب التام والإرادة الجازمة الموجبة للفعل، فلما تمكّن الداعي، واستحكمت الإرادة، قال المحب لعاذله:

ياعاذلي والأمر في يده هلا عذلت وفي يدي الأمر<sup>(٢)</sup>

فكان أول الأمر إرادة و اختيارًا ومحبة، ووسطه اضطرارًا، وآخره عقوبة

(١) سلف توقيف البيتين في (٢٩٥).

(٢) هو في «ديوان الصباية» (٣٤) دون نسبة، واستشهاد به المصنف في «إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان» (٤٠)، وفي «روضة المحبين» (٢٢٣).

وبلاء.

ومثّلَ هذا برجل ركب فرساً لا يملكه راكبه، ولا يتمكّن من رده، وأجراءه في طريق ينتهي به إلى موضع هلاك، فكان الأمر إليه قبل ركوبها، فلما توسطت به الميدان خرج الأمر عن يده، فلما وصلت به إلى الغاية حصل على الهلاك.

ويشبه هذا حال السكران الذي قد زال عقله إذا جئّ في حال سكره؛ لم يكن معذوراً؛ لتعاطيه السبب اختياراً، فلم يكن معذوراً بما ترتب عليه اضطراراً.

وهذا مأخذ من أوقع طلاقه من الأئمة، ولهذا قالوا: إذا زال عقله بسبب يعذر فيه لم يقع طلاقه، فجعلوا وقوع الطلاق عليه من تمام عقوبته.  
والذين لم يوقعوا الطلاق قولهم أفقه، كما أفتى به عثمان بن عفان<sup>(١)</sup>، ولم يعلم له في الصحابة مخالف.

ورجع إليه الإمام أحمد، واستقر عليه قوله<sup>(٢)</sup>.

فإن الطلاق ما كان عن وطأ، والسكران لا وطأ له في الطلاق.

وقد حكم النبي ﷺ بعدم وقوع الطلاق في حال الغُلْق<sup>(٣)</sup>، والسُّكْر من

(١) أخرجه عبد الرزاق (١٢٣٠/٨)، وابن أبي شيبة (١٨٢٧/٥)، وقد ناقش ابن عبد البر في «الاستذكار» (١٦٣/١٨) دعوى عدم وجود مخالف من الصحابة لعثمان.

(٢) انظر: «مسائل أحمد وإسحاق» (٤٦٤/٩)، «إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان» (٢٦-٢٧)، «الإنصاف» (٨/٤٣).

(٣) الغُلْق اسم الإغلاق، وهو الإكراه، كأنه إذا ضُيق على الزوج فاضطر إلى تطليق امرأته

الغلْق كما أن الإِكْرَاه والجُنُون من الغلْق.

بل قد نصَّ الإمام أَحْمَد<sup>(١)</sup> وأَبُو عَيْد<sup>(٢)</sup> وأَبُو دَاوُد<sup>(٣)</sup> على أن الغضب إِغْلَاق، وفَسَرَّ بِهِ الإمام أَحْمَد الْحَدِيث فِي رِوَايَة أَبْنِي طَالِب<sup>(٤)</sup>، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَن مَذْهَبَهُ أَن طَلاقَ الْغَضِيبَان لَا يَقْعُدُ.

وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ الَّذِي يُفْتَنُ بِهِ إِذَا كَانَ الْغَضَبُ شَدِيدًا، قَدْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ قَصْدَهُ، فَإِنَّهُ يَصِيرُ بِمَنْزِلَةِ السَّكْرَانِ وَالْمُكَرَّهِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ أَحْسَنُ حَالًا مِنْهُ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ فِي حَالٍ شَدَّدَ غَضْبُهُ يَصْدُرُ مِنْهُ مَا لَا يَصْدُرُ مِنَ السَّكْرَانِ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ سَبَحَانَهُ أَنَّهُ لَا يَجِبُ دُعَاءُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ فِي هَذِهِ الْحَالِ، وَلَوْ أَجَابَهُ لِقَضَى إِلَيْهِ أَجْلَهُ.

وَقَدْ عَذَرَ سَبَحَانَهُ مِنْ اشْتِدَّ بِهِ الْفَرَحِ بِوُجُودِ رَاحْلَتِهِ فِي الْأَرْضِ الْمَهْلَكَةِ

---

فَقَدْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَ الْمُخْرَجِ، فَوَضَعَ الْإِغْلَاقَ مَوْضِعَ الإِكْرَاهِ. يُنْظَرُ: «الصَّحَاحُ» (١٥٣٨/٤)، «الْإِزَاهِرُ» (١٤٩).

وَالْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٢٦٣٦٠)، وَأَبُو دَاوُدَ (٢١٩٣)، وَابْنِ ماجِهِ (٢٠٤٦)، مِنْ طَرِيقِ عَائِشَةَ تَرْفِعَهُ: «لَا طَلاقُ، وَلَا عَتْقٌ فِي إِغْلَاقٍ»، وَفِي إِسْنَادِهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَيْدٍ بْنُ أَبِي صَالِحٍ، ضَعْفُهُ أَبُو حَاتِمٍ كَمَا فِي «الجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ» (٨/١٠)، وَانْظُرْ: «الْبَدرُ الْمُنِيرُ» (٨/٨٤-٨٦).

(١) نَقْلُهُ الْمُصْنَفُ وَغَيْرُهُ مِنْ رِوَايَةِ حَنْبَلٍ عَنْهُ، كَمَا فِي «إِغَاثَةِ الْلَّهَفَانِ فِي حُكْمِ طَلاقِ الْغَضِيبَانِ» (٦)، وَ«زَادُ الْمَعَادِ» (٥/١٩٥)، وَ«الْفَرْوَعُ» (٩/١١).

(٢) وَكَذَلِكَ نَسْبَهُ إِلَيْهِ فِي «الصَّوَاعِقِ» (٢/٥٦٣)، وَفِي «الْمَغْنِيِّ» (١٠/٣٥١)، وَ«زَادُ الْمَعَادِ» (٥/١٩٥) تَنصِيصُ أَبِي عَيْدٍ عَلَى أَنَّ الْإِغْلَاقَ هُوَ الإِكْرَاهُ.

(٣) عَقْبُ تَخْرِيجِهِ الْحَدِيثِ (٢١٩٣)، بِقَوْلِهِ: «أَظْنَهُ الْغَضَبُ».

(٤) الْمَشْهُورُ الَّذِي حَكَاهُ الْمُصْنَفُ فِي كِتَبِهِ الْأُخْرَى وَحَكَاهُ غَيْرُهُ أَنَّهَا مِنْ رِوَايَةِ حَنْبَلٍ.

بعدما يئس منها، فقال من شدة الفرح: «اللهم أنت عبدي وأنا ربك»<sup>(١)</sup>، ولم يجعله بذلك كافراً؛ لأنه أخطأ بهذا القول من شدة الفرح.

فكمال رحمته وإحسانه وجوده يقتضي أن لا يؤخذ من اشتد غضبه بدعائه على نفسه وأهله وولده، ولا بطلاقه لزوجته.

وأما إذا زال عقله بالغضب فلم يعقل ما يقول؛ فإن الأمة متفقة على أنه لا يقع طلاقه ولا عتقه، ولا يكفر بما يجري على لسانه من كلمة الكفر.



---

(١) تقدم تخریجه في (٣٨٠).

## البَابُ التَّاسِعُ عَشَرُونَ

في ذِكْرِ مناظرة جرت بين جبوري وسني جمعهما مجلس مذاكرة

قال الجبوري: القول بالجبر لازم لصحة التوحيد، ولا يستقيم التوحيد إلا به؛ لأنَّا إن لم نقل بالجبر أثبَتنا فاعلاً للحوادث مع الله، إن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل، وهذا شرك ظاهر لا يخلص منه إلا القول بالجبر.

قال السني: بل القول بالجبر منافٍ للتَّوحيد، ومع منافاته للتَّوحيد فهو مناف للشرع، ودعوة الرَّسل، والثواب والعقاب، فلو صَحَّ الجَبْرُ لبطلَ الشرائع، وبطل الأمر والنهي، ويلزم من بطلان ذلك بطلان الثواب والعقاب.

قال الجبوري: ليس العجب دعواك منافاة الجَبْرُ للأمر والنهي، والثواب والعقاب؛ فإنَّ هذا لم يزل يُقال، وإنما العجب دعواك منافاته للتَّوحيد، وهو من أقوى أدلة التَّوحيد، فكيف يكون المُقرَّرُ للشَّيءِ، المُقوَّيُ له منافياً له؟!

قال السني: منافاته للتَّوحيد من أظهر الأمور، ولعلها أظهر من منافاته للأمر والنهي، وبيان ذلك أنَّ أصل عقد التَّوحيد وأساسه هو شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، والجَبْرُ ينافي الكلمتين؛ فإنَّ الإله هو المستحق لصفاتِ الكمال، المنعوت بنعموتِ الجلال، وهو الذي تألهه القلوب، وتتصمد إليه بالحب والخوف والرجاء، فالتوحيد الذي جاءت به الرَّسل هو إفرادُ الرَّبِّ بالتأله، الذي هو كمال الذل والخضوع والانقياد له، مع كمال المحبة والإناية، وبذل الجهد في طاعته ومرضاته، وإيثار محاباته ومراده الديني على محبة العبد ومراده، فهذا أصل دعوة الرَّسل، وإليه دعوا

الأمم، وهو التوحيد الذي لا يقبل الله من أحد دينًا سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو الذي أمر به رسle، وأنزل به كتبه، ودعا إليه عباده، ووضع لهم دار الشواب والعقاب لأجله، وشرع الشرائع لتكميلاً وتحصيله.

وكان من قولك أيها الجبri: إن العبد لا قدرة له على هذا البتة، ولا أثر له فيه، ولا هو فعله، وأمره بهذا أمر له بما لا يطيق، بل أمر له بإيجاد فعل الربّ، وأن الربّ تعالى أمره بذلك، وأجبره على صدّه، وحال بينه وبين ما أمره به، ومنعه منه، وصدّه عنه، ولم يجعل له إليه سبيلاً بوجه من الوجه.

مع قولك: إنه لا يُحبّ، ولا يُحَبّ، فلا تتأله القلوب بالمحبة والود والشوق والطلب وإرادة وجهه، والتوكيد معنى ينتظم من إثبات الإلهية وإثبات العبودية، فرقفت معنى الإلهية يإنكار كونه محبوبًا مودودًا، تتنافس القلوب في محبته وإرادة وجهه، والشوق إلى لقائه، ورفقت حقيقة العبودية يإنكارك كون العبد فاعلاً وعابداً ومججاً، فإن هذا كلّه مجاز لا حقيقة له عندك.

فضاع التوحيد بين الجبّر وإنكار محبته وإرادة وجهه، لاسيما والوصف الذي وصفته به منقرٌ للقلوب عنه، حائل بينها وبين محبته؛ فإنك وصفته بأنه يأمر عبده بما لا قدرة له على فعله، وبنهاه عما لا يقدر على تركه، بل يأمره بفعله هو سبحانه، وبنهاه عن فعله هو، ثم يعاقبه أشد العقوبة على ما لم يفعله البتة، بل يعاقبه على أفعاله هو سبحانه.

وصرحت بأن عقوبته على ترك ما أمره، وفعل ما نهاه بمنزلة عقوبته له على ترك طيرانه إلى السماء، وترك تحويله الجبال عن أماكنها، ونقله مياه البحار عن مواضعها، وبمنزلة عقوبته له على ما لا صنع له فيه من لونه

وطوله وقصره.

وصرحت بأنه يجوز عليه أن يعذب أشد العذاب من<sup>(١)</sup> لم يعصه طرفة عين، وأن حكمته ورحمته لا تمنع ذلك، بل هو جائز عليه، ولو لا خبره عن نفسه بأنه لا يفعل ذلك لم تنزعه عنه.

وقلت: إن تكليفه عباده بما كلفهم به بمترلة تكليف الأعمى للكتابة، والزَّمِن للطيران!

فبعضتَ الرَّبَّ إلى من دعوه إلى هذا الاعتقاد، ونفرَّته عنه، وزعمتَ أنك تقرر بذلك توحيده، وقد قلعت شجرة التوحيد من أصلها.

وأما منافاة الجَبْر للشَّرائِع فأمر ظاهر لا خفاء به؛ فإنَّ مبني الشَّرائِع على الأمر والنهي، وأمر الأمر لغيره بفعل نفسه لا بفعل المأمور، ونبنيه عن فعله لا فعل المنهي = عبُّ ظاهر؛ فإنَّ متعلق الأمر والنهي فعل العبد وطاعته ومعصيته، فمن لا فعل له كيف يتصور أن يوصف بطاعة أو معصية؟!

وإذا ارتفعت حقيقة الطاعة والمعصية ارتفعت حقيقة الثواب والعقاب، وكان ما يفعله الله بعباده يوم القيمة من التعيم والعذاب أحکاماً جارية عليهم بمحض المشيئة والقدرة، لا أنها بأسباب طاعاتهم ومعاصيهم.

بل ه هنا أمر آخر، وهو أن الجَبْر منافي للخَلْق كما هو مناف للأمر؛ فإنَّ الله سبحانه له الخَلْق والأمر، وما قامت السماوات والأرض إلا بعدله، فالخَلْق قام بعدله، وبعدله ظهر، كما أن الأمر بعدله، وبعدله وُجِد، فالعدل سبب وجود الخَلْق، والأمر غايتها، فهو علته الفاعلية والغائية، والجَبْر لا

---

(١) في الأصول: «لمن»، والصواب المثبت.

يجامع العدل كما لا يجامع الشرع والتوحيد.

قال الجبري: لقد نطقَ أيها السنّي بعظيم، وفهْتَ بكير، وناقضتَ بين متوافقين، وخالفتَ بين متلازمين؛ فإن أدلة العقول، والشرع المنشول، قائمة على الجَبْر، وما دلَّ عليه العقل والنُّقل كيف ينافي موجب الشرع والعقل؟!

فاسمع الآن الدليل الباهر، والبرهان القاهر على الجَبْر، ثم تبعه بأمثاله<sup>(١)</sup>، فنقول:

صدور الفعل عند حصول القدرة والداعي: إما أن يكون واجباً أو لا يكون واجباً، فإن كان واجباً كان فعل العبد اضطرارياً، وذلك عين الجَبْر؛ لأن حصول القدرة والداعي ليس للعبد<sup>(٢)</sup>، وإلا لزم التسلسل، وهو ظاهر. وإذا كان كذلك فعند حصولهما يكون الفعل واجباً، وعند عدم حصولهما يكون الفعل ممتنعاً، فكان<sup>(٣)</sup> الجَبْر لازماً لا محالة.

وأما إن لم يكن حصول الفعل عند حصول القدرة والداعي واجباً: فإما أن يتوقف رجحان الفعل على رجحان الترك على مرجح، أو لا يتوقف، فإن توقف كان حصول ذلك الفعل عند حصول المرجح واجباً، وإلا عاد الكلام، ولزم التسلسل، وإذا كان واجباً كان اضطرارياً، وهو عين الجَبْر، وإن لم يتوقف على مرجح كان جائز الوقع وجائز العدم، فوقوعه بغير مرجح يستلزم حصول الأثر بلا مؤثر، وذلك محال.

(١) «د» «ج»: «بأمثال»، والمثبت من «م».

(٢) «د» «ج»: «بالعبد»، والمثبت من «م».

(٣) «د» «م»: «وكان»، والمثبت من «ج».

فإن قلتَ: المرجح هو إرادة العبد.

قلتُ لك: إرادة العبد حادثة، والكلام في حدوثها كالكلام في حدوث المراد بها، ويلزم التسلسل.

قال السنّي: هذا أحد سهم في كنانتك، وهو بحمد الله سهم لا ريش له ولا نصل مع عوجه، وعدم استقامته، وأنا أستفسرك عما في هذه الحجة من الألفاظ المجملة المشتملة على حق وباطل، وأبين لك فسادها.

فما تعني بقولك: إن كان الفعل عند القدرة والداعي واجباً كان فعل العبد اضطرارياً، وهو عين الجبر؟

أتعني به: أنه يكون مع القدرة والداعي بمنزلة حركة المرتعش، وحركة من نفضته الحمّى، وحركة من رُمي به من مكان عالٍ، فهو يتحرك في نزوله اضطراراً منه؟ أم تعني به: أن الفعل عند اجتماع القدرة والداعي يكون لازم الوقوع بالقدرة والداعي؟

فإن أردتَ بكونه اضطرارياً المعنى الأول: كذبتك العقول والفطر والحسّ والعيان؛ فإن الله فطر عباده على التفريق بين حركة مَنْ رُمي به من شاهق، فهو يتحرك إلى أسفل، وبين حركة مَنْ يرقى في الجبل إلى علوه، وبين حركة المرتعش، وحركة المصدق، وبين حركة الزاني والسارق والمُجاهد والمصلّي، وحركة المكتوف الذي قد أوثق رباطاً وجُرّ على الأرض. فمن سوئ بين الحركتين فقد خلع ريبة العقل والفطرة والشرعية من عنقه.

وإن أردتَ المعنى الثاني، وهو كون الفعل لازم الوجود عند وجود

القدرة والداعي؛ فهذا المعنى حق، ويكون حقيقة قولك: إن كان لازم الوجود عند القدرة والداعي كان لازم الوجود، وهذا لا فائدة فيه، وكونه لازماً وواجباً بهذا المعنى لا ينافي كونه مختاراً للعبد، مراداً له، مقدوراً له، غير مُكره عليه ولا مجبور، فهذا الوجوب واللزوم لا ينافي الاختيار.

ثم نقول: لو صحت هذه الحجة لزم أن يكون الرب سبحانه مضطراً على أفعاله، مجبوراً عليها بعين ما ذكرت من مقدماتها؛ فإنه سبحانه يفعل بقدرته ومشيئته، وما ذكرت من وجوب الفعل عند القدرة والداعي، وامتناعه عند عدمهما؛ ثابت في حقه سبحانه.

وقد اعترف أصحابك بهذا الإلزام، وأجابوا عنه بما لا يجدي شيئاً.

قال ابن الخطيب<sup>(١)</sup> عقب ذكر هذه الشبهة: فإن قلت: هذا ينفي كونه فاعلاً مختاراً؟

قلت: الفرق أن إرادة العبد مُحدّثة، فافتقرت إلى إرادة يحدثها الله؛ دفعاً للتسلسل، وإرادة البارئ قديمة، فلم تفتقر إلى إرادة أخرى<sup>(٢)</sup>.

وردَّ هذا الفرق صاحب «التحصيل»<sup>(٣)</sup>، فقال: ولسائل أن يقول: هذا لا

(١) هو الفخر الرازبي، ويقال له أيضاً: ابن خطيب الري، انظر: «تاريخ الإسلام» (١٣٧/١٣).

(٢) بنحوه في: «الأربعين» (١/٣٢٣)، «المطالب العالية» (٩/٢٧).

(٣) هو سراج الدين محمود بن أبي بكر الأرموي (٦٨٢هـ)، و«التحصيل» مختصر من «الممحضول» للرازي، انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» (٨/٣٧١)، ولم أقف على موضع هذا الاعتراض من كلام الأرموي، وممن رد التقسيم المذكور القرافي في «نفائس الأصول في شرح الممحضول» (١/٣٥٨).

يدفع التقسيم المذكور.

قلت: فإن التقسيم متعدد بين لزوم الفعل عند الداعي وامتناعه عند عدمه، وهذا التقسيم ثابت في حق الغائب والشاهد، وكون إرادة الرب تعالى قدّيمة من لوازمه ذاته لا فاعل لها=لا يمنع هذا التردّيد والتّقسيم؛ فإن عند تعلّقها بالمراد يلزم وقوعه، وعند عدم تعلّقها به يمتنع وقوعه، وهذا اللزوم والامتناع لا يخرجه سبحانه عن كونه فاعلاً مختاراً<sup>(١)</sup>.

ثم نقول: هذا المعنى لا يسمى جبراً ولا اضطراراً؛ فإن حقيقة الجبر ما حصل بإكراه غير الفاعل له على الفعل، وحمله على إيقاعه بغير رضاه واختياره، والرب تعالى هو الخالق للإرادة والمحبة والرضا في قلب العبد، فلا يسمى ذلك جبراً، لا لغة ولا عقلاً ولا شرعاً.

ومن العجب احتجاجك بالقدرة المُحدّثة والداعي على أن الفعل الواقع بهما اضطراري من العبد، والفعل عندك لم يقع بهما، ولا هو فعل للعبد بوجهه، وإنما هو عين فعل الله، وذلك لا يتوقف على قدرة من العبد ولا داع منه، ولا هناك ترجيح له عند وجودهما، ولا عدم ترجيح عند عدمهما، بل نسبة الفعل إلى القدرة والداعي كنسبته إلى عدمهما، فالفعل عندك عين<sup>(٢)</sup> فعل الله، فلا ترجيح هناك من العبد ولا مرجح، ولا تأثير ولا أثر، فالفعل للرب حقيقة عندك، فإذا كان واجباً بقدرته ومشيئته - وذلك عين الجبر - لزمك أن يكون الرب تعالى مجبوراً على أفعاله، وهذا مما لا محيد

---

(١) انظر: «شرح الأصول الخمسة» (٤١٥، ٤٢٢-٤٣١).

(٢) «د» «ج»: «غير» خطأ مفسد للمعنى، والتوصيب من «ت».

لك عنه، ولا مفرّ لك منه.

قال السنّي: وقد أجابك إخوانك من القدرية عن هذه الحجة بأجوبة أخرى.

فقال أبو هاشم وأصحابه: لا يتوقف فعل القادر على الداعي، بل يكفي في فعله مجرد قدرته.

قالوا: فقولك: عند حصول الداعي: إما أن يجب الفعل أو لا يجب؟  
عندنا لا يجب الفعل بالداعي، ولا يتوقف عليه<sup>(١)</sup>.

ولا يمكنك - أيها الجبرى - الرد على هؤلاء؛ فإن الداعي عندك لا تأثير له في الفعل البتة، ولا هو متوقف عليه، ولا على القدرة؛ فإن القدرة الحادثة عندك لا تؤثر في مقدورها، فكيف يؤثر الداعي في الفعل، فهذه الحجة لا تتوجه على أصولك البتة، وغايتها إلزام خصومك بها على أصولهم.

وقال أبو الحسين البصري وأصحابه: يتوقف الفعل على الداعي.

ثم قال أبو الحسين: إذا تجرد الداعي وجّب وقوع الفعل، ولا يخرج بهذا الوجوب عن كونه اختيارياً.

وقال محمود الخوارزمي صاحبه: لا ينتهي بهذا الداعي إلى حَدُّ الوجوب، بل يكون وجوده أولى<sup>(٢)</sup>.

(١) ناقش القاضي هذه المسألة في عدة فصول من الجزء الخاص بالمخلوق في كتابه «المعني في أبواب التوحيد والعدل» (٨/٥٣، ٦٣)، ونقل عن أبي هاشم جملة تقول.

(٢) حكى هذه الأقوال الرازى في «الأربعين» (٣١٩-٣٢٠)، وانظر: «منهج السنة» (٣٨٠/٣)، «مجموع الفتاوى» (٤٦/٢٤٨-٢٥١).

قالوا: فنجيبك عن هذه الشبهة على الرأيين جميـعاً.

أما على رأي أبي هاشم فنقول: صدور إحدى الحركتين عنه دون الأخرى لا يحتاج إلى مرـجـح، بل من شأن القادر أن يوقع الفعل من غير مرـجـح لجانب وجوده على عدمـه.

قالوا: ولا استبعـاد في العقل في وجود مخلوق يتمـكـن من الفعل بدـلاً عن التـرك، وبالضـدـ من غير مرـجـح، كما أن النـائـم والـسـاهـي يتحرـكـان من غير داع وإرـادـة.

فإن قلتم: بل هناك داعٍ وإرـادـة لا يذكرـها النـائـم والنـاسـي؛ كان ذلك مـكـابـرة.

قلـتـ: وأصحابـ هذا القـولـ يقولـونـ: إنـ القـادـرـ هوـ الـذـيـ يـفـعـلـ معـ جـواـزـ أنـ لاـ يـفـعـلـ، وأصحابـ القـولـ الأولـ يقولـونـ: بلـ يـفـعـلـ معـ وجـوبـ أنـ يـفـعـلـ، وـمـحـمـودـ الـخـوارـزمـيـ توـسـطـ بـيـنـ المـذـهـبـيـنـ، وـقـالـ: بلـ يـفـعـلـ معـ أولـوـيـةـ أنـ يـفـعـلـ، وـلـاـ يـتـهـيـ التـرجـيـحـ إـلـىـ حـدـ الـوـجـوبـ، فـالـأـقـوالـ خـمـسـةـ:

أـحـدـهـاـ: أـنـ الفـعـلـ مـوـقـوفـ عـلـىـ الدـاعـيـ، فـإـذـاـ انـضـمـتـ الـقـدرـةـ إـلـىـ وـجـبـ الفـعـلـ بـمـجـمـوعـ الـأـمـرـيـنـ، وـهـذـاـ قـوـلـ جـمـهـورـ الـعـقـلـاءـ، وـلـمـ يـصـنـعـ اـبـنـ الـخـطـيـبـ شـيـئـاـ فـيـ نـسـبـتـهـ لـهـ إـلـىـ الـفـلـاسـفـةـ وـأـبـيـ الـحـسـينـ الـبـصـرـيـ مـنـ الـمـعـتـزـلـةـ<sup>(1)</sup>.

الـثـانـيـ: أـنـ الفـعـلـ يـجـبـ بـقـدـرـةـ اللهـ، وـقـدـرـةـ الـعـبـدـ، وـهـذـاـ قـوـلـ مـنـ يـقـولـ: إـنـ قـدـرـةـ الـعـبـدـ مـؤـثـرـةـ فـيـ مـقـدـورـهـ مـعـ قـدـرـةـ اللهـ عـلـىـ عـيـنـ مـقـدـورـ الـعـبـدـ، وـهـذـاـ قـوـلـ

---

(1) «الأربعين» (٣١٩).

أبي إسحاق<sup>(١)</sup>، و اختيار الجويني في «النظامية»<sup>(٢)</sup>.

الثالث: قول من يقول: يجب بقدرة الله فقط، وهذا قول الأشعري، والقاضي أبي بكر، ثم اختلفا<sup>(٣)</sup>.

فقال القاضي: كونه فعلاً واقع بقدرة الله، وكونه صلاة أو حجّاً أو زناً أو سرقة واقع بقدرة العبد، فتأثير قدرة الله في ذات الفعل، وتأثير قدرة العبد في صفة الفعل.

وقال الأشعري: أصل الفعل ووصفه واقعان بقدرة الله، ولا تأثير لقدرة العبد في هذا ولا هذا.

الرابع: قول من يقول: لا يجب الفعل من القادر البّتة، بل القادر هو الذي يفعل مع جواز أن لا يفعل، فلا يتّهي فعل القادر المختار إلى الوجوب أصلاً، وهذا قول أبي هاشم وأصحابه.

الخامس: أنه يكون عند الداعي أولى بالواقع، ولا يتّهي إلى حدّ الوجوب، وهذا قول الخوارزمي.

وقد سلم أبو الحسين أن الفعل يجب مع الداعي، وسلم أن الداعي مخلوق لله، وقال: إن العبد مستقل بایجاد فعله، قال: والعلم بذلك ضروري.

---

(١) هو الإسپرائيوني، وتحرفت في «د» و«م» إلى: «ابن إسحاق»، وعلى الصواب في «ج»، وانظر: «محصل أفكار المتقدمين» (١٩٤).

(٢) «النظامية» (٤٢-٤٩).

(٣) انظر: «التمهيد» (٢٨٦)، «الإنصاف» (٤٣)، «المطالب العالية» (٩/١٠)، «الأربعين» (٣٢٠).

قال ابن الخطيب: «وهذا غلو منه في القدر. وقوله: «إنه يتوقف على الداعي، والداعي خلق الله» غلو في الجبر، فجمع بين القدر والجبر مع غلوه فيهما»<sup>(١)</sup>.

ولم ينصحه؛ فليس ما ذهب إليه غلوًا في قدر ولا جبر؛ فإنّ توقف الفعل على الداعي ووجوبه عنده بقدرة العبد ليس جبراً، فضلاً أن يكون غلوًا فيه، وكون العبد مُحدِثاً لفعله ضرورة بما خلقه الله فيه من القدرة والاختيار ليس قولًا بمذهب القدرية، فضلاً عن كونه غلوًا فيه.

### فصل

قال الجبري: إذا كان الداعي ليس من أفعالنا، وهو عُلم القادر أن في ذلك الفعل مصلحة له، وذلك أمر مركوز في طبيعته التي خلق عليها، وذلك مفعول الله فيه، والفعل واجب عنده = فلا معنى للجبر إلا هذا.

قال له السنني: أخوك القدري يجيئك عن هذا: بأن ذلك الداعي قد يكون علمًا، وقد يكون اعتقادًا، وقد يكون ظنًا، وقد يكون جهلاً وغلطًا، وهذه أمور يحدثها الإنسان في نفسه، فيفعل على حسب ما يتواهم أن فيه مصلحته: صادفها أو لم يصادفها، فالداعي لا ينحصر في العلم خاصة.

قال الجبري: لا يساوي هذا الجواب شيئاً؛ فإن العطشان مثلًا يدعوه الداعي إلى شرب الماء لعلمه بنفعه، وشهوته وميله إلى شريه، وذلك العلم وتلك الشهوة والميل إلى الشرب من فعل الله فيه، فيجب على القدري أن يترك مذهبه صاغراً داخراً، ويعرف بأن ذلك الفعل مضارف إلى من خلق فيه

---

(١) «الأربعين» (٣١٩-٣٢٠).

الداعي المقتضي.

قال القدري: ذلك الداعي وإن كان من فعل الله تعالى إلا أنه جار مجرى فعل المكْلَف؛ لأنَّه قادر على أن يبطل أثره بـأن يستحضر صارفاً عن الشرب، مثل أن يحجم عن الشرب تجربة هل يقدر على مخالفة الداعي أم لا، فإِحجامه لأجل التجربة أثُر داعٍ ثان هو الصارف<sup>(١)</sup>؛ يعارض الداعي، فالحاـي قادر على تحصيله، وقدر على إبقاء الداعي الأول بحالـه<sup>(٢)</sup>، فإذاـقـاؤه الداعي الأول بحالـه، وإعراضـه عن إحضارـ المعارضـ له؛ أمر لولـاه ما حصل الشرـب، فمن هذا الوجه كان الشرـب فعـلاـ له؛ لأنـه قادر على تحصـيل الأسبـاب المختلفةـ التي تـصدر عنها الآثارـ.

ويصـير هذا كـمن شـاهـد إنسـاناـ في نـار مـتأـجـجةـ، وـهو قادر على إطفـائـها عنهـ من غير مشـقة ولا مـانـعـ، فإنـه إن لم يـطفـئـها استـحقـ الذـمـ، وإنـ كان الإـحرـاقـ من أثـرـ النـارـ.

وقد أجاب ابن أبي الحـدـيدـ بـجـوابـ آخرـ، فقالـ: ويـمـكنـ أنـ يـقالـ: إـذـا تـجرـدـ الدـاعـيـ كـما ذـكـرتـمـ فـيـ صـورـةـ العـطـشـانـ، فإنـ التـكـلـيفـ بـالـفـعلـ وـالـتـرـكـ يـسـقطـ؛ لأنـه يـصـيرـ أـسـوـاـ حـالـاـ مـنـ الـمـلـجـأـ.

وهـذاـ منـ أـفـسـدـ الـأـجـوـيـةـ عـلـىـ أـصـوـلـ جـمـيعـ الفـرـقـ؛ فـإـنـ مـقـتـضـيـ التـكـلـيفـ قـائـمـ، فـكـيـفـ يـسـقطـ مـعـ حـضـورـ الـعـقـلـ<sup>(٣)</sup> وـالـقـدرـةـ؟

---

(١) «م»: «أثـرـ دـاعـ بـأـنـ هـذـاـ الصـارـفـ».

(٢) «د»: «مـخـالـفـةـ» دونـ إـعـجاـمـ.

(٣) «ج»: «الـفـعلـ».

وهذا قسم رابع من الذين رُفع عنهم التكليف أبْتَهُ هذا القدرِ زائداً على الثلاثة الذين رُفع عنهم القلم، وهذا خرق منه لِإجماع الأمة المعلوم بالضرورة، ولو سقط التكليف عند تجرد الداعي لكان كل من تجرد داعيه إلى فعل ما أُمِرَ به؛ قد سقط عنه التكليف.

وهذا القول أقبح من القول بـتکلیف ما لا يطاق، ولهذا كان القائلون به<sup>(١)</sup> أكثر من هذا القائل، وقولهم يُحکى، وينظر عليه.

قال الجبري: إذا كان الداعي من الله، وهو سبب الفعل، والفعل واجب عنده، كان خالق الفعل هو خالق الداعي؛ لأنَّ خَلْقَ السبب خَلْقَ المُسَبِّبِ.

قال السنّي: هذا حق، فإنَّ الداعي مخلوق الله في العبد، وهو سبب الفعل، فالفعل مضارف إلى الفاعل؛ لأنَّه صدر منه، ووقع بقدرته ومشيئته و اختياره، وذلك لا يمنع إضافته بطريق العموم إلى من هو خالق كل شيء، وهو على كل شيء قادر.

وأيضاً: فالداعي ليس هو المؤثر، بل هو شرط في تأثير القادر في مقدوره، وكون الشرط ليس من العبد لا يخرجه عن كونه فاعلاً، وغاية قدرة العبد وإرادته الجازمة أن تكون شرطاً، أو جزءاً سبباً، والفعل موقوف على شروط وأسباب لا صنع للعبد فيها البة.

وأسهل الأفعال فتح العين لرؤية الشيء، فهب أن فتح العين فعل العبد إلا أنه لا يستقل بالإدراك، فإنَّ تمام الإدراك موقوف على خلق الدرك، وكونه قابلاً للرؤية، وخلق آلة الإدراك وسلامتها، وصرف الموانع عنها، فما

---

(١) يعني: القائلين بـتکلیف ما لا يطاق.

توقف عليه الرؤية من الأسباب والشروط التي لا تدخل تحت مقدور العبد أضعاف أضعاف ما يقدر عليه، من تقليل حدقته نحو المرئي، فكيف يقول عاقل: إن جزء السبب أو الشرط موجب مستقل لوجود الفعل؟!

وهذا الموضع مما ضلَّ فيه الفريقيان، حيث زعمت القدرة أنه موجب للفعل، وزعمت الجبرية أنه لا أثر له فيه، فخالفت الطائفتان صريح المعقول والمنقول، وخرجت عن السمع والعقل.

والتحقيق أن قدرة العبد وإرادته ودعاعيه جزء من أجزاء السبب التام الذي يجب به الفعل، فمن زعم أن العبد مستقل بالفعل مع أن أكثر أسبابه ليست إليه فقد خرج عن موجب العقل والشرع.

فهُبْ أن داعي حركة الضرب منك مستقل بها، فهل سلامـة الآلة منك؟ وهـل وجود المحل المـُـنـَـفـِـعـِـلـِـ، وقوـلـهـ منـكـ؟ وهـل خـلـقـ الفـضـاءـ بـيـنـكـ وـبـيـنـ المـضـرـوبـ، وـخـلـوـهـ عـنـ المـانـعـ منـكـ؟ وهـل إـمـسـاكـ قـدـرـتـهـ عـنـ مـُـقـارـنـكـ<sup>(١)</sup>، وـغـلـبـكـ منـكـ؟ وهـل خـلـقـ الآـلـةـ التـيـ بـهـ تـضـرـبـ منـكـ؟ وهـل خـلـقـ الـأـلـمـ فـيـهـ بـعـدـ الضـرـبـ منـكـ؟ وهـل القـوـةـ التـيـ فـيـ الـيـدـ، وـالـرـبـاطـاتـ وـالـاتـصـالـاتـ التـيـ بـيـنـ عـظـامـهـاـ، وـشـدـ أـسـرـهـ منـكـ؟

ومن زعم أنه لا أثر للعبد بوجه ما في الفعل، وأن وجود قدرته وإرادته وعدمهما بالنسبة إلى الفعل على السواء؛ فقد كابر العقل والحس.

---

(١) «ج»: «مضاربتك»، والمثبت من «م»، ومثله في «د» دون إعجام، ويكون المـُـقـارـنـ هنا بنحو الصاحب، ويشبه أن تكون: «مضاربك»، يقال: ضارب الرجل مضاربة، كما في المخصص» (٥٢/٢).

قال الجبري: إن انتهت سلسلة المرجحات إلى مرجح من الله يجب  
عنه الفعل لزم الجبر، وإن انتهت إلى مرجح من العبد فذلك المرجح  
ممكن لا محالة، فإن ترجح بلا مرجح انسد عليكم باب إثبات الصانع؛ إذ  
جوّزتم رجحان أحد طرفي الممكن بلا مرجح، وإن توقيف على مرجح آخر  
لزم التسلسل، فلا بدّ من انتهاءه إلى مرجح من الله لا صنع للعبد فيه.

قال السنّي: أما إخوانك القدريّة فإنهم يقولون: القادر المختار يُحدِّث  
إرادته وداعيه بلا مرجح من غيره.

قالوا: والفطرة شاهدة بذلك؛ فإننا لا نفعل ما لم نرد، ولا نريد ما لم نعلم  
أن في الفعل منفعة لنا أو دفع مضرّة، ولا نجد لهذه الإرادة أحداثها، ولا  
لعلمينا بأنّ ذلك نافعٌ علمًا آخر أحدثه، فالمرجح هو ما خلق عليه العبد،  
وُفُطِّر عليه من صفاته القائمة به، فالله سبحانه أنشأ العبد نشأة يتحرّك فيها  
بالطبع، فحركته بالإرادة والمشيئة من لوازمه نشأته وكونه حيوانًا، فإذا راده  
وميوله من لوازمه كونه حيًّا، فأفعال العبد الخاصة به هي الدواعي والإرادات  
لا غير، وما يقع بها من الأفعال شيء بالفعل المتولد من حيث كان المتأول  
مُسَبِّبًا، وهذه الأفعال صادرة عن الدواعي التي يُحدِّثها<sup>(١)</sup> العبد ابتداء من  
غير واسطة، فاشتراكهما في أنّ كل واحد منهما مستند إلى فعل خاص بالعبد،  
فهمَا متماثلان من هذه الجهة.

قال السنّي: وهذا جواب باطل بأبطل منه، ورد فاسد بأفسد منه، ومعاذ

---

(١) تحتمل في «م»: «عرفها»، والمثبت من «د».

الله، والله أكبر وأجل وأعظم وأعز<sup>(١)</sup> أن يكون في عبده شيء غير مخلوق له، ولا هو داخل تحت قدرته ومشيئته، فما قَدَرَ الله<sup>(٢)</sup> حقَّ قدره من زعم ذلك، ولا عرفه حقَّ معرفته، ولا عظمه حقَّ تعظيمه، بل العبد جسمه وروحه وصفاته وأفعاله ودعائيه وكل ذرة فيه مخلوق لله خلقاً تصرف به في عبده.

وقد بيّنا أن قدرته وإرادته ودعائيه جزء من أجزاء سبب الفعل غير مُستَقِلٍ بِإيجاده، ومع ذلك فهذا الجزء مخلوق لله فيه، فهو عبده مخلوق من كل وجه، وبكل اعتبار، وفقره إلى خالقه وبيارئه من لوازم ذاته، وقلبه بيد خالقه، وبين أصحابه من أصحابه يقلبه كيف يشاء، فيجعله مريداً لما شاء وقوعه منه، كارهاً لما لم يشاً وقوعه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

ونعم والله، سلسلة المرجحات تتّهي إلى أمر الله الكوني، ومشيئته النافذة التي لا سبيل لمخلوق إلى الخروج عنها، ولكن «الجبر» لفظ مجمل يراد به حق وباطل كما تقدم.

فإن أردتم به أن العبد مضطرب في أفعاله، وحركته في الصعود في السلم كحركته في وقوعه منه؛ فهذا مكابرة للعقل والفطر.

وإن أردتم به أنه لا حول له ولا قوّة إلا بربه وفاطره؛ فنعم لا حول ولا قوّة إلا بالله، وهي كلمة عامة لا تخصيص فيها بوجه ما، فالقوّة القدرة، والحوال الفعل، فلا قدرة له ولا فعل إلا بالله، فلا ننكر هذا ولا نجد له لتسمية القدري له «جبراً»، فليس الشأن في الأسماء، «إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ»

---

(١) «وأعز» من «ج».

(٢) «د»: «قدره».

**سَمِّيَتُهَا أَنْجُوَةً بَأْوَكَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَنٍ** ﴿النجم: ٢٣﴾، فلان ترك لهذه الأسماء مقتضى العقل والإيمان.

والمحذور كل المحذور أن نقول: إن الله يعذب عبده على ما لا صنع له فيه، ولا قدرة له عليه، ولا تأثير له في فعله بوجه ما، بل يعذبه على فعله هو سبحانه به، وعلى حركته إذا سقط من علو إلى سفل.

نعم لا يمتنع أن يعذبه على ذلك إذا كان قد تعاطى أسبابه بإرادته ومحبته، كما يعاقب السكران على ما جناه في حال سكره لتفريطه وعدوانه بارتكاب السبب، وكما يعاقب العاشق الذي غلب على صبره وعقله، وخرج الأمر عن يده لتفريطه السابق بتعاطي أسباب العشق، وكما يعاقب الذي آلت به إعراضه وبغضه للحق إلى أن صار طبعاً وقفلاً ورثينا على قلبه، فخرج الأمر عن يده، وحيل بينه وبين الهدى، فيعاقبه على ما لم يبق له قدرة عليه ولا إرادة، بل هو ممنوع منه، وعقوبته عليه عدل محسن، لا ظلم فيه بوجه ما.

فإن قيل: فهل يصير في هذه الحال مكلفاً، وقد حيل بينه وبين ما أمر به، وصدى عنه، ومنع منه، أم يزول التكليف؟

قيل: ستقف على الجواب الشافي إن شاء الله عن هذا السؤال في باب القول في تكليف ما لا يطاق قريباً<sup>(١)</sup>، فإنه سؤال جيد، إذ المقصود هنا الكلام في الجبر، وما في لفظه من الإجمال، وما في معناه من الهدى والضلال.

---

(١) لم يفرد المؤلف لهذه المسألة بآيا، ولعله يشير إلى ما سيأتي من مباحث قدرة العبد.

## فصل

قال الجبري: إذا صدر من العبد حركة معينة: فـإِنما أن تكون مقدورة للرب وحده، أو للعبد وحده، أو للرب وللعبد، أو لا للرب ولا للعبد، وهذا القسم الأخير باطل قطعاً، والأقسام الثلاثة قد قال بكل واحد منها طائفة.

فإن كانت مقدورة للرب وحده فهو الذي نقوله، وذلك عين الجُّبر. وإن كانت مقدورة للعبد وحده فذلك إخراج لبعض الأشياء عن قدرة الرب تعالى، فلا يكون على كل شيء قادر، ويكون العبد المخلوق الضعيف قادرًا على ما لم يقدر عليه خالقه وفاطرها، وهذا هو الذي فارقت به القدرة للتوحيد<sup>(١)</sup>، وضاحت به المجروس. وإن كانت مقدورة للرب وللعبد لزالت الشركة، ووقع مفعول بين فاعلين، ومقدور بين قادرين، وأثر بين مؤثرين، وذلك محال؛ لأن المؤثرين إذا اجتمعا استقلالاً على أثر واحد فهو غني عن كل منهما بكل منهما، فيكون محتاجاً إليهما، مستغنياً عنهما.

قال السندي: قد افترق الناس في هذا المقام فرقاً شتى.

فرقة قالت: إنما تقع الحركة بقدرة الله وحده لا بقدرة العبد، وتأثير قدرة العبد في كونها طاعة أو معصية، فقدرة الرب وحده اقتضت وجودها، وقدرة العبد اقتضت صفتها، وهذا قول القاضي أبي بكر ومن اتبعه.

ولعم الله؛ إنه لغير شاف ولا كاف؛ فإن صفة الحركة إن كان أمراً<sup>(٢)</sup> وجودياً فقد أثرت قدرته في أمر موجود، فلا يمتنع تأثيرها في نفس الحركة،

(١) كذلك في الأصول: «للتوحيد».

(٢) «د»: «أثر».

وإن كان صفتها أمراً عدمياً كان متعلق قدرته عدماً لا وجوداً، وذلك ممتنع؛  
إذ أثر القدرة لا يكون عدماً صرفاً.

وفرقة أخرى قالت: بل الفعل وصفته واقع بمحض قدرة الله وحده، ولا  
تأثير لقدرة العبد في هذا ولا في هذا، وهذا قول الأشعري ومن اتباهه.

وفرقة قالت: بل المؤثّر قدرة العبد وحده دون قدرة الربّ، ثم انقسمت  
هذه الفرقة إلى فرتين:

فرقة قالت: إن قدرة العبد هي المؤثّرة مع كون الربّ تعالى قادرًا على  
الحركة، وقالت: إن مقدورات العباد مقدورة لله عز وجل، وهذا قول أبي  
الحسين البصري وأتباعه الحسينية.

وفرقة قالت: إن قدرة العبد هي المؤثّرة، والله سبحانه غير قادر على  
مقدور العبد، وهذا قول المشايخية أتباع أبي علي وأبي هاشم.

وليس عند ابن الخطيب وجمهور المتكلمين غير هذه الأقوال التي لا  
تشفي علياً ولا تروي غليلاً، وليس عند أربابها إلا مناقضة بعضهم بعضاً<sup>(١)</sup>.

وقد أجاب بعض أصحاب أبي الحسين عن هذا السؤال بأن قال: إنه  
وإن كان يقول بمقدور بين قادرین، فله أن يقول في هذا المقام: إن كان الدليل  
الذي ذكرته دليلاً صحيحاً على استحالة اجتماعهما على فعل واحد، فإنما  
يدل على استحالته على فعلهما على سبيل الجمع، ولا يستحيل أن يفعلاه  
على سبيل البدل، كما يستحيل حصول جوهرين في مكان واحد، ولا  
يستحيل حصولهما فيه على البدل.

---

(١) تقدم عزو هذه الأقوال والمذاهب في (٤٦١).

وهذا جواب باطل قطعاً؛ فإن مضمونه أن أحدهما لا يقدر عليه إلا إذا تركه الآخر، فحال تلبس العبد بالفعل بقدره وإرادته إن كان مقدوراً الله فهو القول بمقدور بين قادرٍ، وإن لم يكن مقدوراً له سبحانه لزم إخراج بعض الممكبات عن قدرته.

فإن قلت: هو قادر عليه بشرط أن لا يقدر عليه العبد.

قيل لك: فهذا تصريح منك بأنه في حال قدرة العبد عليه لا يقدر عليه ربّ، فلا ينفعك القول بأنه قادر عليه على البدل.

وأيضاً: فإن قدر عليه عندك بشرط أن لا يقدر<sup>(١)</sup> عليه العبد، فإذا قدر العبد عليه انتفت قدرة ربّ لانتفاء شرطها.

وهذا مما صاح به عليكم أهل التوحيد من أقطار الأرض، ورموكم به عن قوس واحدة، وإنما صانعتم به أهل السنة مصانعة، وإلا فحقيقة هذا القول أن العبد يقدر على ما لا يقدر عليه ربّ، وحكاية هذا الرأي الباطل كافية في فساده.

فإن قلت: كما لا يمتنع معلوم واحد بين عالميْن، ومراد واحد بين مريديْن، فلا يمتنع مقدور واحد بين قادرٍ.

قيل: هذا من أفسد القياس؛ لأن المعلوم<sup>(٢)</sup> لا يتاثر بالعالم، والمراد لا يتاثر بالمرید، فيصبح الاشتراك في المعلوم والمراد، كما يصبح الاشتراك في المرئي والمسموع، وأما المقدور فيجوز اشتراك القادرٍ فيه بالقدرة

(١) «د»: «مشروطة بأن لا يقدر».

(٢) «د»: «العالم».

المصححة، وهي صحة وقوعه من كل واحد منها، فصحة التأثير من أحدهما لا تنافي صحته من الآخر، وأما اشتراكهما فيه بالقدرة الموجبة المقارنة لمقدورها فهو عين المحال، إلا أن يراد الاشتراك على البدل، فيكون ترك تأثير أحدهما فيه شرطاً في تأثير الآخر.

ولما نفطّن أبو الحسين لهذا قال: لست أقول: إن إضافته إلى أحدهما هي إضافته إلى الآخر، كما أن الشيء الواحد يكون معلوماً لعالمين، ويمتنع أن يكون علم أحدهما به هو علم الآخر، فهكذا أقول في المقدور بين قادرين، ليست قدرة أحدهما عليه هي قدرة الآخر، والمفعول بين فاعلين ليس فعل أحدهما فيه هو فعل الآخر، وإنما معنى قوله: إنه فعل لهذا وتأثير له، أنه لقدرته وداعيه وجد، وليس معنى كونه وجد لقدرة هذا وداعيه هو معنى كونه وجد لقدرة الآخر وداعيه.

قال: وليس يمتنع في العقل إضافة شيء واحد إلى شيئين، لكنه يمتنع أن يكون إضافته إلى أحدهما هي عين إضافته إلى الآخر.

وهذا لا يجدي عنه شيئاً؛ فإن التقسيم المذكور دائئر فيه.

ونحن نقول: قد دلّ الدليل على شمول قدرة الرب تبارك وتعالى لكل ممكّن من الذوات والصفات والأفعال، وأنه لا يخرج شيء عن مقدوره بالبتة.

ودلّ الدليل أيضاً على أن العبد فاعل لفعله بقدرته وإرادته، وأنه فعل له حقيقة يُمدح ويُذم به عقلاً وعرفاً وشرعاً، وفطرة فطر الله عليها العباد حتى الحيوان البهيم.

وَدَلِيلُ الدَّلِيلِ عَلَى اسْتِحَالَةِ مَفْعُولٍ وَاحِدٌ بِالْعَيْنِ بَيْنَ فَاعِلَيْنِ مُسْتَقْلَيْنَ،  
وَأَثْرٌ وَاحِدٌ بَيْنَ مُؤْثِرَيْنَ فِيهِ عَلَى سَبِيلِ الْاسْتِقْلَالِ.

وَدَلِيلُ الدَّلِيلِ أَيْضًا عَلَى اسْتِحَالَةِ وَقْوَعِ حَادِثٍ لَا مُحَدِّثٌ لَهُ، وَرَجْحَانٍ  
رَاجِحٌ لَا مُرْجِحٌ لَهُ.

وَهَذِهِ أَمْوَارٌ رَكِبَهَا اللَّهُ سَبَحَانَهُ فِي الْعُقُولِ، وَحَجَجَ الْعُقُولُ لَا تَنَاقِضُ وَلَا  
تَتَعَارِضُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُضْرِبَ بَعْضُهَا بَعْضًا، بَلْ يُقَالُ بِهَا كُلُّهَا، وَيُذَهَّبُ إِلَى  
مَوْجَبِهَا؛ فَإِنَّهَا يَصِدِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَإِنَّمَا يَعْرَضُ بَيْنَهَا<sup>(۱)</sup> مِنْ ضَعْفٍ  
بِصَرِيرَتِهِ، وَإِنْ كَثُرَ كَلَامُهُ، وَكَثُرَتْ شَكُوكُهُ، فَالْعِلْمُ أَمْرٌ آخَرُ وَرَاءِ الشَّكُوكِ  
وَالْإِشْكَالَاتِ، وَإِبْدَاءُ<sup>(۲)</sup> تَنَاقِضِ الْخُصُومِ، وَهَذَا رَأْسُ مَالِ الْمُتَكَلِّمِينَ.

وَالْقُولُ الْحَقُّ لَمْ يَنْحُصُرْ فِي هَذِهِ الْأَقْوَالِ التِّي حُكِّمُوا فِي الْمَسَأَةِ.

وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالُ: تَقْعُدُ الْحُرْكَةُ بِقَدْرَةِ الْعَبْدِ وَإِرَادَتِهِ التِّي جَعَلَهَا اللَّهُ فِيهِ،  
فَاللَّهُ سَبَحَانَهُ إِذَا أَرَادَ فِعْلَ الْعَبْدِ خَلَقَ لَهُ الْقَدْرَةَ وَالدَّاعِيَ إِلَى فَعْلِهِ، فَيُضَافُ  
الْفِعْلُ إِلَى قَدْرَةِ الْعَبْدِ إِضَافَةً لِلْمُسَبَّبِ إِلَى سَبَبِهِ<sup>(۳)</sup>، وَيُضَافُ إِلَى قَدْرَةِ الرَّبِّ  
إِضَافَةً الْمُخْلوقِ إِلَى الْخَالِقِ، فَلَا يَمْتَنِعُ وَقْوَعُ مَقْدُورٍ بَيْنَ قَادِرَيْنَ قَدْرَةٍ  
أَحَدُهُمَا أَثْرٌ لِقَدْرَةِ الْآخَرِ، وَهِيَ جُزْءٌ سَبَبٌ، وَقَدْرَةُ الْقَادِرِ الْآخَرُ مُسْتَقْلَةٌ  
بِالْتَّأْثِيرِ.

وَالْتَّعْبِيرُ عَنْ هَذِهِ الْمَعْنَى بِمَقْدُورٍ بَيْنَ قَادِرَيْنَ تَعْبِيرٌ فَاسِدٌ وَتَلْبِيسٌ؛ فَإِنَّهُ

(۱) «م»: «بِهَا»، «ج»: «بَيْنَهُمَا».

(۲) «ج»: «وَلِهَذَا».

(۳) «ج»: «الْمُسَبَّبُ إِلَى مَسَبِّبِهِ»، وَهِيَ مَجْوَدَةٌ بِالشَّكْلِ فِي «د».

يُوهم أنَّما متكافئان في القدرة، كما تقول: هذا التوب بين هذين الرجلين، وهذه الدار بين هذين الشريكين. وإنما المقدور واقع بالقدرة الحادثة وقوع المسبب بسببه، والسبب والمسبب والفاعل والآلية كله أثر القدرة القديمة، فلا نعطّل قدرة الرَّبِّ تعاليٰ عن شمولها وكمالها، وتناولها لـكُلِّ ممكِّن، ولا نعطّل قدرة العبد التي هي سبب عما جعلها الله سبباً له ومؤثرة فيه.

وليس في الوجود شيء مستقل بالتأثير سوى مشيئة الرَّبِّ تعاليٰ وقدرته، وكل ما سواه مخلوق له، وهو أثر قدرته ومشيئته، ومن أنكر ذلك لزمه إثبات خالق سوى الله، أو القول بوجود مخلوق لا خالق له؛ فإن فعل العبد إن لم يكن مخلوقاً لله كان مخلوقاً للعبد: إما استقلالاً، وإما على سبيل الشركة، وإما أن يقع بغير خالق، ولا مخلص عن هذه الأقسام لمنكر دخول الأفعال تحت قدرة الرَّبِّ تعاليٰ ومشيئته وخلقته.

ولذا عُرف هذا فنقول: الفعل وقع بقدرة الرَّبِّ خلقاً وتكويناً، كما وقعت سائر المخلوقات بقدرته وتكوينه، وبقدرة العبد سبباً و مباشرة، فالله خلق الفعل، والعبد فَعَلَه وبأشره، فالقدرة الحادثة وأثرها واقعان بقدرة الرَّبِّ ومشيئته.

## فصل

قال الجبرى: لو كان العبد فاعلاً لأفعاله لكان عالماً بتفاصيلها؛ لأنَّه يمكن أن يكون الفعل أزيد مما فعله أو أنْقَص، ففوقَّعه على ذلك الوجه مشروط بالعلم بتفاصيله، ومعلوم أن النائم والغافل قد يفعل الفعل ولا يشعر بكيفيته ولا قدرته، وأيضاً فالمحرك يقطع المسافة ولا شعور له بتفاصيل الحركة ولا أجزاء المسافة، ومحرك أصبعه محرك لا لأجزائها ولا يشعر بعدد

أجزائها ولا بعدد أحيازها، والمتنفس يتنفس باختياره ولا يشعر في الغالب بنفسيه، فضلاً عن أن يشعر بكميته وكيفيته ومبدئه ونهايته.

والعقل قد يتكلم بالكلمة ويفعل الفعل باختياره، ثم بعد فراغه منه يعلم أنه لم يكن قاصداً له، فنحن نعلم علمًا ضروريًا من أنفسنا عدم علمنا بوجود أكثر حركاتنا وسكناتنا في حالة المشي والقيام والقعود، ولو أردنا فصل كل جزء من أجزاء حركاتنا في حالة إسراعنا بالمشي والحركة والإحاطة به لم يمكننا ذلك، بل ونعلم ذلك من حال أكمل العقلاء، فما الظن بالحيوانات العجم في مشيتها وطيرانها وسباحتها، حتى الذر والبعوض.

وهذا مشاهد في السكران، ومن اشتدد به الغضب، ولهذا قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرِبُوا الْأَصْلَوَةَ وَلَا تُؤْتُ سُكَّرَى حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، فدلل على أن السكران يصدر منه أقوال لا يعلم بها، فكيف يكون هو المحدث لتلك الأقوال وهي لا يُشعر بها، والإرادة فرع الشعور.

ولهذا أفتى الصحابة بأنه لا يقع طلاق السكران، تزلوا حركة لسانه متزلة تحريك غيره له بغير إرادته.

ولهذا قال النبي ﷺ: «لا طلاق في إغلاق»<sup>(١)</sup>؛ لأن الإغلاق يمنع العلم والإرادة، فكيف يكون التطليق فعله وهو غير عالم به، ولا مرید له.

وأيضاً فقد قال جمهور الفقهاء: إن الناسي غير مكلف، لأن فعله لا يدخل تحت الاختيار، ففعله غير مضاف إليه مع أنه وقع باختياره، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى بعينه في قوله: «من أكل أو شرب ناسيًا فليُثْبِتْ

(١) تقدم تخرجه في (٤٥٢).

صومه؛ فِإِنَّمَا أَطْعَمَهُ اللَّهُ وَسَقَاهُ»<sup>(١)</sup>، فأضاف فعله إلى الله سبحانه لا إليه، فلم يكن له فعل في الأكل والشرب، فلم يفطر به.

قال السنّي: هذا موضع تفصيل لا يليق به الإجمال، فنقول: ما يصدر عن العبد من الأفعال ينقسم أقساماً متعددة، بحسب قدرته وعلمه وداعيه وإراداته: فتارة يكون مُلْجأً إلى الفعل لا إرادة له فيه بوجه ما، كمن أُمسِكَت يده وضرب بها غيره، أو أُمسِكَت أصبعه وقلع بها عين غيره، فهذا فعله بمنزلة حركات الأشجار بالرياح، ولهذا لا يترتب عليه حكم البَتَّة، ولا يُمدح عليه ولا يُذم، ولا يُثاب ولا يُعاقَب، وهذا لا يُسمى فاعلاً عقلاً ولا شرعاً ولا عرفاً.

وتارة يكون مُكَرَّهَا علىٰ أن يفعل، فهذا فعله يضاف إليه، وليس كالملجأ الذي لا فعل له.

واختلف الناس هل يقال: إنه فعل باختياره، وإنه مختار في فعله، أو لا يطلق عليه ذلك؟ على قولين، والتحقيق: أن النزاع لفظي؛ فإنه فعل بإرادة هو محمول عليها، مُكَرَّهٌ عليها، فهو مُكَرَّهٌ مختار: مُكَرَّهٌ علىٰ أن يفعل بإرادته، مرید لفعل ما أَكْرِه عليه، فإن أرید بالمحْتَار من يختار من نفسه أن يفعل من غير أن يحمله غيره على الإرادة فليس المُكَرَّه مختار، وإن أرید بالمحْتَار من يفعل بإرادته وإن كان كارهاً للفعل فالـمُكَرَّه مختار، وأيضاً فهو مختار لفعل ما أَكْرِه عليه لتخالصه به مما هو أَكْرَهُ إليه من الفعل، فلما عرض له مكروهان: أحدهما أَكْرَهُ إليه من الآخر اختار أيسرهما؛ دفعاً لأشقيهما، ولهذا يُقتل

---

(١) أخرجه أحمد (١٠٣٦٩)، والبخاري (١٩٣٣)، ومسلم (١١٥٥) من حديث أبي هريرة.

قصاصًا إذا قُتِلَ عند الجمهور، والمُلْجَأُ لا يُقْتَلُ باتفاق الناس.

ومما يوضح هذا أن المُكَرَّه على التكلم لا يتأتى منه التكلم إلا باختيارة وإرادته، ولهذا أوقع طلاقه وعناقه بعض العلماء، والجمهور قالوا: لا يقع؛ لأن الله سبحانه جعل كلام المُكَرَّه على كلمة الكفر لغوًا لا يترب عليه أثره؛ لأنه وإن قصد التكلم باللفظ دفعاً عن نفسه فلم يقصد معناه وموجبه، حتى قال بعض الفقهاء لو قصد الطلاق بقلبه مع الإكراه لم يقع طلاقه؛ لأن قوله هدر ولغو عند الشارع، فوجوده كعدمه في حكمه، فبقي مجرد القصد، وهو غير موجب للطلاق، وهذا ضعيف؛ فإن الشارع إنما ألغى قول المُكَرَّه إذا تجرد عن القصد، وكان قلبه مطمئنًا بضيده، فأما إذا قارن اللفظ القصد، واطمأن القلب بموجبه؛ فإنه لا يُعذر.

فإن قيل: فما تقولون فيمن ظن أن الإكراه لا يمنع وقوع الطلاق، فقصده جاهلاً بأن الإكراه مانع من وقوعه؟

قيل: هذا لا يقع طلاقه؛ لأن اللفظ موجب لوقوعه؛ لأنه لما ظن أن الإكراه على الطلاق يوجب وقوعه إذا تكلم به؛ كان حكم قصده حكم لفظه، فإنه إنما قصده دفعاً عن نفسه لما علم أنه لا يتخلص إلا به، ولم يظن أن الكلمة بدون القصد لغو، أو دهش عن ذلك، ولا وطَر له في الطلاق، فهذا لا يقع، بخلاف الأول؛ فإنه لما أُكِرَه على الطلاق نشأ له قصد طلاقها؛ إذ لا غرض له أن يقيم مع امرأة أُكِرَه على طلاقها، وإن كان لولم يُكَرَّه لم يتبدئ طلاقها.

والمقصود أن المُكَرَّه مرید لفعله غير مُلْجَأٌ إليه.

## فصل (١)

وأما أفعال النائم فلا ريب في وقوع الفعل القليل منه، والكلام المفید، واختلف الناس هل تلك الأفعال مقدورة له أو مكتسبة أو ضرورية، بعد اتفاقهم على أنها غير داخلة تحت التكليف.

فقالت المعتزلة وبعض الأشعرية: هي مقدورة له، والنوم لا يضاد القدرة، وإن كان يضاد العلم وغيره من الإدراكات.

وذهب أبو إسحاق وغيره إلى أن ذلك الفعل غير مقدور له، وأن النوم يضاد القدرة، كما يضاد العلم.

وذهب القاضي أبو بكر وكثير من الأشعرية إلى أن فعل النائم لا يقطع بكونه مكتسباً ولا بكونه ضروريًا، وكلّ من الأمرين ممكّن.

قال أصحاب القدرة: كان النائم قادرًا في يقظته، وقدرته باقية، والنوم لا ينافيها؛ فوجب استصحاب حكمها.

قالوا: وأيضًا فالنائم إذا اتبه فهو على ما كان عليه في نومه، ولم يتجدد أمر وراء زوال النوم، وهو قادر بعد الانتباه، وزوال النوم غير موجب للإقتدار، ولا وجوده نافيًا للقدرة.

قالوا: وأيضًا قد يوجد من النائم ما لا يوجد منه في حال اليقظة لكان واقعًا على حسب الداعي والاختيار، والنوم وإن ناف القصد فلا ينافي القدرة.

قال النافون للقدرة: قولكم: «النوم لا ينافي القدرة» دعوى كاذبة؛ فإن

---

(١) انظر: «غاية المرام» (٢٢١)، «شرح المواقف» (٢/١٤٤-١٤٨).

النائم مُنْفِعِلٌ محض، متأثر غير مؤثّر، ولهذا لا يمتنع من يؤثّر فيه، وقولكم: «لم يتجدد له أمر غير زوال النوم» فالمتجدد زوال النوم المانع من القدرة، فعاد إلى ما كان عليه، كمن أوثق غيره رباطاً ومنعه من الحركة، فإذا حلّ رباطه تجدد زوال المانع.

قالوا: نجد تفرقة ضرورية بين حركة النائم وبين حركة المُرْتَعِش والمَفْلُوج، وما ذاك إلا لأن حركته مقدورة له، وحركة المُرْتَعِش غير مقدورة له.

والتحقيق أن حركة النائم ضرورية له غير مكتسبة، وكما فرقنا في حق المستيقظ بين حركة ارتعاشه وحركة تصفيقه؛ كذلك نجد تفرقة ضرورية بين حركة النائم وحركة المستيقظ.

## فصل

وأما زائل العقل بجنون أو سكر فليست أفعاله اضطرارية كأفعال المُلْجأ، ولا اختيارية بمنزلة أفعال العاقل العالم بما يفعله، بل هي قسم آخر بين الاختيارية والاضطرارية، وهي جارية مجرى أفعال الحيوان، و فعل الصبي الذي لا تميّز له، بل لكل واحد من هؤلاء داعية<sup>(١)</sup> إلى الفعل يتصورها، وله إرادة يقصد بها، وقدرة ينفذ بها، وإن كان داعيه نوع آخر غير داع العاقل<sup>(١)</sup> العالم بما يفعله، فلا بد أن يتصور ما في الفعل من الغرض، ثم يريده ويفعله، فهذه أفعال طبيعية واقعة بالداعي والإرادة والقدرة، والداعي والإرادات تختلف، ولهذا لا يكُلُّ أحد هؤلاء بالفعل، فأفعاله لا تدخل

---

(١) «م»: «داعية العاقل».

تحت التكليف، وليس كأفعال المُلْجَأِ ولا المُكَرَّهِ، وهي مضافة إليهم مباشرة، وإلى خالق ذواتهم وصفاتهم خَلْقاً، فهي مفعولة له وأفعال لهم.

### فصل

وأما الغافل والساهي الذي يفعل الفعل مع غفلته وذهوله فهو إنما يفعله بقدرته؛ إذ لو كان عاجزاً لما تأتى منه الفعل، وله إرادة لكنه غافل عنها. فالإرادة شيء والشعور بها شيء آخر. فالعبد قد تكون له إرادة وهو ذاهل عن شعوره بها؛ لاشتغال محل التصور منه بأمر آخر منعه من الشعور بالإرادة، فعملت عملها وهي غير مشعور بها، وإن كان لابد من الشعور بأصلها، فلا يلزم من صحة وقوع الفعل استمرار ذلك الشعور عند كل جزء من أجزائه. وبالله التوفيق.

وبالجملة: فال فعل الاختياري يستلزم الشعور بالفعل في الجملة، وأما الشعور به على التفصيل من كل وجه فلا يستلزم.

### فصل

قال الجبري: ضلال الكافر وجهله عند القدر مخلوق له، موجود بإيجاده اختياراً، وهذا ممتنع؛ فإنه لو كان كذلك لكان قاصداً له، إذ القصد من لوازم الفعل اختياراً، واللازم ممتنع؛ فإن عاقلاً لا يريد لنفسه الضلال والجهل، فلا يكون فاعلاً له اختياراً.

قال السندي: عجبًا لك أيها الجبري، تنزه العبد أن يكون فاعلاً للكفر والجهل والظلم، ثم تجعل ذلك كله فعل الله سبحانه، ومن العجب قوله: «إن العاقل لا يقصد لنفسه الكفر والجهل» وأنت ترى كثيراً من الناس يقصد

لنفسه ذلك عناًداً وبغيًّا وحسدًا، مع علمه بأن الرشد والحق في خلافه، فيطيع داعي هواه وغيه وجهله، ويخالف داعي رشده وهداه، ويسلك طريق الضلال، ويتنكب عن طريق الهدى، وهو يراهما جميًعاً.

قال أصدق القائلين: ﴿سَاصْرِفْ عَنِّي إِنِّي لَذِكْرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ  
الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ إِيمَانٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَيِّلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَيِّلًا وَإِنْ  
يَرَوْا سَيِّلَ الْقِيَامَةِ يَتَّخِذُوهُ سَيِّلًا ذَلِكَ إِنَّهُمْ كَذَّابُوا إِيمَانَهُمْ وَكَانُوا عَنْهَا  
غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَأَسْتَجِبُوا  
عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧]، وقال تعالى عن قوم فرعون: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ  
إِيمَانُ مُبْصَرَةً قَالُوا هَذَا سُحُورٌ مُّبِينٌ﴾ [١٢] وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنُتُهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا  
[النمل: ١٣ - ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَرَأَتِنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ  
عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ  
عَلِمُوا لَمَنْ أَشْرَكُهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقال: ﴿يَسْمَعَا  
أَشْرَقَوْلِهَ أَنفُسَهُمْ أَن يَكُفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنْزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَن  
يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [البقرة: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿يَأَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ تَكُفُرُونَ  
يَعَايِثُتِ اللَّهُ وَأَنْتُمْ شَهَدُونَ﴾ [٧٦] يَأَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ تَلِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَطْلِ وَتَكْمُونَ  
الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ [آل عمران: ٧٠ - ٧١]. وقال: ﴿يَأَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ تَصُدُّونَ عَنِ  
سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ إِمَانَ تَبَعُونَهَا عَوْجًا وَأَنْتُمْ شَهَدُونَ﴾ [آل عمران: ٩٩].

وهذا في القرآن كثير، يبين سبحانه فيه اختيارهم للضلالة والكفر عمداً على علم.

هذا، وكم من قاصد أمراً يظن أنه رشد، وهو ضلال وغبي.

## فصل

قال الجبri: لو جاز تأثير قدرة العبد في الفعل بالإيجاد لجاز تأثيرها في إيجاد كل موجود؛ لأن الوجود قضية واحدة مشتركة بين الموجودات الممكنة، وإن اختلفت محاله وجهاته، ويلزم من صحة تأثير القدرة في بعضه صحة تأثيرها في جميعه؛ لاتحاد المتعلق، وأن ما ثبت لأحد المثلين يثبت للأخر، وأيضا فالمحصح للتأثير هو الإمكان، ويلزم من الاشتراك في المحصح للتأثير الاشتراك في الصحة، ومعلوم قطعاً أن قدرة العبد لا تتعلق بإيجاد الأجسام وأكثر الأعراض، وإنما تتعلق ببعض الأعراض القائمة بمحل قدرته.

قال السنّي: لقد كشف الله عوار مذهب يكون إثباته مُستنداً<sup>(١)</sup> إلى مثل هذه الخرافات التي حاصلها: أنه يلزم من صحة قدرة العبد على قلع حصاة من الأرض صحة قدرته على قلع الجبل! ومن إمكان حمله لرطل إمكان حمله لمائة ألف رطل! ومن إيجاده للفعل القائم به من الأكل والشرب والصلوة وغيرها صحة إيجاده لخلق السماوات والأرض وما بينهما! فهل سُمع في الهدیان بأسمج من هذا، وأغث منه!<sup>(٢)</sup>.

واشتراك الموجودات في مسمى الوجود الكلي العام لا يلزم منه أن ما جاز على موجود ما<sup>(٣)</sup> جاز على كل موجود، وهذا أسمج من الأول وأبين

---

(١) «د»: «يكون استناده».

(٢) «د» «م»: «وأغرّ»، والمثبت من «ج» ألصق بالسياق، وسيأتي ما يعتصده.

(٣) «م»: «موجود منا».

فساداً، ولا يلزم من ذلك تماثل المعرفة والفيل، وتماثل الأجسام والأعراض، ومن يجعل من الجبرية للقدرة الحادثة تعلقاً ما بفعل العبد يعترض بالفرق ويقول: قدرته تتعلق ببعض الأعراض ولا تتعلق بالأجسام، ولا بكل الأعراض، فإن احتج على إبطال التأثير بهذه الشبهة الغثة ألزم بها بعينها في عموم تعلق قدرته بكل موجود.

## فصل

قال الجبري: دليل التوحيد ينفي كون العبد فاعلاً، وأن يكون لقدرته تأثير في فعله، وتقريره بدليل التمانع.

قال السندي: دليل التوحيد إنما ينفي وجود رب ثان، ويidel على أنه لا رب إلا هو سبحانه، ولا يدل على امتلاع وجود مخلوق له قدرة وإرادة مخلوقة يُحدث بها، وهو وقدرته وإرادته وفعله مخلوق الله. فهو بعد طول مقدماته، واعتراف فضلاكم بالعجز عن تقريره، وذكر ما في مقدماته من منع ومعارضة = إنما ينفي وجود قادرٍ متكافئٌ، قدرة كل واحد منهمما من لوازم ذاته، ليست مستفادة من الآخر، وهو دليل صحيح في نفسه، وإن عجزتم عن تقريره، ولكن ليس فيه ما ينفي أن تكون قدرة العبد وإرادته سبباً لوجود مقدوره، وتأثيرها فيه تأثير الأسباب في مسبباتها، فلا للتوحيد قررت بمدليل التمانع، ولا للجبر، وقد كفانا أفضل متأخر يكم بيان ما في هذا الدليل من المُنوع<sup>(١)</sup> والمعارضات.

---

(١) «د»: «الممنوع»، و«المُنوع» جمع دارج في كتب الكلام لـ «مَنْعٌ»، انظر على سبيل المثال: «تنبيه الرجل العاقل» (٢٤٤، ٣١ / ١)، «المواقف» (٦٧٢ / ٢).

قال الجبري: دعنا من هذا كله، أليس في القول بتأثير قدرة العبد في مقدوره مع الاعتراف بأن الله سبحانه قادر على مقدور العبد = إلزام وقوع المقدور الواحد بين القادرَيْنِ، والدليل ينفيه.

قال السندي: ما تعني بقولك: «يلزم وقوع مقدور بين قادرَيْنِ»؟

أتعني به قادرَيْنِ مستقلَيْنِ متكافئَيْنِ؟ أم تعني به قادرَيْنِ تكون قدرة أحدهما مستفادة من الآخر؟ فإن عنيت الأولى مُبَعَّثَة الملازمةُ، وإن عنيت الثانية مُبَعَّثَة انتفاءُ اللازم.

ومثبتو الكسب يجيبون عن هذا بأنه لا يمتنع وقوع مقدور بين قادرَيْنِ لقدرة أحدهما تأثير في إيجاده، ولقدرة الآخر تأثير في صفتته، كما يقوله القاضي أبو بكر ومن تبعه، والأشعرى يجيب عنه على أصله، بأن الفعل وقع بين قادرَيْنِ لا تأثير لقدرة أحدهما في المقدور، بل تَعْلُق قدرته بمقدورها كَتَعْلُق العلم بمعلome، وإنما الممتنع عنده وقوع مقدور بين قادرَيْنِ مؤثِّرَيْنِ، وهذا الاعتذار لا يُخرج عن الجَبْرِ، وإن زُخِّرفت له العبارات.

وأجاب عنه الحسينية<sup>(١)</sup> بما حكيناه: أنه لا يمتنع مقدور بين قادرَيْنِ على سبيل البدل، ويمتنع على سبيل الجمع، وقد تقدم فساده.

وأجاب عنه المشاييخية: بأنه مقدور للعبد، وليس مقدوراً للربّ. وهذا أبطل الأجرية وأفسدتها، والقائلون به يقولون: إن الله - سبحانه عن أقوابهم - ي يريد الشيء فلا يكون، ويكون الشيء بغير إرادته ومشيئته، فيريد ما لا يكون، ويكون ما لا يريد، وكفى بهذا بطلاناً وفساداً.

---

(١) في حاشية «م» بقلم الناسخ: «يعني به أبو [كذا] الحسين وأصحابه».

قال الجبّري: الفعل عند المرجح التام واجب، والمرجح ليس من العبد، وإنما لزم التسلسل، فهو من ربّ تعالى، فإذا وجب الفعل عنده فهو الجبّر بعينه.

قال السنّي: قد تقدم هذا الدليل وبيان ما فيه، وحيث أعدتموه بهذه العبارة الوجيزة المختصرة، فنحن نذكر الأجوية عنه كذلك.

قولكم: «لابد من مرجح للفعل على الترك، أو بالعكس» مسلم، قولكم: «المرجح إن كان من العبد لزم التسلسل، وإن كان من رب لزم الجبّر» جوابه: ما المانع أن يكون من فعل العبد ولا يلزم التسلسل، بأن يكون من فعله على وجه لا يكون الترك ممكنا له حيث شاء، ولا يلزم من سلب الاختيار عنه في فعل<sup>(١)</sup> المرجح سلبه عنه مطلقاً.

ثم ما المانع أن يكون المرجح من فعل الله ولا يلزم الجبّر، فإنكم إن عنيتم بالجبّر أنه غير مختار للفعل، ولا مرید له؛ لم يلزم الجبّر بهذا الاعتبار؛ لأنّ ربّ تعالى جعل المرجح اختيار العبد ومشيّته، فانتفي الجبّر، وإن عنيتم بالجبّر أنه وُجد لا بإيجاد العبد؛ لم يلزم الجبّر أيضاً بهذا الاعتبار<sup>(٢)</sup>، وإن عنيتم أنه يجب عند وجود المرجح، وأنه لابد منه؛ فنحن لا ننفي الجبّر بهذا الاعتبار، وتسمية ذلك «جبّراً» اصطلاح محض، وهو اصطلاح فاسد؛ فإن فعل ربّ سبحانه يجب عند وجود مرجحه التام، ولا يكون ذلك جبراً بالنسبة إليه سبحانه.

---

(١) «م»: «من فعل»، «ج»: «وفعل».

(٢) من قوله: «وإن عنيتم بالجبّر إلى هنا ساقط من د».

ثم هذا الازم على من أثبت الكَسْب منكم، فنقول له في الكَسْب ما قاله في أصل الفعل سواء، ومن لم يثبت الكَسْب لزمه ذلك في فعل الرب كما تقدم.

فإن قلتم: الفرق أن صدور الفعل عن القادر موقوف عن الإرادة، وإرادة العبد مُحدَّثة، فافتقرت إلى مُحدِّث، فإن كان ذلك المُحدِّث هو العبد لزم التسلسل، فوجب انتهاء جميع الإرادات إلى إرادة ضرورية يخلقها الله في القلب ابتداء، ويلزم منه الجَبْر، بخلاف إرادة الرب تعالى؛ فإنها قديمة مستغنية عن إرادة أخرى، فلا تسلسل.

قيل لكم: لا يجدي هذا عليكم في دفع الإلزام؛ فإن الإرادة القديمة إما أن يصح معها الفعل بدلاً عن الترك، وبالعكس، أو لا، فإن كان الأول فلا بد لأحد الطرفين من مرْجح، والكلام في ذلك المرْجح كالكلام في الأول، ويلزم التسلسل، وإن كان الثاني لزم الجَبْر.

قال الجبري: معتمدي في الجَبْر على حرف لا خلاص لكم منه إلا بالتزام الجَبْر، وهو أن العبد لو كان فاعلاً لفعله لكان مُحدِّثاً له، ولو كان مُحدِّثاً له لكان خالقاً له، والشرع والعقل ينفيه، قال تعالى: ﴿وَيَأْتِيهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ كُلَّهُ مِنْ خَلْقِهِ إِنَّ اللَّهَ يَرَى زُقُومَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَفَانَّ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

قال السنّي: قد دلّ العقل والشرع والحسن على أن العبد فاعل لفعله، وأنه يستحق عليه الذم واللعنة، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه رأى حماراً قد وُسِمَ في وجهه: فقال: «ألم أنه عن هذا؟! لعن الله من فعل هذا»<sup>(١)</sup>.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٠٢٨٨) - واللفظ له - ومسلم (٢١١٧) من حديث جابر.

وقال تعالى: ﴿وَلُوطًا أَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَجَنَّتَهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الْأَنَّى  
كَانَتْ تَعْمَلُ الْحَبْيَثَ﴾ [الأنياء: ٧٤]، وقال: ﴿هَلْ يُجْزَوُنَ إِلَّا مَا كُفَّرُوا قَمْلُونَ﴾  
[النمل: ٩٠]، وقال: ﴿وَوُقِيتَ كُلُّ فَقِيسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ [الزمر: ٧٠].

وهذا في القرآن أكثر من أن يُذكر، والحسن شاهد به، فلا تُقبل شبهة تقام على خلافه، ويكون حكم تلك الشبهة حكم القدر في الضروريات، فلا يُلتفت إليه، ولا يجب على العالم حل كل شبهة تعرض لكل أحد؛ فإن هذا لا آخر له.

قولكم: «لو كان فاعلاً لفعله لكان مُحدداً له»، إن أردتم بكونه مُحدداً صدور الفعل منه، اتحد اللازم والملزم، وصار حقيقة قولكم: لو كان فاعلاً لكان فاعلاً. وإن أردتم بكونه مُحدداً كونه حالقاً سألكم: ما تعنون بكونه حالقاً؟ هل تعنون به كونه فاعلاً، أو تعنون به أمراً آخر، فإن أردتم الأول كان اللازم فيه عين الملزم، وإن أردتم أمراً آخر غير كونه فاعلاً فيبيوه. فإن قلتم: يعني به كونه موحداً للفعل من العدم إلى الوجود.

قيل: هذا معنى كونه فاعلاً، فما الدليل على إحالة هذا المعنى، فسموه ما شئتم: إحداثاً أو إيجاداً أو خلقاً، فليس الشأن في التسميات، وليس الممتنع إلا أن يكون مستقللاً بالإيجاد، وهذا غير لازم لكونه فاعلاً؛ فإننا قد يبينا أن غاية قدرة العبد وإرادته وداعيه وحركته أن تكون جزءاً سبباً، وما يتوقف عليه الفعل من الأسباب التي لا تدخل تحت قدرته وكسبه أكثر من الجزء الذي إليه بأضعاف مضاعفة، والفعل لا يتم إلا بها.

فإن قيل: فهذا الجبر يعنيه.

قيل: ذاك السبب الذي أعني به من القدرة والإرادة، هو الذي أخرجه من الجَبْرِ، وأدخله في الاختيار، وكون ذلك السبب من خالقه وفاطره ومنشئه هو الذي أخرجه من الشرك والتعطيل، وأدخله في باب التوحيد، فالأول أدخله في باب العدل، والثاني أدخله في باب التوحيد، ولم يكن ممن نقض التوحيد بالعدل، ولا ممن نقض العدل بالتوكيد، فهو لاءٌ جنوا على التوحيد، وهو لاءٌ جنوا على العدل، وهدى الله أهل السنة للتوكيد والعدل، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.



## فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٥/١	مقدمة التحقيق.....
٧/١	توثيق نسبة الكتاب.....
١١/١	عنوان الكتاب.....
١٢/١	تاريخ تأليف الكتاب.....
١٣/١	موضوع الكتاب ومباحثه.....
١٩/١	منهج المؤلف في الكتاب.....
٢٢/١	أهمية الكتاب.....
٢٤/١	موارد الكتاب.....
٢٨/١	وصف مخطوطات الكتاب.....
٣٤/١	طبعات الكتاب.....
٣٧/١	منهج التحقيق.....
٤١/١	نماذج من النسخ الخطية.....
	<b>نص الكتاب</b>
٣/١	مقدمة المؤلف.....
٧/١	فصل [مسالك الناس في القدر].....
٨/١	فصل [أسعد الناس بالصواب في القدر].....
٩/١	نشأة القدرة المعترلة.....
١٠/١	فصل [نشأة القدرة الجبرية والإشارة إلى بعض ضلالهم].....
١٤/١	فصل [بيان سبب تأليف الكتاب وتسميه].....
١٥/١	مسرد أبواب الكتاب.....
١٨/١	بيان قيمة الكتاب ونفاسة مباحثه.....

## الموضوع

## الصفحة

* الباب الأول في تقدير المقادير قبل خلق السماوات والأرض ..... ١٩/١
* الباب الثاني في تقدير الرب تبارك وتعالى شقاوة العباد وسعادتهم وأرزاقهم وآجالهم وأعمالهم قبل خلقهم، وهو تقدير ثانٍ بعد التقدير الأول ..... ٢٦/١
سرد المرويات في تفسير: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِنَّ﴾ ..... ٢٩/١
* الباب الثالث في ذكر احتجاج آدم وموسى في ذلك، وحكم النبي ﷺ لآدم صلوات الله وسلامه عليهم ..... ٤٣/١
أهل الكلام موكلون برد الأحاديث التي تخالف قواعدهم ..... ٤٥/١
مناقشة الأقوال في وجه الحجة التي توجهت لآدم على موسى ..... ٤٥/١
أبطل مسلك في حديث احتجاج آدم وموسى ..... ٤٧/١
الدفاع عن شيخ الإسلام الأنصاري في كلام له موهمن ..... ٥١/١
التقل عن أبي العباس الواسطي في الفناء والاصطدام ..... ٥٢/١
جواب شيخ الإسلام ابن تيمية عن وجه محااجة آدم لموسى ..... ٥٨/١
نكتة مسألة محااجة آدم لموسى ..... ٥٩/١
متى ينفع الاحتجاج بالقدر ومتى يضر ..... ٥٨/١
الأصول العظيمة المضمنة في حديث: «المؤمن القوي خير...» ..... ٦١/١
* الباب الرابع في ذكر التقدير الثالث والجنين في بطن أمه، وهو تقدير شقاوته وسعادته ورزقه وأجله وعمله وسائر ما يلقاه، وذكر الجمع بين الأحاديث الواردة في ذلك ..... ٦٣/١
سرد مرويات الباب ..... ٦٣/١
اختلاف المرويات في وقت تقدير رزق العبد وأجله وهو في بطن أمه وتحرير ذلك ..... ٧٣/١
* الباب الخامس في ذكر التقدير الرابع ليلة القدر ..... ٧٥/١

## الموضوع

### الصفحة

الأثار الواردة في أن ليلة القدر هي المقصودة في آية: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَّكَةٍ﴾	٨٥ / ١
المعنى اللغوي لليلة القدر .....	٧٦ / ١
* الباب السادس في ذكر التقدير الخامس اليومي .....	٧٨ / ١
الأثار الواردة في آية: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَاءٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] .....	٧٨ / ١
* الباب السابع في أن سبق المقادير بالشقاوة والسعادة لا يقتضي ترك الأعمال، بل يقتضي الاجتهاد والحرص؛ لأنها إنما سبقت بالأسباب .....	٨٣ / ١
سرد مرويات الباب .....	٨٣ / ١
أرشد النبي ﷺ الأمة في القدر إلى أمرين .....	٨٨ / ١
* الباب الثامن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ قَنَا لَحْسَنَاتُكُمْ أُولَئِكَ عَنْهَا مُبَعِّدُونَ﴾ .....	٨٩ / ١
وجوه الجواب عن إبراد ابن الزبيري في آية: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ﴾ .....	٩١ / ١
الأقوال في آية: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَّمٌ صَدِيقٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ .....	٩٤ / ١
خلاف السلف في الكتاب السابق في آية: ﴿فَوْلَا كَتَبْ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمْسَكُوكُ فِيمَا أَخْذَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .....	٩٥ / ١
* الباب التاسع في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ حَكَمْنَا بِقَدَرِهِ﴾ .....	٩٦ / ١
المخاصمون في القدر نوعان .....	٩٧ / ١
* الباب العاشر في مراتب القضاء والقدر التي مَنْ لم يؤمن بها لم يؤمن بالقضاء والقدر .....	١٠٠ / ١
الكلام على المرتبة الأولى .....	١٠٠ / ١
أقوال السلف في تفسير آية: ﴿وَلَذِّقَ رَبُّكَ لِلْمَلَئِكَةَ إِذِ جَاءَكُمْ فِي الْأَرْضِ خَلِيقَةً﴾ .....	١٠٠ / ١

## الموضوع

### الصفحة

أقوال المفسرين في تفسير آية: ﴿أَفَرَبِعْتَ مِنْ أَنْخَذَ إِلَهُهُ وَهُوَ لِهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عَلَيْهِ﴾ ... ١٠٣ / ١	.....
أقوال المفسرين في تفسير آية: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَلَّبُوا مِنْ قَبْلِهِ﴾ ..... ١٠٧ / ١	.....
تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَّلَكَ قَاتَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ ..... ١٠٨ / ١	.....
الكلام على آية: ﴿وَرَبُّكَ يَحْلِقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُ الْخِيَرَةُ﴾ ..... ١٠٩ / ١	.....
جواب سؤال القدرية: هل الكفر والمعاصي واقعة باختيار الله أم بغير اختياره؟ ..... ١١١ / ١	.....
لفظ الإرادة في كتاب الله نوعان ..... ١١١ / ١	.....
لفظ الإذن في كتاب الله نوعان ..... ١١٢ / ١	.....
الأقوال في تفسير آية: ﴿وَلَقَدْ أَتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ ..... ١١٣ / ١	.....
فصل [في أن الله عليم حكيم بما في أمره وشرعه من العواقب الحميضة] ..... ١١٤ / ١	.....
المقدور يكتنفه أمران ..... ١١٦ / ١	.....
فصل [في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولُهُ الْرُّؤْيَا بِالْحُقْقِ﴾] ..... ١١٧ / ١	.....
فصل [في قول يوسف الصديق: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾] ..... ١١٨ / ١	.....
تأمل قصة موسى عليه السلام وما فيها من لطف الله ..... ١١٩ / ١	.....
من أنواع الابلاء ..... ١١٩ / ١	.....
أسرار في آية: ﴿أَيْضَمْ كُلُّ أَثْرِي فَتَهْرُبُ أَنْ يُدْعَلَ جَهَنَّمَ نَفْرِي﴾ ..... ١٢٣ / ١	.....
أقوال المفسرين في آية: ﴿يَعْرِفُونَ يَعْمَلُ اللَّهُ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ ..... ١٢٤ / ١	.....
أقوال المفسرين في آية: ﴿إِنَّمَا أُرْبَيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ ..... ١٢٦ / ١	.....
أقوال المفسرين في آية: ﴿وَلَيْنَ أَذْفَنَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ صَرَاءَ مَسْتَهِ﴾ ..... ١٣٠ / ١	.....
فصل [في قوله تعالى: ﴿وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عَلَيْهِ﴾] ..... ١٣١ / ١	.....
* الباب الحادي عشر في ذكر المرتبة الثانية، وهي مرتبة الكتابة ..... ١٣٤ / ١	.....
أقوال المفسرين في آية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَحْشُبُ مَا قَدَّمُوا وَأَثْرَهُمْ﴾ ..... ١٣٥ / ١	.....

خلاف المفسرين في الكتاب المقصود في آية: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ..... ١٣٨/١
المراد بأم الكتاب في آية: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدِينَاتِ أَعْلَمُ حَكِيمٌ﴾ ..... ١٤١/١
أقوال المفسرين في آية: ﴿أُولَئِكَ بَنَالْهُمْ نَصِيبُهُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ ..... ١٤٢/١
أقوال المفسرين في آية: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الرَّبِّرِ﴾ ..... ١٤٤/١
الأحاديث الواردة في مرتبة الكتابة ..... ١٤٥/١
* الباب الثاني عشر في ذكر المرتبة الثالثة من مراتب القضاء والقدر، وهي مرتبة المشيئة ..... ١٤٧/١
منزلة المشيئة من التوحيد وتكذيب القرآن للمخالفين فيها ..... ١٤٧/١
بيان حقيقة الريوبية ..... ١٥١/١
الأحاديث الواردة في إثبات المشيئة ..... ١٥٢/١
الأيات والأحاديث الواردة في الإرادة ..... ١٦٢/١
فصل [الفرق بين المحبة والمشيئة وبين الخلق الأمر] ..... ١٦٥/١
الوجه الصحيح في آية: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهَلِّكَ قَرِيبَةً أَمْنَانًا مُّدَقَّبَهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ ..... ١٦٦/١
* الباب الثالث عشر في ذكر المرتبة الرابعة من مراتب القضاء والقدر، وهي مرتبة خلق الله سبحانهه الأعمال وتكوينه وإيجاده لها ..... ١٧٠/١
أقوال الطوائف في خلق أعمال العباد ..... ١٧٠/١
مناقشة قول ابن البارقي في قدرة العبد ..... ١٧٢/١
مذاهب الطوائف في مسألة: مفعول بين فاعلين، وخلق أفعال العباد ..... ١٧٣/١
بيان مذهب أهل السنة في المسألة ..... ١٧٧/١
دلائل من سورة الفاتحة على إثبات القدر ..... ١٨٠/١
مناقشة القدرة في النصوص الدالة على خلق أفعال العباد ..... ١٨٢/١

## الموضوع

### الصفحة

- فصل [من دلائل قدرة الله سبحانه على أفعال عباده: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ونظائرها]..... ١٨٤ / ١
- فصل [من دلائل قدرة الله سبحانه على أفعال عباده: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ طَلَالًا﴾، ونظائرها]..... ١٨٥ / ١
- فصل [من دلائل قدرة الله سبحانه على أفعال عباده: ﴿وَجَعَلَنَاهُ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى الْأَنْتَارِ﴾، ونظائرها]..... ١٨٦ / ١
- فصل [من دلائل قدرة الله سبحانه على أفعال عباده: إلهامه العبد فجوره وقواه]..... ١٨٧ / ١
- فصل [من دلائل قدرة الله سبحانه على أفعال عباده: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ الْأَطِيفُ الْخَيْرُ﴾]..... ١٨٨ / ١
- الخلاف في إعراب ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ ..... ١٨٩ / ١
- فصل [من دلائل قدرة الله سبحانه على أفعال عباده: ﴿رَبِّ أَجْعَلَنِي مُقْبِرَ الْأَصْلَوَةَ وَمِنْ ذُرْيَقَ﴾، ونظائرها]..... ١٩٠ / ١
- الجعل في كتاب الله ينقسم إلى نوعين..... ١٩١ / ١
- فصل [من دلائل قدرة الله سبحانه على أفعال عباده: ﴿وَلَكُنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمْ الْأَيْمَنَ﴾، ونظائرها]..... ١٩٣ / ١
- مناقشة القردية في دلالة: ﴿لَهُمْ أَخْرُجُ عَيْرَ مَقْنُونٍ﴾ ..... ١٩٥ / ١
- فصل [من دلائل قدرة الله سبحانه على أفعال عباده: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَخْسَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾، ونظائرها]..... ١٩٧ / ١
- فصل [من دلائل قدرة الله سبحانه على أفعال عباده: ﴿وَاجْبَنَيْ وَقَنَّ أَنْ تَسْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾، ونظائرها]..... ١٩٨ / ١
- فصل [من دلائل قدرة الله سبحانه على أفعال عباده: ﴿فَأَخْرَجَنَاهُمْ مِّنْ جَنَّتِهِنَّ وَعَيْنِهِنَّ وَكُنُزِّهِنَّ وَمَقَامِهِنَّ كَيْرِ﴾، ونظائرها]..... ١٩٩ / ١

## الموضوع

### الصفحة

- فصل [في ظن طائفه أن من هذا الباب قوله تعالى: ﴿فَمَرْتَ تَقْتُلُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَاتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾] ..... ٢٠٠ / ١
- فصل [من دلائل قدرة الله سبحانه على أفعال عباده: ﴿وَإِنَّهُ هُوَ أَحْسَنُ حَافِظٍ لِّأَيْمَنِكُ﴾] ..... ٢٠٠ / ١
- فصل [من دلائل قدرة الله سبحانه على أفعال عباده: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرِيقَ الْخَوْفَ وَطَمَعًا﴾ ، ونظائرها] ..... ٢٠١ / ١
- فصل [من دلائل قدرة الله سبحانه على أفعال عباده: ﴿وَالرَّزْمَهُمْ كَلِمَةُ الْشَّقْوَى وَكَانُوا أَعْجَبُ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾] ..... ٢٠١ / ١
- فصل [من دلائل قدرة الله سبحانه على أفعال عباده: ﴿إِنَّ الْإِنْسَنَ خُلُقُ هَلُوقًا﴾] ..... ٢٠٢ / ١
- فصل [من دلائل قدرة الله سبحانه على أفعال عباده: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُورًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنْوِعًا﴾] ..... ٢٠٢ / ١
- فصل [من دلائل قدرة الله سبحانه على أفعال عباده: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾] ..... ٢٠٢ / ١
- فصل [من دلائل قدرة الله سبحانه على أفعال عباده: ﴿وَكُلَّ إِنْسَنٍ أَرْتَمَهُ طَلِيفٌ فِي عُنْقِهِ﴾] ..... ٢٠٤ / ١
- أقوال المفسرين في آية: ﴿وَكُلَّ إِنْسَنٍ أَرْتَمَهُ طَلِيفٌ فِي عُنْقِهِ﴾ ..... ٢٠٤ / ١
- مناقشة القدرة في تفسير الآية ..... ٢٠٦ / ١
- فصل [من دلائل قدرة الله سبحانه على أفعال عباده: ﴿كَذَلِكَ شَلَّكُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ونظائرها] ..... ٢٠٦ / ١
- خلاف المفسرين في مفسر الضمير في قوله تعالى: ﴿شَلَّكُمْ﴾ ..... ٢٠٧ / ١
- فصل [من دلائل قدرة الله سبحانه على أفعال عباده: ﴿أَتَرَ تَرَأَّنَ أَزْسَلْنَا الشَّيْطَيْنَ عَلَى الْكَفَرِنَ تُرْزُهُمْ أَذًى﴾ ونظائرها] ..... ٢٠٨ / ١
- تفسير القدرة لقوله تعالى: ﴿تُرْزُقُمْ أَذًى﴾ ..... ٢١٢ / ١

## الموضوع

### الصفحة

فصل [من دلائل قدرة الله سبحانه على أفعال عباده: ﴿فَلَمَّا أَعْوَدْ يَرَى الْكَسَابِ﴾ ، ونظائرها].....	٢١٢/١
فصل [من دلائل قدرة الله سبحانه على أفعال عباده: ﴿وَاصْرِرْ وَمَا صَرَرْ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ ، ونظائرها].....	٢١٣/١
فصل [من دلائل قدرة الله سبحانه على أفعال عباده: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَبْلَهُ وَ عَنْ ذِكْرِنَا وَأَبْيَحْ هَوَانَهُ﴾ ، ونظائرها].....	٢١٤/١
فصل [من دلائل قدرة الله سبحانه على أفعال عباده: ﴿فَقَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عَدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَعَثْنَا اللَّهَ مِنْهَا﴾ ، ونظائرها].....	٢١٥/١
* الباب الرابع عشر في الهدى والضلال ومراتبهما، والمقدور منهمما للخلق وغير المقدور لهم.....	٢١٧/١
راتب الهدى في القرآن.....	٢١٧/١
فصل [بيان المرتبة الأولى].....	٢١٨/١
أقوال المفسرين في آية: ﴿خَلَقَ فَتَوَيَّ﴾ .....	٢١٨/١
فصل [في تقدير المخلوقات وهدايتها].....	٢٢٠/١
أقوال المفسرين في آية: ﴿وَالَّذِي قَدَرَ فَهَدَى﴾ .....	٢٢٠/١
فصل [صور من هداية النحل].....	٢٢٢/١
فصل [صور من هداية النمل].....	٢٢٩/١
فصل [صور من هداية الهدد].....	٢٣٥/١
الهدد وسيمان.....	٢٣٥/١
فصل [صور من هداية الحمام].....	٢٣٧/١
حكاية عن الجاحظ في رحمة الحمام .....	٢٤٣/١
حكاية عن الجاحظ في عطف الكلبة .....	٢٤٣/١

## الموضوع

### الصفحة

٢٤٤/١	صور من هداية الديك
٢٤٥/١	صور من هداية المكاء
٢٤٥/١	صور من هداية الشلوب
٢٤٦/١	صور من هداية الذئب
٢٤٧/١	صور من هداية القرد
٢٤٧/١	صور من هداية البقر
٢٤٧/١	صور من هداية الحمار
٢٤٨/١	صور من هداية الفأر
٢٤٨/١	صور من هداية طائر طويل المنقار
٢٤٨/١	صور من هداية ابن عرس والقنفذ
٢٤٩/١	فصل [تعلم العلاء من الحيوان أموراً تتفهمهم]
	أقوال المفسرين في آية: «وَمَا مِنْ ذَبَّةٍ فِي الْأَرْضِ لَا طَيْرٌ يَطِيرُ بِهِنَاحِيَهُ إِلَّا أَمْمٌ»
٢٥٦/١	من دلائل إتقان صنع الخالق في الحيوان
٢٥٨/١	فصل [في الرجوع إلى الكلام على الهداية العامة]
٢٦٠/١	مناقشة أقوال المفسرين في آية: «فَقَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، فَمَنْ هَدَى»
٢٦١/١	فصل [جمع القرآن بين الخلق والهداية]
٢٦٤/١	فصل [في المرتبة الثانية من مراتب الهداية: هداية الإرشاد]
٢٦٥/١	كيف تقوم حجة الله على أعدائه وقد منعهم من الهدى؟
٢٦٧/١	فصل [في المرتبة الثالثة من مراتب الهداية: هداية التوفيق]
٢٦٧/١	هداية التوفيق تستلزم أمرين
٢٦٨/١	

## الموضوع

## الصفحة

٢٧١ / ١ ..... تفسير ابن عباس في آية: ﴿إِكْلِ جَعَنَا مِنْكُ بِشَرَعَةً وَمَتَهَاجَّ﴾	٢٧١
٢٧١ / ١ ..... فصل [في إخباره سبحانه بالطبع ونحوه على قلوب الكافرين]	٢٧١
٢٧٢ / ١ ..... دعوى القدرة أن ذلك من المتشابه	٢٧٢
٢٧٤ / ١ ..... الموازنة بين تأويلات المتكلمين والملاحدة والباطنية	٢٧٤
٢٧٥ / ١ ..... تأويلات القدرة لآيات الباب	٢٧٥
٢٨٠ / ١ ..... فصل [في المرتبة الرابعة من الهدایة: الهدایة يوم القيمة]	٢٨٠
٢٨٠ / ١ ..... أقوال المفسرين في آية: ﴿وَالَّذِينَ قُتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَنَّ يُبَشِّلُ أَغْنَاهُمْ﴾	٢٨٠
٢٨١ / ١ ..... *	٢٨١
٢٨١ / ١ ..... الباب الخامس عشر في الطبع والختم والقفل والغلل والسد والغشاوة	٢٨١
٢٨١ / ١ ..... الحال بين الكافر وبين الإيمان، وأن ذلك مجعل للرب تبارك وتعالى	٢٨١
٢٨١ / ١ ..... ضلال القدرة والجبرية في آيات الباب	٢٨١
٢٨٣ / ١ ..... نقض شبه القدرة في تأويل آيات الباب	٢٨٣
٢٨٦ / ١ ..... تفسير آية: ﴿إِنْ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّكَ رَبِّكَ﴾	٢٨٦
٢٨٦ / ١ ..... فصل [توسيط بعض القدرة في نصوص الباب]	٢٨٦
٢٨٩ / ١ ..... فصل [قول طائفة أخرى من القدرة]	٢٨٩
٢٩١ / ١ ..... الجواب عن قولهم: لما أعرضوا عن التدبر أضيقت أفعالهم إلى الله	٢٩١
٢٩٣ / ١ ..... الجواب عن قولهم: لما بلغوا في الكفر إلى طريق الإيمان بالإلقاء عبر عن ترك الإلقاء بالختم	٢٩٣
٢٩٤ / ١ ..... التعليق على قولهم: لم خلق الله الخبيث؟	٢٩٤
٢٩٤ / ١ ..... الجواب عن قولهم: العثم هو شهادته سبحانه عليهم بأنهم لا يؤمنون	٢٩٤
٢٩٤ / ١ ..... الجواب عن قولهم: لا يلزم من الطبع أن يكون مانعاً من الإيمان	٢٩٤
٢٩٧ / ١ ..... فصل [لا يمتنع مع الطبع والختم حصول الإيمان]	٢٩٧
٢٩٨ / ١ ..... طائفتان ضلت في باب محو القدر وإثباته	٢٩٨

## الموضوع

## الصفحة

فصل [إذا جوّزتم أن يكون الطبع جزاء على الجرائم والإعراض السابق؛ فكيف يمكنكم طرد ذلك في الطبع السابق على فعل الجرائم؟].....	٢٩٩/١
فصل [بيان الأمور التي عوقب بها الكفار بمنعهم من الإيمان كالختم ونحوه].....	٣٠٠/١
أصناف الأمور التي عوقب بها الكفار.....	٣٠١/١
الرد على القائلين بالمجاز في لفاظ الطبع والمرض ونحوهما .....	٣٠١/١
وجهان في التبني الوارد في آية: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَلُ أَبْصَرًا﴾ .....	٣٠٢/١
معنى الختم والفرق بينه وبين الطبع.....	٣٠٤/١
معنى الأكنة والآيات الواردة فيها.....	٣٠٤/١
فصل [معنى الغطاء والأية الواردة فيه].....	٣٠٥/١
فصل [معنى الغلاف والأية الواردة فيه].....	٣٠٥/١
خلاف المفسرين في آية: ﴿قُلُّوا نَا غَلْفًا﴾ وال الصحيح فيها.....	٣٠٥/١
إن قيل: فالإضراب بـ «بل» على هذا القول الذي قوّيتموه ما معناه؟ .....	٣٠٦/١
فصل [معنى الحجاب والأية الواردة فيه] .....	٣٠٧/١
أقوال المفسرين في آية: ﴿جَحَابًا مَسْتُرًا﴾ .....	٣٠٧/١
فصل [معنى الران والأية الواردة فيه] .....	٣٠٨/١
فصل [معنى الغل والأية الواردة فيه] .....	٣١٠/١
الغل المانع من الإيمان في القلب، فكيف ذكر الغل الذي في العنق؟ .....	٣١١/١
الخلاف في مرجع الصمير في آية: ﴿فَهُنَّ إِلَى الْأَذْقَانِ﴾ .....	٣١٢/١
فصل [معنى القفل والأية الواردة فيه] .....	٣١٤/١
فصل [معنى الصمم والوقر والأيات الواردة فيهما] .....	٣١٥/١
فصل [معنى البكم والأيات الواردة فيه] .....	٣١٦/١
فصل [معنى الغشاوة والأية الواردة فيه] .....	٣١٧/١

الموضوع	الصفحة
فصل [معنى الصد والأية الواردہ فیه]	٣١٨ / ١
فصل [معنى الصرف والأیات الواردہ فیه]	٣١٩ / ١
كيف يلشم إنكاره سبحانه عليهم الانصراف والإعراض وهو منه؟	٣٢٠ / ١
فصل [معنى الإغفال والأیات الواردہ فیه]	٣٢٢ / ١
هل تضاف الغفلة ونحوها إلى عدم مشيئة رب أضدادها أم إلى مشيته لوقوعها؟	٣٢٢ / ١
كيف يكون عدم السبب المقتضي موجباً للأثر؟	٣٢٣ / ١
أقوال المفسرين في آية: «وكان أمراً رُفِطَ»	٣٢٣ / ١
فصل [معنى المرض والأیات الواردہ فیه]	٣٢٤ / ١
فصل [معنى تقليل الأفتدة والأیات الواردہ فیه]	٣٢٦ / ١
خلاف المفسرين في آية: «كَمَا لَمْ يُؤْمِنُ بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ»	٣٢٧ / ١
الأحاديث الواردة في تقليل الأفتدة	٣٢٨ / ١
فصل [معنى إزاغة القلوب والأیات الواردہ فیه]	٣٢٩ / ١
فصل [معنى الخذلان والأیات الواردہ فیه]	٣٣٠ / ١
ما ذنب الشاة إذا خلّى الراعي بين الذئب وبينها؟	٣٣١ / ١
حكاية عجيبة في رجل يفهم لغة الحيوان	٣٣١ / ١
فصل [معنى الإركاس والأیة الواردہ فیه]	٣٣٣ / ١
فصل [معنى التشبيط والأیة الواردہ فیه]	٣٣٤ / ١
جواب الطائف عن سؤال: أبعاثهم إلى طاعته تعالى طاعة له، فكيف يكرهها؟	٣٣٨ / ١
إن قيل: فهلا وفّقُهم للخروج الذي يحبّه؟	٣٤٠ / ١
إن قيل: فهلا جعل المحال كلها صالحة؟	٣٤٠ / ١

## الموضوع

### الصفحة

فصل [معنى التزيين والآيات الواردة فيه].....	٣٤٠ / ١
فصل [معنى عدم مشيئة الله والآيات الواردة فيه].	٣٤٢ / ١
هل يكون الفعل مقدوراً للعبد في حال عدم مشيئة الله له أن يفعله؟.....	٣٤٢ / ١
هل خلق الله لمن علم أنه لا يؤمن قدرة على الإيمان؟.....	٣٤٣ / ١
فصل [معنى إماتة القلوب والآيات الواردة فيه].....	٣٤٣ / ١
العلاقة بين أسماء الله وصفاته وبين ما يحبه ويرضاه.....	٣٤٦ / ١
فصل [معنى جعله القلوب قاسية والآيات الواردة فيه].....	٣٤٦ / ١
أنواع القلوب في القرآن.....	٣٤٧ / ١
علامات القلب المختب.....	٣٤٨ / ١
علامات قسوة القلب.....	٣٤٩ / ١
فصل [معنى تضيق الصدر والحرج والآيات الواردة فيه].....	٣٤٩ / ١
ما الأسباب التي تشرح الصدر، والتي تضيقه؟.....	٣٥٢ / ١
هل يمكن اكتساب هذا النور، أم هو وهمي؟ ..	٣٥٢ / ١
ما ذنب من لا يصلح؟ ..	٣٥٣ / ١
تأملات وأسرار في آية: ﴿فَمَنْ يُرِدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ فَيَشْرَحَ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ﴾ ..	٣٥٣ / ١
فصل [إذا شرح الله صدر عبده بنوره أراه حقائق الأسماء والصفات].....	٣٥٥ / ١
المشهد الأول من المعرفة بأسماء الله تعالى وصفاته ..	٣٥٥ / ١
المشهد الثاني من المعرفة بأسماء الله تعالى وصفاته ..	٣٥٧ / ١
* الباب السادس عشر ما جاء من السنة في تفرد رب تعالى بخلق أعمال العباد كما هو متفرد بخلق ذواتهم وصفاتهم ..	٣٥٩ / ١
نوع «ما» في آية: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ..	٣٥٩ / ١
شرح ألفاظ حديث الاستخاراة.....	٣٦١ / ١

## الموضوع

### الصفحة

٣٦٣ / ١	شرح ألفاظ حديث: «اللهم اهدني فيمن هديت» .....
٣٦٧ / ١	مناقشة قدرى في معنى حديث: «فَوَضَّأْتِ إِلَيَّ عَبْدِي» .....
٣٦٩ / ١	مسالك الطوائف في اجتماع القضاء والقدر، والأمر والنهي .....
٣٧١ / ١	الجواب الشافى في مسألة اجتماع القضاء والقدر، والأمر والنهي ..... العبد يسير إلى الله سبحانه بين مشاهدة مته عليه ونعمه وحقوقه، وبين رؤية
٣٧٦ / ١	عيوب نفسه وعمله وتغريبه وإضاعته .....
٣٧٨ / ١	محبة الله للتوبتين وأحاديث فضل التوبة والاستغفار .....
٣٨٥ / ١	العبد فقير إلى الله من كل وجه، ويكل اعتبار .....
٣٨٦ / ١	شكراً سبحانه مُستحٰق على عباده بجهة ربوبيته لهم .....
٣٨٨ / ١	سر مسألة الباب .....
٣٨٩ / ١	شرح حديث: «اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً» .....
	* الباب السابع عشر في الكسب والجبر ومعناهما لغة واصطلاحاً، وإطلاقهما
٣٩١ / ١	نفياً وإثباتاً، وما دلّ عليه السمع والعقل من ذلك .....
٣٩١ / ١	الكسب في القرآن على ثلاثة أوجه .....
٣٩٢ / ١	الفرق بين الكسب والاكتساب .....
٣٩٣ / ١	الجبر يرجع في اللغة إلى ثلاثة أصول .....
٣٩٤ / ١	معنى الجبار .....
٣٩٧ / ١	فصل [معنى الكسب عند القدرة والجبرية] .....
٣٩٨ / ١	خلاف الجبرية في معنى قدرة العبد .....
٤٠٠ / ١	قول الأشعري الأخير في قدرة العبد .....
٤٠١ / ١	النقل عن صاحب «النظمية» في قدرة العبد .....
٤١٠ / ١	مناقشة المؤلف لصاحب «النظمية» .....

## الموضوع

## الصفحة

مواضع إنكار الله سبحانه على من احتاج على محبته بمشيته في القرآن ..... ٤١١/١	٤١١
قول الأشعري والجمهور في التفريق بين المحبة والمشيئة ..... ٤١٣/١	٤١٣
الأصل الباطل الذي أنشأ القول باستواء الأفعال بالنسبة إلى الرب سبحانه ..... ٤١٥/١	٤١٥
جواب من نفي محبته وكراهته سبحانه لاستلزمهما ميل الطبع ونفرته ..... ٤١٦/١	٤١٦
إنكار أئمة السنة على تسمية خلقه سبحانه لأفعال عباده جبراً ..... ٤١٨/١	٤١٨
لفظ الجبر مجمل ..... ٤١٩/١	٤١٩
أوجه الفرق بين جبر الخالق وجبر المخلوق ..... ٤٢١/١	٤٢١
فصل [الطوائف كلها متفقة على الكسب، ومختلفون في حقيقته] ..... ٤٢٣/١	٤٢٣
هل يقال: إن الإنسان فاعل على الحقيقة؟ ..... ٤٢٤/١	٤٢٤
معنى الإحداث في النصوص واللغة ..... ٤٢٧/١	٤٢٧
أقسام ألفاظ الباب من حيث الإطلاق على الله تعالى ..... ٤٢٧/١	٤٢٧
معنى لفظ الموجد ..... ٤٢٩/١	٤٢٩
معنى لفظ المؤثر ..... ٤٣٠/١	٤٣٠
معنى الإنشاء ..... ٤٣٢/١	٤٣٢
أقوال العلماء في المراد بناشئة الليل ..... ٤٣٣/١	٤٣٣
معنى الجَعْل ..... ٤٣٥/١	٤٣٥
إطلاقات الفعل والعمل ..... ٤٣٦/١	٤٣٦
* الباب الثامن عشر في فَعَلْ وَفَعَلَ في القضاء والقدر والكسب، وذكر الفعل والانفعال ..... ٤٣٨/١	٤٣٨
أهمية تحقيق معاني الباب ..... ٤٣٨/١	٤٣٨
الرب تعالى فاعل غير مُفْعَل، والعبد فاعل مُفْعَل ..... ٤٣٨/١	٤٣٨
الآيات الواردة في الفعل والانفعال ..... ٤٣٩/١	٤٣٩

## الموضوع

### الصفحة

جواب اعتراض في الاستدلال بأية: ﴿فَلَمَّا رَأَيُوكُمْ أَرَأَيَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ ..... ٤٤٠ / ١	إن قيل: هل تطردون هذا في جميع أفعال العبد من المعاصي وغيرها، فتقولون: إن الله أفعله، وهو الذي فعل؟ ..... ٤٤٣ / ١	إن قيل: هل يمكن للعبد الامتناع من المعصية، وقد خلقت فيه نفسها أو أسبابها الموجبة لها؟ ..... ٤٤٦ / ١	مسالك القدرة والجبرية في خالق إرادة العبد وبيان المسلك الصحيح ..... ٤٤٨ / ١	خلاف الأئمة في طلاق السكران والغضبان ..... ٤٥١ / ١	* الباب التاسع عشر في ذكر مناظرة جرت بين جبرئيل وستي جمعهما مجلس مذاكرة ..... ٤٥٤ / ١	مناقشة قول الجبرى: القول بالجبر لازم لصحة التوحيد ..... ٤٥٤ / ١	بيان منافاة الجبر للشرع ..... ٤٥٦ / ١	بيان منافاة الجبر للخلق ..... ٤٥٦ / ١	مناقشة أقوى براهين الجبرى في إثبات الجبر ..... ٤٥٧ / ١	إلزم الجبرية بلازم باطل يدل على فساد برهانهم ..... ٤٥٩ / ١	أجوبة القدرة في مسألة حدوث الفعل عند القدرة والداعي ..... ٤٦١ / ١	ملخص أقوال المتكلمين في مسألة حدوث الفعل القدرة والداعي ..... ٤٦٢ / ١	فصل [مناقشة قول الجبرى: إذا كان الداعي ليس من أفعالنا، وهو عِلمُ القادر] ..... ٤٦٤ / ١	التحقيق في العلاقة بين قدرة العبد والسبب التام الذى يجب به الفعل ..... ٤٦٧ / ١	مناقشة قول الجبرى: إن انتهت سلسلة المرجحات إلى مرجح من الله يجب عنده الفعل لزم الجبر ..... ٤٦٨ / ١	فصل [مناقشة قول الجبرى: إذا صدر من العبد حركة معينة: فلما أن تكون مقدورة للرب وحده] ..... ٤٧١ / ١
--	--	---	---	--	---	---	---------------------------------------	---------------------------------------	--	--	---	---	--	--	--	---

## الموضوع

### الصفحة

أقوال الطوائف في العلاقة بين قدرة الرب وقدرة العبد في حركته ..... ٤٧١ / ١	٤٧١
مناقشة قولهم: كما لا يمتنع معلوم واحد بين عالميْن فلا يمتنع مقدور واحد بين قادرَيْن ..... ٤٧٣ / ١	٤٧٣
بيان الصواب في المسألة ..... ٤٧٥ / ١	٤٧٥
فصل [مناقشة قول الجبرى: لو كان العبد فاعلاً لأفعاله لكان عالماً بتفاصيلها] ..... ٤٧٦ / ١	٤٧٦
ما يصدر عن العبد من الأفعال ينقسم أقساماً متعددة، بحسب قدرته وعلمه وداعيه وإرادته ..... ٤٧٨ / ١	٤٧٨
الخلاف في أفعال المكرر ..... ٤٧٨ / ١	٤٧٨
فصل [في أفعال النائم] ..... ٤٨٠ / ١	٤٨٠
فصل [في أفعال زائل العقل بجنون أو سكر] ..... ٤٨١ / ١	٤٨١
فصل [في أفعال الغافل والساهي] ..... ٤٨٢ / ١	٤٨٢
فصل [مناقشة قول الجبرى: ضلال الكافر وجهله عند القدرى مخلوق له...] ..... ٤٨٢ / ١	٤٨٢
فصل [مناقشة قول الجبرى: لو جاز تأثير قدرة العبد في الفعل بالإيجاد لجاز تأثيرها في إيجاد كل موجود] ..... ٤٨٤ / ١	٤٨٤
فصل [مناقشة قول الجبرى: دليل التوحيد ينفي كون العبد فاعلاً، وأن يكون لقدرته تأثير في فعله] ..... ٤٨٥ / ١	٤٨٥
إعادة الكلام في مسألة مقدور بين قادرَيْن ومرجح الفعل ..... ٤٨٦ / ١	٤٨٦
مناقشة قول الجبرى: العبد لو كان فاعلاً لفعله لكان مُحدِّثاً له ..... ٤٨٨ / ١	٤٨٨
* الباب العشرون في ذكر مناظرة بين قدرى وسُنّى ..... ٣ / ٢	٣ / ٢
مناقشة قول القدرى: قد أضاف الله سبحانه والأعمال إلى العباد بأنواع الإضافة العامة والخاصة ..... ٣ / ٢	٣ / ٢